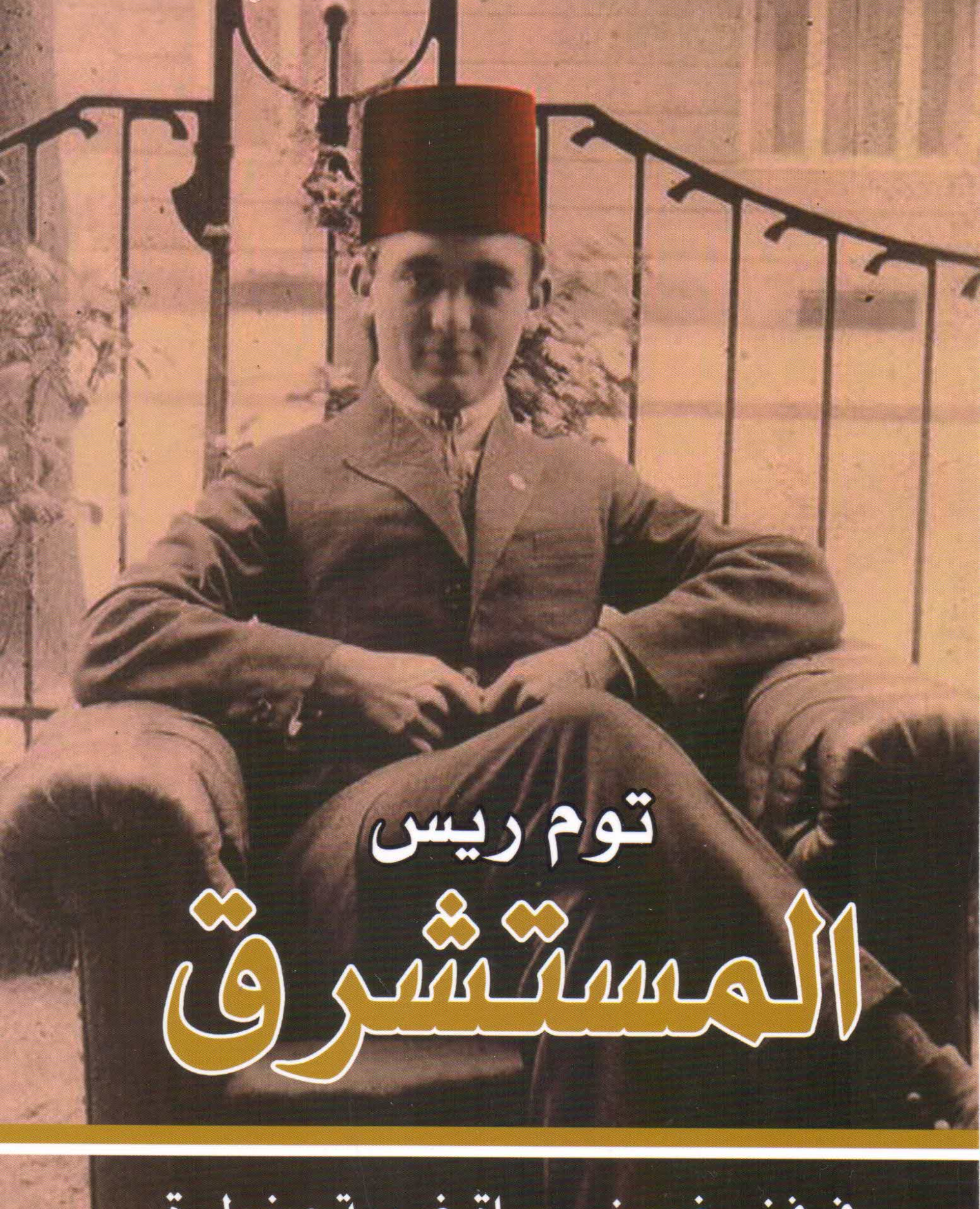


توم ريس

المستشرق

في فض غموض حياة غريبة وخطيرة

ترجمة: رفعت السيد علي

منشورات الجمل

هذا الكتاب

أسعد بيك كارهٌ للثورات. كانت كل ثورة سياسية بعد أخرى سابقة لها تتركه إنساناً بلا وطن، وطريداً وفاراً من كل أرض قرر أن يجعل منها موطناً. الناجي من الإرهاب البلشفي الروسي، يكره البلاشفة لأنهم شيعوا آبار نفط أبيه واستولوا على بيت عائلته في باكو وجعلوا منه مقراً لقيادة ستالين. ثم ضحية للإرهاب الألماني، وكره النازي لأنهم خربوا وحطموا دار النشر التي كانت تنشر كتبه في برلين، وأحرقوا كتبه التي كتبها عن روسيا دون حتى أن يدركوا أنه كان يكتب ضد البلشفية لا ضدهم. غير أن محمد أسعد بيك، وبغرابة شديدة، كان يزدهر وينتعش تحت وطأة الاضطهاد.





توم ريس: المستشرق

توم ريس

المستشرق

في فض غموض حياة غريبة وخطيرة

ترجمة: رفعت السيد علي

منشورات الجمل

توم ريس: المستشرق: في فض غموض حياة غريبة وخطيرة، الطبعة الاولى
ترجمة: رفعت السيد علي

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

Tom Reiss: *The Orientalist: Solving the Mystery of a Strange and Dangerous Life*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى لوليك
التي علمتني كيف أرتحل
وإلى جولي
التي تمنعني من الإيغال في الترحال
أتمنى أن تكونا قد التقتا

مقدمة

في اقتفاء أثر قربان سعيد

في صباح بارد من صباحات فيينا، سرت خلال شبكة معقدة من الدروب الضيقة في طريقي لمقابلة رجل وعدني بحل لغز قربان سعيد. كنت ما أزال بصحبة بيتر ماير مدير دار نشر «أوفرلوك»، وهو رجل جسيم طويل القامة يرتدي بزة قطنية مخملية سوداء وكان ينوي إعادة نشر رواية قربان سعيد الرومانسية القصيرة المسماة «علي ونينو». كان «ماير» ينجرف على الدوام إلى حديث حماسي متدفق ومنفرد عن الرواية: «تعرف أنك حين تنظر إلى لوحات فيرمير[1]؛ وأعماقها، وهدوئها الشديد، وبشكل ما، ما يفعله بالمنظور، وعلاقته بالضوء ستشعر أن موضوع اللوحة أكبر كثيرا مما تبدو عليه - هكذا أيضا تلك الرواية». كانت رواية غرامية تقع أحداثها في منطقة القوقاز مباشرة قبل اندلاع الثورة الروسية. نشرت رواية «علي ونينو» أول مرة بالألمانية عام ١٩٣٧، ثم رُوجعت ترجمتها ونشرت مرة ثانية في

(١) يوهانس فيرمير (١٦٣٤-١٦٧٥): رسام هولندي عاش في القرن السابع عشر، برع بشدة في تصوير الضوء واستخدامه بحساسية شديدة في لوحاته، ينسب له حاليا بيقين ٣٤ لوحة مع عدد آخر من لوحات مشكوك في نسبها إليه (المترجم).

سبعينيات القرن العشرين ضمن سلسلة من الكلاسيكيات الصغيرة الحجم. غير أن لغز هوية وشخصية كاتبها لم يحل أبدا. كل ما اتفق عليه الجميع أن اسم قربان سعيد لم يكن إلا اسما مستعارا لكاتب يحتمل أنه وفد من باكو، وهي مدينة نفطية تقع بالقوقاز، وأن ذلك الكاتب إما كان شاعرا وطنيا قتل في معسكرات العمل الإجباري الجماعي، أو كان ابنا ملفوظا لمليونير نفطي كبير، أو أحد أعضاء جماعات كتاب مقاهي فيينا مات في إيطاليا بعد أن طعن نفسه في قدمه ونزف حتى الموت. في طية الغلاف الداخلية لكتاب يسمى «الأسرار الإثنا عشر للقوقاز»، توجد صورة للمؤلف يرتدي فيها زي مقاتلي جبال القوقاز: قلنسوة من الفراء، ومعطفاً طويلاً فضفاضاً عليه حزام عريض من الكتف حتى الخاصرة المقابلة، به جيوب عديدة لطلقات الرصاص، وبحزام خاصرته خنجر في غمده. كنت أصحب ماير في طريقنا لمقابلة محام يدعى «هاينز بارازون»، الذي كان يختلف مع دار «أوفرلوك» حول هوية المؤلف الحقيقي وبالتالي حقوق عوائد النشر. كان بارازون يدعي أنه يعرف الشخصية الحقيقية لقربان سعيد، وكان بصفته محاميا يمثل ورثة الكاتب، يصر على وجوب التنويه عن ذلك في أي طبعات تالية لرواية «علي ونينو»، وإلا سيضطر لرفع دعوى قضائية لمنع نشرها. عند وصولنا لعنوان مكتب المحامي الذي وجدناه يقع بجوار محل فيه سيدات مسنات منكبّات على طاولة ويعملن بإبر حياكة وخيوط. دلفنا بسرعة إلى ممر متسخ الجدران. ضغط ماير على ذراعي بحماس قائلا «إنه الطرف الثالث». لم يخفف ظهور بارازون من توتر أجواء الحرب الباردة التي كانت بوادرها على الوجوه. كان بارازون ضئيل الحجم وصاحب صوت عميق جاد يشي بالخطورة، وظهر به بعض الانحناء، وتشوُّه في قدمه يصدر صريرا

عاليا من حذائه عند خطوه وهو يسير أمامنا ليقودنا إلى غرفة مكتبه عبر دهليز مغطى من الجانبين بأرفف مكتظة بالكتب. قال: «كلاكما تجشمتما كثيرا من العناء لاكتشاف هوية قربان سعيد، سوف يتضح لكما عاجلا كل ما خفي عنكما». قادنا إلى غرفة بها سيدة جميلة شقراء شديدة النحول تضع نظارات كبيرة الحجم مقارنة بوجهها الضئيل وكانت مستلقية بلا حراك على أريكة، قال بارازون: «معذرة، هذه ليلا». قالت ليلا: «أرجو أن تعذراني، فأنا مجبرة على الاستلقاء لأني مريضة. لا أستطيع الجلوس لفترة طويلة».

قفز بارازون إلى قلب الموضوع مباشرة دون مقدمات قائلا: «كتبت رواية على ونينو بقلم البارونة إلفريده إرنفلز فون بودمرزهوف، الزوجة الثانية لوالد ليلا، البارون عمر- رولف فون إرنفلز، وحين ماتت البارونة في بداية عقد الثمانينيات بعد زوجها، انتقلت كل الحقوق القانونية للرواية إلى ليلا.

أخرج بارازون ملفًا متخما بالأوراق والمستندات التي تدعم ما رواه: عقود نشر سابقة، مستندات قانونية، وقوائم بكتب المؤلف من أواخر عقد الثلاثينيات، مختومة بخاتم النسر النازي والصليب المعقوف. وتحت عنوان «قربان سعيد» في قسم التأليف عن الفترة من ١٩٣٥-١٩٣٩ وهو المقابل لدى الرايش عن القوائم الشائعة للكتب التي طبعت في تلك الفترة - وفي خانة اسم المؤلف مكتوب الاسم المستعار للبارونة إرنفلز، وهو فون بودمرزهوف، البارونة إلفريده».

كان من الواضح أن الوثائق النازية تحدد بوضوح وجلاء أن البارونة إلفريده هي صاحبة الاسم المستعار قربان سعيد - غير أني كنت أومن أن ذلك الجانب على وجه التحديد لا يمثل الحقيقة.

كنت قد بدأت أهتم بالتوصل لحقيقة هوية قربان سعيد من ربيع عام ١٩٩٨، حين ذهبت إلى مدينة باكو للكتابة عن طفرتها النفطية الجديدة وهي أول مظاهر الحياة التي عادت للمدينة منذ أن جعلت الثورة الروسية الزمن يتوقف بها عمليا عند تاريخ عام ١٩١٧. وباكو عاصمة أذربيجان، تلك الدولة الصغيرة، التي تفتخر بأنها تمثل أقصى شرق أوروبا، على الرغم من أن معظم الأوربيين لا يعرفونها. وقد يستولي على التصوّر عن أذربيجان حقيقة ملاصقتها لإيران وأن أغلب سكانها المسلمين من الشيعة حتى تكتشف أن أشد ما يجذب الأنظار في باكو من منشآت ضخمة ليس الجوامع الكبرى وإنما تلك النسخ المقلدة لصالات القمار الكبرى في مونت كارلو. باكو نوع من المدن التي تجاوزت الأيديولوجيات الجامدة المتصلبة والعقائد الدينية بآلاف السنين. ويقال إن اسمها مشتق من تعبير فارسي يعني «مهب الرياح»، لكونها في مقدمة شبه جزيرة صحراوية ناتئة داخل بحر قزوين، وفي الحقيقة، تعد باكو من أكثر المدن في العالم تعرضا لهبوب الرياح والعواصف - أحد المسنين البالغ من العمر سبعا وتسعين عاما قال لي إنه كان في شبابه، هو وأفراد عائلته، يضعون نظارات واقية من الرمال وهم بثياب السهرة عند التجول في شوارع المدينة حتى لا تعميهم الرمال المتطايرة مع الرياح.

وبالكاد، قبل أن أغادر إلى باكو، نصحني صديق إيراني بقراءة رواية قربان سعيد «علي ونينو» للتعرف من خلالها على المدينة وعلى القوقاز بوجه عام، ناصحا إياي بأن تلك الرواية ستكون أكثر عونا لي من أي مرشد سياحي. لم يكن لدي حتى ذلك الوقت أدنى فكرة عن تلك الرواية ولم أكن قد سمعت بها من قبل، ولما تصفحت دليل المنشورات لعام ١٩٧٢، اعترتني الدهشة من صورة الغلاف، كان

على الغلاف صورة حبيبين في مهب الريح وتعليق من مجلة لايف يقول «لو لم يتمكن قربان سعيد من إزاحة إريك سيجال من على قمة قائمة أفضل مبيعات الكتب فلن يتمكن أحد آخر من إزاحته»، غير أنه كان هناك ما بدا أنه شيء من القرن الثامن عشر، كما لو كانت رواية «كانديد»[١] قد كتبت من جديد بشخصيات واقعية وبغرض التأثير بقوة القارئ. كان كل مشهد يمضي محملا بما يكفي من تفاصيل تحرك آلية العمل دوما للأمام. كان ناقد صحيفة نيويورك تايمز قد اختتم تعليقه قائلا: «تخلق الرواية شعورا لدى القارئ لا يختلف عن شعور من يكتشف كنزا ثمينا فجأة أثناء الحفر».

تدور الرواية حول قصة حب بين فتى مسلم وفتاة مسيحية وتطور ونمو علاقتهما مع تقدمهما في العمر؛ في عالم أذربيجان القديم المتسامح ثقافيا، ويبدو أن علاقتهما كانت تلقى ترحيبا، رغم شجارهما الدائم، كانت تقول غاضبة: «علي خان، أنت أحمق. حمدا لله أننا في أوربا. لو كنا في آسيا لكانوا أجبروني على ارتداء النقاب من نعومة أظافري، ولم تكن لتتمكن من رؤيتي أبدا» ويرد عليها علي قائلا: «رفعت راية الاستسلام. فقد أتاح لي موقع باكو غير المعروف لدى أوروبا رؤية أجمل عينين في العالم».

على مدى تاريخ أذربيجان، غزاها الأسكندر المقدوني، والمغول، والعثمانيون، والفرس. وأخيرا تم حل معضلة موقعها

(١) كانديد أو المتفائل: رواية كتبها فولتير فيلسوف عصر التنوير في فرنسا عام ١٧٥٩، وهي تصور كانديد الذي يحيا في جنة عدن برعاية كفيله البروفيسور بانجلوس، ويحرم كانديد فجأة من الحياة في الجنة ويلقى مشاق ومصاعب جمة، يخلص فيها إلى أن على البشر أن يخلقوا جنتهم بأنفسهم. (المترجم).

الجغرافي «غير محدد الانتماء» حين استولى عليها الروس عام ١٨٢٥ . وأثناء حقبة التمدد القيصري في منطقة القوقاز، والتي سجلها ببراعة حية كل من ليرمونتوف، وتولستوي، وبوشكين، اكتشفت أوروبا باكو واكتشفت باكو أوروبا. واكتشف الجميع النفط، نفط غزير مذهل. لم يكن يتوجب على أحد في باكو أن ينقب عن النفط - فقد كان يطفو على أديم الأرض دون جهد من تلقاء ذاته، ويتجمع في برك سوداء، وفي بعض الأحيان يكون بحيرات كبرى من النفط، كان تدفقه الذاتي من باطن الأرض بالغ القوة في بعض الأحيان حتى أنه كان يغمر البيوت على سواحل بحر قزوين. ونمت المستوطنات النفطية على أطراف البلدة لتحيلها إلى مركز عالمي متنام لصناعة النفط - مزودا ما يزيد عن نصف بلاد العالم بالنفط الخام، ونجم عن ذلك ظهور مدينة باكو ابنة القرن التاسع عشر الرائعة التي شيدت من عوائد النفط: بقصور فريدة رائعة، وجوامع كبرى، ودور لهو عالمية، ومراقص ومسارح من الفترة التي كانت فيها المدينة موطنا لآل روتشيلد، والنبلاء، وعشرات من «بارونات النفط» المسلمين كما كان يطلق عليهم. منهم مير باباييف، المغني الشهير، الذي قضى باقي عمره بعد اكتشاف النفط في أرضه يستعيد اسطواناته الغنائية التي كان قد أصدرها ويدمرها لأنه ودَّ أن يتذكره الناس كملك من ملوك النفط لا كمغن. كان هناك أيضا حاجي زين الدين تاغييف الذي صنع ثروته حين ضربت الزلازل أرضه وفجرت من باطنها نفطا أغرقها؛ وشيد أول مدرسة للفتيات في العالم الاسلامي. واشتعلت حمى البناء بالمدينة، فتداخلت القصور المورسكية بالقصور القوطية واختلطت القباب البيزنطية بأروقة الروكوكو المسقوفة. أما السكان المحليون فقد تقمصوا الشكل الأوربي المتحضر في ملبسهم كـ«مسلمين معاصرين»

حتى جاء الوقت الذي قرر فيه البلاشفة أن أهل المدينة ليسوا إلا بورجوازيين عفنين واجتاحوها وسحقوا كل سكانها.

غير أن نفط باكو غذى كل خطط ستالين الخمسية، وأثناء الحرب العالمية الثانية تاق هتلر بقوة للاستيلاء على نفط باكو حتى أنه أعاد تعديل خطط كل حملته على روسيا للاستيلاء عليه. وفي سبتمبر من عام ١٩٤٢ أهداه جنرالاته كعكة هائلة الحجم على شكل خريطة القوقاز. وتظهر النشرة المصورة التي سجلت لتلك المناسبة الفوهرر وهو يقتطع جزءا من الكعكة الكبيرة يضم باكو وهو يصيح في قادة جيوشه: «إن لم نستول على نفط باكو سنخسر الحرب»، حتى أنه ضحى بالجيش الألماني السادس بأجمعه على أعتاب ستالينغراد دون أن يعيد توجيه فيلق واحد إلى خارج القوقاز لدعمه. لو كان الألمان قد نجحوا في الاستيلاء على باكو، لكانت جيوش النازي قد هيمنت على أعظم مستودعات احتياطي الطاقة في العالم - فضلا عن كونها أعظم موقع استراتيجي في المنطقة بأسرها، حيث تشكل أرض أذربيجان المعبر الرابط بين أوروبا وآسيا - مع حرمان الاتحاد السوفياتي من نفط باكو، كان النازيون سيكسبون الحرب بلا جدال. وبدلا من تحقيق انتصار سوفياتي على جبهات أخرى، أدى التركيز السوفياتي على باكو إلى هزائم للسوفيات على جبهات أخرى عديدة، كانت الهيمنة على نفط باكو مسألة حياة أو موت لكل الفرقاء. وبعد أقل من ثلاثة أعوام، كانت الفيالق الروسية المدرعة المزودة بنفط باكو تقتحم مداخل برلين ذاتها.

وبعد عام ١٩٤٥، وعوضا عن مكافأة الأذربيجانيين على تزويدهم لآلة الحرب الروسية بالنفط حتى تحقيق النصر، تبين للأذربيجانيين أن كثيرا من مواطنيهم قد تم نفيهم قسرا إلى سيبيريا وتركت صناعة النفط

في باكو تحت وطأة الوهن والاضمحلال. عن عمد أهمل السوفيات مدينة الطفرة النفطية، ودفعوا بها دفعا لغياهب النسيان، فتحولت إلى مدينة مهجورة وغامضة، حتى أنه كان يمكن للمرء أن يتخيل باكو في تلك الأيام وكأنه يتجول في أحد أحياء ضفة النهر اليمنى المهجورة في باريس، لو هجرها سكانها لسبب غامض.

كان مرشدي في باكو يدعى فؤاد أخوندوف وهو شاب مفتول العضلات قوي البنية ويعمل أيضا كوكيل للإنتربول (الشرطة الدولية)، ولكنه كان يقضي جل وقته في استكشاف ماضي مدينته الخفي. ولد فؤاد أخوندوف بباكو في العهد السوفياتي، وكان دائم التساؤل والتعجب عن الثقافة المندثرة التي شيدت تلك القصور المهجورة والمتهاوية من الإهمال الذي يحيط بها من كل جانب، لذلك راح يتفحص بتعمق تاريخ المدينة ويسعى لمعرفة ما خفي عليه منه، راح يبحث في تاريخ تلك القصور من قصر لآخر، ومن بيت لبيت. كان من الواضح أن فؤاد يعرف تاريخ قصور باكو مثلما يعرف أعضاء عائلته. قال لي ونحن نتجول بسيارته الروسية المتهالكة في أرجاء المدينة: «دخلت تلك الصروح الكبرى سائلا كل من أجده بها عما إذا كان يعرف أحدا من نسل من شيدوها، وبصفتي أعمل بالشرطة، فأنا أدرك أن الناس الذين يظنون أنهم لا يعرفون شيئا يمكن في الغالب أن أستخلص منهم رغم ذلك معلومات ثمينة، لذلك لجأت إلى استعمال فنون الاستجواب والاستنطاق الشرطي، محفزا من التقيه على تذكر أي شيء يكون قد سمعه من أجداد أو آباء على مر الأعوام الماضية». كان فؤاد يتحدث بإجادة لغة إنجليزية كلاسيكية جعلت أسلوبه يبدو إلى حد ما مثل لغة روايات القرن التاسع عشر، فحين كان يضطر لتركي للذهاب لشأن ما يخصه، كان يقول على سبيل المثال: «خادمك

المتواضع يرجوك أن تسمح له بالمغادرة، لأن عليه أن يتواجد في بعض الشؤون الشرطية».

حين كنا نزور حصون باكو القديمة المنتمية للقرون الوسطى، وقصور باكو المنتمية للقرن التاسع عشر، ومعابد زرادشتية، وحدائق قصور تبدو كأنها برزت لتوها من حكايات ألف ليلة وليلة، كان من النادر أن يتوقف فؤاد عن الكلام. كان يقول: «من هنا يمكنني أن أرى عالمي، الجدران العظمى لحصون المدينة القديمة، وحطام القصور، والنصوص العربية على بواباتها»، كان يتحدث بانفعال عاطفي مفرط: «خلال متاهات الشوارع كانت قوافل الجمال تمضي، كانت كواحلها رقيقة حتى أني كنت أود أن أداعبها. ويرتفع أمامي في الميدان برج العذراء، يحيطه السائحون ومرشدوهم. ومن خلف البرج كان البحر يبدأ، بلا سطح واضح، رصاصي اللون، بحر قزوين الذي لا يمكن سبر غوره، ومن خلفه، الصحارى - بصخورها الخشنة، ونباتاتها القزمية: هامدة، بلا صوت، لا يمكن قهرها، وتشكل أجمل مشهد على سطح الأرض».

أستغرق الأمر مني بعض الوقت حتى أكتشفت أنه يستعير نصوص وصفه البلاغي من نصوص روايات قرأها، وأن الفقرة التي سردها كانت مستعارة من رواية «علي ونينو».

مجرد رائحة الهواء في أماكن معينة من المدينة كانت تدفع فؤاد للانطلاق مقتطفا ومستعيرا فقرات من الرواية، وكنا في أغلب الأوقات نتوقف أمام بعض المباني القديمة التي بنيت على الطراز الإمبريالي لفيينا في عصر الإمبراطورية النمساوية - رغم وجود فتحات قبيحة حديثة في الحيطان تمت في العصر السوفياتي لوضع صور جدارية لشخصيات سياسية سوفياتية سياسية بارزة -، كان حينها يقول

كما لو كان يصف حدثا من أحداث التاريخ: «هذي هي مدرسة البنات التي رأى عليٌّ نينو عندها لأول مرة وهو بصحبة ابن عمه عايش، يمكنك أن تتيقن من صحة ذلك من مكان الباب الذي يبعد حوالي أربعمائة خطوة عن الباب الأصلي لدار الرياضة الروسية القديمة للشباب والتي دمرت أثناء الحرب البلشفية في عام ١٩١٨...».

كان المشهد يماثل حرفيا تلك الأماكن المقبضة التي كثيرا ما قرأت عن مثيلاتها في روايات تشيكوف أو بوشكين، غير أن حب فؤاد لرواية «علي ونينو» بدا على نحو مغاير تماما، كان يقول: «تلك الرواية دفعتني لاكتشاف بلدي، ودفعتني لاكتشاف العالم بأجمعه الذي يمتد من تحت قدميَّ، والذي دفن على أيدي النظام السوفياتي». أخبرني ذات ليلة وكنا نجلس حينها في المقر الخاوي للإنتربول في الثالثة صباحا: «هذه الرواية الغرامية وحدها فقط - مثل رواية روميو وجولييت، تشمخ وتطاول في قيمتها الطفرة النفطية، غرام بين فتاة مسيحية وفتى مسلم، وهي تمزق كل الغلاف الميت الذي أحاط بي مثل الأكفان أثناء مراحل نموي هنا في باكو في العهد السوفياتي، مثل أكفان دفن الموتى التي تطيح بها أشد الأحداث الغربية الدموية الشرسة المماثلة، تخيل تأثير تلك الثورة البلشفية القاسية وغير الإنسانية، والتي هبت على هذا العالم الرائع من ثقافة وتطلع إنساني - تطلعات الاندماج الكلي بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق في شكل فريد وجديد - والذي كان قد بدأ في التخلق فعلا ولكن لفترة وجيزة من الزمن. هل بقدرتك أن تتخيل ذلك؟». قال فؤاد: «يماثل قربان سعيد مراحل حياتي. وبدونه، لكنت قد ظللت هنا حبيسا في مدينتي غير قادر بالفعل على الإحساس أو تفهم الجمال المقترن بالقوى المأساوية القابعة هنا تماما أسفل طرف أنفي».

كان استحواذ رواية علي ونينو على فؤاد لا يقتصر عليه وحده، فقد كان يماثله في ذلك كثير من أهل باكو. كان المتعلمون من الأذريين الذين التقيت بهم يعتبرونها رواية قومية، ويقولون لي إن بإمكانهم أن يصحبونني إلى الشارع، والميدان، والمدرسة التي وقعت فيها على وجه التقريب أغلب أحداث الرواية. كان هناك نوع من إحياء الاهتمام في عقد التسعينيات بتلك الرواية العاطفية القصيرة التي وقعت أحداثها في أواخر عقد الثلاثينيات، على الرغم من أن أحداً لم يكن يعرف على وجه الدقة لماذا تزايد الاهتمام بها مجددا بعد مرور كل ذلك الزمن. اتصلت بمنتج أفلام إيراني وكان يسكن بجناح فاخر بقصر قديم تداعت بعض أجزائه، وشرح لي خططه لتحويل الرواية لفيلم سينمائي (وحين لم يجمع الأموال الكافية، قام عوضا عن ذلك بانتاج مشاهد سينمائية في باكو لأفلام جيمس بوند). وفي يوم آخر قمت بزيارة الجمعية الثقافية القومية، وكانت بمبنى قديم من عصر ستالين، وأغرقني رئيسها في تفاصيل التنازع والجدل الذي لا ينتهي بين الأذريين الأكاديميين والدوائر الحكومية حول حقيقة هوية مؤلف الرواية، قال لي إن حقيقة شخصية قربان سعيد ظلت على مدى الزمن موضعا لجدل وعدم يقين بل وتخمينات متضاربة جامحة، غير أن تلك المشكلة قد تم حلها مؤخرا لحسن الحظ: فقد كان قربان سعيد اسما منتحلا لجوزف وزير، وهو مؤلف أذري، ظل أبناؤه يبذلون أقصى جهدهم للتأكد من أن ذاكرة أبيهم مازالت بخير، على الأقل حتى يتم تكريمه كروائي أذربيجان القومي.

ولكن بعد حصولي على نسخة من القصص القصيرة والروايات التي كتبها وزير، انتابتني الدهشة لإمكان أن يوجد أحد على ظهر الأرض يمكن له أن يصدق ذلك الادعاء. كان من الواضح من كتاباته

أنه قومي أذري شديد العاطفة ترسخ رواياته بوضوح أن الاختلاط العرقي والثقافي ليس إلا من الأفكار الفاسدة المستهجنة التي لا تلقى قبولا لديه ولا تعد إلا خيانة للوطن الأم. أما في رواية «علي ونينو» فلا يقدم الكاتب شيئا إلا تحبيذا وقبولا وتعاطفا قويا يصل لحد تبني الاختلاط العرقي والثقافي والديني بل ويحض عليه. أكثر الفقرات دفئا في رواية «علي ونينو» تصف منطقة القوقاز الدولية عشية الثورة البلشفية - حين كانت تتبارى كثير من الأجناس والأعراق وكل أبناء الأديان المختلفة في معارك شعرية ودية في ساحة السوق - كان من الواضح أن الرسالة التي أراد الكاتب توصيلها للقارئ أن الفصل بين البشر ليس إلا دافعا كريها ومقيتا.

بعد ذلك ببضع ليال، حين كان من المفترض أن أكون بأحد المراقص بصحبة حفنة من الشباب العاملين بالنفط من لندن وموسكو، أقنعت فؤاد أن يسمح لي باستخدام مكتب الانتربول لمقابلة أحد الأخوة فيزيروف. كان ذلك الأخ قد ذهب إلى أبعد مدى ليمثل أمام البرلمان الأذري مصرا على أن أباه جوزف وزير هو كاتب رواية «علي ونينو» وأن مشاهد الحب بين الأعراق المختلطة في الرواية لم تكن إلا ترجمة محرفة وخبيثة لعمل والده الأصلي. كان لديَّ أمل غامض أن يعينني جو غرفة الاستفسار والاستجواب على التوصل للحقيقة؛ غير أن لقائي بذلك الشخص الأصلع الجاد الذي كان يرتدي بزة رمادية منسدلة على النمط السوفياتي لم يفض إلا إلى إبرازه أكواما من الوثائق راح يقدمها لي في عرض متواصل ولم يكن أي منها يثبت شيئا غير أن أن كل مواطن في باكو كان يسعى لإثبات أن الرواية تخصه لأسباب شخصية تخص كلاً منهم.

حتى مقدمة النسخة المترجمة التي كانت بحوزتي لم تُجدني نفعا،

فقد ذكر في تلك المقدمة أن: «قربان سعيد ليس إلا اسما مستعارا ولا يعرف أحد على وجه اليقين الاسم الحقيقي للرجل الذي اختار هذا الاسم المستعار... كان بالانتماء الوطني من التتار [وقد مات].... أين؟ وفي أي ظروف؟ لا أعرف، ولا أظن أن أي أحد يعرف».

أينما ذهبت وحللت، كان يلاحقني قربان سعيد. الكتاب الوحيد باللغة الإنجليزية الذي وجدته في محل لبيع الهدايا في فندق «باكو حياة ريجنسي» حيث كنت أقيم كان بغلاف ورقي متسخ بعنوان: «الدم والنفط في المشرق». على الغلاف صورة بلون بنّي حائل لبئر نفط في بحر قزوين وبضعة رجال يرتدون قلنسوات من الفراء، وتقول الفقرة المصاحبة للصورة إن الكتاب لمؤلف رواية «علي ونينو» ومكتوب على الغلاف أن اسم المؤلف «أسعد بيك»، وتحته وبين قوسين كتب اسم «ليف نوسيمباوم»، ماذا حدث لقربان سعيد؟ كانت هناك كلمات في المقدمة لباحث أذري حاول فيها فض بعض الغموض:

«أسعد بيك» الذي يقص هذه الحكايات في هذا الكتاب تحول بالفعل إلى اعتناق اليهودية وتسمى باسم ليف- نوسيمباوم... وانتقل بعدها إلى برلين حيث انضم إلى جماعة من المفكرين والمثقفين الألمان، وفي بداية عقد الثلاثينيات انتقل إلى فيينا. وبالفعل، نشر روايته «علي ونينو» باسمه المستعار: قربان سعيد.... وفي عام ١٩٣٨ حاول الفرار من حصار الاضطهاد النازي الألماني. وسرعان ما تم اعتقاله وترحيله إلى إيطاليا. وهناك، وفي عام ١٩٤٢، طعن نفسه في قدمه ومات على أثر تلك الإصابة.

تشككت بالطبع في أن يقدم أي أحد على اعتناق اليهودية والانتقال إلى ألمانيا بالذات في أواخر عقد العشرينيات. ولكن لماذا

يغير هذا «الأسعد بيك» اسمه إلى ليف نوسيمباوم ثم إلى قربان سعيد مرة أخرى؟ هل يمكن أن تكون رواية أذربيجان القومية قد كتبها بالفعل شخص ما يدعى نوسيمباوم؟ وما علاقة كل من الاسمين بقربان سعيد؟ كان كتاب «الدم والنفط في المشرق» يحمل عنوانا فرعيا يقول «صناعة النفط والتجارة في أذربيجان» - وكان من الصعب تخيل أن ذلك الكاتب هو ذات المؤلف الذي كتب «علي ونينو».

ولكني لاحظت بعد ذلك تماثلات غريبة بين الرواية وكتاب النفط - بين مباريات ومنافسات قروية لشعراء يتنافسون بالشعر، حيث تجد في حلقات التنافس المتسولين مع الأرستقراطيين، والمسيحيين والمسلمين، يلتقون في يوم محدد متفق عليه ويلقون قصائدهم الساخرة المحقرة للأطراف الأخرى من الخصوم والمقللة من شأنهم، يتعرقون ويسبون ويلعنون الطرف الآخر حتى يتم إعلان اسم الفائز. (في الرواية، يبصق الفائز حين يسأل عن شعوره بعد فوزه: «لا يوجد منتصر يا سيدي، في الأزمان السابقة كان يوجد منتصرون. ففي تلك الأيام كانت للفنون منزلة عالية رفيعة»). وعلى الرغم من أن أسلوب القص في الرواية أكثر يقينا، كان أسلوب القص الأذربيجاني لأسلوب الحياة في أذربيجان ما قبل الثورة البلشفية حيا وحميميا في الكتابين. وزاد من حميميتهما حقيقة أن تلك القرى التي ينتمي إليها الشعراء المتبارون كانت تقع في ناجورنو كاراباخ - وهي منطقة دمرت في التسعينيات بسبب حرب اشتعلت بلا نهاية بين المسلمين والمسيحيين حول الحدود، وشملت أسلحة الصراع كل ما يمكن أن يقتل ويدمر عدا الابتسامات والاستعارات والكنايات الشعرية المرحة التي كانت سائدة بينهم قبل ذلك.

ذات يوم، ونحن نتجول في أرجاء بقايا القصر الكبير لتيمور بيك أشوربيكوف ببئر سلّمه الذي تقشرت وتساقطت بعض نقوشه الجصية البارزة على شكل عذراوات وصبايا، سألني فؤاد إن كنت أود أن ألتقي بابنتي صاحب القصر الأصلي - وكانتا كل من بقي على قيد الحياة من عائلة أشوربيكوف، سارة وميريام (وأصبح اسم العائلة حاليا أشوربيلي، حيث قررت الحكومة الأذرية التي تولت الحكم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في أذربيجان تَرْكَنة كل الأسماء). وبعمريهما البالغ على التوالي اثنين وتسعين عاما وأربعة وتسعين عاما كانتا وحدهما كل من بقي على قيد الحياة من سلالة ذلك المليونير وظلتا تعيشان في باكو، ظننت أننا سوف نجدهما هنا في القصر في بعض الأماكن الصالحة للمعيشة به، ولكن بدلا من ذلك عدنا للسيارة البيضاء الصغيرة وقاد بنا فؤاد إلى مبني مقبض ينتمى للحقبة السوفياتية، حيث صعدنا على سلالم خلفية وأقتادنا أصغر أبناء ميريام الأخت الكبرى إلى شقة صغيرة. كانت أختها سارة تجلس بانتظارنا بجوار وعاء شاي وعلبة لقطع الشيكولاته مغلفة بغلالات من الأتربة. كانت المكتبة الفارهة للشقيقتين قد تقلصت إلى فراغ معيشي صغير وضعتا فيه غسالتهما، وخزانة ملابس، وطاولة طعام، واثنتي عشرة هرة. وبالرغم من معارضتهما للسلطة السوفياتية قبل انهيارها، تمكنتا من شغل مناصب في مهن مهمة: فقد كانت ميريام جيولوجية، وكانت سارة من كبار مؤرخي أذربيجان في العصور الوسطى.

متحدّثتين إليّ بالألمانية والفرنسية اللتين تعلمتاهما من صغرهما، راحت الشقيقتان تستدعيان ذكرياتهما قبل الثورة البلشفية. ذكرتا لي كيف كان أبوهما يدعو الناس من مختلف الجنسيات ومن مختلف الطبقات الاجتماعية إلى قصره، مفضلا التعرف إلى صفوة من المثقفين

والمتعلمين أكثر من أولئك الذين يتمتعون بمراكز اجتماعية وطبقية مرموقة، على الرغم من انتمائه لعائلة ثرية (كانت عائلته قد قامت بتمويل بناء جامعين من جوامع مدينة باكو الكبرى الأربعة).

راحتا تُريانني أكواما من الصور الفوتوغرافية مغلفة بغبار الزمن - رجال بطرابيش وملابس سهرة في طريقهم لحضور حفلات بالأوبرا، جمال تسير في الطرقات إلى جوار سيارات رولزرويس فارهة - وراحتا تصفان دوائر الصداقات الواسعة التي تمتع بها والدهما، ففي الكريسماس، يجتمع المسيحيون، والمسلمون، واليهود، وكل أبناء الطبقة الرأسمالية، ويختلطون في ممارسة ألعاب احتفالية ولهو صاخب. كان أشوربيكوف في الغالب مبهورا بالثقافة الأوربية ويعلي من قدرها. وتذكرت بناته مدينتهم باكو كمدينة يرشح الإسلام وعبق المشرق بها من خلال عدسات أوربية متعددة الثقافات يجلوها أبوهم من حين لآخر برحلات إلى غرب أوروبا.

قالت سارة: «كان أبي يعمل في أغلب الأوقات، ولكنه كان دائما ما يقول لأمي: خذي البنات واذهبي لأوروبا». أرتني صورة لها يحيط بها أطفال شقر يرتدون أزياء ألمانية.

قالت: «هذي أنا في مدينة بادن بادن عام ١٩١٣. كنت بالكاد قد فزت في مسابقة للجمال، وبدأت أختي ميريام في البكاء وهي تقول لأمنا: ولكنك كنت على الدوام تقولين لي إنني أجمل فتاة، فكيف تفوز سارة؟ وترد أمنا قائلة: لأنك ما زلت صغيرة جدا، حين نأتي في العام القادم ستفوزين أنت. ولكن العام التالي كان بداية الحرب العالمية الأولى، ثم أتى البلشفيك بعد ذلك، ولم يذهب أي منا إلى أوروبا بعد ذلك أبدا».

استلت آخر صورة فوتوغرافية، وكانت صورة جماعية لآخر حفلة

كريسماس احتفلت بها العائلة، عشية اشتعال الحرب العالمية العظمى الأولى. كان إصبع سارة النحيل المتعظم يشير إلى الوجوه بالصورة في حين كانت شقيقتها تستل أسماء أصحاب تلك الوجوه من ذاكرتها، وجنسياتهم، ودين كل طفل في الصورة، كانوا أطفال بارونات النفط في ذلك الوقت، ومن يعملون في التنقيب عنه، مختلطين بأبناء الخدم على السواء دون تفرقة - أذريون، وأرمينيون، ومسلمون، ويهود، ألمان، وفرنسيون، وروس - وماحدث لكل منهم بعد غزو الجيش الأحمر لباكو عام ١٩٢٠ : البنت الجميلة ذات الخدود الحمراء بغطاء رأسها الغجري الواقفة بالصف الثاني في الصورة، الولد الطويل ممشوق القامة ذو الملامح الهندية والمرتدي زي القوزاق في الخلف بجوار شجرة، وولد أشقر صغير في حلة محبوكة على جسمه والذي يحتمل أنه كان من طبقة النبلاء، على الرغم من عدم قدرتهم على رؤية وجهه بوضوح. ثم، في وضع الجلوس في منتصف الصورة، في الصف الثالث، كان هناك ولد صغير كبير الأذنين يبدو عليه العناد والجرأة والتعبير المباشر عن الذات، يحملق مباشرة باتجاه آلة التصوير، ذراعاه متربعتان على صدره، ويرتدي سترة من القطيفة مزررة فوق صديرية تماثل صديريات اللوردات.

قالت سارة: «هذا هو الصغير ليوفا نوسيمباوم »، وأومأت شقيقتها برأسها مبتسمة، متذكرة وقائلة: «كان ولدا يهوديا يصغرنا بعامين».

تساءلت مندهشا وأنا أتذكر الاسم الذي كان على كتاب النفط والدم: «حقا؟ هل أنتما متأكدتان من أن اسمه كان ليوفا - وهو الاسم الروسي لـ«ليف»- نوسيمباوم؟ أكان ذلك اسمه بالضبط فعلا؟»

قالت: «نعم، ليوفا . . ، ليوفا . . . ، الصغير ليوفا نوسيمباوم، كان

الأذكى من بين كل الصبية، صبي يهودي في غاية الذكاء وكان أبوه رجل أعمال من أثرياء المدينة. لم تكن لديه أم أبدا، وحاولت العائلة تعويضه عن ذلك. كان لطيفا جدا كما كان مهذبا، ومن طفولته المبكرة كان يتحدث الألمانية بطلاقة. فقد كانت مربيته سيده ألمانية على ما أعتقد».

علّق فؤاد: «يحتمل أنها كانت من ألمان البلطيق، فقد كان من الشائع في ذلك الوقت الحصول على مربيات من ألمان البلطيق - وكذلك مربيات فرنسيات». لاحظت بالصورة وجود سيدتين ممتلئتين علي الجانبين تحفان بالصبية. سيدتان خشنتا الملامح في أزياء سهرة تلائم المناسبة.

قالت الأخت الكبرى: «لقد رحل عن باكو، وسمعنا بعد ذلك أنه مات في إيطاليا».

سوف أكتشف بعد ذلك أنه في تجواله في أنحاء العالم بعد أن رحل عن باكو قد أصبح رجلا شهيرا سواء تحت اسم ليف نوسيمباوم، أو «أسعد بيك» أو قربان سعيد في دول أوربا والولايات المتحدة، وكاتب الكتاب الذي حقق أعلى المبيعات تحت عنوان «القيصر وستالين»، كما كان الرجل الأشهر على صفحات صحف التابلويد في نيويورك ولوس أنجلوس. حين وصل على متن إحدى السفن إلى نيويورك عام ١٩٣٥، نشرت صحيفة التايمز قصة عن ذلك الموضوع تحت عنوان: «كاتب سير القياصرة هنا: «أسعد بيك» يعلن أنه كان حاكما غير مفهوم». عاش في برلين في عشرينيات القرن الماضي، مرتحلا مع كوكبة من مشاهير المنفيين الروس ومنهم باسترناك والأخوة نابوكوف، وكان من الشخصيات الشهيرة في

مجتمعات فيينا، ونيويورك، وهوليوود في الثلاثينيات. ولكن حتى في أثناء حياته، لم يعرف أي أحد على جانبي المحيط الأطلنطي بشكل محدد هويته أو كيف يكتبون عن حياته الماضية. أما تروتسكي، فقد كتب لابنه من منفاه في عام ١٩٣١ متسائلا: «من هو أسعد بيك هذا؟».

من خلال مراجعة المراسلات والمخطوطات، وسجلات الشرطة الفاشية في روما، ومدونات محفوظة في قلعة من القرن الرابع عشر في النمسا، وقصر للفنون في تلال هوليوود مشيد على ذلك الطراز الحديث الذي ظهر ما بين ١٩٢٥ و ١٩٤٠، ذلك الذي يتميز بجرأة الألوان واستخدام الزجاج والبلاستك - حيث يبدو كل شيء وكأنه «بلغة أجنبية» الذي انبثق فجأة على أيدي المهاجرين الجدد - من خلال كل تلك المراسلات والوثائق والمخطوطات، ولجت التيه المثير للفضول لحياته، ولجت ذلك العالم المنسي في أعتم لحظات القرن الماضي. وسرعان ما أسقطت التساؤل حول ماهية قربان سعيد أو من كان «أسعد بيك» لصالح تساؤل آخر أشد تعقيدا وإلغازا: من هو ليف نوسيمباوم؟ كان ذلك هو اسمه الحقيقي، الإسم الذي ولد به، وكما اكتشفت بعد ذلك - عن ذلك الكاتب الذي اتهم بتحويل التاريخ إلى قصص خرافية - أن اهتمامه بالابتداع انصب بالأكثر على ذاته. كان نجم وسائل إعلام جمهورية فايمار في ألمانيا، و«مستشرقاً» محترفاً يلتقي كثيرا بموسوليني وأخبر كل أهل برلين وعلى رأسهم خطيبته ووريثته أنه كان أميرا مسلما، بينما كان في كل ذلك الوقت يهوديا قضى طفولة منعزلة ومحمية بمفرده منفردا بفلسفة كيبلنج في قاعات قصر أبيه في باكو.

بشكل ما، كان ليف نوسيمباوم مثالا فريدا لنوع من المفكرين كان

معروفا وشائعا في القرنين التاسع عشر والعشرين ولكن ذلك النمط قد نسي الآن في عصرنا الحالي: نمط اليهودي الشرقي. عرفت الظاهرة بداية في العصر الفيكتوري في إنجلترا، حين كان الشباب من العائلات اليهودية الثرية والشهيرة ذات النفوذ في مجتمعاتها مثل ويليام جيفورد وبنيامين دزرائيلي ينطلقون للبحث عن جذورهم «المشرقية» في الصحراء. في حالة بيلجراف، أفضى به بحثه عن جذوره المشرقية إلى حياة البرية ولعب دوراً في خمسينيات القرن التاسع عشر، متمثلا في انتحال شخصية طبيب مسلم بينما كان يعمل في الخفاء لصالح طائفة الجيزويت (ومن العجيب، أنه كان يصر على أن يناديه الجزويت باسم: «الأب كوهين» محييا الاسم الذي تخلت عنه عائلته في القرن الثامن عشر)، ورحل إلى الجزيرة العربية لتنفيذ مؤامرة كان يمولها نابليون الثالث لدفع العرب البدو للثورة على الحكم العثماني - أي قبل خمسين عاما من قدوم توماس إدوارد لورانس للشرق الأوسط والجزيرة العربية. بيلغراف، والمعروف أيضا باسم الأب كوهين سعى هو الآخر لدفع الوهابيين لاعتناق المسيحية. وكانت مذكراته بالإنجليزية عن الجزيرة العربية من أعلى الكتب مبيعا حتى غلبت عليها مذكرات لورانس بعد ذلك.

كان الاستشراق اليهودي يرى المشرق لا كمكان لاستكشاف الآخر الغريب ولكنه موضعا يتكشف من خلاله جذوره الشخصية، وبالنسبة للاستشراق اليهودي لم يكن العرب إلا إخوة دم - أو يهود على ظهور الخيل كما صاغها دزرائيلي. غير أن دزرائيلي ذاته أنكر وتحدى الصورة النمطية للأفكار ما بعد الاستعمارية السائدة في عصره، فبينما كان يهمس في أذن الملكة فيكتوريا أن عليها أن تصبح إمبراطورة الهند، لم يكن يحمل في ذهنه صورة هيمنة مباشرة للغرب

على الشرق. ولكن الأصح كما كان في ذهنه، أنه كان يرى مثالية في الشرق، وعلى ذلك حلم بامبراطورية تدمج الأفضل من كلا العالمين - إمبراطورية بريطانية عموم شرقية. ولابد أن تكون بريطانية، حتى يمكن تنظيمها وإدارتها بالحس الصادق للانجليز، ولكن لابد أن تكون أيضا «مشرقية» محكومة بحكمة وعمق بصيرة الشرق - ومترجمة ومفسرة للغرب من قبل سكانه المشرقيين، أي اليهود.

كانت وصمة معاداة السامية بالطبع، تكمن في أن اليهود يعدون أغرابا، أي أنهم جنس مشرقي في الغرب - غير أن المستشرقين اليهود قلبوا المعنى رأسا على عقب، باحتضانهم لنبالتهم الصحراوية القديمة، وراح اليهود يتقاربون مع «أشقائهم» الأصليين في الشرق وسعوا إلى شرح وتفسير الحضارة والثقافة السامية، بما فيها الإسلام، للغرب. كان المستشرقون اليهود بالمعنى الأضيق للمصطلح أخصائيين في مجال الأديان الشرقية، واللغات الشرقية، وأنثروبولوجيا الشرق، غير أنه حتى مع استخدام ذلك التعريف، فقد تم تخطّي وتجاهل وتغافل الوجود اليهودي الحاسم في المشرق بشكل مدهش.(١)

ومن خلف الباحثين، كان هناك يهود يبدو أنهم حرفيا كانوا يفقدون ذواتهم في الفكرة الخيالية للـ«الهوية الشرقية» كما فعل ليف

(١) في كتابه المؤثر «الاستشراق»، ذهب إدوارد سعيد إلى تجاهل الإنجازات اليهودية في الدراسات الإسلامية في القرنين، التاسع عشر والعشرين، ويفترض أن ذلك يرجع لاعتقاده أنه كان سيعقد حججه وأسبابه التي يسوقها لترويج الفكر الصهيوني والإمبريالية كقواعد حكم، الاستشراق اليهودي المبكر اتخذ إما شكلا بحثيا معتدل التوجه، أو شكلا يعترف مباشرة بميوله الإسلامية، ويعتبر الإسلام ديانة عظمى كما يعتبر العالم الإسلامي مثالا نبيلا، لا كمثال للتخلف والانحطاط والهرطقة، وهو التوجه الذي كان يروج له كثير من الباحثين المسيحيين.

نوسيمباوم. فحين تخفوا في زي البدو أو الدراويش للقيام برحلات طويلة المدى، بدا أن المستشرقين اليهود يشعرون بتحولات فيزيقية تختلف كليا عن شخصية المشركين في نظر الفتوى العربية. كان لديهم علاقة متميزة بالصهيونية، وأغلبهم تبنوا اختيار قيام دولة يهودية في فلسطين، ولكن في الغالب كدولة «سامية جامعة» تابعة للدولة الإسلامية.

وبعد الحرب العالمية الثانية، سقطت فكرة الاستشراق اليهودي في شقوق التاريخ، بعد أن بلغ الصراع بين اليهود والمسلمين شأوا كبيرا في الشرق الأوسط. ودفنوا ماضيهم المشترك. والأسباب التي لا تجعل المسلمون واليهود يتوافقون اليوم تبدو واضحة ولا يمكن تجنبها. الأسباب التي جعلتهم يوما ما على علاقات طيبة تكمن في بعد المسافة، على الجانب الآخر من الهوة التاريخية.

أقحمني سعيي لفض لغز وغموض شخصية ليف نوسيمباوم أيضا في عالم الظلال الغامض للمهجرين والفارين من أوطانهم بسبب الثورة الروسية والحرب العالمية الأولى - وكذلك الأحداث في ألمانيا التي هيأت التربة الخصبة لظهور النازية ومن بعدها الحرب العالمية الثانية. وبالأساس، حوصر ليف بين ثورة في روسيا، وأخرى في ألمانيا سمت نفسها بمختلف المسميات. كانت أمبراطوريات بأكملها تختفي كليا في غضون أعوام قليلة دون أن تخلف أثرا، وكثير من الناس لم يكن بقدرتهم الصمود، مثل ليف، لم يكن بإمكانهم التوقف عن الركض من أجل المحافظة على حياتهم.

عندما رأيت صورا لليف نوسيمباوم لأول مرة، ذكرتني صوره على الفور بـ«لوليك» العظيم، شقيق جدي، الذي فر من الإمبراطورية

«النمساوية - المجرية» المنهارة ومن الرايش الثالث الألماني، ووصل إلى نيويورك في ثلاثينيات القرن المنصرم: ويبدو عدا ذلك أنهما كانا متزامنين تماما. كان شقيق جدي بطل طفولتي، لوليك وما تبقى لي من دوائر صداقاته - من كانت أسماؤهم يمكن أن تملأ ذات يوم دليل عناوين بحجم دليل مدينة صغيرة - وصنعوا عالما جميلا يتسم بالتعقل والفطنة والحداثة في الجانب الذي عاشوا به من حي «واشنطن هايتس - مانهاتن»، بنيويورك. كل ذكريات طفولتي الحية والحميمة ترتبط بما زال راسخا في ذهني من القصص التي كان يحكيها لي عن شبابه وهو في امبراطورية هابزبورغ النمساوية المجرية؛ مجرد فكرة أنه كان يحيا في ذلك الوقت تحت رعاية «امبراطور» كانت تفتنني وتثير مخيلتي كطفل، وأن ذلك الإمبراطور كان ملكا عظيما، وأن الظلام قد حل على العالم بعد موته. وصرت أعتبر أن تحوُّل ليف إلى الإسلام وحبه للقيصر يشبه ويماثل بشكل ما اشتراكية شقيق جدي مع حب مواز للقيصر فرانتس جوزيف.

ثم من بعد ذلك كانت هناك مغامرات تمتد في المستقبل الفسيح لعقد العشرينيات، حين كان لدى كل واحد أفكاره الخاصة عن إعادة تشكيل العالم وكان كل شيء يبدو وكأنه ممكن التحقق، وحين حوصر كل أصدقاء جدي فجأة وكل أقاربه وضاقت بهم السبل. حكى لي لوليك شقيق جدي عن النصف الأول من القرن العشرين كما لو كان سلسلة من المغامرات والقصص الفكاهية المضحكة التي ضمته هو وأصدقاءه وشقيقه الأكبر جانيك، كانوا جميعا يطلقون على جانيك اسم «الثور» لأنه كان بالفعل يمتلك قوة ثور فقد كان في غاية القوة. ثم حكى لي كيف حاول إقناع جانيك، جدي المباشر، أن يعبرا الحدود معا لدخول سويسرا والخروج من فرنسا قبل أن يفوت

الأوان. حكى لي: «كان لجدك أسرة، لم يخطر بذهنه أبدا أن يترك أسرته خلفه. كان عليه أن يمضي معي ثم يرسل إليهم ليلحقوا به بعد ذلك».

كان الحس الفكاهي لشقيق جدي - وهو حس خاص من الفكاهة يتسم به أهل فيينا- يمكن أن ينقلب حتى إلى موضوع مؤلم وموجع حتى في قصة الهروب من النازي إلى نوع يماثل ويشبه كوميديا الأخوان ماركس(١). كنت أحب على الدوام أن أسمع منه قصة صديقته التي اختبأت في شرفة شقتها حين جاء الجستابو لتفتيش الشقة لاعتقالها، والتي تسللت إلى غرفة انتهوا من تفتيشها وانهمكوا في تفتيش غرفة أخرى، ثم قامت بفعل ذلك مرة أخرى وبطريقة ما لم يروها ولم يعتقلوها، قال شقيق جدي وهو يضحك داخليا: «ولكن لابد أن تفهم أنها ليست قصة طريفة ولامضحكة بأي حال - لو كانوا قد أمسكوها، كانوا سيعدمونها في الحال»

حين مات لوليك في صيف عام ١٩٩٤، بدا لي أن الثقافة الفريدة لمنطقة غاليتسيا النمساوية في ذلك الوقت حيث ولد وربي، وفيينا نهاية القرن التاسع عشر، تموت كلها في عقلي مرة أخرى بموته. كانت سعادة صافية تلك التي عاشها رغم كل ما احتوته حياته من أهوال. كان لديه في شبابه جواز سفر نمساوياً حين سقطت عائلة هابزبورغ النمساوية الحاكمة، وفي عام ١٩١٩؛ تلقى وجدي المباشر «جانيك» جواز سفر بولندياً، وعلى الرغم من أنهما كانا شقيقين من مدينة واحدة، إلا أن جواز السفر ذاك كان هو السبب في أن جدي قد

(١) الأخوة ماركس عائلة سينيمائية أمريكية اشتهرت في الثلاثينيات، من أبرز أعمالها «حساء البط»، و «ليلة في الأوبرا. (المترجم).

تم ترحيله بعد ذلك إلى معسكر اعتقال أوشفيتز في عام ١٩٤٢ بعد اعتقاله في فرنسا، بينما تمكن لوليك شقيق جدي من البقاء حيا وشق طريقه إلى نيويورك.

كبرت، مثل كثير من الأطفال اليهود (وغير اليهود أيضا فيما يخص هذا الجانب) برغبة العودة بالزمن إلى الخلف والتفوق على النازي. كان لدى ليف نوسيمباوم ذات المزاج والميول، أن يعيش مثل تلك الأجواء الخيالية الجامحة. وحين اجتاح البولشفيك مدينة باكو، هرب هو وأبوه على ظهور الجمال بصحبة قافلة عبر سهوب بلاد فارس وعبر صحارى تركستان؛ وسوف يتفادى ليف بعد ذلك الوقوع في يد البلاشفة بانتحاله صفتهم وادّعاء أنه واحد منهم، شاقا طريقه إلى أوروبا، وأعلن اعتناقه الإسلام في السفارة العثمانية في برلين في عام ١٩٢٣، في الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية. حدث كل ذلك قبل أن يُتمَّ عامه الثامن عشر، ولم يكن كل ذلك سوى بداية فقط للمغامرات التي سيخوضها بعد ذلك.

ما كان يعدُّ مميزا وذا مغزى بالنسبة لي أكثر من هروبه المبكر والتغيرات والتحولات التي طرأت على شخصيته كان يتمثل في رفضه، طوال عمره، أن يرغمه أحد على تبني أية أيديولوجية من أيديولوجيات القرن العشرين التي كانت تفرض عليه في الدول التي أقام فيها. فبينما حاول أغلب اليهود في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى بكل جهد ممكن أن يتوافقوا ويوفقوا أوضاعهم ويهضموا الأوضاع السائدة، قام ليف بكل ما يمكن له أن يقوم به ليظل بمنأى عن ذلك ويبقى كغريب ينتمي لعرق مغاير، مرتديا قميصا فضفاضا وعمامة في مقاهي برلين وفيينا. غير أن شخصيته كمقاتل صحراوي خدعته هو ذاته. اختار أن يبقى في أوروبا، مضيعا فرصة تلو أخرى

في إنقاذ نفسه بالتوجه للمعيشة عند أقاربه المليونيرات في نيويورك. وحين فرَّ من فيينا التي احتلها النازي وتوجه إلى شمال أفريقيا، لم يُضع وقتا في التوجه من جديد إلى قلب أوروبا المحكومة بالنظام الفاشي في إيطاليا كما لو كانت هناك جاذبية غير معروفة الأسباب تجذبه إلى محيط القوى التي ستدمره كليا وتقضي عليه.

وبدأ ليف في نشر ستة عشر كتابا، حققت أغلبها أفضل الكتب مبيعا في العالم، وظل واحد منها يمثل درته الفريدة، كل ذلك حققه وهو في سن الثلاثين. غير أن عبقريته الحقيقية تمثلت في خلق شخصيته المتلونة: وحتى موته في عام ١٩٤٢، أبقى ليف أكثر المؤسسات الفاشستية في وضع الحيرة والتخمين وأبعد ما تكون عن اليقين حول حقيقة هويته، بحيل فريدة راحت تزداد جرأة يوما بعد آخر، شاقا طريقه ملاصقا لقلب السلطة، مثل لص في حفلة تنكرية.

ومواجهاً الطغيان والاضطهاد الشيوعي من جانب والنازية من جانب آخر، عاش ليف بمواجهة ومجابهة القوى الغاشمة بقدرته على التخيل والإبتداع، في الوقت الذي يعد فيها يهوديا، شرقيا، وألمانيا، غير أنه لم يستعمل أي من تلك الصفات على حساب الأخرى - فكلها كانت نتاج عقل جريء غير هياب يرفض أن يتم تصنيفه أو وصفه من خارجه. كان محتالا ومغويا، ولكنه لم يكن أبدا فنانا مخادعا، كما اتهمه البعض بذلك. كان ايديولوجيا كـ«هاوديني»[١] وأصبح متنقلا ما بين جنسه وعقيدته في عقد من الزمن حين كان الأصل العرقي والدين أدلة دامغة تكفي لصدور أحكام بالإعدام.

---

(١) هاري هاوديني: يعتبر من أكبر الأسماء في الإيحاء والإيهام، ولد في المجر لأسرة يهودية ومات بالولايات المتحدة عام ١٩٢٦ (المترجم).

قادني الإصرار العنيد وصدف العثور على أوراق قديمة - بقايا أزمان وذكريات مكدسة في صناديق قديمة من الكرتون، وخزانات ملابس، وجوارير مطابخ - مرات بعد مرات إلى الوطن في بحثي الدؤوب عن ليف. وعلى مدى أربعة أعوام، كنت محظوظا في اقتفائي أثر ما يزيد على ثلاثمائة رسالة خاصة خفت عن أعين الباحثين، على الرغم من محاولات الباحثين للتوصل إليها؛ وعدد من مخطوطاته التي لم تنشر (الفانتازيا القوقازية، وتاريخ الفاشية، والجزء الأول من رومان والمفتاح التي كتبها وهو في فندق والدورف - استوريا بنيويورك وشقة والد خطيبته في بارك أفينيو)؛ ومخطوطة مذكرات كتبها صديق دراسة في برلين، وكان قد تعرف عليه بعد وصوله إلى ألمانيا لأول مرة وهو ما زال في العقد الثاني من عمره؛ والأكثر إثارة بما يفوق الخيال، التوصل إلى ستة دفاتر كتبها بخط يده وهو على فراش الموت كانت مخفية، وهي آخر ما كتب ليف عن نفسه - وهي نصوص ملحمية جامحة غير مترابطة وكأنها لهاث ما قبل النهاية كتبتْ بخط دقيق غير أنها كانت تحتوي على أنقى وأوضح نسخة لحياته تم التوصل إليها.

ظهرت الرسائل للدنيا بعد أن عثر عليها في فيللا خارج مدينة ميلان بإيطاليا، بعد أن ظلت مختفية لما يربو على خمسة عقود، وسجلت نحو ثلاثة أعوام من تبادل الرسائل بين ليف وإحدى صاحبات الصالونات الأدبية في عهد موسوليني تدعى «بيما أندريا». والرسائل غريبة، وأحيانا تثير الإشمئزاز، ولكنها في المجمل تحرك كوامن المشاعر وتهز الوجدان. ولما سمعت بيما أندريا أن الكاتب الذي تعجب به وتعشق كتاباته، «أسعد بيك» محتجز ومحاصر في إيطاليا دون طعام أو دواء ويعاني من مرض خطير بالدم، كتبتْ له

باندفاع وتهور. كانت تحب كتبه لوجهات نظره الفكرية في التحزب للملكية واشمئزازه من ستالين في روسيا، كما أوصته بقراءة كتب قربان سعيد دون أن تعرف أنه كاتبها. كان في ذلك الوقت قد أصبح مفلسا وفي شدة المرض، محاصرا بسبب الحرب ومحددة إقامته في بيته من قبل الشرطة السرية الإيطالية، فأسلت له بعض المال.

أعانت بيما ليف على أن يظل حيا بين الأعوام ١٩٣٩ و١٩٤٢. والأهم من ذلك، ارتبطت به في مراسلات تحولت مع الوقت إلى «علاقة حب فكري»، كآخر صداقة مارسها والعلاقة الوحيدة التي كانت تربطه بالعالم خارج مكان إقامته الإجبارية، ذلك العالم الخارجي الذي كان قد أصبح عالما مفقودا بالنسبة له. غير أنها كانت شخصية مربكة بذات القدر الذي كان عليه هو ذاته، وبينما كان يخبرها بكل شيء، لم يخبرها أبدا عن حقيقة هويته وحقيقة كينونته. كانت سيدة ذات نفوذ من عائلة نصف إيطالية ونصف ألمانية، كانت «بيما» تستضيف دوائر من العلاقات ضمت عددا من قادة الفاشية الإيطالية وكبار مفكري النازية الألمانية، وشملت أميركيين مثل إزرا باوند وضمت أيضا أعضاء من عائلة موسوليني، وكانوا يقضون أياما في فيللتها في راباللو.

وكتبت بيما إلى موسوليني بالنيابة عن ليف، وإلى الرجل الذي كان ليف يدعوه «السيد عزرا»، الذي وعد ببذل كل ما يمكن بذله من جهد من أجل كاتب زميل، وفي واحدة من أغرب الرسائل من بين كل المراسلات، في ٢٢ يونيو عام ١٩٤٢، كتب ليف لبيما بسعادة وانفعال:

> وأخيرا تذكرتني الدولة. في غضون ثلاثة أسابيع، ثلاثة أسابيع فقط سأحصل على مال من جديد - هذا لو كنت مازلت حيا،

بالرغم من كل شيء مازلت أود أن أظل حيا. بكل يقين سوف ننتصر في الحرب قريبا وحينها سوف أزورك بكل تأكيد قبل أن أتوجه إلى أي مكان آخر- لا أتخيل أن أفعل غير ذلك أبدا. ياه.. سوف يكون الانتصار تجربة مثيرة!

في تلك الرسالة، كانت كلمة «ننتصر» تعود على المانيا النازية.

وبنفس القدر الذي أذهلتني به تلك الوثائق، لم يكن الناس الذين التقيت بهم في سياق اقتفائي أثر تلك القصة يقلون روعة وإدهاشا. كان منهم البارونة إرنفلز، التي ذهبت إلى قلعة ليشتنو للالتقاء بها - وهي ليست، لعدم الالتباس، تلك البارونة التي افترض البعض أن تكون هي من كان يتخفى تحت اسم قربان سعيد، فقد كانت الزوجة الأولى لزوجها، أما البارونة الحالية التي أتحدث عنها، فقد كانت البارونة الثالثة وأخبرتني بقصتها في الساعة الرابعة من فجر أحد الأيام في ذات صباح شتوي (كانت منشغلة جدا بحيث لم تجد وقتا ملائما أبكر من ذلك فقد كانت تستيقظ كل يوم في منتصف الليل لتبدأ العمل في إعداد أوبرا الروك، التي تقوم بانتاجها شركة ألمانية - إسرائيلية)، ثم قادتني بعد ذلك نازلة إلى غرفة شديدة البرودة أسفل أحد أبراج القلعة، وهي أشبه بزنزانة مليئة حتى سقفها بأوراق ووثائق وصور العائلة.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية، قضيت بعد ظهيرة رائعة مع بيتر فيريك، الذي كان أبوه، جورج سيلفستر فيريك، صديق ليف النيويوركي، وصديق مراسلة في بعض الأحيان -وقاما معا بزيارة بيت القيصر فيلهلم في هولندا - وكان من رواد تحقيقات اللقاءات الصحفية والمحقق الصحفي الأول لاتحاد مجموعة صحف هيرست، ويحتمل

أنه كان أول أميركي يلتقي بهتلر. وهو من أصل ألماني ومتعصب لألمانيته، وبإمكانه أن يشن حملة دعائية عبثية ليثبت أن المرء بإمكانه أن يكون نازيا وساميا في آن واحد - حتى أنه كان يستطيع أن يحافظ على علاقة قوية بهتلر وبأصدقاء مثل سيغموند فرويد في ذات الوقت - وسوف يسجن في الولايات المتحدة بتهمة عمالته للنازي. وفيما كانت الشخصيات اللامعة والمثيرة للجدل مثل فيريك تمثل لي الفوضى وتشوش ذلك العصر، فإن فوضى ذلك العصر الفكرية تمثلت أيضا في أن واحدة من أشهر المجلات الأمريكية قدمت شخصيات الكتاب البارزين لعام ١٩٣١، وكانوا: ليف نوسيمباوم، وليونارد وولف، وجوزيف غوبلز، وتوماس مان.

هناك شخصية أخرى لابد من تقديمها هنا، لأنها هي التي سلمتني في يدي دفاتر فراش الموت لقربان سعيد، وكانت شخصية تشكل لغزا في حد ذاتها. كنت بالكاد قد عدت من بوزيتانو بإيطاليا، حيث زرت مدفن ليف (وكان شاهد قبره من حجر رخامي أبيض تعلوه كتلة دائرية على شكل عمامة إسلامية تركية كبيرة)، وكان عليَّ أن أقوم برحلة أخرى لفيينا، كنت أبدو في ذلك الوقت يائسا وفاقدا لأي أمل في العثور على آخر محرر لكتابات ليف وناشره، تيريزه كيرشنر. كانت تيريزه المساعدة الآرية للناشر النمساوي لليف في الثلاثينيات، وحين وجد أصحاب الدار اليهود أن عليهم أن يفروا بجلودهم من النمسا، أشترت الشركة بواحد من ثلاثين من قيمتها الفعلية.

وكان خبير بالإسلام الألماني من الذين التقيت بهم في برلين وتحدثت إليهم أخبرني أنها ما تزال تعيش في فيينا، ولكنه كان يعتقد أن كيرشنر، التي اكتسبت اسم عائلة زوجها الأخير، موغله، أصبحت متحفظة جدا في الحديث عن ماضيها إلى أبعد حد.

لم يكن اسم السيدة موغله مدوَّناً في أي دليل هاتف، غير أني سرت إلى عنوان دار النشر الذي كانت تقع فيه الدار القديمة، وفي قائمة سكان المبنى على المدخل كان اسم موغله يعلو القائمة وتحته شعار دار النشر التي سمتها باسمها من عام ١٩٤٠ : «تيريزه كيرشنر فيرلاغ». قررت ألا أرن جرس الباب وعدت من حيث أتيت وكتبت رسالة بعناية بقرطاسية الفندق الذي كنت أنزل به، مؤكدا في تلك الرسالة أن كل ما يهمني معرفته هو كاتب كان يحمل اسم «أسعد بيك» وأي شيء يتعلق به قد يكون في حوزتها أو نسخ من أعماله ذاتها. وأرسلت الرسالة مع رسول من الفندق، وبعد عشرين دقيقة، كنت أحتسي القهوة ببهو الفندق حين نادى باسمي عامل البهو قائلا إن السيدة موغله تريدني على الهاتف. وبكل ما أملك من لغة رسمية ألمانية، دعوتها للعشاء.

كان للسيدة موغله وجه جريء يشبه وجوه الصقور. كانت في السادسة والتسعين من العمر ولكنها تبدو أصغر من ذلك، تحدثت عن الكتاب الذين نشرت أعمالهم كما يتحدث معلم مدرسة يتذكر تلاميذ كانوا في صفوفه من أزمان قديمة. كان أغلبهم من اليهود فروا جميعهم من فيينا خلال أسابيع من ضم النازي للنمسا على الرغم من أن الدار استمرت في الكسب من بيع كتبهم حتى عامين بعد ذلك. تحدثت السيدة موغله عن رحيلهم بطريقة مهينة للكرامة، مشيرة إلى أحد المؤلفين الذي «غادر دون أن يتفوه بكلمة، رحل وترك لي أن أعتني بكل ما كان يخصه».

وبمجرد أن بدأت تحكي، وجدت أن لديها ذاكرة مدهشة، مازالت تحيط بالتفاصيل، وتستدعي بسهولة ملامح الوجوه، والنصوص والمخطوطات، والقيم المالية، والاتهامات. الخروج

الوحيد عن الموضوع عن مابعد ١٩٤٥ كان وصفها للتبرعات والهبات التي وهبتها لمختلف جمعيات رعاية الأطفال في أفريقيا. ونفي وحيد كان يطفو على السطح على الدوام: «لم أكن شخصية رديئة ولا شريرة، أتفهمني؟، لم أكن سيئة، أنقذت أناسا، أنقذت كثيرا من الأنفس، كان عليَّ أن أعتني بكل مصالحهم، لم أكن أتحمل أن أراهم يعانون دون أن أحرك ساكنا». كانت التركة الثقيلة تتمثل في العناية بكل شيء تركه كتابها اليهود خلفهم بعد فرارهم من فيينا وهو ما عاد بنا إلى «أسعد بيك»

بعد العشاء كنا نمضي في الطريق إلى شقة السيدة موغله، أو دار النشر سابقا، تحدثنا عن «علي ونينو - الساحرة، والتي تعد في الحقيقة من أبدع أعماله»- ثم سألتني بعد أن جلسنا في شقتها إن كنت قد قرأت رواياته الأخرى التي كتبها تحت اسم قربان سعيد. هل قرأت: «الرجل الذي لم يفهم شيئا من الحب؟». قلت لها إنني لم أسمع عنها من قبل، نظرت إلي بخبث وريبة، ثم قامت وتوجهت إلى غرفة أخرى. اعتقدت أنها ذهبت لتبدل معطف الفراء بآخر لتظهر بمظهر جيد أمامي - وكانت قد أرتني مجموعة من المعاطف قبل قليل، بمختلف الطرز والألوان - غير أنها عادت وهي تحمل كومة من ستة دفاتر بأغلفة جلدية، مربوطة معا في حزمة واحدة بشريط قماشي ملون. وضعتهم أمامي وفكت الشريط. قالت: «احتفظت بهم في خزانتي لما يزيد عن خمسين عاما. كان بإمكاني عمل ثروة منهم، غير أنني لست شخصية جشعة ولا طماعة، لست شخصية سيئة، ألا ترى ذلك؟»

التقطت أول دفتر، والذي زاده ثقلا غلاف جلدي بني سميك. في أول صفحة صفراء لامعة، وبخط يشبه خط الأطفال كانت هناك كلمات: «قربان سعيد»، وتحت الاسم كتب: «الرجل الذي لم يعرف

شيئا عن الحب»، وتحت ذلك كتب: «رواية، الكتاب الأول». قرأت السطر الأول بالألمانية بصوت مسموع، وكان مكتوبا بخجل وتسرع:

«الألم أقوى من الحياة، أقوى من الموت، والحب، والوفاء، والواجب.»

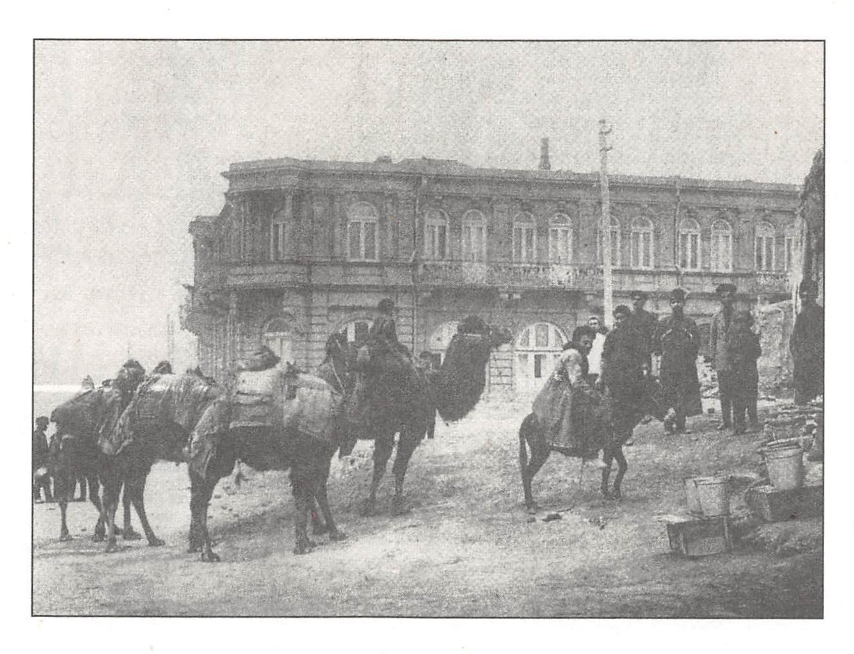
وأسفل ذلك بمسافة، وأنا أتابع الخط المعوج بحروف شبه دائرية مكتوب بالحبر، كانت هناك جملة تقريرية تذكر: «لا يفترض أن يكون هذا الكتاب أدبا. أردت فقط أن أعود ببصري إلى ما مضى من حياتي، في مواجهة الموت... نيتي أن أدون، بكل صدق على قدر ما أستطيع، الحياة الغريبة التي شكلت مصيري».

قالت السيدة موغله إن «أسعد بيك» قد أعطاها تلك الدفاتر الستة، وهي آخر ما كتب، حين ذهبت لرؤيته في بوزيتانو. قالت: «أراد أن أنشرها، وكان بإمكاني عمل ثروة منها، ولكني لم أفعل أبدا، ولم أقدر حتى على قراءتها، من المؤلم جدا أن أشعر بآلامه، لذلك احتفظت بها ولم أفعل بها شيئا. بإمكانك أن تأخذها وتقرأها، لو وددت ذلك».

خرجت من ذلك المبنى العتيق. كانت ليلة عرض باليه بأوبرا فيينا، والناس تحث الخطى بالشارع تحت ندف الثلج المتساقط من السماء في بزات سهرة رسمية مذيلة. احتضنت الدفاتر على صدري لاحافظ عليها من البلل. لماذا أعطى ليف تلك الدفاتر للسيدة موغله؟ ولماذا أعطتهم هي لي؟ لما عدت إلى غرفتي بالفندق، ألقيت بجسدي على الفراش وفتحت غلاف أول دفتر.

كان النص المكتوب بخطد دقيق يحكي حكاية غير متوقعة متعددة الأعماق والأبعاد.

القسم الأول



باكو، ١٩١٢

الفصل الأول

الثورة

ولد ليف نوسيمباوم في أكتوبر ١٩٠٥، في الوقت الذي كانت فيه ثقافة وحياة الطبقة العليا في باكو قد بدأت في الانهيار والتداعي. ففي ١٧ أكتوبر وعد القيصر الروسي نيقولا الثاني شعبه بوضع دستور للبلاد، وكان وعدا غير حقيقي لمجرد إجهاض الدعوات المتصاعدة للثورة عليه، وإجهاض الإضرابات التي انتشرت وعمت أرجاء روسيا، وانتشار أعمال النهب والسلب، حيث أصبحت عمليات القتل اليومية من الأعمال المعتادة. وفي مدينة باكو، كانت قوات القوزاق راكبة الخيل تجتاح طرقات باكو وتهاجم كل من يصادفها بطريقة عشوائية لبث الرعب واستعادة النظام وهيبة الدولة، فيما كان الأذريون والأرمينيون قد حولوا مدينتهم العالمية إلى ساحة حرب تماثل ساحات حروب القرون الوسطى. كانت الفيللات الفارهة والفاخرة تحاصر كما لو كان أصحابها وقاطنوها ينتمون عرقيا أو دينيا لأصول تثير غضب عوام الناس.

ومثل كثير من الكتاب الذين ولدوا في أعوام تحتضر فيها الامبراطوريات وتتداعى، سوف يجعل ليف من امبراطوريتة المنهارة عالما مثاليا بعد عيد مولده الخامس عشر، عالما يسعى سكانه لكسب

معاشهم، تاركين عشاءهم على المائده. كان ليف ينظر إلى ماضي مدينة باكو كمكان بزغ فيه أهل الخير من غياهب عصور قديمة مع الضعف النسبي للسلطة التي كانت تحكمها. وسوف يقضي كل عمره معارضا الثوار الذين أطاحوا بالنسيج المعقد والمركب للامبراطوريات والديانات القديمة وأحلوا محلها مذهبهم الجديد الشمولي. بالنسبة لليف، سوف يظل متذكرا أن قوى التغير السياسي الثوري لم تكن إلا «جنون مستعر سقطت المدينة بين براثنه».

> التجهم الذي حل فجأة مكان الوجوه الطبيعية. كل شيء أصبح جحيما، وكل شيء أصبح حيوانيا، كل ماهو غبي ويشي بأن الطبيعة الإنسانية يمكن أن تبقى مكتوبة ومدونة على تجهمات الوجوه. ومن خلال الملامح المتغيرة على الوجه، وبمجرد إخضاعها بالقوة، اكتسبت الملامح التعبير الحقيقي وأصبحت الآن تتسم فقط بالغباء، والحيوانية، كتعبير طبيعي... بدأت البلشفية بتحويل الوجه الإنساني إلى وجه عابس متجهم ومكفهر.

لا تحمل سجلات مدينة باكو أي تسجيل لمولد ليف نوسيمباوم في ملفاتها. ولا، في ذات الشأن، سجلات مدن تيفليس، أو كييف، أو أوديسا، أو زيورخ. واقترح ليف في واحد من موضوعاته الكثيرة التي كتبها ونشرت في حياته المبكرة، ذلك الاقتراح الذي نشر في صحيفة برلينية عام ١٩٣١، وقال فيه إنه في حقيقة الأمر لم يولد في مكان محدد:

> ولدت في ....؟ هنا بالفعل تكمن وتبدأ طبيعة المشكلة الفعلية لوجودي. يمكن لأغلب الناس أن يذكروا اسم بيت أو على الأقل اسم مكان ولدوا به. لهذا المكان، أو ذاك البيت، يمكن للمرء أن يحج إليه في آخر أيامه لينخرط في حالة عاطفية من استعادة

الأحداث والذكريات. ومن أجل الاستغراق في تلك الذكريات لابد لي من أن أحج إلى عربة من عربات القطار السريع. لقد ولدت أثناء أول إضراب لعمال السكك الحديدية الروس في قلب السهوب الروسية الواقعة ما بين أوروبا وآسيا، حين كانت أمي عائدة على متن القطار السريع من زيورخ، موطن تجمع الثوار الروس، كانت عائدة إلى باكو، موطن عائلتي. في يوم مولدي أعلن القيصر عن بيانه السياسي والذي أعلن فيه عن عزمه منح الشعب الروسي دستورا. وفي يوم وصولي إلى مدينة باكو كانت المدينة مشتعلة بلهيب الثورة، ومذابح الغوغاء تجري على قدم وساق. أنا نفسي كان من المفترض أن أُجلب إلى أبي مخفيا في حوض ماء، وحينها أراد أبي أن يلقي بي وبالحوض إلى عرض الطريق مع مربيتي. وهكذا بدأ وجودي في هذا العالم. أب رأسمالي من أقطاب صناعة النفط بالمدينة، وأم شيوعية من متطرفي الثوار.

في هذه النسخة من قصة مولده، كان ليف في قلب عصف وجيشان كارثة تاريخية كونت وشكلت باقي حياته، وفي عديد من مقاطع كتاباته عن عائلته وأصولها، لم يكن يحيد أبدا عن تلك الحقائق والوقائع الرئيسة[١].

---

(١) سوف تستحوذ معالم وأحداث يوم مولد ليف على فكره في كل تفاصيل حياته بعد ذلك، غير أنه لم يصل إلى يقين أبدا عن حقيقة تاريخ يوم مولده. كان أحيانا يحدد ٢٠ أكتوبر كيوم لمولده، ولكنه ذكر في كتابات أخرى أواخر أكتوبر، بل حتى أحيانا بدايات نوفمبر؛ أخبره أبوه أنه ولد في أكتوبر، ولكنه بدا هو الآخر غير متيقن من اليوم. تضاف إلى تلك البلبلة حقيقة أن التقويم الجولياني الروسي التقليدي الذي كان متبعا قبل ١٩١٧ يختلف عن التقويم الجورجي الحالي بأحد عشر يوما، وهكذا يمكن تقديرا أن يكون ليف قد ولد في أكتوبر ونوفمبر، لذلك لم يكن من المستغرب أن يحتفل ذات مرة وهو في نيويورك بذكرى مولده على مدى أسبوع كامل.

وبذات الشكل العبثي الذي بدت عليه، فإن الرواية قد تكون حقيقية بالفعل، فبعض أحداثها له صدى لدى مصادر أخرى مستقلة، بمن فيهم «أليس شولته» مربية ليف الألمانية. راكمت «السيدة شولته» ذكرياتها عن ليف بشكل أنيق وبيد ماهرة في الأربعينيات في دير في شمال إيطاليا حيث ذهبت لتعيش هناك بعد أن أصبح الطفل الذي رعته طول عمرها على وجه التقريب رجلا مطاردا ومطلوب اعتقاله. بدا لها أن من واجبها أن تضفي على حقائق حياته المحيرة والمربكة بعض النظام، غير أن الوثائق التي تركتها بعد موتها مختزلة بطريقة مفزعة، ولما ماتت «السيدة شولته» ودفنت في مدافن المعدمين بالقرب من الدير عام ١٩٥٨، لم يمكن إضافة أي تفصيلات.

كان كتاب ليف الأول: «الدم والنفط في المشرق»، يؤسس للخرافات والأساطير التي سيعود إليها لاحقا - التاريخ الشخصي الذي يربطه بتاريخ القوزاق. قدم ليف في ذلك الكتاب أباه أبراهام وهو يتنزه أمام السجن المحلي لباكو، على رأسه «قلنسوة شرقية من فراء الأغنام وفي يده مسبحة من الكهرمان، ولم يكن أحد في باكو يخرج من البيت دون أن تكون مسبحته بين أنامله». لون بشرة أبيه كان داكنا، عزاها ليف في مواضع أخرى من كتاباته إلى وراثة مهجنة من أرستقراطية الجنس التركي وأرستقراطية بلاد فارس، والتي غلبت عليها «تعبيرات الوجه، ورباطة الجأش، والملامح المرهقة، وفوق كل ذلك، شغف رجل شرقي بالنشاط والعمل، رجل شرقي حول تقليد حب القيادة القديم إلى حياة اجتماعية تتوافق مع طبيعة مدينة نفطية شابة». في هذا المضمار، اشترى أبوه أمه («كانت شابة صغيرة في مقتبل العمر ذات عينين داكنتين. . . . وكانت عضوة في الحزب البلشفي الروسي»). رآها خارج السجن الامبراطوري الروسي، حيث

كانت تنتظر ترحيلها كمتمردة ومهيجة سياسية، فتزوجها على الفور وضمها في الحال إلى حريمه. وبدورها، هيمنت على البيت وصرفت منه كل الحريم.

فكرة أن أبراهام نوسيمباوم كان ارستقراطيا مسلما من سلالة مهجنة فارسية تركية - أو أي تخيل آخر عدا كونه يهوديا ذا خلفية أوربية وهي حقيقته الفعلية - كان جانبا مقصودا من إعادة خلق وتشكيل صورة ليف. أما الأب نوسيمباوم فقد ولد في الحقيقة في مدينة تيفليس، التي أصبح اسمها الآن تيبليسي، العاصمة الرسمية لمنطقة القوقاز تحت الإدارة الروسية في ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٥ (وشهادة ميلاده موجودة وتثبت ذلك). كان يهوديا أشكينازيا قدم أبواه إلى القوقاز من مدينة كييف أو أوديسا الروسية وكانتا من المراكز اليهودية الكبرى في مستوطنات اليهود الإجبارية حول البلطيق، حيث لم يكن يسمح لليهود الروس خارج نطاقهما بالسفر ولا بالعمل (على الرغم من أن كثيرا من اليهود قد تمكنوا من شق طريقهم بالرشى إلى أجزاء ومناطق أخرى من الامبراطورية الروسية). كانت منطقة البلطيق تتكون من مناطق سقطت تحت هيمنة الكومنويلث البولندي المنحسر والمتداعي - وخاصة بيلوروسيا، وليتوانيا، وغرب أوكرانيا - حتى تم ضم تلك المناطق بالقوة في عهد الامبراطورة كاترين العظمى في الأعوام ١٧٧٢ و ١٧٩٣، و ١٧٩٥[1] مع ملايين من الأرثوذكس

---

(١) ما كان قد بدأ كعمليات استيلاء محدودة من قبل عواهل روسيا، وبروسيا، والنمسا تحول ليصبح عملية تقطيع أوصال على أوسع نطاق في سبعينيات القرن الثامن عشر، بعد أن أبطل البولنديين نظامهم الملكي مستلهمين رياح التغيير التي تهب عليهم من فرنسا وصاغوا دستورا. وقادت القيصرة كاترين الاتهامات ضد بولندا لوأد «عدوى الأفكار الديمقراطية». . ومن احتمالات ما بعد فترة ١٩٣٩، تبني حل كاترين - وهو تقطيع أوصال بولندا، بجيوش =

والسلافيين الكاثوليك، وعلى وجه التقريب أصبح نصف مليون يهودي من رعايا الإمبراطورية الروسية المتوسعة. حتى ضم المناطق البولندية، لم تكن الإمبراطورية الروسية تضم عمليا أي يهود، ولم تكن مستعدة بأي حال لاستيعاب تلك الإضافة للخليط العرقي والديني الذي كانت تتكون منه بالفعل. كان الحل الروسي الرسمي للمسألة اليهودية قد انحصر في قسر إقامة اليهود وتنقلاتهم على ذات المقاطعات البولندية التي كانوا فيها حين ضمتها كاترين العظمى - أو ما كانت تسمى بمقاطعات الشاحبين. وبشكل عملي، أدى ذلك القرار إلى خلق أكبر جيتو يهودي في التاريخ، حيث تحول إلى سجن جغرافي كبير لليهود «الروس» الجدد. كانت الأراضي التي تكون مناطق الشاحبين مقاطعات إقليمية، ومعادية للسامية، وعرضه لموجات متتالية من شح الطعام وأزمات اقتصادية أخرى لا تكاد تنتهي.

كانت روسيا في الأصل من البلاد المتقدة بالتوهج الديني المتعصب حتى أن حكامها الأرثوذكس كانوا يعدون زنادقة في نظر نسبة كبيرة من العامة: الذين يمثلون «المؤمنين الأصوليين» - وهم ملايين الأصوليين المؤمنيين بالرؤى ونذر دمار العالم لكفره والذين عارضوا أبسط التغيرات في الطقوس الكنسية التي أدخلت على الكنيسة الروسية لتقريبها من الطقوس الأرثوذكسية اليونانية. كان المؤمنون الأصوليون يشعرون بالاستياء من أن تلك التغييرات المستحدثة في الممارسات الكنسية قد تعقد وتعرقل خلاصهم الروحي الأبدي، حتى أنهم قاموا بتمردات كبرى ضد «فيالق المسيح الدجال»

= ألمانية تسحقها من الغرب، وجيوش روسية من الشرق - كان ذلك الحل يبدو وكأنه نوع من إعادة تجربة أداء من القرن الثامن عشر بتحالف هتلر وستالين على بولندا.

القيصرية وقاموا بإحراق أنفسهم بالآلاف احتجاجا على تكوين تلك الفيالق (على الرغم من وجود ما يقدر بـ ١٣ مليونا من تلك الفيالق عندما ولد ليف).

عدا ذلك، كانت هناك أعداد كبيرة من المسيحيين «المتهودين» الذين قرروا إنكار المسيح، والإيمان فقط بالعهد القديم وما ورد به، مع ممارسة شعائر يوم السبت اليهودي، وأداء طقوس يوم الأحد اليهودية الأخرى في الوقت الذي لا يعدون فيه أنفسهم يهودا. وبمعاونة التيار التنسكي الأكبر عبر نهر الفولغا، دفع المتهودون بالأرثوذكسية الروسية إلى أن تكون في أقرب الحالات على مدى تاريخها من الإصلاح الديني - وترتب على ذلك نتائج وردود أفعال أدت إلى حرمان اليهود الأصليين من دخول روسيا على مدى الثلاثمائة عام التالية. وحين راق التهود للقيصر إيفان الثالث، دعي المتهودين للحضور إلى موسكو، حيث عملوا بدأب على تحويل أغلب النبلاء إلى التهود في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر حتى أن الأرثوذكس التقليديين أحسوا بالحاجة إلى التصدي لتلك التوجهات عبر إجراء عمليات حرق لبعض الأفراد المنتقين بعناية على عامود الحرق. هيمن كذلك رجال الدين الأرثوذكس على القيصر ودفعوه لمنع اليهود الذين اعتقدوا أنهم خلف كل أعمال التهود المهرطق، وأصبح المنع مفعلا من منتصف القرن السادس عشر، وهو ما يفسر ذلك الغياب المشهود لليهود من كل الإمبراطورية الروسية عندما اكتسبوا صفة الشاحبين التابعين للإمبرطورية الروسية في نهايات القرن الثامن عشر بعد ضم بولندا. ومثل الماسونيين الأحرار - والتي كانت مرتبطة بها ارتباطا وثيقا، خاصة بعدما تبنى الماسونيين للقباله اليهودية وبدأوا في انتخاب كهنة المعابد - كانت اليهودية تعد ببساطة ديانة

متفجرة وملتهبة، ديانة معدية كالوباء ولا يسمح لها بالتواجد في روسيا.

وأضافت الأزمة الدينية الروسية المستديمة حرجا على الرغبة الرسمية لتحويل كثرة المتهودين حديثا عن معتقدهم. وفي عام ١٨١٧، قام القيصر أليكسندر الأول شخصيا بتكوين الجمعية المسيحية الإسرائيلية، ولكنه لم يلق إلا حظا قليلا في هزيمة اليهودية، أقل مما حظى به في هزيمة نابليون؛ حتى أن عبيد الأرض والتجار في المناطق المتاخمة لمناطق الشاحبين أظهروا بوادر جديدة من «التهوُّد».

كانت العقيدة اليهودية ما تزال تظهر قوى فوضوية ومتفجرة في روسيا حتى أنه عندما مات القيصر أليكسندر عام ١٨٢٥ حينما كان في زيارة للبحر الأسود، أصر كثير من الروسيين على أنه لم يمت فعلا، بل تحول سرا ليصبح «مجذوبا متجولا في حب المسيح»، يجوب أرجاء البلاد تحت اسم فيدور كوزميك.

كان القرن التاسع عشر مليئا بالخطط والصراعات والتوجهات والمؤامرات، من جانب القيصر ومعارضيه من الثوار، تدور كلها حول كيفية معالجة مشكلة «العنصر الأجنبي»، أي اليهود. وبدأت المؤامرات تتخذ أشكالا أشد عنفا خلال كل ذلك القرن. ففي عشرينيات القرن، اقترح الكونت بيستل، وهو من النبلاء المستقلين فكريا، منح اليهود دولة مستقلة في آسيا الصغرى وترحيلهم ترحيلا جماعيا إلى تلك الدولة. ولكن بحلول نهاية القرن، رأى قنسطنطين بوبيدونوستسيف، كبير مستشاري القيصرين الأخيرين، أن مشكلة يهود روسيا يجب أن تحل بقاعدة الأثلاث: أي بتهجير ثلث يهود روسيا، وثلث يتحول إلى اعتناق المسيحية، وثلث يترك للموت جوعا. وقامت قوات «أوخرانا» وهي قوات الشرطة القيصرية بتزييف وثيقة عرفت

باسم «بروتوكولات حكماء صهيون»، وهي خطة افتراضية لتحقيق الهيمنة اليهودية على العالم وعلى كل شيء من خلال إثارة ثورة عالمية تعمل على تقويض أمم الأغيار. وأثناء الثورة الجماهيرية التي أجهضت في عام ١٩٠٥، وقعت مذابح جماعية لليهود في جميع أنحاء روسيا صدمت العالم.

في تلك الإمبراطورية الشاسعة المعادية للسامية، كانت القوقاز واحة نادرة للسلام والأمان. ففيها، كان اليهود مجرد أقلية بين أقليات، وكانت كذلك من عهود تاريخية قديمة وكانت موضع تقدير المضطهدين، فقد فر إليها اليهود بعد التدمير الثاني للهيكل سنة ٧٠ ميلادية، كما امتصت أذربيجان بقايا يهود النفي البابلي، الذين فروا إلى المرتفعات الواقعة شمال باكو عند الغزو الإسلامي لبلاد فارس. وحتى المتهودون، متهوِّدو روسيا من غير اليهود، وجدوا ملاذا لهم بتلك المنطقة وسكنوا في الغابات الواقعة على الحدود الأذربيجانية - الإيرانية. وفي نظر الحكام المسلمين الذين حكموا معظم مناطق القوقاز، كان اليهود يعاملون كأهل الكتاب مما رفعهم درجات فوق الزرادشتيين ومختلف الطوائف الوثنية الأخرى.

وراح اليهود الأشكيناز من منطقة «البيل» يهاجرون سرا إلى القوقاز - وهي رحلة كانت تستغرق بضعة أيام بالقوارب عبر البحر الأسود- طوال القرن التاسع عشر. وتسارع معدل هجرتهم بمجرد أن بدأت الطفرة النفطية في التوهج بعد عام ١٨٧٠. ومن المرجح أن جدَّ ليف قد هاجر من منطقة يهود البيل إلى مدينة تيفليس في خمسينيات أو ستينيات القرن التاسع عشر، وأن أباه قد هاجر من تيفليس إلى باكو في بدايات تسعينيات القرن التاسع عشر. ولم يفصح ليف أبدا عن هذا الجانب من ماضيه، غير أن أبراهام نوسيمباوم قد اهتم كثيرا بباكو كما

اهتم بها معاصره «أوسيب بنينسون»، وهو يهودي أشكينازي آخر حقق ثروة طائلة من نفط باكو. وتذكرت ابنته فلوراكل ذلك بعد زواجه بفترة قصيرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فقد انفصل أبوها عن عائلته في منطقة يهود البيل لأن «لديه رؤاه الخاصة في منطقة القوقاز البعيدة، وهي مملكة كونت في القرن التاسع عشر جانبا من أحلام كل شاب روسي رومانسي في ذلك الوقت. . . . [ولكنه] لم يكن رومانسيا؛ ودفعته دماء المقامر التي تجري في عروق سلالتهم إلى تلك المنطقة البعيدة جدا عن منبع جذوره العائلية».

ونشأت فلورا بينينسون في الطبقة الاجتماعية ذاتها التي نشأ بها ليف. وكمليونير زميل في مدينة تضم جالية يهودية صغيرة، من المحتمل أن عائلة بينينسون وعائلة نوسيمباوم كانا يعرفان بعضهما. أصبح أبراهام نوسيمباوم ثريا بصفته مفوضا نفطيا في باكو، وهو نوع من الوساطة القانونية كما كان يمتلك أيضا بئرا نفطية، غير أن نفط باكو جعل من عائلة بينينسون واحدة من أثرى العائلات في روسيا. وفي عام ١٩١٢ مكنتهم تلك الثروات من شراء قصر في سانت بيترسبورغ على مرمى حجر من قصر القيصر. ذكريات فلورا عن أول احتفال لعائلتها بعيد الفصح اليهودي في سانت بيترسبورغ، على أي حال، يقارن بالاحتفال المتعدد الأعراق والديانات بالكريسماس والذي سيحضره الصبي ليف في ذلك العام. تتذكر فلورا أن في ليلة ذلك الاحتفال: «عندما كان الجميع مستعدين للاحتفال، قاد مدبر المنزل كل الخدم إلى غرفة ربة البيت. كانوا قد انتهوا من عمل كل ما يلزم للاحتفال، وقال لها وهم بسبيلهم لمغادرة البيت: «لا يمكننا أن نقوم بالخدمة أثناء تناول العشاء بينما تستخدمون دم طفل مسيحي، سوف نعود للعمل غدا»». كان ذلك يشكل الفارق بين المدن الإمبراطورية الروسية

الأخرى ومدينة باكو. لا فارق بين يهود البيل وغيرهم، وبما يكفي من مال، كان يمكن لليهودي أن يحيا في أي مكان يوده في إمبراطورية القيصر. ولكن في القوقاز فقط كان يمكن لليهودي أن يعيش دون إحساس بهوان وعار لكونه يهودي، وكانت من أعظم المدن الكبرى وأكثرها تسامحا في القوقاز، عاصمة أذربيجان، باكو.

الكلمة الفارسية التي تعني النار هي كلمة «أذر»، ومن عصور قديمة، كان لغزارة النفط الطافح ذاتيا من باطن الأرض في أذربيجان والغاز الطبيعي المتسرب من الأعماق والذي كان يؤدي مع النفط إلى اشتعال النيران من تلقائها على سفوح التلال، وجعل ذلك منها مركزا للزرادشتية، وهي الديانة الفارسية التي كانت سائدة في بلاد فارس ما قبل الإسلام. مختلف الديانات والمعتقدات التي آمن بها البشر وجدت ملاذا آمنا لها بتلك المنطقة. وبينما كانت روما ما تزال تقتل المسيحيين محاولة استئصال شأفتهم، أصبحت هناك مملكتان على حدود أذربيجان، هما أرمينيا وجورجيا، من أوائل الممالك التي اعتنقت المسيحية. وحين تدفقت الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية في القرن الثامن الميلادي[1]، واجتاحت بلاد فارس، تبنى كثير من المسيحيين المتشددين، والزرادشتيين، ووثني أذربيجان العقيدة المحمدية، غير أن كثيرين غيرهم لم يؤمنوا بها، وشارك الإسلام في التعددية الدينية السائدة بالمنطقة. وحين طرد فرسان الحملة الصليبية من فلسطين بعد ذلك بثلاثة قرون، وجدوا لهم مأوى وملاذا جديدا

---

(١) أتمت الجيوش الإسلامية سيطرتهاعلى كل بلاد فارس عام ٦٤٤ ميلادية، أي في القرن السابع الميلادي على خلاف ما يورده الكاتب بأنه حدث في القرن الثامن الميلادي (المترجم).

في تلال أذربيجان، حيث أسسوا هناك ممالك جديدة ما زالت قائمة حتى اليوم وأدهشت علماء الأنثروبولوجيا في بدايات القرن العشرين. وبالحتم، ومع تطور الثقافة الأذربيجانية بالتوازي مع الثقافة الفارسية، أصبحت أذربيجان البلد الوحيد المجاور لإيران الذي يعد بلدا شيعيا بصفة رسمية - والتشيع يعني الإيمان بالشهداء الدينيين الذين يمتدون حتى علي، ابن عم النبي وزوج ابنته. وكثيرا ما كان الملوك الآذيريون يعتلون عرش بلاد فارس ذاتها؛ ومن القرن السادس عشر وما بعده، كانت الأسر الكبرى الحاكمة لبلاد فارس من أصول أذربيجانية.

واجتاح النفوذ الروسي المنطقة في بدايات القرن التاسع عشر بعد أن غزت الجيوش القيصرية منطقة القوقاز، وتحول الأذريون هم والمحافظون الإيرانيون الشيعة ليتشبهوا بالأوربيين. وتتذكر أم البر أسعد اللاييف، التي انتقلت من باكو عام ١٩٢٢ وكتبت مذكراتها في باريس تحت اسم مستعار هو «بانيني»، أن عائلتها كانت متمسكة بتقاليد الإسلام، وأن النساء لم يكن يهتممن إلا بالملابس والمجوهرات، والأثاث المجلوب من باريس وموسكو، ولعب الميسر (كان أبوها الذي كان مزارعا في الأصل قد أصبح مليونيرا بعد اكتشاف النفط في أرضه التي يفلحها). وكتبت أن «عماتها البدينات الشقراوات» لم يكن يشغلهن إلا التدخين والحديث عن الشائعات المنتشرة وغث الكلام طوال اليوم، و«يلعبن البوكر بشغف وانفعال بطريقة هيستيرية لا مثيل لها». ولخصت بمرح ساخر المناخ الذي كان سائدا في طفولتها في باكو في بدايات القرن:

> إن لعب الميسر محرم طبقا للقرآن - وكان كل أهل باكو يلعبون الورق وتتداول مبالغ طائلة في اللعب. وحلت المشروبات الروحية القوية مثل الفودكا والكونياك محل النبيذ، فقد حرم النبي

النبيذ المصنوع من الأعناب، وحللوها بادعاء ان تلك المشروبات القوية ليست ممنوعة حرفيا لأنها غير مصنعة من الأعناب وبالتالي لا تعد محرمة. الرسم أو تصوير الوجه البشري محرم أيضا في الإسلام - ورغم ذلك كانت محلات مصوري الفوتوغرافيا مزدحمة على الدوام. سمح المسلمون في أذربيجان لأنفسهم أن يلتقطوا صورا جانبية للوجه، أو صورا أمامية، وهم يقفون أمام خلفية مرسومة لحديقة، أو ستائر مسدلة.

بدأت الطفرة النفطية في الولايات المتحدة مع أول تدفق لبئر نفط في بنسلفانيا في خمسينيات القرن التاسع عشر، أما في باكو فقد كان النفط يتدفق طبيعيا من تلقاء ذاته من آلاف السنين، وكان نفط باكو يضيء كل المعابد الزرادشتية القديمة، ووصفها ماركو بولو في كتابه «طريق الحرير» وهو الطريق الذي كان يسلكه التجار ما بين الصين بشرق آسيا ودول أوروبا. ولكن على مدى ألفي عام على وجه التقريب، كان التدفق الدائم لفيضان الذهب الأسود لا يثير مشاعر أحد عدا الزرادشتيين، الذين جعلوا من باكو مركزا لعقيدتهم. كانت الجماعات الزاهدة المنهكة ورهبان عبدة النار يسافرون من مناطق بعيدة نائية في الهند ليقيموا في معابد عبادة النار وحصونها، يعانون من هزال الجوع حتى ينالوا الغذاء الروحي الصافي من عبادة اللهب الأزلي. أما بالنسبة لباقي السكان، فقد كان النفط الخام المنبثق من الأرض لا يعدو كونه خبثا طينيا مستديما يهب بضعة آلاف من السكان أرزاقهم؛ فقد كان يفسد التربة الزراعية، ويطرد السكان المحليين لسفوح الجبال والغابات الشجرية لأذربيجان يعمرونها بعيدا عن الوادي الملوث بالنفط - ولا توجد بلاد أخرى صغيرة بهذه المساحة وتتمتع بتعددية مناخية مثلما تتمتع أذربيجان بالتعدد المناخي - باحثين عن تربة لم يلوثها النفط بعد.

كانت النيران تشب في مياه بحر قزوين ذاتها في كثير من الأحيان حين يزداد سمك طبقة النفط العائم على سطحه. وكتبت إحدى المهاجرات في مذكراتها وهي تستعيد ذكريات طفولتها في باكو: «لدي ذكريات عن أمواج مشتعلة، تضيء الليالي حالكة الظلام حين تنفجر نيران الغازات المتبخرة وتتشظى إلى آلاف من تفرعات اللهب الأصغر». وحتى القرن التاسع عشر، كان النفط الخام يستخدم فقط في التركيبات الدوائية، وظل الجميع يؤمنون أن له خواص علاجية وفوائد صحية. وعبدت بعض القبائل القوقازية النفط بصفته عنصرا إلهيا مقدسا في ذاته. كما اعتقد كثيرون أن بخار النفط هو الذي حمى باكو من أوبئة الطاعون الأسود التي كانت تجتاح المنطقة من حين لآخر.

حتى أليكسندر دوماس أثناء جولته في القوقاز في خمسينيات القرن التاسع عشر، اندهش من أهل أذربيجان وكأنهم كائنات تخرج من طيات التاريخ، فقد وجدهم يتمتعون بروح حرة، ويتسمون بشجاعة فرسان روايته الشهيرة: «الفرسان الثلاثة»؛ وكتب في مذكراته: «دخول باكو بمثابة اقتحام أقوى قلاع وحصون العصور الوسطى». وكان كل ذلك على وشك التغير. ففي منتصف القرن التاسع عشر، حين بدأ الكيروسين المستخرج من النفط يحل محل زيت الحوت عالي الكلفة، بدأ عصر الإضاءة، وأصبح الكيروسين في ذلك الوقت من أقيم السلع في العالم، وانطلقت من عقالها القوى المالية التي صنعت روكفلر وستاندارد أويل في باكو.

كان يطلق على تدفقات باكو النفطية اسم «النوافير»، وبلغت من الحجم والقوة حدا لم يعرف له مثيل من قبل. وباسماء وكنى مستعارة لتلك التدفقات الكبرى مثل «المرضعة» و «البازار الذهبي»، وكانت تتفجر في تدفقها وتخرج عن السيطرة، كبراكين هائلة من النفط.

وحولت تلك التدفقات ساحل باكو على بحر قزوين إلى لون أسود، وسرعان ما ازدحم الساحل بمنصات خشبية ورخامية كانت في بعض المواضع تحجب رؤية السفن المقتربة من الشاطئ. أول نوافير باكو انفجرت عام ١٨٧٣، دافعة النفط في الهواء دون سيطرة عليه لما يزيد عن أربعة أشهر قبل أن ينجح أصحاب البئر في ترويضه والسيطرة عليه، وتدفقت في الرمال كميات من النفط تعادل عشرات الملايين من براميل النفط. وعلى مدى بضعة أشهر، أدى هذا البئر النفطي وحده إلى هبوط أسعار النفط من غزارة انتاجه وظل على مدى عامين بعد ذلك قويا بما يكفي للدفع بعامود من النفط يبلغ سمكه تسعه أقدام لارتفاع يصل إلى أربعين قدما في الهواء.

وبحلول عام ١٩٠١، كانت باكو تحقق نصف إنتاج العالم من النفط. وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة عالمية، وسرعان ما فاق عدد سكانها المحليين عدد الوافدين من الروس، والجورجيين، والأوستونيين وغيرهم ممن وفدوا من أركان المعمورة الأربعة. وما بين عامي ١٨٥٦ و ١٩١٠، نما عدد السكان في باكو نموا غير مسبوق بسرعة فاقت معدلات نمو سكان لندن وباريس بل وحتى نيويورك. وابتدع الأخوان نوبل اللذان هيمنا على صناعة النفط في عقودها الأولى مفهوم الخزانات النفطية العائمة للتعامل مع الاحتياج الدولي لنفط باكو في الشرق الأقصى وتوافقا على تسمية أول خزان عائم باسم زرادشت، رب النار. وتمكنا من تكوين الجزء الأغلب من ثروة العائلة من نفط أذربيجان على الرغم من أن اختراع الأخوين للديناميت هو الذي حقق لهما الشهرة الأكبر.

تقاطر رجال النفط على باكو بجميع جنسياتهم- سويديون ويهود وبولنديون وأميريكيون - غير أن تسيد كبار الأجانب مثل الأخوان

نوبل وعائلة روتشيلد لم يدم طويلا. فبحلول القرن الجديد، كان ما يربو على نصف أعمال حاويات نقل النفط وأغلب أعمال الإنتاج قد أصبح في أيدي المحليين من أهل باكو. وصعدت طبقة جديدة من بين المزارعين والأرستقراطية الإقطاعية - أي من بين أولئك الذين كانوا يحفرون في أرضهم الزراعية ويصيبهم الحظ بالعثور على بئر نفط. (حاول الأخوان نوبل بكل جهد شراء بارونات النفط الجدد، إضافة إلى شراء صغار المنتجين. وطبقا لما تذكره الوثائق في سجل محفوظات باكو، باع أبراهام نوسيمباوم للأخوين نوبل أغلب آبار نفطه في عام ١٩١٣، عشية اشتعال الحرب العالمية العظمى الأولى، وكان قراراً يتسم بالحصافة وحسن الحظ معا).

راح مليونيرات النفط الجدد يتسابقون في القيام بأعمال البر والإحسان، وقرروا تحويل مدينتهم من مدينة أقليم صغير تقع على المياه الخلفية إلى أفضل مدينة إسلامية في العالم أجمع - أي مثال لإمكان الدمج الإيجابي لثقافتي الشرق والغرب. وبصفتهم ممثلين محليين لانتاج النفط، أحس بارونات النفط المسلمون أن عليهم القيام بالإدلاء بتصريحات استعراضية علنية عن ثرواتهم الجديدة. قاموا بجولات كبرى في أنحاء أوروبا واستأجروا مهندسين معماريين لبناء نسخ من قصور أوروبا، ومتاحفها، ودار للأوبرا، كل ذلك في محاولة لربط مدينتهم الشرقية بمستقبلها الغربي لا بماضيها الشرقي. وبينما كان الأذريون المسلمون شغوفين بتعليم المرأة وظهورها العلني أو في الإدارات الحكومية. استفادت باكو من وضعها الجغرافي الأزلي على مفترق طرق الشرق والغرب والذي استغله أهلها لمعرفة أحدث الأزياء والتغيرات التي تقع في العالم.

كانت باكو تتطور لتحمل قدرا متساويا من خليط من الملامح

لمدينة مراوغة، مكونة من بغداد القرون الوسطى، ومدينة بتسبورغ الصناعية، وباريس القرن التاسع عشر، وفي المجمل كانت باكو آخر المدن الكبرى التي شيدت قبل الحرب العالمية الأولى مما أفسد الحلم بأن الغرب يمكن له أن يحافظ على امتداده الدائم إلى الأبد إلى الوثنيات المتحضرة الكبرى. كانت باكو موطنا للتطرفات المدهشة من الثراء والفقر معا، حيث يظهر الغاز المضيء وخطوط الهواتف الحديثة مقارنة مدهشة من الوضوح الصادم بقوافل الجمال المارة عبر طرقاتها وهزال النساك الزرادشتيين المتضورين جوعا. وصل تاريخ المنطقة الجامح والمتصادم إلى ذروته عند بدايات القرن العشرين، حين أصبحت باكو تمثل جبهة «الشرق المضطربة» لأوروبا، أو أعظم مدن الطفرات النفطية. وسجل زائر بريطاني للمنطقة في ذلك الوقت انطباعاته قائلا: «تثير المدينة خيال المرء تماثل مدينة أمريكية جامحة في الغرب. فهناك نفس الانطباع بالحداثة حول كل شيء بها، هنا أيضا تشعر بالجو ذاته. فكل فرد بها تتملكه الآمال والتطلعات غير المحدودة».

غير أنه بحلول عام ١٩٠٥، تخضبت جميع الجبهات الروسية بالدماء، حين راحت الإمبراطورية الروسية تنزلق إلى أولى ثوراتها الشعبية. وامتدت الاضطرابات على الحدود الروسية من كوريا حتى نيفيسكي بروسبكت على تخوم سانت بيترسبورغ، ولم تستثن باكو من تلك الاضطرابات الدموية. جاءت الثورة بكل ما تحمله من ويلات، كما تجيء أغلب الثورات، على شكل صراعات دموية وكارثية، فكانت واحدة من أكثر الثورات دموية في التاريخ. كان مستشارو القيصر قد أملوا في أن الحرب الروسية اليابانية التي خاضوها من ١٩٠٤-١٩٠٥ سوف تجهض الثورة وتشغل الجماهير بالحرب التي

تخوضها بلادهم وأن تلك الحرب سوف تجهض الثورة وتفتر حدتها وعن طريق تحقيق انتصار سريع وعاجل كجرعة تغذي المشاعر الوطنية وكذلك الهيمنة على الغابات الخشبية على السواحل الكورية. وبدلا من تحقق ذلك، تعرضت الجيوش الروسية لهزائم عسكرية قاسية. كانت الكارثة التي وقعت للجيش في الشرق الأقصى - ضد أناس أطلق عليهم القيصر «القرود القزمة قصيرة الذيل» - ولكن تلك القردة قصيرة الذيل كشفت مدى هشاشة الإمبراطورية الروسية وأنها في سبيلها للاحتضار.

وفي حين كانت خسائر الحرب تنزل مدوية - إضافة إلى مئات آلاف الجنود القتلى، فبشكل عملي أغرق الأسطول الياباني كل الأسطول الروسي - أعوام من إرهاب الجناح اليساري ومن طغيان واستبداد القيصر تضاربت كلها في عام من الثورة، والتطهير العرقي، وانهيار عام شامل. ولم يكن الجيش الروسي شبه المدمر في حالة تسمح له بإخماد القلاقل والاضطرابات. الأسطول البحري الوحيد الذي بقي من كل أساطيل القيصر الروسي البحرية الهائلة والذي لم يتمكن اليابانيون من إغراقه كان أسطول البحر الأسود الشهير، وعلى رأسه السفينة البحرية الفريدة «بوتمكين»، حيث قام بحارتها بالتمرد على قيادتهم عام ١٩٠٥ وأطلقوا النار على الضباط. كل ما كان يقع حول البحر الأسود وبحر قزوين أدى إلى انهيار النظام العام. وبينما لقيت أعداد هائلة من الروس مصرعها، أظهرت المدافع الرشاشة والآلية على التلال الجليدية لمنشوريا وشبه الجزيرة الكورية قدرة مذهلة لوسائل القتل الحديثة المستخدمة في الحرب، الإرهاب الثوري والمذابح التي حدثت في الداخل الروسي في ذلك العام أظهرت ألوانا جديدة من قسوة السياسات وتوحشها، وغطى كلاهما وظلل على

الرعب والإرهاب الذي يمكن أن يتولد في وسائل الإعلام عن العنف الجماعي الحديث[(١)]

في العام التالي لولادة ليف، قتل وأصيب ما يربو على ثلاثة آلاف وستمائة مسؤول وموظف حكومي روسي على أيدي الإرهابيين - وقع كل ذلك حتى بعد أن هدأت الثورة بوعد من القيصر بعمل دستور للبلاد وإجراء إصلاحات دستورية. أصبحت أعمال الإرهاب شائعة ومنتشرة في طفولة ليف حتى أن العديد من الصحف الروسية خصصت أقساما مكرسة فقط لنشر القوائم اليومية للاغتيالات السياسية التي وقعت في اليوم السابق والتفجيرات التي تحدث في أرجاء الإمبراطورية. واختلط العنف السياسي للثورة بالعنف الديني والعنصري أيضا. وبينما لم يعد أغلب المؤرخين يؤمنون بأن حكومة القيصر قد خططت وأدارت المذابح عن عمد، يتضح من رسائل نيقولا ومستشاريه أنهم قد رحبوا بها وحظيت برضاهم، كان القيصر يشعر أن الثورة ليست إلا مؤامرة يهودية وأن المذابح التي تقام لليهود بإمكانها أن تتصدى لتلك المؤامرة، مع تشجيع «القيم التقليدية» للشعب الروسي. غير أن العنف والاضطرابات راح كل منهما يغذي الآخر. وعلى وجه التقريب وقعت سبعمائة مذبحة لليهود في

---

(١) أظهرت الحرب الروسية - اليابانية كيف يمكن للرشاشات الآلية أن تقتل الآلاف على مدى ساعات قليلة، مما أجبر الجنود لأول مرة في التاريخ على حفر خنادق للاحتماء، ثم يخرجون منها في موجات هجومية ليلقوا حتفهم الجماعي. ومات الملايين في فيردان وإيبرن حين وعي ضباطهم الدرس الذي تعلموه في معركة موكدن، وهو ما صدم الصحافيين والجنرالات على حد سواء في ذلك الوقت. ولكن بحلول عام ١٩١٤، كانت دروس الحرب الروسية اليابانية قد تقلصت لتصبح مجرد هامش في ذيل الصفحات.

الأسبوعين اللذين تليا إعلان القيصر في ١٧ أكتوبر عن وعده بإعداد دستور للبلاد.

كل أنواع القتلة والسفاحين وفرق القتل والمتعصبين الدينيين والعصابات والإرهابيين هبطوا على باكو لأن المدينة كانت في نظرهم طاغوت المال في المنطقة، ومركز تجمع كبار الرأسماليين. هاجمتها العصابات البلشفية من اليسار، مغيرة على البنوك والخزائن المالية الكبرى لتمويل حركتهم السياسية الجديدة. وهاجمتها قوات قوزاق القيصر من اليمين، لإخماد الفتنة والتمرد.

وبعد خمسة وثلاثين عاما، سوف يتذكر ليف من جديد وهو على فراش الموت كيف كانت «الدماء تتدفق في يوم مولده على أحجار الطريق المعبد بالحجارة على النسق الأوربي . . . وكيف كانت النيران تلتهم المنازل، وكيف كان القوزاق على خيولهم ذات القوائم القصيرة يتدفقون إلى شوارع المدينة». وفي باقي أنحاء الإمبراطورية الروسية، كانت دماء اليهود تتدفق أيضا في الشوارع، ولكن في باكو على وجه التحديد، كانت الدماء التي تتدفق كما يتذكر ليف هي دماء الأرمن. كان الأرمن يعيشون في هدوء وسلام ورخاء في خضم الخليط العرقي المكون لسكان أذربيجان على مدى مئات من السنين مضطلعين بالدور الذي كان اليهود يقومون به في الأماكن الأخرى كتجار ومقرضي مال ومرابين؛ كما كان بعض أغنى بارونات النفط من الأرمن. ولكن بعد انهيار التوازنات العرقية القديمة، تحملت تلك الأقلية المنتجة كل وطأة وتبعات الفوضى التي انفلتت من عقالها. بعض من صور تلك الأحداث التي كان ليف يتذكرها وهو على فراش موته عرفها مما دونته امرأة أرمينية شابة، من أرمن ولاية أوهايو التي عاشت تلك الاضطرابات في طفولتها وكتبت عن تلك التجربة المريرة في مجلة

«آسيا - مجلة المشرق الأمريكية»[1]، ووصفت كيف تم استدعاء قوات القوزاق القيصرية لاستعادة النظام ووأد التمرد بعد أيام من الفوضى والعصيان الذي أدى إلى تلك المذابح في شوارع باكو والتي شكلت تلك الصور التخيلية المزعجة للعام الذي ولد به ليف (وكانت السبب في إرسال أمه وهي حامل به إلى سويسرا ووجدت نفسها وحيدة في عربة قطار خارج باكو أثناء عودتها). كتبت تلك السيدة الأرمينية عن تجربتها في مجلة «آسيا» قائلة:

> كانت آلاف من جثث القتلى منثورة في الشوارع غير تلك المكدسة أكواما في المقابر المسيحية والإسلامية لا تجد من يدفنها. كانت روائح الجثث المتعفنة تبعث على الغثيان. كنا نجد النساء في كل مكان يبحثن بأعين مجنونة عن أبنائهن، فيما كان أزواجهن يقلبون في أكوام جثث القتلى المتعفنة بحثا عن الأبناء المفقودين.
>
> في رواق مبنى حكومي قابلنا أحد المسئولين الذي قال: «لقد وهبهم القيصر دستورا»، ثم أردف وشفتاه المتصلبتان تسحرانني:

---

(١) واحدة من أكبر وأشهر المجلات في عقدي العشرينيات والثلاثينيات في القرن العشرين، وكانت مجلة «آسيا» تغذي شهية الرأي العام لأنباء وأخبار «المشرق» والذي كان مصدرا لا ينضب للأخبار المثيرة. كانت مجلة آسيا تضم كتابات كبار كتاب ذلك الوقت - فقد كان جون دوس باسوس يغطي المشكلة الفلسطينية في إبان صدور وعد بلفور - غير أنها كانت تضم بصفة أساسية أصوات الناس العاديين من غير الكتاب مثل تلك السيدة الأرمينية الأمريكية من ولاية أوهايو، إلى جوار كتابات سفراء بريطانيا وثوار الهند، ومديري البيوت العثمانيين ورجال الصناعة السيبيريين. وحتى بتمثيل المجلة للسحر الرومانسي «للمشرق»، بنت المجلة مفاهيما من الاستشراق الذي تبناه البعض وعاداه بعض آخر، وقدمت مقالات المستشرقين كبار السن من على كراسيهم المدولبة عن خطايا الإمبريالية الغربية وما يجب اتخاذه إزاءها.

«كل واحد أصبح حرا في أن يفعل ما يروقه. ولهذا - لهذا - يقوم القوزاق بحرق الأحياء». . . كانت النيران تلتهم كل أحياء المدينة، حتى أمواج بحر قزوين المغطاة بطبقة من النفط المتسرب من الآبار المشتعلة كانت هي الأخرى تنفث النيران كتنين غاضب.

هكذا احتفى القوزاق بالدستور الذي وهبه القيصر للشعب الروسي بعد هزيمته في الحرب الروسية - اليابانية.

تم احتواء الثورة في نهاية المطاف، وبدا الأمر على مدى زمني قصير أن الحكم القيصري الاستبدادي الأخرق قد يكون قادراً على إصلاح ذاته. غير أن مذابح وفوضى عام ١٩٠٥ كانت لها تبعاتها وتداعياتها في الحرب العالمية الأولى. وبالضرورة والحتم، كان لابد للنظام القيصري أن يهوي إلى مزيد من الطغيان والفساد، وكان من بين الخسائر المخزية غير المتوقعة ذلك المحرك الرأسمالي متعدد الأعراق الرابض على حافة بحر قزوين، حيث كانت تموج في كل الصدور آمال عريضة تكاد تلامس النجوم».

افترضتُ مبدئيا أن الصورة التي رسمها ليف لأمه على مدى حياته كامرأة ثورية كانت مقصودة لخلق تأثير معين، فهي رمزيا تتضمن مأساة حياته، وانهيار عالمه داخل عائلته ذاتها: فإخراج أبوه لأمه من معتقل قيصري، كان بمثابة من يغزل بدايات تدمير ليف حتى قبل أن يولد. غير أنه بينما كانت فكرة تصوير أبيه كأرستقراطي مسلم مختلقة كليا، اكتشفت أن فكرة تصوير أمه كثورية يستند إلى أسس حقيقية بشكل ما. وبالفعل، كان التناقض بين القطبين المتناقضين في بيت واحد - أي بين رأسمالي من بارونات النفط وزوجة شيوعية - قد كان سببا في موتها في عام ١٩١١ أو عام ١٩١٢، حين كانت ما تزال في العشرينيات من عمرها وكان ليف في السادسة أو السابعة من عمره.

وفي حين كتب ليف مقالات عن عائلته أظهر فيها أباه كسيد من السادة المسلمين ينحدر من نسب أسيوي مختلط، كان من النادر أن يذكر أمه أو يصف شكلها، ولا أي شيء عن شخصيتها، ولا انتمائها العائلي، كما لو كانت الثورية في غنى عن مثل تلك الجوانب. وقدم عنها صورة استفزازية وتحريضية مثيرة - وتعظيم لذاتها - تفيد بأن أمه كانت من عائلة روسية نبيلة. تلك السيدة «بيرتا سلوتزكي» الرافضة لارستقراطيتها - وهو الإسم الذي وجد مدونا بشكل ما بعد ذلك في قوائم الشرطة الفاشية في عقد الثلاثينيات - وامتصتها الدوامات الثورية الشيوعية الحمراء حتى تمكن أبوه من إخراجها من أحد المعتقلات القيصرية في ذلك اليوم المصيري: فتاة شابه ذات انتماءات ثورية ولكنها في الوقت ذاته من سلالة نبيلة نقية. وبعد موت ليف، كان النعي التفصيلي يعيد ذكر ذلك الميراث الأمومي العظيم: «السلالة السلوتزكية جزء من النبالة الروسية، والتي كان على رأسها بويار سلوتزكي، وهو أحد كبار رجال بلاط فاسيلي الأسود. كما أن أحد أبناء سلالة سلوتزكي قطع رأسه إبان حكم إيفان الرابع. وتظهر السلالة السلوتزكية في المجلد الثالث من مجلدات أنساب النبلاء الروس».

لم يصف ليف أمه أبدا بأي تفصيل (على الأقل حتى أجبر بسبب الظروف على تقديم وثائق دقيقة لإثبات أصله الآري الممتد على مدى ثلاثة أجيال سابقة (من كل من جانبي شجرة عائلته، أي من جانب عائلة أبيه وعائلة أمه). وفي الحقيقة، كان هناك غموض مقصود في مقالاته المنشورة عن أمه. وخلال ممارسته لمهنته ككاتب و«متخصص في حضارة الشرق»، حافظ على الدوام على إبراز وتقديم صور خيالية رائعة وقصصا بديعة عن أصل أبيه وبنى كثيرا على تلك الروايات المختلقة. وفهم أصدقاؤه المقربون أن هذا محض كلام فارغ من أي

معنى، لأنهم حين ألتقوا بأبى ليف، الذي شاركه المسكن ببرلين وفيينا لأعوام، كان من الواضح أنه لم يكن لوردا إقطاعيا من سهوب جنوب شرق أوروبا كما كان يدعي. وعلى مدى الزمن، رحت أتتبع كثيراً من المعارف الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة وسمعت حكاياتهم عن السيد المسن الأنيق نوسيمباوم، والذي كان يترك انطباعا قويا بأنه لم يكن مسلما بأية حال.

غير أني بدأت أشعر باليأس والإحباط من إمكان التوصل إلى أية معلومات في أي مكان عن أم ليف. لم أجد أي أحد يتذكر أي شيء عنها ولا حتى عن أي شيء ذكره ليف عنها. ما فاجأني بشدة الدفاتر الجلدية الستة، التي تضم ذكريات فراش موت ليف، مدونا فيها آلاف الكلمات عن أي أحد عنى له شيئا ما في أي فترة من حياته، ولم تضم إلا فكرة واحدة في برودة الجليد عن أمه: «جلبتني أمي إلى هذا العالم - وهو الشيء الوحيد الذي عملته لي». لم تتجاهل الدفاتر أي أحد آخر ممن سببوا له ألما في أي وقت - وهو يغمرهم بأمواج كمد البحر من الغضب، بلغة نثرية وصفية تفصيلية خانقة. ولكن فيما يختص بأمه، في كل المذكرات بأجمعها، لا يوجد إلا صدى شبحي لها.

شعرت بيقين بأنني لن أصل أبدا إلى معلومات مؤكدة عن أمه حتى علمت ذات يوم أن هناك رجلاً في إسرائيل يحاول أن يصل إليَّ. كان قد أتصل بصحيفة النيويوركر بعد أعوام من كتابة مقالي عن ظهور ليف هناك، غير أن تلك الرسالة لم تصلني؛ ثم حاول الوصول إلي عن طريق الناشر الإسرائيلي الذي نشر رواية «علي ونينو»، فحوله الناشر إلى وكالتي الأدبية ومرة أخرى اتصل بنيويورك. وفي هذه المرة اتصل بي مساعدي في الوكالة في الحال وقال لي إن ابن عم ليف نوسيمباوم يود أن يتصل بي.

ليف نوسيمباوم له ابن عم؟ انتظرت متسائلا إن كان هذا سيكون اختراقا وكشفا كما تشي بدايته أم سيتضح أنه نوع من الغثاء الذي قد لا يفضي إلى شيء؟. وأخيرا، وصلني بريد إلكتروني يبدو واعدا يذكر فيه مرسله أنه مهتم «بالقصة التراجيدية لليف نوسيمباوم (أسعد بيك، أو قربان سعيد) [هكذا]، لأنه بينما كان يتفحص تاريخ عائلته على مدى العقد السابق، اكتشف أن ليف أو «ليوفا» كما كانت تدعوه العائلة، كان ابن عم جدته. كان يتصل بي كما قال - لأنه كما وجدت من مذكرات ليف غير المنشورة، في الدفاتر الجلدية الستة - آملا أن أتمكن من «أزيح النقاب عن الغموض» الذي يغلف تاريخ عائلته. وعلى وجه التحديد كان يطلب أي معلومات «عن انتحار أم ليف بينما كان في الثامنة من عمره، أو عن زواج ليف بامرأة ألمانية على مدى أربعة أعوام».

واستجبت في الحال وأجريت محادثة هاتفية طويلة بذلك الرجل في إسرائيل مباشرة بعد قراءتي لرسالته الإلكترونية.

حجبت في بداية المكالمة أية معلومات لم ترد في مقالة صحيفة النيويوركر عن ليف، للتيقن من أنه يتحدث فعلا عن ذات ليف نوسيمباوم الذي أقتفي أثره. فعلى سبيل المثال، لم أكن قد ذكرت بذلك المقال اسم أم ليف الذي عرفته من السجلات الفاشستية: وهو «بيترا سلوتزكي» (لم يذكر ليف اسمها أبدا في أي من كتاباته المنشورة وغير المنشورة). وحين وصل إلى الموضع الذي ذكر لي فيه كل تاريخ عائلة سلوتزكي، بما فيهم أخوات جداته تامارا وصوفي، اللتان هجرتا بيلوروسيا واتجهتا إلى باكو في نهاية القرن التاسع عشر، متأثرتين بأختهما الكبرى المقدامة بيترا، التي بطريقة ما، تزوجت من مليونير من باكو يدعى نوسيمباوم - هنا علمت أنني أتحدث إلى الشخص

الصحيح. وعلمت منه أن أم ليف كانت يهودية. ومثل والده، كانت من يهود منطقة البلطيق الأشكيناز، لا من النبلاء الروس بأي حال من الأحوال.

وفجأة، راحت الصورة تتضح أكثر وأكثر. كانت يهودية أمه من الحقائق التي ظل ليف ينكرها طوال عمره بكل تشدد، حتى أمام أقرب أصدقائه. وبينما كان كل أصدقائه يعرفون أن قصة انحداره عن عائلة مسلمة من جهة ألأب ليست إلا محض خيال، فإن قصة أمه المسيحية التي تحولت إلى شيوعية روسية منحدرة من عائلة نبيلة المحتد فظلت على حالها بسبب عدم وجودها. ولكن طبقا لذلك القريب من إسرائيل- وهو عالم متقاعد مهتم بمتابعة شجرة عائلته ويرسم لها جدولا زمنيا يضم تتابع أجيالها- وصلت أم ليف إلى باكو قادمة من قرية فقيرة نائية وقذرة في بيلوروسيا تدعى بيتروفيتشي. أما سلوتزكي، اسم العائلة، فهو يشير إلى أجداد بيترا الذين كانوا يعيشون في مدينة سلوتزك على مبعدة خمسين كيلومترا من القرية. كانت أم بيترا أيضا يهودية خالصة من أبوين يهوديين، كان اسم امها بالزواج راتنر، وبعد موت السيد سلوتزكين، تزوجت مرة ثانية من السيد كاتس).

كان ليف في أغلب الأحوال يحوم حول مواضيع تخص الأصول العرقية عن طريق عرض المشكلة اليهودية، حتى للرتب والمراكز العليا الفاشستية، كما لو كانت تلك المشكلة لا تنطبق على القوقازيين أيضا، حيث كان الانتماء العرقي والقبلي متعدد الأوجه والأشكال. (كتب ليف «كل القوقازيين دون استثناء استعاروا بعض التراث الديني من اليهود، فهنا تجد آية من التوراة يستعيرونها في أداء صلواتهم، وهناك بعض العادات مثل زواج الشقيق من أرملة شقيقه. في أي الحالات، فإن نوع ونمط الوجه اليهودي كان منتشرا وشائعا بين

سكان القوقاز»)، ولكن أن يكون له أم يهودية من منطقة البلقان المغلقة على اليهود فقد كانت حقيقة لا تقبل الجدل ولا المناقشة ولكنها كانت من الحقائق التي وجد أن عليه أن يتجنبها وينحيها إلى مناطق الظلال المعتمة. كان يبرز أبيه كسيد مسلم في العلن، ورجل أعمال يهودي أمام أصدقائه وخلصائه، وبشكل ما، كان ليف يستطيع أن يتحدث وأن يكتب شاقا طريقه على هذا النحو. ولأن أمه تنتمي في الأصل إلى مدينة سلوتزك، كان عليها أن تصبح من النبلاء بأي ثمن. واشتعلت جهوده ووصلت إلى قمتها في تأسيسه خط وراثي لبيرتا (أمه) خلال أعوامه الأخيرة، حين كان يصارع الموت حرفيا في سبيل تقديم وإبراز ما يثبت أصله الآري لكل من يهبه فرصة للاستماع إليه. وكما كتب لـ«بيما أندريا» في عام ١٩٤٢ قائلا:

نعم، هناك بالفعل سبب يجعل الناس يعتقدون أن أمي يهودية. فموطن عشيرتها الأصلي في سلوتزك، مدينة سلوتزك التي لم تعد موجودة حاليا. وحكام ونبلاء سلوتزك يدعون السلوتزكيين بالروسية. وهم يمتلكون أراضي تلك المنطقة من أزمان قديمة حتى في عهد فاسيلي الأسود كانت ملكا لهم. كانوا في الأصل أمراء من موسكو، وكان العمال والفلاحون الذين يعملون في تلك الأرض من رعاياهم وخاضعين لهم. ولم يكن لأولئك العمال والمزارعون الفقراء أسماء لعائلاتهم على مدى زمني طويل، أي أن السلوتزكي الخاضع لم يكن له اسم عائلة، لا يعرف إلا اسمه الشخصي فقط، مثل إيفان، الخاضع لنظام سلوتزكي، أو بالروسية يصبح اسمه إيفان سلوتزكين أي المنتمي لمنطقة ونبلاء سلوتزك. ولم تكن هناك إلا عائلة نبلاء سلوتزكية واحدة. لذلك يوجد كثير من السلوتزكيين، ومنهم كثير من اللتوانيين واليهود. وأعرف كثيرا منهم شخصيا.

بالطبع، عرفت مزيدا من المعلومات من قريب ليف الإسرائيلي عن عائلة بيرتا وأصلها أكثر كثيرا مما كان يعرفه ليف ذاته عن أمه، حيث إنه يشكو، في رسالة بعد أخرى، من أن أباه وأقارب أمه كانوا يرفضون الحديث عنها. (كانت صوفيا الشقيقة الصغرى لبيرتا تقول له حين يستحثها أن تحكي له شيئا، أي شيء، عن أمه «صدقني - من الأفضل لك ألا تعرف أي شيء عنها»). وسرعان ما عرفني قريب ليف الإسرائيلي بقريب آخر أصبح بالفعل دليلا ومرشدا لا يقدر بثمن للمنطقة الحالكة والمظلمة من طفولة ليف، وهو: نعوم هيرمونت، وهو رجل مسن في الثمانين من عمره ولد في برلين عام ١٩٢٣، ولكنه عاش في باريس كل عمره - باستثناء فترة قصيرة فر فيها إلى إيطاليا هربا من النازي -، كانت بيرتا التي لم يرها نعوم في حياته عمة له. كانت أمه، تامارا، شقيقة بيرتا، على علاقة وثيقة بليف. بل إن نعوم التقى بليف مرة واحدة في باريس، حين كان في العاشرة من عمره على وجه التقريب؛ وهو يتذكر فقط بيقين أن ليف «لم يبتسم أبدا». ومن نعوم، كان باستطاعتي أن أجمع أجزاء المعلومات الشاردة التي تلقي الضوء على قصة حياة بيرتا.

في محادثاتنا الأولى، أخبرني مسيو هيرمونت أن بيرتا وشقيقاتها رحلوا عن بيلو روسيا واتجهوا إلى باكو لأن أباهم كان قد مات؛ وتزوجت أمهم من زوج آخر ولم يكن باستطاعتها إعالتهن، كن يتيمات بكل ما تحمله الكلمة من تبعات. وأكد لي أيضا أن بيرتا انتحرت، ولم يعرف أحد السبب ولا الدافع، وبالضبط؛ كل ما قالته له أمه التي كانت تعيش مع بيرتا في ذلك الوقت أن بيرتا «لديها مشاعر ثورية جارفة»، وأن هناك نوعا من الصراع الذي لا تعرف تفاصيله داخل أسرة بيرتا بعد زواجها، أي مشاكل عائلية. (أخبر ليف بيما أنه

حين كبر في العمر، وجد رسالتين لأمه في البيت بباكو، «رسائل غاية في الثورية»)، وبعد ذلك بزمن، حين التقينا بباريس، قال نعوم إن أمه كانت قد قالت له إن بيرتا قد انتحرت بتجرع كمية من حامض مركز.

فيما حول ليف، كان أبناء العائلة يشيرون فقط إلى «الحادث المروع، أو المأساوي»، وكانت تلك هي الطريقة التي يتكلم بها كل من عرفوا بيرتا، تكلموا بالإشارة والهمس والغمز، بالتلميحات الغامضة، بل حتى بلهجة الاتهام أحيانا. «كانت قد عادت لتوها من أوربا. ولم يكن أمامها أي خيار آخر. وأظهر الزمن أنه كان الخيار الخطأ. لا أستطيع البوح بأكثر من هذا» - كان ذلك كل ما كانت تصرح به صوفيا لليف. وفي وقت آخر، في باريس، قالت له تامارا والدمع يترقرق في مقلتيها: «في الحقيقة لا يلام إلا شخصان - أنت وأباك ». ولا عجب في أن ذلك كان يدفع بليف إلى حافة الجنون. فما الذي يمكن أن يعنيه ذلك؟ في رسائله إلى بيما، كان ما زال في كرب وعذاب نفسي مبرح بسبب ذلك، خاصة مع افتراض أنه - وهو في السادسة أو السابعة من عمره - يمكن أن يلقى عليه باللائمة بأي شكل كان. فكيف بانتحار أمه؟

هل كانت بيرتا عنصرا نشطا في الحركة الثورية البلشفية في باكو، وهل كانت مشتتة الولاء مما أدى إلى تمزقها النفسي؟ ليس ذلك بعيدا عن الاحتمال. كانت منطقة البلطيق المغلقة على اليهود منطقة تفريخ للثوار، رجال ونساء، في القرن التاسع عشر، وكانت هناك خلية ثورية في باكو من أعوام عديدة قبل وصول بيرتا إلى باكو حوالي عام ١٩٠٠. كان جيش عمال النفط - وهم في الأصل من طبقة البروليتاريا (الطبقة العاملة)، ويكونون نحو ربع سكان المدينة على

وجه التقريب - قد جذب فصائل المناشفة المنافسين وفصائل البلاشفة والتواقين إلى تحويلهم لتبني قضيتهم والإيمان بها. وركز ليف في رسائله لبيما على عنصر ارتباط واحد وهو عنصر مدهش ومذهل على وجه التخصيص. فالعديد من الرسائل التي كتبها عامي ١٩٤٠ و١٩٤١ كانت حول صاحب الندوب أو «صاحب الندوات والمؤتمرات»، أطلق عليه ليف بشكل ثابت ومتكرر اسم جوزيف ستالين، ثم جوزيف زجاشفيلي، ولكن في الأغلب كان يشير إلى ستالين باسمه الحربي الحركي المبكر، وهو كوبا، كان كوبا قد استقر في باكو كمركز حركة ثورية منذ عام ١٩٠٧، حين كان في السابعة والعشرين من عمره (كان ستالين بالفعل مصابا بندوب شديدة منذ طفولته بعد إصابته وهو طفل بمرض الجدري)[١]. ظل مقيما ومرتحلا ومترددا على المدينة حتى عام ١٩١٢، أحيانا بسجنها، ولكن في الأغلب عاملا في خفية وسرية تحت الأرض. انضم جوزيف ستالين أو «كوبا» للحركة الثورية في جورجيا، بعد طرده من مدرسة اللاهوت الدينية في مدينة تيفليس عام

(١) دمر ستالين كل المصادر التي تحتوي على أي شيء عن حياته المبكرة (طبقا لمصادر عديدة، أنه ربما قام بذلك لأنه بدأ حياته كجاسوس للأوخرانا وهي الشرطة السرية القيصرية)، ولكن من الشائع والمعروف انه اتخذ لنفسه اسما حركيا هو كوبا، وهي شخصيته المحببة من الرواية التي يعشقها «قاتل أبيه» من تأليف أليكسندر كازبيجي، وهي قصة حب وانتقام تدور أحداثها في القوقاز في أربعينيات القرن التاسع عشر. كان شخصية كوبا في الرواية مثل شخصية روبن هود مخلوطة بقسوة وتحارب محتلي روسيا. والرواية مليئة بتقاليد رومانسية للفروسية الجيورجية وعادات سكان جبال القوقاز الغامضة، وهي تشبه كثيرا موضوعات ليف التي حكاها في فراره من البلاشفة. وعلى الرغم من أنهما لم يختلفا كثيرا، كان «أسد بيه» وستالين يتأثر كلاهما بعمق بالرومانتيكية الحالمة التي كانت ترى منطقة القوقاز على أنها جبال تأوي المتمردين والفرسان الخارجين والثائرين على عدوانية العالم.

١٨٩٩، وكان قد بقي له عام واحد ليتخرج منها ككاهن ديني، وعرف عنه في جورجيا أنه ينظم هجمات سلب ونهب عنيفة - مثل سرقات البنوك والخزائن لتمويل الحركة البلشفية المتنامية (وهو تكتيك حاز على رضى وموافقة لينين). وكان الجانب الآخر الأعظم من تمويل الحزب في تلك المرحلة يأتي من هبات وتبرعات البارونات الأثرياء.

وسوف يروي ليف أن أمه كانت تساعد «مقيم الندوات والمؤتمرات»، وبالفعل، كتب في عام ١٩٤٠ رسالة قال فيها إن ستالين ذاته أخبره أن أمه «قد عاونته كثيرا فيما مضى». ومن العجيب، أن ليف كتب في الرسالة ذاتها «فقط حين كان المرقط يعيش معنا أخبرني بضعة أشياء عن أمي»، ويفترض أن ذلك كان عام ١٩٢٠، في باكو، وذلك قبل فترة قصيرة من فرار ليف وأباه من باكو للأبد وعاد ستالين بعد فترة وجيزة إلى باكو بصحبة البلاشفة المنتصرين. فهل كان ليف يزين دوره كشاهد على الثورة الروسية؟ من المستحيل معرفة ذلك. ولكن من الواضح أنه يتوقع أن «بيما» كانت على دراية بالأحوال التي سادت تلك الفترة. وفي أوقات أخرى، كان ليف يشير بطرق غير مباشرة إلى أن ستالين كان بشكل ما سببا في لقاء أمه وأبيه، وكذلك كان سببا في كل ما حدث بينهما من مآسٍ. وهو يوحي بأن بيرتا وستالين، الذي لم يكن وجها بارزا بعد في الحركة البلشفية، كانا متقاربين في السن حين جاء ستالين إلى باكو. وكانت لديه في ذلك الوقت كل الدوافع للبحث عن متعاطفة ثورية وثرية تزوجت المال.

ويظل من الصعب تصور أن أي عضو من بيت نوسيمباوم المتحضر والمترف يمكن أن يكون رفيقا لكوبا زجاشفيلي (ستالين). كان في تلك المرحلة يبدو كلص وضيع من المافيا وطالب متعصب بجنون وتطرف لعقيدة سياسية، بلحية مطلقة بلا اهتمام بتشذيبها

وحروق جانبية وولع مجنون بلغة الاسبرانتو العالمية، والتي اقتنع بأنها سوف تصبح لغة المستقبل السائدة بين كل سكان الأرض. غير أني اكتشفت على الأقل رابطة صلة محتملة. ففي مقال قصير، أشار ليف مرة إلى أمه وستالين بذات المصطلحات التي سوف يستخدمها عندما يكتب إلى بيما بعد ذلك بعشرين عاما: «كانت أمي، هي وكراسين، الذي كان يدير محطات توليد الكهرباء في باكو، يمولان مطبعة ستالين الشيوعية السرية غير المشروعة، موِّلتهُ ببعض من مجوهراتها». كنت قد أعدت قراءة تلك الجملة مرات عديدة قبل أن أوقن بأن عليَّ أن أتوصل للمزيد عن ذلك المدعو كراسين - والذي افترضت أنه لم يكن له أية علاقة أو صلة بليونيد كراسين، وهو من الشخصيات الرئيسة في الثورة الروسية وكان صديقا مقربا للينين وخصما له في الوقت ذاته، غير أنه اتضح بعد ذلك أنه ذات الشخص. فإلى جوار ستالين، كان كراسين مصمم الخطط البلشفية في باكو قبل عام ١٩١٧. وكما سجل آلان مورهيد في كتابه «الثورة الروسية»، كان كراسين:

> مثالا نموذجيا للحياة المزدوجة. وعلى قدر ماكانت السلطات تعلم، كان كراسين مهندسا على دراية كبيرة بالأعمال الهندسية، وكان في السر من أكبر المهيجين البلاشفة ويعمل على مجالات واسعة. وأدار مطبعة سرية غير مشروعة، وكان يقوم بجمع أموال التبرعات من الليبراليين المتعاطفين، ويقوم بإرسال العملاء في مهام كثيرة جيئة وذهابا عبر وعلى طول الحدود الروسية، وكان يقوم بأعمال إضافية مثل تصنيع العبوات المتفجرة للإرهابيين.

لذلك كان كراسين وستالين يقومان بذات المهام في باكو إلى حد كبير. ورغم ذلك لم يكن لستالين أي مدخل يصله بمفوض شركات النفط في باكو بينما كان كراسين - «لا تشوبه شائبة وواسع الاطلاع

والمعرفة ويتمتع بثقافة حديثة معاصرة ولا خطايا له وعلى خلق، كل هذا مع جاذبية وسحر كانا يميزانه» - وبكل سهولة وجد لنفسه مقعدا على طاولة طعام أبراهام نوسيمباوم، في الوقت الذي كان يخطط فيه لتدميره. حياة مزدوجة حقا. بدأت أدرك كيف أن بيرتا بمجرد أن تعرى موقفها - كما كان مكشوفا من قبل، مما أدى إلى نشوب الخلافات في البيت، تلك الخلافات التي ظلت أختها الصغرى تمارا تتذكرها بعد أن كبرت - وربما لم تجد خلاصا من ذلك التناقض. قد يكون دورها كمخربة قد انكشف تحت سقف البيت الذي تعيش به، تعمل على تدمير وسقوط زوجها. من الصعب تخيل مدى الكرب الذي قد يدفع بإنسان ما لتجرع المادة الحمضية لينتحر (قال نعوم إنها «عانت معاناة مفزعة وهي تحتضر من الحامض»)، ولكني ظننت أنني قد بدأت في التوصل إلى بعض الأفكار.

كان من الواضح أن لدى ليف فكرة عن ذلك، فمن خلال مراسلاته، أشار إلى جريمة أمه... فقد كتب: «وهذا سبب شعوري تجاهها وهذا ما زلت أومن به، لقد سممت حياة أبي وبدرجة أقل حياتي أنا». كانت المرارة التي يشعر بها تجاه أمه توضع في غير محلها وتوجه لآخرين، وقال في رسائله عن ستالين «لقد استولى على موطني، وعلى بيتنا، وعلى كل شيء». وفي عام ١٩٣١، نشر ليف أول كتاب عن سيرة ستالين، وحقق الكتاب أفضل المبيعات؛ وحمل الغلاف عنوانا فرعيا هو: «مهنة المتعصب».

وبينما نجد أنه من غير المعتاد أن تجد الأم منتمية إلى حركة ثورية سرية، إلا أن ذلك كان أكثر اعتيادا في الإمبراطورية الروسية في بدايات القرن العشرين أكثر من أي عصر أو مكان آخر. وبنهاية القرن

التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت النساء يكونَّ حوالي ثلث منظمة المجابهة الشيوعية الثورية، وهي الجناح الإرهابي العنيف لأشهر حزب شعبي ثوري شيوعي في روسيا. كانت الشابات الصغيرات يصنعن القنابل ويلقينها على الأهداف المطلوبة، وكنَّ يخططن وينفذن الاغتيالات، وأظهرن أنهن لا يقلن عن الذكور في التشدد والتعصب للأيديولوجية وإنكار الذات، والقسوة أيضا في تنفيذ العمليات.

كانت «فيرا زاسوليتش» مثلهن الأعلى، فيرا زاسوليتش، التي زارت قائد شرطة سانت بيترسبورغ عام ١٨٧٨ للاحتجاج على تعامل الشرطة القاسي مع الحركة الثورية الطلابية. وانتظرت دورها في مقابلته ضمن مقدمي الالتماسات، وحين أصبحت في أول الطابور وفي مواجهته مباشرة، أخرجت مسدسا صغيرا من معطفها وبدأت في إطلاق الرصاص عليه، فأصابته إصابات خطيرة. وفي المحاكمة، تجاهل المحلفون كل الأدلة وحكموا ببراءتها متعللين بحالة الجيشان العاطفي التي كانت تحت تأثيرها وأدت إلى قيامها بذلك: أي أن الآنسة زاسوليتش قد أطلقت النار على قائد الشرطة لأنه كان قد أمر بجلد الطلاب، وأصبحت بطلة الصالونات الليبرالية، التي بدأت في تبني ذلك النوع الحديث من استهداف العاملين بالحكومة من أجل تحقيق التغيير.

المشكلة الفعلية كانت تكمن في أن الآنسة زاسوليتش ورفيقاتها اخترن مهاجمة وإرهاب أكثر حكومة ليبرالية في تاريخ روسيا بأجمعه - وفي الحقيقة، فإن السبب الوحيد في حصولها على محاكمة بنظام المحلفين كان يرجع إلى أن القيصر أليكسندر الثاني حرر النظام القضائي الروسي من تقاليده العتيقة. كان «النضال» الذي وجد صدى

له لدى قطاع عريض من جماعات اليساريين المتطرفين المتبنين للإطاحة بالحكم الفردي الاستبدادي عن طريق ممارسة الإرهاب والعنف، قد نجح في التغلب على نتائج الإصلاحات الليبرالية بكفاءة لا تقل عن كفاءته في معاداة الحكم الفردي الاستبدادي. القيصر الوحيد الذي نجح الإرهابيون في اغتياله كان أليكسندر الثاني، وهو العاهل التقدمي الوحيد الذي اشتهر بلقب «القيصر المحرر»، وكان قد اكتسب تلك الكنية بسبب إنجازه شديد الأهمية الذي قام به قبل عشرين عاما من اغتياله.

ففي الثالث من مارس عام ١٨٦١، أي قبل عامين من إعلان أبراهام لنكولن عن تحرير العبيد السود بالولايات المتحدة، وقع أليكسندر بيان يعلن فيه تحرير عمال الزراعة الروس. وفي الوقت الذي يتعين فيه ألا نذهب إلى مدى بعيد في إثبات التشابه بين الجمهوريين في الولايات المتحدة والحكم الفردي الاستبدادي الروسي، إلا أن القيصر محرر عمال الزراعة أنهى بذلك البيان إلى نظام غريب أشبه بالعبودية لإنقاذ بلده من الانهيار، لقد كانت جبهة عريضة من المجتمع مهددة من جبهات العنف المعارضة. كانت حركة دعاة التحرير الروسية تنمو باضطراد محموم طوال عقد خمسينيات القرن التاسع عشر. أما رواية إيفان تورجنيف «صور الرجل الرياضي» التي أظهرت عمال الزراعة ككائنات كاملة المقومات الإنسانية فقد كانت القرين والمقابل لرواية «كوخ العم توم» الأمريكية لمارك توين ولكن في شكلها الروسي (حتى لو كانت أقل حميمية وحرارة). أما موقف عمال الزراعة أنفسهم من البيان فقد جاء مختلفا كليا على عكس المتوقع، لقد كان موقفا يستعصي على فهم النبلاء الإصلاحيين. أكتشف الكونت الشاب «ليو تولستوي» ذلك حين حاول

أن يحرر عمال الزراعة في إقطاعيته وأن يبيع لهم بعضاً من الأراضي الزراعية التي يفلحونها. لم يخذل عمال الزراعة فقط نواياه لتحريرهم ولكنهم قابلوا ذلك الموقف بمشاعر مريرة، وسجل كاتب روسيا المستقبلي الأشهر ذلك الموقف قائلا: «قادني عنادهم إلى نوع من الجنون والحنق والغيظ حتى أنني لم أك قادرا على ضبط نفسي». وترتب على موقف عمال الزراعة أن أرسل الكاتب الأشهر رسالة محمومة إلى القيصر أليكسندر يتنبأ فيها بأن موقف عمال الزراعة خطير جدا وقد «يقودنا إلى محرقة... ولا ينقص حدوث ذلك إلا يد إجرامية تشعل فتيل نار التمرد، وسوف تلتهمنا جميعا نيران اللهيب المشتعل».

ما كان مزارعو تولستوي يعترضون عليه كان فكرة أن عليهم أن يشتروا الأرض التي يفلحونها، والتي كانوا يعدونها ملكا للنبلاء بحق الولادة. وعلى عكس عبيد أميركا، كان عمال الزراعة الروس خاضعين للضرائب وأداء الخدمة العسكرية الإجبارية، كما كان يحق لهم امتلاك الأراضي الزراعية، على الرغم من أنهم في منتصف القرن التاسع عشر كانوا يمتلكون مساحات صغيرة جدا، لا تكاد تذكر، من الأرض الزراعية. لم يكن لدى روسيا ذلك النمط من التقاليد الأوربية من وراثة الإقطاعيات الزراعية عن الأسلاف الذين تملكوها بنيلهم ألقاب النبالة، ولم يكن هناك تحول تدريجي في الحقوق الإقطاعية ومسؤوليات الإقطاعي كما حدث في الغرب، بمزارعين يدينون بالولاء لسادتهم من اللوردات الذين يدينون بالولاء بدورهم للوردات أعلى سلطة ونفوذا حتى الوصول إلى أعلى لورد اختير ملكا. أما في الإمبراطورية الروسية، حتى منذ أن أسسها إيفان، لا يوجد إلا فرد واحد في الإمبراطورية يمتلك كل شيء، وهو القيصر. أما أي شخص

آخر، سواء كان نبيلا، أو رجل دين، أو عامل زراعة، فلم يكن إلا شيئا من ممتلكات الإمبراطورية يمكن إلقاؤه للكلاب أو يجلد بالسياط في أي نزوة من نزوات القيصر. وقد كان هناك كثير من تلك النزوات القيصرية.

في بدايات تسعينيات القرن الثامن عشر، وبينما كان ملك فرنسا راكعا تحت نصل المقصلة لإعدامه، كانت الإمبراطورة كاترين تطور نسختها من التحرر الإنساني لكبح جماح أي ثورة: ووهبت حقوقا حصرية للنبالة وللنبلاء. ولكن روسيا بدأت نظامها بحيث لا يمتلك أي فرد أية حقوق إلا القيصر أو القيصرة، وأدى ذلك إلى تطور كبير وبداية عصر تنوير المجتمع المدني في روسيا. ونعم النبلاء الروس بحريتهم الجديدة وانعتاقهم من احتمال جلدهم وفرض ضرائب اعتباطية والاعتقال العشوائي؛ لم يعد من الممكن سلب حق الحياة من أي نبيل، ولا مصادرة ممتلكاته أو حرمانه من لقبه ونبالته دون محاكمة يحضرها محلفون من أقرانه من النبلاء. ولكن بحقوقهم الجديدة غير قابلة للتحول لغيرهم، بدأ النبلاء في معاملة عمال الزراعة أكثر وأكثر كعبيد. وتحت حكم كاترين، قام النبلاء الروس بشراء وبيع عمال الزراعة والمتاجرة بهم - واستعملوهم كممتلكات وقيم مالية لتسوية ديون المقامرة أو سدادها بنقل ملكية أعداد من المزارعين أو ببيع الإناث لبيوت الدعارة - إما على المستوى الثنائي أو في الأسواق العلنية، وكان الزوار الأوربيون ودعاة تحرير عمال الزراعة الروس يقارنونها بأسواق العبيد في الأمريكتين (على الرغم من أن نبلاء روس مثل «بوشكين» أعترضوا بشدة على تلك المقارنة).

وبحلول عقد ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان مدى ثراء

النبلاء الروس يقدر بعدد «النفوس» الخاضعة لكل نبيل. ولكن كلما كان النبلاء الروس يشعرون بالاقتراب أكثر وأكثر من مستوى صفوة النبلاء في سائر أوروبا بمصطلحات ما يملكونه من «نفوس»، كانوا يشعرون بالخجل والضيق والإحساس بالذنب بسبب النمط العتيق البائد الذي يحتكمون بمقتضاه على كائنات بشرية في أسر العبودية يعملون في فلاحة أراضيهم. كانت مقترحات دعاة التحرير تضم مخططات لبيع مساحات صغيرة من الأراضي الزراعية لعمال الزراعة المحررين، أو السماح لهم بالتشارك في المحاصيل المزروعة بعد تحريرهم. غير أن عمال الزراعة لم يعترفوا بأن للنبلاء حقا في بيعهم أي شيء. كان نوع من الاشتراكية العضوية قد تكون من قبل بين كثير من عمال الزراعة وبمقتضى ذلك النظام كانت مساحات من الأراضي الزراعية تخضع لتعاونيات ريفية وتوزع النواتج طبقا لحجم كل بيت ومدى حاجته. (بعض الإصلاحيين مثل الأمير كروبوتكين، الفوضوي الشهير، كون أفكارهم عن الاشتراكية وذلك بتصويره علاقات التشاركية بين عمال الزراعة بصورة مثالية من خلال عمال الزراعة الذين كانت عائلته تمتلكهم). وآمن عمال الزراعة أن القيصر حين وهبهم حريتهم، كان على الأب الأصغر أيضا صاحب الأرض أن يعترف بحقهم في الأرض أيضا - فما قيمة الحرية دون أرض يفلحونها؟ وأثار قرار القيصر جدلا واسعا وخلافا مدمرا عند تفسيره.

وبصعود القيصر أليكسندر الثاني إلى العرش في خمسينيات القرن التاسع عشر، استقر قراره على تحديث بلاده من قاعدتها إلى قمتها، فلم يقتصر الأمر على مجرد تحرير عمال الزراعة، بل عمل أيضا على إصلاح كثير من مؤسسات الدولة: فأصلح قانون الصحافة (بإلغاء

أغلب أنواع الرقابة على الصحف)، والجامعات (بإنهاء كل سيطرة للحكومة على أساتذة الجامعات والنقاشات الأكاديمية)، والجيش (بإسقاط الخدمة العسكرية الإجبارية لخمسة وعشرين عاما والتي كانت تجعل من الجيوش الروسية نوعا من الرق العسكري)، والقضاء (بإحلال محاكمات علنية يحضرها محلفون محل المحاكم الحكومية السرية). كما حسن القيصر المحرر إلى أبعد مدى أحوال يهود روسيا. في كتابها «ذكريات الجدة»، تصف بولين وينجروف، المولودة في منطقة البلقان عام ١٨٣٣ الآمال التي راودتهم وغمرتهم هي وعائلتها بعد أن «حرر القيصر ستين مليونا من عمال الزراعة من ربق العبودية كما حرر اليهود من أغلالهم». وصفت كيف فتح القيصر أبواب المدن الروسية، ورحب بجيل الشباب اليهودي «لري عطشهم للتعليم الأوربي في الجامعات. في تلك الفترة الرائعة من الانتعاش الفكري، ساهم اليهود بدور ملموس في التلاقح الفكري في جميع أنحاء روسيا، وشاركوا في نهوض الفنون الرفيعة، وتطوير العلم والعلوم».

من المهم إحياء التفاؤل المنسي لتلك الأيام - حين صك وصيغ لأول مرة مصطلح المكاشفة والشفافية (غلاسنوت) - لفهم جذور الرعب الأصيل لما حدث بعد ذلك.

أثناء حكم أليكسندر، استغل أبناء الصفوة المستاءون والمتمردون الحريات الجديدة في الجامعات وسارعوا للانضمام للجماعات المناهضة للثقافة والتي كانت تتحول بثبات واضطراد إلى ممارسة العنف. وفي العادة كان الروائيون يسجلون خطوطها العريضة، وكتب عنها المؤلف تورجنيف في روايته «آباء وأبناء»، وخصص للجيل الستيني أشهر وصف حديث، أي - النهلستية - وهي حركة اتسمت

باحتقار السلطة وآمنت بأن التغيير لن يأتي إلا بممارسة العنف والإرهاب والاغتيال. كانت نقطة التحول في «صيف الجنون» لعام ١٨٧٤، حين هجر الطلاب مدارسهم بطريقة جماعية، وكونوا حركة أطلقوا عليها «من أجل الشعب». ولبس الطلاب زي عمال الزراعة والفلاحين، أو على الأقل ما صوره لهم خيالهم الرومانسي على أنه زي عمال الزراعة والفلاحين - سراويل فضفاضة، وقمصان حمراء، وشعر رأس طويل غير مرجل للذكور؛ وقمصان بيضاء سابغة وفضفاضة على تنانير سوداء وشعر رأس قصير للإناث - وخرجوا من المدن سيرا على الأقدام أو راكبين ما تيسر لهم تطفلا متجهين للمناطق الريفية، حاملين حقائب وأجولة بها أدوات الزراعة يعرفون بالكاد كيف تستخدم أو لا يعرفون. ومثل الهيبيز (الرافضين للقيم الاجتماعية التقليدية والمؤيدين الليبرالية) بعد ذلك بمائة عام، خططوا لزراعة الأرض، وتركيب حداء البغال والخيول وزراعة المحاصيل. وصدم الطلاب حينما اعتبر «الشعب» أن منظرهم غريب ونظروا إليهم بارتياب، وفي الغالب كانوا يبلغون عنهم رجال الشرطة. وكالملدوغين من رفض الفلاحين لهم، عاد المتطرفون من الطلاب إلى المدن وقرروا أن يصدموا النظام بوسائل أخرى. وكتب ليف عن ذلك قائلا: «صبغت أفكار الثورة الفرنسية الشكل البربري للنهلستية الروسية، وألهمت الطبقات العليا من شباب سانت بيترسبورغ». وكونوا جماعة أطلقوا عليها «الإرادة الشعبية»، وأعلنت عن نفسها كتنظيم إرهابي.

وبتلاعبه في الخلفية التاريخية لأمه ليظهرها بمظهر الأرستقراطية التي تدهورت، انتحل لها ليف الخلفية التاريخية للثائرة «صوفيا

بيروفسكايا»، الشخصية الأشهر بين تنظيم الإرادة الشعبية الإرهابي. ومثل «بيرتا سلوتزكين»، كانت صوفيا شابة تتصف بميول تدميرية جامحة، كما كان تنظيم الإرادة الشعبية الإرهابي التنظيم الأولي الذي تمخضت عنه الثورة الشعبية بعد ذلك، التي ادعى ليف أن أمه تنتمي إليها. وفيما كان نمط شخصية أم ليف التي ارتبطت بالحركة الثورية بعد عام ١٩٠٠، - رغم أن غالبية الثوار كانوا من اليهود والفقراء- كانت صوفيا بيروفسكايا من الشخصيات النمطية الثورية المنتمية لأنماط ثوار منتصف القرن التاسع عشر: شابة ساخطة ومتمردة وناقمة من أبناء وبنات الطبقة الحاكمة، طفلة ثرية تحمل قدرا كبيرا من الحقد والعدوانية.

ومثل كثير من آباء الشخصيات الثورية القيادية، بما فيهم لينين ذاته، كان أبو صوفيا من الشخصيات الاجتماعية البارزة والمتنفذة وينتمي لعائلة عريقة متميزة ومعروفة[١]. وفي الحقيقة، كان يشغل منصب الحاكم العام لسانت بيترسبورغ - وهو منصب مساو لمنصب

---

(١) تم تزوير خلفيات وأصل لينين على يد المؤرخين السوفيات ليبدو منحدرا من أصلاب عمال الزراعة الروس. وفي الحقيقة، سجل فلاديمير إليتش أوليانوف نفسه كنبيل من نبلاء الريف حين اعتقل عام ١٩٠٠، وكما سيذكر ليف في قصة حياة لينين التي أصدرها عام ١٩٣٨ أن لينين كان لديه هسة خفيفة كصوت صفير عند نطقه لبعض الحروف، وهي الطريقة الكلاسيكية للحديث لدى الطبقة الأرستقراطية الروسية. كان جد لينين لأمه طبيبا يهوديا معمدا وكان يمتلك أيضا عبيد أرض (عمال زراعة). (بعد موت لينين كتبت شقيقته إلى ستالين تذكر فيها أسلاف عائلتهم من اليهود وتحث ستالين على نشر تلك المعلومة لمقاومة معاداة السامية؛ وبدلا من الاستجابة لها غطى الشيوعيون على ذلك كليا حتى انهيار الشيوعية). أما جد لينين الأكبر لأبيه فقد كان من عمال الزراعة فعلا.

حاكم مدينة نيويورك - وفي عام ١٨٦٦ وقعت محاولة فاشلة لاغتيال القيصر (على يد طالب عضو في جماعة متطرفة تسمى الجحيم)، ووقعت تلك المحاولة في المدينة التي يتولى حكمها، مما أنهى حياته العملية على الفور. ومثل جماعة بادر-ماينهوف وجماعة الألوية الحمراء بعد ذلك بمائة عام، كرهت صوفيا كل المؤسسة الحاكمة التي ولدت بين أحضانها، كما كرهت أباها أيضا، وكرهت الجيش والعسكرية، بل إنها كرهت حتى نمط الثرثرة بأحاديث معادة ومكررة بين رفاقها الإرهابيين الذكور. كانت ترغب في رؤية الدماء الملكية تراق وتهرق وأن تشتعل الثورة نتيجة للعنف الثوري المقدس. وخشى الثوار أن تؤدي الإصلاحات الليبرالية التدريجية التي يقوم بها القيصر إلى اقتناع ورضى الشعب الروسي عن واقع الحال مما قد يئد الثورة الشعبية أو يجهضها. بدلا من ذلك أرادوا أن ينضغط الشعب مثلما ينضغط الزنبرك حتى ينكسر أو ينفجر.

في عام ١٨٨١، قادت صوفيا مجموعة من خمسة إرهابيين، وراحوا يراقبون المسار الذي ستمر منه عربة القيصر حين يغادر القصر الشتوي لزيارة بعض جوانب المدينة. وعمدوا إلى حفر نفق أسفل شارع ستمر منه عربة القيصر التي تجرها الخيل وتلغيم النفق بالديناميت. وحين تمر عربة القيصر فوق ذلك النفق يقومون بتفجير المنطقة بأكملها - وسوف يقتل العشرات إن لم يكن المئات من المشاهدين والمارة والمتجمعين على جانبي الطريق لمشاهدة موكب القيصر وأن لذلك أيضا فوائده، فقد يشعل ذلك الحدث وأعداد القتلى فتيل الثورة الفوضوية التي يسعون إلى إشعالها. استأجر الإرهابيون شقة منخفضة عن سطح الطريق ليحفروا منها النفق، وافتتحوا متجر أجبان في الغرفة الأمامية كغطاء لوجودهم. وفي اليوم المحدد، أمرت

صوفيا المنفذين أن يتواجدوا في أماكنهم وأن يعدوا أنفسهم لتفجير الشارع.

وفي آخر لحظة، غير القيصر من مسار العربة، وضيع على الجماعة شهورا من الحفر أسفل الطريق وحول مجهودهم إلى عمل عبثي لا جدوى منه. وبهدوء تحولت صوفيا إلى تنفيذ المخطط البديل. كان نيكولاي صانع قنابل تنظيم الإرادة الشعبية قد ابتدع نوعا جديدا من القنابل اليدوية كسلاح دعم - كرة معدنية بها قنينتان من مادة النيتروجليسرين المتفجرة - وأعطت الإشارة لشركائها لمهاجمة عربة القيصر فهاجموها بتلك القنابل المتفجرة والحارقة. وشلت إرادة المهاجم الأول ولم يتمكن من إلقاء قنبلته، أما الثاني وكان فتى في التاسعة عشر من عمره فقد أخطأ في التصويب وقذف العبوة الناسفة على ظهر العربة فدمر مؤخرتها، وأصيب اثنان من القوزاق، وقتل صبي خباز كان من بين المتجمهرين لمشاهدة موكب القيصر. كان من الممكن أن يكون ذلك الفشل نهاية الموضوع، غير أن القيصر أليكسندر الذي تجاهل كل توسلات الحرس بأن يركب عربة أخرى كر عائدا على الجليد المغطى بالدماء لمواجهة المهاجمين وإنقاذ من أصيبوا. وتسلل المنفذ الثالث بين الحشود وألقى بقنبلته من مسافة قريبة جدا بحيث لا يمكن له أن يخطئ الهدف؛ حتى أنه قتل أيضا في الانفجار. وراح أليكسندر يصرخ في حراسه بأنه لا يود أن يموت في عرض الطريق فحملوه وعادوا مسرعين إلى القصر الشتوي.

في اليوم الذي انقض فيه تنظيم إرادة الشعب على القيصر، كان قد وقع قبلها مباشرة على كثير من التشريعات والقوانين الإصلاحية وضعت روسيا على طريق إنشاء حكومة دستور محدود، كان من

الممكن لها أن تغير مجرى التاريخ لو أعطيت فرصة زمنية لتنفيذها. وبدلا عن ذلك، وخلال ساعات من توقيع تلك المشاريع التشريعية والقانونية، كان قد قتل. وأدى اغتياله إلى تشدد أليكسندر الثالث القيصر الذي خلفه على عرش روسيا، فكانت ردود أفعاله حادة وتتسم بالشدة والشراسة كما اتخذ مسارات معاكسة لكل الإصلاحات التي قام بها أبوه خلال أيام معدودة. وأصدر تنظيم إرادة الشعب رسالة مفتوحة يقترح فيها عقد «هدنة» مؤقتة مع الحكومة لو كانت الحكومة ستجري تحولات عاجلة وفورية، طبقا لقائمة من التغييرات السريعة المطلوبة للتطهير. وبدلا من قبول المقترح راح أليكسندر الثالث يتصيد أعضاء التنظيم - فشنقت صوفيا بيتروفسكايا علنا على مرأى من ثمانين ألف مشاهد - وقضى أليكسندر الثالث باقي أيامه في قمع الإرهابيين والليبراليين على قدم المساواة. وبدلا من المشاريع والتشريعات الإصلاحية التي وقعها والده في اليوم الذي اغتيل فيه، وقع أليكسندر الثالث سلسلة من القوانين وهبت نظريا سلطات جديدة غير محدودة للشرطة مع تكوين وكالة تجسس محلية جديدة. وبذلك تحولت روسيا إلى دولة بوليسية حقيقية.

أدى اغتيال أليكسندر الثاني إلى افتقاد أي أمل في حدوث إصلاح سياسي حقيقي في روسيا. وانتعش الإرهاب على وقع قمع واستبداد أليكسندر الثالث وانفجر بشكل أكثر عنفا وانتشارا مع خلفه عاثر الحظ نيقولا الثاني آخر قياصرة روسيا. نجحت قنابل صوفيا بيتروفسكايا في تحقيق ما كانت تصبو إليه جماعة «إرادة الشعب» - أي «إحداث فوضى سياسية واضطراب وغليان في أنحاء الإمبراطورية»- إلى درجة لم تعهدها الإمبراطورية في تاريخها بأجمعه، بإصرار بارد، وبضع قنابل بدائية من النيتروجليسرين، ستتسبب بعد ذلك في تداعيات

للأحداث بطريقة غير مباشرة ستؤدي إلى مصرع عشرات الملايين الذين سيلقون حتفهم جراء المجاعات ومعسكرات الاعتقال الجماعي في القرن التالي.

على الأقل كان هذا هو ما يعتقده ليف، وسوف ينمي ذلك لديه هاجسا نمى معه طول حياته وهو أن «ذلك التمرد وتلك الثورة كانت شيطانية بقدر ما تحمل من غموض». وكان كتابه الذي حقق أفضل المبيعات في عام ١٩٣٥ عن حياة نيقولا الثاني، آخر قيصر لروسيا، يبدأ من اليوم الذي اغتيل فيه جده أليكسندر الثاني. وبعد الاغتيال، يصف ليف عائلة القيصر وهي تنسحب وتتقوقع داخل شرنقة من الإحساس بالاضطهاد، حيث كان «الولد الهش ... بعينيه الجميلتين، وأطرافه المستديرة، ويديه الرقيقتين الصغيرتين - وسموه الإمبراطوري، الدوق الأعظم سيزاروفيتش نيكولاي أليكسندروفيتش، وريث عرش جميع أرجاء الإمبراطورية الروسية» قد نمى وكبر «وأصبح معزولا عن كل العالم، يحيا حياة المسجونين أكثر من معيشته كقيصر قادم». وبيّن ليف كيف، حتى في العام السابق على نجاح مؤامرة صوفيا، كيف نجوا من اعتداءات مميتة متتابعة من قبل مجموعات متطرفة أخرى مثل «الجحيم»، و« الموت»، و«إرادة الشعب». وكتب عن ذلك: «أصبحت العائلة الإمبراطورية تشعر بوطأة التشكك في مقتلها على أيدي كل غريب عنها، وتتوجس خيفة من كل ضيف ومن كل خادم يعمل في البلاط. ويشعرون أن أي خطوة يخطونها خارج القصر الإمبراطوري قد تترتب عليها كارثة». أما المقطع الأكثر تعبيرا في الكتاب، عدا السيرة الذاتية الرصينة الواقعية لنيكولاس العقيم، فهو المقطع الذي يمحص ليف فيه ويحلل التأثيرات النفسية على القيصر الصغير نتيجة لاغتيال جده ومن

تلك الأعوام التي حملت تهديدات ومخاطر إرهابية على حياة عائلته:

> بسبب الأحداث المربكة كوّن عقل نيقولا الشاب اعتقادا بأن العالم خارج عتبات القصر مليء بالقنابل، ويموج بالمؤامرات، وشبح الموت مسلط على الأعناق. السلسلة المتصلة التي لم تنقطع من المؤامرات على حياة جده لم تمر دون أن تترك الكثير من الأقاويل والحكايات التي تركت آثارا عميقة متجذرة في نفسه وفكره وعقله من طفولته المبكرة.

وهي عبارة كاشفة ليس فقط لانطباقها على الطفل موضع الحديث نيقولا الثاني فقط، ولكنها كانت تنطبق أيضا على الشاب ليف نوسيمباوم. وسوف يكتب ليف السيرة الذاتية للقيصر الأخير، وبتسع لغات على مستوى العالم بأجمعه، وكانت تلك السيرة تتشح بغلالة رقيقة من صورته هو الذاتية. وحتى بعد أن حول صورته من لاجئ يهودي إلى كاتب ورحالة مسلم ينتمي إلى عائلة مسلمة ثرية، سوف ينمي ويطور تعرفه ومعرفته العميقة بنيقولا، وكما كتب عن ذلك إلى بيما في عام ١٩٤٠: «أنا والقيصر لنا ذات الشخصية والصفات والظروف... كنت على الدوام أقوم بعمل الأشياء نفسها كما كان يعملها تماما».

وعلى الرغم من أنه سيصبح شهيرا كمحلل معاصر للثورات السياسية، إلا أنه عند مستوى ما، كان يفسر الثورة على ضوء حياة والديه التي اتسمت «بصراع مميت» بينهما - الأب، قطب من أقطاب صناعة النفط؛ والأم: «ثورية متطرفة» - وما ترتب على ذلك التناقض من نتائج مرعبة. وبمولده في الوقت الذي كانت فيه أعوام الإرهاب وتداعياته قد جعلت من مجتمعه مجتمعا مؤهلا للسقوط والانهيار،

وعكست حياة ليف ذلك الانهيار التاريخي بشخصيته المحطمة. القوى الاجتماعية التي احتشدت في وقت مولده جعلته يشعر على الفور أنه محمي حماية لا مثيل لها ومتحرر من الخوف. ثم تركوه متلهفا ومتطلعا للماضي من اللحظة التي تمكن فيها عقله من إدراك ذلك الماضي.

الفصل الثاني

اليهود الشاردون

أقدم صورة لدي لليف صورة مدبرة تذكارية له بالزي القوقازي الجبلي الكامل: كان يرتدي في تلك الصورة معطفا أنيقا أبيض اللون وحزاماً يمتد من الكتف حتى الخاصرة المقابلة وقلنسوة كبيرة من الفرو في ضعف حجم رأسه مائلة إلى جانب بحيث تصنع زاوية مع رأسه؛ إحدى كفيه ترتكز على خاصرته ويمسك بيده الأخرى مقبض سوط خيول. وتشي الصورة بأنها التقطت قبل عام أو عامين من الاحتفال بعيد كريسماس عام ١٩١٣، وبعيداً من تعبير الشموخ الظاهر في صورة فونتليروي يبدو في صورة أخرى ببدلة كاملة وصديري، كان الصبي في مشهد مقاتلي جبال القوقاز يبدو مرحا وفارع الطول. وفي كل الأحوال لم يكن عمره في تلك الصورة ليزيد أبدا عن سبعة أعوام.

وعلى الرغم من ظهوره في الصورة بزي مقاتلي الجبال، لم يكن يسمح لليف أبدا بمغادرة البيت بمفرده. ففي باكو في الفترة الممتدة بين ثورتي ١٩٠٥ و ١٩١٧، كان سيف التهديد بالاختطاف والتعذيب مسلطا على أعناق العائلات الثرية في باكو. ولمفاقمة المخاوف والرعب التي بذرهما البلاشفة والثوار الشيوعيون، انبثقت في ظل تلك الظروف أعداد لا تحصى من الجماعات الإرهابية الصغيرة. كانت

تلك الجماعات تدعي في الغالب أنها جماعات فوضوية أو تتبنى أشكالا غامضة من مبادئ الاشتراكية غير أن أسماء تلك الجماعات كانت تشي بأن الرعب والإرهاب فقط كان هدفها الأوحد، مثل: جماعة الموت للموت، ورابطة الفتيل الأحمر، والإرهابيون المنفردون، والصقر الأسود، والمبتزون الفوضويون. أما في القوقاز فقد امتزج استلاب الممتلكات والأشكال الأخرى من الإرهاب السياسي بالعادات المحلية من قطع الطرق وسلب ممتلكات العابرين[١] (في مدينة صغيرة واحدة اغتال المتطرفون خمسين من رجال الأعمال في شهر واحد هو شهر أبريل من عام ١٩٠٧)، وهيمن البلاشفة على هذا المجال، غير أن الجماعات المتطرفة كانت تنفصل أحيانا عن البلاشفة، مثل الجماعة الاشتراكية الديمقراطية المنشقة والتي سمت نفسها «إرهاب مدينة تيفليس وما حولها من أحياء».

وفي كراساته التي كتبها ليف على فراش موته، راح يتذكر ما كان يحدث في باكو:

كان أبي في ذلك الوقت مليونيرا، ولم تكن مدينتنا تختلف عن

---

(١) في قصة حياة ستالين التي كتبها ليف عنه. وهو ثائر شاب في القوقاز، لم يتخصص قائد السوفيات المستقبلي في الابتزاز فقط ولكنه تخصص على وجه التحديد في بعض الأعمال الفرعية المحددة، مثل ابتزاز ضحايا محددين من ضحايا العنف العرقي. وسوف يرسل ستالين تابعا له للأرمينيين، أي، إلى منطقة كانت تقع فيها اضرابات واضطرابات معادية للأرمن، وكانت تعرض تقديم حماية للعائلات الأرمينية مقابل مبالغ مالية محددة. وكان تابعوه بالطبع يلتمسون التبرعات لدعم قضية الثورة العالمية، وإن لم يستجب أحد التجار بالدفع نقدا، حسنا . . لم يكن أحد يود التلاعب بكوبا زجاشفيللي. وفي مذكراتها، كتبت أليس شولت أن أبا ليف كان يدفع أموال الحماية كأي فرد آخر.

وحشية الغرب الأمريكي، فكانت تغص بالعصابات واللصوص، الذين كانوا يرحبون باقتطاع أجزاء لأنفسهم من ملايين أبي. كان اختطاف أطفال الأغنياء من الأمور التي أصبحت معتادة في ذلك الوقت، وكان أمرا متوقعا لدى كل الناس إلا لدى آباء الأطفال المعرضين للاختطاف. ودفعت الحالة السائدة بالآباء إلى انتهاج سلوك متشدد من المراقبة والترقب وتربية أبنائهم في أماكن غير معلومة من أوروبا، وساد ذلك حتى بين أبناء الأمراء.

كان أسعد اللاييف، صديق نوسيمباوم قد استهدف من قبل الخاطفين. وتتذكر بانين أسعد اللاييف أن جدها قد اختطف مرتين في باكو وأطلق سراحه في كل مرة بعد أن دفع أبوه فدية سخية. وفي حالة ليف، كانت طريقة «المراقبة المتشددة في حماية وتربية الأطفال» تعني أن ليف لم يكن مسموحا له أن يخرج من البيت إلا إذا كان محاطا بثلة من الحرس المدججين بالسلاح مع المربيات:

رأيتهم مجددا، الخدم الثلاثة الذين يركضون خلفي حين كنت أتعلم ركوب الخيل، والخادم الرابع، راكبا جواده ومدججا بالسلاح، بوجه متجهم تعلوه الكآبة وجدية وصرامة جندي، وكان كثيرا ما يركب خلفي لحمايتي. كان المارة يتوقفون ويبتسمون، كنت أظن أنهم يبتسمون حبا لي فكنت أبتسم لهم أيضا، غير أنهم كانوا يبتسمون سخرية واحتقارا للمشهد. اكتشفت بعد ذلك بفترة أن الناس في المدينة كانوا يخبرون بعضهم أن مربيتي الألمانية الجليلة أليس كانت تجري خلف جوادي وهي ممسكة بذيله. . . رأيت في نفسي ذلك الولد الشاحب بمعطفه الشركسي الفضفاض وشعرت أنا أيضا بالاحتقار لذلك المنزل الدافئ المبني على ملايين النفط. . .

كان واقع الحال مأساويا أكثر منه مثيرا للسخرية - طفل سجين

بين أطباء وحراس. لم يكن مسموحا لي حتى بصعود الدرج في بيتنا، فقد كنت أحمل مدللا من قبل أي من الخدم الخصيان.

و«محاطا بمدرسين، وخدم، وألعاب الأطفال... لم يتسن له أن يكون له معارف ولا أصدقاء»، وجد ليف نفسه أكثر عزلة بعد فهم أبيه الخاطئ لشؤون قلبه وعواطفه، والتي جعلت من أبيه أكثر توترا حول السماح له بالخروج من البيت. وبعد موت أمه، استأجر أباه «السيدة شولته»، مدبرة بيتهم الألمانية، وسرعان ما أصبحت أمه البديلة، وهو الدور الذي ستقوم به بكل تفاني في بلاد كثيرة تنقل بينها وخلال كثير من الكروب وأوقات الرخاء، حتى النهاية. كان اسمها أليس، وكان ليف يطلق عليها «ألي». وتتذكر «السيدة شولته» أن ليف لم يكن مسموحا له الالتحاق بالمدارس حتى وصل إلى سن الثامنة، على الرغم من أن كل الأطفال بعمره كانوا يذهبون إلى المدارس من سن الرابعة. وبدلا من ذلك، كان يتلقى التعليم في البيت على أيدي جيش من المعلمين.

استمر تعليم ليف في البيت مدعوما بمكتبة منزلية ثرية ومتنوعة، تركتها أمه في البيت، ويتذكر عن ذلك: «لم يمس أي فرد في البيت تلك الكتب أبدا حتى تعلمت القراءة، ومن ذلك الوقت أصبحت مفاتيح المكتبة بحوزتي ورحت أقرأ كل ما وددت قراءته. لم يك مسموحا لأحد بإزعاجي وأنا بين الكتب. قال لي أبي إنها ميراثي وأن بإمكاني أن أفعل بها ما أشاء». ويتذكر ليف عالما خالصا من «الكتب» هو كل ما تركته له أمه. «على مدى أيام متواصلة كنت أجلس دون حراك على مقعد وثير وأنا أقرأ كتبا عن الشعر العربي، وكتب حكماء بلاد فارس، وعن شجاعة الفرسان الأتراك والخيالة».

حين كان يسمح لليف بالخروج كما تتذكر السيدة شولته، «كانت

فسحته المفضلة تقود خطاه إلى الحي الآسيوي من المدينة، بجوامعه، ومآذنه السامقة، وشوارعه الضيقة وبيوته المنخفضة. كان يقضي ساعات طويلة بين طرقات المدينة الإسلامية القديمة المسورة، حيث تنحني طرقاتها وتلتوي وتلتف وتتقاطع عبر ردهات فسيحة محاطة بحوائط قديمة تاريخية وبوابات هائلة منقوش عليها كتابات عربية ترجع للقرون الوسطى. كان سيره في كل تلك الطرقات يفضي به إلى أطلال قصر شبه مهدم هو القصر الذي كان يحكم منه الخانات العظام تلك المنطقة، والذي تحول إلى واحة من الهدوء والسكينة في مدينة كان تتزايد التهديدات عليها». وكتب ليف: «كان حبي للقصر الخرب يتزايد مرة بعد أخرى حتى تحول إلى ولع بكل من ولد به، وحول قصر قدماء الخانات، وحول المدينة، تمتد وتترامى الصحاري. في سن الثامنة كنت أجلس مشدوها في خمول دون حركة على سطح بيتنا وأكتب نصوصا عن الصحراء والقصر العتيق. كلاهما كان بالنسبة لي رمزا ومثالا للعظمة والنبل المسالم القديم». أسس ليف شخصية علي في روايته «علي ونينو» على أنه أمير مسلم شاب، جاعلا منه شاعرا حالما يقضي جل وقته مستلقيا على سطح بيت أبيه يتطلع إلى بحر قزوين الممتد خلف القصر العتيق بلا نهاية. ومثل ليف، كانت شخصية علي تخشى وتتجنب المدينة الحديثة المعاصرة. غير أن ليف وهب بطل روايته عائلة كبيرة مسلمة عريقة الجذور، مع فرع كبير من العائلة في بلاد فارس، إلى حيث فر علي ونينو في منتصف الرواية. أما بالنسبة لليف ذاته فقد كان الانسحاب والفرار يقتصران على مخيلته فقط:

> كل الأشياء التي قرأتها، وسمعتها، وفكرت بها اختلطت في تلك الأحلام. رأيت الامتداد اللانهائي لرمال الصحارى العربية الشاسعة، رأيت الفرسان، وعباءاتهم الناصعة البياض تتطاير من

خلفهم مع الرياح، رأيت تجمعات الأنبياء والرسل يصلون وهم يولون وجوههم شطر مكة وودت أن أكون ضمن تلك الصفوف، وجزءاً من تلك الصحراء، وبعض من ذلك النص الغامض المركب، بعض من ذلك الشرق المسلم، الذي حملت طقوسه في باكو إلى المقابر وحلت محلها الثقافة الأوربية على وقع الطبول المنتصرة.

من هنا بدأ ولعه بالإسلام وبالمشرق، حين لم يك قد بلغ بعد العاشرة من عمره. وكتب: «حتى هذا اليوم لا زلت لا أدري متى حلت عليّ تلك المشاعر، ولا كيف لي أن أفسرها. ربما كانت هي أيضا ميراثا بعيدا من جدود لا أعرفهم؟ عرفت كل ذلك إبان فترة طفولتي. كنت أحلم بتلك الصروح العربية في كل ليلة من ليالي طفولتي. [و]أدركت أنها كانت من أقوى المشاعر التي تكونت لدي في حياتي بأجمعها».

«كان ليوفا مولعا بتلك الأشياء، وكما تعرف، بالنسبة لصبي يهودي أن يكتسب إسما لمسلم ويتحول إلى الإسلام في باكو لم يكن شيئا ذا بال كما هو الحال الآن»، مالت السيدة العجوز للأمام وهي جالسة على مقعدها، وهي تبصق فتافيت توت بري لاذع من فمها وتختلس نظرات لصورتها على قناة تلفزة أذربيجانية محلية. كان صوتها المتحشرج من كثرة تدخين السجائر يشبه صوت مذيعي المباريات الرياضية بلهجة ثقيلة عميقة ولكن بانجليزية متقنة، اسمها زليخة أسعد اللاييف، وكانت ابنة عم «بانين». ومنذ أن ماتت سارة أشيربيكوف عام ١٩٩٩، وهي كبرى شقيقتيها صاحبتَي القطط الكثيرة، أصبحت زليخة واحدة من أقدم المصادر الحية المنتمية لعصر الطفرة النفطية في

باكو ما قبل الاتحاد السوفياتي. قالت إن لديها ذكريات حميمة عن «ليوفا» نوسيمباوم في طفولته:

«كان ليوفا أهم صديق لأخي الأكبر، ويمكنني أن أعرفك لماذا اختار لنفسه اسم «أسعد»، فقد كان ذلك اسم أخي الأكبر، الذي كان ليوفا معجبا به ويحبه. كانا لا ينفصلان على مدى الوقت فلم يك لدى ليوفا كثير من الأصدقاء. لم يكن أبوه يسمح له بالخروج من البيت».

كنا نجلس معا في جناح متسع على الطراز الستاليني في فندق مجاور للقصر الرئاسي، كان المشهد كما نراه من الشرفة ينتمي للماضي: صف من الدبابات الصدئة ومراكب الصيد على ساحل بحر قزوين. كان أبو زليخة في يوم من الأيام من أثرى رجال النفط المسلمين في العالم. ولكنها قالت («عائلة أشيربيكوف لم تكن ثرية حقا» وتستدعي من ذاكرتها موقفا هجوميا يرجع إلى ما يزيد عن ثمانين عاما، «كنا ميسورين فقط»). رأيت شارة العائلة على مبان كثيرة في جميع أنحاء باكو وحتى في ضواحي المدينة؛ كان أبوها شمسي أسعد اللاييف من فاعلي الخير ومحسناً كبيراً شديد السخاء محباً للبذل والعطاء. ومثل كثيرين غيره، فر أسعد اللاييف من باكو عام ١٩٢٠ هربا من الثورة البلشفية. وعاشت زليخة متخفية خارج أذربيجان على مدى يناهز الثمانين عاما - عاشت في البداية في تركيا، ثم انتقلت لضواحي واشنطن بالولايات المتحدة، وفجأة وهي في التسعينيات من عمرها، قامت البلد التي فرت منها بدعوتها للعودة لبلدها لتصبح شخصية محلية يحتفى بها. وكانت على الدوام تتواجد في باكو في موعد الاحتفال بـ«استعراض يوم النفط»، حين هبط ممثلو كبرى شركات النفط العالمية وكبار محتكري صناعة النفط على المدينة، وربما كانت زليخة تمثل نوعا من حسن الطالع لمستثمري النفط

المعاصرين، أو تميمة تذكر بأن تلك المدينة كانت ذات يوم قد حولت كثير من الناس إلى أثرياء شديدي الثراء. بدأت الحديث قائلة: «دعني أخبرك شيئا عن حياتي يا توم، ولن تصدق ما أقول! قد تقول إني أكذب»، وكانت تقطع ما تحكيه وتتطلع إلى شاشة التلفاز لبرهة لتتابع بعض من حديثها المسجل مع الرئيس الأذربيجاني ومختلف ممثلي شركات النفط، إكسون العالمية للنفط، وشيفرون، والملكية الهولندية/ شل.

لم تجد زليخة أية غرابة في تحول ليف للإسلام ولا في تغيير قصة حياته لتبدو أقرب لقصة حياة أخيها. قالت: «أن تكون مسلما كعائلتي حين كان المسلمون يمثلون دينا عالميا يعني احترام التقاليد لا عقيدة». أخبرتني أن والدها لم يدعها هي وشقيقاتها يرتدين النقاب إلا في حالات الوفاة ومراسم العزاء. «كان يرى فيه علامة من علامات التخلف، ولم يكن إسلامنا يتضمن أي جوانب من التخلف. لم يكن مثلما هو عليه اليوم بأولئك الأصوليين البشعين الذين لا يقلون بشاعة عن النازية أو البلشفية. . . كلا، كلا، لم يكن هناك أي تصلب حول تلك الهوية الإسلامية، بل العكس تماما. كانت البلشفية وهي المعادية للدين في زمننا هي المتصلبة. كنا ببساطة منفتحين على التيارات الفكرية والثقافية التي ولدنا في أحضانها».

وعدتني زليخة أن تبحث عن مراسلات أخيها أسعد التي تبادلها مع ليف، وحدثتها عن ذلك مرة أخرى حين زرتها مجددا في سكنها الذي تعيش به في ضواحي واشنطن في العام التالي. ولكنها بدت في تلك المرة أكثر هرما، على الرغم من أنها وعدتني بأن «تثير الأمر مع الرئيس »من أجلي في رحلتها القادمة إلى باكو: وجعلها الوعد تبدو متحمسة جدا مما أجرى الدم في عروقها وجعلها الحماس تبدو أصغر

سنا من جديد. ثم ماتت هي أيضا في ذلك الصيف بعد أن حضرت آخر عرض ليوم النفط. والآن، طبقا لمعلوماتي، لم يعد موجودا بأي مكان بالعالم أي من أبناء بارونات نفط باكو الأصليين، على الأقل لم يعد موجودا من هو كبير بما يكفي ليكون لديه ذكريات عن تلك الفترة ومالكا وعيه بما يكفي ليتمكن من تذكرها.

وعلى الرغم من أن ليف سوف يعظم بعد ذلك عالم مليونيرات النفط، حين كان ينمو ويتقدم في العمر، إلا أنه كرهه وكان يفر منه كلما أمكنه ذلك إلى مدينة المشرق القديمة. كان وهو يسير فوق الصخور الضخمة لبقايا قصر الخانات العتيق في باكو يتخيل أنه أمير - أمير ثابت الجنان يمكنه الدفاع عن نفسه بخنجره، لا بنصف دستة من الحراس ومربية. ويتذكر ذلك «السور»:

> فوق قوس المدخل الصخري كانت تبرز الرموز العربية التي تخلد الماضي المندثر. كانت حروف سحرية غير مفهومة لي مع تلك النقوش والمنمنات التي تزينها. كنت أتأملها لساعات، وكنت خلال تلك الساعات أستغرق في حالة من السبات والتأمل الحالم. كانت حالة من النعيم الحقيقي تدوم لساعات بعد ساعات. وبعد عودتي للبيت، أتغير من جديد مستعيدا حالتي الكسولة المتهالكة التي لا تصلح لشيء».

وأصبح ليف مبهورا بكل القبائل الصغيرة في أذربيجان. وحين كان أبوه يسمح له بالخروج، كان حراسه و«السيدة شولته» يصحبانه إلى الريف ليلتقي بتلك القبائل التي تبدو كقبائل قوقازية تقليدية. وأذربيجان بلد صغير، وركوب الخيل لبضع ساعات في أي اتجاه من باكو يمكن أن يتحول إلى رحلة تمتد عبر ثقافات تنتمي لقرون مضت.

وبالطبع، من الصعب في كتابه «الدم والنفط» وفي كتابه الأخير «إثنا عشر سرا للقوقاز»، أن تعرف الحد الفاصل الذي تنتهي عنده خبراته الحياتية ليبدأ فيه خياله النشط بالاشتعال. فعلى سبيل المثال، يمكنه أن يكتب عن مقابلاته لل«جاسيانيين»، وهم قبيلة مثل قبائل الأمازون لا تسمح تقاليدها للرجال بالعمل وحيث تحمل نساؤها الأسلحة وتختار النساء ذكورها ويرتدين ما يستر عورتهن فقط. ثم كان هناك أيضا «الخيفشور» بعيونهم الزرقاء وشعورهم الحمراء والذين يدعون أن جدودهم وأسلافهم «هم الفرسان العظماء من بلاد الهلال» (أي أن أسلافهم كانوا من فرسان الحروب الصليبية الأوربية) الذين كانوا يرتدون معاطف من السلاسل المعدنية ويحملون سيوفا مستقيمة النصل ودروعاً صغيرة مستديرة مزينة بصلبان ملونة. وفي وصفه لتلك المقابلات، كان ليف بكل تأكيد يزين الحدث الفعلي بأشياء قرأها أو سمع بها. كانت المناطق الموجودة على مسيرة يوم بالخيل من باكو أو تيفليس أماكن مثيرة للخيال، ويبدو أناسها كسلالات تبرز من طيات التاريخ لساكني المدن، كما أن سلوك وطرق معيشة ساكني الجبال كانت تثير التخيلات والشائعات والقيل والقال.

وحين كان يتوجه إلى جنوب باكو كان يجد الآشوريين، آخر ما تبقى من الآشوريين، والذين كانوا يبدون له وكأن لهم وجوها تماثل الوجوه المنحوتة على واجهات المعابد القديمة. وحين كان يتوجه شمالا، إلى مملكة كيوبا الجبلية الصغيرة، كان يلتقي لأول مرة في حياته بأناس كان لهم تأثير فريد على الصبي اليهودي الذي ود أن يكون محاربا مسلما: وهم من كان يطلق عليهم قبطا، أو بني إسرائيل - يهود جبال أذربيجان.

كان رجال تلك القبيلة اليهودية يتمنطقون بالخناجر، ويرتدون

أحذية طويلة، وقلنسوات من الفراء ويصعب التفرقة بينهم وبين جيرانهم المسلمين. كانوا «على الدوام مسلحين» كما لاحظ ليف بارتياح، «ومثل القبائل الأخرى في البلاد كانوا من الرعاة والمقاتلين الرحل، وفي أحيان أخرى يتحولون إلى قطاع طرق يغيرون على القوافل التجارية على الحدود الفارسية». وبالفعل، يحتمل أن الصورة التي التقطت لليف وهو صغير في زي محارب قوقازي كانت مستلهمة من أبناء قبائل قبطا.

أغلب اليهود الأشكيناز الذين هاجروا إلى باكو من حزام البلطيق وجدوا أن مظهر وشكل اليهود المحليين من أهم ما يسترعي الانتباه في موطنهم الجديد. كانت فلورا بينينسون تتعجب وتندهش من أن اليهود الأذريين «في ثيابهم الشرقية لا يعدون يهودا؛ بل قوزاق أكثر من القوزاقيين ذاتهم، رجالهم يتمنطقون بخناجر ملكية حادة النصل ونساؤهم المغطيات من الرأس للقدم في أردية خشنة مزينة بنقوش متشابكة متداخلة، ومن النادر رؤية وجوههن».

وألقى ليف بنفسه في أتون دراسة كثير من النظريات التي تفسر أصل يهود الجبل. كانوا موضع دهشة وإثارة للمؤرخين وعلماء أصول الأجناس حتى فترة الحكم النازي لألمانيا، حين تورط الأمن السري الألماني في جدال حول تحديد مصيرهم. بعض النظريات تذهب إلى أنهم هم قبيلة اليهودي التائه، أو بقايا النفي البابلي الذين قضوا قرونا لا تحصى في بلاد فارس قبل أن يهاجروا شمالا إلى أذربيجان؛ واللغة التي يتحدثها يهود تلك الجبال تعد من اللغة الفارسية المنتمية للقرون الوسطى، مما يضفي بعض المصداقية على تلك النظرية. وحين التقيت ببعض رؤساء يهود كيوبا، ظلوا يشيرون لي باتجاه الجنوب حين سألتهم عن أصل جماعتهم. سألتهم بحماس من خلال

فؤاد الذي كان يقوم بالترجمة ورافقني في ذلك اللقاء: «بلاد فارس؟» «انتقل أجدادكم إلى هنا قادمين من الجنوب؟»

أجابني أحد كبارهم وهو يسوي قلنسوته التي تشبه في شكلها ونقوشها الأبسطة الفارسية: «بلى.. بلى».

ومن خلال فحص مقارن آخر، شرح لي فؤاد أن الرجل يقول ذلك، لأن من قرون كثيرة مضت ارتحل أجداده إلى جبال أذربيجان قادمين من الجنوب - من عشرة أميال جنوبا من المنطقة التي كنا بها، وقال مترجمو المؤرخ الموظف بالانتربول: «وبكلمات أخرى فإن الرجل ليس لديه أي معرفة من أين أتى قومه في الأساس. أولئك اليهود يعيشون على تلك الجبال والتلال على مدى ألف عام على الأقل».

في بداية الأمر ربط ليف نفسه بنظرية أن يهود الجبل من نسل يهود النفي البابلي. وكان ذلك يعني أنهم كانوا يعيشون بأذربيجان من قرون عديدة حتى قبل أن يفد إليها أغلب سكانها الذين هاجروا إليها من صحارى تركستان ومنغوليا، وأنهم بذلك يعدون من بين أقدم سكان البلاد. وهناك نظرية أخرى قام بالتحري عن صدقها وهي أن شعب قبطا هم من نسل قبيلة اليهودي التائه والتي أسست ممالك مختلفة قبل أن تهاجر في نهاية المطاف إلى أذربيجان. وفي أذربيجان أصبحوا تابعين شبه مستقلين لشاه بلاد فارس، تلك «العائلات الفخورة للأمراء الذين أنشأوا من بضعة قرون مضت مملكة يهودية عظيمة، والتي كانت فيها طبقة المقاتلين، والنبلاء حتى الملك من اليهود، كان الدين اليهودي في ذلك الوقت دين الطبقات المتميزة والعليا».

وقادته كل تلك المفاهيم في النهاية إلى أكثر النظريات جاذبية والتي سوف تؤرق وتحير النازية باعتقاد أن أولئك اليهود قد يكونون حلفاء آريين أكثر من كونهم أعداء من الساميين: وهو الاعتقاد بأن

يهود أذربيجان ربما كانوا من نسل قبائل الخزر، وهم خليط متحالف من مقاتلين يتحدثون التركية والذين اعتنقوا الدين اليهودي جماعيا في التاريخ بعد التوراتي، أي في القرنين الثامن والتاسع الميلادي. وأصبح ليف أسير فكرة أن «امبراطورا يهوديا كان ذات يوم يحكم منطقة شاسعة الاتساع تمتد من سفوح ما وراء نهر الفولغا حتى سواحل بحر قزوين، وحمل لقب كاجان. وعلى مدى مائتي عام كان الكاجان أقوى ملك في المشرق؛ كل شيء كان خاضعا لحكمه، بل إن الملوك المسيحيين كانوا مجبرين على دفع الجزية له». ولاحظ ليف أن المسلمين الأذريين كانوا يعتبرون أن اليهود من أبناء وطنهم كانوا في الأصل مسلمين تحولوا لليهودية «بسبب خطأ ما أو مشكلة ما؛ فاسم قبطا يعني أولئك الذين أخطأوا أو زلوا».

غير أن خطأ الكاجانات اليهود كان شيئا أكثر جوهرية من مجرد زلة عابرة. فالتاريخ المبكر المسجل للخزر يرجع للقرن السادس الميلادي، ففي أواخر القرن السادس اجتاحت القبائل الفنو - أوجرية، والتي تنتمي بالدم إلى قبائل الأتراك والهون - المنطقة الممتدة من البحر الأسود حتى سواحل بحر قزوين وهيمنوا على كل الأمم الواقعة في منطقة القوقاز. وأدى ذلك إلى تميز الخزر لكونهم القوة السائدة والمهيمنة على المنطقة التي واجهت انتشار وتمدد الجيوش الإسلامية، التي تدفقت عبر الأناضول وبلاد فارس في القرن التالي لوفاة الرسول محمد. وبدأ الخزر يصدون بنجاح القوات الإسلامية، وأصبحت منطقة خازاريا الدولة العازلة بين العالمين الإسلامي والمسيحي. ولو لم تكن الحروب الخزرية - العربية في القرنين السابع والثامن الميلادي، لكان السلافيون الروس قد دخلوا في الإسلام أيضا.

كانت شعوب الخزر قبل ذلك شعوبا وثنية وشامانية، تمارس طقوسا وثنية تتضمن تقديم أضحيات بشرية، حين قرروا اعتناق اليهودية اعتناقا جماعيا. وتقول الأسطورة إن الكاجان بولان الذي حكم منطقة الخزر في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن الميلادي حين درس ومحص الديانتين الكبيرتين السائدتين فيما حوله من تخوم - وهما الإسلام والمسيحية - لاحظ أن كلتيهما منبثق من اليهودية، التي رأى أنها أكثر معقولية ومنطقية منهما معا. ويؤمن أغلب المؤرخين الآن أن هناك اعتبارات عملية أكثر سادت ذلك التحول الجماعي إلى اليهودية: فقد كان الكاجان يكره أن يتحالف مع أي من الديانتين المتصارعتين على المنطقة في الوقت الذي يمكنه فيه أن يختار المصدر الأم للديانتين، وهي الديانة التي افترض أن الآخرين سيجلُّونها ويحترمونها. وتم تخليد قرار الكاجان في الأدبيات اليهودية بصفته من القرارات النبيلة - ولكنه كان أيضا مصدرا للتندر اليهودي بسبب منطقه في افتراض أن اختيار اليهودية سيجعل منه أكثر احتراما بين الأمم المسيحية والإسلامية، ففي الحقيقة جعله ذلك القرار مكروها من الجانبين.

ومهما كان السبب، تحول أغلب نبلاء الخزر وكثير من العامة إلى اعتناق اليهودية، وفي القرون التالية، تحت حكم بولان ومن خلفوه، تم بناء كثير من المعابد والمدارس الدينية اليهودية في جميع أنحاء القوقاز. وفي البدايات المبكرة للقرون الوسطى، في الوقت الذي كان فيه اليهود يُضطهدون في جميع أنحاء أوروبا المسيحية، فتحت الدولة البيزنطية، وبلاد فارس الإسلامية، وبلاد الخزر أبوابها لليهود وشكلت ملاذا آمنا لمن شق طريقه من يهود أوروبا لمنطقة القوقاز. غير أن يهود الخزر كانوا بدورهم متسامحين ومرحبين بكل الأغيار، فسمحوا

لمسيحيي اليونان، ومسلمي إيران، والسلاف الوثنيين أن يحيوا في ظهرانيهم دون إجبارهم على اعتناق اليهودية. أسس الخزر محكمة عليا مكونة من سبعة قضاة، يمثلون كل الأديان، وسجل ذلك مؤرخ عربي معاصر لتلك الفترة قائلا إنه بينما يحتكم الخزر لمحاكم تحتكم للتشريعات التوراتية، إلا أن القبائل الأخرى غير اليهودية كانت تحكم بمحاكم طبقا لتشريعاتهم الدينية.

استمر السعي وراء «اليهودي التائه» في بلاد القوقاز حتى وقت قريب وضم مجموعات لم يكن من المحتمل تحولها لليهودية، مثل سلالات عبيد الأرض من عمال الزراعة الروس الذين قرروا أن يرفضوا تأليه المسيح عيسى وأن يتعبدوا مثلما يتعبد اليهود. تلك الجماعات من السبتيين لم يعرفوا شيئا عن التشريع اليهودي، غير أنهم تحولوا بطريقة عفوية ودون تواصل مع اليهود الآخرين، وراحوا يستمدون معرفتهم بالدين من العهد القديم مباشرة - وأصبحوا، من بين أشياء أخرى، خبازين مهرة للخبز غير المختمر، والذي اختار بعضهم أن يعيش عليه طول العام، ليكون فقط في الجانب الآمن. كان السبتيون يختتنون وكانوا يبشرون بأن كل الرجال بإمكانهم أن يكونوا ربانيين وأحباراً. وبدلا من اتباع عيسى، آمن أولئك المزارعون المنتمون لعصر ما بعد التنوير بأن فيلسوفا غامضا سوف ينزل عاجلا إلى الأرض ليفض غموض وأسرار الكون والوجود. وفي عام ١٨١٧ تقدم السبتيون بالتماس للقيصر لقبول تحولهم لليهودية؛ في ذلك الوقت كان القيصر بالكاد قد بدأ محاولة تحويل كل يهود منطقة البلطيق إلى المسيحية، لذلك أشتعل غضبا وغيظا على عمال الأرض أولئك الذين كانوا يتحولون لليهودية. وطبقا لما سجله مؤرخ اليهود الروسي الكبير سيمون دبنو عن ذلك:

تحولت كل المستوطنات إلى يباب، آلاف من الطائفيين تم نفيهم إلى سيبيريا والقوقاز. كثير منهم ممن لم يتحملوا الاضطهاد، عادوا لاعتناق الفكر الأرثوذوكسي المسيحي دين الغالبية الروسية، وكثير منهم ارتد ظاهريا للمسيحية، واستمروا على إيمانهم بمبادئ عقيدتهم الطائفية سرا.

أما أولئك المنفيون، فقد استقر كثير منهم بالمنفى في القوقاز، مأوى المعتزلة والمرتدين، وكل اصحاب المذاهب المهجنة. وفي أذربيجان، كانت مستعمرات «المتهودين الجدد» منتشرة بوجه خاص على حدودها الجنوبية مع إيران، ولكن الأغرب في كل ذلك أن أولئك القوزاق الذين أصبحوا سبتيين في القرن التاسع عشر، ظلوا يمارسون التشريعات السبتية سرا وبتشدد لا يقل عن غلاة اليهود الأرثوذوكس. ويصف متابعو الثورة في عام ١٩٠٥ «اليهود» القوزاق بأنهم ركبوا إلى مناطق الاضطرابات في أوكرانيا وحاولوا منع تلك الاضطرابات والتصدي لها، بينما كان غالبية القوزاق يساهمون في الثورة بكل شراسة»[(١)].

راح افتتان ليف بيهود القوقاز الأصليين يتضاعف مع الزمن، بغض النظر عن أصلهم. اكتشف أنهم يعادون «اليهود الأجانب»، معتبرين أنهم فاسدون وأدنى منهم مرتبة، ولأن «البدو الرحل من اليهود لا يريدون أن يعترفوا بيهود القيصر، الذين لا يتمتعون بأي

---

(١) وسوف يمر ميراث السبت بتغيرات غريبة على مدى القرن ونصف القرن التالي. وفي المعرفة الدينية الشرعية العميقة في دولة فيشي في فرنسا، كان يمكن للمرء أن يلتقي بروس بيض سبتيين يقاتلون بيأس لإثبات تفرد ميراثهم للسلطات العرقية الفرنسية الموالية للنازي، وأصرت تلك السلطات على تصنيفهم يهوداً، وصادروا ممتلكاتهم، ورتبوا لنقلهم إلى معتقل أوشفيتز الجماعي في ألمانيا.

حقوق، كإخوة لهم في العقيدة»، بل إن ليف زعم أنه اكتشف أن أولئك اليهود تبادلوا الأسلحة وقاموا بأداء قسم سري بالدم مع جيرانهم المسلمين. وغذت أخوَّة الدم بين يهود القوقاز ومسلميها رؤية ليف الجديدة عن نفسه من أنه من أصل مهجن لا يمكن تتبعه ومن مكان حيث «لا يمكن التمييز بين المحاربين المتوحشين القساة، والفرسان وقطاع الطرق، عن أحبار وكهنة شرق وسط أوروبا، أو العمال، لو ارتدى كل منهم زيه الصحيح». وبينما لم يقر أبدا علنا أن لديه أي دم يهودي في عروقه، ذكر ليف جماهيره بأن: «كثير من الأجناس القوقازية تعترف بأصولها اليهودية بفخار ويعتبرون بشكل مشرف أنهم يتميزون بذلك»[1].

وسوف يرى ليف المسلمين واليهود يتحدون في نضالهم ضد الغرب وعنفه الجماعي. وليس من قبيل المصادفة أنه حين بدأ في الكتابة عن مغامراته في فراره من البلاشفة، كان من أهم الحوادث الأولى التي وصفها تلك التي تتعلق بانتفاضة وتمرد القبطا أثناء استيلاء الشيوعيون الحمر على أذربيجان. زعم ليف أن أباه وهو يظهر اهتمامه وقلقه على مصير يهود الجبل، عرضت عليه السلطات منصب حاكم كيوبا، وهي المنطقة التي يعيش بها أغلب يهود الجبل.

---

(١) كان افتتان ليف باليهودي التائه مغلفا باعتبارت أخرى واقعية، وليست محدودة فقط بموضوع الخازارا. في كتاب له بعنوان «المنفى والخلاص»، كتب إيزاك بن زيفي الذي أصبح رئيسا لإسرائيل فيما بعد «تحول الخازار كان حدثا منفصلا بل حتى غير معتاد، فقد كانت اليهودية سائدة بين قبائل قوقازية أخرى، خاصة بين الجيورجيين والأرمينيين. كل قبائل الكوميكس يمكن أن تتبع انحدارها من يهود حتى اليوم، وتثبت لغتهم التاتية انحدارهم من يهود الجبال».

وبالطبع، كان ليف يحكي القصة في سياق حكاياه عن أبيه كمسلم ارستقراطي متشدد والذي كان مرهوب الجانب من السلطات ومن عصابات باكو في آن - ناهيك عن رجال الأعمال المعتدلين والذين لا يمكنهم السيطرة على قبيلة من متمردي الجبال اليهود البارعون في القتال بالسيوف.

ويستدعي ليف ذاكرته ليكتب: «بقدر حبي غير المفهوم لقصر الخانات القديم في باكو كانت كراهتي للثورة أيضا».

ولكن على الرغم من الفوران الثوري الذي كان يكمن خلف كل الأحداث اليومية، سواء من خلال عمليات التعذيب التي كان يقوم بها «كوبا» (ستالين) أو أعمال جمع التبرعات للثورة التي كان يقوم بها «كارسين»، كان العقد الزمني الذي أفضى لعام ١٩١٤ ذروة روسيا القيصرية. كان العنف والفوضى اللذان سادا بجموح ثورة ١٩٠٥ قد تلاشيا وتبددا أخيرا، وعلى الرغم من اغتيال نحو نصف عائلته على أيدي الإرهابيين، أعاد رئيس وزراء القيصر المستقل، «بيتر ستوليبين»، من خلال التهدئة والقرارات الإصلاحية، -أعاد- النظام والاستقرار، كما أعاد النمو الاقتصادي لروسيا. ووصلت روسيا لقمة من الانتعاش الظاهري الفاسد والمتفسخ في عام ١٩١٢، وهو العام الذي خصصت فيه الصحف الروسية مساحات كبرى من صفحاتها لمصارعة المحترفين أكثر مما كانت تخصصه للتوترات والاضطرابات الثورية. واحتضنت ملاهي بيترسبورغ الليلية شعراء المستقبل وأمسياتهم الشعرية. كانت روسيا تزدهر، وظلت باكو موطن طاقة الصناعة لروسيا. وبعثت الحكومة الفرنسية بالاقتصادي الفرنسي إدموند تيري إلى روسيا في عام ١٩١٤ لاختبار حقائق الحالة

الاقتصادية الروسية، (كانت فرنسا الدائن الأكبر لروسيا في ذلك الوقت)، وعاد تيري بحكم ملتهب مفاده أن «روسيا سوف تهيمن على أوروبا اقتصاديا بحلول منتصف القرن العشرين». وصاحب المكاسب الاقتصادية انتعاشا في الآداب والفنون أنتج رحمانينوف، ودياجيليف، وسترافينيسكي، ومالفيتش، وماياكوفسكي. غير أن هذا المجد كان قصير الأجل.

ففي أغسطس عام ١٩١٤ حركت دولة القيصر جيوشها الهائلة - وكانت الأكبر في العالم في ذلك الوقت - وتدفقت باتجاه الغرب، وهزمت بجدارة جيش النمسا في واحدة من أوائل المعارك الشهيرة للحرب العالمية الأولى. ولكن باكتمال العام الأول من عمر ليف في أحضان الدولة الإمبريالية الروسية، حول الألمان التقدم الروسي المدوي إلي ما يماثل الذكريات الأليمة للهزيمة المريعة التي نالتها روسيا على أيدي القوات اليابانية قبل ذلك بعشرة أعوام. وبالمثل كما حدث في حرب روسيا عام ١٩٠٤-١٩٠٥، أدى الفشل المدوي لماكينة الحرب القيصرية في ميادين القتال إلى انتفاضات شعبية في جميع أرجاء الإمبراطورية الشاسعة، من سانت بيترسبورغ إلى فلاديفوستوك. أما باكو، التي كانت على الدوام مركزا للانتعاش والرخاء فقد أصبحت بدورها مركزا للحراك الثوري والاضطرابات والقلاقل. وتذكرت السيدة شولته المرات الكثيرة التي كان ليف فيها يهجر مدرسته، حين كان أبوه يخشى عليه من مغبة الموقف الأمني المتدهور.

وبحلول ربيع عام ١٩١٨، استعر القتال والصراع لا بين البيض والحمر فقط، ولكن أيضا بين البلاشفة من جانب وكل الأحزاب والفصائل السياسية الأخرى من جانب آخر. لم يتمكن البلاشفة من

الفوز بانتخاب واحد من كل الانتخابات التي أجريت، وفي واقع الأمر، لم يتمكنوا حتى من تحقيق أغلبية بسيطة. كان الحل المتاح أمام لينين واضحا: تحريض البلاشفة للغوغاء وتسخيرهم لإقامة عدالة الشارع، ونشر أعمال النهب، واضطهاد النبلاء والبورجوازيين الذين صعدوا من الطبقات الدنيا للمجتمع. وفيما سعت حكومة التحالف الديمقراطي المكونة من الليبراليين في عام ١٩١٧ لوقف ومنع أعمال النهب والأعمال الإرهابية، عمد البلاشفة إلى تبني سياسة تشجيع الإرهاب العام كخطوة أولى نحو ترسيخه بشكل مؤسسي. وحل البلاشفة بعنفهم محل الشرطة السرية القيصرية (الشيكا) وعمدت الشيكا إلى تشغيل كثير من رجال الشرطة ذاتهم لحسابها ولكن بصلاحيات جديدة للتعامل مع أعداء الدولة: فقد كان رجال شرطة القيصر مقيدين ببعض التحفظات التي تغلُّ يدهم من التعامل بتهذيب إلى التمسك بالفضائل والقيم الأخلاقية - على الرغم من أن بعضهم بشكل فردي وشخصي لم يكن يتمسك بأي من ذلك - لم تكن الشيكا مغلولة اليد بأي تشريع أو قانون عدا حرصها على سلامة ورفاهية الطبقة العليا.

ومهموما «بالصعوبات والمشاق»، راح لينين يزداد تقديره واحترامه لـ«كوبا» زجاشفيلي (ستالين)، الذي كان اسمه الثوري بحلول عام ١٩١٣ قد تطور بشكل فعلي إلى ستالين، أو «الرجل الفولاذي». واستدعى لينين اللص الأكبر والمعذب القوقازي إلى الشمال ليسند إليه مسؤولية شؤون الأقليات فقد كان خبيرا بها. وفي نوفمبر من عام ١٩١٧، وبصفته المندوب الجديد لشؤون القوميات، صاغ ستالين بيانا شاملا كان بمثابة «إعلان لحقوق الشعب الروسي»- موجها على وجه الخصوص إلى «التركمان وشعوب التتار المنتشرة

عبر مناطق القوقاز» وإلى «شعوب جبال القوقاز»- لضم وجذب قوميات الأقليات إلى ساحات العمل الثوري. فيما اعتبر واحدا من أكبر عمليات الخداع والوعود الكاذبة التي بذلت للشعوب عبر التاريخ. فقد أكد الرفيق ستالين على حق قوميات الأقليات التي تعيش في رحاب الإمبراطورية الروسية المتصدعة في «تقرير مصيرها بحرية كاملة، لدرجة تحقيق رغبتها في الانفصال وتكوين دولها المستقلة إن شاءت ذلك».

وكان مواطنو باكو يدركون ويعرفون جيدا أنهم لا يمكن لهم الوثوق بالثعلب الذي تبنوه في يوم ما، الذي بث الإرهاب والرعب في كل أنحاء مدينتهم لما يزيد عن عقد كامل. وفي ذلك الربيع شهدت شوارع باكو وطرقاتها انتشار المتاريس والحواجز التي تهيمن عليها فصائل موالية وأخرى معادية للبلاشفة.

وعلى مدى ثلاثة أيام، وبينما كان تبادل إطلاق النار لا يتوقف في شوارع باكو، لجأ ابو ليف، وليف، والسيدة شولته، وآخرون ممن يعملون في قصرهم إلى القبو السفلي من القصر للاحتماء به، وعاشوا لفترات طويلة على الأطعمة المعلّبة، وخبز الفول السوداني، والكافيار. على مدى أيام وليالٍ ظل ليف يسمع أزيز الرصاص ودوي طلقات البناق والرشاشات الآلية وهو في مخبئه في القبو السفلي. كان من المستحيل معرفة ما يجري خارج القصر في الشوارع المحيطة ولا في أنحاء مدينة باكو، ولا معرفة من يقتل من، ولكن أبراهام نوسيمباوم فكر أن من الحصافة والحكمة تجنب مغادرة القبو. كان الكبار يجلسون في زاوية من القبو، يتناقشون فيما يجب عليهم عمله بعد ذلك، وإلى أين يمكنهم الذهاب بجوازات سفرهم الروسية، وما يمكنهم اصطحابه معهم. وجلس ليف في الركن المقابل، يتابع

الأصوات الآتية من الشارع. كانت هناك نافذة في الركن العلوي الأيمن للقبو، ولكن لم يجرؤ أي منهم على الاقتراب منها حين كان دوي طلقات الرصاص يبدو قريبا منهم.

بالنسبة لصبي حالم في الثانية عشرة من عمره ينحدر من اختلاط سلالة مقاتلين أتراك وأمراء فارسيين، كانت أيام الاختباء بالقبو تبدو كلعبة من الألعاب المسلية. وتذكر ليف بعد أعوام أنه كان يستحوذ عليه في ذلك الوقت حالتان - واحدة من الخوف والفزع والاكتئاب، وحالة أخرى من الذهول والشرود والتشتت العاطفي. في اليوم الثالث، توقفت البنادق والمدافع، فاقترب من النافذة مستطلعا. كان بإمكانه من تلك النافذة أن يرى الطريق كله. كان المربع الذي يقع فيه قصرهم في حالة مريعة من الدمار: كانت العربات التي تجرها الخيول مدمرة ومتناثرة، وأعمدة الإنارة منهارة، وملابس متناثرة ومبعثرة، وجمال نافقة.

اكتشف ليف جثثا آدمية متناثرة في الطريق، غير أن مشهدها لم يؤثر فيه كثيرا في البداية، لأنها بدت له في البداية أشبه بدمى من القماش أو كأكوام من القش. ثم، فجأة، أظهرت له النافذة صورة ستظل ملازمة له طوال عمره بعد ذلك:

صوت صرير عجلات العربات الخشبية في الشارع الخالي. عربة بعد ثانية بعد ثالثة وقافلة طويلة من العربات المحملة بأجساد القتلى. جثث بأعضاء ممزقة، ما زالت تقطر منها الدماء، مشوهة وممزقة بفعل كراهية الخصوم الوحشية، كانت أذرع وسيقان بعض الجثث تتدلى متأرجحة من جوانب العربات الخشبية، وكانت حركة العربات الرجراجة تجعل الأطراف المتدلية تتأرجح في الهواء، بدا أصحاب الأطراف المتأرجحة وكأنهم ما زالوا أحياء ولكن بأعين وأنوف مشوهة. تلال من الجثث لرجال ونساء

وأطفال. عربة تترى وراء أخرى. حتى عيون سائقي تلك العربات الخشبية بدت كعيون الجثث... ثم مرت القافلة وابتعدت. وازداد دوي طلقات الرصاص من جديد وتصاعدت وتيرته. فعدت من جديد إلى زاوية القبو.

كلما فكرت في ليف وأبيه وهما مختبئان في قبو القصر، تقفز إلى ذهني فكرة مصير بارونات النفط الآخرين الذين لم يتمكنوا من الاختباء في قبائهم. وفي جولتنا في أنحاء بيوت باكو الكبرى، أراني فؤاد مبنى يكنى باسم رمزي هو قصر العرس. كان مالكه واحداً من حفنة مليونيرات النفط الذي لم يفر من باكو، وبدت قصة قصره متوافقة تماما مع النهاية العنيفة والمأساوية لرأسماليي باكو بمجرد أن اشتعلت ثورة روسيا عام ١٩١٧ وامتد لهيبها إلى الجنوب، أي إلى باكو.

كان قصر العرس قد بناه بارون نفط مسلم اسمه «مختاروف»، وهو من أصول ريفية متواضعة. وبعد أن أصابه الثراء من النفط في بدايات القرن العشرين، أخذ على عاتقه مهمة بناء كثير من المساجد في جنوب روسيا. كما تحول إلى رحالة ومحب للغات الأجنبية. وفي واحدة من مهامه في تشييد المساجد، على نهر تيريك، التقى بفتاة جبلية من أصول نبيلة ووقع في غرامها، ولم ترض عنه أسرة الفتاة لأنه لم يكن من أصول أرستقراطية بما يكفي ليكون ندا لهم، ولكنه بعد أن شيد مسجدا رائعا على شرف ابنتهم، استحوذت حميميته على مشاعرهم ورضخوا.

ومضى الزوجان إلى رحلة عرس في أنحاء أوروبا، يتحدثان معا بالفرنسية والإنجليزية التي تعلماها حديثا، وبينما كانا في فرنسا، رأت العروس بيت أحلامها الذي تتمنى أن تعيش به: وكان ما رأته

كاتدرائية على الطراز القوطي. وعلى الفور كلف مختاروف مهندساً معمارياً بولندياً (كان من أمهر المهندسين المعماريين البولنديين في أوروبا قبل الحرب)، وبعد عودتهم بعد بضعة أسابيع أخرى إلى باكو، شرع المعماري في تشييد نسخة من الكاتدرائية التي أعجبت عروس مختاروف في فرنسا. وانتهى البناء في عام ١٩١١ -١٩١٢، وأصبح أعظم مبنى بين كل صروح القصور الكبرى التي شيدت في باكو. ولكن عند قرب اكتمال وانتهاء التشييد، سقط أحد عمال البناء قتيلا من سقف القصر وهو يحاول تثبيت تمثال بالحجم الطبيعي لفارس من عصر آرثر على سطح المبنى. وأقدمت زوجة عامل البناء القتيل على الانتحار من شدة حزنها على زوجها، مما دفع بالعروس الشابة التي بني قصر العرس لها أن تقرر أن ذلك القصر أصبح مرتبطا بالكآبة وعدلت عن العيش به. وبمزيد من التمويل من زوجها، تحول قصر الأحلام إلى ملجأ ومدرسة داخلية للفتيات اليتيمات. وهكذا صار الأمر، في نسخة منقولة عن كاتدرائية قوطية شيدت كنزوة، تربى جيل من الفتيات اليتيمات المسلمات وتلقين تعليما غربيا، وأصبح بإمكان معظمهن التوجه إلى إكمال تعليمهن العالي في بتيرسبورغ وموسكو.

وفي عام ١٩٢٠، حين دخل الجيش الأحمر مدينة باكو، تم إغلاق المدرسة. غير أن مختاروف التياه الذي انتقل من أصول ريفية وزراعية إلى محسن سخي العطاء، رفض الفرار ومغادرة باكو. انتظر في بهو قصره ومسدسه معلق إلى خاصرته تحت معطفه وصول البلاشفة «الأفظاظ». وحين اقتحم البهو اثنان من جنود الجيش الأحمر وهم على ظهور الخيل، محطمين درجات البهو الرخامية، ومحطمين التماثيل، وهم يأمرونه بإخلاء القصر باسم الشعب، حدد

مختاروف أهدافه وصوب إليها سلاحه وأسقط الجنديين قتيلين، ثم أدار المسدس إلى صدره وأطلق النار وأحدث ثقبا داميا في صدره.

وبالمقارنة، كان أبراهام نوسيمباوم يسعى لرشوة المندوبين، وأن يتوصل لاتفاقات نهائية، ويعد العدة للفرار من البلد عن طريق قارب، يتجه به شرقا عبر بحر قزوين، فقط هو وابنه وأمواله، ومجوهراته، ووثائق عن أعمال نفطية مخفية في أرجل سروال بدلته التي على الطراز الأوربي.

الفصل الثالث

الاتجاه شرقا

لم يكن المكون الشرقي أبدا مجرد خيال بحت لدى ليف. لقد عاش بين ظهراني نسل فرسان الحروب الصليبية في القرون الوسطى وبين يهود جبال القوقاز بخناجرهم المرصعة بالجواهر، كانت له أذن تهوى سماع القصص. قضت ثورة ١٩١٧ على أفكاره عن التقاليد المثيرة والمغامرات العظيمة، ولكنها الآن على وشك القذف به أبعد إلى عالم الشرق العاصف أكثر مما تخيل في أي يوم - إلى الرمال الحمراء لتركستان وحصون بلاد فارس الطينية. واعتمدت الكتب التي كتبها ليف بعد ذلك بزمان على تلك الرحلات وسوف تضعه على خريطة الأدب، على الرغم من خيانتها لميوله للحكايات الطريفة أكثر من ميله لقسوة الحقائق الجافة.

في تقفي أثر مسار ليف الغامض - وفي الأغلب كان غامضا إراديا -، بدأت متشائما بسبب ملاحظاته، التي كتبها بصفته «أسعد بيك» والتي كانت في الغالب مشبعة بجو أعمق من مجرد كتابة قصة حياة وهو ما كان شائعا في الكتابة في ذلك الوقت. كتب في بداية مذكراته الأخيرة التي كتبها وهو على فراش الموت: «يمكن الحصول على الحقيقة فقط من سجلات الشرطة». غير أن أعواما من جمع كل

قصاصة تحمل دليلا تمكنت من التوصل إليها عن حقيقة حياته أظهرت أن كل العناصر التي تبدو غريبة وغير معقولة وصعبة التصديق عن حياته والحكايات والوقائع التي يرويها كان يتضح في الغالب بعد ذلك أنها حقيقية - حتى لو لم تكن مستمدة مباشرة من خبراته وتجاربه الحياتية المدهشة، وقد تكون منتحلة من خبرات وتجارب أفراد من عائلته أو أصدقائه أو منتحلة من صفحات بعض الصحف التركية أو بعض النصوص الأنثروبولوجية الألمانية. كانت بعض أبسط الإفادات عن ذاته - مثل الاسم، والجنس، والقومية - هي الإفادات التي لا يمكن الوثوق بها. وكما وجدت واكتشفت حين بحثت في تقارير وملفات مراقبة ومتابعة الشرطة الفاشية في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، فإن آخر موضع يمكن أن تجد فيه أي حقيقة عن ليف نوسيمباوم هو سجلات الشرطة.

على مدى المرحلة التالية من حياته - وهى رحلة التيه بصحبة أبيه من باكو المحتلة عبر تركستان، ومنها جنوبا إلى فارس، ثم العودة مجددا عبر أذربيجان وصولا إلى جورجيا - بشكل عملي وواقعي لا توجد عنها أي مصادر خارجية تثبت صحتها ودقة وقائعها. وسمعت كلاما فارغا كثيرا من كثير من الناس الذين عاصروا أحداث أذربيجان في تلك الفترة، وسجلتها كلها في حينها، وطابقتها على غيرها لتمحيصها، وترجمتها، ثم نبذتها وتغاضيت عنها، حتى أنني استنتجت أن البحث عن ليف في ذلك الجانب من العالم، وفي ذلك التاريخ، كان سينتج عنه مزيدٌ من الأساطير تفوق كثيرا ما يمكن أن نجده عنها في أعماله التي كتبها. كثير جدا من التسجيلات المنتمية لمرحلة ما قبل الثورة البلشفية إما فقدت، أوتم اتلافها عمدا، وكانت شعوب القوقاز المنفية والهاربة تواجه ظروفا ومشقات تفوق كثيرا الاهتمام

بحفظ أية تسجيلات. نشأ ليف على تقاليد الذاكرة البصرية والمشاهد الخارقة الإعجازية - فهو في نهاية المطاف من بلد تقذف فيها الأرض حمما من اللهب من تلقاء ذاتها.

قصة هروبه عبر سهوب آسيا الوسطى، وبلاد فارس، والقوقاز والتي سجلها في كتابه «الدم والنفط» تحتوي على وجه التقريب ما يشبه المناورات المخاتلة في المكان والزمان لتضعه في قلب مشهد أشد المواجهات الحادة والدرامية للحرب الأهلية الروسية، مثل حصار مدينة جانجا الأذربيجانية - حيث يفترض أن ليف ابن الحادية عشرة من عمره قد هيمن على رشاش آلي ثم اعتقلته عناصر «الشيكا» (الشرطة السرية السوفياتية). وبالمقارنة، كان موضوع ذلك الأسبوع، كما سجلته مربيته المخلصة آليس، تتضمن أن ليف لم يكن بالقرب من جانجا في ذلك الوقت وأن عناصر الشيكا ضايقوه لأنهم أخطأوا في تفسير زيه المدرسي الموحد على أنه زي عسكري لتنظيم ما.

أما لب حقيقة أن ليف في كتاب «الدم والنفط» يقدم ذاته متقمصا شخصية «أسعد بيك» مرتحلا مع أبيه الأرستقراطي المسلم، فهو يلفت نظرنا من الأساس إلى عناصرها المدهشة. في قلب الموضوع، ظهرت الرحلة في جو أسطوري خرافي، حتى لو كانت أغلب التفاصيل حقيقية: فقد كانت طبيعة ليف المشرقية ورؤيته الأسطورية لذاته - الأمير المسلم اللطيف، في مواجهة المخربين الثوريين من كل الأطياف والنحل بشجاعة وثقافة رفيعة وأقل ما يمكن القول عنها، إنها كانت مؤثرة ومثيرة للإعجاب لفتى في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره. وفي نهاية المطاف، توصلت إلى أنه من المحتمل أن ليف قد شهد بنفسه أغلب تلك الأحداث التي وصفها في «الدم والنفط»، بما فيها أغلب تلك الأحداث التي قد تبدو مستحيلة الحدوث (حتى لو لم

يكن من بينها آخر موقف في مدينة جانجا وهو يحمل رشاشا آليا).
وتكون سيرة ليف الذاتية التي كتبها بالإضافة إلى رسائله وما دونه في دفاتره وهو على فراش الموت التسجيلات الثرية الوحيدة الحية لتلك الشهور، غير أني قمت بالتحقق من صحتها ومقارنتها بالتقارير الصحافية التي نشرت عن نفس الفترة، والذكريات التي دونها آخرون، وما دونه المؤرخون عن ذات الفترة، فأدهشني أن القصة التي قدمها عن الرحلة هي أصدق ما كتبه مؤخرا.

وكما يحكي ليف القصة، فإن ابن خالة له انضم إلى لجنة سوفيات باكو المشكلة حديثا، وذات ليلة جاءهم بأخبار خطيرة. كانت موسكو ترى أن مندوبها في باكو يفقد قوة قبضته على السلطة في المدينة، واقترح لينين تسييل ومصادرة ممتلكات الرأسماليين مصاصي الدماء في باكو لنيل دعم وتأييد سكان باكو. وكان أبراهام ضمن العشرة الأوائل في قائمة مصاصي الدم التي وضعها لينين «أي مطلوب اعتقاله وإعدامه رميا بالرصاص. وبذلك حان وقت الفرار من باكو».

قرر ليف وأبوه أن يهربا بالفرار شرقا عبر بحر قزوين إلى تركستان، أو إلى منطقة وسط آسيا الإسلامية، وهي أصقاع هائلة الاتساع ضمن الأراضي التي تهيمن عليها روسيا والتي يحكمها محليا بضع أسر وقبائل كانت معادية للقوى الشيوعية. كان أغلب التركمان ما زالوا قبائل تركب الخيل، على الرغم من أن مدنا قديمة مثل كيزيل - سو على ساحل بحر قزوين، وسمرقند وبخارى في الداخل، كانت متصلة ببعضها عن طريق خط سكك حديدية تنتشر المستوطنات على مساره وصارت تنمو مع الوقت مع توغل روسيا في المنطقة في القرن السابق. قال أبراهام لابنه إن لهم أقارب في تركستان وقد يرحبون بهم إذا سعوا للوصول إليهم، وقال له إن لهم أيضا بعض الممتلكات في

كيزيل - سو التي سيتوجهون إليها، وهي ممتلكات يرعاها ويديرها شخص لم يسبق له أبدا رؤيته، ولكن على أقل التقديرات سيجدون مكانا يقيمون فيه[1].

وفي منتصف الليل، توجه ليف وأبوه إلى رصيف الميناء ليستأجرا قاربا، ولحسن حظهم وجدا قاربا يقوده بحار كان يعمل في السابق على إحدى ناقلات النفط التي يمتلكها أبراهام. ووافق على معاونتهم على الفرار من باكو.

ولكن إلى أين؟ على الرغم من أن الألمان كانوا على وشك خسارة الحرب العالمية الأولى، كانت قطاعات كبيرة من الامبراطورية الروسية المنهارة ما تزال تحت سيطرة ما يقرب على مليون جندي من جيش القيصر: كان البلاشفة قد تخلصوا من التعامل مع تلك القوات كجانب من بنود الاتفاق على تحقيق السلام بأي ثمن مع القوى الكبرى. كان الانسحاب من الحرب العظمى يحرر الروس ليتسنى لهم محاربة بعضهم بعضا، واشتعلت حرب أهلية ضارية بين كل ما يمكن تصوره من فصائل متناحرة، والتي قسمت بوجه عام إلى فصائل حمراء تتطاحن مع فصائل بيضاء. كان الحمر يمثلون الثورة الراديكالية المتطرفة وعلى رأسهم البلاشفة. أما صعوبة شرح ما يمثله البيض فيرجع إلى حد كبير إلى فشلهم كحركة متماسكة. لقد كانوا يمثلون أي

---

(١) في كتاب «الدم والنفط» بالغ ليف في حجم عائلة أبيه في تركستان وبلاد فارس، حتى ادعى أن منشأ عائلة أبيه في سمرقند وهي كذبة عارية عن الصحة، فمسقط رأس نوسيمباوم الفعلي في مدينة تيفليس. وكان ذلك من استراتيجيات ليف التي لازمته طوال عمره من مد جذوره أعمق وأعمق إلى أقصى الشرق، وأشد عمقا في العالم الإسلامي والصحراء. وبالطبع، يحتمل أيضا أن ابراهام كان له ذلك القريب: كان من يهود روسيا الذين تحركوا منها خارج منطقة البلطيق وأسسوا لأنفسهم وجودا ملموسا.

شيء آخر غير ما يمثله الحمر - من الاشتراكيين المعتدلين إلى الليبراليين الديمقراطيين إلى أتباع النظام الملكي المحافظ إلى الخانات المسلمين المرتدين.

في تركستان التي كانت تشكل الجبهة الشرقية الجنوبية الصحراوية لروسيا، كانت القوات الحمراء والبيضاء المتصارعة متداخلة مع القوات الكبرى للجيوش الألمانية، والبريطانية، وقوات الإمبراطورية العثمانية، كانت كل تلك القوات تتدفق على المنطقة من كل حدب وصوب بمختلف الأسباب صغيرها وكبيرها: كان الألمان يتدفقون على المنطقة لتأمين مواردهم من القطن لصناعة مقذوفات المدافع، وكان الأتراك يتدفقون على المنطقة بأحلام شبه صوفية لترسيخ إمبراطورية تركية مترامية الأطراف تمتد من البسفور حتى بخارى في وسط آسيا، وكانت القوات البريطانية تتدفق على المنطقة لحماية الهند من الأتراك والألمان. تلك الأصقاع المكشوفة كانت تمثل أبعد حد لغزوات قيصر روسيا في منطقة وسط آسيا الإسلامية - قلب العالم الإسلامي الروسي - وفرضت روسيا حكمها عليها بقبضة أقل كثيرا من قبضتها على مناطق القوقاز أو كريميا. كان تأثير النفوذ الأوربي على تلك الأصقاع القاحلة يعد نفوذا حديثا، وكان نفوذا بسيطا. كانت تركستان مكونة من مليون ونصف المليون ميل مربع من الأرض القاحلة - وهو ما يوازي على وجه التقريب نصف المساحة القارية للولايات المتحدة الأمريكية. تمتد صحاريها وسفوح جبالها العارية شرقا حتى جبال الهيمالايا وأفغانستان. كان الروس قد بدأوا في استعمار المنطقة في القرن التاسع عشر، حين كانت الجيوش القيصرية الروسية تلتهم مساحات واسعة من المنطقة بمعدل خمسين ميلا مربعا كل يوم. كان نيكولاي دانيلفيسكي المعاصر للكاتب الروسي الشهير

دستويفسكي ومؤسس نظرية «السلافية العلمية» وهي نظرية الدور الروسي المقدس في التاريخ، يؤكد على الأهمية القصوى لمنطقة تركستان لروسيا والتي تفوق كل ما عداها من أهداف في غزوات الجيوش القيصرية: «ما الدور الذي تسنده لنا أوروبا على المسرح العالمي، دور أبنائهم بالتبني؟ أن نكون حملة ومروجي حضارتها في المشرق - تلك المهمة الجليلة مهمتنا نحن . . . . فإلى الشرق».

غير أن المساحات في تركستان كانت شاسعة وكان شعبها أقرب للبدائية حتى يمكن أن يهيمن عليها استعماريا هيمنة فعالة. وبدلا عن ذلك، لجأت روسيا إلى حيل ووسائل ملتوية من الاتفاقات مع الخانات المحليين الذين يرجع تاريخ ممالكهم إلى عصر جنكيز خان والعشائر والقبائل التاتارية والمغولية المنتشرة بالمنطقة. كان الخانات المحليون في غاية السرور لمبادلة الاستقلال الكامل لـ«دويلاتهم» بالمال الروسي، والآلات والماكينات، والسلاح. إضافة إلى المدفوعات المادية، كما تم تعيين أعداد منهم كجنرالات ورؤساء أركان في الجيوش الروسية، بافتراض أن ذلك سيجعلهم متمسكين بالدور الجديد لهم كسادة زراعات القطن في وسط آسيا. وبقلنسواتهم الصوفية الجبلية، أصبح المقاتلون التركمان من ثوابت القوات العسكرية القيصرية، يركبون الخيل جنبا إلى جنب مع القوات القوقازية[1].

---

(١) وقعت آخر مواجهات وصراعات الهيمنة على وسط آسيا وطرق التجارة المؤدية للشرق الأقصى بين روسيا وبريطانيا على أرض تركستان. وفي حين كان الروس يكملون الهيمنة على القوقاز في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، أداروا أعينهم عبر بحر قزوين وقاموا بغزو ممالك الخانات في كوكاند، وبخارى، وخيفا. فوقعت تلك الممالك الاقطاعية بين شقي الرحي للقوات البريطانية في الهند وأفغانستان وبلاد فارس من جانب، =

كره كثير من الوطنيين التركمان الغزاة الروس الجدد، وبعد الثورة، كانت بعض القبائل التركمانية تتمرد كلما واتتها الفرصة. غير أن المستعمرين الروس الذين يعيشون في تلك المستعمرات كانوا أكثر تعاطفا مع البلاشفة، وفي عام ١٩١٧ أعلنوا عن قيام دولة سوفياتية في سمرقند، وأعلنوا أن شعب تركستان قد تحرر بشكل رسمي. ولكن التركمان لم يودوا أن يتحرروا على أيدي المتطرفين الروس، وحاربوا البلاشفة بالشراسة التي حاربوا بها أي أجانب كفار آخرين. واشتكت صحيفة «أزفستيا» الشيوعية الكبرى من أنه بينما «ارتفعت شمس الحرية في عهد الإمبراطورية الروسية. . . بقيت تركستان عصية على أي تغييرات وبمعزل عنها» وكان تحديا كبيرا للحكومة البلشفية في موسكو أن تفرض هيمنتها على تركستان، وكانت من المناطق التي لم يتم لهم الهيمنة عليها في الوقت الذي وصل فيه ليف وأبوه إلى ميناء كيزيل - سو، في صيف عام ١٩١٨.[١]

في مدخل ما كانت يوماً الامبراطورية الصحراوية الكبرى لتيمور لنك، والتي قيل في وقت ما أن مآذن مساجدها قد بنيت من أكوام الجماجم البشرية، كانت كيزيل - سو تعرف بـ«مدينة الماء الأحمر» على اسم النهر الذي يحمل ذات الاسم ويجري بالقرب منها - وهو نهر مياهه بالغة الاتساخ حتى قيل إن راكبي الجمال فقط هم من يستحمون به. والمدينة محاطة بصخور نارية صلدة حرقتها الشمس من

= والطموح الروسي من جانب آخر، لذلك كانت الاستراتيجية تلعب دورا هاما في ذلك الصراع.

(١) أصبح اسم كيزيل - سو حاليا تركمانباشي، بعد الحقبة السوفياتية واستقلال تركمانستان.

جوانبها الثلاثة، بدت المدينة كحصن من حصون القرون الوسطى في عين ليف، كانت شوارعها عارية وقاحلة بلا ظل حتى أنها تحرق أقدام كل من يسير حافيا. وكتب صحافي أميركي مر ذات يوم عام ١٩١٨ بالمدينة قائلا إن كيزيل - سو «تتميز بأنها أسوأ حفرة يمكن لامرئ أن يحتجز بها على وجه الأرض».

كان أول مسؤولين يلتقي بهم ليف وأبوه أبراهام لا يتصفون بأي ود، لم يروا في الفارين من باكو ما يستدعي أي اهتمام بهم. ففي صخب وضجيج الثورة، كانت المدينة وما حولها من صحاري قد أعلنت أنها أصبحت «جمهورية الماء الأحمر الاشتراكية»؛ على الرغم من أنها لم تكن مرتبطة بالبلاشفة، كما كان الازدراء لسلطة السوفيات واضحا وجليا في نظام الدولة المعلنة في كيزيل - سو، وبدا أن كل فرد في المدينة قد نصب نفسه وزيرا أو مسؤولا عن أي شيء. ولكن حين استفسر أبراهام عن ممتلكاته، تغيرت فجأة المعاملة التي يتلقيانها من مسؤولي المدينة. تبين أن مدير ممتلكات أبراهام له منصب آخر ثانوي يماثل منصب وزير خارجية «جمهورية الماء الأحمر الاشتراكية»، وبالتالي لم يكن من الشخصيات النكرة ولا المهمشة في الدوائر السياسية المحلية. وسرعان ما رتبت لجنة المواطنين في كيزيل - سو استقبالا حافلا يليق بالأبطال لليف وأبيه. وفي كتابه «الدم والنفط» رسم ليف مشهدا طريفا لـ«لفيف» الشخصيات العامة التي أحاطت بموكبهم وصحبتهم في أرجاء المدينة. قاد الموكب وزير الخارجية - على الرغم من أنه حين احتضن ليف في ود شديد، شعر ليف بألم حاد في ذراعه، وحين تطلع إلى موضع الألم، أيقن أن بقة فراش قد لدغته وجاءته من كمّ تلك الشخصية العظيمة التي تحتضنه.

كان المسكن الذي قدمه لهم الوزير، وهو من أفضل ممتلكاتهم

يمثل المشكلة ذاتها. ويتذكر ليف: «لم أقدر على اعتياد الحياة في مكان مليء ببق الفراش والنساء غير النظيفات». لم يبد أن «الشرق» الخرافي جذابا أبدا في شكله الفج المباشر الموجود في وسط آسيا، وتوسل إلى أبيه ليجد لهم مكانا آخر للإقامة. وعلى ذلك انتقل نوسيمباوم إلى المكان الوحيد الذي يحتوي على دورة مياه أوربية ومستوى من النظافة غير مؤذ لأناس متحضرين قادمين من الجانب الغربي لبحر قزوين: وكان ذلك المكان الجديد قاعة العرض الوحيدة للسينما في كيزيل - سو.

بتذكر تلك التجربة بعد ذلك بزمان، تذكر ليف، كيف كان ينام على طاولة بيليارد، أو تحت بطن حمار كاراباخي، أو على سنام جمل، أو في كنيس يهودي، غير أن الإقامة في قاعة عرض الأفلام في كيزيل - سو كانت أجملها وأفضل مسكن حصل عليه في تلك الفترة يمكن له أن يتذكره. ربما «كانت قاعة عرض الأفلام تلك هي القاعة الوحيدة الموجودة في المنطقة من بحر قزوين حتى قبر تيمور لنك»، لم تكن تلك الدار تعرض كثيرا من الأفلام على أي حال وقامت الحكومة المحلية بإيقاف عرض الأفلام على أي حال على شرف الضيوف الأجانب. وأدى ذلك إلى حدوث مشكلة لأن «الناس طالبوا بأن تعمل القاعة وتعاود عرض الأفلام». لذلك طالبت الحكومة المحلية بأن «تقوم تلك الوسيلة من الترفيه بعرض الأفلام من حين لآخر» على ضوء ظروف الاضطرابات السائدة في ذلك الوقت، ويتذكر ليف: «وانحنينا خضوعا لإرادة الجماهير».

كان إيقاع الحياة في السينما رتيبا، بالرغم من الأفلام التي كانت تعرض من حين لآخر. كان سكان المدينة يقضون أوقاتهم في اللهو بعقد جولات من مصارعة التيوس، حيث يدفعون الذكور السمينة من

الجديان للمناطحة للتسلية وإزجاء الوقت والمضاربة على الفائز ويتحلق حولها المتراهنون بقفطاناتهم الطويلة الملونة وعمائمهم البيض. لم تكن تلك الحيوانات التي تتسم بالجبن تقدم عروض مناطحة مثيرة كتلك التي تقدمها مصارعة الثيران أو مصارعة الديوك وكانت تدفع دفعا لمناطحة بعضها، بمناخيس حامية وقضبان حديدية مسننة لإثارتها حتى تهاجم بعضها بعضا، ولكنها سرعان ما كانت تتراجع وتتقهقر، ورؤوسها دامية، وتحاول الفرار من «حلبة المناطحة والنزال والشرف» داخل حلقة المتجمعين. وبشكل ما، كان يعلن فوز أحدهما ويزين عنقه بعقود من الزهور.

قضى ليف أغلب وقته في الدردشة مع الأوربي الوحيد بالمدينة، وكان رجلا ألمانيا مسنًا يدعى البارون فون أوستن - زاكن، وكان قد قضى الثلاثين عاما السابقة من بعد اعتزاله بصحبة زوجه الألمانية في كيزيل - سو. ولما لم يكن يختلط بأناس «ملونين» من أي جنس، وهو ما كان ينطبق على كل السكان المحليين، كان من النادر أن يغادر مسكنه. كان يسعد بالتحدث إلى الهارب الصغير من باكو. وبالفعل، يقر ليف أن تلك المحادثات كانت من أبكر مناقشاته حول ألمانيا. كان من النادر أن يتحدثا عن الموقف الراهن في تركستان، ولا عن منطقة روسيا الإسلامية بأجمعها؛ كان البارون يحب الحديث فقط عن بلده الأم، على الرغم من أنه مثل كل وطني ألماني متعصب، لم يكن قد ولد على أرض ألمانيا.

كوّن ليف أيضا علاقات مع بعض المعارف من خلال أبيه، فكان على معرفة برئيس شرطة كيزيل - سو، وهو جورجي يدعى البرنس آلانيا، الذي كان قد تحول في قمة سقوط النظام القيصري إلى الانضمام إلى الأقلية الاشتراكية الراديكالية، وتحالف مع القوى

المهيمنة على جمهورية المياه الحمراء. وعرف البرنس ليف بكل مشاكل إنفاذ القانون في المنطقة. كان الموقف الاقتصادي في كيزيل - سو ترديا - فقد كانت الأموال الورقية التي تقوم عليها التجارة المحلية مطبوعة من جانب واحد فقط، لتوفير أحبار الطباعة (ويتذكر ليف كتابات الناس لعبارات ساخرة على الوجه الخالي من الأوراق النقدية التي كانت بلا قيمة لمجرد إزجاء أوقات الفراغ). ، وكانت الحكومة المحلية منشغلة على الدوام بالتعامل مع المشاكل الناجمة عن تزييف تلك النقود. وكانت العملة النقدية الورقية الجيدة التي تأتي من بلاد فارس تسبب إزعاجا لوزير المالية المحلي. وتعامل مع تلك المشكلة بإصدار قرار يلخص الحالة السيئة التي كان عليها كل شيء: فقد أصدر أمرا لمواطنيه بغمر الأوراق النقدية في الماء، فإن ذابت الألوان وتلون الماء تعد أوراقا سليمة، وأن لم تذب الألوان ولم يتغير لون الماء، تعد زائفة.

أثناء إقامتهما هناك، راحت عزلة كيزيل - سو تزداد يوما بعد آخر وتنقطع عن العالم، حيث أصبحت أذربيجان تحت سيطرة البلاشفة، توقفت حركة الملاحة كليا من الميناء. وكان لدى أبراهام بعض الاهتمام بمحاجر الرخام في كيزيل - سو إلى جوار ممتلكاته المؤجرة هناك، غير أنه لم تكن هناك أي تجارة فعلية في تلك الظروف، فقد كانت كل الموانئ الروسية وميناء باكو مغلقة. كانت المراكب التركمانية الصغيرة تبحر إلى فارس، وكانت الحكومة المحلية تعتاش إلى حد كبير على الضرائب التي تحصلها من القبائل الرحل التي تعتاش على تبادل فراء الحيوانات التي تصطادها بالسلع الفارسية والذخيرة والأسلحة والخبز. أما مدن الداخل فقد كانت خاضعة إما لحكومات مكونة من عشائر معادية أو مدن تحت سيطرة البلاشفة.

تناقلت المقاهي والبازارات أخبار وقوع حرب عظمى بعيدة عنهم. سمع ليف عن أسلحة جديدة مدهشة، مثل مدفع عملاق صنعه الألمان للأتراك، قيل عنه إن بقدرته إطلاق قذيفة من اسطنبول يمكن لها أن تصل حتى باكو. وفي الحقيقة لم يكن هناك مثل ذلك المدفع، غير أن خيالات المنشوريين تلك لم تكن أكثر غرابة من الواقع الذي يحيط بهم. ومن صيفين سبقا، كان لدى القيصر أكبر جيش في العالم، أما الآن، فقد قتل القيصر على أيدي رعيته، وتفسخ كل ذلك الجيش الروسي الهائل وذهب أدراج الرياح.

سمع ليف أن الحكومة السوفياتية الجديدة تبذل أقصى جهودها لاستمالة الاتراك واسترضائهم، وأنها وعدتهم بأن تقوم روسيا السوفياتية بتعميم تحريم الكحوليات طبقا للتشريع الإسلامي وتبيح اقتناء الحريم. في تلك الأيام القاسية من عام ١٩١٨، كان حدوث أي شيء يبدو ممكنا. كان هناك نوع من التضارب والتشوش داخل الحزب البلشفي حول اختيار الموقف الملائم تجاه الشعوب التي كانت خاضعة للحكم القيصري خارج روسيا. هل تصبح روسيا السوفياتية قرينا وتجسيدا جديدا للامبراطورية الروسية؟ أم هل عليها طبقا لمبادئها التي تعلنها أن تعادي التوجهات الإمبريالية بجميع أشكالها وأن تطلق حرية الشعوب التي كانت تحت هيمنة القيصر على درب الاشتراكية الخاص بكل منها؟ ورأى ستالين أنه لا حاجة بهم لتحرير الشعوب التابعة. ولم يوافقه لينين على ذلك - من الجانب النظري. غير أن لينين رأى أن الشعوب المسلمة يمكنها أن تستقل فقط إذا تمكنت من تطوير طبقة بروليتاريا صناعية، وحيث إن مناطق من الأراضي الوعرة مثل تركستان قليلة السكان وأن سكانها إما عشائر قبلية من صيادي الجبال أو مزارعين بدائيين، فقد كان من الصعب

وضع المسلمين على القائمة البلشفية للشعوب التي ستوهب الاستقلال إلا بعد قرن آخر على الأقل.

إلى جوار ذلك، عمل البلاشفة بمبدأ أن الاتفاقيات ليست إلا قصاصات ورق، وحيث تبين لهم أنهم قد انتصروا على أحزاب أكثر شعبية منهم أثناء الثورة، فإن ذلك أثبت أن القتل يجبُّ كل ما عداه من وعود واتفاقيات. ولكن بقدر ما كان للقدر كلمته، أصبحت مدينة كيزيل - سو شهيرة بالعنف المتعمد والمقصود ضد البلاشفة، ليس من قبلهم- وسوف يحقق ليف ذاته بعض الشهرة حين كتب عن ذلك في كتابه «الدم والنفط». كان ذلك حين كتب عن مقتل مفوض السوفيات في باكو ابن السادسة والعشرين من عمره، الذي ترأس أول سوفيات في باكو وكان مسؤولا عن القمع الوحشي الذي حدا بأبراهام وليف للفرار من باكو - حتى حدث تغير في المصائر والحظوظ دفع بالمفوض إلى مسار الفرار ذاته الذي سلكه أبراهام وليف من قبله.

كانت مجموعة من الفارين تضم روساً، وأرمينيين، وجورجيين ومسلماً أذربيجانياً، كان المفوضون أعضاء في مجموعة الأتباع الموالين بإخلاص لستالين الذين بثوا الرعب والإرهاب في منطقة القوقاز في الفترة من ١٩١٧ - ١٩١٨؛ كان اثنان منهما على أقل تقدير صديقين شخصيين للينين. ولكن حين وقعت باكو تحت حصار القوات الألمانية والتركية المشتركة ومعها القوات الوطنية الأذربيجانية، قرروا كما صاغها ليف: «أن يحافظوا على أنفسهم لصالح البروليتاريا العالمية». وفروا مسرعين من العاصمة الأذربيجانية. واتبع المفوضون الفارون ذات المسار الذي اتخذه ليف وأبوه عند فرارهما من باكو قبل أسابيع قليلة سابقة، عدا أنهم ركبوا مركبا أكبر كثيرا - ركبوا حاملة نفط - ليهربوا من باكو (لم يكن

باستطاعتهم أن يتخذوا مسارا آخر غير البحر، فقد كانت القوى الوطنية الأذربيجانية تحاصر باكو حصارا محكما من جميع أنحاء اليابسة).
وبمجرد أن أصبحوا بمأمن في البحر ود المفوضون أن يتجهوا شمال بحر قزوين حيث يلتقي مصب نهر الفولغا ببحر قزوين، وهي منطقة خاضعة للسوفيات الروسي، غير أن طاقم الناقلة رفض الابحار باتجاه روسيا، خوفا من الفوضى الأمنية التي جلبتها الثورة. ولم يعد أمامهم إلا اختيار الاتجاه الجنوبي صوب بلاد فارس، التي كان يحتلها البريطانيون، ولم يكن الاختيار الأمثل لهم، أو التوجه إلى تركستان وميناء كيزيل - سو. وكتب ليف: «استعان المفوضون الفارون بكل الدياليكتيك الماركسي لإقناع بحارة الناقلة أن يتجهوا على الأقل الأقل لكيزيل - سو بدلا من بلاد فارس التي توجد بها قوات بريطانية ما داموا يرفضون رفضا قاطعا الاتجاه لميناء روسي».

قال ليف إنه كان واقفاً مع البرنس آلانيا على الساحل حين وصلت حاملة النفط البخارية إلى الميناء. كان مشهدا عجيبا ونادرا في تلك الأيام أن ترى سفينة بحرية بتلك الضخامة. ولأول وهلة افترض الجميع أن على متنها منفيين. ولكن بمجرد أن نزل ركابها المتخفُّون على هيئة بحارة مصابين بجروح من قتالهم ضد البلاشفة، استدار البرنس إلى ليف سعيدا بقدرته على كشف هوية الهاربين بابتسامة متكلفة على وجهه قائلا:

«أتدري من كان على متن تلك الباخرة؟ الحكومة الشيوعية لأذربيجان».

وبناء على أوامر من آلانيا، بدلت الشرطة على الفور ضماداتهم بأغلال حديدية. (وتحكي قصص أخرى قصة مغايرة في بعض جوانبها، فقد قيل إن الضابط الذي اعتقلهم كان ضابطا قوزاقيا لا

أميرا جورجيا تحول إلى الثورية الاشتراكية الراديكالية). قال ليف إنه تبع الأسرى حتى السجن الصغير المؤقت الذي أقيم خلف المحكمة - فقد كان السجن المستديم مكتظا بالمساجين - وعلى الرغم من أنه لم يسمح له بدخول السجن في أعقابهم، كان بإمكانه أن يسمع من حيث يقف بالخارج أصوات ضرب المعتقلين بأعقاب البنادق والصراخ والصياح المصاحب لذلك عندما بدأ استجواب المعتقلين. وقيل له لاحقا إن الحكومة المحلية قررت ترحيل المفوضين السوفيات إلى داخل البلاد، حيث يمكن تسليمهم إلى الإنجليز أو الروس البيض، ما يتاح منهما قبل الآخر. كل التقارير الأخرى كانت تشير إلى أن المفوضين قد حبسوا في زنازين ضيقة في ظروف بالغة القسوة لعدة أيام، حتى تلقى فصيل الحكومة الاشتراكية الراديكالية في كيزيل - سو رسالة من فصيل حكومي اشتراكي راديكالي آخر بمدينة أخرى أعلى منه في تراتب السلطة تعليمات عن كيفية التعامل مع المعتقلين البلاشفة المهمين.

ادعى ليف أنه شهد ترحيل المعتقلين ليلا من محبسهم وبمعاصمهم الأغلال الحديدية وهم محاطون بالحراس. وكتب: «كان أغلبهم شاحبي الوجوه ولكن تبدو عليهم رباطة الجأش والهدوء، لقد حكموا باكو وقتا كافيا سمح لهم أن يدركوا مغزى نقل معتقلين بليل خاصة في المشرق. واحد منهم فقط - وكان من أقاربي - لم يود الذهاب معهم؛ وكان على الشرطة أن يجروه من ياقته كما يجرُّ القصاب ذبيحته قبل نحرها. كان يتوقف بعد كل خطوات ثلاث متمتما في صوت أحادي رتيب النغمة وبشرود: لن أذهب... لن أذهب... لن أذهب. ما زالت كلماته الخافتة ترن في أذني حتى الآن، ذلك الصوت المعذب، الذي لم يعد صوتا بشريا، كان أشبه على وجه

التقريب بصوت حيواني»، ولم يكتشف ليف ما حدث إلا بعد فترة: كان على المعتقلين الستة والعشرين أن يحفروا قبورهم بأنفسهم في الرمال حيث أطلقت عليهم النار واحدا بعد آخر وألقيت جثثهم في قبورهم التي حفروها[1]. في تلك الليلة راح يتجول بالشوارع غير قادر على العودة لمقر إقامتهم بدار عرض الأفلام. والتقى برئيس الشرطة في الصباح التالي، غير أن البرنس لم يخبره شيئا عن عمليات الإعدام الليلية؛ راح يحكي له عن عشيقته في بلاد فارس وكيف كان يأمل في جلبها إلى تركستان قريبا ليتزوجها.

سجل ليف ما شاهده بنفسه في «الدم والنفط» وهو في الثالثة والعشرين من عمره، متذكرا الأحداث التي شهدها حين كان في الثانية عشرة من عمره، لذلك نجد أن هناك أسبابا مقبولة لتشاؤمه من تفاصيل ما حدث. فما الذي يمكن لامرئ أن يفعله على سبيل المثال حيال ملاحظة ارتجالية من أن أحد أهم شهداء البلاشفة الشهيرين كان من أقارب ليف؟ يشك المرء في أخذ ذلك الأمر على محمل الجد، ورغم ذلك، بالأخذ في الاعتبار نشاط أمه السياسي، كان يمكن لذلك الرجل أن يكون فردا من العائلة، وبكل تأكيد صديقا للعائلة. ومن الملاحظ، أن مشهد المعتقلين وهم ينقلون من السجن يظهر مرة تلو أخرى في كتابات ليف المختلفة، وظهر مجددا في دفاتره التي كتبها على فراش موته في أيامه الأخيرة، حيث يتذكر «توسلات» الرجل الذي كان يقاد لإعدامه.

واعتبر السوفيات الموظفين الستة والعشرين الذين أعدموا في كيزيل - سو من الشهداء، وأثار ما كتبه ليف الجدل حين نشره في

(١) ذكرت بعض التقارير أن المفوضين قد طعنوا حتى الموت بالحراب. ولا يوجد أي جدال حول حقيقة أنهم قتلوا بدم بارد.

«الدم والنفط» (ربما كان ما كتبه ليف أول شيء يضعه موضع اهتمام تروتسكي، الذي استحوذ عليه ملاحقة قتلة المفوضين وكتب كتابا في ذلك). أما النسخة السوفياتية الرسمية عن تلك الأحداث فقد ألقت بأغلبية اللوم على عميل سري انجليزي يدعى ريجنالد تيج-جونز، ذلك على الرغم من أن الوثائق تظهر أنه كان في منطقة تبعد على ما يزيد عن مائتي ميل عن كيزيل - سو في تلك الليلة التي قتلوا فيها. ووضعت الشبكة السوفياتية العالمية أمرا باغتيال تيج- جونز، وقضى الرجل الانجليزي باقي عمره منتحلا اسما آخر وهو رونالد سنكلير. وحين مات فقط في عام ١٩٨٨، كشفت صحيفة «التايم» اللندنية عن شخصيته الحقيقية ونشرت قصة تخفيه الذي دام سبعين عاما بسبب اتهام السوفيات له بقتل مفوضيها.

نوقشت الحقائق التي نشرها ليف كما شهدها من كل الأحزاب عدا تلك التي تورطت مباشرة بقتل المفوضين، أما بالنسبة للبرنس، والبحارة، وكل من تورط فعلا في قتل المفوضين فقد تم تعقبهم وقتلهم في الأعوام الأولى من الثورة التي اتسمت بانتشار الفوضى، أو، مثلما في حالة تيج - جونز، اختفى تماما عن المشهد العام. أما يوميات العميل البريطاني التي نشرت بعد وفاته في عام ١٩٩١، فقد كانت داعمة لأغلب ما سجله ليف - على الرغم من أن تيج - جونز يلقي باللوم كله على لجنة الثوار الاشتراكيين خصوم السوفيات، الذين ذكر بوضوح أنهم كانوا يتلقون مساندة ودعما لوجستيا من الجيش البريطاني في ذلك الوقت. تلك المساندة البريطانية لأعدائهم اليساريين أثارت غيظ وضيق البلاشفة، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت بتروتسكي للتركيز على تيج - جونز بصفته الرجل الذي أصدر أمر إعدام الستة وعشرين مفوضا. ومن جانبه، يتذكر تيج -

جونز، في مذكراته التي احتفظ بها سرا لسبعين عاما حقيقة راسخة بأنه أبلغ من وسيطه الاشتراكي بعد بضعة أيام من وصول المفوضين إلى كيزيل - سو على متن ناقلة النفط: «أن أغلب المعتقلين قد قتلوا فعلا رميا بالرصاص».

يبدو أن ليف وأباه قد واصلا ارتحالهما في شهر أكتوبر بعيدا عن البلاشفة وعن الاشتراكيين الراديكاليين الآخرين، باتجاه الشرق نحو الصحراء. كانا متوجهين صوب بقايا قلعة الشرق الحصينة: مدينة بخارى، حيث كان أميرها ما زال يهيمن على شؤونها. كان واحدا من آخر ما تبقوا من النظم القديمة ببعض السلطات المستقلة المتبقية، وكان يمكن الاعتماد عليه في الترحيب بهم وقبولهم. كان يمكن لليف وأبيه أن يرحلا بالقطار، ولكن مع اشتعال ثورة، أصبحت القطارات من وسائل الترحال الخطرة. كان عمال السكك الحديدية من أوائل من انضموا للبلاشفة - مع قوات المدافع الرشاشة الآلية - وكان ما يسمى حرس السكك الحديدية أكثر شراسة من أي شرطة سرية في أي مكان آخر. ويصف كثير مما كتب في تلك الفترة بيروقراطية السكك الحديدية ذاتها بألاستبداد الميكانيكي الهائل الذي أصبح يتحكم فجأة فيما أصبح أثمن سلعة: وهي الانتقال والحركة. في عام ١٩١٨ في الإمبراطورية الروسية، كانت القدرة على الفرار، ومن ثم البحث عن العمل والطعام نادر وصعب المنال. ثم كانت هناك مشكلة الوقود. كان نقص النفط بسبب الدمار الذي وقع في منشآت باكو النفطية يعني العودة لتشغيل محركات القطارات بحرق الأخشاب. غير أن نقص الأخشاب في المناطق الصحراوية أدي إلى اللجوء لحرق مواد أخرى، وفي الوقت الذي كان فيه ليف وأبوه في تركستان، كان البديل الأفضل

المتاح هو حرق الأسماك المجففة المملحة. أصبحت الأسماك المجففة وقودا جيدا للقطارات، وتمت مصادرة كميات هائلة من الأسماك المجففة لتموين القطارات بها من السواحل. بل إن بعض المحليين ادعوا أنهم رأوا أسماكا مشوية تتطاير أحيانا من مداخن القاطرات، ويركض وراءها الجوعى لالتقاطها لسد جوعهم.

وتجنب أبراهام نوسيمباوم الاحتكاك بشرطة السكك الحديدية، لذلك لجأ إلى وسيلة تحقق له ذلك فارتحل يصحبه ابنه مع قافلة من الجمال. ويتذكر ليف ذلك مسجلا: «القبائل البدائية في الصحراء، والعواصف الرملية، والدوار المصاحب لامتطاء سنام الجمال، والعطش الشديد، كانت أرحم رغم قسوتها من ركوب القطارات». كانت جماعة مسلحة مستأجرة من البدو تلتف بهم إلى مسالك بعيدة عن نقاط التفتيش المنتشرة في المسافة بين كيزيل - سو وبخارى، لذلك انطلقا عبر صحراء تركستان. وقطعا أغلب المسافة على ظهور الجمال وأحيانا على ظهور الحمير، متجنبين اختراق المدن الصغيرة كلما تيسر لهما ذلك، فقد كانت تلك المدن تحت هيمنة البلاشفة. وفي البرية، كانت سمعة أبيه تساعدهم في بعض الأحيان؛ وفي أوقات أخرى، كان الكرم المتأصل في بدو الصحراء تجاه الأجانب والأغراب يتكفل بالباقي.

ارتحلا ملتحقين بقافلة من خمسين جملا مع مجموعة من العائلات الروسية التي علق ليف عليها بازدراء قائلا: «حتى ذلك الوقت وباستثناء مشاهد الصحراء الامبراطورية، لم نكن قد شاهدنا شيئا بعد من المشرق»، ورغم ذلك نما لديه احترام عميق، لقائد القافلة الذي يطلق عليه الـ«شالوادار»، وسوف يطمأن ليف بعد ذلك قراءه من الأوربيين بأن الشلوادار كان يشعر بالأمان في بالصحراء أكثر مما يشعر

به الأوروبي وهو بين جدران بيته الأربعة. «أن تتوه في الصحراء، أن تفقد الطريق والاتجاه الصحيح بمجرد ولوجها، فإن ذلك يعد من المستحيلات... ففي المساحات والمسافات اللانهائية يشعر بتواصل خفي بينه وبين كل الواحات وكل العشائر الصحراوية»، لاحظ ليف كيف أن الشالوادار يستشف الحوادث والأحداث المستجدة وموضع القافلة في الصحراء من لون الرمال، وكيف يستطيع أن يشم رائحة المياه في الصحراء من مسافات شاسعة، تماما كما تفعل حيوانات الصحراء. كان قائد القافلة يتجنب أيضا ولوج وديان الرمال العملاقة المرعبة، حيث تكون حبات الرمال في غاية النعومة والدقة بحيث لا تحتمل ثقل خطو الجمال عليها فتغوص فيها كل القافلة وتغرق في لجتها إلى أعماق الرمال. لم ينس ليف مشهد كلب يغرق في حفرة رمال ناعمة. راح يراقب الشلوادار وهو يلف بضعة أرغفة من الخبز الطازج في خرق بالية ويدفنها عميقا في الرمال؛ وعلم الموضع بعصا خشبية، كان يتركها لقافلة ما قد تمر بالمنطقة وليس لديها طعام. مرت قافلة ليف بكثير من تلك المواضع التي علمتها قوافل سابقة بعصي خشبية لإرشاد غيرها لمواطن الطعام المدفون فلا تهلك جوعا، كان الشلوادار يعيد حفر بعض تلك المواضع ويستخرج ما بها من مؤن وخبز ويضع بدلا منها أغذية وخبزا أكثر طزاجة. وقام بوضع علامات إرشادية جديدة على أرغفة الخبز، رأى ليف فيها نوعا من الشفرات السرية التي لا يدرك معناها إلا سالكي الصحراء، رأى في تلك العلامات التي تحفر على سطح أرغفة الخبز أنها وسيلة عبقرية لنقل وتمرير المعلومات في الصحراء، وسجل ملاحظته تلك لاحقا: «ليس هناك أي شك أن تلك أغرب صحيفة غير ورقية عرفها البشر»، وراحت خواطره تحدثه عن «كل أنواع المسائل الفلسفية، والعقائد الدينية،

والحروب، والفتيات الفاتنات، بل وحتى الأدب والفكر» يتمنى لو وجد وسيلة مماثلة لوسيلة الشالوادار في القيادة والإرشاد، غير أن كل محاولاته انتهت بالهزيمة، «لم أر في حياتي مثل ذلك التحفظ والصمت»، «بدا وكأن بداخله صفات إنسانية عديدة، كأن لديه معارف غير محدودة، كل تركيزه وانتباهه يتمحور ويتركز على الصحراء».

في بداية الرحلة كاد ليف يصاب بالإغماء حين وجد أحلامه العربية تتحقق. غير أنه لم يمض وقت طويل حتى طغى على تلك الفرحة الغامرة رتابة مشاهد الصحراء، وغالبا ما كان يتوق إلى انتهاء تلك الرتابة وأن تحدث مغامرات جديدة تنحي رتابة وملل الصحراء المتلازمين من التكرار. وعلى الرغم من أن رحلة عبوره لتركستان سوف تبدو له لاحقا في غاية الرومانسية وهو في شقة سكنية في برلين، أو فيينا أو نيويورك، كان أغلب الوقت الذي قضاه ليف مرتحلا مع القافلة نوعا من العذاب والمشقة. وباستثناء خشونة تعامل الشلوادار، كان الصبي الصغير سليل مدينة باكو دائم الإحساس بالصدمة من خشونة حياة الصحراء، وطريقة البدو في الحياة مع شح الماء، ينظفون أنفسهم بفرك الرمال الناعمة عل سواعدهم ووجوهم. كيف أصبح المجهد يتعامل مع «ملل وضجر الصحراء والكآبة المصاحبة، والمعاناة الناجمة عن الجوع، والمشقة، والمرض». كان مسحورا رغم ذلك بقدرات حكيم القافلة، فقد كانت براعته وملكاته تدهشه، تكاد تقرب من قدرات ما وراء الطبيعة. كان الحكيم يعد طبيبا بمفاهيم العصور الوسطى؛ فبدلا من تعلمه للعلوم الطبية التقليدية، يدرس اللاهوت وعلوم التوحيد، وتاريخ الأدب، والمنطق، وعلوم النحو والصرف، قال عنه: «هم عادة أعضاء في جماعات دينية من الدراويش، وفي مرحلة من حياته يدرس القرآن والشعر». شهد

ليف كيف يشفي الحكيم مختلف الأمراض المحلية - فعلى سبيل المثال، هناك مرض يطلق عليه المحليون اسم باندينكا، وهو طفح جلدي فظيع يبدأ بظهور بقعة جلدية حمراء ثم ينتشر بعد ذلك ليغطي الوجه بكثير من البثور الملتهبة الحمراء فتبدو كقناع دامي. لو عالج الحكيم البقعة الأولى بدعكها بتركيبات دهنية محلية الصنع، يمكن السيطرة على المرض والشفاء منه، فتبقى البقعة الأولى ولكنها تتوقف عن النمو، وتختفي تدريجيا مع الوقت مخلفة ندبة جلدية ظاهرة، ولو تركت دون علاج، يمكن للمرض أن ينتشر ويمتد ويصيب ملتحمة العين ومن الممكن أن يفقد المصاب البصر. وكتب ليف برعب و: «أصابني خوف جنوني من البندينكا، ولحسن حظي لم أصب به» وكأنه كان نذيرا لمرضه الشخصي، والذي كان مازال ينتظره بعد أعوام، ذلك الذي سيبدأ ببقعة سوداء على قدمه.

كانت حركة القافلة محفوفة بالمخاطر، كان معدل حركة القافلة يتناسب طرديا مع احتمالات قوة العصابات وقطاع الطرق المنتشرة بالمناطق المختلفة، وكان منافسو قطاع الطرق من فصائل البلاشفة. وسوف تنقسم تركستان في نهاية المطاف، بجزء أكبر من البلاد أعلن استقلاله بحكومة اسلامية، بينما انضم ما تبقى للبلاشفة. وفي نهاية المطاف فاز البلاشفة، ولكن بدو الصحراء المتمركزون على سفوح التلال والجبال ظلوا عصيين على التطويع على مدى سنين طويلة.

ومن قصره في بخارى، وهي مدينة قديمة مليئة بالقباب والمآذن وأمير يحكمها بقسوة، ذكرت بعض التقارير أنه استعاد مؤخرا بعض ممارسات القرون الوسطى من توقيع العقاب باصطحاب المعتقلين والسجناء إلى قمة مأذنة قاليان، برج الموت سيئ السمعة و يلقي بهم من على قمة المئذنة. وبصفته سليل حكام التتار الذين حكموا روسيا

من قبل لقرون، كان الأمير أميل للإيمان بأنه هو العاهل الشرعي لكل الروسيين لا القيصر. غير أنه رغم ذلك كان يرتدي على الدوام بزة جنرال روسي في الجيش الإمبراطوري كما لم يحل دون هجرة الروس إلى منطقته ولم يعارض سيادة الثقافة الإمبراطورية في بخارى، ولم يكن بإمكانه معارضة أي من تلك الظواهر فقد كان غارقا حتى أذنيه في الديون للإمبراطورية الروسية.

كانت بخارى تعتمد كليا على بيترسبورغ في الاقتصاد والدعم العسكري بذات الطريقة التي تعتمد فيها دول العالم الثالث في عصرنا الحالي على واشنطن.

وتغير كل ذلك مع اشتعال لهيب الثورة واحتدامها، وكتب ليف: «حين أطاحت الثورة بالقيصر من على عرشه، راح الأمير يفكر في مصير مملكته، فخلع بزة الجنرال الروسية ودعا لاجتماع للمجلس الملكي الاستشاري. وحين اجتمع وجوه وأعيان وأشراف المدينة، حياهم الأمير ثم أمرهم بقتل كل الروس الموجودين في بلده خلال أربع وعشرين ساعة. ولتحبيذ فكرته، شرح وجهة نظره قائلا إن روسيا أصبحت ضعيفة وأن من النادر أن تتكرر هذه الفرصة المواتية مرة أخرى».

كان الاقتراح المرعب بـ«قتل كل أولئك الأجانب الذين يتحدثون ويصلون بطريقة مختلفة عن حديثنا وصلاتنا» في قلب ومحور الرواية الصغيرة والفريدة «علي ونينو». وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت ليف كارها للثورة كمبدأ: فقد كانت ذريعة وحجة للقيام بأعمال القتل الجماعي. وحوصر الروس الموجودين في العاصمة بخارى في الحي الذي يقيمون به وأحيط بحراس مدججين بالسلاح. وظلوا محاصرين على مدى ثلاثة أيام بينما سعى بعض العقلاء في البلاط الملكي

لإنقاذهم. وطبقة لنسخة من الروايات عما حدث في تلك الواقعة، فإن وزير المالية سجد أمام عرش الملك وقرر ألا ينهض من مكانه إلا بعد إصدار الأمير قرارا بالعفو عن الروس بالمدينة. وسوف يستمع ليف بعد ذلك للوزير وهو يحكي بفخر القصة كاملة بعد ذلك بأعوام، حين كان كلاهما منفيا في برلين. ولن يظهر البلاشفة أي التزام بقيود أو كوابح، فـ«بمعاونة بضع مئات من الجنود السوفيات، تم تحرير بخارى، وإعلانها جمهورية مستقلة ذات سيادة»، وسوف يعلق ليف على ذلك بسخرية باردة: «فر الأمير إلى أفغانستان: فر الأمراء الجدد والقدماء منهم، والوزراء... وكل رجال البلاط، فر كل الحكام إلى حيثما اتفق لكل منهم».

وسوف يلتقي ليف ببعض أولئك الأمراء والوزراء في عشرينيات القرن في برلين، حيث التأم شمل ما تبقى من رجال بلاط بخارى وصفوة مجتمعها بالآلاف من الأرستقراطيين الروس البيض الذين جعلوا من المدينة الألمانية عاصمتهم الجديدة وملاذهم ومستقرهم الجديد. في ذلك الوقت كان ليف ينتحل شخصية إسلامية مثل منفيي بخارى ويحمل اسما مستعارا هو «أسعد بيك» وسوف يصبح المؤرخ الشهير لكل عظمتهم وأبهتهم، وفسادهم، وسقوطهم المدوي. حتى خروجهم المخزي من على مسرح التاريخ والاستياء والامتعاض المعتاد في مجتمعات المهجرين، وليس من المدهش أن كل أولئك المنفيين لم يثقوا بذلك الشاب الصغير، الذي التقوه أول مرة كلاجئ يهودي مرتحل ضمن قافلة من الجمال.

بفرار أمير بخارى إلى أفغانستان، تبعثرت في الصحاري المحيطة ببخارى مجموعات متباينة من المسلمين الوطنيين وقوات من الروس

البيض، يقاتلون البلاشفة أحيانا ويقتتلون فيما بينهم في أحيان أخرى. الجانب الوحيد الذي احتوى الصراع هو وجود الجيش البريطاني الهندي القريب، والذي كان يهم بالرحيل عن المنطقة. كان الصوت المدوي باستمرار في تلك الصحراء هو صوت ونستون تشرشل الذي طالب ببقاء انجلترا للدفاع عن الممالك والإمارات الإسلامية القديمة في وسط آسيا، بغض النظر إن بدا ذلك بمقابل أو بدا غامضا. غير أن الآلة الحربية البريطانية لم يكن بقدرتها التحول السريع من محاربة القيصر لمحاربة البلاشفة بين عشية وضحاها، وبدت مهمة التحول سريعة جدا بحيث لا يمكن المخاطرة بالقيام بها. وكتب مقدم في جيش بريطانيا الهندي كان قد عاد لتوه من تركستان عام ١٩٢٠ وصفا يدمي القلب بما كان يعنيه تخلي بريطانيا عن مسلمي آسيا. فحين كان المقدم ورجاله يعدون العدة للانسحاب، جاءه مفوض من بخارى يتوسل إليه أن يبقوا:

اتركوا ألف جندي، ألف جندي فقط، ويمكننا أن نوقف العدو»، قيل له إن جنودنا يحتاجون لراحة وترويح؛ فاستمر مناشدا «إذن اتركوا معنا ٥٠٠ جندي: بكل يقين بإمكان الامبراطورية البريطانية العظمى أن توفر لنا ٥٠٠ رجل لحمايتنا»، وقيل له: «من المستحيل ترك ٥٠٠ رجل». فقام المفوض ببذل محاولته الأخيرة والتي جاءت في شكل توسل يثير الشفقة: «اتركوا معنا على الأقل رجلا بريطانيا واحدا كرمز؛ وحينها يعرف شعبي أن بريطانيا العظمى لم تتخل عنه، وسوف نستمر نحن في التصدي للبلاشفة»، ولما قيل له إن حتى ذلك مستحيل أيضا، وأن الأوامر التي وصلته تقضي بانسحاب كل القوات البريطانية، صدرت حركة تشي باليأس من المفوض وقال: «في تلك الحالة لا يتبقى لنا أي أمل في تركستان. لن نقدر على الصمود بأنفسنا...»

والآن حيث إن روسيا التهبت في أتون نيران ولهيب الثورة، كانت بريطانيا العظمى في موضع يخول لها لا التأثير على كل أنحاء الدولة الفارسية فقط، بل أيضا على تركستان، ومن المحتمل أنه كان يمكنها ذلك دون استخدام جندي واحد إن كانت استمرت في دعم ومساندة التركمان أثناء تلك الأيام الحرجة. كان علينا أن نكسب صداقة مستديمة بـ ٢,٠٠٠,٠٠٠ من أتباع محمد الأقوياء (والذين لم نحاربهم أبدا، والذين لن نحتاج لمحاربتهم أبدا)... تلك الفرصة ضاعت منا للأبد.

ولمزيد من الفوضى، أطلق البلاشفة سراح أربعين ألف أسير من الجنود الألمان والنمساويين، كانت جيوش القيصر قد أسرتهم ونقلتهم إلى معسكرات احتجاز في بخارى لإبعادهم عن ساحات المعارك، أصبحوا الآن مطلقي السراح. وتقطعت السبل بسجناء الحرب في قلب منطقة آسيا الإسلامية وفقدوا الأمل في العودة إلى بلادهم، وأصبحوا قوة عشوائية مدمرة. تزوج بعضهم من نساء محليات واستقروا ومارسوا المهن التي كانوا يجيدونها قبل الحرب، في أعمال البناء وما شابهها، غير أن أغلبهم وجد من الأسهل له أن يمارس المهارات القتالية التي تعلمها أثناء الحرب، فأصبحوا مرتزقة وقتلة مأجورين. وأجزل لهم البلاشفة العطاء، على الرغم من أن كثير من وعود البلاشفة لهم لم تتحقق (وتم إعدام الجنود النمساويين الذين ساعدوا الحمر في الاستيلاء على بخارى إعداما جماعيا حين طالبوا البلاشفة بالأجر المتفق عليه).

ومرة أخرى أصبحت بخارى أيضا مكانا ملائما لإقامة أبراهام وليف. أصبحت أصوات طلقات الرشاشات الآلية تتردد في شوارع العاصمة بخارى. وسجل شهود عيان أنهم رأوا رجالا بقمصانٍ بيض

مصبوغة بدماء حمراء قانية، مثل أرواب القصابين، يتجولون في الشوارع لقتل من يصادفونه. وكأن العنف وحده لم يكن سيئا بما فيه الكفاية إلى أبعد مدى، فانتشر وباء الأنفلونزا الذي كان مميتا بسبب الفوضى المعيشية، وراح يحصد أرواح من نجوا من طلقات المدافع الرشاشة ومن لم تمزقهم الطعنات. كانت الفترة من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٠ أقرب كثيرا لأن تكون نهاية العالم كما لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل. أغلب الممالك والأمم المعروفة في أوروبا وآسيا، والتي كانت آمنة ومستقرة على مدى قرون، اختفت فجأة أو تمزقت أوصالها أو انهارت. كان الحكام من خانات آسيا الوسطى بعيدين في الخلف عن صدارة البلاد المتصارعة، غير أن ليف صدم بعمق من «تلك الممالك العتيدة العظيمة» التي راحت تنهار واحدة أثر أخرى، كما «سقطت صحراء وسط آسيا الإسلامية تحت سطوة النجمة السوفياتية الحمراء».

وراح أبراهام يفكر في خطوته التالية. كانت أفغانستان في اتجاه الشرق قلعة حصينة ضد البلاشفة، غير أنها كانت لها أيضا مخاطرها الخاصة على أولئك الذين ليس لهم نفوذ محلي. كانت أيضا بعيدة في أقصى الشرق لمواطنين من باكو التي كانت تعد «أقصى مدن شرق أوروبا»، أبعد مما يفكر به أهل باكو. كانت الصين والهند مستبعدتين حتى عن التفكير فيهما للأسباب ذاتها. غير أن البلاشفة كانوا قد أغلقوا الطرق إلى الغرب من كل اتجاه. كانت العصابات المهزومة المكونة من الفصيل القيصري الأبيض أصبحوا على أقل التقديرات على درجة من الخطورة، حيث إنهم مثلهم مثل الحمر، شاعت شائعات عنهم أنهم يهاجمون أي قافلة يصادفونها. لم يكن هناك طريق متاح للفرار عدا الجنوب، لذلك التحق أبراهام وابنه

ليف بقافلة من اللاجئين الروس والمسلمين متجهة لبلاد فارس[1].

في ذلك الوقت، كانت الصحراء الفاصلة بين بخارى وبلاد فارس ما تزال هادئة، وعبرت القافلة إلى مناطق النطاق السيادي القومي للشاه دون عائق. ومثل تركستان، كان شمال بلاد فارس أيضا غير مستقر إلى حد كبير، غير أن ثقافتها كانت أقدم وأكثر تحضرا. ارتحلت القافلة على مدى أيام عبر الصحراء، تمر أحيانا بواحات يانعة الخضرة وأحيانا بمدن وحصون قديمة بادت واندثرت، تكلل بقاياها الأتربة والوحدة في جوف الصحراء، كحبات عقد مترامي الأطراف حباته من مدن شبحية. أما المدن المأهولة فقد كانت محاطة بأسوار طينية يبلغ سمكها نحو ستة أقدام وتعلو إلى عشرين قدما، مصنوعة من طين مخفوق؛ وكما كان يحدث في القرون الوسطى، كانت بوابات المدينة تفتح في الصباح وتغلق مع حلول الليل. لم يكن لتلك الأسوار بالطبع أن تتصدى للمدفعية الحديثة ولكنها كانت مفيدة في الحماية من عصابات القبائل المغيرة وعصابات بدو الصحراء. كان الأكراد من المغيرين المعتادين في شمال بلاد فارس، ولكنهم كانوا هم والعرق الأذربيجاني، يكونون الجل الأكبر من الجيش الفارسي. لم يكن أهل فارس يحبون القتال، ففي ذلك المجتمع المتمسك بالطبقية، يؤمنون أنه من الوضاعة حمل السلاح. وسوف يبدع ليف مشهدا فكاهيا طريفا في رواية «علي ونينو» حيث يحكي علي

(١) سوف تتحول الأمة الفارسية إلى إيران من عام ١٩٣٥، تأثرا بالعرقية النازية. وحيث إن بعض الإيرانيين ما زالوا يعلنون بفخر أنهم أقرب بالدم إلى الألمان أكثر من قربهم من جيرانهم الساميين. وإيران تعني «بلاد العرق الآري»، وهو المفهوم الذي أبهج رضا شاه بهلوي ديكتاتور إيران في ذلك الوقت ومؤسس السلالة التي انتهت بالإطاحة بابنه على يد آية الله خميني في عام ١٩٧٨ .

لابن عمه الفارسي عن خططه للدفاع عن باكو ضد غزو البلاشفة للمدينة، فامتعض الفارسي في ضيق قائلا باشمئزاز إنهم لم يكونوا يعلمون أن هناك جنوداً ينتمون للعائلة:

> كنت قد نسيت [فكّر علي]، أنه في أعين نبلاء الفارس أن تكون جنديا يعني أن تكون منتميا لطبقة دنيا في التراتب الطبقي. . . . فقد كانت إيران تحت الحماية والرعاية الإلهية الخاصة، ولا حاجة بها لبريق سيف بعد ذلك. لقد برهنت على بطولتها وجسارتها في عصور خلت. . . وأميرها يفضل قصيدة شعر على مدفع سريع الطلقات، وربما كان ذلك لأنه يعرف عن القصائد أكثر مما يعرفه عن البنادق الآلية.

تلك البلاد التي كان الشعر والآداب يهمانها أكثر مما تهمها الأيديولوجيات السياسية والسلاح كانت بمثابة كشف وإلهام لليف. ومع انتقال وحركة القافلة، أحس بأنه قد نقل بالزمن إلى الخلف. وسجل ليف بإعجاب: «لا يوجد شيء حي في بلاد فارس، لا الكاجارات الخانات من الأمراء الحكام الفاسدين ولا الفلاحون السائرون خلف المحراث البدائي ويرددون بمقاطع شعرية لحافظ وسعدي ترجع لخمسمائة عام. هي البلد الفعلي لقدامى الشعراء والمفكرين، لا مبالية بثوبها الحالي الرث، وتدرس بفخار نظم شعر صانعي الخيمة الإلهية».

وبالطبع، كانت بلاد فارس تموج بالحياة - كانت غاباتها مليئة بالذئاب، والفهود، والثعالب، والخنازير البرية، بينما كانت الأسود تجوب صحاريها مع الخيول البرية الفارسية التي اشتهرت بجمالها الطبيعي حتى ولو لم تكن ذات حوافر مسطحة مثل الخيول العربية. اشتهرت بلاد فارس أيضا بثرواتها الزراعية - وبعض أجود أنواع

القمح العالمية، والقطن، وقصب السكر، والأعناب، والتبغ. حيثما توجه ليف كان يشم رائحة التبغ والحشيش مختلطة بروائح زهور «حب الشعر» الفارسي التي تزهر في أشكال كثيرة مختلفة في حدائقها وواحاتها. بدت مملكة الكاجار شاه مثل ملاذ آمن من التاريخ، حيث يعيش الناس في ظلال أشجار التين وبين البساتين، يقضون أوقاتهم في تقطير عطور الزهور وتحويلها إلى عطور غالية، وينسجون الأبسطة، ويقتنون النساء، ويقرضون الشعر. في هذه المقبرة الأدبية من صانعي الخيام على كل الأشكال، وجد ليف بلدا لم تشرع بعد في معرفة العالم الحديث المعاصر.

كانت رحلة القافلة في بلاد فارس ما بعد الحرب العالمية الأولى تبدو أحيانا كأرجوحة في حزام الإنجيل الأميركي. وكتب ليف: «في بلاد فارس لا يحيا إلا الدين»، ولكنه كان دين لكثير من الفروع الغريبة، والطوائف، والجماعات الدينية السرية. صادف الطائفة الإسماعيلية، وعبدة الشيطان، والبابيين، والبهائيين، وطائفة من المسلمين العالميين الذين يؤمنون بأن المسيح المسلم قد عاد للأرض في وقت ما في منتصف القرن التاسع عشر - حوالي نفس التوقيت الذي عثر فيه جوزيف سميث على أسفار المرمون - وأننا كنا نعيش في ألفية تتسع لكل الأديان أن تتعايش معا. كان تيار الإسلام الرئيس في فارس يزدري البهائيين ويرى أنهم مجدفين وكفار، وكانوا كثيرا ما يضطهدونهم[١].

---

(١) وفي الحقيقة، حتى ثمانينيات القرن العشرين لم تكن معاداة السامية منتشرة ولا شائعة، بينما كانت معاداة البهائية متفشية. ويرى فكر كثير من علماء الدين الحاليين، أن العقيدتين قد امتزجا واختلطا معا، حتى أن أتباع آية الله خميني أصبحوا يحذرون من مؤامرات الصهيونية - البهائية - الأمريكية.

كان انتصار الإسلام الأول في بلاد فارس في القرن السابع الميلادي مثل هزيمة ونفي للدين المحلي الفارسي، وهو الزرادشتية، التي سادت بثنائيتها العقائدية في بلاد فارس على مدى مئات السنين. غير أنه كان قد وفد مع الغزاة المسلمين طائفة أخرى من المؤمنين بالقرآن - المضطهدين، لا الغزاة الذين أسموا أنفسهم شيعة علي أو الشيعة فقط للتبسيط. علم الشيعة أهل فارس ألا يثقوا في الغزاة العرب، الذين ادعوا أنهم يتبعون النهج الذي أتى به النبي محمد.

ويؤمن الشيعة بأن الخلافة، أو الزعامة الدينية للإسلام بعد موت النبي محمد كانت من حق ابن عمه وزوج ابنته علي. وأختير علي كخليفة لفترة قصيرة، بالكاد أربعة أعوام، ولكنه قتل في نهاية تلك الأعوام بسيف مسموم. وبعد بضعة أعوام من اغتيال علي، حاول ولداه الحسن والحسين استعادة حقوقهما العائلية في الخلافة ولكنهما قتلا أيضا. قتل الحسن بالسم، وقتل الحسين في معركة بطولية يائسة في الصحراء، بالقرب من مدينة كربلاء في دولة العراق الحالية، حيث قتل مثلما قتل أبوه عليا، على يد مقاتلين سنة من معارضيه. كان استشهاد الحسين، حيث ضحى حفيد النبي بنفسه في سبيل الرسالة الإلهية الحقة يمثل لأتباعه ما يماثل صلب المسيح بالنسبة للمسيحيين (على الرغم من أن الحسين لم يكن رسولا إلهيا): في عيون الشيعة، يمثل مصرع الحسين مركزية المأساة الإسلامية. والعقيدة الشيعية مركبة ومعقدة، ومجموعة من الأحداث المأساوية، تختلف من مكان لآخر، غير أنها بكل أشكالها تتمحور حول إيمان واحد: وهو أن صاحب الحق الشرعي في خلافة النبي قد اغتيل، وأن الظلم قد حاق ببيت الإسلام، وأن العالم لن يستقيم حاله حتى يأتي المهدي، وهو ما يماثل المسيح الشيعي ليحقق المملكة الإلهية الحقة على الأرض.

تلال ومدن بلاد فارس مليئة بالأناشيد التي تحكي بالتفاصيل معاناة الحسين وتخاذل اتباعه عن نصرته في معركته الأخيرة البطولية اليائسة، والشكل الأكبر من المسرحيات في البلاد كان شكلا عاطفيا من المسرحيات التي تحيي ذكرى الاستشهاد. كان ليف يشهد ملامح ذلك التوهج والاتقاد حيثما حلت القافلة. غير أن كل المشاعر الدينية تكثفت في اليوم الذي توقفت فيه القافلة عن استكمال مسيرتها حيث كانت المدينة التي أصبحت القافلة على عتباتها تتفجر بالاحتفال بالذكرى السنوية في أول شهر محرم. سار كل الرجال في الشوارع حتى بدا وكأنه لا يوجد أي رجل من كل طبقات المجتمع لم يخرج إلى الشوارع ويشارك في فعاليات إحياء الذكرى. كانت الموسيقى تملأ الأجواء في كل مكان، وكأنها النسخة الشرق أوسطية من موسيقى الجاز الجنائزية في ولاية نيو أورليانز، كان الموسيقيون يعزفون ألحانا جنائزية على قرع الطبول، وأنين الناي والصنج، وفتية في مقتبل العمر لا يجاوزن عمر ليف يسيرون في جماعات عاريوا الصدور، يدقون ويضربون على صدورهم وينشدون: «الحسن، الحسين، الحسن، الحسين». وتبعهم جماعات تجلد نفسها بالسياط. وتوزع رجال الدين الشيعة في جميع أنحاء المدينة لتوجيه المسيرة الدينية وإلقاء الخطب والأحاديث الدينية على الحضور.

وفي بلاد تعد فيها معايشة تجربة الألم ومعاناة تجربة الشهيد الحسين من أعلى تجارب الإخلاص والتقوى، كانت أهم المشاهد التي لفتت انتباه ليف مشهد شخصيات غريبة المنظر بشعور طويلة ظن ليف للوهلة الأولى أنهم نساء. فوق منظرهم المترف، كان بعضهم يضع على رأسه قلنسوات برتقالية مدببة. كانوا جميعا حفاة الأقدام، وأثناء الطقوس الاحتفالية، كان كثير منهم يمسكون بسياط مصنوعة من

حلقات الحديد وصفائح حادة الحواف، ويجلدون ظهورهم وأكتافهم بتلك السياط المعدنية وهم ينشدون أناشيد رثائية ينعون بها الحسين. فيما حمل آخرون هراوات مبززة ذات مسامير ناتئة وشقف من النحاس. بعضهم كان يحمل في يده اليمنى ما بدا فؤس حرب كتب على أنصالها مقاطع رثاء شعرية. كانوا من الدراويش - معتنقي جوهر الدين الذين لا يطلبون جزاء ماديا ولذلك كانوا معصومين من الفساد والإفساد. كانت الطقوس الحركية المقدسة لأولئك الزهاد الراقصين قد انتشرت مع انتشار الحركات الصوفية في جميع أنحاء آسيا - وهو نوع من تقاليد الوجد المعرفي الباطني في الإسلام الذي غشى كل الفرق الدينية الفارسية. لاحظ ليف أن «كبار التجار، والمحاربين، والأمراء، بل وحتى الأجانب كانوا يقبلون على أولئك الدراويش. ولا يدهش أي امرئ أن يوجه له الحديث بالألمانية، أو الفرنسية، أو الإنجليزية من قبل زاهد رث الثياب طويل الشعر في الطريق. ففي الشرق لا يوجد ارتباط شرطي بين الثروة والتعليم، الثراء لا يرتبط بدرجة التعليم في المشرق. لابد للدرويش أن يكون زاهدا للجوانب الحياتية المادية حتى لو كان على درجة من الثراء تجعل منه المقرض الأكبر للدولة... وهم يطوفون ويرتحلون دون توقف من مدينة لأخرى، يعظون الناس في الأحياء التجارية عن نهاية العالم القريبة، ويؤكدون بافتخار أن أفضل الناس في البلاد موجودون بين صفوفهم».

وجد ليف أن مسلمي فارس من الشيعة، متكلفين ومغوين، كانوا يمثلون الإسلام في أشد أشكاله تعصبا - رقصات التضحية بالذات لسيئي الحظ والمتمردين على السنة. وعشق ليف كل مظاهر الحماس الديني الذي يراه من حوله، ذلك الحماس الحار الذي لم يشهد مثيلا له في باكو. كان تشجيع ومؤازرة التشيع للمظلوم يغذي معرفة ليف

للإسلام على أنه حصن ومعقل المقاومة البطولية في عالم تسوده القوة الغاشمة ويتفشى فيه الظلم.

حب التشيع يستحوذ على قلب بلاد فارس، غير أنها كانت ما تزال بلاد الحكام المستبدين. أثناء عبور مقاطعات مازاندران وجيلان، أوقفت القافلة من قبل فارس فارسي يرتدي زيا مبهرجا، قدم نفسه على أنه رسول من لدن جعفر خان حاكم المنطقة. كان الخان يبعث بتحياته كما أعلن رسوله، ويود أن يبلغ المرتحلين بالقافلة أنهم سيقتلون جميعا. وطلب منهم التفضل بانتظار وصول الخان الذي سيقوم بقتلهم بنفسه.

انقبض صدر ليف وطاف بذهنه أنه بعد أن نجا من الحرب الأهلية في أذربيجان وبخارى، وبالكاد شهد مراثي استشهاد الحسين الذي لقي حتفه في كربلاء، سيموت الآن على يد مدعٍ مختل خارج من دياجير روايات ألف ليلة وليلة. غير أن أبراهام نوسيمباوم كان يعرف أكثر. كان ليف يستمع لأغرب رسالة ودية وأكثرها إيلاما وراح يتابع الرسالة المبتذلة المازحة. كان الرسول مهذبا جدا وحريصا رغم أنه كان من المستحيل فهم أو ادراك ما يرمي إليه. غير أن أبراهام تابع الحديث، واتضح كل شيء حين اختتم الرسول حديثه قائلا: «ما قيمة أموالكم وأنتم موتى؟».

تنفس اللاجئون الصعداء فقد كان الرجل يسعى لانتزاع الهبات والرشى منهم للأمير، وهو جانب معروف لأي امرئ نما وترعرع في مناطق القوقاز. غير أن أسلوب الحصول على الرشوة في تلك الحالة كان مختلفا وفريدا في أسلوبه وبدا أنهم سيضحون بحياتهم دون أن يدركوا الثمن التافه الذي سيمكنهم من إنقاذ أرواحهم. قدم الرسول

لذلك بأنهم أهانوا الخان بمرورهم من إمارته دون أن يعرضوا أي ترضية له، وأنهم لا يجب أن يظنوا أن المسألة تتعلق بالمال، بل تتعلق «بما يمكن أن يشاع في الخارج حين يعرف الناس في خارج البلاد أن حتى كبار وعلية الأقوام المارين بالولاية لا يأبهون بالخان ولا يقدمون له الهدايا؟».

وأدرك ليف أنه: «لذاك السبب يود الخان أن يقتلهم»، وتبين له الجانب الفكاهي من تلك المأساة. لم يضحك أبراهام ولكنه قدم عرضا جديا نقله الرسول لبلاط الخان. وظل الرسول يروح ويغدو بين القافلة وبلاط الخان في مفاوضات دؤوبة. وأتت الإجابة أخيرا بأنه «بموجب توصيات من مستشار الخان المالي، وعلى ضوء أن الدماء قد سالت بما يكفي، قرر الخان أنه لو .... إلخ». أرسل ليف وأبراهام للخان رسالة متوَّجة بالزهور الملونة وبها «هبة» نقدية عن طريق الرسول الذي ظل ينتقل بحيوية ما بين القافلة والقصر مثل فرسان العصور الوسطى. وحين جاء في النوبة الأخيرة لموضع القافلة، كان يحمل دعوة لليف وأبراهام ليبقوا كضيوف على سمو الأمير جعفر خان.

أثناء وجود ليف ضمن القافلة عرف الكثير عن حياة بلاد فارس الدينية. أما الآن، في بلاط جعفر خان، فسوف يعرف الكثير عن حياة بلاد فارس السياسية. في العاشرة من صباح كل نهار، كان ليف يحضر اجتماع الخان بحكومة بلاطه، وكانت تلك الاجتماعات تنحصر كليا في أمور ما يقدم من الرعايا من الرشى للوالي. تراوحت الرشى بين ذهب وفضة إلى أكياس طحين. كان كل شيء وأي شيء مقبولا. في بعض الأحيان كان يقطع عمل الحكومة الجاد في قبول الرشى بعض الطيش الأميري: يطلق سراح سرب من الحمام في الفناء، ويشاهد

ليف الخان وهو يصيبها ويسقطها واحدة بعد أخرى ببندقيته. ولكن حتى خلال مثل تلك الأعمال الطائشة، كانت تتم عملية أخرى في منتهى الجد من جمع الرشى والضرائب غير المحددة: فبعد كل مرة يصيب فيها العاهل طيرا ويرديه صريعا، يتقدم أهل البلاط ليحيوا مهارته بقطع نقدية للصندوق الملكي.

اكتشف ليف أن أهل بلاد فارس يحبون الألقاب الرنانة المتفاخرة الواشية بالأبهة والتفخيم. وبدا أن تلك الألقاب لا نهاية لها ولا يمكن حصرها، وحيث كان كل لقب منها ينعم به الشاه شخصيا، فقد كانت دائمة التبدل والتغير. كان ليف يتفكه كثيرا على مدى سنوات طويله بعد ذلك بتسلية محدثيه من الغربيين بطرف من عادات ولياقة البلاط الأميري:

> على سبيل المثال، حين كان حامل لقب «عامود العدل» يموت، يرفع حامل لقب «سيف البلاد» إلى مرتبة «عامود العدل»؛ ويمكن لـ«لؤلؤة الحكمة» أن يرفع إلى مرتبة «سيف البلاد» وهكذا. وحتى دون موت أحدهم، غالبا ما يحدث إحلال في تلك المناصب، حتى أنه لا يمكن لأي منهم أن يدرك على وجه اليقين إن كان خطاب توصية يوجه إلى «درع الإيمان» من الممكن فعلا أن يصل إلى الشخص المقصود ولا يصل إلى «حامي الأسرار» السابق.

تساءل ليف عن الوقت الذي يمكن له فيه هو وأبوه أن يغادرا البلاط الأميري. لم يتمكنا فعلا من معرفة إن كانا بالفعل ضيوفا أم أسرى لدى الخان، وبدا من غير اللائق أن يسألا. وبالفعل، كان لدى ليف حرس شرف مكون من حارسين مدججين بالأسلحة ولكنهم حفاة الأقدام وكانا يتبعانه أينما يحل. كانا يحملانه أحيانا خاصة في الطرق الموحلة أو القذرة، كما كان يفعل خدمه السابقون في باكو.

بالنسبة لليف، كان المشرق القديم، خاصة بلاد فارس الشهوانية، التي كانت مستودعا للشهوات القديمة الغامضة إلى جانب غموض وإلغاز الإيمان الحقيقي. وهو يصف من الذاكرة كيف أنه ذات ليلة أرسل له الخان على غرفته التي كان يقيم بها مع أبيه غلاما، غلام متعة. وشرح ليف للخادم الذي جلب الغلام أنه لا يمكنهم قبول هذا التشريف، حيث إن اهتماماتهما تنحصر في جوانب أخرى غير الغلمان»، كانت لحظات تتسم بالخجل. وراح الخادم يعتذر بحرارة ويعيد الاعتذار وتقهقر وهو ما زال يكرر الاعتذار. وبالكاد بمجرد أن استلقيا على وسائد على الأرض وتمددا على الأبسطة ليناما حتى عاد الخادم. جلب معه هذه المرة فتاتين صغيرتين، راحتا تنظران بفضول للمرتحلين عبر خمارهما المثقب. وكما أبرز ليف تلك الحكاية في كتابه «الدم والنفط»، كان الرفض مستحيلا هذه المرة «من وجهة نظر اللياقة السلوكية»:

> غير أن الخان أحس بالضيق بتجاهلنا ورفضنا للتمتع بمحاسن غلامه. زارنا في الصباح التالي وأعرب عن عدم فهمه لسلوكيات البرابرة البدائيين الذين لا يقدرون مشاعره المتحضرة. حكى لي عددا لا نهائيا من الحكايات عن جمال الماضي الفارسي والذي كان يتوافق كليا مع ذوقه الرفيع، وتشكى من فساد الشباب المعاصر والذي لا يتحمس فقط إلا للمتع الوضيعة في الوجود، وأظهر قدرا كبيرا من المعرفة.
>
> وكما ذكرت، أظهرت تقديري لكل ما هو قديم وتقليدي عدا التمتع بلواط الغلمان، وسرعان ما أبدى تفهمه ورضاه، بل وزاد على ذلك مقترحا أن نتناول الغذاء معه ومع حريمه. وحرصت بشدة على ألا ألج جناح حريمه، فهناك، ومن شدة تمسكه بتقاليد الماضي، قد يعاملني كغلام أيضا في جناح حريمه. أما خارج

الحريم، حيث تحد تقاليد الضيافة من قدراته، أشعر بأمان أكبر. وحين غادرنا، وهبني مخطوطة لشعر حافظ، وتقمص ملامح الجد، وبأبيات من الشعر أعلن بشكل رسمي عن حبه لنا. ولكني على يقين أن حبه لم يكن ليظل أفلاطونيا وعذريا لو لم تكن قافلتنا محمية بفرسان مسلحين.

ما كتبه ليف عن اقتراحات الخان كان مماثلا للتبعات والتضمينات الغامضة للحكايات الغزيرة التي كان يرويها عن المشرق: وأنه هو شخصيا، ليف نوسيمباوم، لم يكن يوما في حياته ميالا لعشق الغلمان، ولا بأي لون من ألوان المثلية الجنسية؛ بل على العكس، في كل مكان ذهبوا إليه في تلك الرحلة، كان ليف يلحظ أنه موضع اشتهاء لكثير من رجال المشرق. لم يكن عناق جعفر خان الجنسي وحده ما تمكن بصعوبة من الإفلات منه. اكتشف ليف أن ذلك «التقليد الفارسي - الإغريقي» متعدد الميول الجنسية ما زال من الجوانب المفضلة جنسيا في المشرق العتيق والذي ما زالت بلاد فارس المتدهورة المنحطة المتفسخة تحافظ عليه من الزوال على يد الحضارة الحديثة. بدا ذلك الجانب وكأنه يحرك فيه دافعا أنثروبولوجيا قويا واتقادا في القريحة الشعرية، واعتبرها جانبا من الموروث السلفي أكثر منها مادية.

بعد أيام عديدة من الاستضافة الإجبارية الخانقة، حصل ليف وأبوه على إذن المغادرة. واتجهت القافلة إلى الشمال الشرقي، آملة في الوصول إلى ميناء «إنزلي» على ساحل بحر قزوين. ومن هناك يستقلان قاربا للعودة إلى أذربيجان، بعد أن احتلها الأتراك، فقد كان الأتراك بالكاد قد طردوا الإنجليز منها. كان الأتراك يعدُّون قوة الاحتلال النموذجية لأذربيجان بقدر ما يتعلق الأمر بنوسيمباوم - فقد

كان شعب أذربيجان ينتمي في نهاية المطاف لأصول تركية. كان إبراهام يتلهف على استعادة ممتلكاته، وتاقا كلاهما للعودة إلى موطنهما في باكو. لكنهما لم يكدا يقطعان بعضا من الطريق حتى واجهتهما مشاكل غير متوقعة.

عبر كل شمال بلاد فارس، كما حذرهم جعفر خان، كانت ثورة الجانجالي ملتهبة. كان الجانجالي، أو «إخوان الغابة» طائفة من متعصبي الشيعة قرروا الخروج عن عادات الكسل والتراخي المحلية وأن يحملوا السلاح ضد الأجانب المتواجدين على التراب الفارسي. غير أنه حتى مجرد العداوة التي تبدو من ظاهرها وكأنها دفينة ضد الغرب لم تكن إلا شرارة نيران أخرى متطايرة من انعكاسات الثورة الروسية. كان الجانجالي يعدون الأقوى في شمال بلاد فارس، بالقرب من الحدود الأذربيجانية، ولأسباب معقولة كانت الحدود وسيلة للدعاية الثورية.

واستلهاماً لنداء الثورة التي اجتاحت أراضي روسيا والقوقاز في عام ١٩٠٥، كوّن بعض الفرس حركة ثورية كانت في بدايتها معتدلة وليبرالية. وفي عام ١٩٠٦ منح الشاهُ الشعبَ دستورا يتيح حق التصويت، ويعتمد الملكية الدستورية، ويتضمن نظاما برلمانيا. ولكن بتدخّل من المخابرات المركزية الأمريكية في عقد الخمسينيات، عاون البريطانيون والروس شاه إيران على القيام بثورة مضادة، فأحرق البرلمان المشيد حديثا - وكان بداخله كثير من نواب الشعب المنتخبين. وبحلول عام ١٩١١ كانت الثورة الدستورية الليبرالية قد أُحبطت وأُخمدت.

أدى التدخل الأوروبي إلى تغير الهدف المحوري للثوار

الفارسيين من ديمقراطية دستورية إلى الجهاد ضد الغربيين. وفي عام ١٩١٢، في قمة الإجراءات المضادة للتحرر، قام درويش جوال بإنشاء ما أسماه «وحده الحزب الإسلامي»، والذي انحصر هدفه في طرد كل الأجانب من بلاد فارس. وبعد ذلك بستة أعوام، وباستلهام العنف البلشفي الثوري في روسيا، انتقل الدرويش بوحدة الحزب الإسلامي إلى الريف والأقاليم محولا الحركة إلى حركة طائفة الجانجالي. كان أتباع الحركة مريعي المنظر والهيئة، فقد أقسم أتباع الحركة على «إطلاق شعورهم وأظافرهم حتى يخرج آخر كافر من أرض إيران المقدسة». وانضم للجانجالي المتعصبون من كل الطوائف والتوجهات الذين لم يكن لهم هم إلا اغتنام فرص سانحة لقتل الكفار، أو قتل الوقت. راحت قافلة ليف وإبراهام تمر بقرى مهجورة؛ وكانوا أحيانا ما يجدون بها جثث موتى وأسلحة صدئة متناثرة من حول الجثث.

وحين أوقفت القافلة عصابة من حاملي السيوف قبيحي المنظر الذين عرَّفوا بأنفسهم على أنهم من الجانجالي، تولد لدى ليف أنطباع بأنهم لا يتجاوزون كونهم لصوصا عاديين أكثر من كونهم ثوارا من أي لون. تقدم قائد العصابة، وكان فارسيا شابا بعيون سُود ملتمعة قائلا: «يا كفار، تنحوا جانبا وسلموا كل ممتلكاتكم إلى المؤمنين». حاول قائد الجمل أن يتفاوض معهم ويعرض عليهم رشوة، ولكن اللصوص أسكتوه. تقدم رئيس اللصوص صوب الأجانب المتعلمين وسألهم عن رحلتهم ووجهتهم. ثم أعلن عن قبول كل من يريد منهم الانضمام للعصابة. وامتنع ليف وإبراهام عن الانضمام «بكل أدب وكياسة» فاستولوا على كل ممتلكاتهم. وقام اللصوص بتفتيش كل من كانوا بالقافلة.

وتذكر ليف بعد زمن: «حين جاء دوري، سألني رئيس العصابة إن كنت أود أن أكون معشوقه؛ وإن قبلت فإنه يعدني على وجه التخصيص بمستقبل مزهر». وبدون وعي من ليف بالعادات المحلية السائدة فيما يخص العلاقات المثلية، اختلق قصة مفادها أنه بالفعل معشوق إمام كبير في مدينة مشهد، وباسم الله لا يريد أن يخون ثقة الرجل الحكيم ولا أن يخسره. قال: «وأنقذتني سلطة خادم الله». وفي اللحظة الأخيرة، وحين كانت العصابة على وشك المغادرة مصطحبة كل الجمال والنوق أزواجا، انضم لهم قادة الجمال. بقي ليف وإبراهام في الصحراء بمفردهما، وحيدين، دون دليل ولا مرشد. انطلقا سائرين على الأقدام يبحثان عن منطقة مأهولة في الصحراء، وبالكاد عند انبلاج نور الصباح لمحا أول بيوت في تخوم مدينة صغيرة.

تجول الأب المجهد وابنه في المدينة. لم يكن بحوزتهما مال، ولا جمال، ولا رفاق طريق. قررا أن يتوجها لمسجد المدينة. وعلى عكس الكنائس والمعابد اليهودية الحالية، كان المسجد جزءاً من مجمع كلي جامع، بأفنية مكشوفة، وقاعات للقاءات جماعية، وأماكن للارتواء بالماء البارد. في المدن الإسلامية ربى اليهود بين ظهراني المسلمين وهم يدركون أن لهم ملاذاً ومأوى آمناً. وبالفعل، لم يجدا فقط المأوى بالجامع بل وما يكفيهما من مال ومن طعام ليكملا طريقهما إلى ميناء «إنزيلي» الذي كان على مسيرة يوم من تلك المدينة - ولكن حين كانا بسبيلهما للانطلاق إلى خارج المدينة (لم يذكر ليف إن كان ذلك على خيول أم جمال)، ظهر أمامهم فجأة رسول يمتطي جوادا معلنا لهما أنه من لجنة الحديد. وكانت لجنة الحديد لجنة موالية للنظم الفاشية يديرها رضا كولي - وهو من سيعرف بعد ذلك باسم الشاه رضا بهلوي. كانت اللجنة قد اشتهرت بأنها تستحوذ على

سلطة ونفوذ متزايد في إيران وكانت تعمل وكأنها نصبت من نفسها فارضة للسلام وحافظة له في بلاد فارس.

وأخرج الرسول حقيبة جلدية مغلفة. فتح الحقيبة، وراحت الرمال تنساب منها. سكب منها كل الرمال المحيطة وأخرج شيئا أشبه بالبطيخة المستديرة ملطخ ببقايا دماء متجلطة. وتبين أنه رأس آدمي.

قال الرسول: «هذي رأس الوغد الذي تسبب في إزعاجكما في الطريق». كان ذلك عربون ود واحترام كما قال الرسول القادم من لجنة الحديد، التي تمنت لهم رحلة ممتعة وآمنة.

ولقي ليف وإبراهام الأمرين في إقناع الرجل بأنهما لا يريدان أخذ الرأس البشرية، وأن مجرد مشاهدتها أرضاهما تماما، وأكدا للرسول أنهما لا يفكران أبدا في أخذها. وبالفعل تركا الرسول واقفا مكانه، وكان بلا شك حائرا في اتخاذ قرار أن يقوم بدفن الرأس في الرمال أو المغامرة بإعادة الهدية دون تسليمها.

أخيرا، وصل الأب والإبن إلى ميناء مدينة إنزلي. وهناك سمعا تأكيدات بأن الموقف السياسي والظروف المعيشية في باكو قد أصبحت ملائمة: فقد أصبح محام ذو شخصية مرموقة أحس ليف كما ذكر بعد ذلك أنه «واحد منا» على رأس السلطة في باكو في ذلك الوقت؛ وأدركا أن بإمكانهما العودة إلى باكو بكل بثقة وطمأنينة. كانت الثورة في باكو قد انتهت. وبدأت مرحلة جديدة من استعادة الأمور إلى ماكانت عليه.

وجدا لاجئين آخرين من القوقاز يتجمعون في الميناء فانضموا لمجموعة من أصحاب حقول النفط بصحبة عائلاتهم وحراسهم الشخصيين (يسمون الكوتشي). كانت تلك المجموعة تخطط للإبحار

إلى باكو عبر بحر قزوين. جمعوا الأموال واشتروا مركبا بادي القدم والرثاثة. كان المركب يتسع لخمسين فردا في أقصى تقدير، وركبه مائتا مسافر.

استأجر المسافرون طاقما بحريا مكونا من أربعة قباطنة، كان اثنان منهم قد عملا فيما سبق على ناقلات نفط أبراهام. وعمل معهم الحراس الشخصيون وبعض الرجال الأشداء كبحارة. كانت الرحلة العادية على متن مركب تستغرق من ميناء إنزلي حتى ميناء باكو حوالي إثنتي عشرة ساعة، غير أنهم قدروا ضعف ذلك الوقت للوصول. وفروا طعاما وماء يكفي ليومين على متن المركب. وقرروا أن يغادروا الميناء في عتمة ظلام الليل حتى لا يرصد الجنود البريطانيون خروج مركبهم من الميناء. كان أصعب جانب كما يتذكر ليف هو الصعود إلى متن المركب دون أن يلحظ أحد في الميناء. كان على الركاب أن يركبوا قوارب تجديف صغيرة ليصلوا إلى المركب ومن ثم ليصعدوا إلى متنها عن طريق سلالم من الحبال، واستغرق ذلك ساعات طويلة حتى التأم شمل الجميع على متن المركب، قال ليف: «وأخيرا نشر القباطنة الأربعة والبحارة المتطوعون الأشرعة، وبدأنا رحلة العودة للوطن. لا يمكن لأحد وهو يحكي القصة بعد ذلك أن يتذكر عدد زجاجات النبيذ التي احتساها العائدون إلى الوطن فرحا وابتهاجا ببدأ رحلة العودة إلى الديار».

وبعد تجنب أضواء الكشافات البريطانية التي تمسح الميناء والخروج بأمان من الميناء، احتفلوا احتفالا صاخبا، ونام بعدها أغلب الناس من فرط الإجهاد. نام ليف في مقصورة النساء واستمع لقسط كبير من أحاديثهم الانتقامية، وجد أن أحاديث النساء أكثر بشاعة من أي شيء يتناقش حوله الرجال. كانت النساء تتحدثن عن

أنواع العقاب الذي يعتقدن أن من الملائم إنزاله بتسعين بالمائة من سكان أذربيجان. ولما نام ليف، حلم هو أيضا بالمعاناة التي ستحل بالبلاشفة. سمعهم يئنون ألما أمام المنتقمين - غير أن الأنين لم يكن قاصرا على الحلم فقط. فقد استيقظ أخيرا ليجد مقصورتهم تغص بأناس خائفين ومرعوبين، فقد كانت العاصفة تهب في الخارج بكل عنف. كانت المركب المتهالكة قد وقعت في قبضة عاصفة عجيبة من تلك العواصف غير المتوقعة التي تجتاح بحر قزوين بلا مقدمات كل بضعة أشهر ولم يكن يتغلب عليها إلا البحارة الأشداء.

في الوقت الذي كانت تخف فيه حدة العاصفة، برزت من طيات الظلام سفينة غامضة - كانت سفينة حربية ومدافعه مشرعة على جانبيها. ومن الغريب، أنها كانت ما تزال ترفع العلم الإمبراطوري القديم لأسطول قيصر روسيا البحري.

لم يعرف بحارة السفينة بوجود أي ثورة. حتى على الرغم من أن القيصر كان قد أعدم بالرصاص من شهور سابقة، كان ضباط السفينة وبحارتها ما زالوا على يمين الولاء للقيصر. كان المتعصبون للنظام الملكي لا يعرفون ولا يتصورون وجود أي نظام آخر للحياة عدا النظام الملكي القيصري، كانوا يقودون سفينة حراسة حربية خاضعة للأسطول البحري الإمبراطوري الروسي ويجوبون بحر قزوين من عام ١٩١٧، ويبدو أنهم ظلوا أحياء بالإغارة على السفن مثل تلك التي استأجرها اللاجئون. واقتحم البحارة الملكيون مركب اللاجئين العاجزين وأعلنوا أنهم سيتوجهون لميناء باكو لقصف القوات المعادية للنظام الإمبراطوري الروسي الراسية في الميناء. وأوضح لهم المسافرون أن الألمان والأتراك في ذلك الوقت يهيمنون على باكو. ولم يعر البحارة الإمبراطوريين تلك المعلومة أدنى اهتمام، فقد كانوا لا يعترفون

باتفاقية السلام المعقودة بين روسيا وألمانيا وتركيا التي وقعها البلاشفة. وبقدر ما كانوا يعرفون، فإن شيئا لم يتغير إلا أنهم الآن في حالة حرب ضد عدد أكبر من الأعداء أكثر مما كان عليه في بداية الحرب العالمية الأولى، فقد أصبح أعداء القيصر: الألمان، والأتراك، والبلغار، والنمساويون. . . عدا أبناء وطنهم من البلاشفة.

اعتبر بحارة السفينة الروسية الحربية أن ليف وإبراهام، وكل الركاب الآخرين على متن المركب الذين يسعون للعودة إلى باكو من الخونة، وأعلنوا أن من صميم حقوقهم إغراق المركب بكل من عليه ولكنهم سيبقون عليهم حتى يقرروا ما سيفعلونه بهم. وفي ذات الوقت، وكأنما كان هناك ما يشبه الاحتفال بذكرى مولد دوق كبير أو ما يشابه ذلك، عاد البحارة إلى متن سفينتهم الحربية للاحتفال بتلك المناسبة. وراح قباطنة مركب المهاجرين يراقبون عبر النظارات المكبرة البحارة الروس وهم يحتفلون ويقصفون. ثم راح مركب اللاجئين يتسلل مبتعداً بهدوء.

وسرعان ما كان على المسافرين أن يجدوا حلا لمشكلة أخرى: تسرب كبير للماء في قاع المركب ولم تتوفر إلا مضخة يدوية بسيطة في كل المركب لسحب المياة. وفيما كان الرجال يواجهون ذلك التحدي الجديد، اكتشفوا أن بعض الأطفال الموجودين على المركب تظهر على جلودهم بقع سوداء غريبة. ومات طفل مصاب بتلك البقع. وأعلن القباطنة أن ذلك المرض يسمى الجدري الأسود، على الرغم من أن ليف رجح أن ذلك كان مرض الطاعون. ولم تعمل المضخة كما يجب. وكونوا سلسلة بشرية مراصة لنزح الماء المتسرب بالدلاء وإعادته إلى البحر. كان المركب يغرق ببطء. وانتشر الذعر والفوضى على متن المركب المظلمة والمضروبة بتسرب الماء. وبدأ الحراس

الكوتشي ينهبون الركاب ويعتدون بالضرب على الخادمات. وأوى ليف وابراهام إلى قاع قارب نجاة. وسمعا صوت إطلاق نار.

وكتب ليف في مذكراته: «أصبح المركب كمصحة مجانين، كنا نبحر جائعين، ومتجمدين من قسوة البرد، وشبه واعين فوق الأمواج». حاول أن يشتت وعيه بقراءة الكتاب الوحيد الذي بقي معهم: نسخة بالروسية من رواية «دون كيخوت». وفي مرحلة ما من ذلك الوقت العصيب كان الأب والإبن يناقشان بجدية موضوع الموت. لم يكن ميناء باكو في ذلك الوقت وفي غمرة الظلام يبعد كثيرا عن مكان المركب، ولكن ما بين كارثة غرق المركب الوشيكة وانتشار المرض المميت على متنها، بدا الأمل في النجاة في تلك الرحلة القصيرة ضئيلا، غاية في الضآلة.

وجاءتهم النجاة فجأة دون توقع، ومثلما يحدث في الروايات السطحية الرخيصة. فبعد ظهيرة اليوم الخامس لهم في البحر، لمح ركاب المركب سفينة بخارية قادمة من الأفق البعيد وترفع العلم الإمبراطوري الألماني.

كان سلوك البحارة الألمان يتسم بالاحترام كما لاحظ ليف. فقد دعوا كل اللاجئين إلى مغادرة مركبهم نصف الغارق والانتقال إلى السفينة الألمانية، بينما قام طاقم البحارة الألمان على الفور بإخلاء قمراتهم، حتى القبطان أخلى قمرته ليشغلها الأمراء، وكبار رجال النفط، والسياسيون الموجودون بين اللاجئين. وأعاد القبطان الألماني التأكيد على أن الأحوال في باكو مستقرة، وأن منصات النفط لم تتضرر، وأن الأعداء قد فروا من المدينة، سواء كانوا بلاشفة أو بريطانيين.

في اليوم التالي وصلت السفينة الألمانية إلى ميناء باكو. وتفقد

ليف ببصره الجزء القديم من المدينة، وبقايا قصورها التاريخية، وحصونها التي ترجع للقرون الوسطى، بدت جميعها على حالها كما عهدها. كانت باكو بالفعل كما يتخيلها مدينة ساحرة تبرز من القصص الخيالية، تمتلئ بالعجائب أكثر من كل المدن التي رأوها في ترحالهم. وصل رئيس الوزراء الجديد، المحام الموقر من باكو وسط حراسه وأمامه جندي يرفع علم أذربيجان المستقلة لاستقبال كبار رجال النفط العائدين. وحين كانوا ينزلون من القارب بعد كل تلك الشهور من المخاطر التي مروا بها، رأى ليف أول وحدة عسكرية ألمانية. وسمعهم وهم ينشدون وكان بإمكانه متابعة كلمات النشيد: «تغرد الطيور في الغابات ألحانا رائعة. وفي موطني، في مسقط رأسي، سنلتقي من جديد».

وجد ليف وأبوه جنديين تركيين يقفان على بوابة قصرهما لحمايته، وفي الداخل كان هناك ضابط ألماني وآخر تركي يسكنان به. وحين قدم إبراهام نفسه لهما بصفته مالك القصر، أكد لهما الضابط الألماني أنه سينتقل منه حالا ويخليه لهما. ترجى إبراهام الضابطين أن يظلا معهما حيث توجد كثير من الغرف الخالية، ولكن الضابط الألماني رفض بحسم.

كانت المناضد والطاولات مقلوبة. ولم يكن ليف يعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك؛ كل ما كان يعرفه أنه عاد أخيرا إلى بيته. أخيرا عاد آل نوسيمباوم إلى «وطنهما الأم ومسقط رأسيهما».

الفصل الرابع

الفرار

بدا أن رحلة فرار آل نوسيمباوم عبر تركستان وبلاد فارس استغرقت بضعة أشهر، غير أن باكو مرت في تلك الأشهر المعدودة بكثير من التغيرات والتحولات السياسية المتتالية، وحصارات متتابعة، وتحالفات متتالية شملت السوفيات، والبريطانيين، والقوزاق، والثوار الاشتراكيين، والألمان، و«جيش الإسلام»[(١)] التركي.

كان السكان الأرمن قد تعرضوا للإبادة في مذابح متتابعة. وفي الوقت الذي عاد فيه ليف، كانت باكو في تلك اللحظة تحت سيطرة عشرة آلاف جندي تركي ومئات الجنود البروسيين.

وعلى الرغم من أن أسوارها التي بنيت في العصور الوسطى قد تعرضت للقصف على الأقل من ثلاثة جيوش مختلفة، وجد ليف خليط المنشآت المدنية المنتمية للطرز الأوربية والآسيوية في باكو

---

(١) أزعج تحالف غريب بين البريطانيين والقوزاق والثوار الاشتراكيين لينين بشدة حتى أنه عقد اتفاقا سريا مع القوات القيصرية، عارضا عليهم ربطهم بالقوات البلشفية لاستعادة باكو. وأدى الصراع على باكو إلى تكون أغرب تحالفات التاريخ ضد بعضها: التحالف البلشفي - القيصري من جانب ضد المؤمنين بالقيصرية -والملكية - والثوار الاشتراكيين من جانب آخر.

سليمة إلى أبعد ما يمكن تصوره. كانت العربات الخشبية المليئة بجثث الموتى قد اختفت. وهبت رياح أكتوبر الباردة آتية من بحر قزوين وانسابت عبر ممرات قصر الخان القديم وجوامع القرون الوسطى القريبة منه، وانتثرت أوراق الأشجار الجافة في الشوارع التي تحفها قصور بارونات النفط بكل ما تحمله من جمال معماري وطرز فريدة وبيوت الفنون الرفيعة. توجت هامات بعض المباني القديمة فتحات المقذوفات النارية في مواضع مختلفة منها، أينما حل ليف كان يجد أثرا جديدا يرجع لأشهر «النشاط السياسي» المحموم الذي اجتاح المدينة مؤخرا: بقايا المشانق.

قال سكان المدينة إن المشانق قد نصبت على أيدي السلطة الألمانية والتركية لاستعادة النظام بعد الحصار. كانت جثث المشنوقين تبقى معلقة على أعواد المشانق وبجوارها لوحة إعلانية تعلن عن نوع الجريمة التي ارتكبها المشنوق: «شنق لسرقة رطل من الجوز». وكانت اللافتات فاعلة ومؤثرة. ويتذكر ليف: «قبل الغزو، كانت باكو تعج بالمجرمين من جميع الأصناف؛ وبعد خمسة أيام من سقوط المدينة، أصبحت مثالا للأمانة والشرف والأمان والنظام». وفي مدينة تستعيد عافيتها من شهور تحت الحصار، كان تخزين السلع ورفع أسعارها من أكبر الجرائم.

مرت أيام الاضطرابات. وبدأت حقول النفط في الضخ من جديد. ومن شرفة فندق متروبول التي تطل على بحر قزوين، كان كبار رجال النفط بملابس السهر يدخنون من جديد سيجارهم الفاخر ويحتسون الشامبانيا، وكانوا في ذلك الوقت يثرثرون مع ضباط بروسيين متغطرسين وضباط أتراك. وعلق ليف على ذلك المساء قائلا: «كان أول من ظهر منهم باشا تركي، غازي باكو، كان محاطا

بدائرة من الضباط الألمان الذين كانوا يحيون بعضهم بطريقة احتفالية وود ظاهر، وقمت بالترجمة بينهم وبين أبي». استمتع ليف بالترجمة للضباط الألمان وتركوا في نفسه انطباعا عظيما بإصرارهم على أداء كل عمل بإتقان بالغ ورفضهم قبول العطايا والهدايا والرشى من سكان المدينة. وكتب: «طبقا لوجهة نظر العامة فإنه لا يليق بالغازي أن يدفع مقابل شيء يمتلكه بقوة الغزو، ولكن الغازي لا يقتنع بذلك، ولم يشهد المشرق غزاة مثلهم من قبل طوال تاريخه».

وكان الأتراك أقل انحيازا لذلك المبدأ عن الألمان، ولكن الألمان والأتراك كانا بمثابة فترة راحة من زمن استيلاء البلاشفة على المدينة. هل كانت الثورة ببساطة بمثابة كابوس سيئ تجنبه هو وأبوه بالقيام بتلك الرحلة الصحراوية؟ هل سيعود من الآن إلى حياته السابقة وحراسه الشخصيين، وكتب مكتبته، وحفلات الأزياء، وجولاته الحالمة بين بقايا الحصون الترابية في البلدة القديمة؟

لم يستمر الاحتلال الألماني - التركي لباكو إلا لأسابيع. ففي أكتوبر من عام ١٩١٨، ومع انهيار الجبهة البلغارية، تاركة القوى المركزية عارية بشكل خطير، بدأت القيادة التركية والألمانية بالسعي من أجل تحقيق السلام. وفي بداية نوفمبر من عام ١٩١٨، أجبر الألمان على تسليم السلطة في باكو للبريطانيين، الذين أعادوا قواتهم لباكو من بلاد فارس. ولم تكن القوات البريطانية سعيدة بمهمتها الجديدة، خاصة أن الحكومة المحلية للمدينة النفطية كانت ذات الحكومة التي أعانت الأتراك والألمان على الإطاحة بالإنجليز من المدينة من أسابيع سابقة. فلو كان البريطانيون متغطرسين بشكل ما أثناء وجودهم السابق في باكو، فقد أصبحوا يزدرون الجميع هذه المرة.

ولكن على مدى بضعة أشهر، تمتع القوزاق بفترة من الراحة من الحرب والثورة. وبالفعل، أصبحت أذربيجان أول ديمقراطية فعلية في العالم الإسلامي، ولأول مرة في تاريخ المجتمعات الإسلامية يسمح للمرأة بالإدلاء بصوتها في الانتخابات. كان الخليط الفعال والفريد من تزاوج الشرق والغرب الذي ميز باكو في طفرتها النفطية قد بدأ يتفاعل مجددا. وعلى الرغم من أن الفساد واتفاقات الغرف الخلفية المغلقة كانا على الدوام من لزوميات الأعمال في المدينة، كذلك كان أيضا مقياسا للتعددية العملية التي سمحت بتلك الحيوية في المشهد السياسي. حتى القائد البريطاني المتشكك قد تم اكتسابه لصالح صفوف كبار رجال الدولة الأذربيجانيين، خاصة المتحدث الجديد باسم البرلمان، الأستاذ الجامعي ذا الشوارب الضخمة رسول زاد. وفي مؤتمر باريس للسلام الذي عقد عام ١٩١٩، لفت رسول زاد نظر الرئيس الأميركي ويلسون، وكتب عنه ويلسون: «رجل محترم ومبجل جدا من أذربيجان ويلفت الانتباه... والذي تحدث بنفس المفاهيم واللغة التي نتحدثها فيما يختص باحترام المبادئ والمثل العليا للغرب، وفهمه للحرية ومفاهيم الحق والعدل».

وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين الغزاة والأذريين، وجد ليف أن الإنجليز كلما كرهوا شيئا يطلبون الكف عن ممارسته بحجة أنه «يخرق مبادئ التحضر». كان التهديد الضمني: أن القوات البريطانية ستجمع أمتعتها وترجع لبلادها، وتترك الأذربيجانيين يواجهون مصيرهم. وبالفعل، غادروا في شهر أغسطس عام ١٩١٩. وأظهرت الحكومة المنتخبة ترحيبها بما يعنيه ذلك من استقلال البلاد، غير أن التساؤل الواضح كان يشغل كل بال: هل يمكن لأذربيجان الديمقراطية أن تدافع عن نفسها ضد غول البلاشفة الرابض في الشمال؟ ورغم

ذلك سادت مشاعر من الفرحة حين أخلى البريطانيون المدينة. أصبح بمقدور رجال الأعمال من أمثال أبراهام نوسيمباوم أن يعملوا من خلال عاصمة دولتهم المستقلة، لا من خلال تابعية للإمبراطورية الروسية أو محمية بريطانية. وتذكر ليف ذلك قائلا: «بالنسبة للوردات النفط الذين وصلوا إلى قمة السلطة، كان ذلك الوقت من أفضل أوقات حياتهم».

سوف ينظر ليف على الدوام إلى الماضي خاصة عام الجمهورية الأذربيجانية المستقلة بصفته عاما من التفاؤل الاستثنائي. ومن مقابلاتي لزليخة أسعد اللايف الشقيقة الصغرى لأسعد، رفيق ليف في الدراسة، وجدتها تؤكد على أن كثيرين في ذلك الوقت كانت لديهم نفس المشاعر، قالت لي: «كنا جميعا فرحين بالاستقلال، جمهورية إسلامية حديثة، كان لدينا حق المرأة في التصويت، وهو شيء لم يسمع بمثله في العالم الإسلامي... كانت لدينا حكومة غير فاسدة إلى حد كبير ورجال دولة متعلمون تعليما جيدا. بدا الأمر رائعا حتى أنه كان يصعب تصديق أنه حقيقي واقعي - ولكنه كان حقيقة. ولم يدرك قادتنا أننا كنا بلا قوة عسكرية للدفاع نهائيا».

تفاوض البرلمان الأذري في ذلك العام حول كثير من الاتفاقيات السياسية والاقتصادية مع الدول المجاورة لأذربيجان. ووقع البرلمان اتفاقا للبحث عن النفط مع شركة شل الهولندية (على الرغم أنه لم يكن في صالح البلاد نهائيا). كانت روسيا مشغولة بحربها الأهلية، بينما ساد الاستقرار في القوقاز. ولكنه كان هدوءاً قصير العمر.

في مناسبة تعدو كونها مجرد مصادفة بحتة في كتابه «الدم والنفط»، كتب ليف عن حفلة عشاء بسيطة أقامها والده ذات مساء لأعضاء الحكومة الأذربيجانية. وتطرق النقاش أثناء تدخين السيجار الفاخر إلى

ضرورة تكوين قوات دفاعية. وانصرف المدعوون واحدا بعد الآخر ولم يبق إلا وزير التجارة والحاكم العسكري لباكو، وكانوا يتحدثون عن مشكلة الاضطرابات الملتهبة على الحدود الأرمينية. وتقع حدود أرمينيا مع أذربيجان إلى الجنوب الغربي، ولحمايتها حماية فعالة، تمت إعادة نشر أغلب قوة جيش الجمهورية الوليدة المحدود بما فيها قوات حرس الحدود بعيدا عن الجبهة الشمالية. فهل كان من المعقول ترك جبهة بلا دفاع لحماية جبهة أخرى؟ تساءل أبراهام، خاصة إن كان العدو الأقوى يقع على تلك الجبهة غير المحمية؟

كان لدى الجمهورية كثير من الموارد كما قال الحاكم العسكري، وكان هناك أوليات تم تحديدها بعناية ودراسة. إلى جانب، كما ذكر الوزير الآخر، أن الجمهورية قد توصلت بالكاد إلى عقد اتفاقية مهمة جديدة مع روسيا السوفياتية. وبعد أن انتهى كبار رجال الدولة من تدخين سيجارهم، راح ليف يشاهد من شرفته الحاكم العسكري وهو يركب سيارته، ويتذكر: «كان ما زال بإمكاني أن أرى دورية الحراسة الليلية وهي تؤدي التحية العسكرية المعتادة للحاكم وتهتف بتمني «حياة مديدة» له».

وعند وصوله إلى بيته اقترب منه بضعة رجال مسلحين، قالوا له إنه رهن الاعتقال، فسألهم: «بسلطة من؟» فجاءه الرد: «بسلطة شيكا الجمهورية السوفياتية الشيوعية لأذربيجان».

أيقظ الخدم ليف وأباه من النوم بتلك الأخبار التي تتلخص في أن البلاشفة قد استولوا على المدينة. ويتذكر ليف: «من خلال النافذة رأيت دخول القوات الحمراء، رأيت الوجوه القاسية، والأشخاص رثي الثياب، وتجهم البلاشفة الكريه، والعيون الحقودة الحاسدة والمتعطشة والجائعة المتطلعة في نهم لثروات المدينة النفطية».

كانت القطارات المحملة بالجنود السوفيات قد عبرت الحدود الأذرية الروسية أثناء الليل، استقلوا القطارات حتى الساحل، وبهدوء حاصروا باكو وأحاطو بها. جلبوا معهم أفظع وأبشع سلاح يملكه البلاشفة: لجان مكافحة الثورة المضادة والتخريب، وكل أعضائها من الروس، أو ما يعرف اختصارا بالـ«شيكا». أولئك «الشيكا» بهيئتهم التي أصبحت علامة مسجلة بستراتهم الجلدية السوداء الشهيرة، ورشاشات الموزر الآلية مدلاة من خواصرهم، سوف يقتلون على مدى الأعوام الخمسة التالية أكثر مما قتلت الشرطة السرية القيصرية في القرن السابق بأجمعه. وبصفته واحداً من ألمع الكتاب الشيوعيين، كتب فلاديمير كورولينكو، الذي قضى بنفسه معظم حياته في المعتقلات القيصرية بسيبيريا: «تحت حكم النظام القيصري كان لمكاتب شرطة المحليات الحق لا في النفي إلى سيبيريا فقط بل في توقيع الإعدام الفوري أيضا، وهو مماثل لما نراه الآن». كان أعضاء الشيكا يفضلون الرشاشات الآلية قصيرة المقبض التي يستخدمونها في حصد أرواح كل من يحاول «الفرار».

قررت الحكومة الأذرية في الحال أن المقاومة ميؤس منها ولن تؤدي إلا إلى إعدام جماعي. وفي الوثيقة، ألزم الغزاة الشيوعيون أنفسهم «بعدم معاقبة أي وزير، ولا عضو برلمان ولا كبار رجال النفط بأية وسيلة كانت، ويضمنون لهم حرية الخروج من البلاد إن شاءوا». غير أنه على مدى أقل من شهر بعد الإطاحة بحكومة باكو، بدأت أعمال القتل. ومتبعة ذات النمط الذي كانت تطبقه في أماكن أخرى، راحت الشيكا تطبق مبدأ المصادرة بطريقة ممنهجة - هذا عدا اختلاق الأسباب للقتل، وكان الاحتياج للبقاء على قيد الحياة يحتاج إلى دليل وبرهان - وحفر أغلب الضحايا قبورهم بأنفسهم قبل إعدامهم. وسجن

معظم كبار رجال النفط (والأفضل حالا منهم كان أقاربهم يدفعون الرشى الكبيرة لاستثنائهم)، إلا من كان منهم ضروريا ولازما لاستمرار استخراج النفط وصناعتة وتصديره؛ ولكنهم ظلوا أيضا تحت حراسة مشددة.

في المرة الأولى التي يشهد فيها ليف العالم وهو ينهار، شعر بالخوف والاضطراب والتشوش يعصف به. وفي المرة الثانية، كانت مشاعره السائدة حالة من الضيق والقرف والغضب. كانت القوة المذهلة على التدمير للنظام الجديد قد أصبحت أسطورية من تاريخها السابق - فقد كانت تزدري وتحتقر كل ما كان موجودا قبلها. كان المغول كما عرف ليف، يقتلون بلا رحمة في كل غزواتهم لتلك المنطقة - وربما كان المغول وحدهم ممن ينتمون لما قبل القرن العشرين من يمكن مقارنتهم بالبلاشفة - غير أن المغول كانوا مثالا نموذجيا للمفاهيم القديمة للغزو، والتي ظلت سائدة على مدى عشرين قرنا على الأقل، حتى عام ١٩١٧: حتى حين كانوا يطلبون الخضوع الكلي والمطلق من الشعوب المهزومة، كانوا يمتصون عناصر من ثقافاتهم ويتأثرون بها. أما البلاشفة فلم يكونوا يؤمنون بالماضي ولا بالتاريخ، إلا كمرحلة صياغة وتكوين قد مرت وانتهت وأن عليهم التخلص منها وتنحيتها مثل نفايات السوائل القذرة في معمل تحليل.

كانت الشيكا الكيان المركزي في الحكومة الشيوعية الجديدة. كانوا يعتقلون كل من لا يتمكن من إثبات قناعته «الكاملة» أو ضرورته الحتمية لاستمرار صناعة النفط. شهد ليف ضحايا التطهير وهم يقتادون عبر الطرقات، وعرفه أحد الضباط، ولوح له بيده، ثم أشار إلى عنقه بحركة عرضية من أصبعه السبابة مذكرا ليف بمصيرهم المنتظر. وعرف ليف بعد ذلك أن أولئك الضحايا تمكنوا من إخفاء

قضبان معدنية في ملابسهم وهاجموا بها الجنود الذين كانوا يقتادونهم؛ وتحول إعدامهم الرسمي إلى معركة حيث تبادل المعتقلون والحراس الضرب والطعن حتى الموت.

من تلك البدايات المحدودة والمتواضعة في القتل، تصاعد إيقاع القتل. كل يوم، كان المئات يعتقلون - رجال بنوك، ونبلاء، ومعلمين، وطلاباً، وصحافيين، وحراس الكوتشي، يلقى بهم في المعتقلات والسجون. كان رئيس شيكا باكو بحاراً روسياً سابقاً «استغل كثيرا خبراته البحرية». كان المعتقلون من باكو ينقلون في قوارب إلى جزيرة «نارجن» الصغيرة القريبة من باكو حيث أقام ضباط الشيكا مركز قيادتهم الرسمي. وتوفيرا للوقت، كان ضباط الشيكا يقومون بكل بساطة بإطلاق النار على المعتقلين وهم ينقلونهم بالقوارب إلى الجزيرة ويلقون بجثثهم في الماء. في كل مكان، كان أناس يختفون دون أن يتركوا أثرا لتتبعه، حتى أقرب أقربائهم لم يكنوا ليجرؤون على السؤال عن مصير أقاربهم. ولو جرؤا على السؤال، فقد يوعدون بترتيب لقاء لهم في جزيرة نارجن. وعدا الاعتقال والقتل، احيا الشيكا روح الثورة في باكو بطرق مختلفة. أصبحت الساحة أمام بيت ليف مسرحا منتظما للإعلان العام عن العقوبات اليومية على نمط محاكم التفتيش. استعمل الشيكا تماثيل من الشمع على هيئة «مصاصي الدماء» الشهيرين: الرئيس الأميركي وودرو ويلسون، والرئيس الفرنسي جورج كليمنصو، ورئيس الوزراء البريطاني دافيد لويد جورج، بملابسهم الكاملة وعويناتهم الزجاجية و«يلقون عليهم أكواما من المواد القابلة للاشتعال ثم يحرقونهم بكل جدية وهم ينشدون نشيد العمال الأممي». كان ليف يشاهد ذلك ويشاهد البلاشفة وهم يصورون أفلاما لتلك المحاكمات الرمزية ليعرضوها في أنحاء البلاد.

وبعد ذلك بأعوام، سوف يشاهد أحد تلك الأفلام في أحد دور العرض في برلين. ويتذكر أن ذلك الفيلم لقي استحسانا من النقاد في الصحافة الألمانية على الإخراج.

حين نشرت وقائع الاضطهاد والتعذيب البلشفي التي جمعها ليف لأول مرة في نهاية عقد العشرينيات، ظن - هو وقراؤه من الألمان - أن تلك الممارسات البربرية لا يمكن أبدا أن تحدث في دولة أوربية حديثة مثل ألمانيا. غير أنه بعد ثلاثة أعوام فقط من نشر كتابه الذي ضمّ تلك الوقائع، «النفط والدم»، مارست الثورة النازية الاعتقال، والقتل، والمحاكمات، واتخذت من الساحات العامة مسارحا مكشوفة لإنزال العقوبات العلنية في برلين على نطاق أوسع كثيرا من محارق البلاشفة في باكو. كانت «شرطة النازي السياسية السرية الجديدة» التي عرفت باسم «الجستابو»، تتخذ من سياسات الشيكا السوفياتية مثلا أعلى وتدرس بحماس وشغف أساليبها ووسائلها في الإبادة والتعذيب.

لم يمض وقت طويل حتى ظهر الشيكا في بهو بيت نوسيمباوم. شرحا لابراهام نوسيمباوم أنه بصفته «رجل عصابات عريق، ومصاص دماء الطبقة العاملة ومجرم»، قد حكم عليه بالإعدام. ولكن تنفيذ العقوبة سيؤجل لأجل غير محدد لو وافق - تحت الملاحظة والمراقبة بالطبع - أن يتعاون معهم في مجال استخراج وصناعة النفط «حتى تتكون خبرات لدى من سيخلفونه من الطبقة العاملة». أما مفهوم العفو الكلي فهو غير وارد، مع اعتبار خاص لمعاونته لهم في قطاع النقل من الاقتصاد؛ كان البلاشفة يحتاجون بشدة لدفق النفط إلى روسيا في الشمال وعلى أسرع وجه. ورضي أبراهام بالعمل لصالح سوفيات باكو الجدد. وبعد استدعائه ومثوله أمام هيئة مديري صناعة النفط

وقبوله التعاون التام، لم يعد «مصّاصَ دماء» ولا «مجرماً»، وتلقى تخفيفا للحكم السابق ليصبح «مشكوكاً في ولائه ولكنه سوف يعتبر، مؤقتا، مجرما لا يوجد بديل لخبراته».

خلال تلك المرحلة، كما أخبر ليف بيما لاحقا، جاء ستالين للإقامة في باكو (بقى ستالين في باكو لفترة قصيرة عام ١٩٢٠؛ على الرغم من استحالة معرفة أين أقام تلك الفترة، فقد استولى البلاشفة على قصور باكو لكبار قادتهم). أخبر ليف صحافيا من صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون عام ١٩٣٤ أن ذلك حدث حين كان يجمع مادته الأولية لكتابة قصة «حياة ستالين»، حين وجد نفسه معه تحت سقف واحد. في وقت ما بدا المشهد وكأنه ملهاة سوداء، بوجود ستالين في بيتهم بصفته ضيفا مفروضا ومرفوضا: «كثيرا ما جلست أمامه. كان في العادة يقرأ كتابا غبيا عن الثورة العالمية التي أصبحت وشيكة». وفي مرة أخرى كما قال ليف، احتج ليف قائلا: «يا إلهي، ألم يقترفوا ما يكفي من القتل؟».... وأجاب [ستالين]: «ماذا تريد، لقد تركناك حيا». وكان ستالين، لو صحت تلك الروايات، يظل ساهرا لوقت متأخر من الليل يحدثه عن أمه.

قال ليف لبيما: «حين عاش معنا ذلك الغول، أخبرني بجوانب كثيرة عن أمي. كان في ذلك الوقت قد أصبح من الشخصيات المهمة في الثورة البلشفية - «أصبح فيلاً كبيراً» - وأخبرني كيف عاونته أمي مرارا فيما مضى... وتحدثنا على وجه التقريب على مدى ليلة بطولها... قال: «كانت إنسانة رائعة، قديسة كانت تختنق... ضحت بكل شيء ولم يكن خطأها أنها يئست من انتصار الثورة»». هل يمكن أن يكون ذلك ما عنته خالته صوفيا حين قالت له: «كانت على حق في ذلك الوقت... وأظهر الزمن أن ما حدث كان مجرد خطأ؟»، أي أن

أمه كانت قد وصلت لحالة من اليأس المطلق بالكاد حين كانت الحركة البلشفية على وشك تحقيق انتصارها؟

ولو كان ستالين هو «حاميهم» حقا في باكو، فقد فقد آل نوسيمباوم بالضرورة تلك الحماية بعد ذلك. وفي إجراء آخر سيقلده النازي بعد ذلك، قرر البلاشفة عمل «أسبوع للغنائم»، حيث يشجعون «صحوة البروليتاريا» على غزو قصور البرجوازيين ليستولوا منها على كل ما يروق لهم. أما السكان الذين لا ينتمون للطبقة العاملة فعليهم أن يكتفوا بالمشاهدة في صمت. أي معارضة لذلك القرار من جانب أصحاب القصور ستعد تمردا ضد الأمة، يعاقب صاحبه بالإعدام الفوري. وطاف «البروليتاريون» بأسمالهم في الطرقات يحملون قطع الأثاث الفريدة والبسط والزرابي النفيسة، والأطعمة النادرة والمشروبات الغالية، والملابس والمواقد، وطرف متنوعة أخذوها دون مقاومة من أصحابها. توقع أصحاب القصور أنهم سيتخلون عن كل شيء يرغب البروليتاريون في أخذه إلا ملابسهم التي تسترهم، ولكن بعضهم فقد حتى الملابس التي على بدنه. صدم ليف من تأثير حملة جمع الغنائم على الأغنياء، أو على طبقته الاجتماعية التي ينتمي إليها على أقل تقدير:

> بدا ذلك الأسبوع من سلب الغنائم لملاك حقول النفط وكأنه مسرحية هزلية. الناس الذين خسروا الملايين بعد استيلاء حكومة البلاشفة على صناعة النفط ومصادرة البنوك بما فيها من أموال، والذين كانوا يعيشون تحت خطر يومي بالقتل رميا بالرصاص، لم يكن لديهم أدنى اهتمام بأدوات الطهي والصحون الغالية. كانت الطبقة المتوسطة أسوأ حالا، فقد انتزعت منها كل ما تملكه في الحياة، ولم يكن ما يملكونه ماديا يزيد كثيرا عما يملكه عامل مجتهد. كثير من الرجال انتحروا لإحساسهم بالعار بعد اقتحام

جناح حريمهم. والحريم في بيوت الطبقة المتوسطة عبارة عن غرفة داخلية تعيش بها سيدة البيت، وهي في العادة سيدة واحدة فقط، تعيش في تلك الغرفة مع أطفالها.

يضم الحريم في العائلات الإسلامية التقليدية الممتلكات المنزلية القيمة: المفارش وأغطية الوسائد الحريرية حيث تنام العائلة. وهي رموز تدل على الخصوصية المنزلية وشرف الإناث، قد تكلف تلك المفارش الجل الأعظم من دخل العائلة. والآن يتم الاستيلاء عليها «من أجل الثورة العالمية للطبقة العاملة».

صادر الحزب المغير كل شيء في قصر نوسيمباوم، غير أن ليف ووالده لم يبديا أدنى اكتراث بسرقة قصرهم لأنه بدا أقل المخاطر التي يواجهونها. وسجل: «كنا ندرك أنه إما سيتم طرد البلاشفة وحينها يمكننا تعويض ما ضاع، أو نعدم بالرصاص. . . ربما أيضا نتمكن من الفرار. يمكننا أن نمضي بدون الأثاث في كل حالة من تلك الحالات».

وعاد أحد أفراد الشيكا للقصر بعد نهب محتوياته، يحمل ورقة تأمر عائلة نوسيمباوم أن تخلي القصر «خلال أربع وعشرين دقيقة» - وهو إنذار طرد بلشفي قياسي: فالمسؤل البلشفي قد قفز ببساطة على «الساعات» وأحل محلها «الدقائق». سمح لهم الشيكا بالانتقال للسكن في مكتب أبراهام، حيث شغلا إحدى الغرف. على وجه التقريب لم تتبق لهما أية ممتلكات ليملآ بها الغرفة.

وكتب ليف أنه في ذلك الوقت على وجه التقريب كان قد صدر بيان يعلن أن: «البروليتاريا لا تحتمل الحياة في القاذورات!». وعلى كل «أعداء الثورة الطبقيين» أن يكنسوا ويغسلوا شوارع باكو. كان مشهد الرجال المحترمين والسيدات الموقرات وهم راكعون جميعا عل

سواعدهم وركبهم من المشاهد التي انتقلت ببساطة من البلاشفة إلى النازيين. كانت القسوة والوحشية تتنامى على قياس غير مسبوق لا في عهود الاستبداد القيصري ولا في عهود السلاطين المغول فقط ولكنها كانت تتشكل وتتبلور أيضا في عقول وأذهان أولئك الذين أصبحوا الآن في السلطة.

كان ليف قد أصبح في ذلك الوقت في الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب، وكان أبوه قد وضع خطة للفرار. في هذه المرة سيتجهان غربا، ويفران برا إلى جورجيا التي كانت ما تزال مستقلة. وحيث إنهما كانا خاضعين لمراقبة دقيقة إذا كانا معا، وحيث إن الشيكا افترضوا أن الأب لن يفر أبدا دون ابنه، فسوف يفران منفصلين في ظروف رقابة أقل، سوف يذهب ليف بمفرده أولا. سوف يسافر إلى جانجا، المدينة القديمة في الداخل من أذربيجان، بالقرب من الحدود الجورجية، حيث يوجد للعائلة كثير من الأصدقاء وحيث تتركز المقاومة الوطنية. وبعد فرار الإبن ببضعة أشهر، سوف يقوم الأب بعمل جولة من التفتيش على حقول النفط خارج مدينة باكو، وأثناء الجولة، سوف يختفي هو الآخر ويتوجه إلى جانجا. وسوف يلتقي بابنه بالقرب من الحدود الأذربيجانية - الجورجية.

وفي أول فرصة سانحة، ركب ليف قطار نقل بضائع خرج من باكو عبر الصحراء المفتوحة الواسعة - ركب في عربة نقل أغنام مع بعض المزارعين - متجنبا ركوب قطارات الركاب الأكثر خطورة. جلس على أرض العربة مثل المشردين والمتسكعين الذين وصفهم الروائي شتاينبك، المرتحلين عبر البراري والصحاري والجبال، شعر ليف وكأنه في بيته. راح المزارعون «يلعنون الشيوعيين، حتى أنني شعرت كما لو كنت بين مجموعة من ملاك آبار النفط». كان القطار يتوقف

كثيرا ويصعد إلى متنه جنود يفتشون العربات بحثا عن «البيض»، «لاعنين أبناء البلد الأغبياء»، ويهددون الجميع بالشيكا، ولكن كان أغلبهم مثل محصلي القطار، فقد كانوا جميعا في حالة سكر شديد.

كان ليف يدرك أنه لو تمكن من الالتقاء بأبيه على الحدود الأذربيجانية - الجورجية، فسوف يتمكنون من إيجاد ناقلة بحرية تبحر بهم عبر البحر الأسود وينتقلون إلى أوروبا. وهناك في أوروبا سيصبحون آمنين. بعد عبور الصحراء، وصل القطار إلى قرى يانعة وحدائق مزهرة، بعيدا عن حقول النفط. في بعض الأحيان كان ليف يترجل من القطار عند توقفه؛ كان يلتقط ثمار الفاكهة ويشرك معه رفاقه الركاب، قال: «في تلك اللحظات بدت أرض زرادشت كما لو كانت على حالها دون أن تمس من الحمر؛ كان الوقت ربيعا».

حين وصل إلى جانجا العاصمة القديمة لأذربيجان، وجد ليف أن المدينة قد تم بلشفتها بالكامل على وجه التقريب، على الرغم من أنها كانت مركز المقاومة الوطنية كما كانوا يفترضون. رأى نفس اللافتات والتحذيرات العسكرية التي شهدها في باكو. ولكن كان هناك ما يحدث فيها مما يجعلها مختلفة عن باكو، خاصة في النصف الإسلامي من المدينة، حيث كان الناس في البازارات يلعنون علنا «محرريهم» الحمر. وأثار ذلك المناخ ليف، ومتحررا من تعليمات أبيه بالحيطة والحذر، تذوق لأول مرة ما سيصبح تجربة عمره في التخطيط والخداع. قدمه تاجر ودود إلى مجموعة من الثوار الذين رأوا أنهم بحاجة إلى عضو يعرف باكو جيدا والتي ستكون الهدف الرئيس للهجوم الوطني. في البداية أحس ليف بالرضا والأهمية لوجوده ضمن الدائرة المركزية للمقاومة الوطنية. وبمجرد أن أصبح داخل تلك

الدائرة، أدرك أن كل واحد على وجه التقريب من المقاومة كان في تلك الدائرة، وكان ذلك يعني بالضرورة «أننا كنا نتآمر بشكل علني». وذهل ليف من عدم كفاءة السلطة الشيوعية في جانجا التي لم تكتشف تلك الجماعة الخرقاء التي تعمل بشكل علني دون أن تكتشفها على الفور وتعتقلها.

من المدهش فعلا أن المتآمرين الوطنيين لم يعتقلوا، وفي اليوم المتفق عليه، فاجأت الانتفاضة التي شملت كل المدينة قادة القوات البلشفية الروسية وأزعجتهم. تلقى المتمردون مساعدات من الروس البيض المنفيين المتطلعين لفرصة للقضاء على الحمر، وحيث لم يكن هناك كثير من البلاشفة في جانجا، كانت المؤامرة أسهل تنفيذا أكثر من احتمالات نجاحها في باكو. وادعى ليف بأنه شارك في الانتفاضة وباعتلائه لمربض مدفع رشاش على مدخل قنطرة مهمة، ولكن سواء شارك بالفعل أم لم يشارك، لم تطل مهمته العسكرية لأكثر من يوم.

في وصفه لتلك الأحداث في كتابه «الدم والنفط»، وكما في وصفه لطفولته بأجمعها وقصة فراره، كتب ليف نوسيمباوم كما لو كان أسعد بيك المسلم - كما لو كان أبوه ابراهام من الأمراء المسلمين - لذلك من المثير أن نلاحظ بعض المواضع من الكتابة التي كانت فيها الأمور الخاصة التي تشغله كيهودي تطغى على واجهة الأحداث وهو يحكي عن تمرد مدينة جانجا على البلاشفة الحمر، كتب على سبيل المثال:

> اقترح الروس البيض الذين تحالفوا معنا طبقا للموروث الثقافي لبلدهم القيام بمذبحة ضد اليهود. وقد رفضنا هذا الاقتراح بتهذيب، على الرغم من أن الروس كان لديهم إعلانات ولافتات مطبوعة مدون عليها: «اضربوا اليهود، انقذوا أذربيجان».

واستفاد ليف من حقيقة أنه بينما رفض المسلمون «الآخرون»

الاقتراح، وذهب بنفسه وجمع تلك الإعلانات واللافتات التي تنادي بقتل اليهود وحطمها وأتلفها. وأعلن للروس: «أن عليهم ألا ينسوا أنهم كانوا في أذربيجان المتحضرة لا في روسيا الوحشية، وبناء على ذلك اقترح الروس إقامة مذابح للأرمن». وادعى ليف أن أبناء بلده رفضوا ذلك المقترح أيضا، لأن المسلمين الأذريين يقتلون فقط لدواعي الشرف والثأر؛ كما حدث بالفعل وأخذوا ثأرهم من الأرمينيين في المذبحة التي وقعت في باكو، لذلك فهم «لا يريدون الآن إراقة دماء لا مبرر لإراقتها». (بعد أعوام استنتج ليف في برلين: «لم يكن من السهل بعدها دفع الروس لمواصلة العمل بعقلانية»).

وسلح المتمردون ومن التحق بهم أنفسهم بـ«السكينة والدعة الشرقية» - أي ببطء وانعدام كفاءة - لمد المعركة إلى باقي أنحاء البلاد. في الوقت ذاته، كان قادة البلاشفة في باكو قد بلغتهم أنباء الانقلاب في جانجا فبعثوا بقوات من عشرين ألف فرد لمحاصرة المدينة. وقبل أن يتمكن المتمردون من وضع مزيد من الخطط لمد التمرد ونشره على نطاق أوسع، كانوا قد حوصروا وانقطع تواصلهم مع باقي أنحاء البلاد وكل العالم خارج جانجا. وراح البلاشفة يضيقون حلقة الحصار ويحكمونها. لم يدرك المتمردون أن هناك كثيراً من التمردات والثورات الأخرى المماثلة تقع في التوقيت ذاته في أماكن أخرى من البلاد، وتعامل البلاشفة مع كل تلك التمردات بالوسيلة ذاتها. كانت تلك الوسيلة البلشفية متبعة مع كل تمردات المدن الواقعة في دول وسط آسيا وروسيا ذاتها: التطويق، والعزل عن العالم، وتدمير المدن والبلدان المقاومة. وفي جانجا بدأ البلاشفة بإعادة احتلال الحي الأرمني من المدينة ثم اقتربوا من القنطرة التي تفصل القسم الأرمني من المدينة عن القسم الإسلامي منها. كان النهر الذي وهب المدينة اسمه

قد جف ونضبت مياهه من سنين كثيرة سابقة، ولكن مجراه الجاف ما زال موجودا حيث يجرى به تيار مياه ضئيل في وقت الربيع. ولعبت تلك القنطرة دورا محوريا في خيال ليف: فقد كانت هناك ذاته الأخرى التي اتضحت له فوق تلك القنطرة، على هيئة شخصية علي خان، الذي وقف فوقها وقفة الفارس الأخيرة ضد الروس في رواية «علي ونينو»، وهو خلف مدفع رشاش في أحد مرابض الدفاع - «وحزام طلقات الرصاص ينساب بين يديه كما تنساب حبات المسبحة»- حتى تم عزله عن رفاقه جميعا من القوات البلشفية المتقدمة، وسقط من فوق قضبان القنطرة إلى مجرى النهر الجاف. ومات كثير من البلاشفة في عملية السيطرة على قنطرة جانجا الاستراتيجية، وسواء كان ليف بين المدافعين أم لم يكن، نجح البلاشفة في السيطرة على القنطرة كما بدأوا في اختراق الحي الإسلامي أيضا حتى أن المدافعين عن القنطرة وجدوا أنفسهم محاصرين من طرفيها.

جبتُ كل أنحاء جانجا برفقة فؤاد، صديقي الذي يعمل في الإنتربول (الشرطة الدولية)، باحثا عن تلك القنطرة. بعد سبعين عاما من الحكم السوفياتي، لم يتمكن أحد من معرفة مكانها، ووصف بعض الناس لنا أكثر من نصف دستة من القناطر والمعابر التي تمر فوق مجرى النهر الجاف في ذلك اليوم. ولكن عثرنا على موقع القنطرة المذكورة في نهاية رحلة البحث، وبدت شاذة عما حولها ولا فائدة منها، تعلو قسما طينيا من مجرى النهر الجاف. كانت واجهتها الحجرية ما زالت منقوشة بثقوب طلقات الرصاص منذ الثورة. على زاوية الطريق بعد عبور القنطرة، على الجانب الأرميني العتيق الذي تقدم منه البلاشفة للسيطرة عليها، كان يوجد مشفى للأمراض العقلية.

وحين انتهى القتال، بدأت الشيكا تحقيقاتها. . . . كتب ليف:

«كانت إجراءات المحاكمات على درجة شديدة من البساطة كما يمكن لأي امرئ أن يتخيلها. . . كانت الأسئلة توجه على عجل: اسمك؟، مهنتك؟، سنك؟ وتدون الإجابات بالسرعة ذاتها، وفي تسعين حالة من كل مائة كان الحكم على الفور: إطلق النار. . . وينفذ الحكم في المكان ذاته في الحال. . . كانت إبادة جماعية آلية منظمة، من تلك التي لا يمكن لك حتى أن تلطف من الحكم عليها بأنها كانت مجرد خطأ».

لم يشرح ليف أبدا كيف تمكن من النجاة بعد فشل الانقلاب (أو كيف لفتى في العقد الثاني من عمره بلا خبرة غير التهام الكتب أن ينضم للمتآمرين قبل أي شيء). حين نشر مذكراته أول مرة في ألمانيا عام ١٩٢٩، كانت حكاياته عن المؤامرات السرية والتواصل السري خلال تلك الفترة مقبولة بوجه عام من الليبراليين فيما تلقى ازدراء ولا مبالاة اليمين المعادي للسامية، الذين رأوا في إخفائه لأصله اليهودي دليلا على عدم صدق ما يرويه عن نجاته من البلاشفة وأن روايته لا تعدو كونها رواية مختلقة ومزيفة. وعلى الرغم من أن أول مذكرات تنشر له، التي نشرت وهو في الرابعة والعشرين من عمره، مليئة بالتباهي المثير للشك - لحظات التظاهر بالشجاعة الخارقة والتي كان فيها بكل يقين مشلولا بالخوف - وأثبت بعد ذلك أنه كان يتصف بشجاعة نادرة، واستمر في مواجهة مخاطر لا طائل من مواجهتها ضد الفاشيين في بواكير الثلاثينيات من عمره. كانت مهارته الحية الفريدة - وهي خياله - متلائمة مع إنسان عاش في قفص مزخرف ويحلم بالمغامرات، حتى جاءت بغتة أحداث أكثر مأساوية عما كان يمكنه تخيله وأحاطت به من كل جانب.

كان هناك أيضا جانب من عدم الواقعية فيما يخص الثورة البلشفية، ولا شك أنه زاد في البلاد الحدودية مثل تركستان والقوقاز. فأغلب الثوار كانوا يعملون في حالة صدمة من نجاحهم، غير مصدقين أنهم بالفعل كانوا يمزقون إربا قرونا من العادات الاجتماعية والسياسية على مدى بضعة أيام أو أسابيع دموية، وفي مذكراته التي كتبها وهو على فراش موته، كتب ليف:

> حين اعتقلني الشيكا، ضحكت. ولا يعلم إلا الله لماذا ضحكت. ولكني ضحكت، كنت في الرابعة عشر من عمري، أي بالغ بالمقاييس الشرقية. غير أن الأمر برمته كان مغامرة، مغامرة مثيرة وممتعة. كان من الواضح بالطبع أنه خلال بضعة أسابيع، أو بضعة أشهر ستختفي وتتلاشى كل آثار الثورة. أعتقد ذلك كل فرد، حتى الحمر أنفسهم اعتقدوا ذلك.

ما سجله ليف عن تفاديه الاعتقال في جانجا يمكن قراءته على أنه مغامرة طريفة مثيرة - قدم صورة ذلك البطل الذي يمكن لصفاته وتركيبته أن تنقذه من أحداث سُود وأشد خطورة سوف تقابله بعد ذلك.

فبعد أيام من الاختباء في قبو تحت الأرض، فكر في خطة. اقترب من جندي مار بالطريق وسأله كيف يمكن له أن يصل إلى مكاتب الشيكا. وأعطاه الجندي المتفاجئ - لأنه لم يصادف أبدا من قبل من يسأل عن الشيكا- المعلومات المطلوبة.

ذهب ليف إلى إدارة الشيكا وسأل عن الضابط الذي يترأس القوة الموجودة، وقال له باللغة الروسية: «يا رفيق، تفضل بعمل تصريح لي لمغادرة المدينة». وطلب العميل من ليف أن يعرفه بنفسه، ومن يكون، فقال له: «شيوعي شاب من استراخان، ابن عامل، كنت في جانجا

ممثلا لتنظيم الشباب الشيوعي وهاجمني أعداء البروليتاريا، وأريد أن أعود لبلدي للانضمام لصفوف العمال المناضلين». (ادعى ليف أن ما عاونه في تلك الحيلة لغته الروسية غير المتقنة، ورباطة جأشه ورصانته، وأنه كان أصغر كثيرا في العمر من أن يكون بأي شكل ضابطا من البيض أعداء البلاشفة).

وسأله ضابط الشيكا: «أين أوراقك الثبوتية؟».

فأجاب بثبات: «أتلفتها طبقا للتعليمات العامة لمؤتمر الحزب بعد وقوع تمرد البيض».

راح الضابط يتفحصني بارتياب وحذر، مفكرا للحظات، ثم سأل: «ما الذي قاله الرفيق لينين عن حق الحكم الذاتي للشعوب؟»

فأجبته: «الحكم الذاتي حتى الاستقلال».

فسأل مجددا: «ما الذي تؤدي إليه الشيوعية، فيما يختص بالاقتصاد؟».

فأجبت بإتقان وسلاسة مما قرأته عن مبادئ الشيوعية وحفظته عن ظهر قلب في بدايات الغزو البلشفي: «من نطاق الفوضى الاقتصادية المؤقتة إلى نطاق الإنتاج الممنهج».

ونجح ليف في الاختبار، وبابتسامة متكلفة كتب له قائد الشيكا في جانجا تصريحا بالخروج من المدينة.

ولكن عندما ذهب ليف لمحطة القطارات، لم يتأثر ضابط الشيكا المسؤول عن المحطة بذلك التصريح وقال له الضابط البيروقراطي «شيكا مدينة جانجا يمكنها إعطاء تصريحات مغادرة المدينة كما تشاء. أما للسفر بالقطار، فمطلوب له تصريح من شيكا السكك الحديدية». ولما حاول ليف الخروج من المحطة، لم يوافق ضابط شيكا السكك الحديدية على إعادة تصريح مغادرة المدينة له. قال لليف إنه يبدو مثيرا

للشك وإما أن يسلم أوراقه أو يبقى بنفسه في المحطة دون أن يغادرها. واختار ليف أن يغادر المحطة دون أوراق.

وحيد تماما، دون أن يعرف أي شيء عن القرى المحيطة ولا كيف له أن يصل إلى الحدود الجورجية للالتقاء بأبيه. كان عليه أن يخرج من المدينة سيرا على الأقدام. سار على مدى يوم كامل دون أن يلتقي بإنسان. ومع حلول الليل وصل إلى حدائق كثيفة وصفوف أشجار مزروعة باتقان ونظام على شكل أزواج متوازية ذات فروع كثيفة الأوراق. وفجأة، لمح شيئا بين الأغصان الكثيفة - برق التماع فوهة بندقية - وقال صوت: «ها هنا يمشي ولد ما».

كانت الجملة مدهشة بسبب اللغة التي قيلت بها. رفع ليف يديه فوق رأسه ورد بالألمانية سائلا صاحب الصوت عما يريد.

أجاب صاحب الصوت: «حرس الدفاع عن حي هيلينيندورف»، وأمره بالاقتراب من الأجمة.

كان بضعة آلاف من الألمان يعيشون في رخاء كما اكتشف ليف بعد ذلك فيما يشبه المثيل لمجتمع الغابة السوداء مستكينين بين الصحراء الآذيرية وسفوح جبال القوقاز. كان مؤسسو مجتمع هيلينيندورف قد هاجروا إلى تلك المنطقة قبل ما يزيد عن مائة عام سابقة، فارين من المجاعة والاضطهاد الديني من منطقتهم الأصلية، منطقة «شفابيا» في ذروة الحروب النابليونية. وعرض عليهم القيصر أليكسندر الأول مساحات من الأراضي في القوقاز لمعاونته على ملأ تلك الجبهة بالسكان وتأمينها ضد زحف المناطق الإسلامية المجاورة. كان الحجاج الأقوياء يرتحلون عبر كل أوروبا، من حدود فرنسا حتى حدود جورجيا وأرمينيا لخلق نمط مماثل للمستعمرة

الألمانية في تلك المنطقة بين شعوب وبدو القبطا وآيسور، وأوستينيا، وتشاني. وطبقا لدراسة ألمانية أجريت عام ١٩١٠، رحلت خمسة عشر عربة تجرها الثيران من الرواد الشفابيين من ألمانيا إلى منطقة القوقاز عام ١٨١٦ و١٨١٧ مقتنعين بأن الجبهة الروسية ستكون «أرض الحرية والسعادة»، لم يأبهوا لمنازعات العشائر ومآزق العادات الشرقية التي تحيط بهم من كل جانب. وتحولوا إلى مزارعين أثرياء بفضل الجهد والعمل الشاق وبفضل تخصصهم في تزويد كل أذربيجان باحتياجاتها من الكونياك والنبيذ.

لم تكن للمستعمرات الألمانية أية مساهمات في السياسة الأذربيجانية رغم وجودها على أرضها؛ كان يدفعون الضرائب التي عليهم ببساطة لأي من يكون على رأس السلطة. ولكن كان عليهم أن يبقوا عينا يقظة على القبائل المحلية المجاورة، المتطلعة لمخزونهم من النبيذ في قباء التخزين. أما الآن فقد كان لديهم ما يقلقهم من تمرد الوطنيين في جانجا القريبة وقمع البلاشفة لهم. لذلك لم يكن غريبا أن يبعثوا بحراسات متقدمة، وإذا حاول البلاشفة اقتحام مناطقهم، لن يجدوها مهمة سهلة ولا ميسرة؛ كانت قوة الدفاع عن هيلينيندورف ذات كفاءة عالية ويقظة وحذرة. ورغم كل ذلك، كان من حسن حظ أولئك الألمان أن البلاشفة كانوا منشغلين جدا في ذلك الوقت ولا يعيرون تلك المستعمرات انتباها.

أما بالنسبة لليف الذي وجد ملاذا آمنا في تلك القرية، فقد كان ذلك يماثل وجوده فجأة في ألمانيا. لم يكن سكان القرية يتحدثون الألمانية باتقان بليغ، غير أنهم كانوا يتقنون اللهجة الشفابية التي ورثوها عن أسلافهم المهاجرين، والتي كانت نقية بشكل ملحوظ لو وضعنا في الاعتبار أنهم عاشوا بمنطقة القوقاز لما يزيد عن مائة عام.

وللمحافظة على مستوى اللغة عبر الأجيال، كانوا يرسلون أعضاء من مجتمعهم إلى ألمانيا في رحلات تعليمية وبحثية، وليتأكدوا من أنهم لا يتخلفون عن أية قرية ألمانية. وجلبوا معلمين من ألمانيا ليدرسوا في مدارسهم، وتعاقدوا مع أطباء ألمان، وأصروا على أن يكون رعاة كنائسهم من رجال الدين الألمان المتعلمين.

ومن اللحظة التي رافق فيها الحراس المتقدمين ليف إلى القرية، كان كل من يلتقيه يرحب به. ربما لم يكونوا بهذا القدر من الانفتاح مع كل من لجأ إليهم باحثا عن مأوى، ولكن تحدثه بالألمانية لقي قبولا طيبا منهم. واستمتع الهيلنيندورفيون بمحاولاته إجادة لهجتهم الألمانية. ويتذكر ليف أنه استمتع على مدى أسابيع بالعيش حياة رغدة من الاستجمام؛ كان يحتسي نبيذ أهل المستعمرة، ويذهب بصحبتهم إلى الكنيسة، ويبدي الاحترام للفتيات الألمانيات. كان يحضر حفلات ما بعد الظهيرة الموسيقية وجلسات القهوة التي كانت تبدو على نقيض تام من حياة البدو الذين يعيشون من حولهم، في خيامهم أو أكواخهم الطينية الصغيرة. وعلى الرغم من معرفة أهل المستعمرة بأن ليف كان فارا من البلاشفة، لم يحدثوه أبدا عن ذلك، بل عاملوه وكأنه زائر صيفي قرر البقاء معهم لفترة، وعلى الرغم من أنه لم يكن يملك إلا قليلا من المال - مهما كان ما انتوى إخفاءه منه - لدفع تكلفة معيشته.

وبعد ذلك بأعوام، حيث راحت حياة المنفى تتسم بعداء ألماني واضح للأقليات، كان ليف يتذكر ما مضى حين كان يحيا في رحاب أهل مستعمرة هيلينيندورف ويرى أنهم كانوا أقل تمثيلا للألمان وأقرب تمثيلا لأهل القوقاز والثقافة القوقازية، ويرى كيف كانت المناطق الجبلية الوسطى بين أوروبا وآسيا تفتح أذرعها للأغراب عنها في تلك

المدن الصغيرة، حيث عمدت أقلية للدفاع عن وجودها بينما ظلت مضيافة للاجئين، أصبحت المثال لدى ليف - أو قوقاز خياله.

تطلع المزارعون الأذربيجانيون من المدن المجاورة لمشروع «المستعمرين» الألمان الذين قاموا باستزراع أرضهم وأصبح لديهم وسائل راحة كثيرة ليس لدى المزارعين أنفسهم مثيلا لها. شيد الهيلينيندورفيون بيوتا من طابقين ومن ثلاث طوابق من الحجر على النمط الشفابي التقليدي في ألمانيا، بأسقف منحدرة مكسوة بالقرميد، وقباء بالحجارة أدهشت بيوتهم جيرانهم من أهل البلاد. ووجد ليف أنه بينما ظلوا متحفظين ثقافيا، بدا أن بعض الألمان قد اكتسبوا شيئا من جيرانهم - الشعر الداكن والبشرة الداكنة. كان كثير منهم، من المظهر الخارجي وحده، يبدون وكأنهم أذربيجانيين. غير أن سكان هيلينيندورف كانوا يتعمدون، بكل تشدد ووضوح، عدم الاختلاط مع سكان البلاد الأصليين. وتعامل ليف مع هذا الشأن بحسه الفكاهي الساخر:

> سكان المستعمرات الألمانية، الذين لا يرغبون في أن تكون لهم أي علاقة بأهل البلاد «الملونين»، سرعان ما سيصبحون هم أنفسهم «ملونين». كل من يعرف الحياة في المستعمرات الألمانية سوف يؤكد على حقيقة أنه «لا يوجد عار عرقي» أدنى من ذلك. الاختلاط بين الوطنيين والمستعمرين ممجوج بقوة؛ ومن الأرجح جدا أن المناخ يؤثر على درجة لون البشرة. غير أنه من الملحوظ جدا أن الأطفال الشقر موجودون بين الأجيال الجديدة من قبائل الآيسور الذين يعيشون بالقرب من هيلينيندورف، فالألماني لا يحقر ذاته أبدا بعمل علاقة مع أمرأة من الآيسور المحليين.

واستنتاج أنه لا يوجد «عار عرقي» يكمن خلف اختلاط الألمان

والمحليين سوف يكون له تأثير محدد حين نشر ليف سيرته الذاتية - في ألمانيا حين كانت النازية على وشك الاستيلاء على السلطة، وحين اجتاحت الرأي العام حمى فكرية لتحديد مصير النقاء الجنسي الألماني.

في عام ٢٠٠٠، ذهبت برفقة فؤاد إلى قرية هيلينيندورف، وضللنا الطريق إليها وأوقفنا جنود أذريون مدججون بالسلاح. القرية تقع مباشرة على الحدود مع أرمينيا، حيث كان حراس الحدود الأذريون والأرمينيون يتبادلون أحيانا إطلاق الرصاص بصورة فردية حول خط حدودي لم يتغير أبدا. بدا الأمر وكأن الحرب العالمية الأولى قد تجمدت هنا بالثورة البلشفية وظلت كامنة ونائمة مثل فيروس لمدة ثمانين عاما، منتظرة سقوط الاتحاد السوفياتي وانهياره حتى تنشط النزاعات من جديد. أخيرا وجدنا هيلينيندورف، وبدت كما وصفها ليف تماما، مع فارق واحد: كان الألمان قد ذهبوا. في عام ١٩٤١ قام ستالين بترحيل قدامي المستعمرين ترحيلا جماعيا إلى سيبيريا. (مات أغلبهم هناك، رغم أن أقلية متبقية منهم رحلت إلى ألمانيا في عام ١٩٩١). ولو كان هناك حتى أمل ضئيل أن نجد أحدا يتذكر فتى لاجئ من باكو، فقد محى ما حدث من ترحيل جماعي إلى سيبيريا ذلك الأمل. كانت المباني صلبة البناء كما كانت منذ نشأتها الأولى، غير أن من شيدوها كانوا قد تركوها من زمن.

شخصية واحدة أظهرت قدراً من المعرفة حين تحدثت إليها بالألمانية، سيدة قديمة شرحت بألمانية متعثرة مختلطة بكثير من الأذرية والتركية، أن أباها كان واحدا من المستعمرين الأصليين: وكانت أمها من إحدى القبائل المحلية، لذلك نجت من الترحيل

القسري. كل الآخرين الذين قابلتهم كانوا منحدرين من عائلات آذيرية أعيد تسكينهم هنا بعد الترحيل الجبري للسكان من أصل ألماني على يد ستالين. وبذلت تلك العائلات جهدا للحفاظ على جمال القرية التي لم يبنوها. كانوا يفتخرون بشدة بقبائها الجميلة والفريدة في ذلك البلد الصحراوي.. كنت قد نزلت على كثير من السلالم الخشبية الكثيرة القديمة التي تفضي إلى مخازن رطبة محاطة بالأرفف، المليئة بقناني النبيذ والمشروبات الروحية والفواكه المجففة.

وجدت الكنيسة التي وصفها ليف، حيث كانت القرية تمارس كل حياتها الاجتماعية من صلوات يوم الأحد إلى جلسات احتساء القهوة. كانت مشيدة من الطوب الأحمر على الطراز اللوثري، كانت محفوظة بشكل جيد في شكلها الخارجي. ولكن حين أصبحت بداخلها وجدت أن مقاعد الكنيسة قد انتزعت من أماكنها وأن المبنى تم تحويله إلى مركز رياضي. وكانت مجموعة من الشباب الآذيري يجرون في أنحاء ساحته بحيوية، يربتون الكرة ويضربونها لترتد من الأرض ويمررونها ويقفزون ليضعوها في شبكة السلة المعلقة على لوحة فوق الموضع الذي كان فيه منبر الوعظ.

كان ليف في الكنيسة ذات ليلة حين سمع لاجئاً آخر، وكان أرمينيا، يصلي بخشوع طالبا من الله أن يخرجه من ذلك البلد حيا. كان لاجئون آخرون قد وجدوا طريقهم إلى القرية، غير أن ذلك الرجل هو الذي استرعى انتباهه على نحو خاص. كان يعمل في مجال النفط، مثل أبيه، وكان قد قطع كل المسافة من باكو في سيارة شحن قديمة لا تحمل إلا شيئا واحدا من ممتلكاته، وهو موقد الساماور. كان إبريق الشاي والسيارة القديمة هما كل ما تبقى له في الحياة. ووجد ليف أن تلك السيارة تثير الاهتمام.

وناقش ليف مع ذلك الأرميني أهدافهما المشتركة: ماهي أفضل وسيلة لبلوغ الحدود. كان الأرميني يحمل ورقة تتيح له افتراضا أن يشتري شباك الصيد من جميع أنحاء البلاد ومن الخارج أيضا، من حيث يرى الضروري والأنسب. كانت تلك الوثيقة كافية لإقناع شيكا الطرق البرية بأن يدعوه يسافر بسيارته من باكو، غير أن السيارة كانت في ذلك الوقت تلفظ آخر أنفاسها. كانت الحدود أبعد مما يمكن بلوغه سيرا على الأقدام، وكان ضابط شيكا السكك الحديدية الغاضب قد حذره من السفر بالقطار. إضافة إلى ذلك، لم يجرؤ رجل الأعمال على السفر بمفرده، خشية أن يقتل بصفته أرمينيا على يدي المسلمين، هذا إن لم تعتقله الشيكا أولا بصفته طفيلياً اجتماعياً. فلو سافر هو وليف معا، سيبدو الأمر منطقيا، فكل منهما بإمكانه أن يزود الآخر بالحماية. بإمكان ليف أن يحمي الأرميني من الاضطرابات العرقية مع المسلمين، وبإمكان الأرميني أن يرد المعروف. وكانت شهادة شراء شباك الصيد التي بحوزة الأرميني ستحميهما معا من القتل على أساس طبقي على يد البلاشفة.

وتدربا بشكل عملي على حيلتهما: فالأرميني كان خبيرا من البروليتاريا تابع لوزارة صيد الأسماك، أرسلته الوزارة لشراء شباك صيد؛ فيما لعب ليف دور سكرتيره الأمين وخبير شباك. وزور الأرميني وثائق لليف ليدعم ادعاءه. وحين تحل اللحظة الملائمة، سوف يرحلان بسيارته المتهالكة عبر الطرق الجانبية غير المطروقة حتى الحدود.

كان عليهما تأجيل تنفيذ الخطة لبعض الوقت لأن المناطق الريفية قد أصبحت فجأة شديدة الخطورة. كانت القوات البلشفية قد أحكمت قبضتها على المدن الصغرى وكانوا يمسحون المناطق الريفية لنشر

حكمهم المرعب. في كل المناطق الريفية كانت القرى مجبرة على تسليم «الأرستقراطيين» أو تواجه قصفها بالمدافع، وحرقها على من فيها، أو مواجهة الإعدام الجماعي لإيوائهم «مصاصي الدماء الأثرياء». وطبقا لما سجله ليف، كانت القرى الصغيرة التي لا يمكن أن يكون بها نبيل، أو خان، أو «حوت رأسمالي»، كان بعض المزارعين التعساء يُختارون ليدعوا أنهم ملاك أرض زراعية ويُضحى بهم لإنقاذ القرية. وفي مدن أخرى، من تلك التي تضم بالفعل بعض الأرستقراطيين المحليين، كان السكان يرفضون في الغالب تسليمهم، فكانت تلك المدن تدمر بمن فيها من سكان. سجل ليف أن كثيرا من نبلاء الأقاليم كان يبلغ عنهم للشيكا المحلية، مخاطرين بإعدامهم كحل بديل لإنقاذ قراهم من الهلاك والإبادة.

وبالفعل، وبمن كان ما زال مقيما بهيليننضورف، حاولت الشيكا بلشفة القرية. وصل إليها المهيجون المتخفون واختلطوا باللاجئين. لم يعد آمنا مصادقة أي أحد بعد وصولهم، غير أن الشرطي الجاسوس الذي كان سببا لدفع ليف وصديقه الجديد على الإسراع بالرحيل لم يكن متخفيا. كان ذلك الرجل مكشوفا لأنه لم يكن من أي منطقة من مناطق القوقاز ولا حتى من جنوب روسيا. كان من لاتفيا. وسرعان ما رتب «أمسية اجتماعية» استهلت بالرقص، وعلى مدى الأمسية، بدأ المؤيدون المتعصبون المنبثون بين الحضور ينشدون الأناشيد البلشفية، وبانتهاء الأناشيد صعد اللاتفي على المسرح وألقى خطابا. وبعد كل تلك الفعاليات الحماسية، كان من المنتظر أن يقف الجميع وينشدون «النشيد لأممي».

اعتقل الجنود ليف بعد النشيد واقتادوه إلى اللاتفي، الذي اتضح بالطبع أنه لم يكن إلا ضابط شيكا. اتهم اللاتفي ليف بأنه بقي جالسا

أثناء إنشاد «النشيد الأممي» وبأنه معاد للثورة. وأعاد ليف سرد قصته المختلقة وكيف أنه في مهمة لشراء شباك صيد لجمعية تنمية الثروة السمكية في أذربيجان. وبدا على اللاتفي كما لو كان يستمع لأكثر الحكايات هزلا يمكن أن يجرؤ أحد على سردها - شباك صيد أسماك في مناطق جبلية محاطة بصحاري، وفي خضم حرب أهلية. غير أنه لم يبد على يقين تام إن وضع في الاعتبار أن الكافيار كان ثاني أكبر الصناعات الأذربيجانية. طلب منه اسم الجمعية وعنوانها، وأعطاه ليف اسم جمعية وعنوانها.

لو كانت الهواتف والفاكسات موجودة في أذربيجان في عام ١٩٢٠، لكان ليف قد هلك. ولكن كما كان الحال عليه، وعد ضابط الشيكا اللاتفي بأنه سيبلغ الجمعية بسلوك الرفيق عديم الولاء وأن يتحروا عن ليف ذاته. وأمر ليف ألا يغادر المستعمرة حتى يتلقى معلومات وافية عنه من باكو. وبالطبع، كان ذلك إنذارا كافيا للرحيل الفوري. عاد ليف وأيقظ الأرميني من النوم. ورحلا في تلك الليلة بالسيارة القديمة، ولم ينسيا اصطحاب موقد الساماور. غير أن السيارة انهارت بالكاد عند القرية التالية. واشترى ليف والأرميني فرسين وركباهما باقي الطريق حتى الحدود، آملين أن يتمكنا من إكمال ادعاء عملهما بشراء شباك صيد وهما يركبان الخيل مثل رعاة بقر ضلا الطريق.

كانت المنطقة الحدودية بين أذربيجان وجورجيا يانعة الخضرة بزهور الأوركيد، حيث ترعى الخيول البرية وتجوبها قطعان الأغنام. بذلت أقصى جهد لتتبع ليف على المسار الذي سلكه، وكان ذلك بسيارة بي إم دبليو قديمة يقودها عم فؤاد - وكان فيما سبق رئيس

أقسام جراحات الأطفال في باكو، والآن سائق سيارة ووكيل عقارات. كان دكتور رؤوف سعيدا لسبب ما بالقيادة في تلك المنطقة من البلاد، فقد كانت تتميز بتقديم أشهى الأطعمة وأفضل الشراب في القوقاز بأجمعه.

تذكّر ليف مروره راكبا بتلك القرى حيث يقوم كبار السن بإلقاء خطاب ترحيب بضيوفهم ويقدمون لهم الذهب، والنساء، أو الأغنام - كل ما هو موجود بالقرية، لأن الضيوف هم بوضوح من النبلاء. وحين يرفضون الهبات، يقوم أهل القرية بتقبيل أياديهم ويقيمون احتفالا على شرف «الضيوف الذين لم يسرقوا منهم شيئا». ونجحت الخطة التي وضعها ليف والأرميني أكثر مما توقعا. ففي القرية المسلمة كان ليف يشهد للأرميني ويحميه، وفي القرى الأرمينية كان الأرميني يشهد لليف ويحميه. وبالطبع، كان الأثنان المنتميان لباكو لديهما من القواسم المشتركة ما يفوق قواسمهما مع أهالي قرى الجبال.

كان من الممكن أن أتشكك في رواية ليف عن الضيافة الشديدة التي لقيها من أهل القرى الجبلية لو لم أكن قد سافرت بنفسي عبر تلك القرى الريفية، جعلت سيارة بي إم دبليو القديمة مني، ومن فؤاد، وعمه رؤوف نبدو كنبلاء أيضا، وقدم لنا القرويون كل ما يملكونه، على الرغم من أنهم لا يمتلكون شيئا كثيراً. لم تكن هناك مطاعم، ولكن كل قرية صغيرة كانت بمثابة عيد ينتظر التحقق؛ كل طريق وعر كان يتمخض عن فرد يتطوع للبحث عن أفضل ثمار الفاكهة على الأشجار ويجلبها بسعادة، أو يصطاد بعض اسماك السلمون من بركة، أو يذبح عنزة أو شاة لعشاء الضيوف. (أو كما وصف ليف الضيافة القوقازية في رواية علي ونينو: «لو دخل ضيف بيتك يحمل الرأس المقطوعة لولدك الوحيد في يده، سوف تحسن استقباله رغم ذلك،

وتقدم له الطعام والشراب»). أظهر القوقاز قدرا من الضيافة التي لابد أنهم قد استقبلوا بها جيوش الأسكندر المقدوني حين مرت ببلادهم، مما يزيد عن ألفي عام خلت. ومن السهل تفهم التأثر المتنامي الذي شعر به تجاه وطنه الأم، حتى لو كان يحاول الفرار منه. في احتفالات السهر حول النار بالخلاء، سمع ليف والأرميني أغنيات عن الملوك الخانات، وعن العندليب الذي مات بسبب حبه لوردة شائكة، وأغاني لشعراء فارسيين مثل حافظ وسعدي تغنى على نغمات آلة الساز، وهي تشبه الكمان بثلاثة أوتار فقط تحمل كما تحمل آلة التشيللو. شاهد رقصة الخناجر، وتشمل عشرة خناجر وامرأة حسناء ولكنها كانت تذكر بشكل ما بالحسين والاستشهاد في كربلاء. الرجل الذي يحمل كل الخناجر يدور حول المرأة، يصد عنها الأعداء المهاجمين ويحاول أن يحتضنها. وتتراجع المرأة، وتخلق له مزيدا من المهام ليحققها، وكل ذلك على إيقاع الموسيقى. يبدأ الرجل بوضع خنجر واحد على الأرض ويدعو المرأة لأن تخطو فوقه، كدليل على السلطة التي تمتلكها عليه. ثم تلقي بقطع العملة المعدنية في الهواء وعليه أن يلتقطها دون أن يسقط خنجر واحد من خناجره.

وعلى الرغم من أميتهم، كان المزارعون في وقت ليف ولهون بتقاليد لغتهم. كان الشعراء الجوالون ينتقلون من قرية لقرية، كما يفعلون أيضا في بلاد فارس، يلقون بالقصائد الشعرية مقابل هدايا، وطعام، ومحبة متبادلة. كانوا يؤلفون القصائد العفوية كما كان بإمكانهم إلقاء قصائد محفوظة تلائم الموقف أو المناسبة، سواء عفيفة أو فاضحة. اكتشف ليف أن أفقر المزارعين يتذوقون أبرع الشعر ويودون مبادلة أي مما يمتلكون للاستماع إلى الشعر ويحفظون بعضه لو تمكنوا من حفظه. واكتشف آخر «المباريات الشعرية» والتي

كانت تمثل له كل ما هو نبيل بالثقافة القوقازية. كانت مباريات الشعر تجتذب الشعراء من كل القرى المحيطة بمكان التباري. لم تكن هناك أية قيود ولا اشتراطات لمنزلة اجتماعية ولا لدرجة ثراء المتبارين: الموهبة فقط هي التي يعتد بها. كان المتبارون يلتقون في ساحة مكشوفة، وتتلون ملامحهم مع كل لون شعري. في الغالب كان يطلب من الحضور تحديد قافية معينة، ويقوم الشعراء بنظم شعر على تلك القافية. أشهر وصف لليف عن تلك المباريات موجود في رواية «علي ونينو»، حيث يتبارى الشعراء لإظهار نضال التقاليد الجبلية العريقة ضد المجون والتهتك وضياع الشرف في العالم الحديث والمعاصر.

وأدرك ليف أيضا الحيوية المتنوعة في «شعر الجبال» حيث يؤلف أساطين الشعراء القصائد مع اعتكاف فصل الشتاء، ليخرجوا في الربيع وهم يلقونها على السامعين في مآويهم الذين يتراوحون بين سكان أسوأ الأكواخ حتى سكان قصور الخانات، ويبدأون في مبارزات شعرية شهيرة دون أن يريقوا نقطة دم واحدة. وحين يفعلون ذلك، تمتلئ قرية المتبارين بأعداد متساوية من المسيحيين والمسلمين، كلهم يتجمعون ليشهدوا المنافسة، بنفس القدر الذي كانت تمتلئ به مدينة أوربية في القرون الوسطى لمشاهدة مبارزات السيوف.. وما زال باحثو ودارسو القوقاز يستشهدون بتلك المقاطع الشعرية، على الرغم من ورودها في رواية، بصفتها مثالاً على تفرد ثقافة تلك المناطق الحدودية. أشد وصف ليف حميمية يبدأ بـ«ملوك الغناء» الذين يطلقون شعورهم الطويلة تباهيا وتفاخرا ويرتدون قفطانات حريرية ويتبخترون في خيلاء أمام الجماهير المحتشدة، وكل منهما يرشق الآخر بنظرات الريبة، حتى يبدأ أحدهما بقذف الآخر بنص:

«تفوح من ملابسك روائح الروث، ولك وجه خنزير، موهبتك أوهى من شعر بطن العذراء، وبفلس واحد تنظم القصيد حتى على مخازيك»

ويرد الآخر محتدا وعابسا: «أنت تلبس قفطان القواد، ولك صوت الخصيان. لا يمكنك الإفصاح عن موهبتك، فلم تكن لك يوما أي موهبة. أنت تعيش على الفتات المتساقط من موائد الاحتفال بمواهبي».

... ثم يدخل الحلبة رجل رمادي الشعر بوجه حواري ويعلن موضوع التنافس: «القمر فوق نهر أراكساس» و «موت الأغا محمد شاه»...

فصاح صاحب الصوت الناعم: «ماذا يشبه القمر فوق نهر أراكسس؟»

فقاطعه العبوس قائلا: «وجه المحبوب»

فصاح صاحب الصوت الناعم: «ذهب القمر لا يضاهيه».

فأجاب العبوس: «كلا، هو مثل درع الفارس حين يطير من يده».

وفي الوقت الذي بهتت فيه الابتسامات. غنى كل منهما أغنية عن جمال قمر نهر أراكسس، الملتف في السهل كضفيرة عذراء...

أحس ليف براحة عميقة لأول مرة منذ اشتعال الثورة وهو يركب حصانا في الجبال - «في منطقة ليس بها حقول نفط، ولا حرس خاص يسير في ركابه، ولا تشيكا». في زمنه، كانت سفوح التلال مليئة بأبراج صخرية عالية، ترجع إلى قرون ماضية، حيث كان يمكن للقرويين اللجوء إليها تاركين أكواخهم الطينية إذا قام حاكم قوي مجاور بشن هجوم على مناطقهم، وربما أقامتها وشيدتها عصابات قطع الطرق قديما. وعلى مدى قرون، أصبحت تلك الأبراج الصخرية ملاذات

آمنة: كان من المفهوم والمتعارف عليه في أوقات الحروب ترك من يلوذون بتلك الأبراج من القرويين والضعفاء. وكان القرويون الناجون في كل الأحوال بعد انتهاء القتال يكونون القاعدة الجديدة لجمع المكوس والضرائب لمن يخرج منتصرا من الحرب. ولما استولى البلاشفة في نهاية المطاف على تلك المنطقة، قاموا بهدم تلك الأبراج بصفتها «بقايا الإقطاع». وما زال بإمكانك أن ترى أكوام الصخور من بقايا تلك الأبراج، متناثرة ومهجورة في أرجاء تلك المروج.

أثرت رحلة ليف مع القوافل عبر أرض تركستان في كتبه وألهمته مقالاته عن الصحراء وعن الإسلام، وسوف تؤسس رحلته على ظهور الخيل في مناطق الحدود الأذرية - الجورجية لأعماله التي سيكتبها عن القوقاز. هذان المؤثران: الصحراء والجبال، سوف يندمجان في بديل روحي يناقض ويوازن الاستبداد الثوري البلشفي، والحكم الشمولي، والحرب العالمية. وبينما اشتبك باقي القوقاز في حرب أهلية بين البلاشفة والوطنيين القوميين، ظل سكان تلك المنطقة الحدودية يخوضون معارك رمزية من القرون الوسطى، يؤدونها بأسلحة يصنعونها في بيوتهم وهم محاطون ببيئة أسطورية من الهدوء. وسواء كانوا يضعون صلبانا أو دروعا بزرود مثل الخفسور[1]، أو يعقدون المباريات ومعارك المصارعة مستعملين العصي والهراوات ذات النتوءات، مثل البهلوانات، بدا الفرسان المحليون في نظر ليف مثل أطفال كبار السن، آمنين في غاباتهم الساحرة، جهلاء بالعوالم الخارجية، غاضبين بشكل مضحك وهم يلهون. حتى الحيوانات وقعت هي الأخرى تحت منظار فحص ليف: شهد ليف «سباق بقر»

---

(١) قبيلة جبلية جورجية مشهورة بملابسها وعاداتها المختلفة.

حيث ينخس المحليون كسالى الأبقار التي تنتج لهم الكريمة الحلوة والزبد ويدفعونها للركض مثل الخيول الجامحة.

صادف ليف أيضا في تلك البراري «عبدة الشيطان»، أو الأزيديين، الذين كانوا يبثون الرعب في القرى المجاورة ولكن يتبين بعد ذلك أنهم لا يؤذون أحدا، ومسالمون، بل وخجلون.. وهم لا يعادون الله كما يفعل عبدة الشيطان الأوربيون، بل يعتنقون وجهة نظر ثنائية عن الوجود والعالم تتلخص في إرضاء الشيطان والرب معا. ويعتقدون أن الرب بصفته خيرا فإنه أسهل إرضاء، وأنه لابد من تخصيص وقت أكبر لإرضاء الشيطان بصفته أكثر شرا. ويعبد الأزيديون الشيطان الذي يمثلونه على شكل ببغاء ذهبي، وهو الشكل الأهم من بين الملائكة السبعة المقدسة في طائفتهم. واعتبروا أن الببغاء الذهبي يمثل الشيطان، غير أنهم يعتقدون أنه بشكل ما ندم وتاب وأن دموعه تطفئ النار الأبدية الملتهبة في الجحيم. كان من الضروري إرضاء الببغاء الذهبي حتى لا يكف عن الندم والتوبة لكي لا تلتهب نيران الجحيم من جديد. وشهد ليف الأزيديين وهم يتجمعون حول قبر مؤسس عقيدتهم وراقصوهم يلبسون جلابيب بيضاً ويحملون المشاعل وينشدون الأناشيد التي تمجد الشيطان من غروب الشمس حتى شروقها. ويترأس رجل دين هو حاكم الأزيديين الحفل، ويعتبرونه الممثل الرسمي للشيطان على الأرض.

أضافت قرية الأزيديين بعض المفاتيح الدالة على القوقاز كملاذ ومأوى فكري مختلف عن معتقدات العالم الحديث. عرقيا، فإن الأزيدين من الأكراد. ودينيا، كانت معتقداتهم خليطا مهجنا من كل الديانات الكبرى المتواجدة في القوقاز: الإسلام، واليهودية، والمسيحية، والزرادشتية أيضا، مع تأثير أبلغ من الديانة الأخيرة.

وهم يخشون ضوء الشمس، ويشعرون أن الظلام أنسب لهم، ولكنهم أيضا يعبدون الشمس بصفتها عين الله وناره وقوة الحياة في الوجود. وهم يمارسون التعميد ويقومون بختان الذكور. وقائمة محرماتهم الغذائية واسعة جدا وتمتد لتشمل كثيراً من الخضروات واللحوم. نصوصهم الدينية شفاهية بكاملها وتماثل قصائد شعر الجبال، تتغير كثيرا مع كل متحدث بها وراو لها.

وفي بلاد كان عدم الثقة متفشيا بها ولا يمكن تفاديه حتى أن الأرميني والأذري كانا يحميان بعضهما بعضا في كل قرية يدخلانها، كانت قرية الأزيديين المكان الوحيد الذي لم توجه فيه إلى ليف أية أسئلة عن انتمائه أو عن انتماء رفيقه. فتلك الطائفة المضطهدة والمكروهة لم تكن تبالي بوجود أرميني ولا أذري بينها - عبدة الببغاء الذهبي- كانت كل المعتقدات والأعراق تستوي لديهم.

في أعماله التي كتبها عن القوقاز والتي نشرت في أوروبا النازية، كان يبدو أن ليف يكتب أحيانا عن الأقليات العرقية والدينية في المنطقة كوسيلة لإثبات أشياء محددة عن اليهود. فالأزيديون الذين لا يرضى عنهم جميع من حولهم، وموضع كثير من الأحكام والاتهامات المتنوعة دون تحقق من صحة تلك الأحكام والاتهامات، يعدون في ذلك أكبر مثال. فالمسيحيين يعتبرونهم أنصار الشيطان. والشيعة يتهمونهم بأنهم من نسل الخليفة يزيد، قاتل الشهيد الحسين؛ ومن ثم فهم يرون أنهم نسل الشياطين ذاتهم، وأن الشائعات عن شذوذهم الجنسي تجلب لهم كراهية واحتقار كل أبناء الديانات المحيطة بهم، بل إن الأتراك يتهمونهم بأنهم جنس من المثليين الذين يتناسلون بطريقة غير معروفة يساعدهم عليها الشيطان.

وحين وصل المرتحلون أخيرا إلى النهر الذي يفصل بين أذربيجان

وجورجيا، أراد الأرميني أن يعبره على الفور إلى أرض الحرية على الجانب الجورجي. ولكن لكونه رفيق طريق مخلصاً لرفيقه وافق على معاونة ليف أولا في العثور على أبيه، سار مع ليف إلى منطقة على النهر حيث اتفق ليف مع أبيه على الالتقاء عندها. تجنبا السير على الطريق المجاور للنهر مباشرة، مفترضين أنه حتى لو كان البلاشفة لم يصلوا إلى حافة النهر الفاصل بعد بكامل قوتهم، فإنهم على الأقل سوف يقومون بذلك في أسرع وقت لتأمين الحدود.

وجاءت المشاكل بلا توقع لا من القوات البلشفية بل على العكس تماما. كانت مجموعة كبيرة من فلاحي المنطقة قد قاموا بعمل مجموعات حراسة ومراقبة معادية للبلاشفة على نوبات، وأوقفت إحدى نوبات الحراسة ليف ورفيقه واتهموهما بأنهما من الثوار. ولم يلق ليف ورفيقه إلا نظرات باردة حين احتجا بأنهما من الرأسماليين ومن كبار رجال النفط في باكو، وأنهما من أعداء الثورة. ولم تقتنع قوات ميليشيا الفلاحين بادعائهما، وتدهور الموقف أكثر حين قام من عينوا أنفسهم حراسا بتفتيش المسافرين واكتشفوا تصريحات جمعية شباك الصيد المزورة. ولم يتمكن الفلاحون من الحكم على قيمة الأوراق لأنهم لا يعرفون القراءة، ولكن حين وصل المتعلم الوحيد في المنطقة، أكد لهم أن الوثائق تثبت أن المعتقلين عملاء من البلاشفة. وبدأ أفراد ميليشيا الفلاحين يقترحون كثيرا من وسائل تعذيب القرون الوسطى للتوصل للحقيقة.

وقبل الشروع في التنفيذ بوهلة، ظهر قروي عجوز وقال إن رجلا نبيلا - بيه، من طبقة راقية وصل لتوه من باكو، وهو بكل يقين على دراية بكل الناس المهمين من مدينة باكو، وقد وافق على فحص المعتقلين بنفسه. واستبشر ليف والأرميني خيرا وشعرا أن الغمة قد

انزاحت، إذ كانا على يقين من قدرتهما على إثبات هويتهما الحقيقية لأي شخص مهم كان يعيش في باكو. لم يأملا على أي حال، في ذلك المشهد الذي أعاد لهما الحياة حين كان الرئيس المحلي لميليشيا الفلاحين يقود الضيف المتميز إلى الكوخ الذي كانا محتجزين به. كان يرتدي الزي الوطني القوقازي - قلنسوة الفرو العالية، وحزامي كتف عريضين وخنجراً حظي بإعجاب كل من رآه من ميناء باتوم حتى باكو - كان أبراهام نوسيمباوم. وعلى الرغم من أن ليف كان مقيدا، إلا أنه كان قد وصل دون تأخير إلى المكان المتفق عليه بالقرب من الحدود.

بعد خفوت مشاعر الابتهاج، عبر ليف وأبوه النهر وتركا أذربيجان خلفهما.

حيثما حللت في جورجيا، كنت أشعر على الدوام أنني على حافة جرف، أو ممر ضيق، أو واد سحيق. حين زرت جورجيا عام ٢٠٠٠، صدمني وجود تماثيل ضخمة كثيرة لقديسين جورجيين من القرون الوسطى وتماثيل لفرسان الحروب الصليبية، يحملون تروسا وصلبانا يصعب تمييزها عن السيوف. بدو في خارج سياق تلك المنطقة الجبلية المليئة بالمقامات الشيعية والمحاربين المتصوفين المقدسين. غير أن ذلك كان جانبا من الأمر ذاته، فقد كانت على الدوام جبهة غير مستقرة، وكل تلك الثقافات أخرجت قبائل فقدت طريقها بين تلك التلال وتمسكت بالمناطق التي وصلت إليها، وراحوا يحرسون أماكنهم بغيرة وحماسة على مدى قرون ضد كل القبائل الأخرى المتنافسة والمتصارعة. في سوق تيفليس عاصمة جورجيا، وجد ليف: «باعة أرمن جوالين، وقارئ طالع كردياً، وقساً أوسيتياً، وروساً، وعرباً، وإنجوشاً، وهنوداً»

كان الجورجيون يتحدثون لغة قديمة غريبة، لا تنتمي لأية عائلة من عائلات اللغات الكبرى (على الرغم من محاولة علماء اللغات ربطها بالفينو - أوجارية واليابانية)[1]. ويتعايش سكان الدولة المملكة الصغيرة مع جيرانهم الأقوياء بشكل جيد ربما بسبب خبراتهم بالعلاقات الأجنبية التي خبروها من داخل حدودهم. وهم محبوبون لنبلهم، واعتمادهم على أنفسهم ومرحهم وحسهم الفكاهي ولقدرتهم على تزويد كل الدول المجاورة بالمشروبات سرا، وتعد جورجيا سكوتلاند القوقاز. كتب ليف في «علي ونينو»: «هنا احتسوا النبيذ، ورقصوا، وضحكوا وغنوا، انثنوا وتصلبوا مثل زنبرك من الصلب. هل هذى هي البوابة إلى أوروبا؟ بالطبع كلا. هذي ليست إلا جانبا منا، وهي في الوقت ذاته مختلفة كليا عن بقيتنا. هي بوابة ولكن تفضي إلى أين؟».

تعد جورجيا ثالث دولة تتحوَّل إلى المسيحية في العالم، وعلى عكس أرمينيا، المملكة المسيحية الأخرى المجاورة في المنطقة، كانت على الدوام على علاقة طيبة مع جيرانها المسلمين. تحوَّل الجورجيون إلى الصليب في القرن الرابع الميلادي، أي قبل مائة عام من تحول روما ذاتها إلى المسيحية. حين وصل فرسان الحملة الصليبية الجوالون إلى القوقاز قادمين من القدس في القرن الحادي عشر، رحب بهم الجورجيون وآووهم في مملكتهم الأسطورية. وظل ليف عاشقا طول حياته ببقايا الثقافة الصليبية الموجودة في خيفسوريا، وهي منطقة من جورجيا تقع في الشمال الشرقي للعاصمة تيفليس. كان

---

(١) اللغة الجورجية واحدة من أربع لغات - هي والمنجرلية والليزية، والسوانية - التي تكون عائلة لغوية صغيرة متناهية الصغر غير موجودة إلا في المناطق الحدودية للدولة.

يرى كثيرا من تلك البقايا الثقافية على أنها رمز للفروسية وكرم ضيافة ذلك البلد، المكان الذي عاشت فيه القبائل اليهودية المفقودة والعادات النبيلة.

وهدد التمدد والتوسع العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر بقايا المسيحية القديمة في القوقاز، واعتنق كثير من النبلاء الجورجيين الإسلام لإرضاء جارهم القوي في جنوب البلاد. كان من المحتمل أن تطيح رياح القوة العثمانية بالجورجيين كما أطاحت بالأرمينيين وبعثرتهم. وبدلا من ذلك، اختاروا بإرادتهم أن يمتصوا النفوذ الإسلامي، منتجين خليطهم الغريب من أوروبا وآسيا، من المسيحية والإسلام، وظلوا مستقلون.

كان أبراهام يتذكر تيفليس من طفولته، ولكن ليف لم يسبق له أبدا أن عاش في ذلك البلد المسيحي. بعد ذلك بأعوام سوف يتذكر جورجيا بصفتها التنهيدة الأخيرة للحياة الإقطاعية البطولية. غير أن واقع خبراته هناك كان أكثر خشونة وصعوبة عما يظهر في كتاباته المنشورة. فعلى عكس مغامرات هروبه من البلاشفة في تركستان، وبلاد فارس، وأذربيجان، كانت المصاعب من نوع جديد وأقل مدعاة للتباهي والتفاخر: الفقر ومشاكل عدم وجود جوازات سفر في أرض أجنبية.

(«في المنفى فقط عرفت ما هو المال - أنه القميص الزردي الواقي الذي يحمي مرتديه من طعنات الحياة»). كان ليف وأبوه على الأقل في مكان آمن. في عام ١٩٢٠، حين كانت جورجيا محاصرة من البلاشفة ولكنها ما زالت مستميتة على استقلالها، أصبحت نقطة الانتقال لآلاف المواطنين السابقين للإمبراطورية القيصرية. وكلهم كانوا مثل أسرة نوسيمباوم، متوجهون إلى باتوم، الميناء الرئيس

لجورجيا على البحر الأسود. أثناء الأربعين عاما الأخيرة من الطفرة النفطية، كان ميناء ياتوم الميناء الرئيس لتصدير النفط الأذري لأوروبا - كما كان مركز الاضطرابات العمالية بفضل البلاشفة (كان خط أنابيب النفط الواصل بين باكو وميناء باتوم أول خط أنابيب نفط في العالم؛ ومازال يعمل حتى اليوم، وما زال محور نقل النفط فيما بعد الحقبة السوفياتية). قبل الثورة، كانت ناقلات النفط تجوب البحر الأسود، وتمر عبر مضيق البوسفور؛ سفن عملاقة تبحر تحت أعلام ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، واليونان، وروسيا، وكلها تتوقف في باتوم. ولكن في عام ١٩٢١ كان المنفذ الرئيس لثروة النفط الروسية قد تحول لمنفذ للاجئين الروس الفارين منها.

أصبح ميناء نفط البحر الأسود نوعا من الدار البيضاء القيصرية - عنق الزجاجة لأولئك الفارين للغرب؛ البوابة المفضية إلى تركيا، إلى البحر المتوسط، إلى أوروبا. تسجل مذكرات ليف رعبه من كثرة المنفيين الفارين الذين غصت بهم المدينة - «والنظرة الفارغة الحزينة للاجئين» - منتظرين إذنا ووثائق سفر ليرحلوا عن المدينة. «الأفاقين بجوار المليونيرات من جميع أنحاء روسيا جالسين هنا على حافة العالم القديم منتظرين سفينة بخارية قد تقلهم إلى أوروبا. رجال غرباء المظهر، كانوا قبل ذلك مخفيين في ظلام الحارات. بقينا مع بعض الأقارب، [مع] عمال سابقين لدى أبي، تشاركنا شقة سكنية مع عاهرة وانتظرنا، وانتظرنا، وانتظرنا. ننتظر ماذا؟ إما كنا ننتظر انهيار البلاشفة، أو سفينة بخارية تقلنا إلى أوروبا مثل أي أحد آخر».

من ساحل البحر حيث كان ليف يتمشى، كان بمقدوره أن يرى قمم جبال القوقاز تعلو من خلف أسطح البيوت. كانت الرائحة

الشهيرة للنفط التي خبرها طول عمره تفوح من الهواء. ولكن عقد طويل من سفن ناقلات النفط، دون نفط تنقله، وقفت عاطلة في عمق مياه الميناء، وكان مخزن القطارات مليئا بعربات نقل نفط خاوية بلا نفط تنقله. وعبر الميناء، بعيدا عن مرمى البصر، كانت تقع القسطنطينية! أوروبا! العالم!

كتب ليف: «أستطيع أن أتذكر حلما واحدا عن أوروبا كان يستحوذ علي في ذلك الوقت، شارع عريض واسع نظيف. والوقت مساء، والناس خارج بيوتهم للتجول والتنزه، وأنا ضمنهم. كل الناس غير مسلحين، لأنها أوروبا، بلاد ليس بها إطلاق رصاص في الشوارع. أقترب من بيت. أتناول مفتاحا صغيرا بسيطا وأفتح الباب. لا توجد بالباب مسامير حديدية ضخمة، لا قضبان فولاذ بالأبواب، لا حراس ولا خفر - إنها أوروبا، بلاد لا يوجد بها من يقتحم البيوت عنوة... كل شيء بداخلي كان يتشوق لأن يكون على الجانب الصحيح من البحر».

ولكن ليخرجوا من جورجيا، كانوا بحاجة لجوازات سفر، فقد أصبحت جوازات السفر الإمبراطورية القديمة وتلك التي صدرت عن جمهورية أذربيجان قصيرة العمر إذ لم تدم سوى عام واحد، عديمة الجدوى. انضم ليف وأبوه لأسرع الأمم نموا في أعوام الحرب - وهي أمة «إنسان بلا وطن». وبذل أبراهام جهدا فائقا لعلاج الموقف. لم يكونا مقطوعين كليا بلا موارد؛ كانت المشكلة، أن نصف اللاجئين الموجودين بالمدينة يحملون سبائك ذهبية مهربة. المشكلة كانت في إيجاد المشترين.

غير أن ليف اكتشف جانبا أكثر إمتاعا بتلك المدينة. فقد اكتشف «أنها تغص بأعداد كبيرة من النساء الفاتنات - في المقاهي،

والشوارع، وتحت أشجار النخيل بالحدائق، كنَّ في كل مكان». .
كانت نساء جورجيا تشتهرن بجمالهن الأخاذ وآمن ليف بصدق بما يحكى عنهن بمجرد أن شهدهن. ومنها أن السلطان التركي لم يكن يسمح لرعاياه الأتراك بزيارة أقاليم معينة من جورجيا خوفا عليهم من فتنة نسائها فلا يعودون لبلادهم ثانية. وفي روسيا، اشتهرت نساء جورجيا بجموحهن، مع اشتهارهن بأنهن مقاتلات شرسات لا تقلن عن مقاتلات قبائل السلت الشهيرات. حتى أن ليرمنتوف نشر قصيدته «تامارا» عن خطرهن المثير عام ١٨٤١، بمناسبة فسوق وعهر ملكة جورجيا وقتلاها من عشاقها الذين كانت تغويهم وتدفعهم للتسلل إلى فراشها خفية بعيدا عن عيون حراسها الخصيان الذين يحرسون جناح نومها وتقوم كل صباح بإلقاء جثث عشاقها المقطوعة الرأس في نهر تيريك. اعتمدت القصيدة في موضوعها على أسطورة تامار، وهي جورجية ساحرة وفاتنة تقوم بقتل عشاقها، غير أن الصورة عن المرأة الجورجية كامرأة غرام وعهر وعبث مدعومة أيضا بحادثة لا تنسى: فأثناء قيام روسيا بضم جورجيا إليها في بداية القرن التاسع عشر، اغتالت الملكة الجورجية مريم الجنرال الروسي إ .ب. لازاريف قائد جيش قيصرة روسيا بإغماد خنجرها في صدره بعد أن أغوته واصطحبته إلى فراشها.

ورغم ذلك لم يكن جمال النساء الكثيرات المتتابعات كحبات السبحة اللاتي أيقظن قلب ليف الغض في الغالب جمالا جورجيا. بل كن من رفاق النفي. في باكو، خارج نطاق جماعات البنات الغنيات المتحررات واللاتي كن صديقاته، كانت النساء اللاتي رآهن ليف طوال حياته قبل ذلك في شوارع باكو نساء محجبات، وبعد ذلك بعشرين عاما، كتب أنه «مازال يرى بعين خياله الوجوه الرقيقة لنساء

باكو، الوجوه التي تنظر بطبيعتها الفطرية إلى الأرض مع ابتسامة رقيقة، أو بضيق، أو بسخط على حملقة صبي في وجوههن، أصبحت كل تلك الأشباح من عالم آخر».

وجد ليف رفيقا يشاركه الاهتمام بمتابعة الفتيات، وهو صبي جورجي كان أبوه، «زكريا مديفاني» الحاكم الإمبراطوري الأسبق لمدينة باتوم وكان أيضا من معارف أبيه أبراهام. كان الصبي يدعى أليكسي مديفاني. شرب الصبيان صاحبي الخامسة عشرة من العمر حتى سكرا على مقهى مواجه لشاطئ البحر وراحا يطاردان بنات اللاجئين الروس حتى تورمت خدودهما من اللطمات أو ما هو أسوأ. وفي الحقيقة، عمد ليف إلى التورط في أول مبارزة له، وعلى الرغم من قبولي لما كتبه على علاته - كما كتبه في رسالة لصديقته الإيطالية بيما أندريا - فقد أجبرت نفسي على ابتلاعها مع فاتح شهية. قال ليف إنه كان جالسا في مقهى حين انفتح الباب «ودخلت منه فتاة ملائكية الجمال، أجمل مما يمكن أن يعبر عنه أي مديح أو وصف». كانت برفقة أخيها وفي حراسته. ووقع ليف «على الفور صريع غرامها». وتتبع ليف ذلك الجمال الروسي أينما حل في أرجاء مدينة باتوم دون أن يستجمع شجاعته مرة واحدة ليتحدث إليها. وتبعها ذات يوم إلى مقهى ووجد نفسه يتأملها بتعمق وهي تعدل من وضع قبعتها أمام مرآة، ومن الواضح أنه كان يتأملها مليا عن قرب. وفجأة «فتحت شفتيها الجميلتين وتنهدت في ضيق في المرآة قائلة؛ أنت أيها القوقازي البائس، فأحس ليف بخجل شديد وغادر على الفور».

بعد بضع ساعات، كان مستلقيا بالقرب من الشاطئ بين النخيل على ضوء القمر، يحلم بالفتاة الروسية وبالمدن الأوربية على الساحل الآخر و«إن كان البلاشفة سيسقطون بعد ثلاثة أو ستة أشهر». شعر

فجأة بكفين يبرزان من الظلام وينقضان على عنقه ويخنقانه بقسوة، كانا كفان كبيران للص أو رجل عصابات. وأمسك الرجل بعنقه وشدد عليها الخناق بكل قوته حتى أنه لم يكن قادرا على الاستغاثة. ولكن ليف كان معه مسدس قديم كان والده قد أعطاه له، فحاول أن يخرجه من ملابسه. تمكن من إخراج المسدس، وحين صوب المسدس لصدر مهاجمه، اكتشف أنه لم يكن إلا شقيق الفتاة الروسية. كتب ليف أنه صاح بالرجل،

«أنا أتحداك»، وهنا، أصابت الرجل نوبة من الضحك الصاخب وقال «أنت تتحداني؟ هل تظن أنك كبير بما يكفي لتتحداني، هل أنت في سن التحدي؟ أشك حتى في أنك تعرف معنى هذا التعبير. أنا المسئول عن إدارة شئون البلاط الملكي». ولكن لكوني مسلحا بقيت هادئا وأجبته «لو كنت ببساطة جبانا وكل ما يمكنك الإقدام عليه أن تهاجم الناس من الخلف، فإن من حقي أن أثأر لتلك الإهانة»..

في النهاية، أقرّ الرجل بأحقيتي في طلب المنازلة ثأرا لكرامتي، ولكنه لسوء الحظ لم يكن مسلحا في ذلك الوقت....

«أي سلاح يمكنك أن تتحدث عنه في تلك البرية (رأي في باتوم أنها كالبرية). من الأفضل أن نقوم بذلك كما يقومون به هنا، يبدو أنها طريقة غير معروفة لك هنا يتبارزون بخنجر ووشاح على اليد اليسرى».

والتقيا على الشاطئ بعد ساعة، وكان أليكسي مديفاني وأخوه دافيد، شاهدي ليف، بينما أحضر الروسي معه شاهدين فارسيين لهما ألقاب غريبة. ويتذكر ليف كيف بدا الأمر غريبا له أن يكون أصدقاء الروسي من الفرس، والأعجب أنهما كانا يتحدثان الروسية أيضا بطلاقة كما لو كانا هما أيضا قد جاءا من البلاط الملكي في

بيترسبورغ. توافقوا على أن يكون النزال وفقا للطريقة الجورجية المحلية، بالخنجر والوشاح. كان هناك ميل لجعله نزالا حتى مصرع أحد الطرفين، ولكنهم استقروا في نهاية المطاف على أن يقتصر النزال حتى «أول نزف للدم»، والذي انتهى كما كان تباهى وتفاخر ليف بعد ذلك في رسائله لبيما حين وجه ليف للروسي طعنة في ذراعه. وتصالحا بعدها، بل إن الشقيقة الروسية رغبت في التعرف على «الفتى القوقازي الفظيع»، ولكن ليف كان مستاء في ذلك الوقت ولم يعد مهتما - أو هكذا ادعى[١].

على أي حال، انتهت أيام مرح ليف في وقت لاحق حين نجح والده في رشوة طبيب لاستخراج شهادات تطعيم كما نجح في شراء تذاكر على باخرة اسمها «كليوباترا» تابعة لشركة ملاحة إيطالية. ومتسلحا بنفوذ كبير كان ما زال له على حكومة باتوم، تمكن زكريا مديفاني من استخراج جوازات سفر جورجية لليف وأبيه أبراهام. ثم

---

(١) بينما كان ذلك بمثابة ميول رومانسية بدت في الغالب وكأنها تشمل اللعب العاصف كما تشمل ممارسة الجنس (ودعنا لا ننس أن فاينتينو قد قال إنه يفضل طبق شهي من المكرونة على أي امرأة في أي وقت)، فإن غراميات أليكسي مديفاني رفيق ليف سوف تصبح عالمية الطابع والشهرة. فقد عرف بعد ذلك على أنه رجل النساء العالمي بعد زواجه من باربرا هوتون، وريثة وولوورث - ودفعها إلى طلب الطلاق منه بعد عام فقط. وواستها ودعمتها كل الشخصيات الملكية الأوربية والممثل العالمي كاري جرانت. أما أليكسي فبعد أن حصل على مليون دولار كتسوية من الطلاق اصطدم وهو يقود سيارته المرسيدس بشجرة في مدينة بودابست. وألقت الطبقة العليا في المجتمع الأميركي باللوم على الأمير القوقازي لتدميره حياة هوتون، ولكن ليف كان دائم الدفاع عن صديقه ضد اتهامه بالقسوة (وبمقارنة الأحداث غير السعيدة بزواجه الكارثي بوريثة فاحشة الثراء - سوف يكشف ليف برثاء حقيقة أن أليكسي لم يكن أميرا بالفعل).

التحق زكريا مديفاني وأبناؤه «الأمراء» بهما على الباخرة كليوباترا أيضا، وانطلقوا ومعهم مئات من المهاجرين والمنفيين والفارين في رحلة تقطعها الباخرة في أربعة أيام حتى مدينة القسطنطينية التركية (مدينة اسطنبول الحالية). وسوف يفكر ليف بعد ذلك: «شيء عجيب، كيف يتأتى لامرئ أن يعرف أي فترة من خياته ستكون مأساوية وأيها ستكون فترات سعادة، لقد فتحت البوابة إلى أوربا على مصراعيها» أمامه، وبدا ذلك اليوم وكأنه بداية لمرحلة من السعادة.

على متن الباخرة كليوباترا، انضم ليف وأبوه إلى عالم اللاجئين الذي أصبح مجتمعهم الجديد، ذلك المجتمع رغم رثاثة مظهره، كان يعكس رفعة شأن أصحابه من مجتمع نفط باكو القديم. وبشكل ما كان بدا الأمر وكأنهم قد عادوا إلى بيوتهم على بحر قزوين، ولكن هذه المرة على سطح مدينة عائمة متنقلة تتجه للغرب وعليها ملاكها في قمراتهم: سياسيون، وأمراء، ومعادون للبلشفية من كل لون وصنف. بدا كما لو كان العالم كله مجتمعاً على تلك الباخرة.

والتقى ليف من جديد برفيقه الأرميني الذي صادقه في مستعمرة هيلينيندورف الذي عاونه على الهرب تحت زعم أنهم يطوفون البلاد بحثا عن شراء «شباك صيد الأسماك». كما التقى أيضا بأحد معارفه القدامى من باكو الذي «أصبح بطريقة غير معلومة قنصلا هولنديا». وبدأت أحاديث المنفى وشائعاته - أحاديث مستديمة سوف تستمر لأعوام طويلة حيث إن أولئك الوجهاء من امبراطورية بائدة عاشوا بعد ذلك عالة على النساء وعملوا كحراس أبواب ومحتالين على الفنانات ومنظفي مراحيض وتجار. ساد الجدل حول الثورة المضادة!! والاستراتيجية!! والجغرافيا السياسية ! والتمويل! وعن المزايا

الاستراتيجية للقوقاز وكيف أن الغرب لن يدع البلاشفة يسيطرون على المنطقة لوقت طويل.

وبمجرد أن تخطت الباخرة كليوباترا المياه الإقليمية الجورجية، أصر طاقم الباخرة على أن يدفع الركاب ثمن وجباتهم ومشروباتهم بعملة ذهبية. وتجول ليف في الباخرة كما لو كان «يعيش حلما»، فاغرا فاه دهشة من خمارات الباخرة، ومن الجوقة الموسيقية، والإضاءة المبهرة لغرف الاجتماعات والجلوس والتي كانت رمزا عائما للقارة الجديدة. كان منهكا -عقليا وشعوريا وبدنيا - وكان مشهد «العمال النظاف، والممرات قوية الإضاءة، والوجبات الجيدة» يمثل له الأنهيار على مفارش بيضاء نظيفة ومنشاة بعد قضاء أشهر في قاذورات، وعرق، ودماء الهروب والفرار.

الفصل الخامس

القسطنطينية، ۱۹۲۱

كان ليف يشعر بروح معنوية عالية والباخرة تترك خلفها مناطق القوقاز وتبحر صوب عاصمة الإمبراطورية العثمانية المترنحة، واحتضنت الباخرة كليوباترا ساحل الأناضول على البحر الأسود على مدى أيام إضافية أخرى، ولكن في النهاية لمح ليف عن بعد أشباح الجوامع الأسطورية، وأبراج الكنائس، والقصور التي قرأ عنها كثيرا: كانت منطقة القرن الذهبي للقسطنطينية.

ذك الوادي الفيضي كان يحكى عنه أنه كان يبرق مثل الذهب لأن البيزنطيين كانوا قد ألقوا كل متعلقاتهم الثمينة في النهر حين عرفوا أن الأتراك قادمون (ولم يكن الأتراك قد أظهروا أي أسباب تدفعهم للفرار، فرغم ذلك - وسرعان بعدما استولى الأتراك على المدينة في ٢٩ مايو عام ١٤٥٣، أمر السلطان محمد الفاتح بتشييد العشرات من المعابد اليهودية والكنائس ودعا مزيداً من الأجانب إلى البقاء في المدينة أكثر مما سمحت به أي عاصمة أوربية كبرى في ذلك الوقت). كانت جسور القرن الذهبي العائمة العملاقة - حيث يقف عليها صف من الرجال بقفاطانات بيض، يجبرون العابرين على دفع قطعة عملة معدنية كرسم عبور قبل أن يسمحوا لهم بالمرور - تربطه بمنطقة

استنبول القديمة، عاصمة القصور والمساجد التركية، وبمنطقة جالاتا، ميناء التجارة مع الفرنجة. آلاف اليهود فروا إلى هنا هاربين من محاكم التفتيش الأسبانية، واستقروا بين العرب، واليونانيين، والأرمن. وعند النظر إلى الأسفل من أعلى نقطة في جالاتا يقع برج المراقبة الصخري، والذي بناه تجار جنوا الذين كانوا أول من أسس ذلك الحي في القرن الرابع عشر الميلادي.

أغلب المدن الكبرى بالعالم شيدت ملاصقة لمصدر مياه، إلا القسطنطينية التي بنيت داخل ممر مائي. بإمكانك أن تبحر في باخرة أو بمركب شراعي عبر القسطنطينية من كل من الشمال أو الجنوب. وتحفُّ بشواطئها كنوز وثروات ومشاريع معمارية كبرى تراكمت على مدى ألفي عام. الهيمنة على مياهها تعني الهيمنة على كل ممرات التجارة بين أوروبا وآسيا، وكان الأتراك العثمانيون يهيمنون عليها من حوالي خمسمائة عام على وجه التقريب.

وفي ذلك الوقت أينما نظر ليف والباخرة كليوباترا مبحرة في طريقها للميناء، كان يرى الالتماع الرصاصي للسفن الحربية الحديثة التي تعلوها رايات بألوانها الحمراء والبيضاء والزرقاء لما كان يسمى اتحاد جاك. كانت تركيا قد انضمت إلى جانب ألمانيا عام ١٩١٤، أما في ذلك الوقت، أي عام ١٩٢١، كانت تركيا ما تزال تدفع ثمن قرارها. كانت القسطنطينية في ذلك الوقت مقسمة، بالضبط كما قسمت برلين بعد الحرب العالمية الثانية، إلى مناطق: منطقة ستانبول تحت هيمنة فرنسا؛ ومنطقتا جالاتا وبيرا تحت الهيمنة البريطانية، أو ما يسمى منطقة الفرنجة (كان الأتراك ما يزالون يشيرون إلى مسيحيي أوروبا بالأسم الذي كانوا يستخدمونه للإشارة إلى الغزاة الصليبيين من ألف عام مضت، وهو الفرنجة)؛ أما الإيطاليين واليونانيين فقد احتلوا

مناطق محدودة أصغر من المدينة. بل إنه كان هناك أيضا عدد من الجنود اليابانيين، منذ أن انضمت اليابان للتحالف المعادي للتحالف الألماني التركي قبل نهاية الحرب العالمية الأولى.

كان التحالف مع ألمانيا تحولا مفاجئا في الاستراتيجية التركية التي كان يوجهها جماعة تركيا الفتاة، وهم جماعة من الوطنيين الأقوياء استولوا على السلطة الفعلية من السلطان بعد انقلاب عنيف في عام ١٩٠٨. كانت جماعة تركيا الفتاة تتحدث كثيرا في البداية عن حقوق الإنسان الدولية وعن المساواة العرقية والدينية، وتعد بنقل الإمبراطورية العثمانية بكل ما تضمه من أعراق - أرمينية، ويونانية، ويهود، وعرب، وأكراد - إلى عهد جديد. وأعلن أنور باشا، زعيم الجونتا الجدد (تركيا الفتاة) لكل مكونات الإمبراطورية العثمانية: «سواء ذهب أحدكم إلى معبد يهودي وذهب آخر إلى كنيسة، وذهب ثالث إلى مسجد، فكلنا واحد، نحيا كلنا معا تحت قبة السماء الزرقاء، ونفخر جميعا بأننا كلنا عثمانيون».

غير أن روح الأخوة العثمانية العالمية سرعان ما ذابت وذهبت أدراج الرياح، كاشفة عن أيديولوجية انفرادية أشد تصلبا. فقد تبنت مصر الفتاة مبدأ فكريا يسمى «القومية التورانية» - وهو مفهوم ينحصر في أن كل الأتراك من سفوح جبال روسيا حتى منطقة الأناضول ينحدرون من أرض الأسلاف والجدود المسماة أرض «توران». ومن وجهة النظر تلك، فإن كل انتماء للإمبراطورية العثمانية تجاه أوروبا والشرق الأوسط لم يكن في موضعه الصحيح. وبدلا عن ذلك، فإن على الإمبراطورية أن تركز على إعادة توحيد الشعب التوراني من روسيا حتى وسط آسيا. وفي كتابه «الله أكبر»، قارن ليف بين استحواذ النظرية التورانية بأفكار «الدم والنفط» عن ألمانيا. فقد كان

موازيا ومماثلا للأفكار الألمانية الساعية إلى تحقيق «حقوقها التاريخية الجغرافية»، أي أن على الإمبراطورية العثمانية أن تبحث عن مستقبلها باتجاه الشرق - أي بغزو روسيا لاسترداد أرض الأجداد من القرن الثالث عشر الميلادي بل وما سبقه، لا تلك الأراضي العثمانية فقط، بل الأراضي الأخرى للتورانيين العظماء، أراضي المغول وقبائل الهون وهما الأصل العرقي للعثمانيين[1].

ما جمع الأتراك بالألمان في محور واحد في الحرب العالمية الأولى كان في حقيقة الأمر طبيعة شخصية أنور باشا. كان نوع من البشر يقال عنه إنه مثل حنفية الحريق القاتمة وكان قد خدم كملحق عسكري عثماني لدى ألمانيا في برلين، واعتنق أنور كل توجهات العسكرية الألمانية ذات الخوذة المدببة والأحذية اللامعة والحديث عن الجهاد. (وقام القيصر فيلهلم بدوره بنشر شائعة اعتناقه الدين الإسلامي). حين قاد أنور باشا «تركيا الفتاة» واستولوا على السلطة عام ١٩٠٨، وبصفته وزيرا للحربية، كان يقلد القيصر فيلهلم حتى في شكل شاربه، والذي كان مفتاحا لمعرفة التوجهات التي ستمضي إليها الأحداث. فما تبع ذلك بلغ أقصى ذروة من «استعمار الذات» في التاريخ: فتحت اسم تحقيق التحديث الفوري والسلطة الدولية، حول «تركيا الفتاة» (الجونتا) الإمبراطورية العثمانية إلى مستعمرة عسكرية

---

(١) منذ القرن الثامن عشر على الأقل، ظل السياسيون والمنظرون السياسيون الروس يشيرون إلى العاصمة العثمانية لا باسم القسطنطينية، بل باسم قيصر غراد، على ضوء ما يتوقعونه من امتصاصها في نطاق القوة الإمبراطورية الروسية العظمى التي ستهيمن على شؤون العالم. كانت النظرية العثمانية المضادة التي تسعى لتحقيق الطورانية العثمانية تعني أنه إذا كانت روسيا تسعى لغزو القسطنطينية، فإن الأتراك يسعون لما هو أكبر، أي إعادة غزو نصف مساحة روسيا.

فعلية للرايش الألماني. وعلق بعض الدبلوماسيين الظرفاء على ذلك قائلين «ألمانيا فوق الله». غير أنها كانت مناورة خطيرة ومميتة، وحدثت بسرعة البرق. تحول أنور ضد كل ضباط فيالق الجيوش العثمانية؛ وتسلم ما يزيد عن خمسة وعشرين ألف ضابط ألماني مواقع القيادة المباشرة للجيوش العثمانية. وأنشأ ضابط بروسي سلاح الجو التركي، ووصلت بارجتان حربيتان ألمانيتان إلى القرن الذهبي. وأنشد بحارة البارجتين بكل جرأة وهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش التركية نشيد «ألمانيا فوق الله» تحت أسوار فيللا السفير الروسي في تركيا.

وكأن شباب الأتراك الجدد قد قذفوا بتركيا من قمة جبلية منحدرة. من الصعب جدا أن نتذكر الآن ما الدور الكبير الذي قامت به تركيا في الحرب العالمية الأولى، باستثناء ما يحكونه عن إفشال إنزال «جاليبولي» حيث قام المدافعون الأتراك بذبح القوة البريطانية المكونة من بريطانيين وأوستراليين ونيوزيلانديين. فعلى كل الجبهات الأخرى كان الأتراك هم من يذبحون. على الجبهة الروسية في القوقاز قتل ما يزيد عن ثلاثمائة ألف جندي تركي نتيجة لبدأ تنفيذ مخطط أنور باشا لاسترداد الأراضي التاريخية التركية. كان المخطط يسعى لاسترداد باكو لإطلاق الجيوش التركية عبر بحر قزوين على متن ناقلات النفط، ويهبطون في ميناء كيزيل - سو ويعبرون أراضي تركستان لغزو بخارى، وسمرقند، وبالضرورة منغوليا أيضا. وفي عشية الثورة الروسية، كانت قوات القيصر قد اتخذت مواقعها النهائية لشن هجوم نهائي على القسطنطينية. لو كان قد قيض لروسيا أن تبقى في الحرب ولم تعلُ كفة البلاشفة، لربما كانت مدينة اسطنبول تدعى اليوم قيصر غراد (سيزر غراد) ولربما كان الشرق الأوسط كله الآن

ضمن الاتحاد الفيدرالي للإمبراطورية الروسية. كان ذلك المسار التركي نتيجة لتخطيط سيئ وحماس زائد - فقد أرسل أنور القوات التركية للقتال في القوقاز في الشتاء دون معاطف ولا حتى أحذية - غير أن جماعة تركيا الفتاة (الجونتا) كانوا يزدادون تعصبا ويبحثون عمن يمكن لهم أن يلقوا عليه باللائمة في فشلهم في تحقيق الحلم الطوراني. وهكذا، وجدوا في مقاومة الأرمن سببا ملائما، فاستهلوا المذابح الأرمينية البشعة في عام ١٩١٥.

وكما كان الأرمن يعيشون في أذربيجان، كانوا يعيشون أيضا في أمان تحت حكم السلاطين العثمانيين، وكانوا في الغالب يهيمنون على أعمال مهمة ويشغلون مناصبا سياسية عليا. ورغم ذلك، أعلنت روسيا أنها الحامية للأرمن في أواخر القرن التاسع عشر بصفتهم مسيحيين مثلهم، وبدأوا في تسليح وتشجيع حركة أرمينية تسعى للانفصال عن تركيا. وبتلك الذريعة، أشرف السلطان عبد الحميد («عبد الحميد الدموي») على قتل وإبادة عشرات الآلاف من الأرمن في مذابح مروعة، كانت أشد بشاعة بكثير عن مذابح قيصر روسيا لليهود. في كل أوقات الحرب العالمية الأولى كانت الدورة تتكرر، من إثارة روسية للأرمن وانتقام تركي منهم، غير أن الاضطهاد الذي لاقوه على يد نظام «تركيا الفتاة» كان يختلف عن كل ما عداه في قسوته الوحشية. شن النظام التركي حربا سرية غير معلنة ضد رعاياه من الأرمن، وفي ربيع عام ١٩١٥ أمر بإبعاد وترحيل الأرمن، رجالا، ونساء، وأطفالا. وعلى وجه التقريب وقعت في المناطق البعيدة من شرق الأناضول وسوريا كل أنواع القتل والإبادة للأرمن. أغلب الضحايا كانوا يجبرون على السير في صفوف بلا نهاية نحو الصحراء حيث يموتون عطشا وجوعا، عدا أن عصابات الأكراد وهم الأعداء

التقليديون للأرمن، كانوا يهاجمون مسيراتهم المنهكة ويجهزون على من بقي منهم حيا. واحتج كثير من الضباط الأتراك على ما يحدث، وأعدم بعضهم بتهمة الخيانة العظمى. ولا توجد أرقام يقينية لعدد ضحايا تلك المذابح، غير أن التقديرات تذهب إلى أن عدد الضحايا يتراوح من مئات الآلاف إلى مليون ونصف ضحية على مدى زمني يزيد قليلا عن عام. وفي عام ١٩١٦ كان نظام «تركيا الفتاة» قد ابتدع دفاعا دبلوماسيا مختلقا عن تلك المذابح فسر فيها أعمال الإبادة بأنها أعمال «دفاعية» مشروعة ضد تمرد داخلي. وبتنويعات بسيطة، ظل ذلك الموقف التركي هو الموقف الرسمي المعلن حتى يومنا هذا. ولكن حتى لو كان للموقف العسكري أن يبرر قتل تلك الأعداد من المدنيين، فإن الحجج التي ساقها نظام «تركيا الفتاة» لتبرير أعمالهم - على الرغم من أنها قد قبلت من كثيرين من مؤرخي الحرب العالمية الأولى - كانت حججا زائفة. فرغم وجود حركة انفصالية أرمينية تدعو للاستقلال عن الدولة العثمانية التركية، إلا أنها كانت حركة صغيرة، وكان أغلب الأرمن يدعمون ويؤيدون الإمبراطورية العثمانية، خاصة أثناء الحرب (على الأقل خوفا من اتهامهم بعدم الولاء للدولة).

وبحلول عام ١٩١٨، أي بعد عشرة أعوام من استيلائهم على السلطة، كانت حكومة «تركيا الفتاة» قد قطعت أوصال الإمبراطورية العثمانية، وقادت ملايين الجنود الأتراك إلى حتفهم، واقترفت عمليات إبادة جماعية لرعاياها المدنيين[١]. ولما اقتربت قوات

(١) أصبح تعبير «تركيا الفتاة» اليوم يعني من لديه رغبة رعناء ومندفعة في تغيير الأشياء، ولكن ذلك يعد نوعا من دخول مصطلح للغة لابد من التفكير فيه مليا، على اعتبار أن تميز «تركيا الفتاة» الأساسي ينحصر في إقحام القتل =

الحلفاء من القسطنطينية، تحالفت مجموعة من الليبراليين البرلمانيين وجماعات الموالون للملكية العثمانية لاعتقال قادة جماعة «تركيا الفتاة»، ولكنهم تمكنوا من الفرار إلى برلين على متن زوارق طوربيد ألمانية. وتولت حكومة موالية للحلفاء الحكم ودعت على الفور إلى عقد اتفاق سلام. وظن السلطان العثماني الجديد، محمد السادس، هو وكبار رجال وزارته أن بإمكانهم تجديد واستعادة العلاقة الخاصة مع الإنجليز والفرنسيين، تلك العلاقة التي أعانت الإمبراطورية على البقاء خلال القرنين السابقين.

ورد البريطانيون على مبادرة الليبراليين العثمانيين بإرسال بارجة حربية وكانت تحمل اسما مستفزا للأتراك هو «أجاممنون»، وألقت مرساها في القرن الذهبي، وقامت قوة دولية مشتركة باحتلال القسطنطينية وبدأت على الفور بتفكيك أوصال «رجل أوروبا المريض» (ابتدع هذا المصطلح أول مرة القيصر الروسي نيقولا الأول في خمسينيات القرن التاسع عشر، في الوقت الذي كانت فيه روسيا في أقصى قوتها؛ وكما جرت الأمور بعد ذلك، انهارت الإمبراطورية الروسية من أمراضها الذاتية عام ١٩١٧، مخلفة وراءها «الرجل العثماني المريض» يلفظ أنفاسه لبعض الوقت بعدها). وأحتج العثمانيون على احتلال القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية للقسطنطينية وأعلنوا أنه يعد خرقا لاتفاق الهدنة الذي وقعته معهم، ولكن لم يثمر ذلك الاحتجاج عن شيء. وفضل لورد «كورزون» وزير الدفاع البريطاني وحاكم الهند السابق تحويل القسطنطينية إلى مدينة دولية. وقاد حملة لمحو الآيات القرآنية من كنيسة الحاجة صوفيا

= والإبادة في العالم المعاصر. أما تعبير «قوات العاصفة» فيمكن أن يدل على الطاقة الشبابية الديناميكية.

وتحويل أشهر مسجد بالعالم إلى كنيسة[1] لتعود الكنيسة إلى ما كانت عليه قبل أن يستولي عليها العثمانيون. وأراد الفاتيكان أيضا استرجاع الكنيسة، وسرعان ما كانت الحكومة الإيطالية تدفع بأنه طالما كان مؤسس القسطنطينية إمبراطورا رومانيا، فلابد أن تسلم المدينة إلى إيطاليا.

ووضعت خريطة جديدة على الفور للمنطقة بأسرها بعد الحرب تظهر فيها الإمبراطورية العثمانية وقد تقلصت إلى بذرة صغيرة عما كانت عليه، مع إسناد أكثر ومعظم المناطق التي كانت تعد قلب الإمبراطورية إلى اليونانيين، والفرنسيين، بل وحتى للإيطاليين. وربما كان مازال أمام العثمانيين مخرج من ورطتهم ومأزقهم على مائدة المفاوضات لو لم تكن مذابح الأرمن قد جلبت إلى الأبد حليفا بالضرورة إلى موائد مؤتمر فيرساي: الولايات المتحدة. ففي عام ١٩١٩ كان مصير أرمينيا قد أصبح موضع اهتمام الأميركيين وحكومتهم بطريقة لا مثيل لها. فـ«معاناة أرمينيا» كما أطلق عليها الأميركيون، كانت من أهم أسباب زيادة الموازنة لسياسة القضايا

---

(١) واحدة من القصص القديمة المتداولة عن غزو العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٣٥، قصة تذكر أن العثمانيين دمروا كنيسة الحاجة صوفيا، أعظم كنائس العالم لتحويلها إلى آيا صوفيا، أعظم مساجد العالم. والصحيح أن الأتراك حولوا الكنيسة إلى مسجد، ولم يهدموها. وترجع تلك الرواية المختلقة إلى «الصليبيين اللاتينيين» كما يسميهم المسيحيون البيزنطيون - أي الصليبيون الكاثوليك من فرنسا وألمانيا الذين أوقفتهم مدينة القسطنطينية وهم في طريقهم لمحاربة المسلمين في القدس وهدموا كل ما صادفهم من آثار وكنائس مسيحية أرثوذوكسية ومنها كنيسة الحاجة صوفيا. وقد استولى العثمانيون في الحقيقة على أعظم كنيسة في العالم كانت قد هدمت على أيدي... مسيحيين!

الخارجية في تاريخ الولايات المتحدة. في عام ١٩١٧، أخر الرئيس الأميركي ويلسون دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى لمجرد تجنب التأثير على تبرعات الأمريكان الخيرية. وأدان ممثلو السلطان العثماني بمحادثات السلام بفرساي المذابح ومسيرات التجويع التي وقعت. للأرمن - متعللين بأن الإمبراطورية كانت مختطفة من قبل جماعة «تركيا الفتاة» (الجونتا) ومن قبل الألمان أيضا - غير أن الحلفاء رأوا في موقف المستشارين العثمانيين أنه ليس إلا دلالة ضعف.

وبدلا من التوصل لاتفاق مع العثمانيين - أي بالمحافظة على شكل ما من مملكة دستورية كما يفضل الغرب - حقر الحلفاء من الأتراك وأهانوهم في كل مناسبة وسمحوا لليونانيين بغزو أجزاء من تركيا في محاولة لم يكن لها حظ من التحقق لاستعادة الإمبراطورية الهيلينية التي أسسها الإسكندر الأكبر.

وأتاح ذلك الموقف من تعنت الحلفاء ضد تركيا فرصة ذهبية للرجل الوحيد الذي كان بمقدوره تحويل القضية إلى قضية وطنية: وهو الجنرال مصطفى كمال أتاتورك، الذي هزم الإنجليز في جاليبولي والذي ظل نظام «تركيا الفتاة» الموالي لألمانيا ينظر إليه كعدو وخائن. كان من أكثر الوطنيين الأتراك اعتدالا، فلم ينمِّ شاربه كشارب القيصر الألماني فيلهلم كما فعل أنور باشا ولم ينف الأرمن ولا شارك في المذابح التي أقيمت للمدنيين الأرمن. التقى الجنرال كمال بالسلطان العثماني بضع مرات في الفترة من نوفمبر ١٩١٨، حين غزا الحلفاء القسطنطينية، حتى شهر أبريل عام ١٩١٩، مظهرا ما يعطي الانطباع أنه ليس إلا مدافعاً مخلصاً عن العرش العثماني. وفي ٣٠ أبريل من عام ١٩١٩، حصل الجنرال كمال على تكليف بالتوجه إلى الأناضول

لـ«تهدئة المنطقة» وطمأنة مراقبي اتفاق الهدنة. وبالطبع، فعل العكس تماما. فبمجرد وصوله إلى الأناضول، بدأ حربا أهلية أفضت في نهايتها إلى مولد دولة تركيا المستقلة التي تلت الإمبراطورية العثمانية. وسوف ينتهي الأمر بأتاتورك للوصول بقواته إلى القسطنطينية، وعلى الرغم من أن ليف وأباه - ومئات الآلاف غيرهم من اللاجئين والفارين من الاتحاد السوفياتي الجديد - من سيدفعونه إلى استعادتها.

صعد ممثلو إدارة اتحاد الحلفاء يصحبهم بطريقة شكلية دون نفوذ موظفون أتراك إلى ظهر الباخرة كليوباترا. صعد في البدأ دستة من الأطباء وتلاهم بعد فترة كثير من رجال الشرطة. كان لدى الأطباء قائمة طويلة من الأمراض التي يخشون أن يكون اللاجئون حاملين لعدواها من مناطق موبوءة بوسط آسيا والتي تحول دون السماح لهم بدخول تركيا. أما الشرطة متعددة الجنسيات فقد كانت تحمل أيضا قوائم طويلة من الجرائم السياسية المحتمل وقوعها وغيرها من جرائم. وأحس آل نوسيمباوم بالراحة حين وجدوا أن البريطانيين الذين سيقومون بفحص الركاب يقومون به على أسس طبقية بحتة. وأكبر ليف عدم وجود فرص للرشوة، حيث كانت المنزلة الاجتماعية كافية لإعفاء المرء من الفحص والتدقيق. تم اصطحاب ركاب الدرجة الثالثة إلى حجر صحي أو وضعوا رهن الاعتقال، وسوف يستجوبون لاحقا؛ فقد كان يفترض فيهم أنهم مصدر لتهديدات متنوعة بشكل ما. أما ركاب الدرجة الثانية فقد عرضوا على لجان طبية، وإن مروا منها بسلام، يصبحون بعدها عرضة لأسئلة لا تنتهي من الشرطة.

في قاعة الاستقبال بالدرجة الأولى انتظر ليف وأبوه، ثم جاء بروفيسور رمادي الشعر وصافح بحرارة كل مسافري الدرجة الأولى،

وسلم كل منهم شهادة طبية موقعة ومختومة تفيد بأن حاملها ليس مصابا بالطاعون، ولا التيفوئيد، ولا الكوليرا. ثم ختمت المفوضية السياسية أوراق سفر الركاب مقرة أنهم من خلفيات سياسية محترمة وفوق أي شبهة سياسية. وعلق أبراهام على تخلف آسيا وعلى الوسائل السلسة الحديثة للحياة الغربية.

غادر ليف وأبوه الباخرة وتوجها لفندق دولي بالمدينة. في الطريق، رأيا جنودا بلا حصر يرتدون الزي الكاكي، كان كثير منهم أصحاب بشرات داكنة وسوداء. فمع تزايد قلق الحلفاء من تهديد حصار الوطنيين الأتراك للمدينة، دفعوا بمزيد من القوات لحمايتها؛ آلاف من الجنود قدموا من مصر وفلسطين وانضموا لما يقارب العشرة آلاف من الجنود الهنود النظاميين. كان البريطانيون قد أقنعوا السلطان مؤخرا بدوره كخليفة لكل المسلمين أن يصدر فتوى ضد أتاتورك، وكان جيشا للخليفة مدعوما بالبريطانيين يتجه غربا لحصار أنقرة.

تأثر ليف بشكل ما بالمأزق الملكي العثماني المهين - وكانت السلطة الامبراطورية العثمانية مكروهة من كل القوى الدولية على وجه التقريب في ذلك الوقت - مع أنه ابتهج بمدينته الإمبراطورية القديمة. ظلت القسطنطينية لآماد زمنية طويلة عاصمة للتسامح الإسلامي، والآن كانت أيضا، كما سيكتشف ليف، عاصمة للاعتدال الإسلامي، والتنوير الشرقي، وإمبراطورية منفية للمنفيين واللاجئين.

في نوفمبر عام ١٩٢٠، أبحر الجنرال «بايوت نيكولايفيتش رانجل»، والذي كان يعد من قبل كل دول الغرب أكثر قادة الروس البيض تهذيبا، أبحر على رأس ١٢٦ سفينة حربية متجها إلى القرن الذهبي، جالبا على متنها ما يزيد عن مائة ألف لاجئ روسي قاصدا قلب القسطنطينية. كان السلافيون التوسعيون يحلمون على مدى أعوام

برؤية الروس يجتاحون القسطنطينية (التي أسموها «سيزرغراد»، أي مدينة القيصر) ويستولون عليها، ولكن حين وصل جيش القيصر في النهاية إلى مشارف المدينة، تبين أنهم لم يأتوا كغزاة، بل كلاجئين.
أكثر من نصف الروس الذين كانوا برفقة الجنرال رانجل لم يكونوا جنودا، بل كانوا مدنيين - فلاحين، ومهنيين، ومؤيدين للنظام الملكي الروسي، ويهوداً، ومعادين للسامية - صعدوا جميعا إلى متن خليط سفن أسطوله البحري وهو يخلي مدينة كريما، آخر مدينة حصينة كانت في قبضة الروس البيض أمام زحف البلاشفة. ووجد الجنرال رانجل ومن معه أن السلطات العثمانية التي كانت تعد عدوهم التقليدي لدهشتهم الشديدة ترحب بهم. وأشرفت على إجراءات الدخول سلطة الاحتلال المتحدة - فقام البيريطانيون والفرنسيون بإسكان ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفا من الروس في معسكرهم القديم في جاليبولي - غير أن تفاعل العثمانيين مع الروس الفارين من بلادهم كان في جانب منه تعاطفا من عاهلية إمبراطورية محتضرة لمثيلتها التي احتضرت.
أصبحت القسطنطينية مقر القيادة المؤقت «للروس في الخارج» أو ببساطة مدينة المهجر، كما أطلق اللاجئون على أرضهم الانتقالية الجديدة. كان حجم الجيش الروسي في المدينة مذهلا - فقد كان أكبر بخمسة أضعاف من حجم قوات الاحتلال المتحدة من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين مجتمعين. كانت تسري شائعات بأن الروس البيض سيحاولون أن ينتزعوا السيطرة على المدينة من قوات الاحتلال المتحدة، ولكنها كانت شائعات بلا أساس. كان الجنود الروس قد أصبحوا الآن مجرد لاجئين، أناس كان كل عالمهم قد ضاع وتلاشى كالدخان ولا يعرفون أين سيكونون خلال شهر. وكانت الحكومة البلشفية قد شرعت في إلغاء جوازات سفرهم، محولة إياهم، مثل

ليف وأبراهام إلى منبوذي ذلك العصر، مواطنون بلا وطن. وسرعان ما اكتظت شوارع المدينة الكبرى حتى أزقتها بالضباط الروس الذين عملوا كسائقي سيارات أجرة، وباعة ملابس، وكتب، وعملات ذهبية في البازارات. وهام كثيرون جوعى، كما مضى كثيرون مرتدين سراويلَ رثة ممزقة وأحذية مهترئة، بلا أية أموال لشراء غيرها.

في كتابه: «روسيا البيضاء/ رجال بلا وطن»، الذي نشر في برلين عام ١٩٣٢، سيتذكر ليف الابتكارات اليائسة لبعض اللاجئين، و«الأعمال العجيبة» التي انتشرت كنوع من التحايل لكسب القوت (أحد أنواع التحايل ظهر في «اختراع رياضة جديدة، سرعان ما انتشرت واجتاحت المدينة: سباق الصراصير»، «كان الروس يجمعون الصراصير الكبيرة القوية، ويحبسونها في علبة سجائر كرتونية فارغة، ويضعون الصراصير تحت صندوق زجاجي ويطلقونها لتتسابق، ويتجمع المتفرجون ويدفعون رسوما للمشاهدة»). وسرعان ما أصبحت ملاهي ومسارح ونوادي القسطنطينية الليلة حكرا على الروس. وأدار المنفيون نوادي مثل الوردة السوداء ومحال حلوى مثل حلوى بيتروغراد، حيث استعانوا فيها بنادلات روسيات وموسيقيين روس، وطعام روسي، وشراب روسي (في المطاعم التركية، لم يكن مسموحا إلا للنُدل الذكور بخدمة موائد الزبائن). كانت كل النساء الروسيات طويلات وبشعور طويلة منسابة، وكثيرات منهن كن من أصول أرستقراطية، أو يدعين أنهن كن كذلك - وهكذا كان الأمر في مطعم الدائرة الموسكوفية الكبرى الفخم، حيث كانت النادلات تدعى بالدوقات. وسجلت ذلك المشهد في ذكرياتها إبنة وطن ليف الأذربيجانية بانيني أسعد اللاييف في مذكراتها التي نشرت عام ١٩٤٥، تحت اسم «أيام القوقاز»:

كانت النوادي الليلية الروسية من الأماكن الفاتنة في القسطنطينية، وراحت خطوة بعد أخرى تتقدم وتنتقل صوب «الغرب» حتى استقرت في النهاية في باريس. كانت المدينة تغص باللاجئين الروس. الرجال يتشاجرون معا، أو يبيعون المجوهرات أو يمتهنون أي مهن قديمة. أما النساء فقد سعين بشكل محدد أن يكن معشوقات ومحظيات... من أكثر تلك النوادي الليلية جاذبية وأكثرها فخامة نادي الوردة السوداء. كثيرا ما اصطحبني زوجي إليه... وكانت الأغاني الروسية تغنى فيه واحدة بعد أخرى، ويتجرع الزبائن كثيرا من الشمبانيا... بكل حميمية وحماس، كان يقال لي من أحد المترددين من عوام الروس: «لا يأتي المرء هنا ليضحك، بل الأصدق والأصح ليبكي».

ولما فقد اللاجئون كل شيء ويأسوا من قتال الحمر ومن العودة إلى روسيا، لم يعد أمام الجميع إلا صراع يخوضونه من أجل البقاء. ومثلت الدوقات الروسيات السابقات مشكلة عاجلة وملحة للسلطات، فسرعان ما قدمت زوجات شخصيات كبرى في المجتمع التركي وجمعية الأرامل التركية شكوى والتماسا لحكومة القسطنطينية ذكرن فيها أن رجال المدينة «يتآكلون باعتيادهم تعاطي سموما مميتة مثل المورفين، والكوكايين، والأيثير، والكحول ويرجع ذلك كله للتأثير الضار والمهلك لتلك النساء الروسيات»، وطبقا للالتماس فإن المطاعم الروسية، ومقاهي الغناء ليست إلا أماكن «يهلك فيها مئات من الشباب الأتراك صحتهم وثروتهم وشرفهم في دوامات كارثية كل ليلة». وبالكاد، كان ما يقل عن ذلك كارثية: نوادي الجاز. أحد تلك النوادي كان يديره مستثمر أميركي أسود والذي كان هو ذاته صنفا مماثلا للمنفيين الروس. قيل إنه افتتح أول ملهى للجاز في سانت بيترسبورغ بروسيا، وحين اندلعت الثورة، تبع زبائنه من هواة الجاز

القيصري إلى أرض منفاهم في البوسفور. وسرعان ما جعل القسطنطينية ترقص الشارلستون والفوكس تروت».

كان ليف يقضي النهار متجولا وحده بين «أحجار القصص الخيالية» للقسطنطينية كما لو كان قد وجد النسخة الحية لمكتبة أبويه. كانت تمثل لليف مدينة باكو ولكن على نطاق أكبر كثيرا بمضاعفات لا نهائية. وأدرك كم كان صغيرا ذلك النموذج الذي كان يسكن فيه من قبل - بطريقة ما، كان مثاليا فقط لخيال طفل، حيث كانت قصور الخانات تبدو شاسعة وضخمة - ولكنه الآن أصبح يشعر أنه في مركز كل شيء.

كان ليف يعتقد أنه قد قام بقفزته الأخيرة نحو الغرب - فوجد نفسه في قلب الشرق. وكان ذلك يمثل التناقض المنطقي للقسطنطينية. وبدت لليف أن الشخصية الإسلامية التي تكمن في المدينة الأوربية المنشأ تحث على احترام كل التقاليد، وإفشاء روح جوهر التسامح.

وحين اجتاح أتاتورك المدينة في عام ١٩٢٣، بعد أن غادرها ليف وأبوه، اضطرت حكومة «روسيا البيضاء في المنفى» أن تقوم بانسحاب سريع. قامت بتفريغ السفارة الروسية، ووصل ممثلون سوفيات ليحلوا محلهم. كانت أعوام القسطنطينية كعاصمة لحياة مترفة دولية قد ولت وانقضت، وبعد ذلك بعامين، ستكون القسطنطينية ذاتها قد ولت وانقضت أيضا، ويتغير اسمها إلى اسطنبول. غادر اللاجئون واصطحبوا معهم دوقاتهم، ومجوهراتهم، ومقاهي غنائهم. ومات كثير منهم فقيرا ومعدما في باريس، وساو باولو، ونيويورك.

وسوف ينسى إلى حد كبير احتلال الحلفاء للقسطنطينية بعد انسحاب القوات البريطانية واحتضان بريطانيا المتأخر قليلا لأتاتورك. غير أن الكراهية التي أثارها الحلفاء في تركيا تردد صداها عبر القرن

بأجمعه، وتبلور إلى كراهية عامة من المسلمين ضد الغرب. وأشعلت خطة لورد كورزون لتحويل مسجد حاجة صوفيا إلى كنيسة كما كانت عليه وإلغاء منصب الخليفة الإسلامي شرارة الاحتجاج الإسلامي في ذلك الوقت.

من ١٩١٩ حتى ١٩٢٤، اجتاحت حركة «الخلافة» الإسلامية، وهي حركة عقائدية إسلامية جامعة ومعادية لبريطانيا كل جنوب آسيا، مدفوعة بمخاوفها وسخطها على ما كان يفعله المحتلون في القسطنطينية. خرجت تجمعات حاشدة محتجة في دلهي، وبومباي، وكراتشي، وولاية الهند الجنوبية كيرالا. وصرح قادة الخليفة بأن البريطانيين، الذين كانوا يهيمنون على أغلب بلاد العالم الإسلامي من قبل، يسعون الآن لمحو الخلافة الإسلامية ذاتها من جذورها. واستندت تلك المزاعم على أن الغرب يمثل نوعا من الآلة الشيطانية التي تعمل على تدمير الإسلام، وأن المعركة الألفية كانت قيد الإعداد. حتى القادة الإسلاميون المعتدلون مثل أغا خان، زعيم الطائفة الإسماعيلية الشيعية الهندية أعرب هو الآخر عن غضبه. وبعثت الإدارة البريطانية في الهند ببرقيات إلى لندن تحذر من أن بريطانيا قد تفقد الهند لو لم يقم أناس معينون بالتوسط والاعتدال في إدارتهم للقسطنطينية.

وكان من السخريات المريرة أن أتاتورك، لا بريطانيا، هو الذي ألغى وأبطل الخلافة بعد ذلك بعامين، وكان من أسبابه المعلنة لذلك موقف قادة حركة المعارضة الإسلامية الدولية، فقد اعتبر أن احتجاجاتهم تدخل سافر في الشئون الداخلية التركية.

لم أكن أعرف الكثير عن الإمبراطورية العثمانية بعد رحلتي الأولى إلى باكو، ولكن بعد عودتي إلى شقتي بنيويورك، قدم لي أفضل وأكمل

مصدر نفسه عبر الردهة الفاصلة بين الشقق. وكما كان يحدث كثيرا أثناء بحثي عن حقيقة قربان سعيد، المعروف أيضا باسم ليف نوسيمباوم، وقعت لي مصادفة أخرى مذهلة قدمت لي التاريخ على هيئة شخصية مسنة ساحرة أسعدها أن تجد من يهتم بالأحداث التي عنت الكثير، تلك التي حدثت قبل الحروب العالمية. دعيت ذات ليلة للعشاء من قبل جارتي، وهي سيدة بشعر أسود فاحم وزرقاء العينين وهي تركية انجليزية نيويوركية تدعى إبريل، وقدمتني أنا وزوجتي إلى زوج إبنة عمها - وهو رجل فاضل مسن ولكنه يرتدي بزة متواضعة من طراز عتيق. وهكذا، وجدت نفسي أصافح السيد أورتجرول عثمان، الوريث الشرعي لعرش الإمبراطورية العثمانية. كان أكبر الذكور الأحياء للعائلة التليدة التي حكمت العالم الإسلامي لستة قرون متتالية، ولو كانت الأحداث قد سارت على غير ما حدث، لكان الآن جالسا على كرسي عرش سلطان تركيا.

كان للسيد عثمان تلك الجفون المنسدلة وعظام الحاجبين الناتئ المعروف كما رأيته في الصور الزيتية المرسومة للسلطان سليمان الأعظم وهي الملامح التي تميز سلالتهم، على الرغم من أنه كان أشد نحافة ويرتدي ربطة عنق سوداء مغزولة لا عباءة السلاطين الحريرية. كان أول من حمل اسم اورتجرول من العثمانيين أورتجرول شبه الأسطوري الذي هزم السلاجقة في معركة فاصلة عام ١٢٩٠ . أما حركة وإيماءات السيد عثمان الحالي فقد بدت أكثر شبابا وحيوية بالنسبة لرجل ثمانيني. شعرت وأنا أتحدث إلى سليمان الأعظم كأني أتحدث إلى خريج قديم من خريجي جامعة هارفارد.

كانت زوجة السيد عثمان تنتمي لعائلة ملك أفغانستان المخلوع، ولكنها كانت أكثر افتخارا بانتمائها لسلالة عائلة زوجها العريقة. قالت

لي: «ما هي المملكة الأفغانية؟ ليست بتلك العراقة. هذا الرجل، زوجي، هو الوريث الشرعي لأكبر أمبراطورية حكمت لأطول زمن في تاريخ البشرية».

ورد السيد عثمان بابتسامة ودودة: «صحيح ما تقولينه عن الإمبراطورية، ولكني لست الوريث الشرعي، حيث إنه لم تعد هناك إمبراطورية. أنا المدعي بأحقيتي بالعرش من الوجهة المنطقية والنظرية، غير أن ذلك لا يثير أي اهتمام عندي».

في الوقت الذي كانت فيه ابنتي ذات العامين تجذب شعر المدعي بحق العرش العثماني، وجارتنا إبريل تقدم لنا أطباق الطعام التركي الشهي طبقا بعد آخر، تلقيت كثيرا من المعلومات من السيد عثمان عن التاريخ العثماني. كان ما قاله يختلف في كثير من الجوانب عما هو مدون في كتب التاريخ. راح يعرض علي مقارنات بين مختلف السلاطين كما لو كانوا من مشاهير لاعبي الكرة: حريم كل منهم، نسبة ما أنفقته زوجاتهم من الخزانة الملكية على ملابسها، مواقفهن من أوروبا وطرق تعاملهن مع الغرب. تذكر عم عمه الأكبر الذي أغرمت زوجاته فجأه بالملابس والأزياء الأوربية و «ذهبن إلى باريس واشتروا كل ما صادفنه من ملابس في جميع متاجر حي «سان جيرمان دي بريه» وعلى وجه التقريب كدن أن يفلسن الخزانة الملكية! في عام ١٨٦٠، لم يكن من الممكن أن تظهر في اسطنبول واحدة من الحريم السلطاني إلا وهي مرتدية آخر صيحات الملابس الباريسية».

غير أن السيد أورتجرول كان متصلبا بوجه خاص وعنيدا حول إساءة فهم التاريخ لجده، سيئ السمعة عبد الحميد الذي اشتهر في الغرب باسم عبد الحميد الدموي لإبادته لليبراليين والأرمن، وكان آخر من أمسك بمقاليد السلطة الإمبراطورية بقوة.

قال: «أحد الأسباب التي دفعت الجماعات التركية للإطاحة بجدي كان رفضه التحالف مع ألمانيا فقد كان على يقين أن ذلك سيفضي إلى كارثة. كان جدي على علاقة طيبة جدا بقيصر ألمانيا. وتوجد رسالة في تركيا من القيصر للسلطان يخاطبه فيها بلفظ «أخي السلطان» ويقول فيها إنه لو خاض حربا، سنخوضها معا، ستقف إلى جانبي». كانت تلك الرسالة جانبا من الحملة لإغواء الترك على الانضمام للجانب الألماني تلك الحملة التي بدأت في تسعينيات القرن التاسع عشر، حين كانت سمعة السلطان الدولية في أدنى درجاتها على مر التاريخ العثماني. وتوجد صورة عجيبة للحاج الامبراطور «فيلهلم» وهو على ظهر حصان عربي في الصحراء، وخوذته الشهيرة المدببة ملفوف عليها العمامة الإسلامية المعروفة. قال: «رفض جدي العرض بكل كياسة، قال له بتعبير آخر: كلا شكرا، كان يعرف أنه لو نشبت حرب فإن الألمان سينهزمون ويخسرون ونخسر نحن أيضا لو تحالفنا معهم». وطبقا لما قاله لي السيد عثمان فإن كل الأخطاء المميتة الكبرى قد ارتكبها من تلوا جده على العرش، فعمه محمد استمع لشباب الأتراك وقاد الإمبراطورية منتئياً بها عن انجلترا وفرنسا لصالح ألمانيا. كان هناك سلسلة من السلاطين في تلك الأعوام تولوا واحدا بعد آخر، لم يحرز أيٌّ منهم نجاحا يذكر، كلهم كانوا من أعمامه، وانتهوا بابن عمه السلطان عبد المجيد، الذي أصبح خليفة فقط لا سلطانا في عام ١٩٢٢.

لم يتوقف السيد عثمان كثيرا في ذلك الموضع، ولكن بعد كارثة تحالف جماعة تركيا الفتاة مع ألمانيا، كان آخر العثمانيين قد أصبحوا دوليين وتقدميين. وشهدت أعوام «موسيقى الجاز» القصيرة في القسطنطينية رفض العرش للميول الكارثية الأخيرة للعرقية القومية

مفضلا إحياء تقاليده العريقة القديمة التي دامت قرونا من التسامح. كان للمدينة رئيس للشرطة من الأكراد وازدهرت وانتشرت الصحف الكردية. وترك الأرمن يعيشون في سلام. تزايد سفور المرأة وأخذ الحجاب في التلاشي والتناقص. ورغم ذلك لم يحظ أواخر العثمانيين بأية شعبية. لم يكن الأمر يرجع إلى أن الشعب التركي مستعد للتحرر بجميع أشكاله، كما سيدعي أتاتورك ذلك بعد زمن وجيز، بقدر ما كان يرجع إلى أن أواخر العثمانيين قد أظهروا حبا لكل ما هو حداثي، وتحرري، وغربي - السيارات السريعة، والنساء المتحررات، «والحياة عالية المستوى»، كما أسماها السيد عثمان - أحبوا كل ذلك بذات القدر الذي كانت فيه امبراطوريتهم تتمزق أوصالها على يد القوى الأوربية. كانوا يبدون ببساطة شديدة كخونة.

بحلول عام ١٩٢٢ كان أتاتورك قد أحكم قبضته على الأمة «الجديدة»، على الرغم من أنه لم يكن واضحا المنصب الرسمي الذي يتبوأه. نقل مقر رئاسة الحكومة إلى أنقره، وكانت مجرد مدينة صغيرة في الأناضول لإبعاد السياسات التركية الجديدة عن الجدل الدائر في القسطنطينية، كما ألغى الحقوق الزمانية والمادية للعرش العثماني - أي فصل منصب السلطان عن منصب الخليفة - وحول المنصب لأول مرة في التاريخ إلى منصب ديني فقط، غير أنه لم يكن قد هيئ الأوضاع بعد لإلغاء المنصب الديني أيضا. كان إلغاء منصب الخلافة في ذات الوقت الذي ألغيت فيه صلاحية السلطة السلطانية يعد تحديا كبيرا للمتعصبين ضيقي الفكر من الأتراك وعلى وجه التخصيص، كان شديد الوطأة على المؤسسة الدينية. لم يرد أتاتورك أن يورط تركيا في حرب أهلية، لذلك ألغى منصب السلطنة أولا، ثم راح يبحث عن الأمهر، والأفضل سمعة من بين العثمانيين ليسند إليه منصب الخلافة الدينية.

اختار للمنصب عبد المجيد، ابن عم السيد عثمان، وكان رجلا جادا يؤمن بالنهضة والتقدمية - دارس جاد ملتزم، ورسام، وموسيقي، وشاعر - وربما كان أكثر حاكم تقدمي من بين كل من ارتقوا ذلك العرش. وفي لقاء معه أجرته مجلة أمريكية عام ١٩٢٤ لاحظ من يحاوره أن الخليفة «يقرأ كثيرا عن الفلسفة الفرنسية والألمانية... واعتذر عن عدم إجادته الكافية للإنجليزية مما لا يتيح له فهم الفلاسفة الإنجليز، وقال إنه يجد أن السياسة عالم كريه لأنها سبب المشاكل والتعاسة لكثير من البشر..». وصرح السيد عبد المجيد للمجلة أنه يدعو الأجانب للحضور إلى تركيا، «لأن حضورهم سوف يقدم عونا كبيرا لهذا البلد، سوف تمكننا أموالهم من بناء المدارس وتنوير شعب أمة تعسة الحظ، شعب لم يعرف أي شيء عدا كونهم محاربين أشداء، على الرغم من توفر ملكات كثيرة لديهم تؤهلهم لأن يصبحوا فلاسفة وعلماء».

ربما كان أشد ما أثار الدهشة على الإطلاق، أن الزعيم الروحي لكل المسلمين السنة في العالم أنكر في حديثه للمجلة الأمريكية ببساطة سمو الإسلام على غيره من أديان. أخبر السلطان المثقف المحرر الأميركي بأنه يحلم بعالم «ينادي فيه كل بشري الآخر بأخي، وحينها ستختفي كل النزعات العرقية والدينية، حينها يعيش الجميع مطيعين لكلمة الله الحقة كما وردت إليهم من أنبيائه ورسله، موسى والمسيح ومحمد».

ثم ألغى أتاتورك فجأة منصب الخلافة في ٣ مارس عام ١٩٢٤، بعد ما يزيد قليلا عن عام من إقناعه للمستنير عبد المجيد أن يتولى المنصب. في ٢٣ مارس، تلقى والي القسطنطينية، وهو منصب يوازي منصب حاكم المدينة في الغرب، تعليمات من أنقره بأن «يعامل

الخليفة بمنتهى الاحترام والتوقير مع نفيه من تركيا قبل طلوع فجر اليوم التالي». كل الذكور من نسل آل عثمان لم يمهلوا إلا أربعاً وعشرين ساعة فقط لمغادرة تركيا. أما الأميرات وغيرهن فقد أمهلن ثلاثة أيام. تقرر للخليفة أن يتلقى ٧٥٠٠ دولار أميركي نقدا وأن يتلقى كل فرد من آل عثمان ٥٠٠ دولار. لم يكن العثمانيون قد تعاملوا بأنفسهم بالنقد قبل ذلك أبدا، فقد كان لخدمهم ومن يندرجون في معيتهم الحصول على الأموال اللازمة للإنفاق على شؤون الأسرة من خزانة الدولة مباشرة. كثير منهم كان لا يعرف بالكاد إلا ارتداء ملابسه بنفسه. كانت جوازات سفر العائلة ستختم بخاتم مغادرة بلا عودة؛ وسيسمح لهم بالتوجه أينما يشاءون في الغرب، ولكن من غير المسموح لأي فرد من العائلة الإقامة في بلد إسلامي، حتى لا يعلن نفسه فيها سلطانا أو خليفة.

وحين جاء الوالي لإبلاغ عبد المجيد بمصيره، وجد خليفة كل المسلمين مستلقيا على أريكته يقرأ كتابا لـ«مونتين». (لا حاجة لإيراد ما ذكره السيد عثمان عن تلك الحكاية الطريفة، فقد سجلت وقائع تلك المقابلة في السجلات العمومية للدولة في اليوم التالي كما شهد بها مدير القصر وكانت كما يلي: «كان جلالته يقرأ كتابا لـ«مونتين» بعنوان «مقالات» حين أخبرته بأن الوالي وثلاثة آخرين من قادة شرطة القسطنطينية يصرون على رؤيته في الحال»). وأخبر مدير القصر الخليفة بكل أسف بأنه قد أمهل أربع ساعات ليرتدي ملابسه ويعد نفسه للنفي خارج تركيا.

التقارير الأخبارية المعاصرة لذلك الوقت تصف كيف تحول القصر فجأة إلى حالة من الحركة الهيستيرية العشوائية المحمومة: فحريم القصر، وأغلبهن كن فوق سن السبعين في ذلك الوقت، رحن

يركضن في أرجاء القصر وهن ينتحبن من الكرب ووطأة المحنة. وكان الخصيان من خدم الحريم ينتحبون بعويل أعلى من عويل الحريم. مئات الخدم كانوا يخرجون حقائب الأبسطة العتيقة وصناديق الأمتعة المذهبة الثمينة ويحشرون فيها كل ما كانوا يرونه أمامهم: مزهريات وأواني زينة، وأقداح القهوة النفيسة، والمصابيح الغالية، وأزياء العائلة الأثرية، والفساتين الحريرية، والمخطوطات النادرة، والأسلحة الأثرية... كيف يمكن لأحد أن يجمع متاع عائلة يتراكم من ستمائة عام كما لو كان متاع مسكن عادي؟ ماذا يمكن عمله حيال حصيلة قرون من الهدايا النفيسة والثمينة التي كانت تكدس تحت أقدام أقدم عائلة إمبراطورية في العالم؟ ومن الواضح أن الخدم لم يكن لديهم أدنى فكرة وكانوا يلقون بكل ما تطوله أيديهم في حقائب البسط والزرابي القديمة بحركات أقرب للهيستيرية. واتساقا مع الجو الهيستيري المحموم باللوعة، قام رئيس الشرطة ورجاله بالتدخل ومعاونتهم في حزم مزيد من حقائب الأمتعة المليئة بملابس الحريم الغربية ومفارش الأسرة الحريرية.

في الرابعة فجرا، كان الخليفة يخرج بصحبة عائلته من قصر أجداده. وفي غضون ساعات، سينضمون لآلاف أخر من المنفيين الملكيين الذين غصت بهم العواصم الأوربية. وسوف يتحول جلالة الإمبراطور، ضوء الدنيا والدين.. إلخ...إلخ، إلى مجرد السيد عثمان، مثل رفيقي على العشاء، ابن عمه. وسرعان ما سيصبح بمقدور عبد المجيد أن يجلس كأي شخص مجهول في مقهى باريسي ويقرأ كتاب «مونتين» غير مبال بأرواح مائة مليون تركي.

سألت السيد عثمان السؤال التقليدي الذي اعتاد مذيعو اللقاءات

الأخبارية توجيهه لمضيفيهم: «كيف كان شعورك حين عرفت بأنك لن تكون أبدا سلطانا أو خليفة لكل المسلمين؟».

قال: «في الحقيقة لم أتأثر كثيرا، كنت في ذلك الحين خارج البلاد في مدرسة داخلية - مدرسة سيريثيانا بفيينا. كان كل العالم بالطبع في حالة من الفوضى والاضطراب - كانت الإمبراطورية النمساوية قد انهارت في ذات التوقيت أيضا، وأثر انهيارها علي بذات قدر انهيار الامبراطورية العثمانية... ولكني سأخبرك الحقيقة، لقد كنت أكثر اهتماما بالكرة. كنت قائد فريقي في ذلك العام في سيريثيانا». وراح السيد عثمان يسرد لي أسماء أعضاء فريقه وكان ما زال يحفظهم عن ظهر قلب رغم مرور سبعين عاما. وقال ضاحكا «كانوا جميعا على وجه التقريب نمساويين، باستثنائي».

سألته عما كانت عليه الأمور حين كان طالبا بالمدرسة العليا وكل من معه من الأرستقراطيين. ضد من يلعبون مباريات الكرة؟

قال: «كلا، لم تكن تضم أرستقراطيين فقط. ففي الحقيقة، وقبل انهيار الامبراطورية مباشرة، وضعت إدارة المدرسة نظاما جديدا يسمح بضم طلاب من غير أبناء الملوك والنبلاء - وتم ذلك بتأييد من بلدكم».

ولكن ما الذي كان يعتقده حول فقده لحقه في أن يصبح سلطانا؟ هل كان حال تركيا سيكون أفضل لو بقيت كسلطنة؟

قال السيد عثمان: «الملكية ماتت، وكما قال الملك فاروق ملك مصر بعد الإطاحة به عن عرشه؛ في القريب العاجل لن يبقى سوى خمسة ملوك في العالم: ملك الجاروف، وملك القلوب، وملك السباتي، وملك الديناري من ملوك أوراق اللعب،... وملك انجلترا».

أبدت زوجته موافقتها على ما يقول ولكنها أعربت عن قلقها من

أن الناس لا يعرفون حاليا شيئا عن الإمبراطورية العثمانية وأن ميراث تلك الإمبراطورية قد نسي وأسيئ فهمه.

هز السيد عثمان كتفيه بعدم رضى ثم سألني مغيرا موضوع الحديث عن صحة هرة زوجتي، كانت صحتها تتدهور وهي في العام الثالث عشر من عمرها، وكانت قادمة عبر البهو. من الواضح أن السيد عثمان كان يحب الهررة. تحدثنا عن فصيلة الهرر بدءا من الفهود حتى الهرر الأليفة بقية المساء وهو جالس قربي مسترخيا في مقعده. وانغمس مدعي الحق بالعرش العثماني وزوجته المتعاطفة معه في حديث واضح الجد عن عاداته الغذائية، وأحوال نومه، وموقفه من الغرباء، وانتهوا بأن عرضوا علينا أن يرعوا هرتنا في حال غيابنا. وشكرناهما على عرضهما.

قبل مغادرتنا، أعادت زوج السيد عثمان الحديث إلى موضوع ظل يشغل ذهنها، قالت: «من العار أنه بعد مغادرة زوجي أصبح الخط الوراثي في الأسرة أكثر تميعا، ولا يعرف أي منهم الكثير عن تاريخ العائلة بقدر ما يعرف هو».

فرد السيد عثمان بتواضع: «لا أدعي ذلك».

ردت زوجته بسرعة وحدة مؤكدة كلامها: «قل لي، من منهم يعرف شيئا عن العائلة، من يهتم منهم أدنى اهتمام بتاريخ تلك الإمبراطورية العظمى، الأقدم في العالم، من يهتم بأي شيء يخص العائلة على الإطلاق؟».

لكن ليف كان يهتم بكل ذلك بكل عقله ومشاعره. وحين كان يجوب شوارع القسطنطينية المحتلة عام ١٩٢١ - في وقت كان فيه حتى الأتراك يرفضون التعقيدات العثمانية مقابل سهولة القومية

التركية، حين كانت عاصمة العالم التي تنهار تبدو محرومة وفقيرة ومتدهورة - اعتقد ليف أنه اكتشف معنى الحياة في بوتقة الانصهار العنصري والديني في أقدم امبراطوريات العالم. راح يتجول وهو في حالة ذهول واندهاش، تاركا أباه في الفندق يدبر مكائد وخطط الفرار مع المنفيين لتحقيق فرار أبعد. ولم يكن ليف يريد مزيدا من الهروب، فقد كان قد اقتحم عالم أحلام يقظته منذ أن كان طفلا.

وسوف يتذكر ليف في مذكراته التي كتبها في دفاتره على فراش موته التي كنت أحلم بأن أراها كلها من جديد: «أعتقد أنني كنت كالمجذوب لأيام كثيرة، سائرا بين قصور الوزراء وكبار رجال البلاط العثماني... كنت تقريبا أتمايل نشوة وأنا أسير في شوارع وطرقات مدينة الخليفة... هل كنت أنا حقا من سار بالمدينة؟ غريب يترنح تحت كثافة مشاعر كثيرة متباينة... آمنت أن حياتي الحقة بدأت وأنا في اسطنبول. كنت في الخامسة عشرة في ذلك الوقت. رأيت حياة المشرق، وأيقنت أنه بقدر توقي لأوروبا، سوف أظل للأبد أسير حياة المشرق».

الفصل السادس

مآذن.. وجوارب حريرية

بعد بضعة أسابيع قضاها ليف بين الجوامع والملاهي الليلية، أوشك آل نوسيمباوم على الانتقال مجددا. تعامل أغلب مهاجري باكو كما تعامل زملاؤهم من المنفيين الروس البيض مع القسطنطينية كنقطة توقف في الطريق إلى وجهاتهم الحقيقية، أي إلى عاصمة اللاجئين غير الرسمية: باريس. كان صفوة المجتمع الروسي يتحدثون ويقرأون الفرنسية، كما كانت فرنسا المستثمر الرئيس في البرامج الرأسمالية القيصرية الاقتصادية. (وقد أدى ذلك إلى بروز ذلك المشهد غير العادي للقيصر الروسي الأخير، الذي احتقر أي كلام عن وضع دستور، وهو واقف بجوار رئيس مدني فرنسي محييا الدولة الفرنسية أثناء عزف موسيقى نشيد المارسييز الوطني الفرنسي)[1]. قبل الثورة الروسية،

---

(١) مشكلة الاستثمار الفرنسي في روسيا القيصرية (وأيضا في الإمبراطورية العثمانية) تدور إلى حد كبير حول لماذا كانت فرنسا - على الرغم من أنها خرجت «منتصرة» من الحرب العالمية الأولى- تترنح على شفا الإفلاس المالي في الفترة المحصورة بين الأعوام ١٩١٩ إلى ١٩٣٩. فقد أطاحت الثورتان، البلشفية والتركية، بأموال كثير من كبار المستثمرين الفرنسيين، مما زاد من إصرار فرنسا على تلقي تعويضات مالية ضخمة من ألمانيا بعد عام ١٩١٨ .

جعل البلاشفة أفقر أحياء باريس مركز عملهم الدولي. وكأن الثورة لم تكن تعني إلا مجرد تبديل مواقع - الحمر يغادرون باريس في طريقهم للاستيلاء على السلطة في روسيا، والبيض يصلون باريس كلاجئين.

بعض اللاجئين سلكوا الطريق البري واستقلوا قطار الشرق السريع مرورا ببلغاريا، كما سيفعل ذلك أفراد العائلة الإمبراطورية العثمانية المنفيون من بعدهم. وتتذكر السيدة بانيني أسداللاييف كيف قامت بتلك الرحلة بمفردها وكيف أغلقت مقصورة القطار على نفسها، خوفا من تغلب رغبة «واحد أو أكثر من الرجال» على متن القطار فيها وقد يغتصبونها في مقصورتها. وفي الوقت الذي وصل فيه القطار لمحيط باريس الخارجي، خلعت حجابها - رمزيا وعمليا - وبدأت تحيا حياة المرأة المستقلة المتحررة كما تحياه نساء الغرب. لم يسلك آل نوسيمباوم الطريق البري ولكنهم استقلوا باخرة متجهة للساحل الأدرياتيكي لإيطاليا. كانت برلين الوجهة النهائية للاجئين الروس، وقررا أن يشقا طريقهما إلى أعلى يابسة الحذاء الإيطالي كما يبدو على الخرائط حيث «أوروبا الحقيقية»، ثم يتركان خياراتهما مفتوحة بعد ذلك. كانت الحشود الكبيرة من اللاجئين والفارين اليائسة من الانتقال من القسطنطينية إلى أي ميناء أوربي بأسرع ما يمكنهم، قد أستبدلوا مسارات الانتقالات الممتعة السابقة بين أوربا والمشرق بأي مسارات أخرى مهما كانت مشقتها للوصول إلى أوروبا. كثير من البحارة الإيطاليين باعوا مساحات صغيرة في قمراتهم لمسافرين لا يستطيعون دفع ثمن تذكرة السفر العادية، ولكن آل نوسيمباوم ابتاعا قمرة رسمية.

وعودة إلى متن منفى عائم جديد، أجتاحت ليف حمى الحنين لـ«الشرق» كما خبرها بالكاد في القسطنطينية. كانت عواطفه ومشاعره مع السلطان وبلاطه وحاشيته. بدت له كمؤسسة كبيرة هائلة - مؤسسة

السلطنة، مؤسسة الخلافة - وكان هناك شيء ما في المساجد وبازارات العاصمة الإسلامية العظمى تجعل ليف يشعر كما لو كان قد وجد أخيرا هدفه وغايته من الحياة. في الوقت الذي كان يرتحل فيه إلى الغرب، مرتديا بذته الأوربية، كان يقينه يزداد بأنه لا يهمه كيف يبدو في نظر الناس في الخارج ولا ما يمكن أن يقال عن جواز سفره الجورجي، ففي داخله كان يرى في نفسه رجلا من الشرق، مملكة العظمة الضائعة والغموض الشرقي. بدأت تروق له فكرة روح الإسلام الكلية الجامعة والتي من شأنها أن تحفظ كل شيء من الفوضى الثورية. كل الثوار وكل الحركات السياسية الانفعالية - وفي الحقيقة، كل السياسات الحديثة - كانت تثير اشمئزازه وتزعجه. لذلك سعى إلى التقهقر إلى مؤسسات مستديمة تكمن أسسها الراسخة في الماضي البعيد.

كانت الملكية والحكم الفردي ولو كان استبداديا تحظى بقبول متميز عنده. كان وعيه قد كبر وتكون في مكان وزمان كانت فيه الدينامية على النمط الأميركي تنتعش وتزدهر تحت أقسى نظام رجعي استبدادي. وبالرغم من العداء الشديد للسامية الذي اتسم به النظام القيصري الروسي، إلا أن ليف قد نشأ بميول غريبة نحو ما حلم به عما يمكن أن تكون عليه الملكية أكثر مما هي عليه في واقعها الفعلي. وبشكل ما، فإن ما أراده ليف من الملكية لم يكن يختلف كثيرا عما يريده الأميركي المعاصر من الديمقراطية الليبرالية: وهو الحق في أن يترك المرء لشأنه. كان ليف في أعماقه محافظا، بالمعنى الليبرالي العتيق للمصطلح. وأن تكون محافظا يمكن أن يكون شيئا صعبا على يهودي في أوربا - حيث كان النظام القديم يفضل في الغالب الطغيان والاستبداد والاضطهاد. غير أنه بالنسبة لأبناء الامبراطوريات العظمى في القرن العشرين، كان الشكل الخارجي للنظ الملكية يزداد جاذبية.

حين فاز وودرو ويلسون بالرئاسة الأمريكية عام ١٩١٨ برؤيته للشخصية الإمبريالية التي تتلاشى وتنهار لصالح «تقرير المصير» القومي، وثبت الأمم المتطلعة للحرية والتي كانت خاضعة للإمبراطوريتين، العثمانية والنمساوية تحت حكم عائلة هابزبورغ نحو الفرصة - كما وثبت على أعناق بعضها بعضا. وأطلق انتهاء النظام الامبراطوري في أوربا والشرق الأدنى أرتالا من أعمال القتل عبر كل القارة. في تلك الأصقاع نعى عدد قليل من اليهود الأباطرة الذين فقدوا والذين حافظوا على الحياة متحضرة وآمنة نسبيا. ويشبه ذلك كثيرا امبراطورية هابزبورغ، أكثر الامبراطوريات تسامحا من الامبراطوريات العظمى والتي انهارت نتيجة للحرب العالمية الأولى، كما أصبحت الامبراطورية العثمانية أخيرا فيدراليات غير متماسكة من عشرات الجماعات العرقية التي أجبرت على الحياة في تناغم وتناسق نسبي بخضوعهم للسلطة الإمبراطورية العثمانية.

عشرات من القوميات المسيحية لم تتخلف عن انتهاز فرصة سقوط البيوت الأمبراطورية: فقد عرفوا على وجه الدقة ما الذي سيفعلونه حين يهيمنون على منطقة أسلافهم على الخرائط. ولم يكن لدى اليهود أي إشارة أو دليل عما سيحل بهم بمجرد أن تنهار الملكيات القديمة، غير أنهم خمنوا أن ما سيحل بهم لن يكون جيدا. لقد كانوا الجماعة الوحيدة، هم والغجر، الذين لا يمكن لهم ادعاء حق منطقة من الأرض كحق موروث لهم عن أسلافهم[1]،

---

(١) كانت فلسطين ولاية عثمانية، غير أن يهود الامبراطورية العثمانية لم يكن لديهم ارتباط عملي وفعلي بها حيث كانوا متركزين في القسطنطينية، وسميرنا، وبغداد؛ أما المشروع الصهيوني فقد كان حلما لدى يهود أوربا وروسيا.

لذلك ساند اليهود كل من امبراطورتي هابزبورغ والعثمانية حتى النهاية، بل وحتى لما بعد النهاية، فقد ظل كثير منهم يحمل مشعل الملكية متعددة الأعراق.

سوف يكتب ليف: «من يوم اعتقال القيصر، أصبحت ملكيا راسخا. كان ذلك في البداية لأسباب عاطفية، كان ناجما عن التعاطف مع العظمة المنهارة، ثم أصبح يزداد مع نمو الوعي الموضوعي». وكان مثل ذلك الولاء نادرا بين اليهود الروس - رغم كل شيء، كان البلاط القيصري في بيترسبورغ يتحدث في الغالب بوضوح عن قتل وإبادة اليهود - هم وكل مواطني القوقاز، بغض النظر عن خلفياتهم كان لديهم مشاعر متضاربة حول البيت الإمبراطوري الروسي. لكن على الرغم من أنه سينضم عاجلا إلى من كانوا أغرب الداعمين للقيصرية الجديدة - الأوراسيين - طائفة الشباب الروس، تحت قيادة ضابط قيصري سابق نصف إيراني في باريس - لم يكن الميل المتنامي للولاء للملكية لدى ليف قاصرا على القيصر المنهار.

في وقت ما أثناء رحلته إلى إيطاليا، قرر ليف أن ينتحل شخصية عثمانية - في الوقت الذي كان فيه أي فرد آخر يرفضها، حتى من الأتراك ذاتهم. كان قد أصابه نوع من الحنين المفاجئ، بعد أن التقى بالحضارة والثقافة التي شعر بأنه ولد من أجلها، إلا أن الأوان كان قد تأخر كثيرا: له ولتلك الحضارة. لقد ظلت الامبراطورية العثمانية حية لما يربو عن نصف ألفية كاملة، والآن، بالكاد، في الوقت الذي ألقى به مصيره على سواحلها، كان كل شيء ينتهي ويضيع. ورغم ذلك، وجد ليف أن تعرفه المستجد على ما يهوى مريح له. كان يتحول إلى مؤمن بنوع من النظم الملكية من نسج خياله هو والذي كان خليطا من الميراث العثماني والقيصري وذلك الميراث لمملكة الخزر اليهودية

القديمة وعشائر الصليبين في خيفسوريا. لابد أنها كانت نظم ملكية تلك التي وجدت بين أوروبا وآسيا. كانت الهوية الجديدة التي تتشكل في عقله وتفكيره لها نسب وانتماء المحارب القوقازي، نصف فارسي، ونصف لا يدري كنهه. لن يصل إلى أوربا كيهودي مشرقي بلا بلد ينتمي إليه، بل يأتي إلى أوروبا بالقفطان العثماني، أو متى شاء، كقوقازي.

وسوف يخبرني ناعوم حيرمون في باريس: «لكي تفهم موقف ابن خالتي لابد لك أن تقرأ بوشكين. لقد قرأ ليفوشكا بوشكين، مثل كل الأولاد الروس المتعلمين. من كانوا أبطال كتب بوشكين؟ الجنود الروس والمحاربون القوقاز، الخزر! لم يكن بإمكان ليفوشكا أن يصبح ضابطا روسيا؛ فقد كان يهوديا. لذلك أصبح خزرياً».

مرَّت أغلب الرحلة إلى إيطاليا دون أحداث تذكر، غير أن ليف نزل يوما إلى الطبقات السفلى من الباخرة، مستكشفا الممرات التي اسودت من الدخان والبخار، يغمره الفضول لرؤية الأماكن التي يقيم بها بحارة الباخرة. مر بعدد من قمرات العاملين بالباخرة، ولم يجد بها ما يسترعي الانتباه. ثم سار في ممر معدني معتم ينتهي بباب على نافذته قضبان معدنية، وأطل برأسه داخل غرفة طويلة. بدت وكأنها غرفة طعام أو غرفة اجتماعات من الطاولة الطويلة والمقاعد من حولها. غير أن الحوائط لم تكن مزينة بالصور الإباحية للممثلات المفضلات لدى البحارة أو لفتيات راقصات. بدلا عن تلك الصور المعتادة كان على الحوائط صورا كبرى للينين وتروتسكي. رأى ليف أيضا شعارات بلشفية مثل تلك الشعارات التي ما زال يتذكرها من باكو، ولكنها كانت بالإيطالية.

عاد لسطح الباخرة وسأل بحارا عما رآه، وبالطبع ذكر له ما رآه من صور.

ورد البحار بفخر: «آه، هل رأيت سجن الباستيل الشيوعي بالأسفل؟».

قبل أن تصل الباخرة إلى الساحل، كان ليف يعتبر أن إيطاليا قضية خاسرة. فبالنسبة له، كانت غرفة البحارة السفلية علامة على أن العنف الثوري قد انتشر وامتد أسرع مما يمكن للمنفيين الفرار منه. (لم يكن وحده من يظن ذلك. ففي ذلك الوقت، كان تصدير الثورة إلى أوربا ما زال السياسة المعلنة للينين). حتى الجيش الروسي الأبيض المدعوم بقدرات الحلفاء البريطانيين والأميركيين، تراجع تراجعا جماعيا وفر إلى القسطنطينية مثل ليف، وأبراهام، وكل اللاجئين الآخرين.

بعد ثلاثة أيام من الإبحار، نزل الركاب في برينديزي بإيطاليا، وهو ميناء بجنوب البحر الأدرياتيكي. نزل ليف وأبوه من الباخرة، وراح «يحدق طويلا وبتركيز على كل من يمر به وهم سائرون. كانوا جميعا أوربيون... يسيرون في الطريق. أوربيون يجلسون في المقاهي، يأكلون ويشربون تماما كما يفعل الأوراسيون. إذن هذا هو العالم الآخر». كان ذلك في ربيع عام ١٩٢١. كان ليف مندهشا من أنهم بعد أن نزلوا من الباخرة لشوارع المدينة دون أن يروا «معارك شوارع ودون أن يسمعوا أي صراخ قتال». ولكنهما سرعان ما بدآ رحلتهما إلى روما، حيث عاودته المخاوف والقلق. انتقل هو وأبوه بشكل مؤقت إلى فندق في وسط المدينة. وكما حدث له في القسطنطينية وجد نفسه منجذبا للتاريخ المحيط به من كل اتجاه؛ ظلت روما على كل حال قائمة لقرون طويلة ضد البرابرة. غير أنه كان واقفا ذات بعد ظهيرة في

شارع «فيا فينيتو» مع لاجئ روسي آخر حين رأى طوابير من الشباب قادمين في تنظيم شبه عسكري في الطريق. كانوا يتحركون بخطوة عسكرية موحدة ويؤرجحون عصياً غليظة في أيديهم للأمام. وفيما هم يسيرون، كانوا ينشدون أناشيد ويصرخون بشعارات.

أيقن أنه بات واضحا أن الشيوعيين قد استولوا على روما. لابد وأنهم قد سيطروا على الجيش، والشرطة، والمنشآت والمباني الحكومية. كان بإمكان ليف أن يتخيل ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك: سيبدأ سوفيات روما بمصادرة الممتلكات واعتقال الخصوم. ستكوم الكتب في أكوام كبيرة لحرقها في الكوليزيوم. أمسك ليف بيد مرافقه بقوة وحاول جره بعيدا عن الطريق الذي تسير فيه طوابير الشباب. في مذكرات فراش الموت، يصف المشهد كما لو كان يكتب مسرحية، مسرحية تحتوي على عديد من عناصر الهزل:

> سأله مرافقه: «إلى أين تجرني؟».
>
> فقال ليف: «لحزم حقائبنا».
>
> سأله مرة ثانية: «لماذا؟».
>
> فقال: «ربما نتمكن من اللحاق بآخر قطار إلى فرنسا».
>
> فساله مندهشا: «ما الذي تقصده؟ لماذا؟».
>
> فقال ليف: «يا إله السماوات، ألا ترى... هكذا تبدأ الأمور دائما. البلاشفة. كان لدي حدس أن ذلك سيحدث منذ كنا على الباخرة. لقد انتهت إيطاليا. هذا البلد سيئ الحظ. لابد أن نهرب».

وراح الروسي يضحك بقوة كما لم ير ليف أحدا يضحك مثله من قبل.. ثم قال: «ولكن هؤلاء فاشيون».

راح ليف ينظر حوله بعصبية. فما الذي يهمه من الأسماء التي

يسمي بها الشيوعيون أنفسهم في إيطاليا؟ رأى أن مرافقه ليس إلا أحمق. لم يكن ليف قد سمع أبدا بكلمة «فاشيست» قبل ذلك. ولا حتى أوروبا كانت تعرف ذلك المصطلح قبل ذلك، كانت الكلمة مشتقة من كلمة فاشيس، والتي كانت تعني في روما القديمة حزمة من القضبان المعدنية عليها بلطة يحملها الحكام الرومان كرمز للسلطة؛ وكانت الفاشيو أو الحزمة، في إيطاليا الحديثة قد ظهرت في معجم المصطلحات المتداولة بمعنى التأكيد على تضامن «إخوة العمل» وللدفع بإيطاليا للدخول في الحرب العالمية الأولى. وبحلول عام ١٩١٩ كان موسوليني قد تبنى الشعار كشعار لحكومته الجديدة، وصاغ المصطلح ليصبح فاشيزمو بالإيطالية أو ما عرف بالفاشية عموما. كان شتاء ١٩٢٠-١٩٢١ أحرج أوقات نمو تلك الحركة الجديدة، وكانت المسيرة التي شهدها ليف واحدة من أول تحركات الظهور العلني للفاشيستية على مسرح الوطنية الإيطالية.

وبصبر، راح المنفي الروسي رفيق ليف يشرح له أن فهمه للفاشية متخلف تماما. وأن الشباب الذين يرتدون قمصانا سوداً يعلنون أنهم سوف ينقذون إيطاليا من خطر الشيوعية، لا فرضها على إيطاليا كما ظن ليف. كان الفاشيون يتبنون المحافظة على حرية الاستثمارات الخاصة والملكية الفردية، والمحافظة على كل القيم والتقاليد الأصيلة للبلاد.

راح ليف يتابع المسيرة المنظمة ببراعة وهي تمضي إلى نهاية شارع فيافينيتو. كل أعداء البلاشفة الذين كان قد التقى بهم قبل ذلك كانوا إما من بقايا النظام القديم، مثل ضباط الجيش القيصري أو رجال القبائل المسلمة، أو الوطنيين المعتدلين الليبراليين من أصدقاء أبيه. كانت جماعات التنظيمات الشبابية تبدو تقدمية وحداثية، وكانت كلها

موالية للحمر. غير أنه هنا في إيطاليا، كان الشباب هم الذين يقفون في مواجهة التهديد والخطر الشيوعي، وبدوا كقوة مؤثرة لابد من الاعتراف بها.

بعد ذلك بعدة ليال، شهد ليف مظاهرة فاشيستية أخرى. فقد كانت شائعة قد انتشرت بأن أحد قادة الحركة البلشفية المشهورين ستنزل بفندق مواجه للفندق الذي يقيم به ليف وأبوه. وفجأة في تلك الليلة أحاط بالفندق جموع غفيرة من الشباب الفاشيستيين راحت تهتف معا بصوت كالرعد: «إنزل، إنزل، إنزل»، فأطل ليف من نافذة غرفته وراح يهتف معهم بأعلى صوته: «إنزل، إنزل، إنزل».

> اعتراني شعور غريب. شعرت أني... متحد وملتحم بأولئك الشباب، أولئك الشباب الذين لا أعرف عنهم شيئا غير أنهم يدعون فاشيستيين وأنهم ضد البلاشفة. شعور داخلي دافئ من التضامن مع جماهير لا أفهم حتى لغتها ولا أفكارها فهي غريبة وأجنبية بالنسبة لي. لأول مرة ينتابني الشعور بأنني لست وحدي. ولم يدم ذلك الشعور سوى لحظات. ثم عدت للواقع المحيط بي: غرفة صغيرة بفندق، وحقائب لم تفرغ بعد من كل محتوياتها، وأبي القلق على مصيرنا - المرحلة الأولى من رحلة هجرتنا.

وفي أعوام تالية، سوف يصبح ازدراء المؤسسات المدنية والحقوق الفردية جانبا ومكونا جوهريا من التعريف الدولي للفاشية. ولكن في عام ١٩٢١، كان التدمير والتحطيم الكلي لكل ما هو قائم- بقدر ما عرف ليف، أو أغلب المراقبين الآخرين- حكرا على اليساريين الثوريين فقط. (بينما كان هناك آلاف لا تحصى ممن قتلوا على يد الشيكا، لم يصل عدد القتلى الكلي من القتال الناتج عن

الانقلاب الفاشيستي في إيطاليا في العام التالي إلى مئات، وما يزيد قليلا عن عشرة قتلوا في المسيرات في روما ذاتها). بالإضافة إلى رضى وموافقة ونستون تشرشل وجورج برنارد شو عن الحركة الفاشستية الإيطالية، وسوف تكتب الصحف الأمريكية من النيويورك تايمز حتى «كليفلاند المستثمر العادي» باعجاب عن ذكاء قيادة موسوليني والأهداف الإنسانية لحركته الفاشية. كما راح مقال نشر في «التايمز» يقارن بين موسوليني وقيصر ونابليون واستخلص أن مسيرات روما بالقمصان السود نجحت في «طرد السياسيين المضاربين كما طرد المسيح المرابين من الهيكل في القدس»، كتبه «والتر ليتل فيلد» أحد محرري التايمز، وتصدر المقال صورة لحكومة موسوليني. كان موسوليني قبل انخراطه في العمل السياسي صحافيا وكان يكن احتراما شديدا للكتاب ورجال الصحافة.

كانت الأجواء الإيجابية تعكس رأي المؤسسة الأمريكية بوجه عام. وكان موسوليني يقارن في ذلك الوقت بوجه عام بتيودور روزفلت، وترى الصحافة الأمريكية في القمصان السود أنها نوع من الجهاد الفاشيستي الشاق الساعي للإصلاح. وقام ويل روجرز برحلة حققت جماهيرية وانتشارا واسعا لإيطاليا للقاء موسوليني، أعلن بعدها: «الحكومة الديكتاتورية هي أفضل أنواع الحكومات... هذا لو توفر لها الديكتاتور الجيد». تبنت إدارة حكومة الجمهوريين في واشنطن موسوليني في عقد العشرينيات، وبمعاونة من جي. بي. مورجان رجل المال المعروف، ضخت الحكومة الأمريكية ملايين الدولارات لحكومة موسوليني الفاشستية على هيئة قروض وسلف. كانت العلاقة بين موسوليني والحزب الجمهوري الأميركي حميمة بشكل مخجل حتى أن سفير الرئيس الأميركي كوليدج لدى إيطاليا-

وكان ريتشارد واشبورن تشايلد - عاون في كتابة «السيرة الذاتية» لموسوليني، وهي بكل تأكيد واحدة من أعجب الأعمال التي قامت بها الدبلوماسية الأمريكية ومن اكثر الأعمال التي يعتم عليها عمدا في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية. ولا يقل عن ذلك إدهاشا ذهاب الصحافية الأمريكية الأشهر في ذلك الوقت إلى إيطاليا في عام ١٩٢٦، والتي اشتهرت بقضاء أغلب عمرها الصحافي في شيطنة روكفلر، وعادت إلى الولايات المتحدة بتقدير عميق «للتجربة الاجتماعية» لموسوليني.

كانت الولايات المتحدة وأوروبا في عشرينيات القرن العشرين تتعامل بهيستيريا خوفا من انتشار الثورة البلشفية من الاتحاد السوفياتي الجديد لهز ركائز الديموقراطيات الغربية. بدت الديمقراطية كتهديد عنيف معاد للبلشفية. في عام ١٩١٧، حين أطاحت الثورة بالقيصر نيقولا الثاني بلا دماء وعاد حكم القانون لروسيا، احتفلت الولايات المتحدة بالثورة الروسية، وشبهتها بثورة ١٧٧٦ الأمريكية. كانت واشنطن أول قوة عظمى تعترف بالديمقراطية الروسية الوليدة. غير أن ما بدأ أخلاقيا وسلميا في ثورة فبراير سرعان ما راح يقذف بويلات الإبادة والتدمير. كان الفهم الدقيق والصارم من جانب الليبراليين الروس للحقوق الدستورية على النمط الأميركي - والتي طبقت بطريقة أكثر نقاء مما كانت عليه في الولايات المتحدة في أي وقت - وحولت أكثر قوى الاستبداد تطرفا في العالم إلى أكثر الديقراطيات غلوا في ديمقراطيتها بين عشية وضحاها. وخلال ثمانية أشهر فقط من إعلان حكومة فبراير ١٩١٧ قيام حكومة دستورية في روسيا، قام البلاشفة بانقلاب، وفشل، ثم نجحوا في انقلاب تلاه. وبينما راح لينين يحشد مندوبيه، قاد تروتسكي هجوما وحشيا قاسيا بعربات مصفحة، ومدافع

رشاشة، وقوات من المدفعية على مكاتب إدارة الحكومة الديمقراطية الجديدة في القصر الشتوي.

وتلقى الغرب الرسالة. لم يكن المنظرون الدستوريون وأعضاء المجالس النيابية الأمريكية قد قاموا بما يتطلبه الأمر لهزيمة الحمر، بينما قامت حركة جديدة قوية على النمط الإيطالي بدت كالحليف الذي تحتاجه الديمقراطيات العالمية. في النهاية، بالطبع، ستكون النازية هي من لعبت دور التهديد الروسي، أي بالقضاء على الديمقراطيات الأوربية، ولكن حتى هنا، كان للشيوعيين يد في ذلك. في خريف عام ١٩٣٢ سوف تتحالف الشيوعية الألمانية مع النازية - وكانا يكرهان الديمقراطيات المعتدلة أكثر من كرههما لبعضهما البعض- لإسقاط حكومة جمهورية فايمار. وسوف يلعب ليف نوسيمباوم دورا بارزا بالمعاونة على تزويد الغرب بالمادة التي تزيد من مخاوفه من الشيوعية بكتابه الذي حقق أفضل الكتب مبيعا وكشف فيه عن حقيقة شخصية ستالين، ولينين، والبدايات المبكرة لتكوين كتائب الموت الشيوعية.

غير أنه في ربيع ١٩٢١ لم يمكث ليف وأبراهام طويلا في العاصمة الفاشستية روما. فقد استمرا في التنقل كما كان يفعل كل اللاجئين الروس، متجهين إلى باريس.

في العاصمة الفرنسية، كان ليف وأبيه مضطرين للمعيشة على «الأرواح الميتة». كان ذلك هو المصطلح المستخدم من قبل من يعيشون على تبادل الممتلكات الواقعة في الخارج - وربما في إشارة للرواية الشهيرة لجوجول. لم تكن الأرواح الميتة هنا إلا آبار النفط التي صادرها البلاشفة في باكو لا من ماتوا من عبيد الأرض كما في

رواية جوجول. ربما كانت بالفعل أرواحا ميتة، غير أن التجارة المنتعشة في تلك الآبار أبقت رجال النفط المنفيين مثل أبراهام أحياء في باريس. كانت المساومات على آبار النفط تلك تتم في المقاهي المترفة الواقعة في سان جيرمان دى بري. كان عملاء شركات ستاندارد أويل، والملكية الهولندية للنفط، والإنجليزية الفارسية للنفط هم المشترون الرئيسيون. كان يحضر تلك المساومات كونت انجليزي أو بارون لإحماء المساومات والمزايدات، وكان يحضرها أثرياء من تكساس أو من ينوب عنهم. كانت هزيمة جيش الجنرال رانجل الروسي الأبيض في خريف ١٩٢٠ بمثابة نهاية الحرب الأهلية في روسيا، غير أن النظام السوفياتي كان على أعتاب مرحلة من المجاعات والانهيار الاقتصادي، وبدا أن استمراره وبقاءه في السلطة في مهب الريح، أو موضع شك في أفضل الترجيحات.

كان أغلب الروس البيض فقراء، ولكن في تلك الأيام المبكرة، كان المهاجرون يعيشون حياة مترفة من حصيلة ممتلكات منقولة وغير منقولة للطبقة الثرية، إذا جاز التعبير: كان ما زال هناك عقود من الألماس لترهن، وملكيات يتم التفاوض حولها. لم تكن قد جاءت بعد الأيام التي سيصبح فيها كل بواب في برلين دوقاً روسياً سابقاً وكل سائق سيارة أجرة في باريس ضابطاً روسياً أبيض سابقاً - كما لم يكن العقيد تاكسوفيتش في رواية فلاديمير نابوكوف (الذي هاجر بعد ذلك إلى أميركا في رواية لوليتا) قد جاء بعد.

احتفظ أبراهام، بارون النفط القادم من باكو، في يده بورقة خاصة رابحة. كانت أوراق النقد الإمبراطورية الروسية بلا قيمة، كما كانت السندات المالية القيصرية قد أصبحت مجرد نفايات ورقية. غير أن الأعمال التي احتفظ بها رجال نفط باكو كانت ما تزال تبدو في نظر

الكثيرين مفتاحا لواحد من أعظم الكنوز الصناعية الدفينة والخفية في العالم. وكانت باريس هي المكان الأنسب لبيع تلك الأصول. كان السكر، والفحم، والصلب من الأصول والسلع التي يتم تداولها على طاولات أعمال المقاهي الباريسية - كانت كل السلع والموارد الروسية ما زلت موضع بيع وشراء في نوع من المعاملات اليائسة - غير أن آبار النفط القوقازية كانت في صدارة كل الأصول كالملك بين الرعية. كانت لعبة البيع والشراء تتأرجح بالطبع حول إن كان أي امرئ يرى أن البلشفية ليست إلا ظرفا طارئا في طريقه للزوال، وإن كانت كذلك، فلأي مدى ستستمر قبل زوالها. آمن المهاجرون الروس بكل خلجة في نفوسهم أن البلشفية ستهزم وتزول - لم يكن بإمكانهم مواجهة أي احتمال آخر- وكانوا ينقلون ما يعتقدونه بعاطفة متوهجة لكل من يعيرهم أذنه. أما الغربيون فقد كانوا أكثر تشاؤما، وعلى وجه التخصيص بعد مهانة إيواء جيش رانجل في البسفور في وقت مبكر من ذلك العام. غير أن ممانعة ومقاومة اللاجئين الأولية لبيع أصولهم التي يمتلكونها - سواء كانت تلك الممانعة ناتجة عن أمل في مستقبل مختلف أو عن عناد وطني - دفع رجال الأعمال الأجانب إلى الاعتقاد بأنهم قد وصلتهم أخبار إيجابية، أو أنهم يعرفون شيئا ما، وأن البلاشفة سيختفون عن قريب. وأدى ذلك بدوره لتنامي اهتمامات أجنبية تتلهف أكثر على الشراء، فيدفع ذلك القوقازيين إلى مزيد من الحرص والممانعة، مما كان يدفع بدوره الأسعار في سوق بيع وشراء الأصول الروسية إلى الصعود المستمر.

لم تكن باريس قد أصبحت بعد عاصمة المهاجرين الروس في عام ١٩٢١. ولكن في حدود ذلك الوقت، كانت القسطنطينية ما زالت عاصمة المهاجرين الروس، لو أحصيت الأعداد الكلية، وكانت أعداد

كبيرة تمر منها مسرعة إلى برلين، بأسعارها المنخفضة إلى الحضيض، وإيجارات مساكنها المنخفضة، وحركة نشرها النشطة. كان المثقفون، وخاصة الكتاب، يندفعون جماعيا إلى برلين، حيث كانت المراسم وورش الفن تؤجر لهم كأماكن إقامة بأكوام من أوراق النقد الروسي التي فقدت قيمتها. أما القادة السابقون لصناعة النفط الروسية من أمثال أبراهام نوسيمباوم فقد اتجهوا إلى باريس لأنها كانت الأقرب لأسواق الغرب الكبرى. كانت برلين في ذلك الوقت مجرد حطام عاصمة خرجت مهزومة من الحرب العالمية الأولى، أما باريس فقد كانت عاصمة منتصرة. كانت وفود مؤتمر فيرساي للصلح مازالت تطمح للعودة إلى بلادها بعد بقائهم طويلا، وكذلك كانت حال بقية الجيوش الدولية.

أما بالنسبة لليف، الذي اعتاد الامبراطورية القيصرية الروسية والمجتمع الراقي الإسلامي، كان التواؤم مع البرجوازية الباريسية بالنسبة له مجرد تعليم اجتماعي، من المحتمل أنه كان مبتهجاً قليلا حين يتذكر اكتشافه في المترو من أن: «هناك أناساً يركبون في الدرجة الثانية وربما الثالثة... فيما سبق كنت مقتنعاً بأن الناس العاديين الذين يحيون حياة عادية وفي ظروف وأحوال عادية هم من يركبون بالدرجة الأولى». كان اللاجئون الأصليون - وهم بضعة آلاف من نبلاء النظام الفرنسي القديم الذين فروا من الثورة الفرنسية - هم من أضفوا على مصطلح «لاجئ» مفهوما متفائلا، لأنهم عادوا منتصرين في نهاية المطاف. غير أن لاجئي عام ١٩٢١ كانوا مختلفين، وكانوا يمثلون طبقات مختلفة واسعة المدى. لم يكن بإمكان أحد أن يحدد أعدادهم: قدر أحد خبراء السكان عام ١٩٢١ أعداد المهاجرين بـ ٢,٩٣٥,٦٠٠؛ أما الصليب الأحمر الأرميني فقد قدرهم

بـ ١,٩٦٣,٥٠٠ هاجروا بتلك الأوراق الملفقة، وكان أغلبها منتهي الصلاحية أو بلا قيمة قانونية.

خلقت الهجرات الجماعية من روسيا أول أزمة لاجئين في العصور الحديثة، وأسست أنماطا عديدة سيئة الحظ والتي سيكون لها آثارها على باقي القرن بأجمعه. كانت الهجرات الأوربية فيما سبق ذلك تعد صغيرة العدد ومحصورة في صفات محددة، وأغلبها ديني في طابعها، وناتج عن انشقاقات الطائفة البروتستانية، مثل انشقاق طائفة البيوريتانيين أو الهوجونوت. الهجرة الكبرى الوحيدة التي يمكن مقارنتها بهجرة الروس البيض في حجمها أو مغزاها كانت تلك الناجمة عن طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٢. في تلك الهجرة أيضا، كان العالم الذي استمر لقرون قد انهار وتحطم فجأة كحوادث «ارتطام السفن» وتحطمها المفاجئ كما يميل البيض إلى وصف حالتهم. وبالطبع، هناك سخرية تاريخية في أن الروس وجدوا أنفسهم في العصور الحديثة في وضع يعكس كمرآة ما حدث لليهود طوال ألف عام، فمع دخول القرن العشرين، كانت روسيا عاصمة عالم معاداة السامية.

كان تعبير الروس البيض يشير مع بداية ظهوره إلى جماعات الضباط من الجيش القيصري التي تشكلت مع بدايات عام ١٩١٧ للتصدي للثورة الديمقراطية التي أطاحت بنيقولا. وشمل التعبير أيضا جماعات متنوعة من المتعصبين الدينيين وعتاة الرجعيين، وكثير من تلك الجماعات كانت منخرطة مع جماعة «المئات السود» وهي جمعيات سرية لمعاداة السامية التي كانت تحث على إبادة اليهود وذبحهم كوسيلة فعالة لمناهضة توجهات التغريب (التمثل بالغرب) ومطالب الإصلاح. آمنت تلك الجماعات أن أعداءها ليست البلشفية

وحدها، بل الديمقراطية أيضا، ونظم الملكية الدستورية، وأي مطالبات بسلطات حكومية محدودة في المطلق، وأن ذلك بأجمعه ليس إلا نتاجا لمؤامرة يهودية - ماسونية عالمية تجتاح العالم من عام ١٧٨٩. (هناك نسخة أكثر إثارة ضمت لقائمة المتآمرين المغول والصينيين). غير أن هجرة الروس البيض ضمت أطيافا من الروس أوسع كثيرا من أولئك المتطرفين. واستولى البلاشفة على الحكومة الديمقراطية في روسيا، وعلى كل الأحزاب السياسية على وجه التقريب، بما فيها الأحزاب الاشتراكية، التي كانت تعارض البلشفية بشدة.

وأعطى تزعم الجنرال رانجل للجيش الروسي الجنوبي في بدايات ١٩٢٠ لمحة موجزة عما كان عليه أحسن ما كان في جعبة المناهضين للبلشفية. فعلى عكس كل القادة للروس البيض كان رانجل يعلو فوق كل احتمال للعتاب واللوم أو التوبيخ، وقد أعلن أن «غياب حكومة شرعية قوية وغياب الروح المطيعة للقوانين» قد جلب الدمار والخراب على قضية البيض. فحين أسس دولة الروس البيض قصيرة العمر في أوكرانيا وكريميا، أزاح عن عمد كل العناصر شديدة الرجعية وركز على توفير الأمن لكل الروس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية. ورغم ذلك نسيت كل الأفكار السياسية المدهشة والمرنة التي اتسمت ببعد النظر لرانجل. كان يضغط من خلال سلسلة من الإصلاحات الرئيسة التي تضمن الملكية الخاصة للفلاحين كما بدأ في إجراء إصلاحات جذرية في قطاع الزراعة. ونتيجة لسياساته الخلاقة، سعى كل روسي باحث على مأوى آمن إلى كريميا تحت ظل حكومته المؤقتة - الملكيون، والمناشفة، واليهود، والأوزبك، والأرمن، وكل من تمكن من التوجه إلى هناك - وحين كانت حكومته مجبرة على الرحيل

على متن البواخر والإبحار على متن كل ما يمكنه الطفو إلى القسطنطينية، ذهبت معه كل أطياف المجتمع العريضة. كان كثير من المواطنين الروس المتعلمين والمهنيين يغادرون روسيا من عام ١٩١٨، ولكن الأسطول الطافي لرانجل كان البداية الحقيقية للهجرة الكبرى واللجوء. كان أسطوله يمثل الآمال المحطمة للملايين: ولو لم يقم البلاشفة بإغلاق كل الحدود في عام ١٩٢١، ربما كان رقم الفارين واللاجئين قد ارتفع من خانة الملايين إلى خانة عشرات الملايين.

في كل مكان في باريس، كان ليف يشهد ظاهرة الحقائب التي لم يكتمل إفراغها من محتوياتها رمزا لحتمية العودة الوشيكة. كانت الأنخاب في الحانات بين السكارى الروس تبدأ بـ«أراك العام القادم في باكو» أو بتروغراد أو موسكو. سمحت أناقة وروعة باريس والبعد عما يحدث في روسيا للمهاجرين أن يصدقوا بسهولة أن الثورة المضادة قريبة، أقرب من زاوية الطريق المجاور. واستمروا في الإقامة في الفنادق الكبرى اعتمادا على صلابة وقوة ممتلكاتهم المرهونة، وعلى قناعة أنهم سيتمكنون عاجلا من المطالبة باستعادة ممتلكاتهم المشروعة بمجرد عودتهم للوطن.

وشجعهم إحساسهم بأن وضعهم الحالي ليس إلا وضعا مؤقتا ودفعهم إلى الالتصاق ببعضهم وعدم الاندماج في المجتمع الفرنسي. لم يكونوا مهاجرين حقيقيين بل لاجئون، ينشدون مأوى مؤقتا من الثورة، ومن الحروب، ومن السياسات التي أطاحت بهم. وبعدما تناولوا الكثير من الفودكا في حياة المقاهي والتسكع، سيقومون بإعادة تنظيم صفوفهم ويعودون للقتال. حاول بعض الضباط الذين كانوا

بجيش رانجل أن يحافظوا على توحدهم بعقد اجتماعات منتظمة في المشارب والمقاهي. ولكن لم ينجح بالفعل في التماسك معا إلا القوقازيون - فقد كانت التقاليد العسكرية لديهم تمتد إلى قرون سابقة وكانوا يتمسكون بهويتهم بقوة. ولكن، حتى القوزاق أنفسهم فقدوا شيئا ما في الترجمة، خاصة حين بدأوا بالتشرذم والتفكك. وتتذكر الكونتيسة اللاجئة ناتاليا سوماراكوف - إليستون: «كان يوجد حول مدينة «كان» الفرنسية كثير من القوزاق الذين امتلكوا مزارع دواجن بفرنسا، ولم يتعلموا في حياتهم اللغة الفرنسية»[١].

في ١٩٢١، أدى موت وإصابة ملايين الشباب الفرنسيين في الحرب وانتشار وباء الأنفلونزا إلى أول عجز كبير في القوى العاملة بفرنسا. كانت هناك حاجة ماسة لأيدي عاملة، للمناجم والمصانع على حد سواء، ولكن الاحتياج كان معدوما للمهنيين الذين كانوا نسبة غالبة بين اللاجئين أو ما يسمى بالمهن الحرة: الطب، والقانون، والتعليم. وبهذه الطريقة، كان اللاجئون الروس مثل اليهود الألمان

---

(١) في عام ١٩٢٦ قامت عصبة الأمم ومختلف الجمعيات الخيرية الفرنسية بتوجيه الدعوة لبعض رجال الجبال الروسية الذين لم يندمجوا في المجتمع الفرنسي للانتقال إلى أميركا الجنوبية. وظهرت إعلانات في الصحف والحانات الروسية تعلن عن أراضي في باراجواي، وبوليفيا وبيرو. واستجاب حوالي خمسمائة من القوقاز المقيمين في فرنسا لتلك العروض، ولكنهم عادوا بعد بضعة أشهر وحكوا حكايات كثيرة عن مقاومتهم للحيات والأفاعي، والخفافيش مصاصة الدماء، والبعوض. وكتب عقيد من القوزاق سلسلة من المقالات تحت عنوان: «لماذا عدت من باراجواي». وأوجز في نهايتها أنه يأمل في استعادة وظيفته كقائد سيارة أجرة. وأوصى مواطنيه بالهجرة إلى باراجواي فقط إن كان الاختيار البديل هو القفز من فوق كوبري أليكسندر الثالث - وكانت الطريقة المفضلة للمنتحرين من اللاجئين في باريس في فترة ما بين الحربين العالميتين.

الذين سيأتون بعدهم: أي مؤهلون تأهيلا أعلى كثيرا من الوظائف المطلوبة. ومثل جدي الوافد من هايدلبرج، سوف يجدون أنهم كالمصابين بالقوباء بين جيرانهم وهم يقولون عبارات فريدة وغريبة على جيرانهم مثل «علم نفس الطفل، وعلم الخطوط، وكل الحلقات العمرية» ليكتشفوا أنه لا يوجد أحد من جيرانهم لديه أدنى فهم عما يتكلمون عنه.

اختار الضباط السابقون في الجيش القيصري أن يعملوا سائقي سيارات أجرة أو سائقي سيارات خاصة من بين كل المهن لأنها توفر لهم حرية الحركة دون قيود، وفرصة لأن يكون حراً في توجيه حياته، وعلى أقل الأوجه، يرتدون زيا موحدا وجدوه مثيرا. وتتذكر كونتيسة لاجئة أن زملاءها الرجال الأرستقراطيين أصبحوا حرفيا رثي الملابس. قالت: «كان عمال النظافة الروس في مدينة كان مشهورين. فقد كانوا قبل ذلك يبدون في غاية الأناقة والعظمة وهم يرتدون أزياءهم العسكرية الروسية، كانوا محبوبين من الجميع. كنت أعرف سيدة إنجليزية تقطن أسفل عقيد روسي سابق وأصبح يعمل كعامل نظافة، واعتاد أن يعطيها نسخا من مجلة تاتلر (ثرثرة) كل أسبوع. فسألته: لماذا بحق الله يشتري مجلة تاتلر؟ فقال: «حتى أتابع مسار ومصير أصدقائي»». وذهب أبو الكونتيسة ليعمل في شركة الغاز والكهرباء. «كان صديقه البارون بريتويتز يعمل في تسجيل قراءة عدادات الغاز والكهرباء بالمنازل». وربما كان الوقت الوحيد الذي أحسوا فيه بالفعل أنهم كما لو كانوا بوطنهم خلال أسبوعين حين قامت شركة أفلام فرنسية بعمل نموذج لقرية قوقازية في الجبال المطلة على مدينة كان وعمل بالفيلم اللاجئون الروس كشخصيات ثانوية.

وللعمل في فرنسا، كان اللاجئون بحاجة للحصول على بطاقة

هوية لا غنى عنها للحصول على عمل، وكانت تصدر بألوان تقارب ألوان قوس قزح، رمادية- زرقاء للعمال؛ وصفراء للعمل بالزراعة؛ وبرتقالية للمقاولين والمتعهدين؛ وخضراء «للأعمال الحرة» مثل الطلاب ومن لا يعملون.[1]

أما بالنسبة لليف في عام ١٩٢١، فقد كانت باريس لحسن حظه تبدو له وكأنه يقضي عطلة، مهما كانت قصيرة. كان في السادسة عشر من عمره، وبقدر حظ أبوه في الصمود في حيازة أوراق «أرواحه الميتة»، كان مازال إبن المليونير. ولكن في الوقت الذي كان فيه أبوه أبراهام يتابع تقلبات جداول سوق المال، كان هو يتابع الإعلانات المبوبة في الصحف، ليتظاهر بأنه يقوم بعمل مفيد له علاقة بعالم الأعمال. كان يجري بأصبعه على الإعلانات المعنونة بعنوان «مطلوب»، ويخط بالقلم دوائر على العناوين ذات الأسماء المعروفة، خاصة تلك التي لها أسماء تاريخية أو أسطورية. ثم يركب سيارة أجرة لمكان ما، كما لو كان ذاهبا لمقابلة عمل. وبمجرد أن يبتعد ينزل من السيارة ويسير في الطريق جيئة وذهابا. قال عن ذلك: «كنت أحيانا أركب سيارة أجرة وأعطي السائق اسم الشارع ورقم المبنى وأتركه يأخذني للمكان ثم أقف أمام المبنى وأقول لنفسي: إذن هذا هو شارع بونابارت في باريس، وأشعر بسعادة كبيرة بالقيام بذلك».

---

(١) كانت بطاقة الهوية الفرنسية، من الوثائق المهمة جدا والمتخصصة، وكانت بالفعل مكونة من تسعة عشر صفحة مملوءة بالتفاصيل عن حياة حاملها وأصوله وتاريخه، وتشمل كل المعلومات التي قد تحتاجها الشرطة الفرنسية وسوف تستغلها بالفعل بعد ذلك بعشرين عاما للم شمل اليهود. وعدا بطاقة الهوية، كان اللاجئ بحاجة أيضا لإذن خاص من الشرطة المحلية للعمل - بطاقة «أفي فافورابل» والتي أصبح الحصول عليها يزداد صعوبة.

ولكن بالرغم من إحساسه العميق بالارتياح من أنه أصبح بعيدا عن الخطر وأنه بشكل ما خلي البال من المشاغل والهموم، لم يكن يشعر بسعادة حقيقية. فعلى الرغم من أن المدينة كانت مليئة بكثير من القوقازيين الآخرين اللاجئين، بمن فيهم من أقارب له، إلا أنه لم يكن يخالطهم. فبعد كل الإثارة والمخاطر التي لقيها في حياته المبكرة، كان يتعثر في باريس شارد الذهن وسرعان ما أصبح معزولا بين طبقة اللاجئين المترفين (وحتى في ذلك الوضع، وكما لاحظ بأسى: «من ولد بقطار يصعب أن يشعر براحة في فندق»):

> لا أدري لماذا، ولكن على الرغم من أني في باريس وأخرج بالطبع دون حرس مدججاً بالسلاح ووحيداً تماما، إلا أنني لم استفد من تلك الحرية ولم أستغللها في أي شيء مفيد على الإطلاق. فبينما كان أبي مندمجاً ومنخرطاً مع لاجئين من كل مكان، كنت أنا بالرغم من حريتي الجديدة وحيدا تماما على الدوام. لم أحب على وجه التخصيص أياً من الناس الجدد الذين تعرفت إليهم، ومن الواضح أيضا أنني لم ألفت انتباه أي منهم أيضا.

في ذلك التوقيت بدأ أقاربه يلاحظون دون شك أن ليف الشاب غريب بشكل ما. لم يكن يقبل أبدا دعواتهم له للذهاب بصحبتهم إلى السينما، أو للمسرح، أو للمتاحف. وحين يتمكنون من استدراجه لمناسبة ما، كان يجلس صامتا محملقا في الفراغ، ويبدو متوترا وغير مستريح. وباعترافه هو ذاته، كانت عائلته تعتبره معتوها.

وعلى الرغم من ذلك كان يستمتع بالجلوس على مقعد في الحدائق العامة ويتأمل الباريسيات الطويلات الرشيقات بجواربهن الحريرية الخالصة. أحس بأجواء الحداثة والمعاصرة. ولكن حين كان يعمد

بالفعل لمقابلة فتاة من عمره، وكنَّ في الغالب من بنات مواطنيه المهاجرين، كان يفقد كليا القدرة على التحدث معها، وسجل في مذكراته: «قضيت ذات مرة ساعة كاملة مع واحدة من أجمل البنات المهاجرات، لم أنطق خلالها بكلمة واحدة، جلسنا وحدنا في غرفة واحدة معا. خلال كل تلك الساعة بأجمعها جلست أقرأ صحيفة». غير مجترئ أن تمر بذهنه أفكار «مدنسة» عن النساء اللاتي رآهن بالطريق، قرر ليف أن سيقانهن الحريرية ذكرته بـ«مآذن مساجد» اسطنبول.

وليس من الصعب تخيل أن ليف فشل أن يجد المشاعر التي كان يجدها في بيته في الوطن عند أقاربه الباريسيين - فعلى سبيل المثال، كان أبناء أخواله الأثرياء من عائلة لايتز لأمه، الذين كانوا تحولوا للأرثوذوكسية الروسية في تسعينيات القرن التاسع عشر (ربما عكس ذلك تطلعات ليف وتحويله لأمه لاحقا إلى ارستقراطية روسية أصيلة). كانوا يقطنون فندقا كبيرا في شارع شانزليزيه. أحد شباب عائلة لايتز كان قد خدم في سلاح الفرسان بجيش القيصر وكان بالفعل قد مر بالقسطنطينية كعضو في جيش رانجل الأبيض، لا كمدني. وكانت واحدة من بنات خالات ليف تعيش في باريس من قبل الحرب، وكانت مرشدة لباقي العائلة في استقدامهم لباريس.

ولكن «من بين عشرات الأقارب» كما سيخبر ليف بيما بعد ذلك، «كانت هناك واحدة فقط أحببتها وأحبتني. إنها تامارا وكانت متزوجة من رجل إيطالي الجنسية. كانت الوحيدة من بين كل أبناء العشيرة التي لم تكن غنية. وسوف يبدو ذلك غريبا جدا، ولكني لم أكن على بينة إن كانت خالتي أو شقيقتي. كانت تكبرني بأعوام قليلة. ترعرعنا معا. في بعض الأوقات كانت شقيقتي، وفي أوقات أخرى خالتي. كان أبي يقول شيئاً ما أحيانا، وفي أحيان أخرى يقول غيره».

كانت تامارا في حقيقة الأمر خالة ليف - الشقيقة الصغرى لأمه بيرتا، ولم تكن أكبر كثيرا من ليف حين جاءت لتقيم معهم في بيتهم في باكو. وكان «الإيطالي» الذي تزوجت منه ليس إلا لاجئا روسيا يهوديا، وكان حسن الحظ حين واتته الفرصة للحصول على الجنسية الإيطالية وهو في القسطنطينية. كان شيئا متميزا لمواطن روسي أن يحصل على الجنسية الإيطالية في عام ١٩٢٠؛ كانت أغلب بلاد قوات التحالف المحتلة للقسطنطينية لا تقدم أبدا جنسيتها للاجئين الروس، على الرغم من نجاح بعض ضباط جيش رانجل في الحصول عليها. بعد ذلك بعشرين عاما، سوف تؤدي نزوات المصائر تلك إلى إنقاذ حياة تامارا، وزوجها، وابنهما نعوم من الإعدام في غرف الغاز.

حين التقيت بنعوم حيرمون في باريس، كان شبهه بصور ليف مذهلا. بعد كل تلك الأعوام التي قضيتها في جمع شذرات قصة حياة ليف من المراسلات والمذكرات وفي بعض الأحيان من ملفات الشرطة في بعض الدول، بدأت أشعر على وجه التقريب أني الوحيد من عائلته. وكان صادما لي أن التقي بواحد مثل صورته في مرآة رغم كبر سنه، كان الوجه متميزاً جدا، بأنف بارز وابتسامة ملغزة لابد أنها موروثة عن الجانب الأمومي للعائلة.

تحدثت أنا ونعوم لساعات وشاهدنا معا صورا فوتوغرافية قديمة. لم تكن لخيبة أملي توجد صورة بين تلك الصور لأم ليف، ولكن كانت توجد كثير من الصور لشقيقتها تامارا، أم نعوم. (ووجدت هناك من جديد، تلك الطلة - كان الوجه نسائيا ملائما لسيدة، بتلك المسحة الأنثوية التي كانت تبدو على وجه ليف كما رأيتها من خلال صوره). لم يكن نعوم قد ذهب بنفسه إلى باكو أبدا، ولكنه كان قد سمع عنها كثيرا من الحكايات من أمه. كانت باكو تجربة غريبة لفتاة

في العاشرة من عمرها قادمة لتوها من قرية يهودية صغيرة بمنطقة إقامة اليهود الإجبارية بالبلطيق، وتحيا تحت سقف شقيقتها «الثورية» وزوجها المليونير. وبعد أن قتلت بيرتا نفسها ثم بدأت باكو تتمزق تحت وطأة الاضطرابات السياسية، أصبحت الحياة عسيرة وصعبة. ويتذكر نعوم أمه وهي تقول إنه أثناء الاضطرابات الأرمينية - الأذربيجانية، قدم أبراهام بيته للأرمينيين الذين كانوا يتعرضون لهجمات الإبادة. كانت تامارا ماتزال تتذكر وجوه الأرمينيين المليئة بالرعب الذين جاءوا يبحثون عن مأوى آمن من غوغاء المسلمين. غير أنها تتذكر أيضا المسلمين الذين جاءوا يبحثون عن مأوى آمن أيضا من غوغاء الأرمن. قال نعوم: «وجهة النظر كانت تنحصر في أنه طالما كان بيت نوسيبوم بيتا يهوديا، فقد كان يعد بيتا محايدا، لقد تركوا البيت اليهودي في حاله، بغض النظر عن أي جانب كان سبب الاضطرابات والفوضى. كان بإمكان السيد نوسيمباوم أن يقدم المأوى لأي إنسان بحاجة لمأوى وحماية».

تناقشنا حول بعض من كتب ليف، وأعرب نعوم عن تشككه حول الذات الإسلامية الأخرى لليف في روايته «علي ونينو». قال إنه وجد صورة العلاقة العرقية والثقافية في الرواية «رومانسية نوعا ما.. وربما كانت هذه فكرة ليوفشكا (ليف) وكيفية تفكيره عما كانت عليه باكو القديمة». وتذكر نعوم أن أمه حين كانت في دائرة اللاجئين القوقازيين في باريس - فقد خرجت أمه من باكو عام ١٩١٩ وتزوجت في القسطنطينية - كان والداه صديقين للمغنية الأولى في دار أوبرا باكو وزوجها الذي كان هو الآخر مغنيا مشهورا. وكانت «بريما دونا» أوبرا باكو يهودية، أما زوجها فكان أرمينياً، ويتذكر نعوم: «ولكن بيتهما كان ملتقى اجتماعياً رئيسياً لكل القوقازيين، ولكثير من اللاجئين أيضا، كل

عام وفي ذكرى مولد البريما دونا، كانت تقام حفلة، يحضرها أشهر عازفي البيانو في باريس، ومغني الأوبرا، ومطربي باريس. . . وكان آل جوكوسوف مشهورين جدا في دائرة هجرة باريس». وكانت تامارا واحدة من المهاجرين النادرين الذين كانت الهجرة بالنسبة لهم الحال الأسعد من الحياة في الإمبراطورية الروسية. كانت متزوجة، وعلى الرغم من أنها وزوجها لم يكونا على حالة من اليسر مقارنة بأقارب ليف الآخرين، عاشت هي وزوجها في فندق يطل على حديقة النباتات.

في ذلك الوقت حين كان ليف بين أقارب أمه في باريس، كان يفكر في طفولته. بدا له الأمر وكأنه هو وأبوه قد فرا من جحيم الثورة ولكنهما تركا خلفهما أمه. وبالطبع، كانت هي من تركهما قبل ذلك بأعوام. ولكن على نحو ما كان كل فرد من العائلة يراها كأنها ضحية الثورة. حاول ليف أن يسري عن أقاربه حول مصير أمه، فقد كان أبوه يحافظ بإصرار على صمته حول هذا الموضوع. كانت تامارا تعيش معهم بالقصر في باكو عندما ماتت بيرتا، وأخبرت ابنها نعوم بعد وقت طويل أن بيرتا ماتت منتحرة بعد أن تجرعت كمية من حامض كيميائي، ولكنها لم تتحدث عن ذلك أبدا مع ابن اختها الذي كان في السادسة عشرة من عمره حين التقى بها في باريس. ومن المحتمل أن ذلك كان من حسن حظه، غير أنه استحوذت عليه فكرة أن لا أحد يريد أن يتحدث عنها معه. ويتذكر ليف أن: «الأمراء الأربعة في باريس (كما كان يطلق على أبناء خالاته الأثرياء في شانزليزيه) كانوا مثل كتل من جليد في هذا الشأن. وحين تثار سيرة أمي، كانوا يتطلعون في انشغال مصطنع نحو النافذة ويتحدثون عن الطقس».

لابد أن أباه كان يعرف الحقيقة غير أنه لم يخبره بها أبدا. لقد كانت الحقيقة أكبر من قدرته على احتمال مناقشتها، أو ربما كان

يشعر بأنه مسؤول عما حدث لزوجه بشكل ما. كثيرا ما كان أبراهام يحلم بزوجه الأخيرة، وكان ليف يعرف ذلك. ولكن ليف ذاته لم يحلم بأمه أبدا.

بحلول عام ١٩٢١، بدأت النقاشات الجادة حول مستقبل ليف. فقد بدأ أبوه وكل أقاربه يفكرون في أمر تعليم ليف، ولأسباب لم يتم الإفصاح عنها أبدا، وقفوا جميعا ضد أوضح وأيسر فكرة للتعلم - وهي فكرة التحاق ليف بمدرسة ثانوية فرنسية رغم وجوده في باريس. لم يستمع أبراهام نوسيمباوم على وجه التخصيص لذلك الاقتراح، وربما كان ذلك يرجع في جانب منه، بسبب تأثير باريس على ابنه كما رأى ذلك بنفسه. رأى أن «الولد» يجب أن يذهب للخارج ليتعلم في دولة «جادة».

أول الاختيارات التي بحثت كانت انجلترا. ففي كل مناطق ودول الشرق، كان التعليم الانجليزي يعتبر قمة وذروة ما يمكن لأب أن يقدمه لابنه. تذكر ليف منطق أقاربه الأثرياء في هذا الشأن: «لابد أن يكون التعليم الانجليزي جيدا، لأنه رغم كل شيء، فالإنجليز يحكمون العالم».

كان فلاديمير نابوكوف الأب قد ارسل ابنه ليتعلم في مدرسة انجليزية في انجلترا. ولكن أقارب ليف راحوا يتساءلون: «ولد في السادسة عشرة من عمره من باكو، لم ير في حياته أبدا هطول جليد حقيقي، يقدر على مثل تلك الظروف القاسية التي تيبس الأعضاء». بالإضافة لذلك، لم يهتم أبراهام نوسيمباوم أبدا بالانجليز - فقد كان يلقي عليهم باللوم جزئيا في هزيمة الامبراطورية العثمانية وتمزيق أوصالها، أو من المحتمل أن ذلك كان يرجع كما خمن نعوم وهو

يحكي لي، لبعض النزاعات حول اتفاق نفطي. (عدا الهولنديين والنبلاء، كان الانجليز منافسين جادين جدا على النفط القوقازي).

غير أن شيئا مغايرا تماما لكل تلك الأسباب حسم القرار، على الأقل كما يتذكره ليف. فقد كان أحد وجهاء باكو قد بعث بابنه وهو في الثانية عشرة من عمره إلى انجلترا في بداية الحرب ليتعلم هناك. وفصلتهما الحرب والثورة الروسية من الالتقاء لسبعة أعوام، وفي عام ١٩٢١، التقى الشاب بأبيه أخيرا في باريس، كان قد كبر ونال تعليما انجليزيا كاملا. ويذكر ليف في مذكراته: «كان الفضول العام كبيرا؛ وكان أكبر منه مشاعر الفخر الأولية للأب بابنه الذي تعلم في انجلترا». وتحول فضول العائلة وفخر الأب بابنه بسرعة إلى فزع، فقد اتضح قياسا على قيم باكو القديمة أن الإبن قد أصبح أبله وأحمق. كان قد نسي اللغة الروسية ولغته الأم الأذربيجانية، واحتاج الأب إلى مترجم ليتحدث مع ابنه. كان الإبن يدعى جوزيف، وأصر على أن ينادوه بـ«جو» وكان ينفجر ضاحكا كلما خاطبه أحد باسمه الحقيقي. ويتذكر ليف: «مع أن جوزيف أو «جو» كان جم التواضع وجيد التربية»:

> ما قاله كان يفوق الغرابة. تحدث بجد عميق عن كرة القدم وسباق الخيل، لكنه كان يصمت حين يسأل عن أي شيء خارج إطار تلك التفاهات. وعلى الرغم من ذلك، حين يريد أحدهم أن يعرف رأيه عن البلشفية أو عن الحرب ومثل تلك الأمور، كان يظهر وجهات نظر تماثل تلك التي يمكن أن تكون لدى غلام في الخامسة من عمره، وعدا كل ذلك، كان يلبس ملابس غريبة وعلى طرز غير معروفة، ويثير لديك انطباع بأن سرواله... بشكل ما يلامس ياقته.

وحيث إن جوزيف كان ماهرا وذكيا وهو طفل، استنتج كل أبناء باكو اللاجئين أن تلك الكارثة لابد أن تكون ناتجة عن تعليمه الإنجليزي.

كانت تجربة واحدة مع شاب كافية لجعل ابراهام نوسيمباوم ينحي نهائيا فكرة إكمال ابنه تعليمه في انجلترا (على الرغم من أنه بدا من غير الملائم أن مثل ذلك القرار الهام يمكن الاسترشاد فيه بدليل مثل ذلك الدليل، فإن أي واحد منحدر من عائلة من اللاجئين كان بإمكانه إدراك ميول إبراهام. من بين أقاربي «اللاجئين»، كان لدي انطباع أن التجربة العملية للاجئين تضيق طبقا لمصادر دخلهم وفرص العمل المتاحة، مع تزايد خوفه من الإخفاق في تلك الحياة الجديدة، وتبني حكايات رفاق اللجوء آثارا غير موضوعية. ولو فشل واحد من أبناء اللاجئين في مسعى ما؛ كان ذلك الفشل يتحول إلى درس لدى جميع اللاجئين: فهذا السعي أدى لفشل وهزيمة! تجنب هذا وجرب غيره!). وهكذا تم إقصاء احتمالي التعلم في فرنسا وانجلترا. وراح ابراهام يتطلع من حوله باحثا عن بلد آخر يبعث بليف إليه ليكمل تعليمه.

وكما تبت الأقدار في المصائر، وصل أحد الأعمام من الذين كانوا قد تعلموا في ألمانيا إلى باريس في ذلك الوقت. ولم يأل ذلك العم جهدا في المدح والإشادة بمدرسة ثانوية تلقى فيها تعليمه، تقع في واحدة من تلك الجزر الصغيرة الكثيرة من ساحل بحر الشمال، ولا تبعد كثيرا عن هامبورغ. وأبهر ذلك القريب ابراهام وأقاربه وانتشوا بالوصف الذي سمعوه من ذلك العم عن ذلك النوع من التعليم، وتلك المثاليات الرفيعة والانضباط العالي الذي تلتزم به تلك المدرسة. كان أبناء النبلاء الروس يذهبون إلى ألمانيا للدراسة، وكان

اليهود الروس تحديدا يضعون التعليم الألماني في ذرى عالية فوق أي تعليم آخر. بعض الأعوام من تعليم الفضائل والثقافة الألمانية قد تكون هي المطلوبة تماما. فكر ابراهام، ووافق الأقارب. كان ليف يتحدث الألمانية بطلاقة بفضل مربيته أليس، وكانت ألمانيا تعج بالروس الذين كانوا، مثل ذلك العم، مهووسين بالتعليم والثقافة والحياة الألمانية.

وكان هناك أيضا أمر المال، وكان قد أصبح «أكثر ضيقا على الرغم من التجارة في الأرواح الميتة والمعونات المالية التي يهبها أقاربي لبعضهم بعضا». كان التعليم في انجلترا ذا تكلفة عالية جدا كما كان التعليم في فرنسا خارج إطار المقارنات، بينما كانت تكاليف التعليم في ألمانيا أرخص. وتقرر الأمر. لم يعد هناك حاجة إلى مزيد من النقاش، وبكل تأكيد لم تكن هناك حاجة لاستشارة الولد الذي يبتون في مصير تعليمه. وافق أقارب ليف على وجوب مغادرة ليف لباريس في أقرب وقت ليتوجه إلى بحر الشمال، ولقي ذلك القرار ترحيبا جماعيا.

وفي الإعداد للرحلة، قال ليف إنه اشترى شيئا واحدا جديدا: نظارة بعين واحدة، وكما كتب لاحقا في مذكرات فراش الموت: «كنت مقتنعا تماما أن نظارة العين الواحدة في ألمانيا من مستلزمات الرجال المحترمين مثل مظلة المطر في انجلترا». وظل يتدرب على إغلاق عين وفتح أخرى ليتمكن من التحكم في تثبيت النظارة على عينه، ومرة أخرى، كان ليف مع أبيه على طريق جديد آخر، ولكنه في تلك المرة كان مسافرا في مقصورة نوم بالقطار المتجه شرقا من باريس إلى ألمانيا. وكان قرارا مصيريا لهما معا.

القسم الثاني



برلين، ١٩١٩

الفصل السابع

الثورة الألمانية

فيما كانا يعبران الحدود الفرنسية إلى ألمانيا في أواخر ربيع عام ١٩٢١، كان ليف يدير نظارته بعصبية بين أصابعه. لم يكن يفكر إلا في شيء واحد وهو يتطلع بنظره إلى الأراضي الرمادية اللانهائية التي كانت من أعوام قليلة سابقة ساحة هائلة لحروب خنادق: كان يفكر بالثورة! كان بالكاد قد فر من واحدة، وبدا الأمر الآن أنهم يقفزون ثانية إلى قلب ثورة أخرى. هل هم معتوهون؟ كثير من الروس قالوا إن ألمانيا هي قلب الثورة - بل أشد ثورية حتى من روسيا ذاتها. كانت الثورة الألمانية تستحوذ على أفكار ليف منذ أن اتخذت عائلته قرار إتمام تعليمه في ألمانيا. كان يواسي نفسه في خواطره قائلا: «يمكنني الرحيل إن ساءت الأمور. هي ليست ثورتي، وليست بلادي». ولكن رغم ذلك، كانت الأخبار التي ترد من ألمانيا تبقيه متوترا وعصبيا.

كان خوف ليف من الثورات قد تحول إلى نوع من الهيستيريا، وكانت تلك المخاوف ترجع إلى تلك المشاهد التي رآها في باكو قبل هروبهم منها. ولكن الأمر كان يتحول إلى هيستيريا أيضا عند محاولة فهم وإدراك ما كان يحدث في تلك الأعوام - الأعصاب العارية

للمعنويات والتي بدونها يدع الناس العاديون الإشارات المنذرة بالسوء تمر دون توقف عندها كما لو كانت أنباء أسبوع سيئ آخر. كانت ثورة عنيفة قد اندلعت في ألمانيا على مدى يزيد عن عامين، وظلت بشكل ما غامضة من وجهات النظر العالمية بسبب دوامات من التغيرات التي تحدث في جميع أنحاء العالم: انتصار النموذج السوفياتي وفرار الروس البيض؛ انهيار الامبراطورية العثمانية وما خلفه من حرب أهلية في تركيا؛ معاهدة فيرساي، انهيار امبراطورية آل هابزبورغ النمساوية - المجرية وما تمخض عنه من ظهور عشرات الدول الجديدة والتحالفات في أنحاء أوروبا؛ وباء الأنفلونزا الذي كان يحصد عشرات آلاف الأرواح كل أسبوع في جميع أنحاء أوروبا، وآسيا، وأميركا. كل تلك الأحداث الجسيمة كانت تستحوذ على انتباه العالم بعيدا عن الثورة الألمانية.

كان يمكن لمربيته الألمانية السيدة شولته أن تريحه وتهدئ من مخاوفه، وتحكي له حكايات عن ألمانيا كما كانت تفعل وهو طفل، غير أنها لم تكن هناك في ذلك الوقت - ترى أين هي الآن؟ ربما محشورة يعلم الله في مكان ما بين باكو والبلقان. جنسيتها الألمانية أبقتها في باكو، وربما تفيدها جنسيتها الآن لو التقت بعائلته من جديد. كان أبراهام قد علم ليف أن يعتز بالثقافة الألمانية وبالشعب الألماني. كان آل نوسيمباوم قد آووا أسرى حرب ألماناً أثناء حصار باكو، ووجد ليف وأبوه معا أن الضباط الألمان أناس مهذبون. غير أن أفكار ليف ظلت متعكرة وهو يقترب من الحدود الفاصلة بين فرنسا وألمانيا.

كانت الأحداث الأولية في التغيرات الثورية في ألمانيا وروسيا

متشابهة: كارثة في ميادين القتال أدت إلى تنازل إمبراطور واستبدال كل نظام الحكم الملكي بحكومة تحالف ديمقراطي؛ وسرعان ما تعرض التحالف الديمقراطي لهجوم من المتطرفين من كل من اليسار في روسيا واليمين في ألمانيا واختاروا أن يصارع أقصى كل انجاه بعضهما. الفارق الرئيس بين مسار الثورة في ألمانيا ومسارها في روسيا في أنه في روسيا تحالف المعتدلون مع أقصى اليسار السياسي لأنهم توقعوا أن الخطر الأعظم يأتي من أقصى اليمين السياسي؛ أما في ألمانيا فقد تحالف المعتدلون مع تيار أقصى اليمين لأنهم رأوا أن الخطر يأتي من تيار أقصى اليسار السياسي. وفي كلا الحالين، كانت النتائج الاستراتيجية عكسية: ففي روسيا كانت النتيجة انتزاع الشموليين اليساريين القتلة للسلطة؛ وفي ألمانيا انتزاع الشموليين اليمينيين السلطة. قادة الديمقراطية الألمانية الجديدة، كانوا يشبهون ليف كثيرا، لا يرون إلا شبح الثورة الحمراء، والبلشفية، المتصاعدة في روسيا والتي تهدد بالانتشار باتجاه الغرب إلى ألمانيا. كانت ثورة اليمين - الفاشستية، والنازية - لم تتخذ شكلا محددا بعد. وبالكاد مثلما فعل حزب الوسط الديمقراطي في موسكو الذي سمح للينين بممارسة العمل السياسي في روسيا على أمل أنه سيدافع عن حكومة دستورية قائمة، قام الديمقراطيون في برلين بإطلاق قوى الجناح اليميني المعادي للديمقراطية على أمل أنهم هم أيضا سيدافعون عن دستور كانوا في واقع الأمر يودون تدميره والقضاء عليه. لم يكن جناح يميني لينيني قد خلق في ألمانيا، على الرغم من أنه سرعان ما سيبزغ من بين ضباب الفوضى الدموية التي ستسود في ألمانيا.

غير أنه في فترة ١٩١٨-١٩١٩، لم يكن أحد يشغل نفسه بوجود

جناح يميني لينيني. كانت كل الأنظار تتطلع إلى ظهور مسيح شعبي آخر من بين قوى اليسار. وأخطأ بعض الناس في اتخاذ المتحدث الاشتراكي المنشق المسمى كارل ليبكنشت على أنه لينين الألماني، مدعوما بشريكته الثورية روزا لوكسمبورغ (وعلى الرغم من أنها نمت وهي تحلم بأن تكون مثيلة لفيرا زاسوليتش وصوفيا بيروفسكايا، لم تحاول أبدا بشكل عملي إطلاق النار على أي أحد). وبمقاييس البلاشفة الروس، فإن حتى أعتى غلاة الاشتراكية الراديكالية الألمان لم يكونوا ثوارا «حقيقيين» - فلم تكن لديهم ميول تقليدية للعنف الثوري الإرهابي ولا الانتفاض الشعبي المسلح - وكما قال عنهم لينين، فإن ثوار يسار ألمانيا لن يقوموا باجتياح محطة قطار للاستيلاء عليها إلا بعد شراء تذاكر قبل دخول المحطة. حاول لينين تنظيم صفوف الشيوعيين في ميونيخ لسنوات طويلة، ولكنه في النهاية يأس كليا من الاشتراكيين الألمان وانتقل إلى زيورخ منتظرا هناك اشتعال الثورة. لعنة البلاشفة التي عرفت باسم «المراجعة الأممية الثانية» - للمراجعة المعتدلة لماركس «المراجعة الأممية الأولى» حولت الاشتراكية إلى ثورة أكثر منها حركة ثورية، وركزت على تثوير الاتحادات العمالية والمهنية والعمل البرلماني الثوري - كان ذلك يمثل الحالة الألمانية والشأن الألماني. نظريا، فإن الأحزاب الاشتراكية في أوروبا، وفي جميع أنحاء العالم، كانت جميعها مرتبطة بقضية الماركسية العالمية. ولكن كانت أحزاب مثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني فقد نشأ تصالحيا حتى أن كثيرين من أعضائه بدوا غير ميالين للماركسية على الإطلاق.

في برلين، اعتمد لينين على كارل ليبكنشت وعلى روزا لوكسمبورغ وعلى فصيل المنشقين عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي

الذين قادوا حركة: «السبارتاكوسيين»[1]. وعند وصوله إلى محطة قطار فنلندا في بتروغراد في عام ١٩١٧، مطرودا من سلطات ألمانيا في عربات قطار خاصة مغلقة - مثل بكتيريا معزولة شديدة العدوى كما شبهه تشرشل في تشبيه شهير له، أو، كما نقول نحن حاليا، كسلاح بيولوجي - استدار لينين على الفور إلى المتبرعين لحركته الثورية وأعلن أنه يأمل أن يقوم ليبكنشت بثورة في ألمانيا للإطاحة بنظام قيصرها. غير أن السبارتكوسيين لم تكن لديهم ميول القسوة ولا مهارات وأساليب العنف الثوري البلشفي، وعلى الرغم من أن الثورة سرعان ما ستمتد إلى ألمانيا، إلا أنها ستنحو منحى دراماتيكياً مختلفاً كليا عن الثورة الروسية.

كانت الحكومة الألمانية في ١٩١٧-١٩١٨ دكتاتورية شبه عسكرية وعلى رأسها أكثر العسكريين الألمان شهرة: الجنرال لوديندورف (وهو الذي سيدبر الانقلاب الفاشل الذي قام به هتلر للاستيلاء على السلطة بوسيلة غير مشروعة عام ١٩٢٣)، والفيلد مارشال هندنبورغ (وهو الذي أعان هتلر في محاولته المشروعة للوصول إلى السلطة في عام ١٩٣٣).

(١) ظهر ذلك الاسم لأول مرة في شهر يناير عام ١٩١٦ في عيد ميلاد قيصر ألمانيا، فقد ظهرت رسائل مفتوحة ومنشورات تم تداولها تدعو الجماهير الألمانية للقيام بثورة عنيفة، وكانت الرسائل والمنشورات موقعة باسم «سبارتاكوس» متأثرة بالعبد الروماني سبارتاكوس في القرن الأول الميلادي، والذي كان قد أوشك على الإطاحة بالامبراطورية الرومانية بعد تمرده وانتفاضته المسلحة، وتسببت تلك الرسالة في فضيحة للتيار الحاكم، وهو الحزب الاشتراكي الديمقراطي «الوطني». وسوف يتضح لاحقا أن «سبارتاكوس» المعاصر الذي قام بذلك لم يكن إلا المتحدث الرسمي ومتعدد مرات الاعتقال والسجن ليبكنشت.

كان الجنرال لوديندورف أقرب كثيرا للنازية في مجمله العام - على الرغم من أن مصطلح «النازية» لم يكن قد ابتدع بعد، كانت أحلامه في تحقيق نطاق حيوي يمتد إلى كل نطاق مناطق جيرمانيا الشمالية التاريخية، أو «مجال للحياة لألمانيا» في الشرق، وبعد زمن، سوف تظهر وجهات نظر ترى أن هناك مؤامرة صهيونية وسوف تكون كافية لتحقيق الغرض - وكان لوديندورف أيضا من أبرع المخططين التكتيكيين. أيد أغلب الألمان حكومة ليدندورف- هندنبورغ، مع وجود القيصر في الواجهة شكلا، وكان ذلك التأييد الشعبي مشروطاً بوعد تحقيق نصر ألماني كامل في الحرب العظمى، مع ضم مناطق الشرق الألماني. وبحلول ربيع عام ١٩١٨، بدوا وكأنهما قد قطعا شوطا في تحقيق الوعد، بعد أن أجبرا روسيا على التخلي عن مناطق شاسعة مقابل التفاوض حول اتفاق سلام: وهي اتفاقية بريست ليتوفسك، ووقعها البلاشفة الروس في ٣ مارس عام ١٩١٨، وتخلت لألمانيا بمقتضى تلك الاتفاقية عن رقعة من الأراضي الروسية قدر المؤرخ أ.ج.ب تايلور أن تلك الأراضي التي تنازلت عنها روسيا لألمانيا كانت «في كبر مساحتي الامبراطورتين، النمساوية-المجرية والعثمانية معا». وبالإضافة إلى كسب الأراضي، ضاعفت الإمبراطورية الألمانية بالفعل عدد سكانها بإضافة سكان الأراضي التي ضمتها، فقد أضافت ٥٦ مليون نسمة هم سكان تلك المناطق التي كانت خاضعة للنفوذ الروسي سابقا، وما يزيد عن الضعف مواردها الطبيعية من المواد الخام. أغلب أستونيا، وفنلندا، وليتوانيا، ولاتفيا، وبولندا، وروسيا، ورومانيا، وأوكرانيا أصبحت جزءا من الإمبراطورية الألمانية والتي كانت، في جانب منها على الأقل، تفوق

غزوات نابليون في المساحة والتنوع وتفوق كل ما ضمته أي امبراطورية ألمانية سابقة[1].

هذا الرايش الثاني العظيم لن يدوم لأكثر من ستة أشهر. وكلف ألمانيا مليون جندي، انتشروا من فنلندا حتى أذربيجان ليغطوا الأراضي التي اكتسبوها، في محاولة لتأمين وجلب المواد الخام من تلك البلاد. كان الشعب الألماني شبه جائع، محروماً من أي واردات خارجية بسبب حصار الأسطول البريطاني لألمانيا، وغير قادر على استثمار موارد امبراطوريته الكبرى الجديدة في وقت قياسي لتغيير الواقع. وبنهاية فصل صيف عام ١٩١٨، كان الجيش الألماني منتشرا على مساحات هائلة مما جعله غير فعال، ويعاني من سوء تغذية شديد، وزاد من معاناته انتشار وباء الأنفلونزا الأسبانية، والتي يقدر أنها ربما أودت بحياة ٢٠ مليون إنسان حول العالم على مدى العام

---

(١) نافس الرايش الثاني، وهو الاسم الذي عرفت به ألمانيا القيصر فيلهلم، الرايش الثالث المستقبلي، وحصلت قوات لوديندورف بخوذاتها المدببة على «نطاق حيوي واسع في الشرق» محققة نشوة هتلر. ولكن، وللغرابة، استمدت حركة «التمدد شرقا» في ١٩١٧-١٩١٨ قوة دفع إضافية من مبدأ بغيض كليا للنازية التي ستأتي لاحقا، وهو «حب السامية». في عام ١٩١٨ احتل مئات الآلاف من الجنود الألمان المستوطنات اليهودية في مناطق تحديد إقامة اليهود الروس، كمحررين لليهود - من اضطهاد القيصر ومن معاداة السامية المحلي. وآمن لوديندورف أن تلك الاستراتيجية ستؤمن التأييد الروسي واليهودية العالمية للقضية الألمانية، وعلى الرغم من أن ذلك لم يتحقق، أضافت تلك الاستراتيجية أعباء على الفوضى المأساوية التي سادت العالم عام ١٩٤١ حين قامت بعض القرى والمستوطنات اليهودية بشرق أوروبا وروسيا بالترحيب بالجيوش النازية الألمانية الغازية، ظانين أن الألمان سوف يكونون لطفاء معهم مثلما كان عليه الجيش الألماني الغازي لمناطقهم في عام ١٩١٨.

التالي - أي أكثر ممن قتلوا في الحرب العظمى ذاتها وأكثر بالفعل ممن يمكن أن يقتلوا في جائحة طبيعية عظمى كطوفان أو زلازل أو حتى من صنع البشر كالحرب العالمية الثانية. وترك استسلام بلغاريا في أواخر سبتمبر من عام ١٩١٨ الخاصرة الجنوبية للجيش الألماني معرضة ومكشوفة وغير محمية وأدى ذلك إلى قطع الطرق البرية التي تربطها بحليفتها الكبرى، الامبراطورية العثمانية. ومثل ابن عمه قيصر روسيا في عام ١٩١٧، كان قيصر ألمانيا قد أصبح مقتنعا أكثر من أي وقت أن هناك مؤامرة يهودية - ماسونية كبرى يجري تنفيذها على قدم وساق. ووافقه على ذلك بحماس لوديندورف مهندس احتلال الشرق الذي كان يعتبره «مواليا لليهود»، وكانت أعراض عدم الثبات العقلي قد بدأت تظهر عليه. وسرعان ما تبنى قيصر ألمانيا ولوديندورف الخطة الصهيونية لجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود في محاولة يائسة منهما لكسب ود القائمين على تنفيذ المؤامرة اليهودية العالمية. . . ولكن تلك الخطوة جاءت متأخرة! إذ كانوا قد حوصروا وفي سبيلهم للهزيمة!

وراح لوديندورف، العقل المدبر للسياسة العسكرية التي أفضت لذلك الموقف يبحث يائسا عن مخرج. في بداية عام ١٩١٨ بدأ يخوض مفاوضات مع الحلفاء للتوصل إلى هدنة، لإنقاذ الجيش الألماني من التدمير الكامل. ولما أصر الحلفاء على عدم التعامل مع نظام دكتاتوري، قام لودیندورف باتخاذ خطوات لتحويل ألمانيا على الفور إلى نظام ملكي دستوري وأقنع قريبا ليبراليا للقيصر ليكون أول مستشار للنظام الجديد. ولكن الحلفاء ظلوا رغم ذلك متشككين حول النوايا الألمانية، وامتدت مفاوضات الهدنة حتى شهر أكتوبر من عام ١٩١٨. وحين وقع الأتراك على اتفاق هدنة منفرد مع الحلفاء في ٣٠

أكتوبر، وأعلنت الامبراطورية النمساوية عن وقف إطلاق النار من جانب واحد في ٣ نوفمبر، وجد الرايش الثاني - الإمبراطورية الورقية الممتدة من باكو في أذربيجان أقصى شرق أوروبا حتى بروكسل في أقصى غرب أوروبا- نفسها فجأه تحارب منفردة. وعلى الرغم من أن القادة العسكريين الألمان كانوا يعلمون على مدى أسابيع أنهم خسروا الحرب، فإنهم لم يهتموا بإعلام الشعب الألماني، ولا ملايين الجنود على جبهات القتال، واستمروا بدلا من ذلك في إصدار النشرات التطمينية عن التقدم المستمر والانتصار الوشيك. غير أن الشائعات تفاقمت وانتشرت.

وكما حدث في روسيا حين استهلت الثورة المسلحة بتمرد جنود البحرية الروسية: في ٣ نوفمبر، تمرد جنود الأسطول الإمبراطوري الألماني ورفضوا إطاعة أوامر قادتهم للخروج إلى البحر لخوض معركة حاسمة (وكانت بمثابة مهمة انتحارية) ضد الأسطول البريطاني. رفعت رايات التمرد الحمراء على سفن الأسطول الحربي القيصري الألماني، وقام جنود البحرية بإلقاء الضباط في البحر، ونصبت المدافع الآلية فوق سيارات النقل، وأصبحت بعدها الوسيلة المفضلة في الثورة الألمانية. وخلال ثلاثة أيام، كانت «سوفيتيات» البحارة والعمال الألمان قد استولت على المدن الساحلية المهمة في شمال ألمانيا وهددت بالتوجه إلى برلين. أما في جنوب ألمانيا، ومع انهيار الجبهة النمساوية، أصاب سكان بافاريا الفزع والرعب، خوفا من سقوط قذائف المدافع على البيوت، فقامت ثورة بيضاء برفع الرايات الحمراء على ميونيخ في ٧ نوفمبر، كان قلب البلاد يتمزق ويتفكك.

وبحلول مساء السبت، ٩ نوفمبر، تطورت لدى لوديندورف وجنرالاته خطة. وهي أن يقوموا بتسليم البلاد بما تعانيه من

اضطرابات إلى بعض القوى الديمقراطية. ومن الأفضل أن تسلم لديمقراطيي الجناح اليساري الذين كانوا قد تواصلوا مع زعيم حزب الأغلبية الاشتراكي الديمقراطي، وهو أكبر الأحزاب اليسارية في البرلمان الألماني، فريدريك إيبرت، وكان رده أنه سيضطلع بواجبه الوطني. ويتذكر ريموند بريتزل المشهد الذي كانت عليه الشوارع في ذلك الوقت، وكان في الحادية عشرة من عمره في ذلك الوقت - وسوف يصبح بعد ذلك صحافيا معاديا للنازية تحت الاسم المستعار سيباستيان هافنر:

سمعت لأول مرة صوت أعيرة نارية في يوم الأحد ذاك. أثناء الحرب بأجمعها لم أكن قد سمعت صوت طلقة واحدة. ولكن الآن، وبعد أن انتهت الحرب، بدأوا يطلقون النار في قلب برلين... وراح واحد من الناس يشرح الفرق بين صوت الرشاشات الثقيلة والخفيفة. حاولنا أن نخمن المكان الذي اندلع فيه الاشتباك... واتضح أنه شجار دون سبب بين جماعات ثورية متنافسة، تدعي كل منها أحقيتها في السيطرة على الاسطبلات الملكية... كان من الواضح أن الثورة قد انتصرت.

وخلال أربعة أعوام من الحرب، كان الوطني الصغير بريتزل يتابع بشغف أخبار الانتصارات الألمانية الحربية المجيدة والتي تعلق يوميا على لوحة أخبار العلاقات العامة للشرطة، وسجل تلك الوقائع قائلا:

في ٩ و ١٠ نوفمبر كانت نشرة أخبار الجيش ما زالت تصدر أخبارا من نوع: «إجهاض محاولات العدو لاختراق قواتنا وردها على أعقابها»، «بعد مقاومة شجاعة وضارية، انسحبت قواتنا إلى تمركزات جديدة كان قد أعد لها». وفي يوم ١١ نوفمبر لم تصدر نشرة أخبار الجيش على لوحة الإعلانات المعلقة خارج نقطة

الشرطة المحلية حين ذهبت لقراءتها في الموعد الذي اعتدته. كانت اللوحة الفارغة تتثاءب في وجهي. وتملك مني الرعب من أن تلك اللوحة، التي أبقت روحي المعنوية عالية وغذت أحلامي اليومية على مدى أعوام، سوف تظل فارغة وسوداء للأبد بعد ذلك. وسرت في الطرقات. لابد أن هناك أنباءا من جبهات القتال في مكان ما... لم يعد الحي مألوفا لي كما كان... كيف لي أن أصف ما شعرت به - مشاعر صبي في الحادية عشرة من عمره انهار كل عالمه الداخلي... كان العالم كله يبدو لي غريبا وغير مستقر مثل تلك الشوارع والطرق... كان من الواضح أن اللعبة الكبرى تحكمها قواعد سرية فشلت في إدراكها. لابد أن هناك شيئا مخادعا وزائفا. أين يمكن للمرء أن يجد استقرارا وأمنا، وإيماناً حقيقياً وثقة إن كان يمكن لأحداث العالم أن تكون على هذا النحو من الخداع؟

وفي يوم الأثنين، ١١ نوفمبر، وقع مفوضو الحكومة الجديدة التي ترأسها الحزب الاشتراكي الديمقراطي اتفاق الهدنة، منهيا مشاركة ألمانيا في الحرب العظمى. وركب القيصر الألماني عربة قطار مصفحة بالذهب والعاج متوجها إلى منفى مريح في هولندا. أما في برلين فقد سادت الفوضى. فقد توجه إميل آيشهورن وهو عضو بارز وملتهب الثورية من الفصيل اليساري الذي عرف باسم الاشتركيين المستقلين - وهو فصيل يقع ما بين حزب الأغلبية الاشتراكي الديمقراطي والسبرتاكوسيين - إلى مبنى قيادة الشرطة على رأس حشد جماهيري، وحرر ٦٥٠ سجينا، وسلحهم، وأعلن عن نفسه رئيسا «لدائرة شرطة برلين الثورية». في جميع أنحاء العاصمة الألمانية، استولى الجناح اليساري على كل مكاتب الصحف، والمباني الحكومية، والمخازن، ومكاتب البرق. واستقرت قيادتهم في مقر

إقامة القيصر وراحوا يشربون أنخاب حيازتهم الأولية لسلطة فعلية، وتفاوض إيبرت مع رفاقه البرلمانيين، علنا وسرا: علنا، تفاوضوا مع قوى الحلفاء حول كيفية إعداد شروط الهدنة، وسرا، على خط ساخن خاص في مكاتبهم الجديدة، مع جنرالات الجناح اليميني في الجيش الألماني حول كيفية كبح جماح وقمع الاضطرابات الثورية في الشوارع وإستعادة النظام. ووافق الجنرالات على ألا يعادوا الحكومة الجديدة لو وافقت الحكومة الجديدة على ألا تعارضهم إذا لجأوا لاستعمال «كل ما يلزم من قوة» لقمع الثورة اليسارية. وهكذا أخذت أول حكومة ألمانية ديمقراطية على عاتقها كل المسؤولية وكل اللوم على الاستسلام المشين، بينما سلمت كل السلطة الفعلية للجناح اليميني من الجيش الذين سيلطخون سمعتهم وينقضون عليهم بعد ذلك ويدمرونهم.

وخلال شهر ديسمبر من عام ١٩١٨، عاد الجنود الألمان من جبهات القتال في مسيرات إلى برلين، برفقة زمر من البحارة الثائرين المشوشين والمرتبكين والحائرين والمضطربين - الذين ظنوا أن حكومة البرلمان «الماركسي» كانت في صفهم. كانت المدينة التي عاد إليها الجنود تحمل شبها قليلا للمدينة المنضبطة انضباطا حديديا، العاصمة البروسية العتيدة التي تركوها خلفهم حين توجهوا لجبهات الحرب. ويتذكر الفنان غيورغ غروتس، وكان واحد من الجنود العائدين من الجبهة، والذي تعد سيرته الذاتية واحدة من أشد الذكريات غضبا واكتئابا وأشدها تصويرا للذكريات في برلين في إبان الثورة والفوضى التي أفضت إليها:

> كانت المدينة مظلمة، وباردة وتموج بالشائعات. كانت الشوارع كالوهاد البرية يهيمن عليها القتلة وتجار الكوكايين. . . وأنكر

الناس كل ما يعلن وتهامسوا عن تحركات ومناورات سرية وعن جيش أحمر تكون مؤخرا.

كانت عصابات مكونة من مسلحين ملتفين برايات من كل الألوان ومن كل الأطياف السياسية تطوف بالشوارع. لم تكن أصوات طلقات الرصاص شائعة فقط، بل دفقات المدافع الرشاشة وانفجارات القنابل اليدوية أيضا». ويتذكر غروتس:

لم يكن بإمكان الناس وهم شبه ملتاثين من الخوف أن يتحملوا البقاء بين جدران بيوتهم، فكانوا يصعدون إلى أسطح المباني لإطلاق النار على الحمام الطائر والناس. كان إحساسهم بالتناسب أو الحجم يختل أحيانا. وحين كان واحد من صائدي الأسطح يعتقل ويعرض عليه رجل أصابه بطلقاته، كان يقول: «ولكني ظننت يا سيدي الضابط أنه حمامة كبيرة من بعيد!»

كان وباء الانفلونزا يقتل من الألمان أكثر ممن قتلوا في خنادق الحروب؛ ففي برلين وحدها، كان يموت بالمرض ثلاثمائة فرد كل يوم في شهر ديسمبر. أما الجنود الذين نالوا من الحرب ما نالوه فقد تركوا أسلحتهم في الثكنات العسكرية وعادوا إلى بيوتهم، أو باعوا أسلحتهم في أسواق مفتوحة. وكتب غروتس: «كان بإمكانك أن تشتري بنادق وذخيرة من كل الأماكن، وعرض علي ابن عمي الذي صرف من الخدمة بعد ذلك بقليل مدفعا رشاشا كاملا، وطمأنني بأن بإمكاني أن أدفع له ثمنه على أقساط، وسألني إن كنت أعرف من يهتم بشراء مدفعين رشاشين آخرين وبندقية ميدان».

أما أولئك الذين لم يأخذوا كفايتهم من الحرب فقد احتفظوا بأسلحتهم وتبعوا قادة وحداتهم العسكرية الذين كونوا تنظيمات شبيهة بالمافيا في ميليشيات غير مترابطة سمت نفسها «الفيالق الحرة».

وجذبت الفيالق الحرة معظم جنود الخنادق المتشددين عسكريا، وكانوا في الأغلب من كتائب النخبة الشهيرة التي قامت بمهام قتالية انتحارية عبر مناطق الخنادق الدفاعية الفرنسية والبريطانية. كان الضباط الشباب الذين قادوا تلك المهام يتحلون بشجاعة نادرة، وأقوياء بدنيا، ومتعصبين لألمانيا - وسوف يتخذون بعد ذلك كأنماط أولية لقوات الحزب النازي الخاصة المسلحة (سلاح الأس إس) من الجيل التالي. غير أن كثيرا من أفراد «الفيالق الحرة» لم يظهروا أي أفعال على الإطلاق؛ وفي الحقيقة أن بعضهم التحق بتلك الفيالق لأنهم شعروا بأنهم ضاعوا في طقوس التطهر بالدم في حروب الخنادق.

وضعت الدول الغربية الإطار القانوني الذي تحجم من خلاله وتقيد إعادة تكوين العسكرية الألمانية، وسمحت فقط للفيالق الحرة أن تحتفظ بسلاحها وتمارس عملها، وربما لم تعمد القوى الغربية إلى تحجيم عمل الفيالق الحرة بسبب التهديد الذي تمثله روسيا السوفياتية على غرب أوربا. وفي خريف عام ١٩١٨ وشتاء عام ١٩١٩، بدأت وحدات جديدة من الفيالق الحرة تتكون وتنتشر باتجاه الشرق - باتجاه الجبهة الجديدة للبلاشفة الروس. كانت لافتات حمراء تحث على تكوين فيالق حرة جديدة مكتوب عليها «أعني، أدركني»، سواء كان طلب المعونة حقيقيا أم نتيجة خوف مصطنع من الغزو السوفياتي. ودون أوامر رسمية، توجهت الفيالق الحرة رأسا إلى بولندا، وليتوانيا، ولاتفيا - وكلها كانت ذات المناطق التي سيعيد النازي غزوها في عام ١٩٤١ في الحرب العظمى الثانية. وفي الحقيقة، فإن جبهة «الفيالق الحرة» في ١٩١٨-١٩١٩ التي توشك أن يطويها النسيان كانت بأشكال عديدة تعد المولد وأرض الاختبار للغزو النازي المستقبلي.

كان ما يزيد عن الخوف من التهديد الأحمر هو ما يوجه القتال الجديد. كان هناك تطلع تاريخي عميق. كان أصل تكوين الفيالق الحرة لأول مرة يرجع إلى جماعات المتطوعين التي تكونت في حروب التحرير ضد نابليون في الفترة من ١٨١٣ إلى ١٨١٥. ومع انهيار إمبراطورية نابليون، انتشرت فيالق المتطوعين في جميع أنحاء أوروبا وتسموا باسم فيالق فيينا الحرة، وفيالق بوتسدام الحرة، وفيالق إيطاليا الحرة، وهكذا، لتحجيم وصد قوى الثورة الفرنسية. غير أن ظاهرة تكوين الفيالق الحرة في حد ذاتها كانت ظاهرة ثورية - في ١٨١٣ مثلما في ١٩١٨ - فهي تنطوي على، وتتضمن قوة الجندي-المواطن الذي يثور ويعيد صياغة المجتمع من خلال قوة سواعده وقرارات قادة الجماعات الصغيرة. كانت الفيالق الحرة الأصلية تعد أسلاف كل تشكيلات المغاوير والمتمردين الثوريين في القرن التالي.

بل إن البحث المبكر عن عمق الهوية التاريخية مثل جذبا للجنود المنضمين لحملة الشرق. فحين شرعت الفيالق الحرة في القيام بمغامرتها في دول البلطيق، أصروا على الإشارة إلى تلك الدول لا على أنها إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، بل أسموها بأسماء ألمانية فصارت: كورلاند، وليفونيا، وهكذا. كان ذلك بالطبع لإحياء الحملة الصليبية لفرسان المد الألماني نحو منابعهم وأصولهم في القرون الوسطى، الذين بدأوا حملتهم في القرن الثالث عشر، والذين خرجوا على البرابرة حتى أبواب موسكو وأسسوا بمناطق البلطيق ممالك إقطاعية (والقلاع التي بناها الغزاة الألمان في القرون الوسطى ما زالت قائمة حتى وقتنا هذا). وبقدر ما كان الصليبيون الجدد مهتمين، كانوا يقاتلون هناك لاستعادة حقوقهم التاريخية في تلك المناطق. وحتى قيام الثورة الروسية، كان هناك مئات الآلاف ممن كان يطلق

عليهم ألمان البلطيق - يتحدثون بالألمانية ولكنهم تابعون لسلطة روسيا - وظلوا كامنين في مقاطعات شبه إقطاعية على بعد عدة مئات من الأميال من سانت بيترسبورغ. وسوف تصبح حفنة من ألمان البلطيق أو الروس الألمان من ألد أعداء البلشفية، ثم وهم لاجئون في ألمانيا، كانوا من العناصر الفاعلة في صعود النازية واستيلائها على السلطة.

كانت أهداف الفيالق الحرة كما صاغها أحد جنودها، أن تثبت وجودها وأنها «جديرة بمعارك فرسان النظام لا الفوضى وضد البولنديين والتتار». وترك أولئك الجنود يوميات وذكريات مدونة غزيرة، وأشعار، وقصص عن تجاربهم في حروبهم ضد الجيش الأحمر. وسوف يتحول كل ذلك فيما بعد ليصبح مواضيع القراءة المفضلة لجنود الحزب النازي، في ألمانيا وفي الدول الأخرى التي احتلها النازي بعد ترجمتها. وكتب واحد ممن يعدون نموذجا نمطيا من أفراد الفيالق الحرة في مذكراته: «يجب عليَّ أن أفكر في الماضي وأن أتذكره، فارس النظام، الذي عاد للحياة وبعث من جديد. يبدو لي أن كل العصور الفاصلة قد محيت وزالت». وفي الكتاب الكلاسيكي الذي حقق في وقته أفضل المبيعات «فرسان في الشرق»، وصف إرنست فون سالومون كيف طغت عليه حين وصل للجبهة الشرقية كمتطوع، ومستعد لخوض المعركة ضد الحمر، مشاعر عميقة بأنه كان يحارب في ذلك المكان في حياة أخرى. حركت مشاعره رائحة الأرض، وبدت له «كأنها توحد كل شيء في ثراها، الأمل والخطر، وأبعدت عنها من قبل أغراب خطرين، وها أنا أقف عليها في علاقة خاصة فريدة ومميزة». مقاتل آخر سابق من الفيالق الحرة تساءل وعربته المصفحة تمر بالقرب من بقايا القلاع الألمانية القديمة

التي شيدها الفرسان الصليبيون الألمان في البلقان: «هل اندهشوا من الراية الصغيرة بصليبها الأسود التي كانت تخفق لأعلى وأسفل من تحتهم؟ هل تعرفوا على الشارة على قبعاتنا، والتي رأوها ذات يوم على المعاطف البيض لسكانهم؟»

حين وصلوا إلى جبهة الحرب الأهلية الروسية التي كانت متحركة على الدوام، أثبت رجال الفيالق الحرة أنهم منضبطون تماما وتكيفوا مع الوضع بسرعة. كان وجود قوات ألمانية على الجبهة الروسية يتناقض مع بنود وشروط اتفاق الهدنة الذي وقعته الحكومة الألمانية مع الحلفاء، وعلى الرغم من أنها كانت تدعم الروس البيض ضد الحمر، هددت فرنسا بإرسال فرقة عسكرية ضد الفيالق الألمانية الحرة إن لم تغادر أراضي بولندا ومنطقة البلطيق على الفور. وبمنتهى البساطة أمر قادة الفيالق الحرة رجالهم بارتداء قبعات روسية مريشة وقلنسوات من الفراء وأحزمة الكتف والخاصر القوقازية وأن يدعوا أنهم روس، وبالفعل قام الجنود بذلك. وبدا كأن الجيش الأبيض الروسي قد ازداد بشكل إعجازي فجأة في منطقة البلطيق بعشرات الآلاف من الجنود الجدد المنضبطين انضباطا صارما، الذين ساروا إلى المعركة ضد الجيش الأحمر وهم ينشدون الأناشيد الحماسية الشعبية تارة بالألمانية وتارة أخرى بالروسية.

وعلى الرغم من جهودهم المضنية، لم تتمكن الفيالق الألمانية الحرة من ترجيح كفة الجيوش الروسية البيضاء على الحمراء، فقد كان الجيش الأحمر يفوقه عددا وسلاحا وقدرة على المناورة. ولكن، مع فرار الجيش الأبيض، عاد الألمان المشرقيون الشباب إلى ألمانيا الأم، تملأهم المرارة، مدججين بالسلاح حتى أسنانهم، ليثيروا الاضطراب والفوضى في الجمهورية الجديدة.

سجل الكونت هاري كيسلر في يومياته: «بدأ صباح يوم الكريسماس بنشاط للمدفعية، حاولت القوات الحكومية أن تقصف البحارة المتجمعين خارج القصر واسطبلات الخيول الإمبراطورية. . . واستمر الاحتفال بالكريسماس في خضم الدم المراق». واستمر الكونت كيسلر كواحد من أهم الموجهين للثورة الألمانية والفوضى الغريبة التي تدهورت فيها واحدة من أهم الثقافات العالمية الكبرى، في أقل من اثنى عشر عاما، إلى أدنى شكل من الأشكال البربرية الدموية. شهد كيسلر- النصف آيرلندي والنصف أرستقراطي ألماني من التيار الليبرالي ومتكبر كأوسكار وايلد- أحداث تلك الأعوام من منظور أحداث الشوارع ومن منظور رفقته الاجتماعية للشخصيات السياسية والشخصيات الثورية في عصره، وكذلك من منظور قمم المفكرين الألمان، مثل ألبرت آينشتاين وجان كوكتو. وفي ٥ يناير عام ١٩١٩، دفع قرار الحكومة باعتقال رئيس الشرطة آيشهورن بالثورة الألمانية في برلين إلى الدخول في مرحلتها الثانية. وكان ذلك حين كانت أفضل التقارير المصورة عن ثورة برلين تظهر في جميع صحف العالم: البحارة المتمردون، والمدنيون المتكاتفون جنبا إلى جنب خلف متاريس ضخمة مكونة من بكرات ورق الصحف الخام الضخم، يصوبون غداراتهم من فتحات بين بكرات الورق نحو جنود الفيالق الحرة بأسلحتها الثقيلة. غير أن السبارتاكوسيين أيضا كان لديهم العديد من المدافع الرشاشة الآلية. وفي يومياته التي سجل فيها أحداث صباح يوم ٨ يناير عام ١٩١٩، يقدم الكونت كيسلر سجلا ثمينا ليوم تقليدي خلال الأسبوع الأول «للثورة الماركسية الفعلية» في برلين:

كانت المدافع الرشاشة المثبتة فوق براندنبورغر تور تطلق نيرانها نحو الحشود المتجمعة في تيرغارتن، و تفرقت الحشود في خضم

صراخ مكروب. ثم ساد صمت. وفي الواحدة إلا ربع ظهرا بدأ إطلاق النار من جديد، كنت متجها إلى الرايشتاغ. وكان مصدر النيران من السبارتاكوسيين، كانت الطلقات تئز مارقة بجوار أذني... وفي السابعة والنصف مساءا تناولت وجبة في فورستنهوف. كانت الأبواب الحديدية قد أغلقت بالكاد لأن هجوما سبارتاكوسيا كان متوقعا ومنتظرا على محطة قطار بوتسدام المقابلة. كان دوي الطلقات المتفرقة يسمع طوال الوقت. تطلعت لبرهة للضوء الخافت الصادر من مقهى فاترلاند. وعلى الرغم من حقيقة أنه في أي لحظة قد تئز الرصاصات من خلال نوافذ المقهى، استمرت الفرقة في عزف موسيقاها، وكانت الطاولات ممتلئة عن آخرها برواد المقهى، كانت السيدة التي تبيع السجائر في ركن التبغ تبتسم لزبائنها ابتسامة فاتنة كتلك التي تعلو الوجوه في أيام السلام المشمسة الوادعة».

هاجمت الفيالق الحرة الأحياء الثورية في برلين بالعربات المصفحة، والدبابات، وقاذفات اللهب، والرشاشات الثقيلة، ومدافع الميدان. وتظهر الصور الفوتوغرافية لتلك الفترة متاريس الشوارع، والتي كان يعلوها جنود يمينيون من شباب غض، ولافتات مكتوب عليها: توقف.. كل من يخطو أبعد من تلك النقطة سيطلق عليه النار. هاجمت الفيالق الحرة المدنيين دون أي كوابح، خاصة كل من بدا أو بدت من المتعاطفين مع البلاشفة. ترتب على ذلك أنهم عادوا بجبهة القتال إلى المجتمع المدني. وأذابت الثقافة الألمانية في ذلك الوقت كل الحدود التي كانت تفصل ما بين العسكرية والسياسة، وتصلب أولئك الجنود المتعصبون معا على يد الضباط الذين كان لديهم دوافع قوية واهتمام باستمرار القتال وكأن الحرب لم تنته بعد. أصبح أعضاء من المجتمع المدني في ذلك الوقت هم العدو، ولكنهم كمدنيين، لم

يكونوا معدين للقتال ولا مسلحين. أما بالنسبة لجنود الفيالق الحرة، فقد كان درسا في القسوة والوحشية المحلية والقتل بدم بارد التي أعدت كثير منهم للعمل كقوات صاعقة أو حراس معسكرات اعتقال في الأعوام التي تلت تلك الأحداث[١].

واعتلى السبارتاكوسيون أسطح المباني ببنادق قنص، باذلون أقصى ما لديهم لتعطيل كل من حياة البرجوازيين وقسوة الفيالق الحرة لأن الزخم الأحمر الأكبر قد تم إخماده. غير أن الفيالق الحرة تمكنت من اقتحام مقر قيادة السبارتاكوسيين في شبانداو. وفي ١٥ يناير ١٩١٩، قتل كارل ليبكنشت، لينين برلين، بإطلاق النار على ظهره «وهو يحاول الفرار». وسوف تتحول عبارة «قتل بإطلاق النار على ظهره وهو يحاول الفرار» إلى شعار دعائي استعمله الثوار اليمينيون في مناسبات كثيرة مماثلة خلال العقد بأجمعه. وقد كان تحذيرا لافتقاد «الاحتشام الأخلاقي» و«العواطف البرجوازية» وهما اثنان من بين مقولات كثيرة استعملوها وكانت ترجمة حرفية تقريبا عن لينين - والتي سيقابلها النازي ببادئة تضاف للاتهامات «يهودي» أو «اليهودية

---

(١) كثير من المجندين، بغض النظر عن انتماءتهم السياسية، ستظهر عليهم علامات الخلل والاضطرابات النفسية الاجتماعية. فقد أصبح القتل والاغتصاب شائعين في برلين فيما بعد الحرب العالمية الأولى، وانتشرت الأعمال الوحشية التي يقوم بها رجال لم يكن لديهم أي سجل إجرامي سابق. أشهر الرسامين الألمان، كانوا كلهم محاربين سابقين على جبهات القتال، أظهروا اضطرابات مخيفة تمثلت في رسم مشاهد عنف وقتل جنسي وتقطيع أوصال الضحايا، وكانوا في الغالب ينقلون عن صور فوتوغرافية صورتها الشرطة لجرائم قتل جنسي. وقال الفنان أوتو ديكس لصديق له إنه لو لم يتمكن من عرض تلك الجرائم الجنسية عن طريق الفن، كان سيجد نفسه مجبرا على اقتراف جريمة جنسية بنفسه.

البلشفية» لتجنب أي خلط بينهم وبين الثوار الحمر. ولم يتضح على الفور بعد مقتل كارل ليبكنشت ما الذي فعلته الفيالق الحرة بـ«روزا الحمراء»، أي روزا لوكسمبورغ التي اختفت فيما كانت في الحجز القضائي في اليوم ذاته. وكتب الكونت كيسلر في يومياته: «يقال إنها قتلت، وأن جثتها اختفت نهائيا».

واستمرت الثورة في برلين، حتى على الرغم من مصرع قادتها أو أصبحوا من المفقودين. لجأ السبارتاكوسيون لاستخدام بنادق القنص والمدافع الرشاشة؛ واستخدمت الحكومة والفيالق الحرة ذات الأسلحة ولكنهم أضافوا عليها المدافع الثقيلة، والدبابات، والطائرات. كان كل طرف يستولي على مبانى البلديات، والكنائس، والمدارس، ويحيلها إلى ثكنات وحصون عسكرية مسلحة. وفي مارس ١٩١٩، كانت صحف برلين تورد أخبار مقتل المئات في معارك شوارع يومية.

ووصل الصحافي الأميركي بن هشت - الذي كتب فيما بعد سيناريو فيلم «الصفحة الأولى» - إلى ألمانيا في ذلك التوقيت ليغطي الأحداث الألمانية لصحيفة شيكاغو تريبيون؛ وحقق سبقا صحافيا، وأبرق للصحيفة: «تعاني ألمانيا من انهيار عصبي. لا يوجد شيء عاقل ولا معقول لأكتب عنه». غير أن هشت، الذي سوف يصبح فيما بعد من الأصوات الوحيدة في الصحافة الأمريكية الذي سيحتج على الإبادة الجماعية والمحارق بعد ذلك بعقدين، توصل إلى أول لمحة من تكتيكاتها في الإبادة هنا في برلين في ربيع الجنون المطلق في عام ١٩١٩. ففي فناء سجن موآبيت، ثأرت الفيالق الحرة من أولئك الذين أظهروا إشارات ثورية أو ظهروا في زي الاسبارتاكوسيين، وكتب هشت: «مجموعات من خمسة وعشرين رجلا وامرأة وطفلا، كانوا

يقيدون معا ويدفعون للسير عبر فناء السجن، لتفتح ثلاثة مدافع رشاشة نيرانها عليهم وتظل تطلق النار بغزارة عليهم حتى تهمد أي حركة من الأجساد الصريعة». حصل هشت على وصف للمذبحة من ضابط كان مذهولا ومضطربا والذي كان بنفسه يترأس أحد طواقم المدافع الرشاشة، وقام محرر الجرائم السابق بجريدة شيكاغو بتسلق شجرة عبر الشارع الفاصل عن فناء سجن موآبيت وتأكد بعينيه من صحة القصة التي رواها الضابط.

الرعب الذي ساد وانتشر في ألمانيا من مصير روسيا غرس بعمق في نفسية المواطنين الألمان العاديين وأنهم لا يمكن لهم أن يروا أن قوى اليمين الجديد يمكن أن تكون معادية بنفس القدر للقيم البرجوازية مثل القانون، والنظام، والكوابح والقيود الأخلاقية. أخلاق الفيالق الحرة، كانت في كل تفاصيلها مماثلة لأخلاق البلاشفة، ولكنها مختفية خلف هالة زائفة من المحافظة والتهدئة وإخماد الفتنة واستعادة السلام الاجتماعي. المحافظون الحقيقيون يؤمنون بقيم التقاليد، ولكن الفيالق الحرة كانت تؤمن بعكس ذلك تماما - فالنسبة لهم، أثبتت الحرب العظمى أن الأخلاق والبنية الاجتماعية في زمن السلم لم تكن إلا فسادا وبلا معنى. والسياسات التي كانت كامنة خلف الحرب لم تكن إلا سياسات زائفة، ولكن القتال هو الحقيقة الوحيدة، وفي ذلك الواقع فإن «الإنسان الجديد» لثورة الجناح اليميني قد ولد. وفي كتابيه اللذين حققا أفضل المبيعات لعامي ١٩٢٠ و ١٩٢٢، «عاصفة من الصلب»، و«الحرب كتجربة باطنية»، رحب إرنست يونغر بـ«الإنسان الجديد، الجندي العاصف»، رحب يونغر بمجيء «جنس جديد كليا، ذكي، وقوي، ومشحون بالإرادة والعزم» لإنقاذ أوروبا من أوهامها الليبرالية. لهذا الإنسان

الجديد، كما هو للثوار الحمر، فهم خاص يتمثل في أن الأسس القانونية والأخلاقية للمجتمع ليست إلا مجرد أوهام واحتشام برجوازي يثير الغثيان. في جبهة القتال، لا توجد إلا قيم الشجاعة، والقسوة، ولا يوجد معنى إلا لرفقة وصداقة السلاح - والفهم والإدراك الجوهري لأيديولوجية الفيالق الحرة: كل المجتمع جبهة قتال.

دولة تحولت إلى حالة هستيرية من الخوف من أحد أشكال الإرهاب فتقوم بتشريع إرهاب مغاير، ضامنة بذلك أنه لو لم يتمكن أعداؤها من تدميرها، فسوف يتكفل أبناؤها الجدد بذلك. في عام ١٩١٩، مررت المحكمة الألمانية العليا حكما يعرف نوعا جديدا من الطوارئ «التي تعلو فوق كل قانون» - وخاصة حين يكون المجتمع مهددا بثورة - وتحت ذلك التهديد فإن الموانع العادية التي تمنع القتل لا يعول عليها ولا يعمل بها. ودفعت المحكمة العليا بمثال للقتل السياسي الذي تقوم به الفيالق الحرة في حربها الإرادية في بولندا ودول البلطيق لمحاربة البلشفية. وسوف يستغل الإنسان الجديد للفيالق الحرة والحركة النازية الناشئة تلك السابقة القانونية أيما استغلال.

ومع ذلك، كلما أوسعت القيادة الاشتراكية الديمقراطية المجال وحرية العمل الذي تتيحه للفيالق الحرة لقمع الثورة، كلما انتشرت بشكل متسارع في جميع أرجاء البلاد. أسس الشيوعيون الألمان سوفياتات - خلايا بلشفية أو مجالس ثورية - في المدن الكبرى والمتوسطة في أنحاء ألمانيا. فبعد سوفيات برلين كانت التجربة الألمانية الكبرى مع الثورية الشيوعية مع سوفيات مدينة ميونيخ، والتي كانت في أول تجسيد لها هزلية ومسالمة تقريبا. وبينما كان ثوار

اليسار وثوار اليمين يتراشقون بالمدافع الرشاشة في برلين، كان الناقد المسرحي الأنيس واللطيف والودود كورت آيزنر الذي قاد ثورة دادائية[1] بدت مسلية حتى لكثير من سكان المدينة من ثوار اليمين البورجوازي - ثورة سلتهم وأمتعتهم، حتى قتل ذات يوم في وضح النهار على يد نصف يهودي معاد للسامية وكان من الواضح أنه قتل آيزنر في محاولة منه لـ«إثبات» أصالته الآرية - وبالأساس، كحيلة للتأكيد على انتمائه للأخوية الموالية للنازية. وكانت عملية عبثية حيث إن آيزنر كان في طريقه إلى مجلس سوفيات ميونيخ في ذلك اليوم ليعلن للمجلس استقالته. وراحت الثورة في بافاريا فيما بعد آيزنر تتحول تدريجيا إلى ثورة أشد تطرفا، ولكنها حافظت على روح الطرافة. كان قادتها الجدد من مرتادي النوادي الليلية مثل إريش موزام وإرنست تولر. أما وزير خارجية مجلس السوفيات، دكتور فرانتس ليب، فقد كان مريضاً عقلياً سابقاً أرسل برقيات تهديد لبابا روما وأعلن الحرب على سويسرا لتقاعسها عن تزويد مجلس سوفيات ميونيخ بشحنة من السيارات. أما تولر، رئيس اللجنة المركزية البافارية، فيتذكر في سيرته الذاتية كيف جذبت الثورة كل غريبي الأطوار والمختلين من البشر، «فقد اعتقدوا أن أفكارهم التي كانت محتقرة من الجميع قد واتتها الفرصة أخيرا عن طريق الثورة لتحويل الأرض إلى جنة. . . واعتقد بعضهم أن السبب الأصلي لكل الشرور على الأرض يرجع إلى الطعام المطهي، فيما نسبه آخرون إلى معايير الذهب، وغيرهم إلى الملابس الداخلية غير الصحية، أو الآلات، أو

---

(١) الدادائية حركة أوربية فنية وأدبية ظهرت بين ١٩١٦ و ١٩٢٣، وانتقدت القيم التقليدية بإنتاج أعمال فنية اتسمت باللغو والتقليد الساخر. (المترجم).

إلى عدم وجود لغة عالمية إجبارية واحدة، أو المتاجر الكبرى متعددة الطوابق، أو تحديد النسل».

وفي شهر أبريل ١٩١٩، أطاحت «البلشفية الثلاثية» التي يقودها الموالون المتشددون للينين بالثورة الخيالية وعمدوا إلى نشر الرعب والإرهاب الأحمر. كل البرجوازيين والأرستقراطيين تم اعتقالهم وإلقاؤهم في السجون، وصودرت كل ممتلكاتهم، وسحقت كل الصحف المعارضة وأخرست، وأغلقت المدارس - وعلى الرغم من أن كل ذلك لم يكن الإرهاب الأحمر الحقيقي أكثر من كونه فشلا للإرهاب الأحمر. ولكن غياب القسوة الكافية من جانب اليسار الألماني، جعل اليمين الألماني أكثر سعادة بملئه لفراغ القسوة وسد الفجوة. وهاجمت الفيالق الحرة مدينة ميونيخ كما لو كانت مدينة فرنسية أو بلجيكية لا ألمانية، وأمطرتها بوابل من قذائف المدفعية الثقيلة كما قصفتها بالطائرات. وصمد المدافعون الحمر عن ميونيخ لثلاثة أيام. وحين أجتاحت بعدها الفيالق الحرة المدينة واستولت عليها أعدموا بالرصاص ما يربو على ألف فرد، لم يعدموا الشيوعيين فقط، بل كل الاشتراكيين وحتى طلاب الندوات. كان أي فرد يشاهد بصحبة مجموعة من ثلاثة أفراد أو أكثر يشك على الفور في أنه يكون مجلس سوفيات.

وحمل العام التالي مزيدا من الثورة لألمانيا، ولكنها كانت هذه المرة من كلا اليمين واليسار. ففي مارس ١٩٢٠، تزعم دكتور فولفغانغ كاب، وهو ضابط سابق في وزارة الخارجية الإمبراطورية السابقة، بمساعدة الجنرال لودندورف. لواء إرهارت، وهو من أكثر تشكيلات الفيالق الحرة ثورية وتطرفا - والذي كان قد بدأ في وضع شعار الصليب المعقوف على خوذات جنوده حتى قبل أن يتلقف هتلر

تلك الفكرة - وقام بعمل مسيرة عبر بوابة براندنبورغ. وفرت حكومة الاشتراكيين الديمقراطيين، ولما لم يعد بمقدورهم الاستنجاد بالفيالق الحرة لتنقذهم من فيالق حرة، ردوا على ذلك بإعلان لكل الأمة يطالبها يالقيام بإضراب عام وشامل. ومن المدهش أن كل العمال استجابوا للنداء، وبدءا من يوم الأثنين، توقف كل شيء في ألمانيا: الصحف، والكهرباء، ومياه الصنابير. كان العمال الألمان منضبطين بشدة، والإضراب يعني إضراب. وفرت عصبة دكتور كاب إلى السويد وهي محبطة[1]. وفي قمة فشل انقلاب كاب، حاول الشيوعيون قيادة الثورة الألمانية والهيمنة عليها من جديد. بعد أن أدى إضراب الأمة بأجمعها إلى إزاحة الجناح اليميني للثورة عن السلطة، قام الاسبارتاكوسيون بتكوين جيش من ثمانين ألف رجل اسمه «جيش الرور الأحمر» للاستيلاء على المناجم الألمانية والصناعات الثقيلة. وأرسل لينين مجموعة من الوكلاء لقيادة تلك العملية، وبطريقة آلية هاجم السبارتاكوسيون الشرطة والمنشآت العسكرية. ولكن كما اعتادت الحكومة الاشتراكية الديمقراطية في برلين أن تضرب على الدوام خاصرتها اليسارية، قامت برد الضربة بالفيالق الحرة المتوحشة

(١) بينما كان هتلر مازال جنديا يؤدي خدمته العسكرية، طار على متن طائرة مزدوجة الأجنحة من ميونخ إلى برلين للمشاركة في أحداث الانقلاب، ولم يتمكن إلا من مقابلة سكرتير كاب الشخصي، وكان يهودياً مجرياً يدعى تريبتش لنكولن. وطبقا لما ذكره لنكولن، فإنه أبلغ هتلر- فوهرر المستقبل - أن الانقلاب قد انتهى وفشل، وأن مدبري الانقلاب وعلى رأسهم كاب قد فروا جميعا إلى السويد، وأن من الأفضل له أن يعود إلى ميونيخ إن كان يود أن يتجنب الاعتقال، ونصح الانقلابي اليهودي هتلر قائلا: «لا تنتظر حتى يجدوك هنا، إلا إن كنت تود أن تعتقل. معذرة، لا أستطيع أن أبقى هنا أتحدث إليك أكثر من ذلك. حظاً طيباً»

شديدة الصرامة، والتي أخذت على عاتقها مهمة خوض قتال شوارع كما لو كانوا يشنون هجوما على فيردان. نفس قوات الصليب المعقوف التي كانت بالكاد قد قادت ثورة يمينية في برلين سحقت الجناح اليساري في وادي الرور.

وأخيرا، انتهت الاضطرابات العظمى، على الرغم من استمرار معارك الشوارع وهبوب ثورات صغرى في المدن الكبرى والمتوسطة في جميع أنحاء البلاد.

في ربيع ١٩٢١، حين كان ليف يعبر الحدود من فرنسا إلى ألمانيا بصحبة أبيه، كانت ألمانيا قد استقرت على حالة من الهدوء غير المريح. كان ليف وأبوه ذاهبين إلى منطقة في ألمانيا أبعد ما تكون عن العنف والاضطرابات السياسية - مكان لم يشهد أي اضطرابات حتى أثناء قمة الفوضى التي عمت البلاد. كانت المدرسة التي تقدم لها ليف تقع في واحدة من الجزر الحصرية لساحل بحر الشمال والتي ظلت حتى اليوم جنة لاستجمام أثرياء الألمان، شيء يماثل النسخة الأوربية لنانتوكيت، أو ربما جزر سواحل ولاية كارولينا.

ولما وصل ليف وأبوه لمحطة آخن الصغيرة، في منطقة التقاء الحدود الألمانية والهولندية والبلجيكية، حاول ليف أن يتماسك بسبب وجود كثافة بشرية هائجة ومائجة، وعمال يلوحون برايات يرفعونها، وجنود يصيحون في خشونة، أو على أقل تقدير يستجوبون الناس بخشونة ويوجهون لهم أسئلة وهم يكزون على أسنانهم.

وكتب ليف عن ذلك: «كانت الصورة المعتادة لمحطة قطار في مخاض ثورة»، لكن:

جاء حمال حقائب صبي، أخذ حقائبي وحملها بهدوء إلى محطة

أخرى. كنت مندهشا جدا، حتى أن نظارتي ذات العدسة الواحدة سقطت من عيني. هل يسمون هذا ثورة؟ لم أكن قد وصلت بعد إلى هامبورغ وأحسست أنني أفضل حالا بسبب صبي - يبدو أن كل أمة تقوم بثورتها بطريقتها الخاصة. ولكن لم يكن هناك شك في أنه في تلك البلد، التي سمعت عنها أفظع الأشياء، يمكن للمرء أن يعيش عيشة طيبة.

واستمر ليف وأبوه في السفر ليومين آخرين قبل أن يصلا إلى الجزيرة الساحرة التي تضم المدرسة النموذجية والتي أطرى عمه عليها أيما إطراء. كان ليف يكاد يفقد الوعي نشوة مع كل ميل يقطعونه ولا يواجههم فيه عمال ثائرون أو جنود متحجرو القسمات. كان يتشرب كل لمحة من الحساسية الألمانية والبرجوازية الألمانية، والنظام الدقيق. لم يكن بالكاد يستطيع أن يسيطر على تهليله لكل أمر يعجبه مهما قل شأنه.

لم تكن الجزيرة (التي لم يسمها ليف أبدا في أي نص) تضم مدرسة داخلية بالمعنى المفهوم بل ما هو أقرب إلى منتجع، نوع من المنتجعات الرياضية الطبية الذي كان شائعا في ألمانيا ووسط أوروبا قبل الحرب. كان بالضبط من نوع المنشآت التي يقصدها أثرياء نفط من باكو يقضون فيها أغلب وقتهم حين يذهبون لألمانيا، لذلك شعر ليف وأبوه على الفور وكأنهما في وطنهما. كانت حديقة كبرى تشغل معظم أرجاء الجزيرة. وفي المنتصف كانت توجد مجموعة من المباني الصغيرة للمعيشة ومبنيان رئيسيان آخران: المصحة، وما يمكن أن يطلق عليه «المبنى التعليمي» حيث يمكن للمقيمين المحتاجين للراحة أن يتابعوا دروس المدرسة. كانت الجزيرة تموج بنشاط هادف. أطباء، وممرضات، ومدرسون، وخدم، وإداريون يتنقلون بسرعة من

مكان لآخر، مشغولين بالأمور الصحية، والتعليمية، والترفيهية لنزلائهم.

وأسرع نوسيمباوم، الأب والإبن، لمقابلة المديرين، وهما الطبيب المسن المرح الذي يدير المصحة، والأكاديمي الشاب النحيل الذي يدير المبنى التعليمي الداخلي. كان المديران قد عرفا من عم ليف أنهما سيستقبلان رجل نفط وابنا له في العقد الثاني من عمره قادمين من باكو مرورا بباريس، وأن الإبن سوف يكمل تعليمه هنا في الجزيرة. لم تكن الإدارة معدة لاستقبال صبي فارسي متأنق بنظارة وحيدة العدسة وبخفين من الجلد الغالي الذي قدم له نفسه على أنه «الطفل» المعني وقدم أبيه بتردد ولهجة رسمية طنانة. لم يكن أبراهام يتحدث الألمانية بأي قدر، لذلك لجأ إلى إظهار صمت ملغز حين كان ابنه يحادثهم بالألمانية.

أعرب ليف في بداية حديثه عن امتنانه الغامر وارتياحه الشديد، بالنيابة عن نفسه وعن أبيه، وأن الثورة يتم التعامل معها ببراعة شديدة هنا في الشمال الألماني. وأنه لم ير من قبل هذا القدر من الإظهار الرفيع للبراعة الأرستقراطية والبرجوازية في مواجهة اضطرابات وفوضى عامة. قال ليف: إنها بالفعل معجزة لأنه «لا يوجد إطلاق نار في الجزيرة على الرغم من الثورة المندلعة في أنحاء ألمانيا، وأن كل رجال الشرطة يقومون بواجبهم على أكمل وجه كل في وظيفته».

وطبقا لما سجله ليف بنفسه، فيما كان المديرون يصحبون الضيف الكبير وابنه صاحب العوينة، لم يتمكنوا من إخفاء حيرتهم إلا بصعوبة. ولم يفهم ليف الأمر على نحو خاطئ. لقد كان في غاية السعادة من الجانب المسالم الذي وجده في مستقره الجديد ومن أن ينظر إليه بنظرة متعجبة. كانت هذه هي ألمانيا التي مثلتها مستعمرة

هيلينيندورف الألمانية في القوقاز، البلد الذي يزوره أثرياء بلده مرتين سنويا في إطار جولاتهم الأوربية - ترف ورفاه ما قبل الثورة لمرتدي البزات البيضاء، وحدائق الحشائش المجزوزة، والأحاديث المهذبة.

وعقد المديران جلسة نقاش واستشارات مطولة، كانت في بدايتها مع ليف وأبيه، ثم أصبحت جلسة مغلقة خاصة دون ليف وأبيه. أخبروا الولد ذي العوينة أنه «أنضج كثيرا» من أن يعيش مع أولاد ألمان من عمره، وأن التعليم الذي ناله فيما سبق يجعله «أكثر تميزا» من أن يتعلم مع أولئك الأولاد. وسوف يتذكر ليف لاحقا: («لم أدرك إلا لاحقا الأثر الذي تركه لديهم مظهري المختلف، كان التناقض بيني وبين الأولاد الألمان من سن الخامسة عشر يبدو كثير الأوجه»). قرر المديران أن يعاملا ليف ككائن «برمائي - نصف عميل منتجع صحي، ونصف تلميذ». سوف يعيش في المصحة ويتلقى تعليما خاصا من معلميه في المبنى التعليمي، حتى يأتي الوقت الذي «يمكن اعتباره فيه كشاب عادي في السادسة عشرة من عمره».

ولم يبد أن ذلك الوقت سيأتي، غير أن كل ذلك لم يجعل الأمر مفهوما ولا واضحا لأبراهام، الذي لم يتمكن من فهم الفرق بين المصحة والمبنى التعليمي. وبدا للمديرين أن تلك الخطة تبدو طيبة.

وسجل اسم ليف في المصحة، وعلى الفور تقريبا، ساعده جهله المطلق بالثقافة الأوربية أن يكون انطباعا صادقا. خصصت له غرفة مجاورة لغرفة عازف كمان شهير. ومن وقت لآخر كان عازف الكمان يتدرب، وفي الحديقة الواقعة أسفل غرفته، كان النزلاء المحبون للموسيقى يتجمعون تحت النافذة للاستماع لعزفه. لم يكن ليف يعرف شيئا عن شهرة الرجل، كما لم تكن لديه ملكة الاستمتاع بتلك الموسيقى، ويتذكر قائلا: «كنت أعد المستمعين من الحمقى، ولكن

عازف الكمان لم يكن يحلو له أن يبدأ تدريباته إلا في الوقت الذي اعتدت فيه أن أغفو قليلا بعد الظهيرة». وضبط ليف وضع نظارته وحيدة العدسة وذهب ليشكوه للمدير، وإن كان بإمكانه أن يصنع شيئا إزاء تلك الضوضاء؟ واكتفى المدير بالضحك. ولكن بعد بضع ساعات، هرع ليف إلى عازف الكمان. واقترب منه العازف العظيم بعلامات الجد على وجهه وصافحه بقوة وضغط على يده بحرارة. قال: «عظيم أيها الشاب، لديك شجاعة الاعتراض والإصرار على موقفك»، ومن ذلك الحين، صار ليف يلعب مع العازف الداما، وزاد ذلك من السمعة المتميزة للشاب الصغير ذا المظهر الآسيوي وخزانة ثيابه الغريبة.

أحب ليف الجزيرة. واستمتع بممارسة الرياضة لأول مرة في حياته - لعب التنس وتعلم السباحة. كان يتمدد على الشاطئ الدافئ الأسود ويتخيل أن بحر الشمال ليس إلا صحراء زرقاء متموجة. ولم يركز كثيرا على دراسته، غير أنه أجاد في تعلم مهارة واحدة سوف تكون أساس كل مهنته - وهي التمكن المطلق من اللغة الألمانية. كان يختلط بكل الوسائل بالأثرياء الأوربيين الذين جمعتهم الجزيرة. أحس ليف أنه تعثر في «أفضل وجه لأوروبا. خلاصتها وموجزها، وجهها المشع والمضيئ، المتلألئ والبراق والمشرق والمتألق والخالي من الهموم، الراضي على الدوام، والوجوه المثقفة». هنا في الجزيرة، كانت الحياة «خفيفة كريشة». ووجد ليف أن حالته المزاجية السيئة تتلاشى. «فجأة كففت عن البقاء صامتا. كنت أتحدث وأستمع. وتبين لي أن لدي ما أود قوله، وأن النزلاء الآخرين كان لديهم ما يضيفونه لي. كانت منطقة توقف سعيد وقصير لوجود كان حتى ذلك الوقت وحيدا ومشوشا ومضطربا».

وكما يحدث مع أغلب الذكور في عقدهم الثاني من العمر، كانت أسس رفع هذا العبء، وتخطي السور الذي يفصله عن الآخرين، يكمن في التواصل مع الجنس الآخر. أخيرا وجد ليف حبيبة القلب - أو ما يشبه ذلك. أو بالأحرى أنه اكتشف أن عليه أن يكون له حبيبة، والتي يمكن لها أن تبلغ قدرا يوازي نفس الاحتياج لشاب صغير في مقتبل عمره. متذكرا أول مقابلات حقيقية له بفتيات، كان يرتد على الفور للتفريق ما بين المغازلة الشرقية والغربية، و مسألة النقاب والحجاب والحوائل غير المرئية التي تفصل الجنسين. في باكو كانت كثير من الإناث في النطاق الاجتماعي لليف لا يضعن نقابا ولا حجابا، ورغم ذلك كن بالنسبة له «جيدات بقدر المحجبات». تذكر ليف تلك المشاعر مسجلا:

كنت أتحدث إليهن قليلا بقدر ما يمكنني و بقدر كبير من الخجل وبأكبر قدر من الاحترام، كما لو كنت أتعامل مع كائنات شديدة الهشاشة ولكنها شديدة الخطورة في الوقت ذاته. وفي الواقع، وباستثناء الأقارب المباشرين، لم تكن هناك نساء بالمعنى الأوربي، كانت هناك تماثيل حية متنائية، يجب على المرء ألا يلمسها ولا يقترب منها.

كنت أعرف بالطبع أن هناك نوعاً آخر من النساء اللاتي يمكن للمرء أن يلمسهن، ولا يكتفي يلمسهن فقط. غير أن ذلك الصنف في حدود ماكنت أعرفه لم يكن نساء، ولا بشر، بل ربما حيوانات، كن مخصصات للبحارة المخمورين على أرصفة الموانئ والهمج من الرجال، ذلك الصنف من الرجال الذي نتجنب مخالطته.

كان ليف قد اكتشف في مدينة باتوم أن النساء المنتميات لأسر محترمة، الشقراوات المتعلمات زرق العيون من المناطق الروسية

المسيحية، يمكن أيضا أن يتحن أنفسهن للرجال مقابل ثمن مادي. كان مجتمع اللاجئين الروس مليئا بمثل تلك النساء، وكان ذلك متفشيا بشكل أكبر بين النساء اللاجئات الروسيات في القسطنطينية وباريس، حيث كان كل ما يمكنه عمله لكبح جماح مشاعره أن يتخيل مآذن المساجد وهو يتأمل سيقان النساء الملفوفة في جوارب حريرية شفافة. ولكن حتى في باريس، كانت تلك النساء مثل «صور جميلة، ولم تخطر لي أبدا حتى مجرد فكرة التحدث إليهن، ناهيك عن لمسهن. لم أكن على أي حال بحار مخمور ولا إنسان همجي. عرفت أيضا ما هي وظيفة النساء. فذات يوم، حين أعود لوطني، سأتزوج بواحدة منهن وأنجب منها أطفالا - الأمر بسيط جدا- هذا كل ما في الأمر.

على الجزيرة الخضراء بدا كل شيء مختلفا: فجأة، لم تعد النساء كائنات بعيدة ونائية». لم يعد هناك بالجزيرة بنات عم أو خال أو شقيقات، فليس هناك إلا هو وأخريات ليس بحاجة للدفاع عنهن. كانت النساء الألمانيات من أكثر النساء تحررا في العالم. كانت أغلب البنات الألمانيات القاطنات بالمصحة من هامبورغ، مما كان يعني أنهن الأكثر تحررا من بين كل البنات الألمانيات، بمظهرهن الرياضي الإنجليزي. وصدم ليف حين اكتشف أن النساء يمكن أن يكن متحدثات، ويحببن ممارسة الرياضة، أي «أناس من دم ولحم». لعب معهن التنس ورقص معهن، وكان يراقبهن وهن يتقافزن حوله «شبه عاريات» - أي، بلبس سباحة عقد العشرينيات - بين الأمواج، ويجالسهن على طاولة واحدة في العشاء اليومي. أشد ما صدمه الطريقة التي شعر أنهن ينظرن إليه بها - «بفضول لا يحاولن إخفاءه».

كان مصدوما من شدة شقارهن. بدت البنات على الجزيرة كدمى قادمات من متحف الشمع. لم يسبق له يوما أن يكون محاطا بتلك

الأعداد الكبيرة من الشقراوات، ولم ير شقارا من قبل بتلك الدرجة من القرب. أذهله غياب الخجل أو غياب شيء أساسي كان لابد من وجوده: «بدا لي الأمر سخيفا في البداية: فقد كن بلا لون، وغير مكتملات. وأتذكر أنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك حين وجدت نفسي أواجه بنات بشعر كالكتان الأصفر». كان يجد أيضا صعوبة في التفريق بينهن، فقد بدت له الشابات وكأن لهن ذات الوجه والملامح مع اختلافات طفيفة جدا. حتى حين اعتاد أن يفرق بينهن، كن ما زلن غريبات جدا لإثارته فيما هو أبعد من التوتر. وبعد غروب الشمس، كان الشباب والشابات يتسللون إلى لقاءات غرامية في الحديقة، وظل ليف يراقب الثنائيات الشقر يقبلون بعضهم بعضا في نشوة وسعادة على ضوء القمر بين الأشجار.

وكان لديه قدر من التحكم في الأعصاب يمكنه من عدم الاقتراب من البنات لأي غرض أكثر من لعب مباراة تنس، لكنهن سرعان ما تقربن هنَّ منه. وبدأ يخرج مع مجموعات من الشباب الألمان ويذهبون إلى حانات ومشارب في المدينة المحلية القريبة. ولأول مرة في حياته، وجد ليف نفسه يخالط بسهولة أناسا من سنِّه. لم يشعر أبدا أنه واحد منهم، وكان ذلك مدخله: «كنت مخلوقا غريبا، مشرقي بري هبط رأسا من باريس». (وربما ساعد على ذلك أيضا أنه كان يرتدي حلات داكنة، ويضع عوينات زجاجية، ويسكن بالمصح لا في أقسام النوم كباقي الطلاب الآخرين).

وسيان إن كان حقيقيا أو بالخيال، أحس ليف أنه كان محط أنظار الجميع على شاطئ البحر. وفي عالم زاخر بالشقراوات صحيحات الأبدان ويتفجرن حيوية، كان هو النحيل الداكن، أو الأجنبي الغامض. وجد في تأملاته في صحراوات أذربيجان وعلاقتها ببحر

الشمال «توحد غامض» فكانا انعكاسا للاضطراب الجنسي بذات قدر المشاعر المشرقية الوليدة، وكتب عن ذلك: «عذبتني رؤى، فيما كانت النساء شبه العاريات يزحفن نحوي على الرمال ويحملقن بي في شهوة واضحة، فقد كنت. . . مهيجا لرغباتهن الجنسية».

كان ليف مازال عاجزا عن تخيل احتمال تقبيله لفتاة شقراء. ولكنه تعرف إلى فتاة قادمة من برلين، جميلة وتكبره بعامين، بعيون بنية وشعر بني غزير. خرجا معا للتجديف ولعب التنس، وخرج معها ذات مساء إلى المدينة ليرقصا في أحد المراقص. وذات ليلة وهم في طريق العودة، استجمع ليف شجاعته واحتضنها. وتوقفا تحت إحدى الأشجار في مواجهة البحر، وكان هدير الأمواج عاليا، قاومت كنوع من الدعابة وهي تبتسم، ثم لم تعد تبدي أي قدر من المقاومة.

راحت الفتاة تقبل شعر ليف، وتقبل عينيه. وتسارعت أنفاسها من الإثارة حين قبلها وألقت برأسها للخلف من النشوة، ونظر ليف إلى شفتيها المنفرجتين، وبمجرد أن لمح أسنانها تومض وتتألق على ضوء القمر، فقد سيطرته على أفكاره، وجد أفكاره تغوص في مكان ما بعيدا عن الرومانسية واتقاد الرغبة. كان هناك شيء فظيع ومرعب في تلك الفتاة، كانت شفتاها شرهتين ومفترستين، والأسنان. . . والعينان. شعر ليف أن العينين البنيتين اللتين تنظران إليه ليستا إلا شيئا غريبا وأجنبيا، بعيدتان جدا عنه، وبلا حياة. «كان هناك شيء غير إنساني في ذلك الوجه، وفي تينك العينين، شيء غير إنساني، شيء عميق لا أسبر غوره».

خلص ليف نفسه بلطف من حضنها. كانت صامتة. وشعر بتشوش من ردة فعله غير المفهومة، وأصبح مشوشا من عدم شعوره بالرغبة الحسية تجاهها - كان يدرك أنها بالفعل جميلة، بل واحدة من أجمل

البنات في الجزيرة بأجمعها، أو هذا ما كان يعتقده. واصطحبها حتى مسكنها، مظهرا أكبر قدر يستطيعه من الكياسة والمجاملة، وقبل يدها، وعاد وحيدا، وانفجر في نوبة ضحك هستيرية، انقلبت إلى نوبة بكاء، ثم راح يستحم بتوجس على مدى ساعة كاملة. أحس أنه قذر ووحيد جدا. ولكنه أحس أيضا كما لو كان قد تمكن من الفرار من خطر مخيف. من بعد ذلك أصبحت ذات الشعر البني تنظر إليه بكراهية شديدة، غير أن ليف شعر أنه قام بالتصرف الوحيد الممكن، متذكرا «فزعه من نظرة عينيها المليئتين بالرغبة والشبق».

وسوف يصحب ليف بعدها بنات ألمانيات عديدات إلى منطقة الأشجار المواجهة لشاطئ البحر. أثبت سحره الشرقي قدرته الدائمة على جذب البنات الألمانيات، ولغز المرأة السابقة بدا وكأنه يجذب إليه بنات جدد في علاقات لم تكن مجدية. كان احتشام ليف المهين يقابل بمثله من كل بنت قام معها بعلاقة قريبة من الغرامية: انسحاب مفاجئ من حالة الحنان والرقة إلى حالة من الرسميات الجامدة المهذبة الخالية من المشاعر. لم يكن دافع ذلك الرغبة في التجربة. ود أن يكون عاشقا عظيما وأن يستمتع بالخطوات الأولى فقط. لكن في كل مرة كان هو والفتاة الجديدة وهما في حالة الاحتضان، كانت شفتا الفتاة وعيناها تبدوان له «في حالة اهتياج شديد»، وفي كل مرة كان ينكص من أثر ذلك «الشبق الليلي». لم يتمكن من التواؤم مع الشبق الصريح المباشر للفتيات الألمانيات. «لكن في كل مرة، كل مرة، كنت أنكص عندما أجد صورة التوق والشبق والرغبة الجنسية السافرة التي لم أعتدها، وينتهي اللقاء بقبلة على يدها وانحناءة احترام». وفيما بعد نظر إلى ذلك على أنه أول أمارات مشاكله مع النساء الغربيات.

وبسبب عدد الفتيات اللاتي اصطحبهن إلى شاطئ البحر ليلا، اكتسب ليف شهرة لا يستحقها كمغوي شرقي كبير، على الرغم من أنه ظل بعيدا عن أية تجربة حقيقية كاملة خلال الصيف بأكمله الذي قضاه في الجزيرة. كان بالفعل ينجذب للشقراوات، ولكن لم يحدث أبدا ما هو أبعد من ذلك. قضى أيامه بالجزيرة في لعب الضامة، ولم يدرس بجدية أبدا، حالما بجمال تسير على الشواطئ الصخرية تحت المبنى.

وفي بداية خريف عام ١٩٢١، كتب مديرو المبنى التعليمي إلى أبى ليف أن تعليم ابنه ربما يكون أفضل له لو أكمله بوسائل تعليم تقليدية. في ذلك الوقت كان أبراهام قد نقل مركز أعماله في بيع الأرواح الميتة من باريس إلى برلين، حيث كانت برلين قد أصبحت مركزا لأعمال أغلب اللاجئين الروس. كان ليف حزينا لمفارقته غرفته المريحة في المصح - ولعب الضامة مع عازف الكمان الشهير، والغراميات العاطفية المجهضة، ونزهات ضوء القمر مع الفتيات الجميلات.

غير أنه أثناء اليومين اللذين قضاهما في هامبورغ في طريقه إلى برلين، بدا له العالم وكأنه مازال خفيفا وحرا. استكشف ليف المدينة - الميناء ورأى أحواض بناء السفن التي كان يغادر منها كثير من اليهود الروس ألمانيا، ويقومون بهجرتهم على متن سفن بحرية كبرى إلى أميركا. (الرجل الذي أنشأ خط هامبورغ - أميركا البحري كان يهوديا ومن أقطاب رجال صناعة السفن وهو ألبيرت باللين، وقد انتحر في نوفمبر عام ١٩١٨، بسبب عدم قدرته على احتمال صدمة استسلام ألمانيا في الحرب العظمى). كان سحر الجزيرة والفتيات الشابات وقضاء الليالي على ضوء القمر بالقرب من البحر وصوت الأمواج ما زال يفصل ليف عن الأفكار الكئيبة والحزن والتشاؤم والمخاوف

ومشاعر الارتياب. ولكنه مجددا لم يكن جاهزا ولا معدا للعالم الواقعي الخارجي البعيد عن خيالاته وتصوراته. وبشكل فجائي «تغير كل شيء تغيرا جذريا، كما لو كان ساحر عجيب قد ضغط على زر ووجه حياتي إلى وجهة مغايرة كليا»، وكتب ليف في مذكرات فراش موته: «ذهبت إلى برلين وضحكت أيضا، ظانا أنها جزيرة خضراء أخرى من جزر بحر الشمال. وكنت على خطأ بين. . . فقد استقبلتني المدينة دون مبالاة كما لو كانت عملاقا يرمق قزما لا وزن له».

وسوف يحب ليف حداثة برلين القرن العشرين الفريدة المليئة بسخام مداخن مصانعها - و«استقامة الشوارع. . . وجمال الحزم والصرامة والانضباط الألماني» أبهجته برلين إلى أقصى حد وبطريقة تماثل تماما عشقه للأسوار الأثرية القديمة المتداعية والأسواق الشعبية في الحواري الملتفة ومآذن المساجد - ولكن كانت هناك نوع خاص من القسوة استقبلته بها بالمدينة الكبيرة في ذلك الخريف. فقد خيم على وصول ليف لبرلين أخبار الأرواح الميتة: فلم تعد تؤتي أكلها كما كانت. وفي الحقيقة، انهار السوق، حيث بدأت تقوى التوقعات بأن الحكومة السوفياتية سوف تدوم وتبقى وأن أعمال بيع أصول حقول النفط لم تعد ذات جدوى. وبالفعل، كان أبراهام قد سحب ليف من مدرسة الجزيرة لتوفير نفقاتها العالية. (حين وقعت ألمانيا وروسيا اتفاق «راباللو» عام ١٩٢٢، بحيث تضمن كل دولة منهما للأخرى معاملة الدولة الأولى بالرعاية في التجارة والشؤون العسكرية - وبناء على الاتفاق سوف يتغاضى البلاشفة عن إعادة تسليح الجيش الألماني سرا - وبناء على تلك الاتفاقية أيضا انهار سوق الأرواح الميتة كليا لتلاشي الآمال في انهيار الحكومة السوفياتة وفقدان الأمل في العودة واستعادة الملكيات الخاصة من آبار نفط وغيرها).

وظل الرجل العجوز أنيقا كعادته، لا يخرج أبدا من بيته دون حذاء نظيف شديد اللمعان وعصا يده الأنيقة. وكان ليف يقلده بدهانات شعر لامعة، وبزات كاملة من ثلاث قطع، وعوينة أصبحت الآن توضع بطريقة طبيعية غير مصطنعة. غير أن ليف رأى والده لأول مرة أقل من أن يكون مسيطرا على كل شيء، وأن مستويات تنشئته المحمية والمصانة التي اعتادها بدأت تتباعد عن اهتمامات أبيه، وكأن كل مغامرات «أيام الصحراء» لم تحدث أبدا. واستخلص فيما بعد من تلك الأيام: «عرفت الآن ما هو أهم من كل حكمة الجزيرة الخضراء. تعلمت أنه إلى جوار الجمال والصحراوات... والمدرسين، والجميلات من النساء، والبحر الأخضر، يوجد هناك شيء آخر يفوقها أهمية، الجانب المتقلب من الحياة: وهو المال».

الفصل الثامن

سور برلين

بينما كان الفقر يشكل واقع الحياة التي عاشها سكان برلين في عام ١٩٢١، أدى التضخم الاقتصادي الذي تلى خسارة الحرب وفقدان الأمل لدى الألمان إلى جعل الأجانب بمن فيهم اللاجئون الروس يبدون أثرياء مقارنة بالألمان. حتى المارك الألماني الذي كان سعر صرفه قبل الحرب أربعة ماركات مقابل دولار أميركي، بلغ سعر صرفه عام ١٩٢١ خمسة وسبعون ماركا مقابل دولار أميركي (وسوف تصل الأمور إلى ما هو أسوأ بمراحل كبيرة: فبعد عامين، فسوف يصل سعر الصرف إلى ٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ مارك مقابل دولار أميركي). ولو كان مازال لدى اللاجئين الروس مجوهرات لرهنها أو حسابات بنكية في سويسرا، كان يمكنهم أن يحققوا ثروات بسعر الصرف ذاك. غير أن أصحاب الصناعات السابقين والذين تركوا مصانعهم وممتلكاتهم في روسيا أصبحوا في ورطة حقيقية. ولم يعد لدى أبراهام أية أموال على الإطلاق، على الرغم من استمراره في متابعة ما يعرضه للبيع من أرواح ميتة في باريس بانتظام رغم معرفته أنها قد أصبحت غير قابلة للبيع. لم يعد هناك إلا مجرد التماسات لتسجيل مواقف، أكثر منها فعاليات حقيقية للبيع أو التفاوض حول بيع. وأفلست عائلة نوسيمباوم.

كان من المهانة الرجوع إلى باريس، والعيش على معونات من أقارب أم ليف، بينما كان الرجوع للـ«الوطن» خارج أي اختيارات محتملة. والأغرب من كل ذلك، أن ليف وجد نفسه في حالة سريالية مزروعة من مشاعر الوطن، كما لو كان هو وأبوه يطوفون بكل العالم المعروف فارين من إمبراطورية روسية منهارة، ليجدوا أنفسهم رغم كل ذلك النصب عائدين إلى قلبها في برلين. كان ذلك أيضا ما يطلقه الألمان على برلين في خريف عام ١٩٢١ - كانوا يطلقون على برلين العاصمة الثانية لروسيا.

ومثل أغلب اللاجئين والمهاجرين الآخرين، انتقل ليف وأبراهام إلى شقة في شارلوتنبورغ، المنطقة الغربية الراقية من المدينة والتي أصبح يشار إليها في ذلك الوقت من قبل الألمان باسم شارلوتنغراد (وكان الروس يسمونها بيترسبورغ). كانت برلين تتحول إلى مركز للروس خارج روسيا من عام ١٩١٨، حين كان الفارون من الثورة الروسية يتجمعون في العاصمة الألمانية بأعداد كبيرة حتى أن سائقي الترام حين يصلون إلى محطة «شارع بولوف» كانوا ينبهون الركاب بصوت مرتفع قائلين: «روسيا». كانت برلين من الناحية الجغرافية العاصمة الكبرى الأقرب للإمبراطورية الروسية، وكان الحصول على تأشيرة دخول لألمانيا سهلا، كما كانت تكلفة المعيشة رخيصة. ولم يكن أغلب المهاجرين في شارلوتنبورغ من المناطق «المشرقية» الغريبة من روسيا فلم يسلكوا في فرارهم الطريق الجنوبي الدائري الملتف المار عبر القسطنطينية، وروما وباريس ليصلوا إلى برلين. كانت الغالبية من سانت بيترسبورغ وموسكو وعبروا إلى برلين مباشرة عن طريق بولندا بالقطارات أو السيارات أو بأي وسيلة ممكنة للفرار.

ويتذكر الكاتب إيليا إرنبورغ الذي وصل إلى برلين قادما من

موسكو في ذلك الخريف قائلا: «في كل زاوية ومع كل خطوة، كان يمكن للمرء أن يسمع كلاما روسيا، عشرات المطاعم الروسية افتتحت - تعزف بها آلات البلالايكا، والزوران، مع وجود غجر، وتقدم البانكيك والشاشليك، وبالطبع، مع الحزن والحسرة». كانت الوظائف عصية وغير متوفرة، ولكن المدخرات أو المعونات من وكالات الإعاشة والإغاثة الدولية امتدت على نطاق واسع من المدينة حيث كان الألمان يحملون أجورهم التضخمية إلى بيوتهم في سطول الماء. ويذكر إرنبورغ في مذكراته عن عام ١٩٢١ في برلين: «كان أصحاب المحال التجارية يغيرون بطاقات الأسعار على السلع كل يوم، كان المارك الألماني ينهار، كانت قطعان وحشود الأجانب يتجولون في كورفورستندام: يشترون بقايا العز السابق بأغنية». وكتب الشاعر السريالي أندريه بيلي عن ذلك بعد سنوات: «لو سمع أحد لغة ألمانية كان يتساءل بعدم تصديق: كيف؟ ألماني؟ ما الذي يبحث عنه الألمان في مدينتنا؟.... وأمام المحال الغالية المبهرجة كان يجلس المتسولون، المبتورو الأذرع، أو السيقان، ممن صرفوا من الحرب لإصابتهم، من عام ١٤، أو ١٨، وكثير منهم يزين صدره بالصليب الحديدي، نيشان البسالة... يعرضون عاهاتهم على المارة للاستجداء».

وكعاصمة كبرى، نمت برلين بقدر نمو مدينة أمريكية كانت برلين تقارن بها في ذلك الوقت، وهي مدينة شيكاغو. لقد نمت بسرعة كبيرة وسقطت بسرعة أكبر.

مع بداية القرن العشرين، كانت المدينة النائمة على ضفاف نهر شبري مجرد مدينة وحامية عسكرية صغيرة، عاصمة إدارية لمملكة بروسيا، حيث كان كل من فيها يعمل بالحكومة البروسية. غير أن

الملك فريدريش الأكبر الميال للفرانكوفونية كان قد بدأ في إضفاء صبغة ثقافية وحضارية على العاصمة الإدارية مع كفاءة حملته العسكرية: فقد دعا الهوجونوت الفرنسيين المضطهدين والمفكرين المتطرفين مثل فولتير لطرح أفكار جديدة بل إنه استخدم «أفضل» اليهود المحليين مثل موسى مندلزون الذي نال إعفاءً جزئيا من القوانين المعادية لليهود بسبب عبقريته الفذة (وسياساته). ولما افتتح اليهود المستثنون والأجانب صالونات أدبية باللغة الفرنسية، أكتسبت المدينة اسم شهرة جديداً هو «أثينا على نهر شبري»، على الرغم من أن النقاد قالوا إن ذلك الاسم كان مجرد إشارة إلى كل المباني الكلاسيكية الجديدة التي شيدها حكامها المستبدون. كان الجميع يعرفون أن برلين كانت بالفعل «اسبارطة على نهر شبري»، أي عاصمة دولة عسكرية صارمة متشددة وقاسية.

ومهما كانت الوسائل التي اتبعها الملوك البروسيون لتنمية المدينة، فقد نجحت تلك الوسائل. ومع بدايات القرن العشرين، كانت برلين عاصمة لثاني أمة صناعية في العالم بعد الولايات المتحدة. ونما عدد سكان المدينة من مجرد مليون نسمة عام ١٨٧٧ إلى مليونين بحلول عام ١٩٠٥ ثم إلى أربعة ملايين عام ١٩٢٠، هذا دون إحصاء المواطنين الروس اللاجئين إليها، الذين وصل عددهم إلى نصف مليون إضافي. حلت الحكومة مشكلة أزمة الإسكان فيما قبل الحرب على الطريقة الكلاسيكية العسكرية البروسية، وذلك بإنشاء أعداد كبيرة من «الثكنات المؤجرة» على نمط الثكنات العسكرية المتنقلة والتي كان يقطنها نحو تسعين بالمائة من سكان المدينة في عام ١٩١٠. وكان النقد المعماري المبكر للقرن العشرين يصف برلين بأنها «قبر حجري» حيث يعيش ما يصل إلى ثمانين فرد في مساحة لا يشغل

مثيلها في نيويورك إلا عشرون فردا. غير أن ذلك لم يكن إلا تقديرا يقل عن حقيقة جاذبية تلك الحاضرة الاسمنتية. فبالإضافة إلى المعمار الأثيني ذي الأعمدة والمساحات المكشوفة كان هناك شيء ما عظيم ومثير، مدينة بإيقاع لا مثيل له بين مدن العالم القديم. كان التعبير السياسي في عاصمة القيصر البروسي يتم بحرية مدهشة في تلك الأعوام. حتى كباريهات برلين السياسية نمت وتطورت إلى جوار الاستعراضات والمسيرات العسكرية بالجند ذوي الخوذات الفولاذية والأبهة الامبراطورية، وكانت في أغلب التقديرات متطرفة بقدر تطرف عهد من خلف فايمار.. كانت كلها تنحو نحو ما يبدو أنه نمو وإنتاج بلا نهاية وإحساس مهيمن بأن موقف ألمانيا من الممكن أن يتحسن.

وحين وصل ليف وأبراهام في أثر حرب، وتضخم، وهبوط معدل الأعمار، كانت برلين تصيغ نفسها من جديد، وكتب إيليا إرنبورغ «بدا كل شيء كما لو كان على وشك الانهيار»:

> ولكن مداخن المصانع ظلت تنفث دخانها، وظل موظفو البنوك يسجلون أرقاما فلكية في تعامل البنوك اليومي مع العملاء، وظلت العاهرات يمارسن نشاطهن بعناء، عند كل منحنى وتقاطع من شارع تظهر حانات صغيرة جديدة، وقاعات الرقص التي يتشابك فيها الذكور والإناث في رقصات سريعة الإيقاع. وانتعشت موسيقى الجاز. مازلت أتذكر أغنيتين شهيرتين من أغاني ذلك الوقت: «نعم، ليس لدينا موز»، و«غدا نهاية العالم». وعلى أي حال، كانت نهاية العالم تتأجل من يوم لآخر.

كوَّنَ المضاربون ثروات خيالية من شراء الممتلكات والأصول والصناعات المثقلة بديون القروض وباتوا ينتظرون الفرص الملائمة لسداد القروض بعد شهر أو أسبوع لاحق بعملة تزداد انخفاضا وتدنيا.

في مثل ذلك المناخ، كان بإمكان أي امرئ وبأي قدر من المال أن يصبح مليونيرا وفي وقت أقصر يقفز ليصبح مليارديرا. وأدى مناخ التضخم الاقتصادي إلى تضخيم المخاوف فانتشرت المراهنات وألعاب القمار، وراجت تجارة المخدرات والمشروبات الكحولية التي جلبتها ثورة ١٩١٩ على برلين[١]. كان سكان برلين يتبادلون الاستعارات والكنايات من جديد، وديناميكية وحيوية البناء للاجئين والأجانب تجري على قدم وساق، والسياسات وأنساق وسبل الحياة المتطرفة سرعان ما ستهب برلين اسمها الجديد: «مانهاتن على نهر شبري» والتي كان المقصود منها الدلالة على الدمج القاسي بين حي هارلم الجامح بنيويورك وقرية جرينتش البريطانية الوادعة، كما لو كانت دوامات انهيار الإمبراطوريات الأوربية من حول جمهرية فايمار الألمانية قد أمتصت أفضل الفنانين المبدعين والخلاقين العالميين، الكتاب، والفلاسفة، والموسيقيين، والعلماء إلى غضب المدينة العارم والجارف. وبالفعل، بدا أن التهاوي الحر للمجتمع الألماني يحرز نوعا من الجذب الثقافي لم يسع إليه أي من حكام برلين الذين حاولوا قبل ذلك خلقه متعمدين. أصبحت المدينة شديدة الانصهار الحار، وفي القلب من ذلك التحول الجديد كان الروس المهاجرون واللاجئون.

---

(١) لاحظ أحد العاملين بالصليب الأحمر الأميركي في برلين أثناء ثورة عام ١٩١٩ أن: «الظاهرة المثيرة التي واكبت الثورة - ومن الواضح أنها كانت نمطية في مواكبتها لكل الثورات لأني لاحظت أيضا وجودها في روسيا وكذلك في فرنسا - هي الازدياد الكبير لميل الناس للرقص. وبالفعل أصبحت كل المراقص وكثير من المقاهي تبدأ مواعيد حفلات الرقص مبكرة بعد الظهيرة وتستمر طوال الليل».

كل تلك الثقافة الروسية لم تؤد بليف إلا بالإحساس بدرجة عزلته وانعزاله. لم يكن من الصعب تأمين غرف في حي شارلوتنبورغ بعد أن فر المستأجرون الألمان إلى أحياء أرخص، غير أن الغرفة التي استأجرها ليف وأبوه كانت محطمة للمعنويات، فقد كان صاحب المبنى الذي يدفع ببناته وأغلب بنات المبنى لممارسة الدعارة يتحول ويصبح شديد العدوانية وفي غاية الشراسة حين لا يدفع له الإيجار في الوقت المحدد. ولكنهم على الأقل وجدوا سقفا يحتمون تحته. وتبين أن إيجاد مدرسة ملائمة لليف يكمل بها تعليمه يشكل تحديا أشد قسوة. قضوا الأسابيع الأولى المملة والكئيبة جائلين يبحثون في أحياء المدينة عن مدرسة تقبل ليف، وكانت معنويات ليف متدنية من الإجابات التي كانوا يحصلون عليها، بعد أن أصبحوا الآن لاجئون فقراء بلا وطن بعد أن كانوا مليونيرات نفط يتجولون في البلاد التي تروق لهم. كان مدراء المدارس ينتقدون تعليم ليف السابق: بعضهم كان يرى أن تعليمه السابق أقل من المستوى المطلوب في مدرسته، فيما رأى بعض آخر أنه أكثر من المطلوب. تعليمه السابق لم يكن ألمانيا، وبالتالي اعتبروه تعليما همجيا. كان من الصعب احتساب الشهور التي قضاها في المصح التعليمي بالجزيرة. وأخيرا، بعد أن يأسوا من إيجاد مدرسة لائقة تقبله بين صفوفها، وجدوا مدرسة تقبله بكل ترحيب وبأذرع مفتوحة.

كانت المدرسة الروسية الرياضية في شارلوتنبورغ واحدة من مدرستين ثانويتين في برلين تهتمان بصفة أساسية بتعليم أبناء المهاجرين واللاجئين الروس. اتخذت لها مقرا في مدرسة خاصة للبنات الألمانيات، وسمح للروس باستخدام مبنى المدرسة فقط من بعد الثالثة عصرا بعد انصراف البنات. ووضعت المدرسة مناهج

التعليم بعناية ليتواءم مع المناهج التعليمية الملكية لنقل الثقافة الامبراطورية الروسية إليهم. كان اللاجئون الروس في برلين وباريس يتبرعون للمدرسة بكل ما يمكنهم التبرع به؛ كان خوفهم الأكبر أن يندمج النشأ في الثقافة المحلية وينسون ثقافة وطنهم الأم. كانت أغلب الحصص تدرس باللغة الروسية، لأن كلا من التلاميذ مثل كثير من معلميهم لم يكن بقدرتهم تلقيها ولا شرحها باللغة الألمانية، وكموقف سياسي من جانب آخر يحافظ على ثقافة الوطن الأم. كان ليف قد بدأ دراساته الثانوية من قبل في مدرسة قيصرية إمبراطورية في روسيا «تكاد تكون بالخارج» في القوقاز، وهو يتمها الآن في مدرسة في «روسيا الخارجية» - أي بالمهجر. ووجد أن كليهما عادي ومزعج وهو محاط بـ«أبناء أفضل العائلات الروسية» بعد أن أصبح هو وأبوه مفلسين.

وبسرعة شديدة، شعر بالميول القديمة التي كان يشعر بها وهو صبي - الشعور بأنه يختلف عن الأطفال الآخرين وإدراكه أن الاختلاف لا يعود لأسباب واضحة ومحددة يمكن التعرف عليها مثل العرق أو الانتماء الديني ولكن الاختلاف ببساطة يرجع لمشاعر وأشياء أعمق في روحه تفصله عن الآخرين. في الجزيرة الخضراء، توافق ليف مع الآخرين لأن مظهره الخارجي وحالته كان يمكن تصنيفها من قبل الآخرين وتشي بانتمائه إلى طبقة عليا اجتماعيا. كان مظهره الأجنبي الواضح يسمح له بأن يصنف كـ: شخص غريب مثير للفضول، الغلام الداكن القادم من باريس بعوينات وله أب يمتلك آبار نفط. ولكن في برلين، وفي صف من اللاجئين الروس، كثير منهم من اليهود الروس هرب آباؤهم أيضا بأموالهم مخبأة في قلب حشوات بزاتهم، شعر ليف فجأة بالهوة القديمة التي كانت تفصله عن الناس الآخرين.

ويتذكر ليف عن ذلك أنه: «ربما كان حائط المال الفاصل بينه وبين الآخرين أيضا». كان صاحب المبنى الذي يسكنون به يسمح لنفسه باقتحام شقتهم وهو مخمور وغاضب ليطالب بقيمة الإيجار في الحال، وكانت تلك الزيارات المفاجئة تتسبب في حالة من الاضطراب الشديد لليف حتى أنه كان ينام أحيانا في فناء المبنى ليتجنب تلك النوبات السيئة من المشاعر. وعلى الرغم من أن كل من كان في ألمانيا ظل يعاني من الفقر والعوز والحاجة، إلا أن الفقر كان يسبب الضيق والخجل للشاب الصغير الذي لم يعرف من قبل إلا كل ما هو عكس ذلك.

ولكن فيما كان هناك حائط نفسي يفصل بين ليف ورفاقه بالصف الدراسي - ويفصله عن أغلب الناس في أي مكان خارج المدرسة - كان «حائط المال» بشكل ما يسبب عصابا واكتئابا لليف، كعلامة وأمارة على صعوبة تكيفه على الأحوال الصعبة. وعلى الرغم من عوزهم وفقرهم، لم يكن آل نوسيمباوم أكثر فقرا عن أغلب اللاجئين الروس الذي يعرفونهم، هذا إن تغاضينا عن فقر أغلب الألمان في جميع أنحاء برلين. كان رفاق ليف بالصف مجموعة مثيرة للانتباه، لذلك لا يثير العجب أنه كان ينظر للماضي في أواخر حياته ويدرك أن «الأصدقاء القليلين الذين مازلت أحتفظ بصداقتهم في هذا العالم عرفت أغلبهم من تلك المدرسة في برلين». أحدهم، أليكسندر بريلوفسكي، ربما كان أول من كسر حائط وخطوط دفاع ليف التي كان يحتمي بها من الآخرين. كان يهوديا روسيا، هرب مع أسرته عن طريق منطقة الروس البيض في كريميا، وكان لديه ما يكفي من الذكريات السعيدة عن طيبة القلب والود الذي أظهره لهم الأتراك عند الحدود التركية وفي القسطنطينية والذي أصبح مفسراً ومترجماً

لادعاءات ليف عن الأتراك لباقي رفاق الصف الدراسي. واحد آخر سيصبح من أصدقاء العمر هو أناتولي زادرمان، وهو أيضا يهودي روسي، وكان يحب الرسم وحفظ الشعر وترديده؛ وسوف ينتقل فيما بعد إلى باراغواي، ثم إلى الأرجنتين، ثم سيصبح من أشهر مصوري وكالات الأنباء في أميركا الجنوبية (واشتهر باسم أناتول سادرمان). وسوف يعيش كل من زادرمان وبريلوفسكي حتى العقد الأخير للقرن العشرين، وبالنظر للماضي للوقت الذي عاشاه في برلين، سوف يتذكر كلاهما غرائب أطوار ليف وطباعه التي كانت مختلفة وكانوا يقصون حكاياتها لأبنائهم وأحفادهم.

بعض الطلاب الآخرين بالصف كانت لهم أيضا طباعهم الغريبة عن المألوف أكثر مما كان يبدو من ليف. فبوريس ألاكين شب وكبر في اليابان ومر عبر باريس وصولا إلى برلين؛ وسوف يلقى حتفه وهو يقاتل الشيوعيين مرتديا الزي النازي. مايرون إزكاروفيتش انضم أيضا للقوميين الألمان لمحاربة الشيوعية، ولكن بمنطلق مختلف ومغاير، فقد كان متمردا على أبيه، وكان باحثا تلموديا، وفر مايرون من البيت ليلتحق بالكتائب الألمانية الحرة، الذين كانوا مع الروس البيض في ليتوانيا. وكون إبن باحث تلمودي يفكر في الانضمام لجماعة من فرسان التوسع الألماني باتجاه المشرق - وأنهم سيقبلونه بين صفوفهم - كان لا يمكن التفكير فيه إلا على ضوء الثقب الذي فجره الثوار البلاشفة في الحياة الغربية. ومن بين البنات اللاتي كن بالصف الدراسي زوزيفينا وليديا باسترناك، شقيقتا الروائي والشاعر بوريس باسترناك، وسوف يقوم أبوهم ليونيد بدور الراعي لكل تلاميذ الصف. كان أبوهم ليونيد من الرسامين المشهورين في روسيا، وكانت زوجته عازفة كونشيرت بيانو شهيرة في روسيا. وقضى ليف ساعات طويلة

سعيدة في بيت عائلة باسترناك، وكان يسلي الآخرين بـ«قصصه الشرقية»، ويغازل الفتيات.

فتاة أخرى كانت فاحمة سواد الشعر اسمها فالينتينا برودسكايا، والتي ستصبح تحت اسم شهرتها فافا برودسكي زوجا لمارك شاغال. أما صديقة فافا الحميمة، الشقراء وجميلة جميلات الصف، فقد كانت إيلينا نابوكوف، الشقيقة الصغرى المحبوبة للروائي نابوكوف. بعد ذلك بستين عاما، ظل أليكسندر بريلوفسكي متذكرا جمالها الأخاذ الذي يدير الرؤوس، ولا يخلو تذكره من مزيد من الاهتمام وهو يصفها: «بعيونها الزرقاء في صفاء السماء وخدودها قانية الاحمرار (أو ما اعتاد الروس على وصفه في الفولكلور الروسي ببشرة الدم والحليب)، بأنف قصير مستقيم، وفم يغري باللثم، وضفائر طويلة شقراء، وجسد مغر وسخي».

كانت عائلة إيلينا من أكثر العائلات تميزا في دائرة علاقات ليف - ولم يكن ذلك بسبب أخيها بعد، ولكن بسبب أبيها، فلاديمير نابوكوف الكبير. كان بطلا حقيقيا في عالم اللاجئين الروس، فقد كان يمثل كل وجه جيد لليبرالية الروسية في روسيا ما قبل الثورة البلشفية. في عام ١٩٠٥ ساعد على تكوين حزب الدستور الديمقراطي، والذي عرف باسم كاديتس، والذي أصبح أكبر حزب سياسي في الإمبراطورية الروسية ما قبل ١٩١٧. وبعد عقد قضاه كبرلماني روسي، ومتخصص في علم الإجرام، وصحافي، وضابط بالجيش الروسي - وأيضا كسجين سياسي في سجون القيصر - متعدد المواهب نابوكوف كان عضوا في الحكومة الدستورية المؤقتة التي شكلها كيرينسكي في عام ١٩١٧. وحين أعلن لينين أن حزب الكاديتس ليس إلا «حزب أعداء الشعب» وأعطيت للشيكا كامل الحرية لاغتيال واعتقال أعضاء

الحزب، قامت عائلة نابوكوف بالهرب عبر كريميا والقسطنطينية إلى انجلترا.

ثم قام نابوكوف الأب بنقل عائلته الكبيرة من لندن إلى برلين في خريف عام ١٩٢٠ ليكون أقرب لقلب «روسيا بالخارج» (وبقي بلندن ابنه الأكبر، نابوكوف الإبن ليكمل دراسته الجامعية في كمبردج). واستعاد نابوكوف نشاطه الصحافي وأصبح محررا بصحيفة اللاجئين الروس الجديدة اليومية (الدفة)، وكانت أول طبعة للصحيفة ذلك العدد الذي نشر أخبار هزيمة جيش رانجل التي هزت كل اللاجئين الروس في برلين وكل القوميين الألمان. ومثل حزب الكاديت ونابوكوف ذاته، بقيت صحيفة الدفة تقاوم في وسط العواصف والأنواء السياسية، لا تميل نحو التطرف اليميني ولا لليسار، مقدمة للاجئين الروس وجهات نظر موضوعية عن موقفهم. وأصبحت مشابهة لصحيفة النيويورك تايمز بالنسبة للمهاجرين الروس. وكان دورها في ربط اللاجئين وإعلام مجتمع المهاجرين الروس في برلين يظهر من خلال الرسوم الكاريكاتورية التي تنشرها، وفي ذات الوقت تسخر من نفسها وتقوي عزيمتهم: مثل رسم يظهر به عازف كمان مكتئب على مسرح أمام مقاعد القاعة الخاوية؛ ويقول التعليق تحت الرسم: «الكونشيرت الذي لم يعزف في الدفة». وربما كان ليف وأبوه أبراهام يقرآن الدفة بانتظام - وربما كان أبراهام أكثر متابعة لها بسبب اهتمامه اليومي بمعرفة تغيرات أسعار الأسهم والسندات وتقدم تغطية واسعة لعالم الأعمال في الأصول الإمبراطورية السابقة، بما فيها الأرواح الميتة. واتخذت الصحيفة المواقف التي توجب على الديمقراطيين الروس تجنب عمل صفقات مع المتطرفين من الجانبين للمحافظة على الأمل حيا في حدوث ثورة روسية حقيقية، على أفضل التقاليد الغربية.

وفي ٢٨ مارس لعام ١٩٢٢، قام نابوكوف وزعيم ليبرالي آخر هو دكتور بافيل ميليوكوف القادم في زيارة لبرلين من باريس باستئجار قاعة الفيلهارمونيكا في برلين لمعاونة ضحايا المجاعة. ولم يكن للمشاهدين علاقة بالمتعصبين المعادين للسامية بتطرف الذين ارتبطوا في الذهن الشعبي بهجرة الروس البيض. غير أن اثنين من ذلك النوع حضرا العرض في تلك الليلة، كان ميليوكوف معروفا بتبنيه موقف أن التصالح مع النظام السوفياتي الجديد هو أفضل الحلول، فقد كان هدفا جيدا للمتعصبين. اقتحم المتعصبان القاعة بينما كان ميليوكوف يلقي حديثا وأطلقا عليه النار، ولكنهما أخطآه؛ وأصابت إحدى الطلقات فلاديمير نابوكوف في القلب فلقي حتفه على الفور.

كان قاتلا نابوكوف مدفوعين من آخرين - أحدهما على وجه التقريب كان فاقدا رشده غضبا بسبب مقتل خطيبته على أيدي البلاشفة - غير أنهما كانا تحت تأثير أكثر التنظيمات المميتة المتعصبة تعصبا سوداويا بين اللاجئين الروس في ألمانيا. كانا من أتباع فيودور فينبيرغ، وهو من ألمان البلطيق والذي كانت تستحوذ على فكره هواجس سوداء عن اليهود وكرس كل جهده لإثبات أن الإطاحة بالقيصر تمت بتخطيط من اليهود وحدهم. وكان فينبيرغ ناشرا يبدو أن جل جهده وعمله الوحيد هو ترويج وتوزيع مواد مطبوعة مضادة للسامية، وطبع فينبيرغ قوائما تضم أسماء مسؤلين سوفيات من اليهود، مثل المعاجم المعادية للسامية والتي كانت رائجة ومنتشرة في ألمانيا والنمسا من نهاية القرن التاسع عشر، وسوف يظهر اسم ليف في واحد منها في بداية الثلاثينيات تحت عنوان «قصة يهودي محتال»، أو ملفق الحكايات.

ومع حفنة أخرى من ألمان البلطيق، سوف يعين فينبيرغ هتلر على

إلهاب المشاعر المعادية للسامية، ويجعل من اليهود تفسيرا لكل بلاء الثورات الاجتماعية المنتشرة في العالم. ولخلق قضيتهم، اعتمدوا على «بروتوكولات حكماء صهيون»، التي كانت وراء كل الثورات بدءا من الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وصنعوا منها مؤامرة يهودية متصلة وواحدة تهدف لتدمير العالم. البروتوكولات، التي اتخذت شكلا موحدا أو غيره على مدى ثلاثين عاما، اختلقت في نهايات عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر من قبل مكتب أوخرانا (الشرطة السرية الإمبراطورية الروسية). وروجت الكتب أن اللقاءات السرية في المدافن لكبار «حكماء الصهيونية» قد تم التسلل إليها واختراقها من قبل جاسوس من الأوخرانا وسجل كل الملاحظات. ويفترض أن تلك الملاحظات كشفت كيف حرك اليهود وأثاروا النزاع والصراع العنيف بين المسيحيين عن طريق إشعال الحروب والفتن، وتحطيم المعنويات، وبث الأفكار الثورية، وتسويق الرأسمالية، مع حطام وبقايا الحضارة المسيحية وقيام الدولة اليهودية المهيمنة على العالم كهدف نهائي. ولإبقاء غير اليهود وديعين، خطط حكماء صهيون أن يهبوهم مزايا وفوائد مجتمعية مثل وظيفة كاملة وطعام ورعاية طبية. وهكذا كانت كل أشكال الاشتراكية جزءا من المخطط التآمري.

وقدمت البروتوكولات المؤامرة اليهودية كما لو كانت مؤامرة شيوعية ومؤامرة ومكيدة رسمالية معا، وأن كليهما ليسا سوى أقنعة ظاهرية للسلطة اليهودية الكامنة خلفها. وأن اليهود خلف كل شيء وأنهم يستخدمون كل الوسائل الناجحة مهما كانت. ولو آمنت بتلك النظرية، ستجد فجأة أن كل شيء يمكن تفسيره كجزء من مؤامرة عظمى تنفذ بإصرار ودم بارد وغير إنسانية لدرجة يبدو معها أن اليهود

وكأنهم كائنات قادمة من كوكب آخر ووصلت للهيمنة على الأرض وتسيدها. نشرت البروتوكولات في البداية كسلسلة من مقالات صحفية في سانت بيترسبورغ عام ١٩٠٣، ولكن أول ظهور كامل لها كان في أثناء الاضطرابات التي صاحبت ثورة ١٩٠٥ في روسيا. وكان كاهن أرثوذكسي روسي غامض يدعى سيرجي نيلوس، ينافس الراهب راسبوتين على الاستحواذ على اهتمام القيصر قد نشر البروتوكولات كاملة كملحق في كتابه «العظيم في الغث، أو حلول عدو المسيح واقتراب حكم الشيطان للأرض». كان نيلوس واحدا من سلسلة طويلة من الشخصيات الدينية المتعصبة في تاريخ روسيا الذين يسعون إلى البحث عن تفسير للأحداث العالمية عن طريق الرؤى والنبؤات. وكان العنف الدموي لثورة ١٩٠٥ يبدو متطابقا مع كثير من توقعات البروتوكولات، ثم جاءت الحرب العالمية الكارثية ومن بعدها ثورة ١٩١٧ الروسية وأضاف ذلك بشكل عملي وكأنه تطبيق عملي للبروتوكولات. واستمر نيلوس في إصدار طبعات متتالية لعمله العجيب، مع إضافة البروتوكولات كملحق بصفتها «مصدراً أصلياً» لما سيحدث في العالم بعد ثورة ١٩٠٥ طبقا لتلك البروتوكولات، وفي ١٩١٧ حدث عنوان كتابه وجعله «الشيطان اقترب وأصبح على الأبواب... هاهو عدو المسيح وحكم الشيطان على الأرض»، وفي طبعة عام ١٩١٧ أقر نيلوس لأول مرة أن تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، على رأس المؤامرة اليهودية وأنه مسؤول بشكل ما عن الفوضى والاضطرابات والكوارث التي تحدث بروسيا.

وبعد أن أعدمت عائلة القيصر رميا بالرصاص في يكاترينبورغ عام ١٩١٨، وجدت ثلاثة كتب تخص القيصرة: الإنجيل، ورواية الحرب والسلام، وكتاب نيلوس وملحقه الذي يضم بروتوكولات حكماء

صهيون. وطبقا لما ورد في يوميات القيصرة، بينما كانوا مسجونين، ينتظرون البت في مصيرهم، كان القيصر نيكولاس يقرأ للأسرة بصوت مسموع من البروتوكولات ليشرح لهم ما يحدث لهم ولروسيا بسبب اليهود. (ومن الواضح أن القيصرة أليكسندرا كانت متأثرة بشدة حتى أنها حفرت صليبا معقوفا - وكان منتشرا من قبل كرمز معاد للسامية- على عتبة النافذة الخشبية). وحين نشرت تلك اليوميات في لندن عام ١٩٢٠، تساءلت جريدة التايمز بجدية: «ما هي تلك البروتوكولات؟ هلى هي حقيقية وأصيلة؟ ولو كانت كذلك، فما المجلس الشرير الذي طبخ وصاغ تلك الخطط الشريرة، ويشعر بالرضا والسعادة للكشف عنها؟ هل هي زائفة؟ ولو كانت زائفة، فمن أي مصدر تلك النبؤات الغامضة والذكية، والتنبؤ بما حدث، وجوانب قطعت شوطا كبيرا في طور التحقق؟... هل علينا، بذل أقصى طاقة قومية، تخلصنا من «الأسطورة الألمانية» لنسقط في هوة «الأسطورة اليهودية»؟[١]

كان التأثير الأكبر لتلك البروتوكولات في ألمانيا فبالتعاون مع ضابط كبير بالجيش الألماني يدعى لودفيغ موللر فون هاوزن، نشر

---

(١) في عام ١٩٢١ سوف تعكس صحيفة التايمز توجهها، بنشر سلسلة مزلزلة من المقالات للكاتب فيليب جريفز، مظهرة أن البرتوكولات مزيفة. قال المحرر الشاب أن «السيد إكس» وهو كناية عن شخص لا يود ذكر اسمه، وهو من الملكيين الدستوريين في روسيا «ومن الهاربين مع الروس البيض في الخروج الروسي الأبيض لعام ١٩٢٠ قد حصل على إثباتات وبراهين من المسؤولين في الشرطة السرية القيصرية الروسية. ومن بين الوثائق التي سلمها «السيد إكس» للمحرر جريفز منشورا هجائيا فرنسيا لنابليون الثالث يسمى «حوار في الجحيم بين مكيافيللي ومونتسكيو»، يرجع للقرن التاسع عشر، وورد فيه حرفيا كثير من المشاهد التي وردت في البروتوكولات بدون اليهود.

فينبيرغ أول نسخة مترجمة بالألمانية من البروتوكولات في شهر يناير عام ١٩٢٠ . وحققت أول طبعة على الفور أفضل الكتب مبيعا في ألمانيا. وفي الوقت الذي استحوذ فيه هتلر على السلطة في عام ١٩٣٣ ، كانت هناك أكثر من ثلاثين طبعة ألمانية تحت الطبع، ومئات الآلاف من النسخ التي سبق إصدارها في أيدي القراء. مست البروتوكولات والمنشورات والكتب المتعلقة بها التي أصدرها فينبيرغ وزملاؤه وترا دفينا وحساسا لدى عامة الشعب الألماني. بعضهم استخدمها كحجة لإثبات أن البلشفية ليست إلا ستارا لمؤامرة آسيوية شريرة كبرى يقودها اليهود، والبناءون الأحرار (الماسونيون الأحرار)، والمسلمون، وجماعات أخرى من الغيلان «الشرقية». أدعى فينبيرغ ذاته أن لديه «براهين موثقة» على أن بيوت المال والبنوك في نيويورك قد مولت الثورة الروسية: في ثورة عام ١٩٠٥ افترض أن من كان يحرك الخيوط من وراءها ياكوب شيف وماكس فاربورغ، بينما افترض أن في ثورة عام ١٩١٧ ، كان البلاشفة مدعومين من كوهن، ولويب وشركته المالية. وبقدر ما كانت الاتهامات بادية الجنون، التقطت تلك القصص من قبل كثير من الصحف العالمية المحترمة. وأقام جاكوب شيف دعوى قضائية، ليجذب ذلك مزيدا من الاهتمام ولفت الأنظار لتلك الأفكار. ونمت الكذبة من مجرد بعض بذور لأنصاف حقائق: فبالإضافة إلى أثرياء اليهود الآخرين الذين يقومون بأعمال إحسانية وخيرية، كان شيف قد تمكن من الضغط على الحكومة الأمريكية للتدخل في أعمال العنف التي شبت في عام ١٩٠٥ في روسيا - لا لمساعدة الثورة بل لمحاولة وقف المذابح والإبادة التي تولدت عنها. وأصبح متدخلا من جديد في الشؤون الروسية في عام ١٩١٧ ، ولكن هذه المرة لدعم ومساعدة نابوكوف وميليوكوف، حين

كان حزبهما الليبرالي كاديت يناضل من أجل تماسك وصمود حكومتهما البرلمانية؛ بمعاونة من حكومة الولايات المتحدة ذاتها، تورط شيف والأقطاب المالية الأخرى من «يهود وول ستريت» بأنفسهم في روسيا للتصدي للبلاشفة لا لمساعدتهم كما أشيع[1].

وكتلميذ نجيب وتابع لفينبيرغ، قام ألفريد روزنبيرغ، وهو طالب نحت في ميونيخ، بتقديم البروتوكولات لأهم المتلقين بمساعدة ألماني آخر من ألمان البلطيق هو ماكس إرفين فون شيوبنر- ريشتر، الذي قدم الدعم المالي والعلاقات المالية القوية. وكان المتلقي ذاك هو أدولف هتلر، وربما لم يعر هتلر أبدا مثل ذلك الانتباه لأي شخص آخر في حياته كما فعل مع تلك المجموعة الصغيرة من اللاجئين الألمان-الروس الذين ظهروا في ميونيخ عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ . المحاولة الفاشلة الخرقاء لاغتيال ميليوكوف، والتي نتج عنها مصرع نابوكوف بدلا منه، كانت قد خطط لها جزئيا من قبل فينبيرغ والأقرب للاحتمال أن ذلك تم بمساعدة من شيوبنر- ريشتر وروزنبيرغ. أولئك الألمان-الروس كانوا يخشون غلبة التأثير والنفوذ الشرقي أكثر من الألمان الحقيقيين. لقد جلبوا لمعاداة السامية الألمانية فكرة الحل النهائي وهندسة ديموغرافية السكان في المشرق، وإعادة استعمار مناطق كان قد سبق لفرسان التمدد الألماني الشرقي

(١) مثل كثير من الأفكار الألمانية البلطيقية، فإن «حقيقة» أن البيوت المالية اليهودية قد مولت الثورة الروسية قد تم تبنيها في العقيدة النازية. غير أن الإحياء الغريب للقصة في الدعاية الشيوعية يظهر بوضوح قوة مثل تلك الادعاءات غير المعقولة في إطار مضمون البروتوكولات: وعاكسين الاتهامات، ادعى السوفيات أن بيوت مال وول ستريت اليهودية - مرة أخرى شيف وكوهن، ولويد وشركته - كانوا من الداعمين الماليين الرئيسيين للنازية.

السيطرة عليها حتى وصلوا بحدود ألمانيا إلى عتبات موسكو. فصيل ألمان البلطيق كان يأمل أن يساعدهم النازي في استعادة روسيا تحت حكم طبقاتها الحاكمة السابقة. وبدلا من ذلك، ساعدوا على تطوير العقيدة النازية الروسية كأرض متوهمة حيث يصبح استعمال أقسى العنف ضرورياً ومطلوباً لمواجهة اليهودية- البلشفية الآسيوية في سباق الحروب التنبؤية. وفي التفافة من هتلر سوف تحتوي مؤيديه وأصدقاءه من ألمان البلطيق، سوف يصر هتلر على أن يتخذ من لينين وستالين نماذج ومثلاً في الوقت نفسه، رائيا في البلشفية مفتاحا للوسائل والمنهج الذي سيهزمها به. وبطريقة مماثلة، على الرغم من أن هتلر لن يعترف بذلك أبدا، كما لم يتحدث عنها في مجالسه الخاصة إلا نادرا، فإن فكرة بروتوكولات حكماء صهيون ذاتها سوف تمده بنمط ونموذج سباق الحروب: سوف يهزم المؤامرة اليهودية العالمية بمؤامرة آرية عالمية، بالضبط كما سيحارب البلشفية بوسائل اقترحها بداية واستخدمها لينين.

ولكن في ذلك الوقت، سوف يزود اللاجئون الروس هتلر بالمصدر الأعظم لتمويل الأفكار الجديدة، وأصدقاء في مكانة عالية من السلطة.

المأساة الشخصية لإيلينا نابوكوف شاركتها فيها المجموعة التي ظهرت من خلال مدرسة الرياضة الروسية في برلين. ودلت على هشاشة الحياة هنا في ألمانيا الراسخة، والتي كان من المفترض أنها قمعت ثورتها ولكنها في الحقيقة كانت قد أعادت توجيهها إلى وجهة جديدة ولكن في اتجاه أكثر خطورة. على وجه التقريب اعتبر كل رفاق الصف أنفسهم روساً، ولكن كان أغلبهم أيضا على وجه التقريب يهودا أو ليبراليين أو كليهما معا. وأكد اغتيال فلاديمير نابوكوف على ضعف

وهشاشة البرجوازية الألمانية الدستورية، وضعف الحركة الملكية الليبرالية، أغلب المهاجرين كانوا ضد جناح أقصى اليمين.

وسوف يصبح ذاك الربيع ربيع الاغتيالات في برلين، وسوف يظهر أن مصرع نابوكوف لم يكن إلا مقدمة لمدلول أكبر، والذي سوف يقتل أي أمل في أن ليف وأبيه قد هربا من شبح الصورة الذهنية للعنف الثوري. وقدر المؤرخ إ.ج. جامبل أنه ما بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٢، وقع ٣٧٦ اغتيالا في ألمانيا، وقعت الغالبية العظمى منها على يد الجناح اليميني المتطرف. ولا يبدو الرقم كبيرا مقارنة بالرعب والإرهاب الذي سوف تحل لاحقا بألمانيا من خلال العنف المتبنى من قبل نظام الدولة ذاته. غير أن بضع مئات الاغتيالات السياسية على مدى أربعة أعوام يعد هائلا ومخيفا.(تخيل ما الذي كان يمكن أن تكون عليه ستينيات القرن العشرين لو لم تقع ثلاثة اغتيالات بل ثلاثمائة اغتيال لقادة أميركيين). كان لقتل شخصيات عامة في ألمانيا تأثير مماثل للاغتيالات التي قام بها اليسار المتطرف في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر: فقد جعل المجتمع يبدو ضعيفا وعرضة لتغيرات كارثية.

أظهرت اغتيالات ربيع عام ١٩٢٢ مدى قوة التيار المتطرف المعادي للسامية المتدفق من روسيا لألمانيا، والحركة التي تبنى حول الحزب النازي الوليد في ميونيخ. غير أن الحزب لم يكن ليشق له طريقا للصعود إن لم يدعم نمو الفيالق الحرة والانتماءات الغريبة للشباب واغتيالات الشرف التي انطلقت في ألمانيا بلا عائق. بكثير من الوسائل والسبل، كان العنف المتطرف لهدم كل ما هو تقليدي من قبل الفيالق الحرة ضرورة حتمية لانتصار العقيدة النازية كما كان الثوار قاذفو القنابل في سبعينيات القرن التاسع عشر تمهيدا وشرطا موضوعيا

لصعود لينين في روسيا. كانت الفيالق الحرة آخر المكونات الحيوية الحرجة المطلوبة لخلق الحركة النازية - وبدونها لم يكن ليوجد إلا ما لا يزيد عن مجموعات صغيرة من المتآمرين، والسياسيين، وبعض المستأجرين للاغتيال من حين لآخر. وكما حدث مع البلاشفة، كان على النازي أن يخمد ذلك التيار المتطرف- المكون من الشباب، والذي لا يمكن التنبؤ بما سيفعله، والمليء بالتناقضات - من أجل الاستحواذ على السلطة. ولكن قبل أن تتمكن من إبعاد قادة الفيالق الحرة، أو إبعادهم إلى مناصب آمنة بعيدا عن مراكز السلطة، سوف تستفيد من قواها المنحرفة لعنفهم الفوضوي.

أولئك الشباب لن ينافسوا على السلطة. وفي الحقيقة كانوا بالكاد يشرحون أنفسهم دون ابتسامة ساخرة. كانوا يعتبرون بلدهم ألمانيا امتدادا لعالم جبهات القتال - مكان يمكن للسماء في أي لحظة أن تنفتح منفجرة بعاصفة من الصلب بالتعبير الشهير لإرنست يونغر.

أحد الدوافع الواضحة للاغتيالات يمكن تفهمه وإدراكه من نوعية أستهدافاتهم: كانت الغالبية التي تم اغتيالها بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ من اليهود (وكان نابوكوف استثناء)، لا أولئك فقط المنتمين لليسار المتطرف. بل أعضاء مختلف فئات التحالف الليبرالي الحاكم إما أطلق عليهم النار أو ألقيت عليهم القنابل، مثل اليهود من المحافظين أو من الأحزاب القومية. أي أحد له اسم يهودي أو خلفية يهودية، مهما كان نوع انتمائه الحزبي، يمكن أن يكون هدفا للاغتيال. كان هناك تحول جديد يظهر في ألمانيا - توجه غطى في حينه على النازية ولكنه ظل مغايرا ومختلفا عنها فيما يزيد عن عقد من بعد قبض هتلر على زمام السلطة. ذلك التوجه الجديد سوف يتبدى في يوم مشرق في شهر يونيو عام ١٩٢٢، حين قام ثلاثة من الشباب باغتيال رجل اعتبره

كثيرون أنه الألماني الأعظم بين أبناء جيله، وهو بالتأكيد أهم يهودي ألماني خدم أمته الألمانية في مركز حكومي عالي. الطلقات والتفجير الذي قتل فالتر راتناو وهو في طريقه إلى مقر عمله في ذلك الصباح سرعت بحلول نوع جديد ومرعب من الثورة في ألمانيا.

كان فالتر راتناو وريث إمبراطورية شركة أ. إي. جي، النسخة الأوربية من جنرال إليكتريك. كان أبوه إميل راتناو قد اشترى حق براءة الاختراع لأوروبا من شركة إديسون للمصابيح الكهربائية في معرض تجاري في بدايات عقد ثمانينيات القرن التاسع عشر بعد أن شاهد عرض منتجاتها في معرض باريس لعام ١٨٨١. وتجسيدا لنمط تتابع الأجيال لدى اليهود الألمان في نهاية القرن التاسع عشر الذين لم يكن لديهم هدف أعلى بما يكفي، درس فالتر في شبابه الكيمياء والفيزياء، وهندسة الكهرباء، وأصبح أيضا من أشهر كتاب المقالات الأدبية قبل توليه المسؤلية التي أدت بشركة عائلته لأن تصبح من أكبر شركات صناعة محطات توليد الكهرباء في العالم، بما فيها محطة توليد الكهرباء في باكو. جعلت شركة أ.إي.جي هدفا لها أن تصبح أكبر شركة توليد كهرباء في العالم. وشارك فالتر في مجالس إدارات ما يزيد على مائة شركة مختلفة، بينما استمر كلما واتته الفرص والوقت في إصدار كتبه النقدية في الأدب والثقافة، بما فيها مقاله الشهير عن استيعاب اليهود - وكان يعمل على ذلك - وأيضا مقالاته عن تطوير برلين لتصبح «شيكاغو على نهر شبري». ومع اندلاع معارك الحرب العالمية الأولى، كان راتناو واحداً من أهم رجال الصناعة في ألمانيا، وعلى الرغم من أنه كان أيضا من المفكرين الجادين، وللتناقض الشديد كان من أشد منتقدي الرأسمالية الصناعية المطلقة العنان وغير الملجمة بقوانين تحد من توحشها، مطالبا بنوع من الرأسمالية المرشدة

والإنسانية في الوقت ذاته وتحت نظام اقتصادي يحقق المساواة. وكان من الناصحين الدائمين للحكومة ومن معارف القيصر الألماني، على الرغم من أن يهوديته أبقته مهمشا، وانتقد سياسات الإمبراطور حين رأى أنها تهدد رخاء وسلامة ألمانيا وصحة الشعب العقلية. وحين كان كل فرد ألماني على وجه التقريب يكاد يهذي من الفرحة لنشوب الحرب العالمية الأولى، ذكر أصدقاؤه أنه انفجر باكيا حزنا وأسفا.

وعلى الرغم من أنه لم يتحول إلى المسيحية، كان راتناو يمثل اليهود المرتدين وهو ما كان سائدا في عصره: أي الإيمان بالتمدد الشرقي الألماني التاريخي الفاغنري. في ذلك الجيل كان اسم سيغفريد يعد دلالة قطعية على الانتماء لليهودية. وكتب راتناو: «دياناتي هي الإخلاص لألمانيا وهو دين يعلو فوق كل الديانات الأخرى». كان بعض مما جعل فترة ما بعد الحرب «طعنة في الظهر» ليس إلا عتهاً وخبلاً جنونياً - وما جعل اليهود الألمان في غاية البطء في إدراك مخاطره الوخيمة - كان كما يبدو من خارجه، في أنهم ظلوا في الغالب يبدون كما لو أنهم الوحيدون الذين «كانوا» يحمون فعليا مصالح ألمانيا في تلك الأعوام من مواطنيها اليهود ذوي النفوذ[١].

---

(١) في عام ١٩١٥، نشر هيرمان كوهين فيلسوف الكانتية الجديدة والذي يعدّ حاليا أهمَّ فيلسوف يهودي في القرن العشرين، مقالا رأى فيه أنه واجب خاص على اليهودي الحديث المعاصر أن ينشر تسيد وتفوق الثقافة الألمانية. كان كوهين من الشخصيات اليهودية البارزة. ومؤخرا في ١٩٣٠، ومع تفشي معاداة السامية وإحراز الحزب النازي لنجاح ساحق في صناديق الاقتراع قام الحبر اليهودي الألماني بإلقاء خطاب ديني في مناسبة سحب فرنسا لقواتها العسكرية من منطقة الراين الألمانية وقارن في خطابه الديني بين خلاص الراين من القوات الفرنسية وخلاص قدماء اليهود من التيه في الصحراء مع موسى.

وعلى الرغم من أنه عارض الحرب بعد أن بدأت، توجه راتناو إلى الجنرالات وقادة الجيوش كما توجه للقيصر لينبههم إلى نقطة حيوية وحاسمة: سوف تتعرض ألمانيا إلى نفاذ المواد الخام المواد الغذائية، والوقود، والذخائر - بعد عام من القتال، أو عامين على أقصى التقديرات. وضحك الجنرالات، كان الجميع يفترضون أن الحرب لن تدوم سوى لأشهر معدودة، فلماذا نشغل رؤسنا بالتخطيط؟ أولئك اليهود ظلوا دائما يكتنزون. وفي مواجهة كثير من التهكم والسخرية، قام راتناو بتأسيس مكتب شركة المواد الخام الإمبراطورية دون مساندة مالية ولا دعم من الحكومة، ويتفق مؤرخو الحرب العالمية الأولى على أن مكتبه الصغير الذي أنشأه مكَّن ألمانيا من الاستمرار في القتال لعامين على الأقل من بعد شح ونفاد المواد الكيميائية، والقطن (الضروري للبنادق ولصنع الملابس العسكرية)، والصوف، والمطاط.

وبعد الحرب، أصبح راتناو من أكثر الشخصيات احتراما وأكثر الرجال المكروهين في الجمهورية الألمانية الجديدة. وأصبح متشككا في صحة النظام الرأسمالي وأصدر كتيبين حققا أفضل المبيعات، واحد منهما بعنوان «اشتراكية الغد» والذي تبناه في ميونيخ الثوري الاشتراكي إرنست توللر واعتبره «دليل إعادة توزيع ثروات بافاريا وصناعاتها». غير أن الحكومات المحافظة التي تلت قيصر ألمانيا لم تكن تريد أكثر من أن يكون راتناو رفيقا لهم على متن مركب الدولة، آملة أن يتمكن رجل الصناعة موضع الاحترام الدولي أن ينتشل ألمانيا من الفوضى والركام الذي ترتب على اتفاقية فيرساي. ولم يوافق راتناو على تبوأ أي منصب. ولم يكن ذلك بسبب أي نوع من التواضع الموروث، أو عن نقص في الانتماء الوطني، أو انعدام الرغبة في خدمة البلاد من مركز عالي في السلطة. كان من الواضح له أنه من

الخطر على أي يهودي أن يتسنم ذرى المراكز العليا العلنية في ألمانيا. وأخيرا، في مارس ١٩٢٢، وقبل أسابيع قليلة من اغتيال نابوكوف، وافق راتناو على تبوء مركز وزير الخارجية الألمانية، وهو أعلى منصب حصل عليه يهودي في أية حكومة ألمانية. كل ما استطاعت أمه أن تقوله بعد أن علمت بخبر قبوله لذلك المنصب الرفيع: «لماذا فعلت بي ذلك؟». ورد راتناو قائلا: «يجب عليَّ قبول المنصب يا أمي، لم يتمكنوا من إيجاد غيري يمكنه القيام بذلك».

في المؤتمر الاقتصادي الذي عقد في إيطاليا، قام بعمل دؤب وظل يقوم بمفاوضات عسيرة على مدار الساعة، باذلا أقصى الجهد للضغط على الحلفاء للتنازل عن بعض التعويضات التي فرضت على ألمانيا. أراد أن تتعامل ألمانيا مع الغرب، ولكن فرنسا وقفت حجر عثرة في طريق ألمانيا وعارضت كل المحاولات - ولم يكن راتناو من ذلك النوع من الناس الذي يمكن أن يترك شركة تنهار لمجرد أنها لم تكن ناجحة في أحد الأسواق. فلو كانت الديمقراطيات الغربية لن تساعد ألمانيا، سوف «يلعب بورقة روسيا». وفي مهاتفة في منتصف الليل مع الوفد الروسي، رتب راتناو لقاء سريا في مدينة راباللو الساحلية الصغيرة القريبة. وهناك، دخل في مفاوضات مباشرة مع ليونيد كراسين ذاته، صانع القنابل الذكي ابن باكو الذي جلس ذات يوم إلى مائدة عشاء نوسيمباوم في بيته في باكو. كانت أيام الإرهاب الذي مارسه كراسين قد ولت، وأصبح الآن يساعد البلاشفة بقدراته التفاوضية الناعمة وسعة معلوماته عن أعمال النفط. (وفي الحقيقة، كان غرضه الرئيس بيع قطاعات نفط باكو لشركات نفط غربية بالنيابة عن النظام البلشفي الجديد، وكان هذا ما حول «الأرواح الميتة» إلى أصول بلا قيمة بيعية لأصحابها الأصليين، وهي ما كان كثير من

أصحاب حقول النفط في باكو مثل أبراهام نوسيمباوم مازالوا يعقدون آمالهم على التمكن من بيعها).

العلاقة الجديدة الخاصة بين ألمانيا وروسيا السوفياتية اعتمدت على تشاركهما في المشاعر السلبية - أي كراهتهما للغرب وكراهتهما لـ«المنتصرين في مؤتمر فيرساي» - وسوف يواجهون تبعات مريعة لم تكن قد اتضحت بعد. وتضمن الملحق السري للاتفاقات السوفياتية - الألمانية السماح لجيش ألمانيا بإعادة تسليحه سرا بالمخالفة لمقررات مؤتمر فيرساي والتدرب العسكري في الأراضي الروسية في عقدي العشرينيات والثلاثينيات. عشرات الآلاف من «الجنود المغاوير» الألمان سوف يصلون إلى روسيا في عام ١٩٢٣ ويبدأون في التدريب على تقنية الحرب الخاطفة الجديدة التي كانت ماتزال نظرية في ذلك الوقت، وكانت نظريا تتمحور حول قيام قوات متنقلة محدودة على أعلى مستويات التدريب مدعومة من القوات الجوية بغزو دولة أخرى في عملية خاطفة قبل أن تستفيق تلك الدولة وترد الهجوم. بموجب تلك الاتفاقية، سمح السوفيات لألمانيا بتصنيع طائرات خارج موسكو وتصنيع الغازات السامة في مصانع بالأقاليم الروسية. قام الجيشان، الأحمر والألماني بتدريب طياريهما المقاتلين وضباط مدرعاتهما معا في سلاسل من المدارس الحربية الجديدة المنتشرة في أرجاء الاتحاد السوفياتي. وهكذا، تدرب الجيشان معا ليذبح كل منهما الآخر بعد ذلك في الأربعينيات في أكبر المعارك في التاريخ بعد أن كانا يتدربان معا في العشرينيات.

وحين ذهب الكونت هاري كيسلر لزيارة راتناو في وزارة الخارجية الألمانية في برلين، وجد صديقه يعاني أشد المعاناة من «عداوة أبناء وطنه الانتقامية». («أغلب علاقاته الحميمة كانت مع بريطانيين، يليهم

فرنسيون، ثم إيطاليون ويابانيون، وهكذا؛ أما أسوأ علاقاته، فقد كانت مع ألمان من بني وطنه»). أخبر راتناو صديقه كيسلر أنه يتلقى يوميا رسائل تهديد وأن الشرطة تضغط عليه ليقبل قوة تحميه. ولكنه رفض قيام الشرطة بحمايته. ويتذكر كيسلر ذلك قائلا: «وفيما كان يذكر لي ذلك، قام بإخراج مسدس براوننغ من جيبه». وفي أبريل ١٩٢٢، وصلت للحكومة معلومات من بابال نونسيو باسيللي (والذي سيصبح فيما بعد بابا روما تحت اسم بيوس الثاني عشر) عن وجود مؤامرة لاغتيال راتناو، وأبلغ أنه علم أن هناك مؤامرة تدبر لاغتيال وزير الخارجية ولكنه لم يفصح عن مزيد من التفاصيل. وقال أصدقاؤه البريطانيون أن راتناو كان أحيانا ما يفكر في اغتياله المتوقع.

دعمت شبكة شبحية غير معروفة من المتآمرين والمتعصبين القوميين الشباب الثلاثة الذين نفذوا مؤامرة الاغتيال، ولكن، مثل الإرهابيين الثوريين الروس في سبعينيات القرن التاسع عشر، عملوا على تنفيذ العملية منفردين. وتساءل بعد ذلك إرنست فون سالومون، أحد الإرهابيين الثلاثة، والذي سوف يصبح فيما بعد من كبار المفكرين وأبطال حركة الفيالق الحرة: «ما الدافع الذي سأذكره لو اعتقلنا؟ أنا مهتم قبل أي شيء، يمكنك القول بأنه واحد من حكماء صهيون... أو أي شيء تحب أن تقوله»، وأجابه رفيقه: «لن يفهموا أبدا دوافعنا الحقيقية»[1].

---

(١) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، نشر فون سالومون كتابا حقق أفضل المبيعات يسمى «الاستجواب»، وهو شبه رواية طويلة تسخر من المجهودات الأمريكية لتخليص ألمانيا من نازيتها، الشكل الظاهري من الكتاب انحصر على رده على استجوابات نزع النازية، وانحدرت استجاباته إلى مستويات أكثر جنونا، وأصبحت متداخلة ومختلطة مع نكات سارية في المجتمع مع تعليقات غامضة ومبهمة على فلسفة نيتشه أحيانا، والأجهزة =

في صباح ٢٤ يونيو، تبع ثلاثة إرهابيين سيارة الوزير المكشوفة في العاشرة وخمسة وأربعين دقيقة صباحا، توقفوا ملاصقين للسيارة وأفرغوا رصاصات مسدس في راتناو؛ ثم قاموا بإلقاء قنبلة يدوية في السيارة للتأكد من قتله. وعلى الرغم من أن اثنين منهم ماتا أثناء محاولة الفرار من مكان الحادث (أحدهما قتل على يد رجال الشرطة فيما أقدم الثاني على الانتحار)، وقدمت السلطة كل أفراد الخلية الإرهابية للمحاكمة. وبإخلاص شديد، شهد قائد السيارة التي حاولا الفرار بها من موقع الحادث بأنه سمع أن راتناو، رائد رجال الصناعة الألمان، كان في الحقيقة زعيما لحركة بلشفية سرية، والتي كانت - بالطبع- ذراعا لمؤامرة حكماء صهيون العالمية. وكانت شهادته مقنعة للمحلفين في عهد حكومة فايمار حتى أنه بعد خروجه من السجن بعد ذلك بأربعة أعوام، قرر الفوضوي العدمي الشاب العودة لدراسة القانون وأصبح فيما بعد نائبا عاما مرموقا.

بعد قضائه عقوبة بالسجن لخمسة أعوام، خرج فون سالومون من السجن وكتب رواية حققت أفضل الكتب مبيعا عن حياته السابقة كإرهابي اسمها «الخروج على القانون». وأصبح بطل «الثوار المحافظين» الألمان وصديقا شخصيا لإرنست يونغر ومارتن هيدغر، وصديقا كذلك لبعض كتاب وفناني الجناح اليساري.

= الحديثة، وجينات عائلته هو في أحيان أخرى. ويتضمن الكتاب أن المؤلف وأصدقاءه «يعلون فوق» التعريفات السياسية البسيطة والمباشرة مثل «النازية». وخلال حياتهم كلها بعد ذلك، كما يشرح في الكتاب، ظل المتآمرون يتجادلون حول سبب قتلهم لراتناو، البعض أصر وأكد على أنها كانت مثال للفرصة السانحة لاختيارهم وزيرا يهوديا للخارجية لقتله، على الرغم من أن فون سالومون ذاته يؤمن بأن القتل كان قدرا محتوما وجديرا بالاهتمام على أسس فلسفية.

مارتا دود الليبرالية جدا - والتي تحولت في النهاية للشيوعية - وابنة السفير الأميركي ويليام دود، تدفقت بحماس في مذكراتها قائلة: «في آخر حفلة أقمتها توصلت للكثير من الأشياء التي أثارت الدهشة (كان هناك بعض الصمت والتعميه والهمس الكامن) عن دبلوماسية اليميني إرنست فون سالومون شريك جريمة اغتيال راتناو ومؤلف كتاب «الخروج على القانون». وهو جدير بالاهتمام». وحافظ فون سالومون على المسافة الفاصلة بينه وبين النازية - والتي كانت أدنى من مثالياته النيتشوية - غير أن رواياته عن مغامرات وإرهاب الفيالق الحرة تحولت لتصبح من أدوات التسلية المفضلة ومن القراءات الممتعة لرجال الشرطة السرية النازية[١].

وبعد ذلك بأعوام، حين ازداد عددهم إلى ملايين، سوف يسعى كثيرون لكتابة مجلدات محاولين فك اشتباك فوضى الأفكار التي تشكل دوافعا لشباب «الثوار اليمينيين» في تلك الأعوام الأولى. كان احتمال أن الرياح الشريرة تهب من الشرق هي نمط الفكر السائد في عقد العشرينيات بين الشباب الألماني غير أنه تمت تنحيتها بعد ذلك من قبل أغلب المؤرخين المتأخرين، الذين رأوا أنها لم تكن إلا أحد الأشكال التكرارية المتغيرة للآراء النازية عن المؤامرة اليهودية - البلشفية التي تهدد كل أوروبا. غير أن تلك الأفكار لم يتم تنحيتها

(١) كان لفون سالومون أيضا أعمال مهنية متنعشة من الكتابة للسينما في فترة ما بعد الحرب، مثل كتابته لسيناريو الفيلم المعروف «ليانا» عام ١٩٥٦، وفيلم «ربة الغابة» وهو فيلم جنسي عن امرأة في غابة وهي فتاة غابة شقراء اختطفت ونقلت إلى ألمانيا، وكانت مرتبطة في الغابة بتونجا وهو مقاتل وطني من الغابة، والأسد سيمبا، حيث ترتدي في الفيلم رداء فاضحا وبكيني - وطبقا لدليل الفيديو النفسي للفيلم، فإن الفيلم عبارة عن «خلطة من فتاة بلا ملابس على نصفها العلوي وموسيقى جاز صاخبة».

بسرعة. فقد أدت الثورة الروسية والأعداد الهائلة من المهاجرين واللاجئين الروس لإطلاق العنان لتيارات فكرية جديدة هائلةالعدد في أنحاء أوروبا. رأى ألمان البلطيق المشكلة الشرقية على ضوء اليهود، والمغول، والمسلمين، والسلافيين الذين يحيطون بالغرب ويزحفون نحوه، بينما رأى آخرون ما يمكن تسميته بالمشكلة الشرقية أنها ليست سوى طليعة رجعية مهددة للغرب.

وأدى اغتيال راتناو بكثير من المفكرين، وخاصة توماس مان، إلى إعادة التفكير في كل التصريحات السابقة التي تدعي سمو ورقي الثقافة الألمانية - وهي الأفكار التي ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر، والتي ذهبت إلى أن العبقرية الجوهرية الأساسية للمجتمع الغربي متجسدة في صلب الثقافة الألمانية، والتي كانت روحية وعميقة الغور، مقارنة بالمادية السطحية للرومان، والفرنسيين، أو المجتمع الأنجلو أميركي. لكن المدى الحقيقي لمدى الوحشية البدائية كانت في كونها قد أفلتت من عقالها بين الراين والألب يمكن تفهمه على وجه أفضل كما رآه الأغراب عنها. رأى د.هـ. لورانس، لمرة، قوى جديدة مخيفة تبزغ، نوع من المزيج الروحي للبربرية الروسية والألمانية معا، وصحوة جديدة للوحشية الأوراسية لقبائل الهون مخلوطة بالأفكار العدمية والتشتت المعاصر. طاف لورانس بأنحاء ألمانيا بعد عامين من اغتيال نابوكوف وراتناو ووصف ما فهمه في رسالة بعث بها إلى انجلترا:

> بدا لي ما يحدث وكأن الحياة بأجمعها في ألمانيا تنسحب باتجاه المشرق، كما لو كانت الحياة الألمانية تتناءى ببطء بعيدا عن اتصالها بغرب أوروبا. تشعر ألمانيا بالخواء وبشكل ما مهدد ومتوعد. بالمثل راقب الجنود الرومان الجبال الهائلة السوداء:

بخوف معين وبمعرفة أنهم قد وصلوا إلى أقصى محدوديتهم. . . ألمانيا قد أصبحت مختلفة جدا عما كانت عليه من عامين أو عامين ونصف مضيا، حين كنت هنا. في ذلك الوقت كانت مازالت منفتحة على أوروبا. في ذلك الوقت كانت ما تزال تنظر إلى غرب أوروبا لإعادة التوحد معه، كانت ما تزال تبحث عن نوع من إعادة التصالح. أما الآن، فقد انتهى كل ذلك. سقط الحاجز.

النزعة والميل الكبير للروح الألمانية قد مالا من جديد باتجاه المشرق، باتجاه روسيا، وباتجاه التتار. الدوامة الغريبة للتتار قد أصبحت المركز الإيجابي من جديد، إيجابية غرب أوروبا انكسرت. . . عائدة مرة أخرى لسحر الشرق المدمر الذي أنتج آتيلا[1].

تلك العصابات الغريبة من الشباب الاشتراكي [والمقصود بهم الاشتراكيين القوميين]، شباب وفتيات، بمهنهم غير المادية، وبأفكارهم شبه الغامضة، يضربون الفرد كغريب. شيء بدائي، مثل تلك العصابات الجوالة للقبائل المشتتة والمحطمة. . . كما لو كان كل شيء وكل إنسان قد ارتد من الانسجام البدائي، كبربري همجي يتربص في غابة ويرتد لأعماقها مختفيا عن الأنظار. . .

شيء ما حدث ولم تتبد ملامحه بعد. كأن تعويذة وتميمة العالم القديمة قد تحطمت، وحلت روح قديمة و شريرة ووحشية ومعذبة بالعالم. . . ويقع ذلك ويحدث بتأييد كبير أكثر من أي حدث حقيقي. إنه أب للمرحلة التالية من الأحداث التي ستقع».

(١) آتيلا: ملك قبائل الهون (٤٣٤-٤٥٣ م.)، غزا ودمر مساحات واسعة من أوروبا ما بين نهر الراين وبحر قزوين قبل أن تهزمه قوة مشتركة من الجيش الروماني والقوطيين الغربيين في معركة شالون عام ٤٥١ م. (المترجم).

الفصل التاسع

مائة نوع من الجوع

مع زحف الاتحاد السوفياتي بمهندسين ألمان، يعلمون الجنرالات السوفيات كيفية استخدام الغازات السامة وفنون حروب الدبابات، أصبح من الواضح أنه لن تكون هناك عودة سريعة للنظام الملكي القديم في روسيا. كان ليف يحلم بأن يقتص وينتقم من ليونيد كراسين، فقد كان يعتقد أنه كان متحالفا مع أمه، وأصبح الآن في موضع من السلطة يمكنه من مصادرة أصول ممتلكات أبيه.

وبسبب الاتفاق الذي عقده فالتر راتناو والتحالف الروسي- الألماني الجديد، أصبحت برلين المدينة الوحيدة من بين مدن المهجر الروسي التي اختلط فيها الروس البيض والحمر بطرق ودية. من بين الكتاب الذين كانوا يؤيدون النظام السوفياتي ليونيد باسترناك، وأليكسي تولستوي، وإيليا إرنبورغ. وانضم إليهم بعد ذلك فلاديمير ماياكوفسكي ومكسيم جوركي، لأنه لم يكن هناك من الروس من يمكنه أن يتجنب برلين في عام ١٩٢٢، فقد كانت برلين تعد في ذلك الوقت عاصمة روسيا الجديدة. واستقبل سيرجي آيزانشتاين استقبال الأبطال من عشاق السينما في برلين، كما نقل كونستانتين ستانيسلافسكي كل فنون مسرح موسكو إلى برلين في جولة فنية.

ولبعض الوقت، رفع التحالف الجديد من قيمة كل الروس في أذهان المواطنين الألمان العاديين. وفي هذا المضمار وحده فقط، ربما، استفاد اللاجئون الروس من اتفاقية مدينة راباللو. ويتذكر أحد رفاق صف ليف الدراسي:

> كنت أنا وبعض أصدقائي نركب قطار الأنفاق في برلين ونتحدث معاً في وقت واحد. وربما كنا نتحدث بصوت مرتفع إلى حد ما أكثر من المعتاد بين الألمان للتغلب على الضوضاء. وبدأ الركاب الآخرون يتضايقون على الفور، وقال واحد منهم: أنت تشعر كأنك في بلدك هنا، متناسيا معاناة ألمانيا. فأجبته: لا تقلْ روسيا عنكم معاناة. وكان رد فعل كثير من الركاب السريع وغير المتوقع وهم يقولون لمواطنهم: «ما داموا يتحدثون بالروسية دعهم في شأنهم.

وبطرق رسمية، على أي حال، أحالت الاتفاقية حياة اللاجئين والمهاجرين إلى حياة أصعب وأشق. فمع الروابط الودية الجديدة بين برلين وموسكو - الشريكين ضد «المنتصرين في مؤتمر فيرساي» - قل وفتر دعم الحكومة الألمانية للاجئين الروس. (ومن السخرية، فإن أقل الجماعات تأثرا بالعلاقة الألمانية - السوفياتية الحميمة هم من المتطرفين في تأييد النظام الملكي الروسي، وهم أعضاء الجمعية السرية من غلاة العرقيين في ميونيخ - وهم من قتلوا نابوكوف - لأنهم لم يهتموا بما تعتقده أو تقوم به حكومة ديمقراطية ألمانية: أي كان تحالفهم مع الحركة النازية المتنامية). كان السوفيات الروسي قد أصدر بالفعل قرارات رسمية تقر بأن كل اللاجئين الذين غادروا روسيا بدون تأشيرة سوفياتية بعد ٧ نوفمبر ١٩١٧، أو الذين عاشوا بالخارج لما يزيد عن خمسة أعوام، تصادر كل حقوقهم في التمتع بالمواطنة

الروسية. وبدأت الحكومة الألمانية في التقيد بتلك القرارات والالتزام بتطبيقها. مهما كان نوع الوثائق التي كان يستخدمها أي لاجئ روسي صادرة من الحكومة الروسية البيضاء المؤقتة أثناء الحرب الأهلية أصبحت تعامل الآن كمستندات بلا قيمة من قبل السلطات الألمانية.

وعاش ليف وأبراهام في ألمانيا بتلك المستندات التي فقدت قيمتها - تلك المستندات التي صدرت باسميهما في باتوم بجورجيا من قبل حكومة المناشفة بجورجيا. حاول المسؤولون الألمان أن يحافظوا على علاقة طيبة مع أي حكومة جورجية لأنهم كانوا يؤمنون أنها دولة مسيحية صغيرة ولكنها مفتاح الولوج إلى القوقاز، وكان رجال الصناعة الألمان يطمعون في الاستثمار في مختلف المصادر المعدنية الطبيعية بجورجيا. في ١٩١٦، سمح لأنصار الملكية الجورجيين بتأسيس نوع من حكومة منفى جورجية في برلين، وكذلك بتكوين الجمعية الألمانية-الجورجية، تحت رئاسة وإشراف الأمير المسن ماتشابيللي. ثم على مدى زمني، دعم الألمان حكومة جمهورية المناشفة المستقلة في جورجيا ضد البلاشفة[1]. ولكن لما اجتاح الجيش الأحمر جورجيا عام ١٩٢١ وقتل قادة تلك الحكومة بينما كان ليف في مسكنه الدراسي في الجزيرة، أصبحت كل وثائق السفر التي بحوزة ليف وأبراهام الصادرة من جورجيا بلا أية قيمة.

أخبرت الشرطة ليف وأباه أن عليهما الحصول على وثائق سفر صالحة أو الرحيل عن ألمانيا على الفور. لو كان لديهما أموال كما كانا على الدوام، كانا بلا شك سيحلان مشكلة وثائق السفر تلك بأقل

(١) أصاب اليأس سريعا الأمير ماتشابيللي وكف عن سعيه ونضاله لاستعادة النظام الملكي بجورجيا وانتقل إلى مدينة نيويورك حيث حقق ثروة عن طريق وضع اسمه وشعار عائلته على سلسلة منتجات من العطور.

قدر من المتاعب؛ فحتى ذلك الوقت، كان كل شيء يمكن عمله ما دام لديك ما يكفي من المال. وكما قال أحد رفاق صف ليف بالمدرسة، فإن الناس يتوجهون بسهولة للضواحي، حيث «يقبل أغلب أعضاء ورجال الحزب الألماني الحاكم الرشى» غير أن القدر والمصير قدما حلولا أكثر عملية.

وكما كان يحدث في الغالب الأعم مع ليف، كانت مصادفة التقائه مع شخصية من شخصيات الماضي تنقذه من مأزق ما، أو تنتشله على الأقل من حالة نفسية سيئة يمر بها. أثناء الحرب العالمية الأولى، أدار الروس معسكرا لأسرى الحرب في جزيرة من جزر بحر قزوين. وأشيع عن قائد ذلك المعسكر - وكان من ألمان البلطيق - أنه كان قاسيا على وجه الخصوص على أسرى الحرب الألمان حتى لا يتهم أنه يكنُّ تعاطفا للأسرى الألمان، كل من عاش بباكو علم بتلك المعاملة المروعة التي يتعامل بها قائد معسكر الاحتجاز مع الأسرى الألمان. وأقنع ليف ومربيته الألمانية أليس - وهما يشعران بتعاطف مع الأسرى الألمان الذين يعانون أشد المعاناة - أبا ليف أن يتدخل بالنيابة عنهما. ومزح الحاكم قائلا بأن بيتهم تحول إلى «وكر للجواسيس»، ولكنه سمح لهم في النهاية أن يحولوا طابق منزلهم الأرضي إلى معسكر مؤقت لإيواء بعض الأسرى. ويتذكر ليف أن حوالي خمسة وعشرين من الجنود النمساويين، والألمان، والأتراك أقاموا عندهم بالمنزل، ومنهم سيدة كانت «زوجة ضابط ألماني كانت مسافرة بنية زيارة أقارب لها في القوقاز ولكنها أعتقلت بسبب ظروف الحرب كزوجة لضابط ألماني». ورد إليهم عملهم الخيري - فحصل ليف على بيانو، وكمان، وسيف، ودروس تعليم ركوب الخيل من «الضيوف الأسرى» - غير أن رد المعروف الأكبر وصلهم بعد خمسة

أعوام، فقد كتب ليف لبيما رسالة يذكر فيها تلك الواقعة قائلا عن ذلك: «كنت أسير في حدائق «تيرغارتن» ذات يوم، حين وجدت نفسي وجها لوجه أمام زوجة ذلك الضابط الألماني. . . وأخبرتها بالموقف الصعب الذي كنت فيه وعن عدم صلاحية ما نملك من وثائق سفر فاصطحبتني إلى مركز قيادة الشرطة. وتوصلت إلى بعض من الناس الذين عاشوا في بيتنا في باكو وحصلت على جواز سفر صادر عن عصبة الأمم - مفوضية اللاجئين، وتصريح بالإقامة في ألمانيا، وأصبح بإمكاني أيضا أن أدرس بالجامعة».

ليس من الواضح أي نوع من الأوراق تلك التي تمكن ليف من الحصول عليها، فقد كانت لديه عادة الكذب فيما يختص بوثائق الحصول على الجنسيات طوال حياته - كان عمله البطولي النهائي قبل موته تحويله لبطاقة السفر بباخرة إلى جواز سفر أميركي، ثم إعلانه لكفيله الفاشيستي أنه «تطوعا وإرادة منه يرفض الجنسية الأمريكية» - غير أنه تلقى بعض التعويض البديل عن الوثائق الجورجية في ذلك الربيع. فقد حصل هو وأبوه من الشرطة الألمانية أيضا على ما كان يشتهيه أي لاجئ آخر قبل أي شيء عداه: جواز سفر نانسن. والمحتمل أن ليف قد حصل على واحد منها في شهر مارس عام ١٩٢٢، أو على أقل تقدير في أواخر عام ١٩٣٠، طبقا لتقديرات تحر استقصائي كان يبحث ذلك الموضوع في ذلك العام، كان ليف يحصل على تجديد سنوي لجواز سفر نانسن من ممثل المفوضية العليا للاجئين التابعة لعصبة الأمم للاجئين في ألمانيا. لم أتمكن أبدا من العثور على جواز سفر ليف، غير أنه على ما أعتقد كان يبدو إلى حد كبير مثل ذلك الذي كان يستخدمه زميله الطالب أليكسندر بريلوفسكي، والذي رأيت جواز سفره، حين قامت أرملته، نورما، بإخراجه من بين أكداس من

الورق من داخل صندوق ورقي لتريه لي، كان معه بالصندوق صوره التي ترجع لعقد العشرينيات وبتلك الصور كان ليف يبدو شابا ومعه طلاب آخرون من اللاجئين الروس في برلين - بدا ليف مشرقا مثل أي طالب في مدرسة عليا مقبل على الحياة، على الرغم من نحافته الشديدة البادية.

كان جواز السفر ذاك بمثابة وثيقة مؤلمة نفسيا، كانت أحباره متعددة الألوان وعلاماته المائية الباهته تعكس المثل والأهداف الفاشلة لعصبة الأمم ذاتها - بدت تلك الألوان غريبة، وتنطوي على مفارقة تاريخية، وعديمة الجدوى. كانت صلاحية جوازات نانسن محصورة في اتجاهات محددة: فحامله يمكنه الحصول على تأشيرة لدخول دولة للبحث عن عمل، غير أنه بمجرد الدخول لا يمكنه العودة للدولة التي أتى منها حتى إن لم يجد عملا في الدولة التي أتى إليها. نظريا، كان يفترض أن يلقى حامل ذلك الجواز معاملة لينة فيما يختص بالنظم والقوانين، غير أن عكس ذلك ما كان يحدث. كان جواز سفر نانسن يحمل علامة خاصة مميزة له عن غيره، وراحت الدلالة التي تمليها تلك الجوازات تتآكل باضطراد مع تآكل سمعة وقوة منظمة عصبة الأمم. (وكانت الضربة الأولى التي تلقتها عصبة الأمم من الولايات المتحدة، التي، بعد أن اخترعت فكرة تكوين عصبة الأمم رفضت التصديق عليها وإقرارها كما رفضت الانضمام إليها).
رحت أفض طيات جواز سفر أليكس بريلو - وهو الإسم الذي اتخذه لنفسه بمجرد وصوله إلى أميركا - حتى بلغت مساحته بعد أن فردته إلى حجم خريطة الكنز وغطى كامل طاولة المطبخ، مظهرا مساحة كبيرة من الأختام البيروقراطية وموافقات الإقامة وموافقات الزيارات التي أعطيت لحامل الجواز، بما فيها طوابع «ضرائب نانسن» الصادرة

عن عصبة الأمم. كان بالفعل بمثابة خريطة تقود إلى كنز تعرف سلفا أنه كان يمثل بالنسبة لحامله كنز من ذهب الحمقى.

سوف يكتب ليف متذكرا مرارة أعوامه الأولى في برلين: «هناك مائة نوع مختلف من الجوع وهناك مائة طريقة لإخفائها، وكان عليَّ أن أخفيها. أنا نفسي لم أعرف لماذا أخفيها أكثر من ذلك. كان من النادر أن يتبدى الجوع في شكل عار ومباشر وسافر، حتى لو كان ذلك الشكل يقينا لا ينقصنا».

عرف ليف صنوف الجوع المختلفة التي كان يعمل جاهدا على إخفائها عن رفاق صفه الدراسي - فعلى سبيل المثال، كان هناك «جوع الملبس»، والذي تسبب في كثير من الجروح لروحه الغندورة التي اعتادت التأنق. لم ير ليف أبدا أباه، وهو رجل اعتاد التأنق المكلف لا يمضي عليه يوم دون أن يرتدي فيه بذلة مكوية بعناية وحذاءً نظيفاً أسود يلمع في الضوء. أما في ذلك الوقت فقد أصبحت ملابسهما رثة ولا يمكنهما شراء غيرها. كان ليف أيضا يقدر قيمة الملبس، كانت العوينة ذات العدسة الواحدة التي اختارها للرحلة إلى ألمانيا من قبيل التظاهر، حيث لم يكن هناك غيرها يعينه على الظهور بمظهر الأرستقراطي. أنقذتهم الملابس في وقت معين: حتى في أشد الأوقات الحرجة في ترحالهم، بدا الأب على الدوام بمظهر رجال النفط وفي سمت من يحمل في جيوبه جنيهات ذهبية، غير أن الجيوب أصبحت مؤخرا خاوية، وحط آل نوسيمباوم الرحال في مكان لم يبد متعاطفا مع أجانب معدمين قادمين من الشرق.

وحين قهرته الظروف، كما يتذكر ليف: «كنت أستلقي على فراشي وأستغرق في النوم. ولكن شكلا آخر من أشكال الجوع تمثل في

الجوع إلى مكان يعيش به، حيث يعيش مالكا لمكان هو صاحبه ويحيا كما يهوى طبقا لرغباته، طاردا من خواطره شبح مالك المنزل المستريب على الدوام في أجانب لا يدفعون إيجار الشقة بانتظام، وأنا، الأجنبي المريب المشكوك به، لا أجد ما أقوله لذلك المالك العنيف إلا أنني كنت أملك الملايين في وطني». تعلم ليف أن مالكي البيوت يتصفون بخيال محدود. لاحظ أيضا صراحة وفجاجة ومباشرة إنفعالات المرابين بطريقة لا يلاحظها إلا المدينون: «كيف يكون المقرض متذللا وخنوعا حين يلقي إليه المرء بماله وكيف يتحول إلى شيطان حين لا يرد إليه مال القرض في موعده»[١].

غير أن ليف كان شابا، ويمر بما يمر به الشباب من مشاكل، ومن المصاعب التي ظلت عالقة بذاكرته.من بين كل المصاعب ما أسماه «جوع السينما». كانت في شق منها ما يتعلق بالزهو والفخر: لو ذهب الطلاب الروس الآخرون لمشاهدة فيلم سينمائي، كان ليف يشعر بالخجل من عدم قدرته على الذهاب معهم. كانت أسوأ المواقف حين يتفق معهم على الذهاب للسينما ثم يجد نفسه مضطرا لاختلاق الأعذار في اللحظة الأخيرة بعد أن يتضح له في اللحظة الأخيرة أن بطاقة الدخول غالية الثمن ولا يقدر على توفير ثمنها. أو أن يكون قد وافق على الذهاب معهم لأنه لا يجد لديه أسبابا مقنعة للرفض، وهو يعرف ويدرك بيقين أنه لا يستطيع أن يقتطع تكلفة الذهاب من موارد أبيه المحدودة جدا. غير أن الرفاق من المدرسة الرياضية الروسية ظلوا يذهبون كثيرا للسينما. كل واحد في برلين كان

(١) هناك أدبيات فرعية عن شكاوى المهاجرين الروس من أصحاب البيوت الألمان حفظت للأجيال التالية في روايات نابوكوف عن برلين، وخاصة رواية «الهبة»

يذهب كثيرا للسينما لمشاهدة الأفلام، ومثل التعلق بالذهاب إلى المراقص والمشارب، كان «جوع السينما» في برلين في الأعوام الأولى من عقد العشرينيات يمثل رغبة ملحة أكثر من كونه صرعة عابرة أو ولعاً زائلاً؛ بل كان في منزلة تضاهي الجوع للطعام والتوق الروحي.

خلال الفوضى التي سادت أثناء الثورة الألمانية، بزغت برلين كهوليود أوروبا وجادة برودواي في آن واحد. كان سكان برلين يتقاطرون على معبد أحلام شركة «يو. أف. أي» في شارع «كودام» التجاري المتألق بالأضواء. كانت شركة «يو.أف.أي» الألمانية الرائدة في إنتاج الأفلام السينمائية قد تأسست في عام ١٩١٧ لتوطين صناعة السينما والاضطلاع بالدور الدعائي والإعلامي (وبحلول نهاية الحرب كان الألمان قد أقاموا ما يزيد على خمسمائة دار عرض على الجبهة الغربية وثلاثمائة دار في الشرق، غير أن شركة «يو.أف. أي» حققت بالفعل دورها المقصود تحت إدارة وإشراف جوزيف غوبلز في عقد الأربعينيات. في بدايات عقد العشرينيات أصبحت «يو.أف. أي» الشركة الأولى في إنتاج الأفلام الترفيهية، مع روابط تعاون قوية مع شركتي الإنتاج الأميركيتين، مترو جولدوين ماير، وبارامونت، وكانت تقوم بتوزيع أفلامهما في ألمانيا. كانت دار العرض الأولى والأفخم في كل برلين هي دار عرض قصر «يو.أف. أي» المسماة «آم زوو»، وكانت تتسع لألفي مشاهد، وسبعين مقعدا لعازفي فرق الموسيقى الأوركسترالية لعزف الموسيقى المصاحبة للأفلام التي كانت صامتة حتى ذلك الوقت.

وعلى الرغم من أن الشركة كانت معدَّة في الأصل لنشر دعاية الحرب، إلا أن شركة يو.أف.أي وفرت نوعاً من الهروب النفسي

للمواطنين من الفوضى التي نجمت عن الحرب. كانت مجموعات كبيرة في «بابلسبيرغ»، وهي إحدى ضواحي برلين، تنافس هوليوود في إنتاج أفلام مشهودة. إرنست لوبيتش، وهو ابن لحائك ثياب يهودي بولندي، أصبح في مقدمة قائمة طويلة من المخرجين الألمان والنمساويين في إظهار مهاراتهم في الإخراج في عهد حكومة فايمار في برلين قبل أن ينتقل إلى هوليوود. وأنتجوا أيضا رؤى مركبة عن أوقات الاضطرابات من خلال السينما التعبيرية - الجديدة مثل فيلم روبرت وين «كوخ دكتور كاليجاري»، وفيلم فريتز لانج «ميتروبوليس» - على الرغم من أن معاصري ليف من فئته العمرية كانوا يقبلون على مشاهدة أفلام الملاحم التاريخية الكبرى مثل فيلم إرنست لوبيتش: «مدامدى باري» و«آن بولين»، و«حبيبات الفرعون»[1]

كتب الروائي النمساوي جوزيف روس لصحيفة ألمانية في عمود له عن قاعات عرض شركة «يو.أف.أي» وعن مشاهد أفلام برلين:

---

(١) كان لانغ، ولوبيتش، وإرنست بومر وأغلب العاملين بصناعة السينما في برلين من اليهود. وبدرجة ما، كانت هوليوود ألمانيا كمرآة للواقع. وينطبق ذلك أيضا على كثير من الممثلين. النسخة الأشهر عن ضابط نازي: «الرائد شتراسر في كازابلانكا»- قام بتمثيله كونراد فايت، وهو يهودي برليني كان يلعب في الأفلام دور الضابط النازي. كان فيدت يذرف الدموع الحقيقية حين كان يمثل فيلم «اليهودي زوز»، اليهودي المضطهد الذي أصبح رمزا، وقام فايت عام ١٩٣٣، بالتبرع بأغلب أجره عن فيلم كازابلانكا للصندوق البريطاني لدعم ضحايا الحرب، ولا يوجد شك في أنه كان يدرك أنه لو كان قد بقي في أوربا حتى ذلك الوقت لكان قد لقي حتفه في أحد معسكرات الاعتقال. (وفي الحقيقة، مات فايت وهو يلعب الجولف بهوليوود عام ١٩٤٣). أما إريش فون شتروهايم، صاحب الصورة العالمية للضابط البروسي في الأفلام، وبالأغلب في فيلم «الوهم العظيم» عام ١٩٣٧، فقد كان ابنا ليهودي بائع خردوات من فيينا.

«نحيت من زمن بعيد عادة أن أرى في كل مسجد برليني بيتاً محمدياً للعبادة، فقد عرفت أن ما أظنها مساجد هنا ليست إلا دور عرض سينمائي، وأن المشرق ليس إلا فيلما».

لكن لم تكن كل ما يبدو مساجد في برلين دور عرض سينمائي. فعند لحظة ما أثناء تلك الفترة، نخى ليف جانبا كل قلقه النفسي الناجم عن تجنبه مسايرة رفاقه وبدأ يخرج معهم بحثا عن معاني حقيقية للأشياء.

لم يكن قد نسى المشرق كما تبدى له في القسطنطينية بماضيها العظيم. كان قد جرب وخبر التجول في الصحاري وأنماط حياة القبائل الغريبة التي صادفها. ولكن ما أبعده عن نمط حياة الشباب الحالمين في العقد الثاني من أعمارهم والذين تنحصر اهتماماتهم في الذهاب إلى سينما لمشاهدة مغامرات السندباد أو فالينتينو، إلا عدم قدرته بالطبع على دفع ثمن بطاقة السينما؟

غير أن العالم المعاصر يقدم أحيانا أحلاما حول كل زاوية، فبعد أن تمكن من الصمود في وجه قسوة عام ١٩٢٢، عام الاغتيالات، وجد ليف أخيرا انتماءه المشرقي في برلين - والأفضل من كل شيء، أنه كان بإمكانه ممارسة شرقيته مجانا. «تعلمت في برلين أن كل ما له علاقة بالجمال، والصحراء، والعرب، والأقواس الصخرية القديمة والناس الذين أنشأوا ذات يوم تلك الآثار القديمة يمكن تعلمه أيضا في الجامعة، في دورات دراسية عن اللغات الشرقية».

هذا الاكتشاف ملأه بالأمل ويقظة التطلع. أدرك فجأة ما يجب عليه عمله بوقته، لأن أبواب ذلك «المسجد» قد فتحت فجأة على مصراعيها أمامه، وكانت مليئة وغنية بما يقدره كل مسلم أكثر من أي شكل آخر: الكلمات.

لم يكن بقدرة أي شيء أن يعوقني، ذهبت إلى مكتب رئيس الجامعة، وذهبت إلى مكتب مدير المعهد، توسلت إليهم ورجوتهم أن يسمحوا لي بالدراسة في المعهد... ونجحت في إقناعهم... وشققت طريقي إلى قاعات الدراسة مثل كلب جائع يجد أمامه فجأة قطعة من اللحم الشهي.

في ١٧ أكتوبر ١٩٢٢، تم تسجيل إسم ليف كطالب في صفوف دراسة اللغتين، التركية والعربية في دورة دراسية لدراسة اللغات الشرقية في جامعة فريدريش فيلهلم. في طلبه الذي قدمه للإلتحاق، كتب في خانة الاسم أن اسمه «أسعد بيك نوسيمباوم» من جورجيا. وكان ذلك أول تسجيل رسمي لاسمه الجديد الذي اتخذه لنفسه - والذي كان في الأصل «السيد ليو نوسيمباوم» إذا ترجم إلى التركية. (على أي حال كانت صفة «بيك» تدل على نبالة المحتد والأصل العريق بالتركية، وعاونه اسمه الجديد على بناء انطباع لدى الآخرين بأن ليف ينتمي لعائلة من الأمراء).

أما التفاصيل التي كانت تحول دون التحاق ليف بالجامعة بسبب عدم انتهائه بعد من الحصول على شهادة المدرسة العليا التي تخوله الالتحاق بالجامعة، فلم يأت على ذكرها، وأصبح ذلك سره الدفين لعام ونصف تليا التحاقه بالجامعة. عاش في البداية بعض الاضطراب والصعوبة في تلقيه للمحاضرات الجامعية، فقد وجد أن «أساتذة الجامعة يحاضرون عن مواضيعهم كما لو كانوا يتحدثون عن أمور عادية تماما». وراح ليف يفهم تدريجيا أن الأساتذة المحاضرين يرون المشرق بشكل احترافي بحت، بينما كان هو مدفوعا بـ«دافع قهري غامض». بدأ يتضح لليف بعض الصور - خدعة بارعة، في الحقيقة؛ مهارة ذهنية في الحفاظ على البقاء. اكتشف أن حبه للآثار والجدران

الشرقية المتداعية، والأسواق اللولبية المكشوفة كانت بمثابة ضوء مرشد يمكنه تسليطه تقريبا على كل بقاع المشرق، بغض النظر عما إذا كان مكانا أجرد مكشوفا أو منعزلا ونائيا أو يبدو مخيفا ومتوعدا. وسوف يتعلم أن يحمل معه وبداخله «مشرقا» متنقلا يحمله معه أنى يذهب، ذلك المشرق الذي يمكنه أن يفض طياته حيثما وجد بقعة مريحة ومستمعين ملائمين تواقين للاستماع.

وبدأ ينفذ برنامجا مجنونا، فقد قرر أن لا يكتشف أحد من رفاقه في المدرسة الرياضية الروسية العليا أنه يحضر بالجامعة (وتقديمه لبيانات زائفة ومدعاة)، وحرص في الوقت ذاته ألا يدرك أحد في الجامعة أنه مازال يدرس في المدرسة العليا. كان ينطلق كل يوم في السادسة صباحا من حي شارلوتنبورغ الذي يقطن به ويسير كل المسافة للجانب الآخر من برلين لحضور محاضرات ودروس الجامعة، ويقضي كل الصباح في محاضرات تعليمية في الوقت الذي يكون فيه مقر المدرسة الرياضية الروسية مازال تشغله بنات المدرسة الصباحية. وحين تفتح المدرسة الروسية أبوابها في الثالثة بعد الظهيرة، يكون هناك في الموعد تماما كما لو كان يتسكع طول اليوم قبل موعد المدرسة كما يفعل رفاقه، أو كأنه جاء لتوه من البيت. «بينما كان مدرس الرياضيات يشرح نظرية في الهندسة في المدرسة العليا، كان النحو العربي الذي أتعلمه في الجامعة يشغل ذهني ويحبو في حجري».

وبعد أن ينتهي اليوم الدراسي في المدرسة في الثامنة مساءا، وينطلق رفاق المدرسة إلى المقاهي أو لمشاهدة فيلم سينمائي، يهرع ليف عائدا عبر برلين شاقا طريقه لحضور آخر محاضرات الجامعة المسائية. كتب ليف: «كنت على الدوام تقريبا أذهب سيرا على الأقدام، لأني كنت أعاني من أنواع معينة أخرى من الجوع - الجوع

إلى سيارة تنقلني من مكان لآخر». ثم يعود للبيت ويؤدي فروضه الدراسية المنزلية للمدرسة وقراءاته المتعلقة بالدروس الجامعية حتى وقت متأخر من الليل، حتى يسقط نائما من الإجهاد، ليستيقظ بعد ساعات قليلة من النوم في السادسة صباحا ليبدأ دورة يومية جديدة. وعاش بتلك الطريقة على مدى عامين، حاشيا رأسه حتى الامتلاء بأسرار الشرق وغموضه.

ظلت قدرة ليف على العمل الشاق والتركيز العقلي من العادات التي صاحبته لباقي عمره القصير الذي لم يمتد به طويلا. كان معروفا عن الكتاب من اللاجئين والمهجرين أنهم يشربون الخمور ويعملون مثل الشياطين، ولكن سرعان ما سيثير ليف دهشتهم. كانت أنشطته الأكاديمية السرية تجعله يشعر في بعض الأوقات وكأنه في «ناد حصري»، وفي أحيان أخرى تجعله يشعر كما لو كان يعيش في عالم آخر. كان سعيدا بأن لديه من الأسباب ما يجعله منفصلا عن الآخرين. أصبح كلٌّ من العمل وجدول تنظيم الوقت نوعا من استراتيجية الحياة المعنوية. ويتذكر: «كان الأقرب جدا للاحتمال أن تنتهي حياتي مع تلك القفزة المفاجئة للفقر الذي فاجأنا بغتة، لو يتملكني حب الشرق القديم الذي أعانني على الصمود والاستمرار». اكتشف ليف أيضا أنه يتمتع بأن لديه حياة سرية لا يعرفها غيره. لقد كان مختلفا عن الآخرين، وكان يدرك ذلك، بسبب ما فعله وما يفعله. لقد أصبح الآن مستشرقا.

في صندوق أشياء أليكس بريلو القديمة، وبين صور الطلاب وهم يركبون الخيل حول برلين عصر فايمار، كان هناك على الأقل دستة من أمثال ليف. كان جميلا جمالا مدهشا - أطول من أغلب أقرانه

ويرتدي ملابسه بتأنق (وهو النمط المفضل من الشباب في ذلك الوقت، على الأقل للفتيات الروسيات، . . .)- وكانت ملامح وجهه في الصور تحمل تعبيرا عن الملهاة الدرامية، وكأنه باستر كيتون. بدا وهو يعيش تلك المشاهد وكأنه ممثل سينما يلعب دورا في فيلم، بينما كان الآخرون ببساطة مجرد أناس حقيقيين يجري تصويرهم. في ذلك الوقت كان خجله الاجتماعي قد تلاشى واختفى، فقد بدا في كل اللقطات الفوتوغرافية راضيا ومقبلا على الحياة لا متواريا عنها، وواثقا، ومتفاعلا مع الجموع. إحدى الصور التقطت في يوم صيفي في حديقة يانعة الاخضرار مع صديقته آديا فورونوف (وذراعاها ملتفتان حوله بحرارة)، وتوسيا بيسكوفسكي، وزينيا فورونوف، مع طفل أشقر يبلغ عاما تقريبا من العمر. كان أليكس بريلو قد أخبر زوجته بعد زمن أن ذلك الطفل كان ميكائيل أوجور بيسكوفسكي، والذي سيصبح بعد ذلك مواطنا أمريكيا وغير إسمه إلى مايك نيكولز. ولد نيكولز في برلين عام ١٩٣١ وسعت عائلته بعد ذلك للفرار من ألمانيا عام ١٩٣٨ وعمل بعد فراره إلى أميركا كمقدم فواصل فكاهية على المسرح بين الفقرات كما عمل مخرجا في هوليوود، وكان نموذجا في عقد الستينيات لعظماء الشخصيات اليهودية الألمانية والنمساوية المهاجرين إلى أميركا، تلك المجموعة التي أعادت صياغة صناعة السينما الأمريكية في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات[(١)].

(١) حين ظهر مقالي عن ليف في صحيفة النيويوركر مع عرض لتلك الصورة تحديدا التي تضم الطفل، كتب مايك نيكولز مقالا ينكر فيه أن الطفل الذي في الصورة ليس هو في الحقيقة وأن أصدقاء تلك السيدة يمكن أن يقسموا أنه كان «أكثر جمالا بكثير» من ذلك الطفل. أما أليكس بريلو الذي كان يذكر بيسكوفسكي مرارا كثيرة في مذكراته، فقد كان يسجل الأسماء في رقعة ورقية صغيرة ويرفقها بدبوس مع كل صورة.

ولكن ما أثار اهتمامي الشديد من بين الصور مجموعة خاصة منها: صورة فيها ليف بمفرده، وهو أكبر قليلا في السن وأكثر امتلاء - ربما بعد إنهاء دراسة الجامعة؟ - في زي إسلامي كامل. في واحدة من الصور كان يرتدي عمامة بيضاء مزينة بحجر وريشة طويلة الأهداب في منتصفها، وقرطين كبيرين بعديد من الدلايات وخواتم ضخمة في أصابعه القصيرة الممتلئة. كان من الواضح أنه وضع ظلالا لونية لعينيه وأحمر شفاه بل وحتى شامة سوداء بالألوان فوق شفته، ويتطلع نحو آلة التصوير بحدة وثبات. ولقطة أخرى كنت قد رأيتها من قبل، لأنها كانت قد استخدمت كصورة غلاف لكتاب «إثنا عشر سرا للقوقاز» - كان ليف في تلك الصورة يرتدي زي الفارس القوقازي المقاتل، بقلنسوة سوداء من جلد الماعز وخنجر أحادي الحد مثبت إلى حزام عريض حول وسطه.

كان أغلب الطلاب والمدرسين في المدرسة العليا الروسية ببرلين قد اعتادوا على مناداته باسم «أسعد» لأنه كان يصر على ذلك. إضافة لذلك، لاحظ بريلو في مذكراته، أن لهجة ليف القوقازية صارت أثقل بمرور الأعوام «مع صوت عريض في نطق حرف الألف، وتأكيد نطق حرفي الكاف والخاء بالضغط عليهما». بعض الطلاب لم يقاوموا رغبتهم في مضايقة ليف ومشاكسته بسبب ذلك الإسم، وحول ما يختص بهويته «الإسلامية» بوجه عام بما فيها ادعائه بأنه «خبير ديني في العادات والتقاليد الإسلامية» في أحد الأيام، ثم دستوري ليبرالي قيصري في اليوم التالي.

اكتشف بريلو أن استغراق ليف «الرومانسي بالإسلام» يتطور «إلى درجة النسيان الكامل لكل شيء حوله»، وأنه أحيانا ما كان يثير لا عدم تصديقه فقط، بل أيضا عداوة رفاق صفه الدراسي. وهو يتذكر أن

ليف كثيرا ما كان «ينضم لمشاغبيه ويثير ضحكات عامة بقيامه بالتهريج والمبالغة في السخرية. وأحيانا ما كان يؤكد سخرية أقواله، حتى يصبح من المستحيل إدراك ما إذا كان جادا أم مازحا. ولكنه في أحيان أخرى يتحول إلى حالة غضب مجنون ويلجأ للعنف البدني ويتوجب على رفاقه كبح ثورته العنيفة وتهدئته إن وصل إلى هذا الحد».

أحد رفاق الصف الدراسي على وجه التحديد كان يشعر بمتعة وسعادة في إثارة وإغاظة ليف بـ«تذكيره على الدوام بأصله». أرتني نورما بريلو صورا لذلك الولد، كان يدعى جورجي ليتايور، كان كل رفاقه الروس يسمونه «زورزيك»، وكان يتمتع بمظهر حسن بطريقة تلفت الأنظار إليه، نحيل بحيوية فائقة وكأنه يكاد يقفز من فرط حيويته من إطار كل صورة مصورة بالأبيض والأسود كان يوجد بها، حتى لو كان في أعماق صورة من صور أحد تقاطعات شوارع برلين. كان جورجي يتلقى دروسا خاصة في الرقص على يد الباليرينا السابقة لفرقة البالية الإمبراطورية الروسية، وكان بعد انتهاء الدراسة يعين نفسه ماديا بالعمل كراقص باليه. ووجد أن الأمر يمثل بهجة خاصة في السخرية من الطريقة التي حول ليف نفسه بها إلى «أسعد بيك» - أو «أسعد بيج» كما كان ليف ما يزال يكتبها هكذا، على الهجاء الأذربيجاني التركي. ولم يفوت جورجي فرصة واحدة لتذكير رفيق صفه أنه لا يعدو كونه واحداً آخر من اليهود الروس مثله تماما. غير عارف عن الالتحاق السري لليف بالجامعة بذلك الإسم أيضا، ولا كيفية قضاء ليف لكل أوقية طاقة في بدنه للدراسة دون أن يعود لبيته إلا في وقت متأخر ليلا، لم يدرك جورجي مدى ضغطه على الجرح المؤلم لليف.

كان التوبيخ الساخر والمهين والتحويم حول ليف بالكلمات

المغيظة من جورجي بسبب تغييره لاسمه يفقده رشده حتى أنه استل سكينا ذات يوم مهاجما معذبه ومهددا له بقطع رقبته إن لم يكف عن ذلك. ويسجل بريلو في مذكراته أن «عدا كون أسعد من النوع العصبي، كان يبدو أنه ينخرط في انفجارات عصبية من الجنون القاتل، ربما لأنه كان يشعر أن ذلك من مستلزمات كينونته المشرقية، ويعد الثأر بالنسبة للشرقيين واجبا مقدسا». وتدخل بريلو مرارا لكبح جماح «المزاج القوقازي» لصديقه ليف حتى لا تفضي به تلك الحالات لارتكاب جريمة قتل. (وللأسف المحزن لم يحتج جورجي لأي أحد ليقوم له بذلك الدور؛ فقد مات متسمما بغاز أول أكسيد الكربون في باريس، ويحتمل أنه كان انتحارا، بالكاد بعد خمسة أعوام فقط من تلك المرحلة في حياتهم).

كان للخصومة بين جورجي وليف سببا كلاسيكيا آخر. فقد تعلق كلاهما بنفس الفتاة - فتاة بعينين خضراوين وشعر بلون النحاس تدعى زينيا فلات. ويتذكر رفيقهما بريلو أن زينيا «كانت لا تحب القراءة، وكسولة وبليدة ومتراخية ولا يشغلها أي شيء عن مظهرها» وعملت بوظيفة عارضة أزياء في «متجر حمالات صدر ومشدات باهظة الأثمان». رأيت بعد ذلك صورة مكررة من «جمال زينيا المفرط»، رسمها ليونيد باسترناك، أبو ليديا زميلة صفهم وشقيقة بوريس باسترناك. في الصورة التي رسمها ليونيد بألوان الباستيل، على الأقل، كانت بالفعل بالغة الحسن. تنافس جورجي وليف على نيل إعجاب الفتاة، ولكنها أبقتهما في حالة تخمين وعدم يقين على الدوام - حتى حط إعجابها على شخص آخر من خارج المجموعة، على رجل أكبر سنا يدعى يوشنكا، «رجل بدين حضري، شديد الذكاء ومرح»، انتقل بها بعد ذلك إلى نيويورك. وهناك، عكس كل مثاليات

الهجرة إلى الولايات المتحدة، وتحول إلى مؤيد متحمس لستالين. كان بريلو يؤمن على الدوام أن ياشا أو يوشنكا كان النمط المثالي الذي استوحى منه ليف شخصية ناتشاراريان، «الأرميني الشرير» في روايته «علي ونينو»، والذي كان المنافس لعلي على حب نينو. ففي الرواية، وبديلا عن واقع اصطحاب يوشنكا لزينيا فلات إلى الولايات المتحدة وتحويلها إلى ستالينية متعصبة، فإن ناتشاراريان المنافس القدري لعلي في الرواية يقوم باختطاف نينو في سيارته وحاول التوجه بها «إلى الغرب» سارقا إياها من موطنها الذي تحبه في القوقاز ومن أميرها المحبوب غير أن علي (ليف) يشرع في مطاردة السيارة وهو على صهوة جواد أبيض ويقوم بطعن منافسه وخاطف حبيبته حتى الموت. (وهو يبدو مشهدا سخيفا ومضحكا ولكنه صور في الرواية بشكل جيد). رآه بريلو كما دون في مذكراته:

> العلاقة الغرامية، بما فيها اختطاف نينو والفرار بها وما تلاه من مطاردة وملاحقة حتى مقتل ناتشاراريان، لا يعدو كونه تحقيقا لرغبة دفينة كما في السيرة الذاتية لعلي الذي كان بلوغه وشبابه خليطا غريبا من شخصية أسعد ذاته وعما كان يحب أن يكون عليه.

في رسالة من ليف إلى بيما، أشار ليف في تلك الرسالة إلى الفتاة التي أحبها في برلين حباً غير متبادل على الرغم من عواطفه الشديدة نحوها - باسم «سو سو هامان» وهي مواطنة مسلمة من باكو. لم يكن بمقدوره بالطبع أن يفصح لبيما في رسالته أنه كان يحب فتاة يهودية روسية. وفي الحقيقة، لم يتعرف ليف على فتاة أذربيجانية من مواطنيه ومن سنه في برلين، وكان كل أصدقائه على وجه التقريب من اليهود، إما من سانت بيترسبورغ، أو من مناطق المستوطنات اليهودية الروسية

في البلقان. ولابد أن هذا الأمر كان يحمل قدرا كبيرا من التناقض بالنسبة له، ما صار وما آل إليه حب المنفى.

بعد زينيا، خرج ليف مع فتيات ألمانيات كثيرات، وكتب بريلو عن ذلك: «كن في العادة شقراوات حمراوات الخدود، وكنَّ ينجذبن إليه بسبب شعره الأشقر الناعم». كانت كأنها إستعادة لحياته على الجزيرة الخضراء. كان ليف ينجذب للفتيات ثم يتركهن فجأة ويبتعد عنهن. وكان على وجه التقريب محبطا بسبب اضطراره إلى العودة للحياة مع اللاجئين الروس مرة أخرى، مع أنهن كن الفتيات الملائمات في سن الثامنة عشرة ومعهن الشباب يجلسون معا، كل شاب مع فتاة [لكن] دون تقبيل، وفي الحقيقة، لم يكن ليحدث من أي فرد آخر أن يعامل الفتيات اللاتي يدرس معهن بأي طريقة مختلفة أكثر مما هو معتاد في روسيا: أي بأدب متحفظ».

في يوم امتحانه الأخير في المدرسة الرياضية للاجئين الروس، أحس ليف بالضياع وفقدان الأمل. كان قد قضى وقتا طويلا جدا في مدرسة مسائية، يدرس اللغة العربية، واللهجات التركية، وجغرافية أوزبكستان. لم يكن لديه أمل في اجتياز المواضيع الرئيسة - خاصة اللاتينية والرياضيات. أحس أنه أحمق، وتخيل كيف ستنهار آماله وآمال أبيه إن رسب في الامتحانات. لن يكون بمقدوره مواجهة الرجل المسن، الذي كان يمر بكثير من المصاعب والشدائد. سيكون فشله في الامتحان أكبر من قدرته على احتمال ذلك الفشل.

بدا أن رئيس لجنة الامتحانات، وكان رجلاً مسنًا متجعد الوجه من أمراء عائلة رومانوف الحاكمة سابقا في روسيا ويضع عوينات مغروزة بعمق لا يمكن تصديقه في وجهه، لم ينتبه بأدنى قدر لليف أثناء أدائه الامتحان. ثم رأى ليف أنه كتب على مجموعة أوراق

ملاحظاته «بخط يده الأرستقراطي الذي تطغى عليه الكآبة» بعد اسم نوسيمباوم: «طالب ضعيف جدا». وأثناء اختبار التاريخ، بدا أن رئيس لجنة الامتحانات المسن يغلب عليه النعاس والضجر فيما كان ليف يؤدي الاختبار، كان جالسا دون أن يبدو عليه أنه يبالي بأي شيء محملقا في أبعاد غير مرئية. وفجأة، رفع رأسه، وثبت عوينته على ليف، وقال له: «قل لنا شيئا عن هيمنة التتار والمغول على روسيا».

كان السؤال بمثابة أعظم هدية يمكن أن يتلقاها ليف في حياته، حتى لو لم يكن في الفصل الدراسي الثالث في جامعة فريدريش-فيلهلم التي يدرس بها سرا، ويتذكر ليف: «رأيت أمامي فجأة سهوب منغوليا الهائلة الاتساع بلا نهاية وفرساناً على خيول... ولم يبد أن هناك على وجه الأرض ما يمكنه أن يوقف تدفقي في الشرح».

> أظن أنني نسيت في ذلك الوقت أنني في منتصف اختبار التاريخ. تحدثت وتحدثت في تدفق لا يعوقه عائق، اقتبست من اللغة العربية، والتركية، والفارسية كل بلغته الأصلية. وبالفعل، كنت أعرف حتى بعضا من اللغة المغولية. كانت اللجنة مذهولة في صمت - وأنزل الأمير رئيس اللجنة عويناته عن وجهه. ثم راح فجأة يلقي بأسئلة، وياللعجب - كانت باللغة الفارسية، وبعض باللغة المغولية، بل إنه اقتبس بعضاً من النصوص الكلاسيكية في الأدب الشرقي...
>
> لم أعرف إلا لاحقا أن الأمير كان واحدا من أشهر المستشرقين في روسيا. طفر العرق من وجه أعضاء لجنة الاختبار؛ فقد كان الموقف بأجمعه يفوق خيالهم. بدا مدرس التاريخ فجأة مثل تلميذ مدرسة أولية وأنا متدفق في السرد. ما بدأت به كاختبار تاريخ تحول إلى مناقشة معمقة بكل اللغات المشرقية المختلفة عن كل صنوف مشاكل وتاريخ الشرق. وأعتقد

أن المناقشة استمرت لما يربو على الساعتين، وكان يمكن لها أن تستمر حتى المساء لو لم ينبه الشخص الجالس إلى جوار الأمير، وكان مستشارا روسيا خاصا سابقا، إلى مرور الوقت.

أنقذت المناقشة ليف، بغض النظر عن الأخطاء التي أخطأها في الاختبارات الأخرى، رأى الأمير المسن موهبته الفذة ولن يدعه يرسب في الامتحان النهائي. وفي الموضع الذي كتب فيه «طالب ضعيف جدا»، راح يتأكد بنفسه أن كل الممتحنين وضعوا لليف علامة «مقبول». وبذلك تخرج من المدرسة العليا.

وفي المساء استمر رفاق المدرسة في التجمع معا، في الغالب لتقضية أمسية أدبية في شقق بعضهم بعضا. ويتذكر بريلو: «ما جعل من أسعد مركزا مؤقتا للمجموعة، التي كانت تلتقي في الأغلب في بيت محبوبته - زينيا - موهبته في سرد الحكايات». كانت حكاياته على النمط المحبوب الساخر أو من نوع التحديات النفسية الخرافية عن الجن أو الحكايات الشعبية، والتي جمعت ما بين الولع الألماني في بدايات القرن العشرين بالقصص الخرافية والدافع القوي لحقبة فايمار في تحويل كل شيء إلى نوع من الفكاهة السوداء. وجد ليف في الحكايات مخرجا مبكرا لشاعريته المشرقية، معتمدا على كل من ذكريات طفولته في باكو، وعلى معارفه وتدريباته التي تعلمها من دراسته الليلية بالجامعة، وأيضا كوسيلة للتلاعب بالموضة الرائجة في الأدب الأوربي في ذلك الوقت من الولع بالقصص الخرافية. ويبدو أن أليكس قد نسخ تلك الحكايات في وقتها باللغة الروسية، ونشر ترجمات لتلك النصوص بعد عقود طويلة. قرأت تلك النصوص، وعلى الرغم من يفاعتها ومناسبتها لسن الشباب، إلا أنها كانت تحمل روحا ساخرة كان يمكن التعرف عليها على أنها كانت المادة الأدبية

الخام لروايته «علي ونينو» ولكثير من الكتب عن القوقاز التي سيكتبها ليف لاحقا.

ما لم يدركه أغلب رفاق دراسة ليف أنه كان قد أصبح مستعدا للانفصال عن شخصيته - ليف نوسيمباوم - كليا منذ تلك المرحلة. تحول إلى اعتناق الإسلام في شهر أغسطس عام ١٩٢٢ على يد إمام السفارة التركية في برلين وأصبح اسمه أسعد بيك - أو أسفد- بيج كما يلفظ بالروسية. ولما اكتشف رفاق دراسته ذلك، خاصة اليهود منهم، كانوا مندهشين أكثر من أي رد فعل آخر، كما يمكننا أن نتبين ذلك من مذكراتهم وذكرياتهم، لا من أليكس بريلو فقط، بل من مذكرات وذكريات أناتولي زادرمان[١]. وكان ذلك سيصبح موقفا ثابتا من قبل كثير من أصدقاء المقاهي لليف المستقبليين. لم يكن أبدا المقصود من وجود «أسعد بيك» أن يكون مزحة، ولكن ذلك لم يعن في الوقت ذاته أن ليف نوسيمباوم، الذي استمر موجودا، لم يكن بنفسه ليضحك أحيانا من ذلك.

لماذا قام ليف بذلك؟ يعتقد أليكس بريلو بأنهم ببلوغهم مبلغ الشباب في بيئة حاضرة كبرى، وكأبناء عائلات روسية أصيلة، كان ليف يبحث عن انتماء أكبر وعن يقين وعن أصالة، ووجد مبتغاه في «عالم الخدم من مواطنيه الذين تمتد جذورهم إلى هناك مباشرة، إلى

---

(١) أخبر ليف أليكس بريلو عن محاولته الأولى لاعتناق الإسلام حين كان في الخامسة عشرة من عمره وهو في مدينة القسطنطينية أثناء إقامته القصيرة بها، كان قد سأل شيخ (مُلّا) مسجد مجاور ليقبله رسميا كمسلم. وبعد «فاصل كوميدي» يظهر جهل المُلّا بالتماثل والتشابه بين اليهودية والإسلام فيما يختص بختان الذكور، وهو فاصل «تذكره ليف بخلطته المعتادة من الجد والهزل». وقد أصبح مسلما افتراضيا ولكنه يعتقد أنه لم يسلم حقا في ذلك الوقت.

القرى المسلمة في القوقاز، أو تجمعات البدو التي تعشش في جبال باكو الساحلية النائية عن العمران». وربما كان ذلك صحيحا - ولكن على أي حال من الأحوال، فأنا لا أعتقد أن لإسلامه علاقة بسعيه للفرار من الاضطهاد بسبب يهوديته. الحقيقة الفعلية تبدو أكثر تعقيدا من ذلك بمراحل - كما هي مرتبطة بمشاعره عن الحداثة والتاريخ أكثر من ارتباطها بمخاطر وتهديد محدق (وهو تهديد لم يكن محدقا بالنسبة له في عام ١٩٢٣، لأنه لم يكن صنوا لوزير الخارجية اليهودي فالتر راتناو الذي اغتيل بسبب يهوديته). حين ولج ليف عتبة السفارة التركية، كانت ما تزال سفارة عثمانية، أي مازالت تحت السلطة الإسمية للخليفة والشرقيين المعاصرين الذين كانوا آخر سلالة العائلة الحاكمة العثمانية التليدة. وقد يكون أقرب للحقيقة أن نذكر أنه تحول لاعتناق الإسلام كوسيلة لإعادة اكتشاف الأمل المتعدد الأعراق الذي كان يشغله منذ أن كان صبيا يهوديا من مدينة باكو.

وسوف تصبح هويته الجديدة العذر والحجة العرقية والدينية، وسوف يستخدمها ليظل على قيد الحياة. غير أنها كانت أيضا ملاذا ثقافيا يسعى إليه حين كان يخطو إلى داخل السفارة، ولم يكن من قبيل المصادفة أو توافق الأحداث أنه قام بذلك حين كانت السفارة ما تزال عثمانية. في واحدة من أوائل صوره كـ «أسعد بيك»، يظهر ليف في الصورة جالسا على مقعد بمسندين من الجلد البالي ويبدو وكأنه كان موضوعا خارج حارة أو فناء. وهو يتطلع بغموض إلى آلة التصوير، يضع ساقا على ساق، ويرتدي بذلة محبوكة على بدنه، طقماً كاملاً، وعلى رأسه ذلك الرمز الدال على تفرد وتميز الإمبراطورية العثمانية، الطربوش.

بعد ذلك بأقل من عام، سيكون الخليفة وهو يقرأ روايته التنويرية

منفيا في باريس ويقضي أوقاته في حضور عروض الأوبرا، وسوف يلغى الطربوش ولقب «بيك» رسميا في تركيا بعد انتهاء الحكم العثماني لها. وبذلك قايض ليف هوية تموت - كإبن لحضري يهودي من باكو - بهوية أخرى جديدة.

كان ليف يتخذ خطوات أخرى ليرتبط بالإسلام خارج عالم المعهد الشرقي الذي يدرس به. في عام ١٩٢٣ ورد اسمه ضمن قائمة الأعضاء المنشئين للجمعية الإسلامية في برلين وورد اسمه كـ «أسعد بيك»، وفي ١٩٢٤، عاون على تأسيس جمعية الطلاب الإسلاميين التابعة للجمعية الإسلامية، والمسماة اختصارا «إسلامية». وأكدت مقالاته أساسا في ذلك الوقت، (على أي حال من وجهة نظره) على الشفقة التي يقابل بها أحيانا والحرب السياسية التي يواجهها. وفي مقال عن سيرته الذاتية كتبه عام ١٩٣١، وصف بمأساوية المشهد السائد:

> في حانة مظلمة مليئة بدخان التبغ في الجانب الشمالي لبرلين، تجمعت الأقلية الداعية للوحدة الإسلامية. وازداد عددنا، كل لغات الشرق كانت تسمع في الغرفة المليئة بالدخان، ومن حين لآخر كانت تسمع لغة ألمانية أيضا. ومن المحتمل أن ما يربو على نصف الحضور كانوا جواسيس للإنجليز أو الروس. كان رئيس الجماعة خصياً هندياً، والذي سوف يدخل لاحقا بالمثل أيضا في خدمة الإنجليز. كلنا كنا مشاركين بالسياسة، قادتنا الحرب بطريقة ما إلى الشرود عن السبل القويمة. كانت المؤامرات تخطط، وتعد عمليات الاغتيال ولا تنفذ، وتكتب الدعاوى والبلاغات. وعقدت محاضرات عن الخليفة وكتبت أشعار... ممارسة السياسة عمليا بدأت تصيبني بالقرف. وكذلك أصبحت عملية إحياء الوحدة الإسلامية عمليا تتآكل وتتحول إلى أقوال وثرثرات، وغيبة ونميمة، وانعدام ثقة.

ويحتمل أن تلك الغرفة المليئة بدخان التبغ كانت تقع بالقرب من شارع هانوفر، حيث كانت توجد جمعية عبد الجبار خيري - والذي كان بلا شك هو الخصي الهندي المشار إليه. وسرعان ما أصبح ليف عضوا نشطا، اجتماعيا وسياسيا؛ وتم انتخابه ليصبح عضوا في مجلس نواب الجماعة، وكان يتحدث عن الموقف البائس والتعس للمسلمين تحت وطأة المستعمرين، وكان شغوفا بإيصال أفكاره للطلاب المسلمين والمهنيين في قاعة الاجتماعات.

كان أولئك من بين اوائل المسلميين الفعليين، المعارضين للباحثين الألمان والروس الذين يدرسون الإسلام، الذين قضى ليف معهم الوقت منذ فراره من أذربيجان. وأضافوا له وهو شاب بعضاً من الملامح الأولى عن العالم الإسلامي، على الأقل من جانبه الحازم والشجاع الأكثر حداثة. كان كثير منهم قد قدم إلى ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، كمدرسين، وأطباء، وتجار؛ وكان كثير غيرهم قد قدموا كلاجئين سياسيين. كانت الحركة المعادية للاستعمار قوية في برلين في عقد العشرينيات، وكانت الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي والثورة المغربية على الاحتلال الأسباني تشجعان وتغذيان التعاطف والتأييد الألماني العام لاستقلال العالم الإسلامي.

ولكن من سوء حظ ليف، كان المجتمع الإسلامي في ألمانيا مصابا هو الآخر بالقومية، وعلى وجه التخصيص القومية العرقية، أكثر مما كان عليه في غيرها من الأماكن. وفاقم ذلك من الميول القديمة الفردية: ففي قاعة مليئة بدخان التبغ تضم شرقيين حقيقيين، كان من الأصعب على ليف أن يكون «رجلاً من الشرق». وكما عانى من الصدمة الثقافية عند عودته من جزيرة الفتيات الشقراوات إلى مجتمع كله من الروس اللاجئين، أصبح الآن يشعر من جديد أنه ليس في

مكانه على الرغم من وجوده بين رفاقه المنفيين واللاجئين من الدول الإسلامية، كثير منهم كان مثله، من مناطق السوفيات الحالية التي كانت روسيا فيما سبق. الحياة الاجتماعية في مجتمعات اللاجئين مليئة في الغالب بالغدر والطعنات المخاتلة والمرارات، غير أن الأشياء كانت محبطة ليهودي وحيد في بحر من الحرمان من الحقوق والامتيازات في الأنشطة الإسلامية. لم يكن الأمر مجرد مشكلة دين، منذ أن تحول ليف إلى الإسلام أصبح مدافعا مخلصا عن أهداف الوحدة الإسلامية التي تتوافق عليها الجماعة كلها.

المشكلة أن القوميات العرقية بطعم الإسلام كانت تتحول بسرعة لتصبح الوسيلة المفضلة لمعاداة ومعارضة الهيمنة السوفياتية عن بعد. كان «الاعتزاز القومي» الأذربيجاني على سبيل المثال أقوى بكثير بين اللاجئين الأذريين أكثر مما كان عليه في أي وقت سبق في مدينة باكو الكبرى في صبا ليف. الحضرية العثمانية، كما يمكن للمرء أن يصف ولاء ليف، لم تضف إلى صفه فعليا كثير من الحلفاء من بين اللاجئين المسلمين. وسوف يجد ليف أنها تروق لمختلف المجموعات - من الليبراليين الأوروبيين و«المستشرقين» اليهود - ولكنه لم يكن قد عرف بعد أولئك الناس. كان المتنسبون من المتحولين إلى الإسلام بين تلك الجماعات يتبوأون المقاعد الخلفية بعد العرب، والأتراك، والإيرانيين، والأفغان والهنود في قاعة الاجتماع، ناهيك عن اللاجئين السوفيات الآخرين. وفي المجمل، كانت علاقة ليف برجال الأوطان أولئك، أقل من سلسلة. ولم تعنه على الإطلاق في مهنته التي كانت في سبيلها للصقل ككاتب.

الفصل العاشر

نجم إعلام جمهورية فايمار[1]

كان ليف نوسيمباوم - الذي يكتب باسم أسعد بيك - بالكاد قد أصبح في الرابعة والعشرين من عمره حين نشر «الدم والنفط في المشرق»، كأول كتاب له. وفي الوقت الذي مات فيه، بعد ذلك باثني عشر عاما وهو في السادسة والثلاثين من عمره، كان قد كتب أربعة عشر كتابا آخر، عدا روايتين كتبهما تحت اسم قربان سعيد - أي بمعدل كتاب كل عشرة أشهر. وجدت أنه من الصعب أن أتوصل إلى أعماله الكاملة من دليل المكتبات وحده أو من شبكة المعلومات الدولية، حيث كنت أفاجأ على الدوام بظهور عناوين جديدة: سيرة لينين وستالين، وكتاب آخر عن القيصر نيقولا الثاني، وكتاب عن

---

(١) جمهورية فايمار الألمانية كانت شكلا من أشكال الجمهوريات الفيدرالية التي تأسست بعد نفي الإمبراطور الألماني وكان الحكم شبه رئاسي، مع ديمقراطية تمثيلية برلمانية، تأسست عام ١٩١٩ في ألمانيا لتحل محل الإمبراطورية الألمانية وانتهت في ١٩٣٣ بصعود حزب الرايش الثالث بزعامة هتلر إلى الحكم. سميت بجمهورية فايمار لأن المجلس التمثيلي عقد أول اجتماعاته في مدينة فايمار لوضع دستور لألمانيا بعد سقوط الإمبراطورية الألمانية. وقعت خلال تلك الفترة صراعات مسلحة بين مختلف القوى السياسية (المترجم)

تاريخ صناعة النفط في العالم، ودراسة عن الشرطة السرية الروسية. كتب ليف أيضا نوعا من الرواية العاطفية الاجتماعية التاريخية المعاصرة - وهو لون من الروايات كان سائدا قبل ظهور الرعب والخوف الجماعي الشامل بالقرب من نهاية عقدي الثلاثينيات والأربعينيات الذي جعل من التاريخ المعاصر غير عاطفي بشكل استثنائي.

وحين بلغ السادسة والعشرين، عالج ليف كتابة سيرتي النبي محمد وستالين في نفس الوقت كل على حدة، وكان كل منهما معروضا في المكتبات قبل أن يتم السابعة والعشرين من عمره. وحقق كل منهما أفضل الكتب مبيعا على المستوى الدولي ولقيا ترحيبا حارا بسبب أسلوب كتابتهما المبهج وبسبب عمق ونفاذ بصيرة الكاتب في رؤيته لتلكما الشخصيتين العالميتين. سيرة محمد هو الكتاب الوحيد من بين كتب ليف الذي ظل تحت الطبع في المطابع على الدوام بلغة أو أكثر، وكان عرض صحيفة نيويورك تايمز الأصلي للكتاب ملخصا جامعا للطبيعة الخاصة لعمله ذاك:

> نسيج هذا الكتاب الرفيع يشبه نسيج البساط الفارسي النادر. فهناك نسيج تحت الأقدام وفي المتناول، غير أن للبساط سحراً يأسر الناظرين. نحن نخطو بشدة وحزم على أثر ما ارتبطنا وتقيدنا على الاعتقاد والإيمان به، نحن ننظر إلى ما يتجاوز معتقداتنا، والسؤال المطروح هو كيف لنا أن ننزع المعقول من اللامعقول دون أن نمزق إربا التصميم الجمالي».

ما زالت كتبه تقرأ حتى بعد مرور سبعين عاما على كتابتها، لا على نطاق ضيق لأن ليف قص وأورد تحاليل نادرة لآليات تسعير النفط كما لو كان يكتب عن لون من ألوان الفولكلور القوقازي. أما

كتابه عن ستالين فهو لا يشبه أي كتاب آخر مما كتب عن ستالين، وحين ظهر كتابه التالي عن الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٣٣، بعد أقل من عام من صدور كتابه السابق عن ستالين، احتفت صحيفة التايمز بالكتاب وكتبت عنه تحت عناوين: «كتاب يرى روسيا في قبضة القسوة؛ أسعد بيك يحكي عن جنة الشيوعية الإجبارية. . . . البلاشفة، في تعصبهم لديانتهم البلشفية الجديدة يتحولون إلى عبيد يقادون للهلاك»، هذا بعض مما يذكره أسعد بيك في كتابه.

كانت أنشطة اللاجئين الروس الرئيسة محصورة في شرب الخمر، والكتابة والنشر في برلين في فترة جمهورية فايمار. كانت مدينة برلين عاصمة نشر كتب اللاجئين حتى عام ١٩٢٤، مدعومة برخص سعر ورق الطباعة، والحبر، وتوفر الفودكا، ومدعوم أيضا بتوفر حروف سايريللك الطباعية من المطابع الثورية التي كانت موجودة بكثرة فيما قبل عام ١٩١٧، حين كانوا في المنفى. ولكن بعدما أدى التضخم إلى إخلاء وتفريغ أماكن مطابع كثيرة وأدى إلى تحول الهجرة إلى باريس وبراغ، كون من بقوا دائرة علاقات قوية وحميمة - وكانوا في الأغلب من الليبراليين، وفي الأغلب الأعم من اليهود - بإرادة أقوى لإيجاد صوت قوي يعبر عنهم في ألمانيا. وربما كان ليف من أكثر الأمثلة نجاحا من بين تلك المجموعة.

ولكنه قبل أن يجد صوته المعبر بالألمانية، كان يشحذ ملكاته بكتابة مقالات بالروسية، كان يكتب في البداية لرفاق صفه في المدرسة الرياضية الروسية وبعدها لرفاقه في الجامعة. في الليالي والملتقيات الأدبية في بيت عائلة فورونوف أو بيت عائلة باسترناك، بدأ ليف يجرب إلقاء قصائده الشعرية وقصص «حكاياته المشرقية» - المكتوبة بمهارة، حكايات بتوريات ماهرة وسعت من أفاق الحكايات الشعبية.

وسرعان ما خرج ليف من إطار ودوائر لقاءات غرف المعيشة وانطلق إلى مختلف «الدوائر الثقافية» العامة ومقاهي اللاجئين. وقرأ في ذات «النادي الأدبي» مثلما فعل الكاتب الشاب فلاديمير نابوكوف - وهو مكان أطلق عليه المهاجرون لقب «في العلية». ومن المحتمل أنه حصل على فرصة لتقديمه إلى نابوكوف عن طريق هيلين رفيقة دراسته في المدرسة العليا شقيقة نابوكوف[1].

(لاحظت تقارير الصحافة في ذلك الوقت أن ليف استقبل بحماس وترحاب وقبول من الحضور في منتدى «في العلية»). وفي العام التالي، انضم لنادي الشعراء والكتاب، وهو منتدى ثقافي للكتاب الشباب اللاجئين وانضم إليه نابوكوف أيضا.

ولكن ليف كان يضع عينه على قطاع أكبر وأوسع من الحضور، وكانت مقاهي المنتديات الثقافية والقراءات العامة آخر ما كان يطمح إليه في الكتابة باللغة الروسية. لقد أراد أن يصبح كاتبا ألمانيا. وبحلول شهر ديسمبر من عام ١٩٣١، حين عقد نادي «الشعراء والكتاب» سهرته العامة الثانية، كان اسم «أسعد بيك» من بين الكتاب المرشحين الذين حققوا بعض الشهرة - غير أن ليف لم يحضر.

وبخصوص تلك المسألة تحديدا، كان الشعر وقصص الخيال من صنوف الأدب التي تحتل المقاعد الخلفية بين ألوان الأدب في ذلك الوقت في ألمانيا. وسوف يهجر ليف كتابة قصص الخيال لأعوام

(١) كان نابوكوف قد أنهى بالكاد دراسته الجامعية في انجلترا وانضم لعائلته الحائرة في برلين، وتخفى هو الآخر أيضا وراء اسم ملغز يبدو كإسم شرقي هو اسم «سيرين». لم يكن قد أصبح بعد من نجوم الأدب المشهورين من اللاجئين الروس. ومن بعده ظل ذلك اللقب خاص بإيفان بونين، الذي سيفوز بعد فترة وجيزة بجائزة نوبل.

عديدة تالية، ولكنه بعد أن عاد أخيرا للياقته في كتابة قصص الخيال - مازجا بين حيويته الصحافية والأسلوب الساخر برقة ولطف الحكايات الشرقية - فسوف يكتب روايته الوحيدة الفريدة الخالدة.

وحتى قبل وصول اللاجئين الروس، كانت ألمانيا الرائدة عالميا في نشر الكتب. كان لدى ألمانيا أفضل وسائل صف الحروف في العالم، وأفضل ماكينات طباعة، وأفضل موزعين عالميين، على الرغم من أن السلاح السري الحقيقي في تسيد مجال تجارة الكتب كان وجود جمهور ألماني شره ونهم للقراءة. لم تكن الألمانية من اللغات الاستعمارية - ومن ثم، لم تكن لغة دولية - لذلك كان على السوق المحلي الداخلي أن يمتصّ ويستوعب أغلب إنتاج الكتب. في عام ١٩١٣، وهو آخر عام قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان خمسة وثلاثون ألف كتاب قد نشر في ألمانيا في ذلك العام. وبطريقة تستعصي على التصديق على وجه التقريب، بحلول عام ١٩٢٠، وفي خضم فوضى التعافي من الهزيمة والثورة، والمرض، كانت تجارة الكتب الألمانية قد عادت على وجه التقريب إلى المستوى الذي كانت عليه قبل الحرب، وقدمت دور النشر الألمانية ثلاثين ألف عنوان كتاب جديد ذلك العام. ثم انفجر نوع من التنوع: شمل طباعة الكتب باللغة الروسية، وظهر ٨٩٥ ناشراً ألمانياً جديداً فتحوا أبوابهم في البدايات المبكرة لجمهورية فايمار. ومثل كل الأشياء الأخرى التي جعلت برلين مدينة جامحة بعد الحرب، كانت الظاهرة الجديدة أيضا متعلقة بالتكلفة: فقد كان الورق والطباعة والأحبار كلها رخيصة الثمن، كما كان المحررون الموهبون والكتاب وصافوا حروف الطباعة كثيرون - ولم يكن يقلق أي منهم أي خوف من سوء حظ، فلم يكن الألمان يتوقفون أبدا عن القراءة.

ولكن بحلول خريف عام ١٩٢٣، أدى التضخم الشديد إلى تقوض كثير من الأنشطة من جميع الأنواع، بما فيها المطابع الروسية، والمقاهي، وشركات المسارح. لم يدمر التضخم الطبقة الوسطى الألمانية فقط، بل أدى أيضا إلى القضاء على أغلب مدخرات اللاجئين الروس، خاصة مدخرات كل أولئك الذين أفرطوا في شراء ممتلكات في برلين. ومن ذلك الوقت، سوف تصبح باريس هي المركز الجديد لنشر الكتب العلمية والبحثية والدراسية. وبوجه عام انتقل أغلب المهاجرين الروس إلى باريس بعد عام ١٩٢٣، وكان تسيد اليهود الروس لمن تبقى منهم في برلين قد حول برلين في وقت ما إلى مركز للثقافة اليهودية. ونقل معهد «ييفو» (YIVO) للدراسات اليهودية مقره الرئيس من جنيف إلى برلين؛ ففي الواجهة والجبهة السياسية، ضاعف النشاط الصهيوني الاشتراكي عملياته وأنشطته في برلين، كما فعلت أيضا الجمعية اليهودية الروسية القديمة[1].

بلغ ليف سن النضج في ذلك المناخ الجديد للمهاجرين، حيث كان التماهي مع الثقافة الألمانية قد أصبح شائعا بين اللاجئين الروس. ولمرة واحدة كان التوقيت جيدا وملائما له. في الفترة ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٤، حين كانت برلين في حضيض الانهيار الاقتصادي، كان ليف بالمدرسة، وفي الفترة من ١٩٢٥ و ١٩٢٦، حين أصبح جاهزا لوضع كل معارفه التي حصلها بدأب وكد في مهنة - عارضا خدماته كخبير في كل ما يختص بالشرق من معرفة - كان النشر الألماني يتعافى من جديد وعلى وشك ولوج فترته الذهبية في عقد العشرينيات. ومن ١٩٢٦ حتى ١٩٣٠، كانت برلين هي مركز النشاط

---

(١) حركة اجتماعية أسست في روسيا من قبل اليهود الأوربيين عام ١٨٩٧ (المترجم).

الأدبي في أوروبا، مع ظهور عشرات من الصحف الجادة وواحدة من أفضل المجلات الأدبية في تلك المرحلة، مجلة «عالم الأدب »، وهي مجلة أدبية أسبوعية رائعة كانت بمثابة المقابل الألماني لمجلة «نيويورك النقدية» (نيويورك ريفيو) الشهيرة بالولايات المتحدة، حيث كان بإمكان القارئ أن يجد كل أسبوع مقالا لألفريد دوبلن في نقد جماليات الأدب الحضري، وبرتولد بريشت في نقد نفايات أدب المسرح البرجوازي، وفالتر بنيامين في تحليلاته ونقده لآخر الأفلام السينمائية الأجنبية («فكما تم اكتشاف الديناميت في عشر من الثانية، تفجر الأفلام أيضا ذلك العالم القديم المقيد والحبيس. . . خالقة من شقة بورجوازية صغيرة جمالا يوازي ذات الجمال الذي يوازي إعجاب المرء بسيارة ألفا روميو فارهة»).

في سن الحادية والعشرين، صادف ليف حظ الكاتب الشاب المبتدئ، وربما كان ذلك عن طريق عائلة باسترناك أيضا، فقد قدموه إلى محرر مجلة «عالم الأدب» القوي فيلي هاز. وفي لمح البصر أصبح أحد المفضلين لدى هاز، وعضواً في الدائرة اللصيقة بشخصية هاز الجذابة والذي وضع بدوره ليف في الصدارة حين كان أغلب كاتبي الأعمدة في عمر يضاعف عمر ليف أو أكبر من ذلك. أطلق عليه هاز «خبير شؤون الشرق» في الصحافة، وكان ذلك نوعاً من الخبرات الفريدة في ذلك الوقت ومركزا مرموقا لشاب في الحادية والعشرين من عمره. ومهما كان سبب تبني هاز الأولي لليف - وانتقائه لذلك الإعصار غير المنتظر من الموهبة والطاقة، كان في الحقيقة هو ما يهم، ليف، أو بالأحرى «أسعد بيك»، وأصبح ليف واحدا من أغزر وأخصب ثلاثة كتاب في الصحافة الألمانية.

كان أول مقال لليف، وكان ملائما جدا، بعنوان «من الشرق» في

عام ١٩٢٦ وكان عرضا عن الصحافة في ماليزيا وأذربيجان. وتراوحت إنجازاته بين عرض وتسليط الضوء على أشعار جنكيز خان (وكان يرى صورة إيجابية لجنكيز خان من خلال نقده لشعره)، إلى «الفيلم ونفوذ الجنس الأبيض»، وهو ما قد يبدو تافها ولكنه في حقيقة الأمر كان يمثل بعد نظر وبصيرة فريدة في إظهار كيف أن الصور اللاأخلاقية الأوربية والأمريكية كانت تحط من منزلة الغرب في نظر الشرقيين، وعلى الأخص في نظر المسلمين. وصف ليف بعض الجوانب والصور الإيجابية للحضارة الغربية كبديل، لو كان «الجنس الأبيض» لا يريد أن يخسر للأبد احترام العقول التي يتزايد استقلال فكرها في آسيا. وكتب عن عجائب مثل «مجلس المخصيين» واصفا في ذلك المقال كيف أن القصر السابق ومخصيي جناح الحريم للسلطان العثماني قد عقدوا مؤخرا مؤتمرا لمنظمة تجارية في القسطنطينية. كما كتب مقالا نقديا يمتدح فيه أول سيرة ألمانية تنشر عن أتاتورك، مستنتجا من ذلك أن مصطفى كمال أتاتورك «أقل تركية عن كل الأتراك، بعد أن أعان ودعم انتصار الغرب بوسائل شرقية، وخداع ومكر، واستبداد».

في تلك الكتابات والمقالات المبكرة، ركز ليف بوجه خاص على قادة الشرق الذين عرفوا كيف يستغلون الغرب لمصلحتهم الشخصية، مثل أتاتورك، ومن بعده رضا شاه بهلوي، الذي أصبح موضعا لجاذبية استثنائية واهتمام خاص. في عقد الثلاثينيات سيصبح ليف مهموما ومهووسا بشخصية بيتر الأعظم، العاهل الروسي الذي وحد الشرق والغرب أكثر مما فعل غيره، موحدا الشرق والغرب في مملكته الروسية لامتصاص التنوير الأوربي. أحب ليف بيتر كما كرهه أيضا، ولكن المحصلة النهائية أنه كان مأخوذا بشخصيته الفريدة ولم يتمكن

من إنهاء كتابه عنه. بالنسبة لأي كاتب آخر ربما كان ذلك يعني له إهدارا للسنين؛ أما بالنسبة لليف فكانت تعني ضم دراسته عن بيتر لقصة حياة القيصر نيقولا ورضا شاه. (كان ليف يؤمن أن ديكتاتور بلاد فارس كان أقرب لطريقة حكم بيتر الأعظم أكثر من قربه من طريقة حكم آخر قياصرة روسيا، نيقولا)، ولكن بشكل فكاهي، غطى ليف أيضا عظمة الشرق. ففي مقال له بعنوان «بخارى في فندق عدلون: الأمير الأخير، قصص خرافية من ألف ليلة وليلة في القرن العشرين»، ووصف فيه بتفاصيل مسلية ومضحكة كيف أنهزمت البلاطات الملكية في وسط آسيا من البلاشفة، وكيف يحيون الآن حياة رغيدة في منفاهم في قلب بوتسدام بلازا، يتنعمون ويتسلون ويترفهون ويحضرون الحفلات الرسمية.

وأتاحت له سلسلة المقالات التي كتبها لمجلة «عالم الأدب» والصحف الألمانية الأخرى عن زيارة العاهل الأفغاني النشط الملك أمان الله للعاصمة الألمانية في عام ١٩٢٨ فرصة أن يدس أنفه في دراما: «الشرق يلتقي بالغرب» بتقديم تحاليل سياسية دقيقة. وعلى الرغم من أن المقالات رسمت صورة كئيبة ومحبطة عن المناخ الجغرافي والاجتماعي لأفغانستان (وهي «مسكونة بعشائر غريبة عن بعضها تسود بينها العداوات، وتكره كل ما هو أجنبي [و] يحرسون ويحمون حدودهم وهم على ظهور خيول قصيرة قبيحة المنظر، ويحملقون بطمع في القوافل المسلحة التي تعبر مناطقهم قادمة من أماكن بعيدة، ويرونهم أهرامات الجماجم البشرية التي يعلمون بها حدودهم»)، نقل ليف أيضا الآمال المشرقة التي اعتورت أفغانستان في عقد العشرينيات، حيث كانت أفغانستان «تقارن بالدول الإسلامية الأخرى التي تحظى بحاضر بائس وتحيا على ماض تليد، إلا أن

أفغانستان دولة بلا ماض ولا تاريخ عريق ولكنها تأمل في مستقبل عظيم». وختم ليف الصورة التي قدمها بأبيات من قصيدة كتبت إعجابا بملك التحديث الأفغاني: («أميركا صديقة لنا، وألمانيا أيضا أصبحت صديقة مخلصة لأفغانستان. . . . أواه يا وطن، نحن الفراش المحوم حول ضوئك/ سنفنى في سبيلك، أواه يا أفغانستان»).

هذا المزج في الكتابة الصحافية، والتدفق الحر في التعليق السياسي، والنصوص الموزونة القوافي من وسط آسيا، هو ماكانت تنتعش به مجلة «عالم الأدب». كان أسعد بيك يمثل للمجلة «كاتبها المشرقي»، وقد كان له بالفعل مدى غير محدود من حرية الإبحار في ربوع تلك الأصقاع وشؤونها.

من بين الكتاب المبدعين بالمجلة في عصر جمهورية فايمار الألمانية المترع بالأحداث والتحولات، كان هناك إيفون إرفين كيش، وفاليريو ماركو، وفالتر ميرنغ، الساخر عميق السخرية والكاتب الدادائي والمفكر الأدبي الذي أصبح صديقا حميما لليف. كان التجريب الراديكالي لأدب وفكر النوادي الليلية قد وصل إلى قمته في برلين في بداية العشرينيات، حين كان الرصاص الثوري ما زال يئز في سماء برلين. وبعد ذلك تراجع أدب الكباريهات ليقتصر على المقاهي، تلك الأماكن، التي سجلها ميرنغ في مذكراته الرائعة الجديرة بالاهتمام التي نشرت عام ١٩٥١ تحت عنوان: «المكتبة الأخيرة: السيرة الذاتية للثقافة»، وقال فيها: «مزيد من الكتب، وفي الغالب أعظمها، يخطط لكتابتها وهي أكثر مما تحتويه كل المكتبات في العالم مجموعة معا - ومزيد من المهام والمقاصد أكثر مما تحقق من قبل في تاريخ العالم بأجمعه».

كان كتاب «عالم الأدب» يلتئمون معا في مقهى «ميغالومانيا» ليس

بعد العمل فقط، بل أيضا قبله وخلاله، ومعروفون بأسمائهم المستعارة المتداولة في «مقهى الغرب» في كورفورستندام، حيث كان يعمل بها الساقي ريتشارد بشعره الأحمر وظهره الأحدب والذي كان يخدم «كل أولئك الرواد التياهين المغرورين المعجبين بأنفسهم، تلك القامات المتغطرسة التي يصعب التعامل معها التي تتيه بمواهبها وملكاتها كما يتيه ضباط الجيش بأوسمتهم ونياشينهم». ويصور وصف ميرنغ المناخ المتأنق والمثير الذي كان يرحب بكل السلوكيات المتفردة والغريبة في مقهى ميغالومانيا.

أحد أهم الشخصيات المدهشة في ذلك المناخ الثقافي النوعي - والأقرب لليف في اهتماماته - كانت إيلزه لاسكر شولر وهي شاعرة يهودية كان المعروف عنها أنها تتجول في أحياء برلين وهي تنتحل اسم «أمير طيبة» (حيث تتدعي في سيرتها الذاتية أنها ولدت في حياة سابقة في مدينة طيبة). كانت ردود الأفعال إزاء لاسكر شولر تتسم في الأغلب بالتوتر والحدة: كان الكباريهي إريش موزام يعتقد أن شعرها «ملتهب بنيران الخيال الشرقي». غير أن الكونت كيسلر ذكر في يومياته: «ظللت أحاول تجنب هذه المرأة لأعوام». كما رأى كافكا أن قصائدها ليست إلا «نوبات من عدم التمييز لعقل امرأة مدنية شديدة التوق». وامتدحها كارل كراوس واصفا إياها بأنها مزيج من «الملاك والمرأة السليطة المتنمرة». وبكل يقين لم يكن هناك من لا يعرفها.

ادعت لاسكر شولر أنها تستطيع التحدث باللغات الآسيوية القريبة من اللغة الأصلية للغة يهود التوراة الذين أطلقت عليهم «اليهود البدائيين الضالين» أو «اليهود البريين». كانت قد اعتقلت في كنيسة في براغ لإلقائها موعظة دينية بلغة «آسيوية» على حشد مذهول من المصلين، كان مفهومها لليهود البريين - متحررا من التأثيرات المنهكة

لألفي عام من الشتات اليهودي - قد أصبح شهيرا ومعروفا. كان أفضل ساردي الحكايات بالنسبة لها على الدوام هم العرب، بينما كان صوت الضمير الغائب يقصُّ في الغالب قصصا عن اليهود.(١)

ويتذكر الرسام التشكيلي أوسكار كوكوشكا وكان صديقا للاسكر-شولر، وهو يسير عبر شوارع مدينة بون بصحبة إيلزه وهي ترتدي زي يهود الشتات: «كانت ترتدي سروالاً نسائياً وعباءة، بشعرها الطويل الفاحم السواد ولفافة تبغ في مبسم نسائي طويل. كنا نضحك ونسخر بالطبع من زحام المارة الذين تجمعوا واحتشدوا، متحمسين بحماس الأطفال، ونالت علقة ساخنة على أيدي الطلاب المتحمسين». كانت لاسكر-شولر تهب أسماء سخيفة مستعارة لأصدقائها مثل الخليفة الأعظم والدلاي لاما. أما الفيلسوف مارتن بوبر فقد أسمته «سيد صهيون» وأسمت الشاعر جوتفريد بن باسم «نبلونغه»، أو ببساطة: البربري. وكانت تشير إلى أصدقائها إجمالا باسم: «الهنود الحمر». واعتادت التسكع في مقهى ميغالومانيا، بصحبة المليونير وشاعر

---

(١) حين هاجرت لاسكر-شولر بعد ذلك إلى فلسطين، وجدت أنها لم تستمتع بالفعل بالإقامة في الأرض المقدسة. وكتبت: «من الصعب جدا أن أحيا بين الناس الذين استقروا هنا، حتى الملك داوود كان سيفر منها». وكان أحد آخر مشروعاتها محاولتها إقناع اليهود والعرب في فلسطين بناء حديقة ترفيهية معا، حتى يتعلموا أن ينعموا بالحياة معا. وفي المؤتمر اليهودي الحادي والعشرين، وقفت وأعلنت للمندوبين المخلصين: «هل تعرفون كيف نحل المشكلة اليهودية - العربية؟ هناك فقط طريقة واحدة: وهي خلق المتعة والبهجة. سوف ننشئ حديقة ترفيهية لليهود والعرب، والتي سوف يأتي إليها القومان ويأكلون ذات الطعام، ويركبون ذات الأحصنة الخشبية الدوارة ويلعبون نفس لعبة عجلة الحظ (الروليت)... ولكن لابد أن توضع على باب تلك الحديقة لافتة يكتب عليها: لله».

المستقبل ف.ت. مارينيتي الذي كان الجميع ينادونه باسم «توم» والذي نال إعجابها لأنه كان قد ولد في مدينة الأسكندرية.

في تلك القاعات المليئة بدخان الأفكار الجامحة والمواقف الأكثر جموحا، ظهر شاب أديب أذربيجاني يرتدى عباءة، ويتمنطق بخنجر يدعى أسعد بيك، وعرفه الجميع بطريقة ما باسم ليو نوسيمباوم، تلاءم تماما مع تلك الأجواء. كان عالم مرتادي بيوت المقاهي هو بالفعل المكان المثالي لليف ليقوم فيه بممارسة سلوكياته وتصرفاته الشرقية. ولكن لم تكن تصرفاته وأعماله لصالح أو فائدة أحد آخر غيره، بل لصالحه الشخصي. وكان ذلك تحديدا هو الغرض من حياة بيوت المقاهي - فقد كان الحد الأقصى لدوافع الحضور لا يعدو الإحساس الهش بالذات - كما اتسم بعدم اكتراث أي منهم بمال أو شهادات أكاديمية.

كان ميرنغ قد حاز شهرة واسعة، ويكبر ليف بعشرة أعوام، ومن المحتمل أنه هو من أعان ليف على الدخول لعالم أدباء وكتاب المقاهي. غير أن ليف أعطى دعما في الغالب لصديقه المحبط، وكان ميرنغ أيضا زعيم ممارسي أغاني الكباريهات والأحاديث العفوية إلى الأغاني الهزلية التي يقلد فيها جويل غراي في مسرحية وفيلم «كباريه» الشهير اللذين عرضا في برودواي. (على الرغم من أن ما يصوره الفيلم في سياق زمني مغاير، ففي أواخر عشرينيات القرن الماضي، أثناء صعود النازية، كانت مثل تلك الكباريهات السياسية الناقدة والساخرة بجرأة وخشونة قد ماتت وانتهت عمليا). وربما كان المسرح السياسي أكثر قوة في عصر برلين القيصرية، كما لم يكن مماثلا لما يبدو عليه الآن؛ كانت الرقابة الإمبراطورية تجعل النكات أكثر إضحاكا وسخرية. كان ميرنغ يهيمن أثناء ازدهار الكباريه السياسي

على أكثر المناسبات الساخرة، من وقت الثورة في عام ١٩١٩ حتى نهاية «عام التضخم» في عام ١٩٢٣. وبعد ذلك، أصبحت لمسرحيات الكباريه السياسي في برلين نسخها الخاصة من الفودفيل (المسرحيات الهزلية الخفيفة) الذي ينزلق إلى برامج البرليسك (المنوعات الساخرة)، وعروض موسيقية هزلية في أقل الأحوال - ببنات يرتدين ملابس جنود، وأطباء، ومحكومين، وإسكيمو - وحلت محل الأعمال الفنية الترفيهية المثيرة للأفكار التي كانت تقدم في الأعوام السابقة. وجاءت المنافسة الرئيسية لعروض البنات الراقصات لا من الكباريه السياسي، بل من ترفيه أدنى كثيرا: وهي عروض البنات العاريات. بحلول عام ١٩٢٧، كانت برلين ليف تتألق بلافتات أضواء النيون الصارخة والساطعة التي تعلن عن عروض مثل: «العالم بلا نقاب» و«الكل عارٍ» و«الرعد: ١٠٠٠ امرأة عارية»، وقضى رفاق ليف، فالتر بنيامين وسيغفريد كراكاور ساعات سعيدة يحللون - نقديا بالطبع - مختلف أوجه إعادة الإنتاج الآلي الثابت في مثل تلك العروض البشرية.

بحلول منتصف العشرينيات، كانت عروض الكباريه الحقيقية في برلين قد انتقلت إلى نطاق ما فوق السياسي، أي تجاوزتها إلى التحريض، بعروض وضعتها جماعات الدعاية الشيوعية من جانب وجماعات الترفيه الموالية للنازية من جانب آخر. كان مقدمو الكباريه السياسي الأصليون مثل ميرنغ قد نالوا كفايتهم[١]. وربما كان ليف هو

(١) في يوم القيصر، كانت أكثر النكات نكاتا يهودية، وكان يلقيها عادة غير اليهود من الفكاهيين، وعلى حساب تمثيل اليهودي الألماني - الرجل الذي تم تعميده بضع مرات. كانت مشكلة معاداة السامية قد تفاقمت وأصبحت مشكلة خطيرة، ولم تعد النكات اليهودية تبعث على الضحك ولم تعد =

من اقترح على ميرنغ أن يغادر برلين ويقوم بجولة في أرجاء الجزائر. على أي حال أعجبته الفكرة، وأثبتت الرحلة أنها قد جددت حيويته ككاتب وأثمرت عن أول عمل نثري لميرنغ وكان بعنوان: «الجزائر، أو المعجزات الثلاث عشرة للواحات». ويتذكر ميرنغ تلك التفاصيل قائلا: «صحبني سفر الخروج إلى مدينة الأهرامات الصحراوية، مدينة غرداية، في صحراوات جنوب الجزائر، حيث مازال العبيدات يعيشون عصر الإسلام الأول، ويعيش بين ظهرانيهم آخر الإسرائيليين الأوائل الذين يطلقون على أنفسهم اسم إشوروني - المستقيمين». (ومن الجدير بالذكر أنه أينما توجه مستشرق مقاهي برلين، يجد يهودا غريبي الأطوار، خاصة لو كانوا يحيون متخفين تحت اسماء مستعارة مثل ليف أو فالتر ميرنغ).

نقد ليف بحماس عمل صديقه ميرنغ الذي كتبه لـ«عالم الأدب»، مدركا أنه بينما كان الأوربيون مخدوعين بالكتب الإرشادية التي تنزع روح الشرق عنه، في ذلك الكتاب المتعالم الذي لم يحاول أن ينفذ لما هو أبعد من بودابست شرقا قبل ذلك العام، كان يمكن إيجاد «الشرق الحقيقي». كان المفتاح يكمن فيما شاهده وما سمعه فالتر ميرنغ من قصائد شعرية في كل مكان، و«لم يعد هناك شرق، أو أن هناك القليل جدا مما تبقى منه، أو أنه اختبأ واختفى ولم يعد مرئيا إلا

= فكاهية، وانحسرت مثلما انحسر الكباريه السياسي، فقد أصبحت جميعها «مزعجة جدا» للعامة. وسوف يتسبب صعود هتلر للسلطة عام ١٩٣٣ في خروج نجوم الكباريه السياسي اليهود من ألمانيا، على الرغم من أن بعض الذين توجهوا منهم إلى النمسا، وتشيكوسلوفاكيا، وفرنسا، وهولندا سوف يعودون إلى المسرح الألماني ضد رغبتهم في معسكرات الاعتقال في فيستربورك وترزنشتات، وغيرها، وقاموا بأداء أدوارهم الأخيرة على المسارح الفارهة لقوات شرطة حزب النازي السرية.

لعيني شاعر . . أولئك الذين لم يعيشوا أبدا في الشرق، أولئك الذين يحلمون فقط بأرض الهلال، ليس عليهم أن يقرأوا مقالات ولا تقارير أكاديميات العلوم الملكية أو غير الملكية الكثيرة - عليهم أن يقرأوا: «المعجزات الثلاث عشرة للواحات. . بقلم فالتر ميرنغ».

قبل أن يترك ليف مجلة «عالم الأدب» وهو في سن الثامنة والعشرين، كان قد نشر له ١٤٤ مقالا في الصحيفة - وهو أكثر مما نشر لفالتر بنيامين، وكان من الكتاب المفضلين لدى فيلي هاز - كان قد نشر له أيضا ستة كتب حققت أفضل الكتب مبيعا أيضا. وسوف يكتب صديقه وشريكه المستقبلي جورج سيلفستر فيريك أن أسعد بيك كان بإمكانه أن يدخل غرفة أو قاعة ويخرج بعد بضع ساعات بمقالات شبه نهائية لا تحتاج لمراجعة. وحتى لو كان مبالغا كما قد يبدو من ذلك الوصف، فإن ليف قد كتب كثيرا جدا وبغزارة جعلته يبدو شخصا غير حقيقي. . وبحلول عام ١٩٣٤ كان مدير أعماله فيرنر شندل يطلب منه أغرب طلب يمكن أن يطلبه مدير أعمال كاتب من كاتبه، خاصة من كاتب تحقق كتبه أفضل المبيعات وسبع عشرة طبعة دولية مترجمة لكتبه. ترجى شندل من كاتبه «ألا ينشر مزيدا من الكتب بتلك الغزارة. . . فيجب ألا ينظر القارئ للكاتب على أنه غزير الإنتاج. . . خذ راحة لمدة عام بين نشر كتاب وما يليه من كتاب آخر».

وتحت اسم أسعد بيك، أصبح ليف خبير «الشرق» بمعنييه المتناقضين والمتضادين اللذين تضمهما وتعنيهما كلمة «الشرق»: الشرق «الآسيوي» المبهم، عالم الإسلام والديانات غير الأوربية الأخرى، وأيضا روسيا الشرق التي أصبحت في ذلك الوقت الاتحاد السوفياتي. كلاهما كانا أماكن تتسم بالغموض والخطر وأيضا بالسحر والفتنة والإثارة - يعيش بها متعصبون وحكام يحكمون بالقوة، سواء

كانوا قياصرة أو مندوبين سوفياتاً أو سلاطين أو شاهات. كانت الفرصة متاحة أيضا للكتابة ضد فرنسا حين يغطي أحدهم أخبار الشرق الأوسط، وكانت ذلك يلقى رواجا وإقبالا في ألمانيا.

ومن المفترض أن هاز وميرنغ وباقي أصدقاء ليف كانوا يعرفون كل خلفيات حياته - بالتأكيد عرفوا عنه كل شيء في عقد الثلاثينيات - ولكن لم يتحدث أحد عن ذلك علنا. وحين صدرت له أول سيرة في كتابه «الدم والنفط في الشرق»، بدأ نقد الكتاب في «عالم الأدب» دون توقيع عن صاحب الكتاب، وقال المقال النقدي: «نحن نعرف أسعد بيك من «عالم الأدب» ولكننا في واقع الأمر لا نعرفه معرفة حقيقية حتى اليوم. حتى الآن، نفكر في اسمه كإسم منتحل، ونقف متعجبين أمام تلك الصور من سيرته الذاتية كشخصية آسيوية ولدت في باكو بأذربيجان، كإبن لأب ارستقراطي مسلم وأم مثقفة روسية ثورية». وسواء كان ذلك بقلم هاز كتبه بتواضع أو كان المحررون مشوشين فعلا حول تاريخ وخلفية زميلهم اللاجئ الروسي بأزيائه القوقازية العجيبة فمن الصعب تحديد ذلك. على مدى أغلب حياته، حتى ألقى به الحظ إلى مكان لا يمكنه فيه التفكه والتندر بأشياء من هذا القبيل، سوف يحافظ ليف على نوع من الحوار المرح مع أصدقائه من الكتاب حول «تحوله» من ليف إلى أسعد. لم يكن يسخر من تحوله كما لم يسمح أيضا للآخرين بالسخرية من ذلك. ولكنه بين أولئك الذين يدرك أن سعة أفقهم تتيح لهم أن يفهموا، وكانوا في الأغلب من رفاقه اليهود، كان يميل للاعتقاد أن بإمكانه أن يظهر تحوله. أما مع أي الأشخاص الآخرين، فقد كان يحترز، دون أن ينكر ودون أن يقبل افتراض أنه كان يغطي على شيء ما أو أنه يخفي أمرا ما. وبدلا من الميل لرفض أي شيء، كان يستجيب بالغوص أعمق وأعمق في

شخصيته ويتحول أكثر وأكثر إلى شخصية المستشرق - وأكثر وأكثر يتحول إلى أسعد بيك.

في كتبه ومقالاته، كما في رؤيته لذاته في سيرته الذاتية، كان كل ما يهم ليف ويبالي به هو الحقيقة - الفكرية والمعنوية - والتي كان يميزها عن الحقائق المجردة[1].

في مقال تذكاري كتبه لـ «عالم الأدب» بعنوان «أسطورة لينين الشرقي»، وضع لينين في سياق ثلاثة آلاف عام من الآلهة الزائفة وصناعة الأسطورة. بالنسبة له كان القائد الأخير للثورة الروسية «عفريتاً أو جنياً، شبحاً خالداً... وفي روسيا ذاتها أيضا، أصبح لينين قديسا شعبيا على الرغم من الديانات العالمية الثلاث. في كثير من القرى الروسية، يمكنك أن ترى صور لينين معلقة إلى جوار القديسين الدينيين المعروفين».

وكان ليف هو الكاتب الوحيد الذي يعرف البعد القوقازي لشخصية ستالين، القاسي بلا رحمة مثل شخصيات المافيا المولود في أصقاع جورجيا، وفي كتابه الذي حمل عنوان: «ستالين: مهنة

---

(١) وكما كتب في مخطوطاته الكتابية وهو على فراش الموت: «من الواضح أنه من الصعب، خاصة صعبا على رجل أدب أن يصور صورا فوتوغرافية بدلا من تكوين صورة ذهنية. إغراءات الأدب هائلة وكثيرة. في الذاكرة، تنتقل المشاهد. وبطريقة لا إرادية، يبدأ الكاتب في تفضيل صدق المناخ على صدق حقائق الأشياء البسيطة ...ولكن اليوم، وفي مواجهة الموت، أريد أن أحاول مرة أخرى أن أسرد الحقيقة، على الأقل في هذه السطور [النص يوضح: هذا معني فقط لي]. حتى ولو لم تكن الحقيقة كاملة. بالنسبة لحياتي البائسة، والتي يتصاعد ويتراكم فيها العذاب ويبلغ ذرى سامقة من المعاناة، عذاب يضربني كما يضربنا بالضبط هذا العصر في أيامنا هذه وزمننا هذا بالفوضى والكوارث».

متعصب (١٩٣١)»؛ أخطأ كاتب سير مبكر آخر برؤيته لستالين على أنه روسي أصيل، على الرغم من أنه لم يتمكن من إجادة اللغة الروسية قبل بلوغه سن الرشد. لو كانت الصورة التي رسمها ليف لستالين توحي «بنمط حياة عصابات شيكاغو - ولا تختلف عنها كثيرا في السياق العام» كما لاحظ معلق أميركي، بدا أن ليف قد توصل لحقائق لم يتوصل إليها إلا أقلية من الصحافيين الآخرين (وسوف يعلق فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة بعد مقابلته لستالين قائلا إنه توقع أن يكون رئيس الحكومة السوفياتية رجلاً نبيلاً ومهذباً، لا رجل عصابات قوقازياً). وحين اشتكى النقاد من أن كتابات أسعد بيك مبالغ فيها وعصية على التصديق وغير معقولة، كان يتبين لهم في أحيان كثيرة أنهم هم المخطئون. وفي مقال نقدي عن ستالين في الملحق الأدبي لجريدة التايم، في عام ١٩٣٢، علق الكاتب بأن أسعد كصحافي يبدو الكتاب «رائعا»، ولكن أسعد فشل «في إقناعنا (ويبدو أنه كان يتعمد ذلك) بأن ستالين قادر على الاستمرار في الهيمنة على مقاليد السلطة التي يحوزها الآن. . . حكام الشرق كانوا يتجاوزون ويتخطون أنفسهم قبل ذلك؛ وبالمقارنة، على ضوء أن روسيا قد تحولت إلى التصنيع، فسوف يكون من الصعب السيطرة عليها بمجرد اللجوء للقوة المباشرة وحدها». مصداقية الناقد كانت متطابقة تماما مع كل من ستالين وهتلر في أعوامهما المبكرة في السلطة، على الرغم من أن الأوهام حول وعن ستالين أستمرت لآماد أطول كثيرا، أطول حتى من فترة حكمه المرعبة. كانت كتب ليف ومقالاته من بين أوائل الكتب والمقالات التي تظهر طبيعته التي لا سبيل إلى السيطرة عليها ولا كبحها، وتثبت الحتمية الإجرامية للنظام الذي ساعد ستالين على بنائه.

وربما كانت بعض الأخطاء التي وقع فيها ليف ناتجة عن سرعته

الشديدة في إنهاء الكتاب. في مدى أربعة أعوام، بين ١٩٢٩ و١٩٣٣، سوف ينشر أغلب أعماله الكبرى: فبعد ذكرياته في «الدم والنفط»، أصدر «الأسرار الإثني عشر للقوقاز»، و «محمد»، و«ستالين»، و «OGPU: المؤامرة ضد العالم» (الشرطة السرية القيصرية الروسية) - وهو عن تاريخ الشرطة السرية القيصرية الروسية حتى الثورة البلشفية. صدرت كل تلك الكتب فيما كان مازال مستمرا في كتابة مقالاته في «عالم الأدب» وفي «دويتش ألغماينه تسايتونغ» و«براغر تاغبلات» - كما كان ينشر مقالاته أيضا في مجلات أمريكية مثل «ساترداي ريفيو أوف ليتريتشر» (مجلة النقد الأدبي الأسبوعية)، و«آسيا»، و«ليفنج ايدج» (العصر الحالي). بعض كتبه مثل (الشرطة السرية الروسية القيصرية OGPU كانت مثقلة بكثير من المراجع؛ وكان بعض آخر بلا مراجع، مثل «ستالين»، الذي جمع ما بين البحث المنهجي ونكات وسخرية حادة، ويعترف أن بعضاً منها اعتمد على أقوال غير مدعومة بتوثيقات ولا أدلة. كل أعماله غير الروائية كانت طموحة وتواقة، ومتفحصة، وتمتلئ بالمفاهيم العظمى للتاريخ كما تتوقف أمام الصور التي لا تنسى لشخصياته التاريخية.

مع كتاباته الرسمية في مجلة «عالم الأدب»، رسخ ليف أقدامه كنجم الصحافة في جمهورية فايمار - بصفته «رجل القوقاز المحترف». وعلى الرغم من أنه حظى باهتمام أكبر عبر الأطلنطي، كان قراء الألمانية هم من يهمونه بالأساس. وكانت ردود الأفعال الألمانية جيدة جدا. كورت آرام وهو مؤلف معروف جدا للروايات التاريخية قال عن «الدم والنفط» إنه: «واحد من أكثر الكتب تشويقا ومعرفة في عصرنا هذا»، كما رحب مؤلف شهير آخر هو كارل هوفمان بتلك المذكرات التي وصفها بأنها من نوع «الرومانسية السياسية»، كما

وصف المؤلف بأنه «يمتلك الحميمية والاتقاد الأسيوي وهو يقدم في الوقت ذاته كتابة فنية شديدة التأثير على القارئ، وكانت في أجزاء منها صادمة وتبعث على القشعريرة». وحقق الكتاب مبيعات جيدة جدا في ألمانيا وسرعان ما أحرز نجاحا دوليا مرموقا.

وقوبل الكتاب بمقالات نقدية مرحبة من أغلب الصحف البريطانية والأوربية، وحقق مبيعات جيدة في فرنسا، وهولندا، وأسبانيا، وعلى وجه التخصيص في إيطاليا الفاشستية، كان للقبول والترحيب الواسع المدى لأعمال ليف أثره بكل تأكيد على حياته. ذكر المقال النقدي لـ «النفط والدم في الشرق» في إيطاليا الذي نشر في مجلة الأدب الإيطالية واسعة الانتشار في روما، مجلة «التعريف الأدبي الفاشستية»، أن الكاتب: «قادر فعلا ومتمكن وحكاء قصص محبوب» ويتمتع بـ«حس فكاهي عال». كما أحب النقاد الأميركيون ذلك العمل ووجدوا أيضا أن ليف من الشخصيات التي تتمتع بسحر خاص وانطلاق في الكتابة - وأن كتاباته تشبه فطيرة التفاح الأمريكية. تلك الجوانب من الكتاب، على أي حال، أثارت ردود فعل أكثر خشونة في ألمانيا.

فبمجرد أن ظهر كتاب «النفط والدم» على وجه التقريب، أخذ كثير من النقاد المنقادين سياسيا على عاتقهم لا مجرد تحذير القراء فقط من الكتاب، ولكن بشكل ما «نفي وإقصاء» المؤلف. اتهم ليف بأنه من مزدوجي العرق والأصل والانتماء، وبأن كتاباته أقرب للمراوغة والالتواء والانحراف.

كان بإمكان إيلزه لاسكر-شولر أن ترتدي ثياب شخصية علاء الدين البغدادية، ولكنها كانت بوضوح في نهاية الأمر شاعرة يهودية ألمانية. كثير من الصحافيين والباحثين اليهود كانوا يكتبون كتبا عن

الشرق الأوسط في ذلك الوقت، وكانت في الغالب تكتب دون معرفة عميقة ولا تتعاطف مع العالم الإسلامي، غير أنهم لم يكونوا يتجولون في أنحاء برلين وهم يرتدون العمامة، أو يتحدثون عن روابط أبوة وبنوة تربطهم بزعماء القبائل المشرقية المحاربة، ولا يطلقون على أنفسهم أسماء تركية مبهرجة.

المقال التالي، من صحيفة (الشرق الأدنى) اليمينية مثال على الخشونة التي قوبل بها كتاب ليف «النفط والدم»:

> يعد هذا الكتاب من أشد الكتب بؤسا التي صدرت في الأعوام الأخيرة. . . المؤلف الذي يقدم نفسه باسم «محمد أسعد بيك» ويدعي أنه ابن قطب نفطي تتري من مدينة باكو، تبين أنه معارض يهودي منشق يدعى ليو (ليوب) نوسيمباوم، ولد في كييف عام ١٩٠٥، وابن ليهودي يدعى أبراهام نوسيمباوم من مدينة تيفليس. وحين يقارن أي امرئ ما ورد بالكتاب، والذي طبقا لما ورد فيه كان المؤلف يهدد حياة الوزراء الروس وهو في سن العاشرة، وفيه أيضا يدعي الكاتب أنه من أقارب أمير بخارى وأنه خبير بالعادات الإسلامية، يتوصل المرء إلى فكرة واضحة عن كل الغرابة والمفارقات الغريبة. . . ومن المفترض أن المسلمين سيرفضون بشدة من يدعي انتماءه لهم، ذلك الذي يسمي نفسه «محمد أسعد بيك».

واستنتج الناقد أنه لا يوجد يهودي يمكن له أن يرسم صورة حقيقية عن الشرق، وأن مختلف الدول التي ذكرت بسوء أو أسيئ توظيفها في الكتاب مثل أذربيجان، وأرمينيا، وتركيا، . . . .إلخ، من المفترض أنها لن تسكت على الإهانات والافتراءات والقذف العلني من قبل ذلك «اليهودي المنشق».

وفيما كانت معادة السامية كامنة في أغلب مقاطع المقال

الهجومي، لم يكن كل منتقدي الكتاب يرون أنه يبعد كثيرا عن وجهة النظر «الشرقية». أحد النقاد، على عكس الباقين، اشتكى من أن الأخطاء بالكتاب جاءت من أنه كان «مغرقاً في آسيويته وشرقيته» أكثر من كونه ليس آسيويا بما يكفي كما ادعى البعض - وأن تلك «النوعية الآسيوية» تلقي بظلال من الشك على الحكايات. كان الجميع يدركون أن الشرقيات بوجه عام ملتوية وغير مباشرة كما شرح الناقد، ومن ثم، على الرغم من أن الآسيويين والأوربيين عاشوا معا في شخصية المؤلف، إلا أن «المكون الأول لدى الكاتب هو الأقوى، ولسوء الحظ لم يكن ذلك في صالح العمل».

بالإضافة إلى اليمينيين، قادت حملة «نبذ» المؤلف الكامن خلف اسم أسعد بيك مجموعة من الإسلاميين «الحقيقيين»- أي ليسوا يهودا - من الاتحاد السوفياتي. مختلف جمعيات المهاجرين العرب والفرس في برلين أضافت أصواتها للأصوات الألمانية الرافضة والمتبرئة من الكاتب. كما لم يسلم فيرنر شندل، مدير أعمال ليف، الذي كتب مقدمة تلك المذكرات، هو الآخر من اللوم. وعاتب الناقد شندلر قائلا إنه كان عليه أن يمنع نشر ذلك «العمل القذر»، وأنه هكذا أيضا، مدان ومذنب في تبنيه مثل ذلك الهجوم الذي شنه الكاتب على «الشرق». وقامت صحيفة فارسية تصدر للمهاجرين إلى ألمانيا بنشر مقال على صفحتها الأولى تنكر فيه تلك «الإهانة غير المسبوقة لألمانيا التي اقترفها منشق روسي». وتكاتفت التنظيمات الإسلامية معا وأصدرت «احتجاجا» منشورا على صفحة واحدة أرسلوا نسخا منه للصحف الألمانية الكبرى قالوا فيه:

> المجمل الكلي لتلك «الذكريات» موجه ضد الشرق بأشد الوسائل تحيزا ضده، وهو تهجم مليء بالإزدراء الممزوج بالكراهية وغيظ

أعمى من بلاد الشرق وشعوبه وثقافات تلك الشعوب، وعاداتها الوطنية، وأساليب معيشتها، ومفاهيمها الأخلاقية بل وحتى شعائرها الدينية.

نحن نعلن للجميع ونسجل موقفنا المعلن، أن المدعو «أسعد بيك» كما يسمي نفسه، لا يقتفي إلا أثر هدف وحيد هو تحقير الشرق وازدرائه في عيون الأوربيين. كتابه الإباحي المهيج بأقذر العبارات يدمغ الشرق ويصمه بأقذع الصفات وكل ما ورد به لا يعدو كونه مجرد أكاذيب من بدايته إلى نهايته وأسوأ تشويه للسمعة...

هو ليس شرقيا، وهو لا يدعى فعلا أسعد بيك. هو في الحقيقة يدعى ليو نوسيمباوم وولد في ٢٠ أكتوبر، ١٩٠٥، في مدينة كييف، بأوكرانيا، كما تبين من مصادر السلطة الألمانية الموثقة. وبهذا، قطع القول».

ومهر البيان بقائمة طويلة من التوقيعات شملت ممثلاً عن كل مجموعة لاجئين ومهاجرين من اثنتي عشرة دولة إسلامية في برلين.

وانضم نادي المعهد الإسلامي القديم الذي كان ليف عضوا به إلى الحملة المعادية له، واتهم مجلس إدارة النادي أسعد بيك بأنه أهان «مشاعر العالم الإسلامي بعمله الأدبي المخادع» وأعلن أنه لا علاقة له بهذا المخادع المراوغ الذي قدم نفسه كـ«مسلم أصيل، على عكس الحقيقة». مدير أعماله، محمد هوفمان، وهو أيضا متحول للإسلام، هاجم ليف لمحاولته تمرير مخاتلته بأنه «ولد مسلما»، بل إنه ألقى ظلالا من التشكيك حول صدق التزام ليف بتحوله للإسلام، مفترضا أن ذلك لم يكن إلا خدعة ومناورة، وأن معلوماته عن الأذريين والأتراك مشكوك في صحتها. كان كل ذلك جانبا من الجدل المتنامي والمتصاعد حول أن أسعد بيك كان «يهوديا من كييف» -

أحط المنحطين من اليهود - وليس حتى من «نبلاء الشرق»، القوقازيين، لا يعدو كونه يهوديا من أقلية شرقية.

ولم يقتصر الغضب والسخط على مسلمي ألمانيا. ففي الصحيفة الباريسية «بروميسي»، نشر مقال نقدي تحت عنوان «ربكة التخفي» بقلم ناقد يدعى إبراهيم بيك تشوليك، استنكر ما جاء في كتاب «الدم والنفط» ووصفه بأنه «مشاهد وصور إباحية عن الثقافة الشرقية». ورأت صحيفة مسلمة في براغ أن كتاب سيرة النبي محمد «هجوم حاد وعنيف ضد إخوتنا في الدين في آسيا وأفريقيا»، بينما أعلن آخر أن كتب أسعد بيك أعمال «متكبرة ومغرورة ومتغطرسة لتخريب الإسلام». في كل الأماكن كانت الصحافة الإسلامية تبرز هويته اليهودية، بينما كان النقاد والكتاب الأجانب من غير المسلمين يتجاهلون ذلك الجانب أو كانوا لا يعلمونه أو لا يأبهون به كثيرا.

كان من قادة الفصيل الإسلامي في الهجوم على ليف مواطن أذري يعيش في القسطنطينية يدعى هلال مونشي. وجمع مونشي كل الهجمات على شخصية أسعد بيك في سلسلة من النشرات طبعها بالألمانية والتركية. وبالإضافة إلى الأمور المعتادة الأخرى عن «أصله ونواياه وأهدافه»، هاجم مونشي الظهور المبكر لليف، مستخفا به ومقللا من قدره وحاطا من شأنه بإعلان حقيقة أن «ذلك الكاتب الكبير الذي أثار كل ذلك الجدل» صاحب كل تلك الكتابات المثيرة للمشاكل تبين أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، وكان يعيش «مع أبيه الأرستقراطي، أبراهام نوسيمباوم (منشق، مولود عام ١٨٧٥)»؛ وكشف مونشي عن حقيقة أن أسعد كان قد «قُبِل [في جامعة برلين] مستخدما مستندات غير حقيقية لا تضم إثباتا على أنه قد حصل على شهادة المدرسة العليا أو ما يوازيها التي تخول له الإلتحاق بالجامعة»،

ومن الواضح أنه تم تسجيله بالجامعة بذلك الإسم المستعار المشكوك في صحته «أسعد بيك - نوسيمباوم»[1].

حاول الوطنيون الإسلاميون الاتصال بحزب «الشعب الألماني القومي» القوي، والذي كان الحزب العنصري اليميني الرئيس في الرايشتاغ، وكان أقوى من الحزب النازي في ذلك الوقت، ليطلبوا من الحزب أن يتخذ «إجراء» رادعا بشأن أسعد بيك نوسيمباوم. ومن

---

(١) حين زرت باكو لثاني مرة، عام ٢٠٠٠، لألتقي على وجه التحديد بالمؤيدين للجدل الدائر عن شخصية قربان سعيد - والذين تجمعوا والتفوا حول أن جوزف وزير، لا نوسيمباوم، هو من كتب رواية علي ونينو - بالفعل سلموني نسخا من هجمات مونشي على شخصية ليف وعلى خلفيته العائلية، باللغة الأذرية، كما لو كانت تقارير إخبارية معاصرة. وصدمت من الحماس العاطفي للغة تلك التقارير - حتى أدركت أنني أقرأ أدبا معاديا للسامية يرجع لثلاثينيات القرن الماضي، وبعث من جديد بعد سبعين عاما ك «دليل وبرهان» لا يقبل الجدل. كان بروفيسور أذري يصيح لي في حماس وانفعال شديد وهو يلوح باصبعه في الهواء «أترى . .أترى؟ هذا هو الدليل القاطع الذي نحتاجه! تجده أمامك هنا في مقال مونشي، لقد فضح المزور والمحتال وكشف عن حقيقته، لا يمكن أن يكون هذا النوسيمباوم قد كتب عملا أدبيا رفيعا مثل رواية علي ونينو». ويبدو أن مقالي بصحيفة النيويوركر قد أثار الجدل من جديد وأحياه، حيث كان على أذري بارز أن يتعامل مع اقتراح أن «روايتهم القومية» قد كتبت على يد يهودي. وينظر عادة للأدب بخطورة وجدية شديدة في الدول الصغيرة مثل أذربيجان - الدول التي لا تملك سوى قليل من الأبطال العسكريين والسياسيين في تاريخهم يحتفون بذكراهم، حيث تقام التماثيل لشاعر أو كاتب مسرحي في كل ميادينها - لذلك كانت العواطف ملتهبة أكثر مما هي عليه في أماكن أخرى. رواية علي ونينو هي أعظم ما عرف من إنجازات أدبية أذربيجانية، وبالنسبة للبعض منهم كان الأمر يبدو لهم وكأنني أحاول أن أختطفها منهم. كان أولئك المؤيدون بحماس يودون بشغف أن يصلحوا لي مفاهيمي الخاطئة من وجهة نظرهم، كما امنوا بعمل ترجمة جديدة لمقالات مونشي للأذرية، فقد كانت بالنسبة لهم دليلا نفيسا لا يمكن دحضه.

الواضح أن حزب الشعب الألماني القومي كان يواجه ظروفا قاسية وعصيبة في ذلك الوقت من عام ١٩٣٠، حين كان يواجه عدوانا جبهويا من النازي للحصول على أصوات الجناح اليميني. ولكن الحزب حين واجه مصيرا سيئا في الاقتراع البرلماني، وجد المسلمون الساخطون حليفا جديدا غير متوقع في حربهم ضد ليف: وهو الجيش الألماني ذاته.

كان المقدم رئيس أركان الجيش الشرقي الألماني في القوقاز إرنست فون باراكين قد أحس بإهانة شديدة من كتاب «الدم والنفط». بالنسبة لفون باراكين، كان المقطع المهين مكوناً من ثمانية صفحات يصف فيها ليف المجازر التي وقعت في باكو حين سقطت بعد الحصار التركي - الألماني لها في سبتمبر عام ١٩١٨. والأحداث بعض مما صوره ليف في تلك المذكرات حيث يقر ليف أنه لم يكن بباكو في ذلك الوقت - فقد عاد هو وأبوه أبراهام إلى باكو من مغامرتهم في بلاد فارس فقط بعد حدوث تلك المذابح - وقد أقر ليف كليا وبوضوح بأنه رسم صورة ما حدث أخذا عن مصادر ثانوية لإعادة تركيب ما يمكن أن يكون قد وقع في الأيام التي سبقت عودتهم.

وعلى الرغم من أن المقطع مليء بالتعاطف مع ضحايا المذابح من الأرمن، لم يلق وصف ليف باللوم على القيادة الألمانية؛ بل إنه قدم ما قاموا به أثناء حصار باكو، بشكل صحيح، وقدمه على أنه كان دورا ضئيلا مقارنة بدور الأتراك في تلك المذابح. علاوة على ذلك، كان يقود «جيش الإسلام» التركي نوري باشا إبن السابعة والعشرين من عمره وشقيق ديكتاتور تركيا الأصغر أنور باشا (إنفر باشا)، الرجل الكامن خلف عملية إبادة الأرمن. كان الجنرال نوري باشا يقود جيشه إلى باكو في سبتمبر ١٩١٨ كجانب من تحقيق خطة أخيه الأكبر أنور

باشا للتمدد الطوراني لحصول تركيا على حقوقها الطورانية التاريخية في أراضي وسط آسيا بصفتها أرض الأجداد. وأشار ليف إلى أن الألمان بالفعل ساهموا في بعض أعمال المذابح في باكو في شهر سبتمبر ذاك، ولكنه أظهر أن تلك المساهمة كانت بغضهم الطرف عما يحدث أثناء إبادة الأرمن وبإغماض أعينهم وعدم التدخل لوقف تلك الإبادة. وفي الحقيقة، أقر ليف بأن الألمان أمروا الأتراك بوقف المذابح بعد ثلاثة أيام من بدايتها، ملمحين للأتراك بأنه كان بإمكانهم أن ينهوا ما يريدونه في الأيام الثلاثة بسرعة أكبر. تلك الصورة ليست إلا جزءا صغيرا من كتاب «الدم والنفط»، غير أنها أثارت ردود أفعال كبيرة بين رجال الجيش الألمان الذين خدموا في جبهة القوقاز، والذين كانوا على درجة شديدة من الحساسية من أي تلميحات عن أنهم كانت لهم يد في مصير الأرمن.

وشن باراكين حملة هجوم ضارٍ على ليف في الصحف الألمانية الكبرى في برلين، وهامبورغ، وميونيخ. بدأها في صحيفة «برلينر بوزن- كوريير» قائلا: «يعلم كل امرئ كيف كان الألمان بمختلف توجهاتهم وقناعاتهم يتطلعون إلى تطهير أمتهم من الافتراءات والاتهامات الزائفة، كما أننا نستنكر ونستهجن بشدة أن يسمح ناشر ألماني شهير وبارز لنفسه أن يكون أداة ينشر من خلالها على العالم اتهامات زائفة لا أساس لها ضد قيادة الجيش الألماني». وبالمقارنة بهجوم المهاجرين المسلمين، فإن هجوم فون باراكين على ليف كان رزينا وحاسما دون انفعالات ويدحض الاتهامات بحسم عسكري[1].

---

(١) ماقام به فون باراكين كان مدهشا، لأنه كشف عن العلاقة المبهمة والغامضة للوجود الألماني في الجيش التركي وإبادة الأرمن التي وقعت في تلك الأعوام. وهناك بحث يقتفي أثر تلك العلاقة وتوصل إلى وجود موافقة =

بذلت الشخصيات السياسية والعسكرية الألمانية البارزة مجهودات كبيرة وأنفقت كثيرا من الوقت والجهد في عشرينيات القرن الماضي لإنقاذ شرفهم من كثير من القصص الوحشية والفظيعة المليئة بالقسوة والوحشية التي نسبت للجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى - وكان ذلك من سخرية الأقدار إن وضعنا في الاعتبار الأعماق الأشد قبحا الذي توشك الجيوش الألمانية أن تنحدر إليها في عهد النازي.

وأضيفت اعتراضات العسكريين المباشرة إلى الضربات غير الأخلاقية للعنصريين القوميين في الصحافة الألمانية. كل الصحافيون من الجناح اليميني المتشدد التقطوا المقال المنشور في صحيفة «الشرق الأدنى» الألمانية محللين اسم ليف، مع ربطه باتهامات فون باراكين، واستخدموها جميعا كأساس لمقالات تكشف وتعري «ذلك المزور اليهودي للتاريخ»، الذي لوث وشوه ولطخ شرف الجيش الألماني. فكل الناس تعرف أن الجنود والضباط الألمان لا يمكن أبدا أن يمسوا المدنيين بسؤ أبدا في أي مكان، وليس لهم أي دور في ذلك الاضطهاد العرقي من ذلك النوع المنحط والبدائي! وأن النقاد

= ضمنية بين كبار الشخصيات الألمانية المتطرفة على تلك الإبادة، غير أنه كانت هناك أيضا حركة مضادة لإبادة الأرمن قادها ألمان في تركيا، ضمت أعضاء في القيادة العليا للجيش الألماني. فون باراكين ذاته دخل في محاججة علنية مع نوري باشا في بهو فندق بمدينة باكو حول تلك المذابح، والتي أدت به للاستقالة من قيادة الجيش. وبعد الحرب، كتب تقريرا عن محاولته (الفاشلة) لـ «وضع حد بنفسه» لأعمال الإبادة التي كانت تقع في ذلك الوقت. ورغم ذلك، كان الجيش الألماني متورطا بشدة مع تركيبة قيادة الجيش التركي خلال تلك الأعوام حتى أنه من الصعب تبرئتهم كليا من هذا الذنب. والمسمى الوظيفي الرسمي لفون باراكين له مدلوله، فقد كان منصبه الرسمي يسمى: رئيس أركان الجيش العثماني في الشرق.

دأبوا على وصف ليف بـ«المزور» ووصف كتابه بأنه «تزوير يهودي» مضيفين بعض الأحكام والادعاءات غير الواقعية. كانت الصورة التي ذكرها ليف عن الجيش الألماني على الجبهة الشرقية مقصورة على وصفه للأحداث التي وقعت عام ١٩١٨، وسرعان ما ستتحول كل محاولات «الألمان من كل التوجهات والتيارات السياسية... لغسل سمعة أمتهم وتنظيفها من الاتهامات الزائفة عن تورطهم في مخازي مذابح الإبادة الأرمنية في الشرق» إلى موضوع جدلي بحت.

وقامت شرطة برلين بإجراء تحقيق تحريات عن «المحتال الروائي الأدبي»، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي مخالفات قانونية في ماضيه. ثم قام اتحاد الكتاب الألماني بإصدار بيان شرف - صاغه فيرنر شندل والذي كان لحسن الحظ من الشخصيات المرموقة بالاتحاد، يدافع فيه عن السيد «عضو الاتحاد أسعد - بيك ليو نوسيمباوم» وينفي عنه قيامه بأي سلوك معيب. ولكن لسوء حظ ليف، لم يقبل أبدا اسم «أسعد - بيك» كإسم رسمي معترف به. فمن العسير قانونيا تغيير اسم امرئ في ألمانيا تحت أي ظرف من الظروف حتى يومنا هذا، فالحكومة تصر على أن ينتقي من يود تغيير اسمه واحدا من قائمة أعدتها الدولة كـ «أسماء ألمانية مقبولة».

وفي مقال تحت عنوان «مشاعر النفط» في صحيفة «دويتشه روندشاو»، وهي صحيفة معتدلة، في أكتوبر ١٩٣٠، عمد المحرر الصحفي كارل هوفمان إلى وضع «أزمة أسعد بيك» المتصاعدة في إطار بعض المفاهيم والرؤى وأن يقدم بعض الحقائق الأساسية في سياق الاتهامات والاتهامات المضادة:

> منذ نشر كتاب «الدم والنفط»، ادعى كثيرون أنه يحتوي على أكاذيب وقحة وأن أسعد بيك لا وجود له على الإطلاق...

ولكن هناك بالفعل أسعد بيك. هناك شهادة تتعلق بشخصيته مؤرخة في ١٨ مارس ١٩٣٠ صادرة من «الممثلية العليا لعصبة الأمم للاجئين في ألمانيا»، أسعد بيك لم يولد أسعد بيك، ولكنه ولد باسم ليو نوسيمباوم. وعائلته ليست من العائلات التي تفهم بوجه عام على أنها من يهود الشرق ولا هي مسلمة أيضا، بل تنتمي عائلته إلى قبيلة إسرائيلية - آسيوية تحيا نمط الحياة الشرقية. الأب، أبراهام نوسيمباوم، الوافد من تيفليس... [لديه ممتلكات] تقدر ببضعة ملايين... [ليو نوسيمباوم] تحول إلى الإسلام في برلين. وهناك وثيقة مؤرخة بتاريخ ١٣ أغسطس عام ١٩٢٢، صادرة من الممثل الديني لما كان مازال في ذلك الوقت يحمل اسم السفارة الإمبراطورية العثمانية التركية وتقر تلك الوثيقة أنه تم تعميده [هكذا] باسم أسعد بعد إسلامه. ربما كذب كذبة صغيرة حول أصله وحول مستواه المعيشي، ربما توسع وبالغ قليلا، ولكن لا يوجد أي تزييف بمعنى الكلمة.

كان من الصعب إرضاء خليط الوطنيين المسلمين اللاجئين، وضباط الجيش الألماني، والنقاد العنصريين. وبفشلهم في البرلمان، حولوا الحملة ضد «يهودي كييف» و«مزيف الروايات» إلى ساحة اهتمام وزارة الخارجية الألمانية، مدعين أن أعمال أسعد بيك من الممكن أن «تدمر سمعة ألمانيا في الشرق، وأن تعكر صفو علاقات الصداقة... ومن شأنها أيضا أن تطلق في الخارج حملات معادية لألمانيا ترتكن إلى أكاذيب». وطالبوا «بوضع حد لذلك الإرباك الأدبي من خلال اتخاذ التدابير الملائمة لمنع نشر مزيد من نسخ الكتاب وتدابير ضد الكاتب ذاته».

وأحيل ليف إلى وزارة الخارجية الألمانية في نهاية شهر مارس عام ١٩٣٠، ومثل أمام مفوض التحقيق كورت تسيمكه. وجلب معه

توصية قوية من رئيس القسم الأدبي لأكاديمية الفنون والآداب ورئيس اتحاد الكتاب فالتر فون مولو، بالإضافة إلى تزكية شندل العضو البارز في اتحاد الكتاب. ولحسن حظ ليف، كان المفوض غير الودود يعمل في مهنة تجارة الكتب، فلم يود أن يسيء إلى كثير من كبار الناشرين الألمان ذوي النفوذ في عالم الكتب من أصدقاء الكاتب الشاب. سأله كورت تسيمكه: لماذا لا تفكر ببساطة باستبعاد الأجزاء والمقاطع التي ينتقدها المقدم فون باراكين وآخرين غيره؟ ووافق ليف على إعادة التفكير في ذلك الأمر ووضعه موضع الاعتبار.

كان ذلك في بداية عام ١٩٣٠، ولم يتمكن تسيمكه من حظر بيع الكتاب، فد كانت حرية النشر ما زالت متوفرة في ألمانيا. أما بعد ذلك بثلاثة أعوام، فلم تعد مثل تلك الحريات متوفرة - فضلا عن وجود نشر يهودي من أساسه - ولا موجودة قطعيا. ولكن في ذلك الوقت، أسقطت وزارة الخارجية الألمانية مسألة «السيد أسعد بيك ليو نوسيمباوم» من اهتمامها.

بينما كان الوطنيون المسلمون اللاجئون في ألمانيا والصحافة اليمينية الألمانية يهاجمون كتابات ليف «المشرقية» على أنها غير أصيلة، تلقفته أيضا الأجنحة الموالية لليسار الشيوعي لتصويره القادح للسوفيات والثورة السوفياتية. فقامت صحيفة «إلى الأمام» اليسارية الكبرى برفض كتابه عن ستالين وكتابه الآخر عن الشرطة السرية الروسية في عهد القيصر، مدعية أن أسعد بيك ليس لديه «التعليم المادي الديالكتيكي الضروري واللازم» لفهم الأحداث في روسيا فهما صحيحا.

أدت الهجمات من جناحي اليمين واليسار الألماني على ليف إلى

تحوله إلى شخصية مثيرة للجدل في ألمانيا، وكان رد فعله العام - بابتسامته الغامضة الملغزة واستمراره في كتابة مزيد من الكتب - يبدو وكأنه يبقي كل امرئ في حالة تخمين: ما هي سياسته الحقيقية؟ ما هي خلفياته العرقية؟ ما هي الدوافع الحقيقية «لمزور القصص والتاريخ»؟ وبانتقائيته لأموره الشخصية، وملابسه الغريبة، وسخريته، والتحدث عمدا بالألمانية بلهجة قوقازية، لم يقع ليف أبدا في أي تصنيف مقبول للعامة في ذلك الوقت. أما السموم التي كانت تبخ عليه فقد أصبحت استهلالية وبدائية بعد أن اتهمته صحيفة في براغ أنه يتبنى «البلشفية الخالصة أكثر من تبنيه للمصالح الإسلامية»، بينما اتهم في وارسو بأنه «ماركسي مذؤب». المقال البولندي كتب عام ١٩٣٨، وكتب بالمشاركة بين نبيل بروسي واثنين من المسلمين الوطنيين اللاجئين لبولندا الذين كانوا يخلطون ما بين «يهودي» و«ماركسي» - ناهيك عن المذؤب - واللذين أصبحا في ذلك الوقت صنوين مترادفين في كثير من الدوائر.

لم يبد على ليف أبدا أنه كان يأبه أو يبالي بكل ذلك الجدل الدائر. بدا أنه لمرة واحدة قد استجاب لطوفان الاتهامات حين كتب مقال قصير مراوغ وغير مباشر تحت عنوان «الأكاذيب ممنوعة». وبوجه عام، فقد أعطى الانطباع بأنه مادام قد نجا من ثورة، ومن تشرد دون بيت ولا مأوى، ومن فرار، وتمكن من البقاء حيا في المنفى، لن يسمح لجلبة وضوضاء المعادين والخصوم من الفصائل الألمانية أن تنال منه. (فكما قال غوته ذات مرة: «لايذهب المرء بعيدا بتأدبه في برلين، لأن مثل تلك الأصناف المتغطرسة والوقحة من الرجال الذين يحيون بها تفرض على المرء أن يكون صاحب لسان حاد للبقاء آمنا»).

كان للجدل الدائر أثره بالطبع على مبيعات كتبه، وجعل ذلك من

ليف (أو بالأحرى أسعد) شخصية مشهورة ومعروفة. بالنسبة لشاب كان يحيا من أمد قصير مع «مائة نوع من الجوع» وتتقلص آفاق الحياة أمامه إلى مجرد كونه هارب ولاجئ، أصبحت فكرة أن يكون شخصا مزعجا أو كريها دون أن يكون في موضع المضطهد ساميا وأن يكون مسلما وطنيا، لا تزعجه ولا تؤرقه. كان الحزب النازي قد بدأ يحقق نتائج طيبة في الأقتراعات التي جرت في بدايات عام ١٩٣٠، غير أن ذلك بدا هو الآخر وكأنه لا يسبب أي انزعاج أو قلق لليف. استمر في الكتابة كمن يتلبسه عفريت، تتدفق منه عشرات المقالات ويعمل على مشاريع كتابية أخرى عديدة إلى جانب المقالات. وكتب كتابا جديدا عن القوقاز، وكتابا عن حياة لينين، وكتابا عن تاريخ البحث عن النفط. كما بدأ في جمع مادة كتاب عن حياة أتاتورك، وكتاب آخر عن رضا شاه بهلوي، بل وحتى كتاباً عن رئيس أميركا السابق وارن هاردنج (الذي أثار اهتمام ليف بسبب فضيحة النفط التي اشتهرت باسم قبة إبريق الشاي)[١]. وظل من أهم كتاب ومراسلي مجلة «عالم الأدب»، كما حظى بتكليفات كتابية من المجلات الأمريكية الكبرى.

(١) وتسمى أيضا فضيحة احتياطي نفط البحرية الأمريكية، فقد قام وزير الداخلية الأمريكية ألبيرت بيكون فول عام ١٩٢١ في عهد الرئيس وارن هاردنج بتأجير ثلاثة حقول نفط مخصصة كاحتياطات نفطية لسلاح البحرية الأمريكية إلى شركات نفطية خاصة بالأمر المباشر مقابل رشوة، وأثارت القضية الرأي العام الأميركي وتكونت لجنة تحقيق بقيادة السناتور توماس والاش، وأدين بيكون فول وكان أول وزير في وزارة أمريكية يحكم عليه بالسجن وكانت القضية سببا في زعزعة حكم وارن هاردنج، وهي الوحيدة في التاريخ الأميركي التي أثارت ضجة كبرى قبل فضيحة ووتر غيت في عهد الرئيس نيكسون (المترجم).

وباستثناء هجوم فون باراكين الذي كانت لديه حساسية معينة تجاه أي اتهامات بالمشاركة أو غض الطرف المتعمد عن مذابح الأرمن، كان باقي مهاجمي ليف من المأجورين والعنصريين. كثير من الوطنيين الإسلاميين أساءوا فهم الدعابة والفكاهة في كتابته وفسروها على أنها هجوم على الإسلام أو على حركات الاستقلال الإسلامية بوجه عام حين كان ما يقصده من الممكن أن يكون أي شيء آخر غير ما فهموه. ولكن لما طالت الاتهامات الموجهة لهويته، كانت الانتقادات تحتوي هذه المرة على وجهة نظر معقولة.

لم يكن أسعد قد ولد في كييف كما ادعت الاتهامات وكما أقنع المهاجمون أنفسهم بتلك الأكذوبة، ولكن باستثناء ذلك، كان كثير من الحقائق التي كشفوا عنها تعد معلومات متداولة ومعروفة في نطاق علاقاته المباشرة: فبينما لم يتحول أبدا أمام الرأي العام عن قصته من أن أباه كان لوردا مسلما، كان في ذات الوقت يقطن مع أبيه في شقة في برلين، ولم يخف أبوه أبدا أنه رجل أعمال يهودي يدعى أبراهام نوسيمباوم. أما سجل ليف العام وطلبات تأشيرات الإقامة فقد كانت تصنفه بطريقة خجولة على أنه خليط من ليو نوسيمباوم و أسعد أو أسعد بيك أحيانا.

غير أن آخر الاتهامات للمؤلف الذي عرى في كتاباته أشد الإرهاب البلشفي قسوة ومرارة بأنه «ماركسي مذؤب» توحي بالمدى الغامض الذي كانت عليه شخصية ليف والحيرة التي سببها للآخرين في فهم حقيقته. حتى أن تروتسكي كتب لابنه من منفاه عام ١٩٣١ متسائلا: «من هو هذا الأسعد بيك؟». لقد كان سؤالا ودَّ كثيرون التوصل إلى إجابة شافية له، ولكن هل كان من الواضح أن حتى ليف ذاته يعرف الإجابة عن ذلك السؤال؟

وأستبق ليف بكتابة نقد غير ودود ودون مزاح في مقدمته الجذلة الخالية من الهموم لكتابه الثاني: «الأسرار الإثني عشر للقوقاز»، معلنا فيها أنه «يعي من ملاحظاته الشخصية، أن هناك مثل تلك الأشياء من مشاف ومدارس ثانوية للبنات في القوقاز». وبالفعل، وبكوني قادما من باكو، حيث وجدت كثيرا من تلك التحديثات والمبتكرات تدخل العالم الإسلامي لأول مرة، كان ليف أكثر من مجرد واع بذلك. قراء مقالاته سوف يعرفون أنه يحمل وجهات نظر غامضة وملتبسة ومبهمة عن «التطور» الغربي، لا لأنه رغب في إهانة الشرق، بل لأنه شعر بحنين جامح لموطنه وبضياع من اختفاء التقاليد العريقة في باكو المتمدينة المعاصرة كما شهدها في صباه.

«الإثنا عشر سرا للقوقاز» عمل مهدى إلى «نوع من الفضول عن تاريخ العالم في حفاظه الأمين على كل ذلك وليس أكثر من ذلك، كل ما هو معمر ومنسي». وبصفته من رواد كشف وتعرية الانقضاض الشيوعي على القوقاز، كان ليف يدرك بشدة أن المخترعات والمبتكرات الحديثة يمكن أن تتسبب في مزيد من التدمير، غير أنه في أعماله التي كتبها عن مسلمي الشرق، اختار نغمة فكاهية -رومانسية. تلك النغمة فهمت بطرق مختلفة ومتفاوتة من قبل المسلمين الأجانب على أنها زلاقة لسان عن أحوالهم، غير أن كتاباته التالية، وأيضا من خلال قراءة كتبه ذاتها قراءة متعمقة، يتضح أنها كانت يمكن أن تفسر على أي شكل عدا ذلك الذي ظنوه. . تمسك ليف «بالمشرق» - فقد كان يؤمن بأنه شرقي - ربما كان أكثر حقيقية من فهمه لنفسه كأوروبي أو كيهودي. وبالطبع، كان خليطا من كل تلك العناصر معا.

كتب ليف عام ١٩٣١ في إحدى الصحف: «حولتني الشعوب الكثيرة التي زرتها، والأحداث الكثيرة التي شهدتها إلى إنسان

عالمي»، كتب ذلك في واحدة من المقالات العديدة التي كتبها عن «قصة حياتي». كان ذلك يعادل في ألمانيا في عام ١٩٣١ ويوازي اعتراف الفرد بأنه يهودي، غير أن ليف لم يعر ذلك اهتماما. كان يتوقع من القوقاز أن تحمي هويته اليهودية بامتصاصها في «متحفها العرقي الفريد» كما سيتبنى تلك العبارة في مجلة أنثروبولوجية أمريكية بعد ذلك بثلاثة أعوام.

حقا، كانت شرقية ليف شرقية مختلفة عن شرقية منتقصيه ومنتقديه، واحد من أهم الفصول القوية في «الإثني عشر سرا للقوقاز»، يحكي عن مكان أطلق عليه ليف «سويسرا القوقاز السياسية»، وهو وادي خيفسور، أو خيفسوريا، قال عنه: «هناك، يمكن للمرء في نهاية المطاف أن يصبح آمنا». وحاول أحد النقاد من صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون أن يحدد موقع خيفسوريا على الخريطة، بمساعدة شحيحة من ليف، وكتب ليف:

> خيفسوريا قريبة جدا من مدينة تيفليس، ومازالت منطقة حرة، ومستقلة، ولا يجرؤ شرطي أن يطارد ضحاياه فيها. أسوار صخرية شاهقة تحيط بخيفسوريا وتفصلها عن كل العالم الخارجي المحيط بها... من قمة السور المحيط يتدلى حبل حتى الخلاء الأسفل الداخلي. من يملك الشجاعة يمكنه أن يتعلق بالحبل وينزل منزلقا عليه إلى داخل خيفسوريا. لا يمكن لأي شرطي أن يتبع من يتدلى... ومن خلال الحبال لابد أن أوائل المهاجرين قد وصلوا إليها. لا يجرؤ على النزول على الحبال إلا اللاجئون، ويقبل بين أهلها لو قبل وأحب مجتمع خيفسوريا وسوف يظل محميا للأبد من كل المخاطر التي يمكن أن تتهدده.

واستنتج ناقد جريدة التريبيون بضيق أن الكاتب لابد أن يزود

القارئ بمزيد من المعلومات الدقيقة في كتاباته اللاحقة. نشر ليف أيضا مقالا مطولا عن خيفسوريا في الجريدة الجغرافية. قال إن خيفسوريا مسيحية، غير أنهم لا يعرفون المسيح؛ وهم يحافظون على الكوشير وتعاليم التغذية طبقا للشريعة اليهودية، ويمارسون تعدد الزوجات والأزواج، ويعشقون الجعة المخمرة. ومن احترامهم لكل الأديان، يمتنعون عن محرمات يوم السبت في أيام الجمعة، والسبت، والأحد، ولكن أيضا يوم الأثنين - «ليثبتوا أن خيفسوريا مختلفة عن كل الشعوب الأخرى - شعب حر يمكنه أن يفعل ما يشاء».

هذا هو المشرق الذي ينتمي إليه ليف بالخيال: مملكة جبلية منعزلة عن الصراعات العرقية والسياسية، ملاذ آمن لا يمكن لشرطي سري أن يتبع فيه أحدا حيث يمكن لكل من يمتلك شجاعة التدلي من قمة السور الصخري الشاهق على الحبال من فوق الهاوية أن يقبل من الآخرين الذين سبقوه - باختصار، مشرق خيال ليف.

الفصل الحادي عشر

الاستشراق اليهودي

في دفاتر ليف التي كتبها على فراش موته، سجل مشاهد تشبه الحلم يتخيل فيها نفسه شخصية شبه - هزلية لأستاذ جامعي، ضائع وتائه بين تلال من «الهيروغليفية» الملغزة، و«نصوص مقدسة» تستمد شهرتها فقط من حياة أشبه بحياة إنديانا جونز في مغامرات الصحارى. لم أتمكن أبدا من التوصل لدليل أو برهان على حدوث زيارات من ذلك النوع إلى أماكن مثل العربية السعودية وليبيا، التي يصفها ليف هنا وفي مواضع أخرى بحدة ذهنية فائقة الدقة، غير أنه في هذا المضمار من ابتداعه الذاتي، يكون على الدوام برفقة وصحبة جيدة. اكتشفت أن برلين في عهد جمهورية فايمار، كانت بمثابة النزل والمأوى للمستشرقين اليهود، كان بعضهم متورطا بعمق مع الحركة الصهيونية المحمومة، بمختلف فصائلها المتجادلة. ولكن بعض من أكبر البارزين منهم، مثل ليف، كان يعمل على إحياء تقليد أقدم وأعرق: المستشرق الذي يحلم بربط اليهودية بالإسلام، والشرق بالغرب، في ماض واحد متناغم ومتجانس ومتوافق، ويسعى لخلق إدراك ومفهوم مستقبل واحد مشترك ومتجانس. وسوف يُنسى المستشرقين اليهود في المجمل، وذلك قبل أن يحيي إدوارد سعيد

«الاستشراق» ويعيد ترويجه في كتابه الصادر عام ١٩٧٨ وحقق أفضل مبيعات ذلك العام، والذي صور الاستشراق حصريا من خلال أطر المفاهيم المهينة للغرب الاستعماري، والذي لم تتبق منه الآن إلا المفاهيم السلبية.

كان ذلك بدون شك يزعج ليف ويحيره ويربكه، لقد ارتكز في حياته وفي مهنته على رغبة ملحة في شرح الشرق للغرب، من كل الجوانب عدا التحمس لعلو الشرق على الغرب (بينما استخدم، لنكون على بينة، الهجاء والسخرية اللذين اتصف بهما وأهاجا عليه اللاجئين المسلمين الآخرين). نشر «الأسرار الاثني عشر للقوقاز» بالألمانية في ذلك العام الذي بدأت فيه النازية تشق طريقها وتحقق نجاحات وفوزا في الاقتراعات. وأتاحت صفحات الكتاب الحد الأقصى للتخلص والنفاذ من خلال الإظلام الفكري الذي كان يحل تدريجيا حول فعاليات ورواد مقهى ميغالومانيا (مقهى جنون العظمة). . ففي جبال القوقاز، لم يعش نسل فرسان الحملات الصليبية ونسل المقاتلون المسلمون في وئام وانسجام فقط مع اليهود، ولكن في رؤية ليف، فقد اندمجوا معهم أيضا على وجه التقريب.

وفيما اعتنق مفاهيم الاستشراق اليهودي التي تمتد إلى عمق القرن التاسع عشر - إلى بنيامين دزرائيلي وأرمينيوس فامبري وويليام جيفورد بيلجريف (الذي اشتهر باسم« الأب كوهين») - أضاف ليف عنصرا جديدا. فمن جانب وعلى عكس ذلك الاستشراق اليهودي في العصر الفيكتوري، كان ليف بالفعل من الشرق. ربما لم يكن أبوه مسلما ولا من صنف «يهود الجبال»، ولكن ليف تمكن بالفعل من رصد الشرق في أعماقه. كان رفاقه المهاجرون بالطبع بأجمعهم من محيط يهود روسيا، ثم خلق شخصيته وهويته الإسلامية، فإن لم تكن لفائدتهم،

فعلى الأقل جزئيا لفائدة قراءه الماثلين بذهنه. كان كل من فامبري، وكوهين، ودزرائيلي قد تحولوا «للاستشراق» على يد مفتي مسلم، من أجل الإسراع بتحولهم في عالم كان اليهود فيه مثل آبائهم الذين تم استيعابهم في المجتمعات التي يعيشون في ظهرانيها استيعابا كليا.

شب ليف عن الطوق حين أصبح ذلك الاستيعاب لليهود خارج نطاقه الزمني، وحيث كانت الثورة - سواء الروسية أو الألمانية، من اليسار أو اليمين - تجبر الناس على أن تختار جانباً وتحدد موقفها. كان يهود أوروبا المستفيد الأكبر من الليبرالية، والتي سمحت لهم بالحياة والرخاء كأفراد؛ أما القبلية العقائدية السياسية الجديدة فقد أعادت خلق أسوار الجيتو. فأصبحوا عرضة للمخاطر مع تهاوي النظم الإمبراطورية القديمة والنظم الملكية، حتى لو كان ذلك الهدف ما سعى إليه كثير منهم وأرادوه. كانت الامبراطوريات القديمة ونظم الحكم المطلق، في أعتى أشكال عسفها باليهود واضطهادها لهم، قد أتاحت لهم مساحة للحراك ومزاولة أنشطتهم وأعمالهم. أما النظم الأيديولوجية الشمولية التي قبضت على زمام السلطة في حياة ليف فلم تتح مثل تلك المساحات. وسوف تصبح خريطة أوروبا الجديدة مشحونة بمخاطر كلية وشاملة على المفكرين الأحرار، وعلى المختلفين مع الأيديولوجيات السائدة، وفوق كل شيء، على اليهود. كانت رحلة البحث عن مخرج تدفع للقنوط واليأس.

كان ليف فريدا، ولكنه واجه في برلين جمهورية فايمار عددا مذهلا ومدهشا من الكتاب اليهود الآخرين الذين كانوا يسعون للفرار من الواقع السياسي الجديد إلى الآفاق الحصرية في رحاب الاستشراق المتعاطف، مثل إيوغين هوفليش الذي كتب كتبا يطالب فيها بالاندماج بين شعوب العالم الآسيوية - يهود، ومسلمين، وبوذيين،

وكونفوشيوسيين - لتكوين جبهة موحدة لمواجهة قوى المكننة الأوروبية والصراعات الجماعية الكبرى.. وسوف يؤيد هوفليش كتاب ليف عن الشرق الأوسط: «الله أكبر: اضمحلال وصعود العالم الإسلامي»، والذي كتبه ليف بالتعاون مع زعيم صهيوني هو فولفغانغ فون فايزل الذي كان يعد الذراع اليمنى لفلاديمير يابوتينسكي وواحداً ممن أحبوا التوجه للصحراء في ثوب ومظهر إسلامي، حتى أنه كان يحدث خلط أحيانا بينه وبين لورانس الجزيرة العربية.

ومثل ليف، كانت تلك الشخصيات من عصر جمهورية فايمار - وكثير منهم من جناح الحركة الصهيونية التي كانت تسعى لتحقيق اندماج آسيوي كلي مع المسلمين - وجدوا في المشرق نوع من نافذة للفرار والهروب من المخاطر المحدقة للحداثة القاسية. على مدى القرن التاسع عشر، حين بدأت الأفكار العرقية اليمينية والنضال الطبقي اليساري تغطي على الإيمان بالقضايا العالمية وقضايا التطور، راح يهود أوروبا يعانون ويقاسون من كل من الرفض الهدام من الخارج وأزمة الهوية من الداخل: ربما لم تعن المثاليات الأوربية المساواة المدنية، أو حتى التسامح في نهاية المطاف، بل كانت أقرب إلى أشكال جديدة أشد خطرا من الإبعاد والإقصاء والمنع والتحريم.

ولكن لماذا اختارت مجموعة يهودية تزداد شهرة ونفوذا العالم الإسلامي كحل لمأساتهم ومأزقهم الذي لا يحل؟ لقد تكونت بنيتهم الفكرية وهم يوقنون أنهم من الشرق وينتمون إليه - خاصة، المشرق الإسلامي - بطريقة خاصة وجذابة جدا. لعبت الشخصيات المغايرة كشخصية دزرائيلي والفيلسوف مارتن بوبر دوراً في إعادة وتغيير الروح اليهودية فيما يختص بعلاقتهم بمملكة أو عالم آسيا الموحدة الكبرى. أعادوا ابتداع تاريخ الإسلام الشرقي كمكان كان يخلو من أية نزعات

عرقية أو طائفية، وهو على وجه التخصيص يخلو من معاداة السامية بغض النظر عن أن الواقع كان بالفعل أكثر تعقيدا من ذلك التبسيط.

في عصر التنوير، راح الأوربيون يصورون شخصيات اليهودي الحكيم والأمراء من نبلاء الشرق في ذات الهيئة والسمة، وبشكل ما كان اليهود والمسلمون قد بدءوا في الاندماج في كيان واحد وصورة واحدة في العقل والذهن الأوربي. وشخص فولتير تلك النوعية العامة «الآسيوية» بصفات سلبية، بصفتهم يؤمنون بطريقة متخلفة بالخرافة. غير أن كثير من يهود شمال أوروبا استغلوا ذلك التعريف الذي صنفهم كآسيويين للتخلص من الصورة التحقيرية والدونية التي ترسخت عنهم في الذهن الأوربي وأنهم قوم منفصلون عن المجتمعات، ويسكنون في منعزلات (جيتو). ولن يمضي إلا قليل من الوقت قبل أن يدركوا التهديد المعلق خلف ذلك التمييز: وهو أنهم ربما لا يمكن لهم أن ينتموا إلى أوربا على الإطلاق.

في القرن التاسع عشر، تبنى يهود غرب أووربا أسلوب العمارة «الموروسكية» في البناء والذي بعث وأثار ما أطلق عليه الأوربيون التعايش اليهودي الإسلامي في الأندلس وغرناطة، حين كان الخلفاء المسلمون يحكمون أسبانيا ونهض اليهود ليحققوا مكانة غير مسبوقة في ذلك المجتمع الإسلامي. فالمباني الرسمية كانت تشيد على الطراز الموروسكي، والمسارح، وبيوت الميسر، وبالطبع، انتشرت المعابد اليهودية في جميع أنحاء أوروبا. (وكان هذا هو السبب الذي دفع جوزيف روث لكتابة مقاله الذي يقارن فيه بين معمار دار سينما «يو. إف. أي» في حي كودام في برلين وبين عمارة المساجد، على الرغم من ميله لتضمين مقاله بعض الجوانب الأخرى أيضا). في عام ١٨٨١، أثناء تشييد «المعبد اليهودي الجديد» على الطراز الموروسكي

في برلين، علق كبير الطائفة اليهودية وزعيم جماعة مناهضة السامية قائلا: «ما المغزى في الادعاء بأننا فخر ألمانيا وما زلنا نبني أقدس الأماكن على الطراز المورسكي، كما لو كنا لا ندع فرصة أبدا لأي أحد أن ينسى أن ذلك المبنى مبنى ساميا، مبنى آسيوي، مبنى أجنبي عن البلاد». غير أن اليهود أصروا على الطراز المورسكي، مثيرين زمنا وعصرا عاش فيه يهود من أمثال صموئيل بن ناغريلا حياة لم يعرف اليهود مثلها في أوروبا المسيحية: فبينما كان يقود جيوش المسلمين لميادين القتال ويكتب تعليقات جريئة عن القرآن، هذا الشاعر اليهودي المنتمي للقرن الحادي عشر والذي كان يشغل منصباً وزارياً في مملكة غرناطة الأندلسية، كان أيضا يعطى دروسا في التلمود وكان راعيا للفنانين اليهود، وللطلاب اليهود، والباحثين والدارسين اليهود. وفي القرن الثاني عشر، كان موسى بن ميمون من أكبر الفلاسفة الذين يحظون بالتقدير والاحترام، وكتب أغلب أعماله باللغة العربية، بينما كان يعمل في البلاط الملكي كطبيب لصلاح الدين الأيوبي. (عادة لا تذكر حقيقة أن عائلة ابن ميمون فرت إلى مملكة صلاح الدين في مصر لأن متشددين إسلاميين هيمنوا على موطنه الأصلي في قرطبة).

وبالأخذ في الاعتبار أحداثا أخرى لاحقة، فمن أهم الجوانب اللافتة للنظر أن ذلك الولع بالعرب وبالأندلس أو الأنماط «المورسكية» كان أقوى كثيرا في البلاد المتحدثة بالألمانية في ذلك الوقت، حيث كان اليهود أشكينازا في مطلقهم، بلا رابط من أي نوع يربطهم بأسبانيا. كان اليهود الأشكيناز فخورين بالتقاليد المورسكية لأنها كانت تمثل «الموطن لليهود» وهي المشاعر التي لم يشعر بها اليهود أبدا في أوروبا. وعلى الرغم من قصر تلك المرحلة التاريخية

بازدهارها، إلا أنها خلقت وتركت أثرا عميقا. كانت الكنيس اليهودية بعض من أول علامات ومظاهر الامتداد للميول الشرقية اليهودية والتي امتدت إلى ما هو أبعد كثيرا عن عمارة الكنيس وبيوت العبادة اليهودية ومعمار المسارح. دفعت يهود أوروبا للنظر إلى الخلف وإلى الماضي في أسبانيا حين كانت إسلامية بإعجاب متجدد، وأن يروا في الباحثين من أمثال ابن ميمون جانبا متوافقا مع التقاليد الأصولية اليهودية، فما كانوا عليه لم يكن إلا انعكاسا لثقافة عربية- يهودية مختلطة لا يمكن فصل مكوناتها عن بعضها بسهولة إلى أجزاء مستقلة. كان ابن ميمون وزملاؤه من كتاب عصره في أندلس أسبانيا خبراء في ثقافات الشرق - في العلوم الإغريقية والرياضيات العربية والشعر الفارسي. ومن بداية القرن التاسع عشر، بدأ يهود أوروبا في تبني دور جديد كمفسرين لفكر الشرق لأوروبا وللغرب. وبالإضافة إلى بحثهم الشخصي عن هوية في الشرق، فقد كانوا يتشجعون بالانفتاح الأوربي الجديد على الشرق، بعد أن بدأ المسلمون في مرحلة من الأفول والاضمحلال ولم يعودوا يشكلون تهديدا، بل على العكس أصبحوا يشكلون أهدافا مغرية للامبريالية.

كان من أهم المستشرقين في الوقت الذي كان ليف فيه يشب عن الطوق أرمينيوس فامبري، وهو باحث رومانسي غريب الأطوار لم يقتصر فقط على الكتابة عن الشرق لقطاعات جماهيرية عريضة في كتب ومقالات، بل راح ينصح العسكريين والحكومات بكيفية التواصل والتعامل مع العالم الإسلامي. ولابد أن كتبه التي يروي فيها حكاياته وملاحظاته عن أسفاره إلى القوقاز الروسي وإلى منطقة وسط آسيا كانت ضمن الكتب التي على أرفف مكتبة نوسيمباوم في باكو، حيث كانت الأقرب ليد ليف. لابد أن ليف قد قرأ أيضا سيرة حياة

فامبري الشهيرة، وهو مستشرق عظيم من أصول أوربية شرقية يبحث عن جذور هويته الذاتية - بصفته مجري ويهودي - في أراضي القبائل الإسلامية في القوقاز، وتركستان، وأفغانستان، وبلاد فارس. أعمال ليف ذاتها لم تكن تشير فقط إلى «فامبري العظيم»، بل كانت في بعض الأحيان تقلد أسلوب كتابته.

ولد هيرمان فامبرغر في عام ١٨٣١ أو ١٨٣٢ (هو ذاته لم يعرف على وجه اليقين في أي عام منهما ولد)، وهو ابن لباحث وواعظ تلمودي مجري، وارتحل فامبري إلى القسطنطينية وهو في باكورة شبابه، وأعال نفسه بالعمل كمعلم ومترجم.. وعلى الرغم من أنه كان مفلسا في أغلب الأوقات، إلا أنه سرعان ما أصبح ضيفا مدعوا ومرغوبا فيه من كثير من باشاوات القسطنطينية، الذين قدروا معرفته بثقافة صفوتهم الرفيعة. كان فامبري عبقريا في إجادته للهجات ونغمات أصوات أبناء البلد الأتراك، وكانت براعته موضع تعليق وإعجاب الباشاوات. وبدأ في استعمال اللقب والإسم التكريمي الذي حازه وهو رشيد أفندي، وهو لقب وهب له بسبب قدراته اللغوية العظيمة.

ولبس رشيد افندي الدور وقلد بمهارة شديدة أتراك الطبقة العليا من الصفوة. وفي غمرة انغماسه في أجواء اسطنبول، انخرط أيضا في وظيفة بالحكومة العثمانية وكسب تقدير السلطان عبد الحميد الثاني، أو «عبدول الأحمر أو الدموي» كما كان يطلق عليه الأوربيون. ولكنه ترك تركيا بعد ذلك بفترة قصيرة، خوفا من أن تؤدي حياة البلاط الملكي في القسطنطينية إلى «إخصائه» وإضعافه. وخلال ١٨٦٣-١٨٦٤ طاف متنقلا بين أرجاء بلاد فارس، والقوقاز، وتركستان متنكرا في سمت الدراويش، متخذا مسارا مشابها كثيرا للمسار الذي

سيتخذه ليف وأبوه أبراهام بعد ذلك بستين عاما، عبر خانات خيفا وبخارى، إلى سمرقند، وطهران، وترابزون، وأخيرا عاد إلى القسطنطينية. ولاحظ «بدائية» بلاد فارس مقارنة بتركيا، صدم فامبري من أن أهل فارس ليس لديهم رغبة ولا دافع في اقتفاء أثر الغرب ومساره الحضاري. سافر عبر سفوح الجبال بصحبة قوافل مختلفة مرتحلة، وبصحبة متسولين، وأحيانا بصحبة لصوص وقطاع طرق. كان يتسول الطعام أحيانا من القرى القريبة وأحيانا ما كان يأكل بقايا الأطعمة المتعفنة؛ كما تطفل القمل على بدنه وعشش في شعره. وأصبح أكثر من مستعد وجاهز للعودة إلى راحة ورفاهية حياة الغرب.

واصطبغت عودة فامبري بنوع من الصدمة الحضارية العكسية. اكتشف أنه بات من الصعب عليه أن يزيل «تنكره» الذي أكل من جلده وحفر بعمق في شخصيته. لم يعد يشعر أنه ينتمي لأي مكان. وكتب: «في آسيا كانوا يتعاملون معي كتركي، أو كفارسي، أو من أواسط آسيا، وفي مرات نادرة على أني أوربي، وهنا في أوروبا يعتقدون أنني فارسي متنكر أو عثماني، مثل تلك اللعبة الغريبة من تحديد الانتماء العرقي». وشعر بلدغة معاداة السامية في نهاية المطاف، وكانت في قمة وطأتها في بودابست، وكتب أنه أينما حل، يقول الناس: «اليهودي يكذب؛ إنه مخادع، متبجح ومتفاخر مثل غيره من اليهود».

في عام ١٨٦٤، حين نشر أول سيرة لحياته بعنوان «رحلات في آسيا الوسطى»، حقق الكتاب أفضل الكتب مبيعا في أنحاء أوروبا، خاصة في إنجلترا، حيث قُرئ على أنه دليل واقعي قيم عسكريا وسياسيا ويصلح للاستعانة به للهيمنة الكبرى على وسط آسيا في خضم الصراعات الدولية. وقام فامبري بجولة مظفرة للندن وباريس في ذلك العام، وأصبح الصبي الذي كان يعمل ماسحا للأحذية في شوارع

بودابست حتى سن الثانية عشرة، صديقا شخصيا لأمير ويلز، الذي أصبح لاحقا الملك إدوارد الثاني، ملك بريطانيا العظمى، وأصبح ضيفا معتادا على قلعة وندسور. وأثناء زيارته لانجلترا، التقى فامبري بثلاثة أجيال من العائلة المالكة البريطانية ممن ارتقوا عرش بريطانيا: الملكة فيكتوريا، والملك إدوارد الثاني، والملك جورج الخامس.

كانت حياة فامبري ثرية وخصبة جدا حتى أنه كتب سيرته الذاتية عدة مرات. وأصبح صديقا للمغامر اليهودي المستشرق ويليام جيفورد بيلجريف، كما التقى بالمستكشف دافيد ليفنجستون، الذي يبدو أنه قال له: «ليتك كنت طفت بأفريقيا وجعلت منها مجالا لأنشطتك الكتابية». وربما كان من أهم ما صادفه من أسئلة ممن التقى بهم، ذلك السؤال الذي أحب أن يضعه في موضع النوادر المثيرة التي يحكيها لأصدقائه، كان ذلك في تلك المرة التي سأله فيها رئيس الوزراء الإنجليزي بنيامين دزرائيلي عن أصوله العرقية - وهو يقصد أن يعبر عن تواصل «يهودي شرقي» فخور وعالي الإحساس والوعي بذاته مع «يهودي شرقي» آخر مثله.

وعلى الرغم من أن دزرائيلي قاد أقوى دولة أوربية مسيحية، وهي انجلترا، كان قد صنع مجده قبلها بأعوام بكتابة رواياته التي حققت أفضل المبيعات والتي بشر فيها بالعلاقة القرابية الجوهرية التي تربط اليهود بالمسلمين وعلو وسمو كل العرق السامي. كانت فلسفته خليطا مبهجا من وجهات النظر الحديثة شبه العلمية عن العرق مع وجهات نظر رومانسية مستمدة من السير والتر سكوت - وهي عبارة عن اعتزاز وفخر عرقي معبر عنه بتأملات رومانسية عن القوى الإبداعية الخلاقة الكامنة في عروقه ودمائه «الشرقية». (كان برنارد لويس قد وصف باقتدار وجهات نظر دزرائيلي عن العالم على أنها «سامية عاطفية»).

قدم دزرائيلي تصورات مثالية عن الصحراء وعن البلاط الملكي العثماني. ولما كان شابا يرتحل عبر أرجاء الشرق الأوسط، كان دزرائيلي يبدو مثل ليف وكأنه تركي، وكان يشعر بفخر حين يخطئ الآخرون ويظنونه تركياً، وكتب: «أبدو كتركي تماما، فأنا أضع على رأسي عمامة، وأدخن شيشة طولها ستة أقدام، وأجلس القرفصاء في الديوان». وحين كان وزيرا، ربما أطالت دبلوماسيته ودفاعه عن الامبراطورية العثمانية ومدت في عمرها إلى ما يصل إلى خمسين عاما. كانت أيديولوجيته عن الشرق الموحد تضع في اعتبارها وتطوع التقاطعات والتعارضات ما بين اليهود، والمسلمين، وأعداء السامية، والصهاينة والتي ستتصارع على مدى المائة عام التالية.

مات دزرائيلي حين كانت معاداة السامية قد بدأت تخيم فوق أنحاء أوروبا، وبطرق عديدة كانت أفكاره عن اليهود المثاليين والأعراق الصحراوية النقية قد خمنت حدوث ذلك، على الرغم من توقعه حدوث عكسه. ولما هوجم من قبل سياسي إيرلندي معادي لليهود في البرلمان عام ١٨٣٥، رد دزرائيلي على ذلك الهجوم قائلا: «نعم، أنا يهودي، وحين كان أسلاف وأجداد العضو الكريم المحترم ما زالوا متوحشين وبدائيين في جزيرة مجهولة، كان أسلافي رجال دين وكهنة في هيكل سليمان». كان بإمكان دزرائيلي أن يكون عنصريا مثل أسوأ معادٍ للسامية. في بعض كتاباته، اقترح أن الجدل الليبرالي حول تحرير اليهود يرتكز على مقدمة زائفة - فلم تكن الحقوق العالمية للإنسان هي التي تبرر وتوجب تحرير اليهود من الجيتو ومن معازلهم ولكن وضع اليهود الرفيع كآدميين هو ما يوجب ذلك، والذي يجعل منهم أفضل، لا أسوأ، من باقي البشر.

كان بنيامين قد تم تعميده في ٣١ يوليو عام ١٨١٧، حين بلغ بالكاد

الثانية عشرة من عمره، وهكذا لم يكن من الممكن اتهامه بأنه أسقط يهوديته بسبب اعتبارات اجتماعية، أو حتى أسطقها إراديا برغبته؛ فقد كان قرار اتخذته عائلته في صباه. وكان في ذلك اختلافا فارقا وهاما، لأنه سلَّحه بالقدرة على ولوج عالم السياسة الانجليزية بصفته مسيحيا، ولكنه يحمل كامل الفخر والاعتزاز بيهوديته أيضا. كان مفهومه الرومانسي عن اليهود أنهم «فسيفساء عربية» - وهو مصطلح استعمله في روايته «كونينجسبي» - يحمل كثيرا من التماثل مع اليهود الذين عرفهم دزرائيلي، وأيضا عائلته ذاتها، مثلما يحمل فرسان والتر سكوت في روايته «إيفانهو» من معاني لأعضاء برلمان القرن التاسع عشر. غير أن ذلك كان هو المعنى المقصود. بلغ دزرائيلي سن الرشد حين كان والتر سكوت من أكثر الروائيين شهرة في انجلترا، وكان بالفعل الكاتب المفضل في كل أنحاء أوروبا، يتحداه في القارة العجوز الحالمون الرومانسيون الآخرون الذين يكتبون عن عظمة البطولة مثل أليكسندر دوماس. كان سكوت مليئا للنخاع بأنماط «النبالة العرقية» - بما فيها من صورة إيجابية عن النبالة اليهودية - وقد أثر في كثير من المفكرين العرقيين في القرن التاسع عشر.

لا ينظر لأعمال دزرائيلي الروائية عادة إلا بنوع من الفضول مقارنة بسيرته السياسية، فأعماله الأدبية لم تكن تمثل فقط مجرد غرابة أطوار العقل الخصب، بل بداية قرن من الاندماجات المتخيلة بين الشرق والغرب والتي كان يفترض أنها ستحل الأزمة القادمة التي تلوح في الأفق عن شعوب المشرق المهيمن عليها في الوقت الذي كان على شعوب المشرق أيضا أن ينقذوا اليهود.

نشر دزرائيلي في أربعينيات القرن التاسع عشر أهم سلاسل رواياته، ومنها ثلاثية «انجلترا الشابة»، بادئا بـ«كونينجسبي» ومنتهيا

بـ«تانكرد». وعلى الرغم من شباب الرجال الانجليز كما يبدو من عنوان الثلاثية، فإن أهم شخصية في الروايات الثلاث شخصية مليونير سفردي[1] عجوز غامض يدعى صايدونيا. ذلك العبقري العجوز ليس إلا عجوزا يهوديا خارقا ولد في أراغون - مملكة الصليبيين في جبال البرنيس - لعائلة من المسيحيين الجدد على المسيحية، أو المورانو، وهم اليهود الذين أجبروا على اعتناق المسيحية بسبب قسوة محاكم التفتيش الأسبانية على اليهود والمسلمين بعد سقوط الأندلس. كان يقوم بدور الناصح الأمين والمتنبئ لشباب الأبطال في أحداث الرواية الثلاثية، الشباب الوسيمون السذج أصحاب الذكاء الفطري والعفوي. (في مهنته السياسية، سرعان ما حجبت مهمته السياسية كتاباته الأدبية، كان دزرائيلي ذاته سيصبح نموذجاً للحكيم اليهودي الوحيد، يفرز الحكمة وينقلها إلى أجيال تالية وقادمة من الساسة الإنجليز وللملكة فيكتوريا ذاتها). كان صيدونيا يشرح ويفسر «المعنى العرقي» الحقيقي الكامن خلف الأحداث للشباب المناصرين، كان يقول لهم بيقين: «كل الأسباب تكمن في العرق، ليست هناك حقيقة أخرى». وسوف يستعير النازي بعد ذلك العبارة الأخيرة، مع إيماءة ساخرة لمصدرها اليهودي. ولكن من وجهة نظر عالم صيدونيا، فإن «العرب الموزايك» و«العرب المحمديين» - أي اليهود والمسلمون - ليسا سوى سلالتين منحدرتين من ذات الأصل السامي العريق والنبيل. أولئك الإخوة الذين تاهوا كثيرا وافتقدوا أخوتهم طويلا بحاجة هم وأنسالهم أن يتوحدوا من جديد لتحديد مصير العالم المعاصر.

الرواية الأخيرة من ثلاثية «انجلترا الشابة» والتي تحمل اسم

---

(١) السفردي: الشخص المنحدر من الجنس اليهودي الذي عاش في أسبانيا والبرتغال خلال العصور الوسطى .(المترجم).

«تانكرد» كانت أشهر أجزاء الثلاثية المليئة أكثر بأفكار الاستشراق اليهودي. وتانكرد في الرواية ولد ارستقراطي انجليزي بالغ الكمال - محبوب من عائلته، وأمين، وشجاع، وذكي، ومتدين. اختير تانكرد لـ«زواج موفق»، والنجاح في البرلمان، ثم بعد ذلك يصل لمنصب رئاسة الوزارة. غير أن البطل الساذج أراد أن يقتفي أثر سلفه الجد الأكبر السير تانكرد، والذي قاد قوات مقاتلة في الحملة الصليبية الأولى إلى الأرض المقدسة في فلسطين. وباستسلام العائلة لرغبات الإبن المتصلب الرأي والعنيد، طلبت العائلة من صيدونيا معاونة الإبن على تحقيق رغبته. وصعق تانكرد من حكمة صيدونيا الشرقية الغامضة ومن سلطته وقدراته، وأخذ بإرشادات صيدونيا ومضى في مهمته الامبراطورية المسيحية الصليبية في الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من أن الصهيونية لم تكن قد تطورت بعد كحركة، حلم دزرائيلي بالعدالة الإلهية التي سوف تعيد اليهود إلى عرش أورشليم (القدس)[1]. الرسالة الأخيرة من تانكرد هي أن انجلترا سوف تصبح «القوة العظمى» في الشرق، ولكنها لن تتمكن أبدا من الاستيلاء على «عرش داوود». بهذ المعنى، قد تعتبر تلك الرواية الرواية الصهيونية الأولى. وكرئيس للوزراء، راح دزرائيلي يتخيل مختلف الخطط لإقامة دولة يهودية في فلسطين، تحت الحكم البريطاني، وهي الفكرة التي كانت تلقى رواجا في بريطانيا من كل من الطبقة العليا التي كانت منبهرة باليهودية، وأيضا بما لا يمكن تصديقه

---

(١) من الغريب جدا، لو وضعنا في الاعتبار إعجاب دزرائيلي الشديد بكل الساميين والأتراك، دمجه الغريب بين مصير البريطانيين واليهود الذي أجبره على الدفاع عن الحروب الصليبية. وربما كان هناك أيضا علاجا عادلا لأفكار والتر سكوت في هذا الوضع.

على وجه التقريب، لأنه ساد اعتقاد أن الدولة اليهودية سوف تضمن استتباب الأمن والاستقرار في المنطقة.

فكرة التجسيد الحديث لدولة إسرائيل القديمة في فلسطين المعاصرة - الفكرة الصهيونية - لقيت دعما كبيرا من المناخ السائد المؤيد والموالي لليهود في انجلترا الارستقراطية في القرن التاسع عشر، كما فعل دزرائيلي نفسه. ولكن في باقي أنحاء أوروبا، كانت الأحداث تتجه للأسوأ. كان لظهور ونمو النظام الأكاديمي الغامض للدراسات اللغوية المقارنة أثره في تقسيم العالم إلى معسكرين كبيرين من اللغات هما المتحدثون باللغات السامية والمتحدثون باللغات الهند - آرية: فاليهود والعرب يتحدثون اللغات السامية، بينما قدماء الهنود، والفرس، وأغلب الأوربيين يتحدثون باللغات الهند - آرية (وتسمى الآن الهند - أوربية). كثير من عنصريي القرن التاسع عشر أساءوا فهم مفاهيم دارون عن صراع الوجود وطبقوها على التاريخ الإنساني، كما أساءوا فهم التصنيف اللغوي للغات سامية وآرية على أسس عنصرية أيضا. أكثر الباحثين احتراما من باحثي القرن التاسع عشر أعتقدوا أن للأعراق أرواحا وسمات خاصة بكل عرق. وطبقا لذلك الاعتقاد فإن الساميين لا يتمتعون بصفات الخلق والإبداع، بينما يتمتع الجنس الآري بدرجات عالية من ملكات الخلق والإبداع والتفوق. (في منافسة لمعرفة أي عرق أكثر تقدما وخلقا وإبداعا، وهبت المصطلحات اللغوية العنصرية الجديدة الأوربيين قصب السبق بالمضمون اللغوي، حيث تعني كلمة «آري» الرجل «النبيل» في اللغة السنسكريتية). وأضاف ظهور علم اللغات المقارنة سببا آخر يدعم تصنيف اليهود كشعوب شرقية.

واتخذ الاستشراق اليهودي منحى مختلفاً أكثر حدة ومأساوية في

ألمانيا أكثر من أي مكان آخر. فمثقفي اليهود، كما صورهم أحد الاتجاهات المعادية للسامية: «يمكنهم أن يتحدثوا عن غوته، وشيللر، وشليغل كما يشاءون؛ إلا أنهم يظلون شرقيين غرباء عن هذه الحضارة». وظهر الاتهام بأن المرء يمكن أن يكون أوربيا من قشرته الخارجية ولكنه شرقي القلب، وقد تنامت لتطال من استوعبتهم ألمانيا من اليهود الألمان خلال القرن التاسع عشر بأجمعه. مصطلح «معاداة السامية» ذاته كان قد صاغه فيلهلم مار في عام ١٨٧٩، وهو كاتب نشرات من هامبورغ، كوسيلة لدمج اليهود مع باقي الشعوب السامية.

كانت كثير من الاتجاهات المعادية للسامية متساوية إن لم تكن أكثر اشمئزازا وتقززا من صورة اليهود المستوعبين في الغرب، وفي نهاية الأمر، كان ذلك الادعاء - «فولكش»، المعارض لوجود اليهود - هو الأهم على وجه الإطلاق. ومن الصعب ترجمة مصطلح «فولكش» بدقة: فهو مفهوم من مفاهيم العنصرية الوطنية ترى الارتباط عن طريق الدم بين قبيلة وثقافتها بشكل رومانسي وخلاق، وهو جذر كل ما له قيمة في الحياة. تلك الفولكشية الخلاقة تعد معاكسة ومضادة «لانعدام الروح» و «انعدام الجذور» الذي تتسم به الحياة الحديثة المعاصرة، حيث يحيا الناس في مدن بين أغراب لا تربطهم ببعضهم أي صلة إلا الروابط التجارية.

كانت فكرة الفولكش تتسم بمعاداة المعاصرة والحداثة ومعاداة السامية أيضا. كانت رومانسية عنصرية عرقية، وطبقا لها فكل الشعوب متجذرة في أوطانها القومية عبر روح ثقافية-عرقية تميز كل شعب. أما اليهود، وربما الغجر أيضا، فكانوا استثناء لأن ليس لهم وطن حقيقي، فكل منهما ينقصه عنصر الأرض الطبيعية التي يرتبطون

بها عاطفيا. لذلك كانوا من ذلك المنظور أناساً غير عاطفيين - ورثة المدنية العالمية الذين تغذت أرواحهم بـ«السرقة» وتقليد إبداع وخلق الشعوب الأخرى. وطبقا لتلك الرؤية فاليهود يبحثون عن ثقافات متعادلة بتحويلها إلى ثقافات تجارية عالمية عامة.

أما بالنسبة لفكرة الفولكش المعادية للسامية، فقد كانت عن اليهودي المحرر - ذلك الكائن وليد القرن التاسع عشر - الحقود جدا والمليء بالضغائن، ليس فقط لحنقهم على منافسة اليهود لهم. نمو وتطور ذلك اليهودي «العالمي» كان موازيا مباشرة لنمو وتطور الفولكشية الوطنية. كتب يوليوس لانغين في عقد تسعينيات القرن التاسع عشر في كتابه «رامبرانت كمعلم» الذي لقي رواجا وإقبالا كبيرا: «كان يهود رامبرانت يهودا حقيقيين، الذين لم يريدوا أن يكونوا أي شيء آخر عدا أن يكونوا يهودا، وكان لهم أيضا شخصية قوية ومعالم وسمات واضحة. وهذا هو النقيض تماما ليهود اليوم: فهم يريدون أن يكونوا ألمانا، وإنجليزا، وفرنسيين، ... ألخ. ومن خلال ذلك أصبحوا بلا شخصية ولا هوية».

وللتناقض الواضح، استمدت الحركة الصهيونية المبكرة كثيرا من إلهاماتها من الأفكار الألمانية الفولكشية الموروثة المعادية للسامية. ويرجع ذلك في جانب منه إلى أن الطرفين اشتركا في الهواجس والوساوس: فالطرفان كانا بحاجة ماسة إلى إيجاد حل «للمسألة اليهودية». بعض اليهود انطلقوا ليبرهنوا على أن الأفكار الفولكشية يمكن تطويعها وتكييفها لتصب في سياق توجهاتهم - باكتشاف اليهود الرومانطيقيين الأوائل أصحاب «الجذور» الحقيقية ليواجهوا بهم القوالب النمطية العالمية ليهود معاصرين. بحثوا عن يهود الفولكش أولئك حول العالم: في جبال قوقاز أذربيجان، وبين فلاشا أثيوبيا، بل

وحتى في المجتمعات الريفية اليهودية في شرق أوروبا. في عام ١٨٩٨، أسس ماكس غرونفالد، وهو حبر يهودي شاب من هامبورغ، جمعية الفولكلور اليهودي وراح ينشر مقالات عن الروابط العرقية القديمة لليهودية: الحسيدية البولندية، ويهود جبال القوقاز، والمنشدين الطوافين («الأحبار الرحل»)، والأرواح الشريرة، ... إلخ. وآمن غرونفالد أن «اليهودي المثالي» كان القبالي الغامض أو الراقص الحسيدي - وهو اليهودي المقابل للفلاح الأوربي الرومانطيقي، أو متسلق الجبال، أو قاطع الأخشاب في الغابات في الفولكشية الآرية.

أصبح كثير من اليهود في الإمبراطورية النمساوية - المجرية في تسعينيات القرن التاسع عشر من أمهر مبارزي أوروبا من أجل الدفاع عن التحديات التي تمس شرفهم وكرامتهم (ودفع ذلك أعضاء جمعيات أخويات المبارزة المعادين للسامية لإعلان أن اليهود ليس لديهم شرف ليدافعوا عنه، وبالتالي يجنبون أنفسهم مهانة مقاتلة خصوم يهود يتفوقون عليهم في المبارزة)، حاول اليهود أن يبزوا الفولكشيين. فاحتضن المستشرقون اليهود اليهود الأخرين ليبرهنوا على أنهم لهم وجود مستقل خارج أوروبا يربط اليهود من أماد قديمة بيهود القرن التاسع عشر والقرن العشرين. في ذات الوقت، كان تيار يهود ألمانيا الرئيس مازال يتبع تكتيكات راتناو من الاستيعاب الكلي لليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها: في ١٨٩٨، في ذات العام الذي أسس فيه جرنوالد جمعية الفولكلور اليهودي، نشر راتناو مقالا («إسمعي يا إسرائيل») مدافعا فيه بأن اليهود، خاصة كل يهود «الشرق»، خضعوا لنوع من الهندسة الجينية الإرادية حيث حاولوا على مدى أجيال عديدة إنتاج صفات جسدية وعرقية يراها الآخرون بغيضة وكريهة.

أطلق مارتن بوبر على اليهودية «مجتمع الدم»، حتى أن صميم

فكرة الفولكش راحت تزداد قبولا داخل الحركة الصهيونية. مأساة اليهود الغربيين، طبقا لبوبر، كانت تكمن في فصل مجتمع الدم عن مجتمع الأرض والممتلكات التي يشارك بها؛ ولم يكن باستطاعة فولكشي ألماني معاد للسامية أن يصوغها خير من ذلك. (حتى فالتر راتناو بدأ في الحديث عن القبيلة اليهودية - غير أنه كان يقارن اليهود بالسكسونيين والبافاريين والقبائل الألمانية الأخرى للتأكيد على أصالة اليهود الألمان وموطنهم في نطاق الأرض الأم). ذلك «الدم» الفلكشي، كان بالضرورة مادة روحية.

ولكن بقدر ما حيد الصهاينة المفهوم المعادي للسامية بأن اليهود لا يمكن لهم أن يتلاءموا داخل أية قومية أخرى وحولوا ذلك إلى هدف إيجابي لتحقيق دولة يهودية حديثة، تناول المستشرقون اليهود الألمان الافتراءات المعادية للسامية وقلبوها رأسا على عقب. «ففي داخل اليهود تحيا القوة الكامنة للسجايا والعبقرية الآسيوية: توحيد الروح» كما صاغها وكتبها بوبر، «آسيا التي بلا حدود بوحدتها المقدسة». كانت صهيونية بوبر تعتمد على فكرته من أن كل يهودي لديه شرقي كامن داخله يمثل شخصيته الأبدية والشخصية الحقة، وأن ذلك يجب أن يكون مصدرا للفخار لا مصدرا للصغار والحيرة. صنف بوبر اليهودية مع الثقافات والحضارات الصينية، والهندية، والمصرية، والفارسية على أنها جزء من «الروح الآسيوية». وربط ما بين أنبياء اليهود، و «مفكري الأوبانيشاد، والزرادشتيين، ولاو - تسي» وأزاح عامدا التقاليد اليهودية من مملكة الثقافة «الغربية»، خاصة من الثقافة الألمانية؛ حتى لا يحكم عليها أو تمتص داخل المقاييس الغربية، آمن بوبر أن تغريب العادات اليهودية لم يؤد إلا إلى إضعافها واستنزافها.

شهد القرن التاسع عشر مجهودا متدرجا وزخما متصاعدا بين

التيار الرئيس ليهود ألمانيا - وقلدهم يهود الولايات المتحدة - للتصريح والاعتراف بيهوديتهم، معيدين تعريف ما كان يعد إطارا ثقافيا كليا للحياة الطائفية كإيمان ديني شخصي للمواطنين كأفراد. أما التقليديون فقد فكروا في ازدراء وتحقير مثل ذلك «الإصلاح» لليهودية وأنه لا يعدو كونه فرعا آخر من فروع البروتستانتية أكثر من كونه أي شيء يهودي حقيقي. رفض بوبر وأتباعه مبدأ «الاعتراف» باليهودية ولكنه لم يكن يفضل أيضا العودة للأصولية اليهودية. واعتقدوا أن تلك المحاولة في استيعابهم في مجتمعات التدين - لتحويل اليهودية إلى «مجرد» ديانة - قد أضعفت اليهود وحيَّدتهم بعيدا عن ثقافتهم اليهودية. (مؤسس الصهيونية ذاته، تيودور هيرتزل، مثَّلَ بكل وضوح ذلك الخطر الثقافي، فلم يكن على دراية إلا بالقليل من الثقافة اليهودية الخاصة أو العقيدة الدينية اليهودية. كان تلموده أوبرا فاغنرية: فقد تبلورت أفكاره الصهيونية لخلق دولة يهودية معاصرة فيما كان يستمع لسيمفونية فاغنر: تانهاوزر).

كانت اليهودية الأقرب للإسلام في مفاهيم المستشرقين اليهود: نظرة كلية شمولية للعالم وإطار للحياة. في ١٩٠١، في المؤتمر اليهودي الخامس في بازل بسويسرا، حدد بوبر أطار البرنامج الثقافي الصهيوني، مطالبا بتطوير الفن اليهودي وتطوير النشر اليهودي، ومد ونشر الثقافة اليهودية عبر الجرائد والصحف، وتحديث الدراسات اليهودية. في ذلك العام ذاته، تم تأسيس الصحيفة اليهودية «الشرق والغرب»، وسرعان ما أصبحت صوت ما أطلق عليه بوبر «النهضة اليهودية» أو «التجديد». تلك التحركات كانت أول المشروعات الكبرى التي تحمل في ثناياها بذور مشاكلها التي ظهرت بعد ذلك: مجموعة كبيرة من القصائد الشعرية والرسومات تمجد إسرائيل

القديمة، بعنوان «يهودا». قام برسم الرسوم إفرايم موسي ليليان، الرجل الذي أصبح بسرعة كبيرة مثل أوبري بيردسلي بالنسبة للحركة الثقافية الصهيونية. قام ليليان برسم رسوم خاصة تصور وجوها حزينة لليهود التائهين كما صور مشاهد توراتية في صور عالية الرمزية، مثل تسامي الرومانسية الألمانية الجديدة مع اليهود مع إحلال الصحارى محل حوض الراين وغاباته - فن جديد مع بيوس[١] وأهرامات.

أما القصائد الشعرية التي تتناسب مع تلك المشاهد فقد كتبها بوريس فون مونشهاوزن، وهو أرستقراطي غير يهودي كان مسحورا باليهودية والصهيونية. أطلق تيودور هيرتزل على مونشهاوزن لقب بايرون الصهيونية. غير أن الشاعر الارستقراطي أصابه الانزعاج عندما رأى كتاب الرسومات التالي، والذي لم يكن يصور مجد الإسرائيليين القدماء بل الواقع العامي السوقي المبتذل للحياة اليهودية المعاصرة في دول شرق أوروبا - يهود قرى شرق أوروبا. اشمئزاز وتقزز مونشهاوزن لانعدام الجمال الفني في تلك الصور البائسة نمى وتحول إلى كراهية: وبدأ يرى اليهود على أنهم وباء يهدد سعادة الأوربيين، وهو مثال للتحالفات الغريبة التي كانت تتم وتنفصم في بدايات القرن العشرين، حتى أن أوائل الشعراء الغنائيين للحركة الصهيونية تحولوا بعد ذلك ليصبحوا نازيين متحمسين لنازيتهم. في عام ١٩٤٥، انتحر بايرون الصهيونية (مونشهاوزن) حزنا وكمدا على هزيمة الرايش الثالث الألماني.

غيَّرَ مثقفو الصهيونية أسماءهم إلى أسماء شرقية وأحيانا ما كانوا

---

(١) البيوس: ترك شعر جانبي الرأس دون قص للذكور من اليهود، والمصطلح بالعبرية اليديشية من وسط اوروبا، اقتداء بنص في سفر اللاويين ١٩: ٢٧ (المترجم).

يغيرون شخصياتهم أيضا كوسيلة للعودة التجريبية إلى جذورهم الشرق أوسطية. آشر غينزبرغ، الذي سمى نفسه اسما شرقيا هو «آهاد هاعام»، وكان من كبار المثقفين الصهاينة في مدينة أوديسا، دعا إلى إنشاء مركز روحي في فلسطين - على الرغم من أنه لم يؤمن بأن كل اليهود يحتاجون فعلا إلى الرحيل إلى فلسطين. كان يرى أن مجرد وجود مثل ذلك المركز، حتى ولو بشكل جنيني صغير جدا، سيكون كافيا لإطلاق شرارة التجديد في جميع مناحي اليهودية. وألهم اقتراح هاعام بوبر بأفكار التجديد اليهودي في جميع أنحاء العالم. شعر بأن الروح اليهودية أصبحت مهيئة لنوع من الهزة القوية التي ستحدث فتحا جديدا بعد سبات طويل منذ أن سحقت في صدامها بالامبراطورية الرومانية. كتب في خطابه الداعي للتطوير في عام ١٩١٢: «باسم روح الشرق واليهودية» أن الماكينات الخلاقة المبدعة للجنس اليهودي أضطرت للانغلاق والانكماش بعد تدمير الهيكل الثاني؛ ألفا عام في الشتات كانت تمثل بونا شاسعا من الصمت غير المنتج، والغيبوبة الثقافية. غير أن بوبر كان يؤمن بأن «الروح اليهودية الخالصة» قد ظلت حية وسليمة: «بالرغم من كل ذلك، ظل اليهودي شرقيا».

بحلول عام ١٩٢٠ أصبحت صورة روابط اليهود القوية بالمسلمين وأتباع الإسلام الآسيويين متبناة على وجه التقريب من كل الأطراف السياسية في ألمانيا والنمسا، من أقصى اليمين المعادي للسامية حتى اليسار الثقافي الصهيوني. مائة عام من المعابد والكنس المورسكية الطراز والكتابات الشرقية لم تترك لدى أي أحد شكا حول الانتماء العائلي لليهودية للشرق - كان الأمر فقط يدور حول إن كانت العلاقة في أصلها ثقافية، أم دينية، أم عرقية، أم مزيجاً من التاريخية - النفسية من بين كل ما سبق. رصد مقال منشور في ١٩١٥ في صحيفة

«يوديشه موناتسهفتن» الشهرية، وهي الصحيفة المعبرة عن التيار الرئيس اليهودي الألماني (وكان يحررها الحاخام دكتور ب. كوهن)، الدرجة التي أصبحت فيها وجهة نظر «المستشرق اليهودي» تتلقى الحكمة بوجه عام. كان الكاتب الذي وقع فقط بحرفين من اسمه ر.ب.، كان يستوحي مقاله من كتاب جديد اسمه «عالم الإسلام»، والذي يرى الشرق الأوسط من خلال عدسة المنظور الجهاد التيوتوني - التركي (الألماني - التركي) ضد الغرب. المغزى الخاص بالكتاب موجود في الرضى الذي سيشعر به القارئ اليهودي الألماني حين يعرف أن «المهمة العالمية للرايش أصبحت الآن أشد إلحاحا وبآمال أكبر موجهة للشرق أكثر من أي وقت آخر»، بل ليس مجرد «الشرق» فقط، ولكن كل الإسلام، ومن الواضح أن ذلك كان قريبا من قلوب كل اليهود الألمان:

> الأمر متعلق بنا على وجه الخصوص، اليهود الألمان، الذين يتابعون ويدركون كيف أن أرضنا الأم والعالم الإسلامي مرتبطان بخيوط سياسية، بإثارة وتشويق محدد... من هو إسماعيل بالنسبة لنا؟ ما الذي يعنيه العالم الإسلامي لنا؟ وكذلك شريعة الدين الإسلامي، والعادات، والتشريعات، العلم الإسلامي والثقافة البديعة التي تحتوي على كثير من البذور الذهبية والتي يبدو أنها استعيرت منا وخزين التراث اليهودي والذي يبدو شهيرا ومرتبطا بها.

وعلى الرغم من أن الاستشراق اليهودي ظل ثقافة فرعية - كما عرفها بوبر إلى حد كبير، الذي حرر صحيفة في أواخر العقد الأول وأوائل العقد الثاني للقرن العشرين تسمى «الشرق» - وكانت الصحيفة محتضنة أيضا من قبل كثير من اليهود غير المتصهينين، الذين تبنوا ودافعوا عن «الشرق» المجرد كمعنى مجرد لليهود المستوعبين في

بلدانهم لتحقيق وعي ذاتي وأصالة. اليهودي لا يحتاج إلى هجر وترك أوروبا على الإطلاق إذا كان بإمكانه فقط أن يكتشف في أعماقه ويتحقق من أصوله شرقية وأن انتمائه للشرق. ثم ناقش الكاتب ياكوب فاسرمان الذي كان يعد في ذلك الوقت من عظماء ألمانيا في الكتابة عن مسألة الاستشراق اليهودي غير الصهيوني (الانتماء بالقلب والشعور): «اليهودي الذي أدعوه شرقيا... لا يمكن له أن يخسر ذاته، حيث إن الوعي النبيل بالذات، والوعي بالدم، يربطانه بالماضي، ويلزمه بمسؤلية غير عادية تجاه مستقبل الأمة اليهودية، ولا يمكنه في الوقت ذاته أن يخون نفسه... إنه حر، والآخرون عبيد. هو على حق والآخرون على باطل». بالنسبة لفاسرمان، أصبح «اليهودي الشرقي» تركيبة صوفية ملغزة تمثل كل ما ليس عليه اليهودي الألماني. كان يمكن لتلك الشخصية المتخيلة أن تكون لمقاتل توراتي أو لحكيم توراتي - وعلى أي وضع كان عليه، تمتع بفضيلة أن يكون «أصيلا». كتب فاسرمان أنه بينما مثل اليهودي الغربي «العار، والبؤس، والضعة، والغموض»، مثل اليهودي الشرقي الآسيوي «القوة، والشرف، والعظمة والغايات الرفيعة».

واحد من أهم المستشرقين اليهود، إيوغين هوفليش (الذي كان من دائرة علاقات ليف بفيينا)، كان صهيونيا، واتخذ لنفسه اسما شرقيا هو موشيه يعقوب بن- غابرييل - ولكنه كان صاحب شخصية وأفكار ترفض وتنكر كل شخصية نمطية صهيونية. كان مهتما بالروابط مع العرب - وأيضا بالصينيين والهنود - كاهتمامه بتأسيس دولة يهودية. كانت الصهيونية بالنسبة له لا تعدو كونها فرعاً من فروع الوحدة الآسيوية؛ لا يمكن لها أن تقوم على دوافع سياسية، ولا أن تبنى على تحقيق مهمة وهدف محسوبين علميا، ولكنها لابد أن تكون مدفوعة

بـ«أفكار أزلية» غير عقلانية. وهناك مسحة باطنية وصوت خافت من «الوعي» العرقي الرومانسي والذي يبدو وكأنه مشتق ومستمد من أفكار الفولكش، غير أن هوفليش سعى للارتفاع فوق الروابط العرقية السائدة بين الآسيويين ليتوصل للمعنى الحقيقي لعودة اليهود إلى فلسطين: «نعم نريد العودة ... ولكن ليس كأوربيين....، لحماية شعوب الشرق من خلال الفكر والفعل ... أنه واجبنا الذي يمتد إلى ما هو أبعد من حدود شعبنا». (في عام ١٩٣٧ قام غابرييل بكتابة مقال نقدي عن كتاب ليف «الله أكبر» مادحا تعاطفه والصورة الواسعة الرحبة التي رسمها لعودة وصحوة العالم الإسلامي وإمكانات التجدد الكامنة، شاكيا فقط من أن الكتاب كان لابد أن يكرس مساحة واهتماما أكبر للمشكلة التي يواجهها اليهود في دمج أنفسهم بالعالم الإسلامي).

وبعيدا عن صورة الصهيونية كآخر مشروع استعماري غربي، أراد المستشرقون الصهاينة عودة اليهود إلى إسرائيل كعلامة على إعادة مولد آسيا ونهاية الاستعمار. كتب بوبر باستنكار: «روح آسيا تقتل، إخضاع الهند، ورغبة اليابان في التمثل بأوروبا، ووهن بلاد فارس، ومؤخرا، تخريب الصين، حيث تبدو الروح الآسيوية الموغلة في القدم وكأنها تسكن في أمن لا يمكن أن تنتهك حرمته». بالنسبة لبوبر وهوفليش وكثيرين غيرهما، كان المشروع الصهيوني يعني إيقاف ووضع حد لتلك الأزمة - وأن يكون المشروع الصهيوني عاملا مساعدا يدفع لميلاد جديد للشرق وإنهاء خضوعه للقوى الأوربية الاستعمارية. الفرق بين ليف والمستشرقين اليهود الآخرين كان في أنه بينما بوبر، وهوفليش، وفاسرمان وأتباعه يقدمون اليهود كوسطاء بين الشرق والغرب، كان ليو محمد أسعد بيك نوسيمباوم يقدم ذاته بصفة أساسية كمستشرق.

الفصل الثاني عشر

العودة للجحيم

بمجرد أن انقلب المسلمون عليه، يبدو أن ليف قد انتقل إلى تعريفه الشخصي للـ «شرق». لم يعد بمقدوره المشاركة في الأنشطة والمناسبات الإسلامية (على الرغم من أنه ظل يحضر لقاءات مجموعة أكثر تحررا تسمى رابطة الشرق «Orient Bund»[1]، حيث يحتمل أنه تعرف بصديق المستقبل الحميم، المعادي للفاشستية الأنثروبولوجي البارون عمر رولف فون إرنفلز في تلك الرابطة). لم يعد يركز مقالاته لمجلات التيارات الإسلامية الكبرى ولا على الموضوعات الاستشراقية كما كان يفعل فيما سبق. بدلا عن ذلك، بدأ يركز كل اهتمامه على الاتحاد السوفياتي وعلى مأزق كل المواطنين الروس في الإمبراطوريات الروسية السابقة، بدلا من التقيد فقط بأقليتها المسلمة. وسرعان ما سيدفع به ذلك إلى جماعات أخرى أشد تناحرا مما كان يتخيل رفاقه من اليهود المستشرقين.

في صيف عام ١٩٣١ بدأ ليف في العمل مع عدد من الجماعات

(١) Orient BUND حركة اجتماعية أسست في روسيا من قبل اليهود الروس عام ١٨٩٧ وانتقلت لوسط أوروبا (المترجم).

المعادية للشيوعية، بما فيها منظمات كريهة ومبغوضة، مثل الرابطة الألمانية الروسية ضد البلشفية. تلك الجماعة من اللاجئين المعادية للروس البلاشفة كانت تحت قيادة أرستقراطي ألماني يدعى أليكسندر فون ميلجونوف، وكان أغلب أعضائها نازيين أو سيتحولون مستقبلا للنازية. وحين أبعد ليف من الصحافة العرقية، أصبح التعاون معهم مستحيلا. ومن الصادم أن نعرف أنه سعى للانضمام لمثل تلك الجماعات، في سياق ذلك العصر ومعطياته وأحداثه، غير المفهومة في حينها، خاصة لو وضعنا في الاعتبار هواجسه ومخاوفه المعادية للثورات.

ووجدت مفتاح تفسير تطور وجهات نظر ليف السياسية من خلال استنتاجاته التي توصل إليها في كتابه عن «الشرطة السوفياتية السرية (OGPU): المؤامرة ضد العالم» الذي ظل يكتبه طوال عام ١٩٣١ ثم نشر عام ١٩٣٢. فبعد ما يقرب من ثلاثمائة صفحة يفصل فيها وحشية الشيكا (الشرطة السرية الإمبراطورية، والتي تحولت بعد ذلك لتصبح الشرطة السرية السوفياتية تحت اسم OGPU - وهو جهاز الأمن السري السابق والذي تطور لاحقا ليصبح جهاز المخابرات السوفياتي الشهير KGB)، قدم ليف عرضا فلسفيا- تاريخيا متدفقا بحيوية يظهر أن «روسيا هي أمريكا في باكورة ماضيها وأيضا بشكل ما، أميركا المستقبل». ارتكز عرضه على مقارنة بين البلدين على ضوء مساحتهما وحجمهما وميراثهما الثوري، وعلاقة كل منهما بمواطنيها الأصليين - هنود أميركا من جانب، والمسلمون والتتار في روسيا من جانب آخر. ثم وصل ليف إلى النقطة السياسية الحقيقية في عمله، حيث طرح مسألة حقيقية في الحكايات التاريخية التي من الصعب أن تحدث لأي أحد آخر إن أخذنا في الاعتبار روسيا الستالينية.

خلص ليف إلى اتهام الشرطة السرية السوفياتية من خلال ذكره اتهام إدموند بوركه عضو البرلمان البريطاني في جلسة صاخبة للبرلمان لوارين هاستنجز الحاكم العام البريطاني للهند، كان هاستنجز قد أقيل بتهمة قمع واضطهاد المواطنين الهنود من أبناء الهند، وتعلل في دفاعه بأن أفعاله من الممكن ألا تعد غير قانونية لأنه كان الحاكم العام للهند ويملك سلطة مطلقة بها. ورد إدموند بوركه على ذلك وهو من المحافظين البريطانيين والكارهين لكل ظلم ثوري - وأيضا لكل أنواع الظلم، سواء كان ثوريا أم غير ثوري - أجاب: «سادتي، شركة الهند الشرقية ليس لها سلطة تعسفية لتمنحها له؛ الملك ليس لديه سلطة تعسفية ليهبها له؛ فخامتكم ليست لكم سلطة تعسفية لتوكلوها إليه؛ ولا مجلس العموم؛ ولا كل المؤسسة التشريعية لديها ذلك النوع من السلطة. ليست لدينا سلطة تعسفية لنمنحها، لأن السلطة التعسفية ليست شيئا يملكه أي إنسان ولذلك لا قدرة لأي إنسان على منحها. . . أولئك الذين يمنحون وأولئك الذين يتلقون ذلك النوع من السلطة التعسفية والتسلط، المانح والمتلقي، كلاهما مجرم على حد سواء».

ولسوء الحظ، لم تكن توجد كثير من الأندية السياسية ولا جمعيات سياسية لأتباع إدموند بوركه في برلين في عام ١٩٣٢.

كان الأكثر انتشارا وشيوعا بين الفكر «المحافظ» في أواخر عصر جمهورية فايمار الألمانية الأفكار التي كان يعتنقها محررو صحيفة «الشرق الأوسط» الذين أخذوا على عاتقهم القيام بدور قوي ونشط في كشف وتعرية «كل عجائب وغرائب المارق والمنشق اليهودي المدعو ليو (لوب) نوسيمباوم». كان من يقفون خلف تلك الصحيفة النصف شهرية ينتمون إلى زمرة متميزة عالية النفوذ والثقافة الفكرية يطلقون على أنفسهم «الموللريّين». وكما أعلنوا في العدد الأول من صحيفة

«الشرق الأوسط» في عام ١٩٢٨، كان هدفهم المحدد هو «استكمال العمل الذي بدأه «أرثر موللر فان دن بروك». . . خاصة فيما يتعلق بالشرق».

كان موللر فان دن بروك - وهو فيلسوف بروسي ومترجم أعمال دستويفسكي وانتحر عام ١٩٢٥ - مهووسا بالانتصار الذي يتوقعه «للشرق»، من البلشفية إلى الإسلام عبر إفلاس ثقافات الغرب. كان يطلق على الغرب في ألمانيا «أرض المغيب»، وظن موللر - مثل صديقه أوزفالد سبنغلر، مؤلف «انحدار الغرب» - أن شمس الحضارة تغرب عن الغرب. كان الشروق الحضاري كما يعتقد ينتقل إلى الشرق، بغض النظر عن كيفية تعريف ذلك. اعتقد موللر أن النوع الصحيح من الجماعية، والواضح جدا أنه «طبيعي» بين الروس، يقدم جرعة مضادة لعدم الاستقرار الاجتماعي الناتج عن انعدام المقاييس، والقيم والأنانية السائدة بين المجتمعات الغربية.

آمن الموللريون أن المنطقة «الألمانية - الروسية» من العالم ملقى على عاتقها خوض معركة كونية ضد القوى الليبرالية البرجوازية الغربية بمعاونة كل قوى الشرق المختلفة. رأوا أن الأمم، إما أمم فتية أو أمم هرمة. كانوا يعدون ألمانيا «أمة فتية» لأنها كانت في حقبة تمددها، مدعومة بـ«أفكار الزعيم» (فورركدانكن) ومعتمدة بالأكثر على المشاعر أكثر من اعتمادها على الأسباب. ورأوا أن روسيا أيضا كانت في مرحلة مماثلة، وأن الثورة البلشفية ليست إلا تعبيرا عن ذلك وتأكيدا له. كلا من ألمانيا وروسيا كانتا أمتين تبحثان وتجربان، متوجستين ومهمومتين بأصليهما العميق في الصراع الوحشي؛ ولذلك، كان الاتحاد السوفياتي يعد طبقا لذلك عدوا زائفا. الأعداء الحقيقيون موجودون بالغرب: كان الأعداء زمرة الدول المنتصرة في الحرب

والذين أملوا شروطهم في مؤتمر فيرساي. غير أن الولايات المتحدة رغم ذلك سوف يتم الترحيب بها في ذلك التحالف «المشرقي» القادم لأنها تتمتع بروح فتية، وثقافة فلاحية زراعية، وحيوية «داخلية متوحشة». كان التوقع الأكثر احتمالا أن تحتجب أفكار موللر، في أوقات صعبة وغامضة بلا ثمار، خلف أعمال صديقه المعروف أكثر لوسائل الإعلام والأكثر تطويرا لأفكاره أوزفالد سبنغلر[1].

ولكن من حسن حظ الموللريين، أن بطلهم كان قد كتب عملا أخيرا قبل أن ينتحر، وكان قد أسماه بعد تفكير مضني اسما سيدوي في العالم بعد ذلك أكثر من أي اسم آخر. كان موللر سيضع لذلك العمل الأخير الصغير الحجم اسم «القوة الثالثة»، ولكنه في اللحظة الأخيرة غير رأيه وأسماه «الرايش الثالث».

(١) في الحقيقة، كان موللر قد أعان سبنغلر على فهم «انحدار الغرب» بطريقة أفضل قبل ذلك في عام ١٩١٩. أصاب الذعر سبنغلر حين تزامن نشر كتابه مع هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى؛ على الرغم من أن المرء قد يعتقد أن فيلسوف الانحدار واليأس سوف يشعر أن أفكاره مبررة مع تلك الهزيمة، فالانحدار الذي كان يفكر فيه من المفترض أنه كان سيترتب على انتصار ألمانيا في الحرب - وما يترتب عليه من تحلل النسيج المقاتل، الذي ترهل وأصيب بالرضى عن النفس- لا من شيء مباشر كهزيمة عسكرية قاسية! ومثل كل الألمان، لم يضع سبنغلر حتى في الاعتبار مثل ذلك الاحتمال. ومن الواضح أن موللر في مرحلة «مد» فكري قد أقنع سبنغلر بأنه بخسارة الحرب، كسبت ألمانيا، فبمواجهة الانحدار أولا، يمكن لألمانيا أن تحتضن هزيمتها وأن تكون «غرباً بديلاً» مع «الأمم الفتية» في المشرق - من أجل توجيه رصاصة الرحمة لغروب الغرب، حتى يمكن للثورة الحقيقية - لا الثورة البرجوازية الماركسية - أن تنجح في نهاية الأمر... ومهما اعتقد المرء في ذلك المنطق، إلا أنه يبدو أنه قد أعاد لسبنغلر معنوياته وعززها. وأصبح الاثنان بسرعة صديقين حميمين.

بالنسبة للمولريين، لم يكن لدى ليف أي توحش داخلي يستحق أن يظهره. تظاهر بأنه مقاتل مسلم - واحد من حلفائهم الشرقيين المحتملين - حين لم يكن يعدو كونه أحد مثقفي المقاهي. لم يكن المولريون عنصريين بشكل متشدد، غير أنهم كان لهم مأخذان كبيران على اليهود: فقد كان اليهود شعبا «عتيقا» جدا، كما كانوا شعوباً من «التجار». بالنسبة للمولريين، كان العالم مؤلفا من نوعين رئيسيين من الأمم: أمم من التجار وأمم من الأبطال. المواطن في الأمم التجارية - يهودي أو انجليزي - لا يمكن له أبدا أن يكون بطلا. كان الأمر لديهم بمثل هذه البساطة. لذلك كان تقمص ليف لدور البطل يعد غريبا من وجهة نظرهم ومن «المفارقات المضحكة»..

وباعتبار أن المولريين كانوا بالفعل ألماناً محافظين معتدلين في ذلك الوقت، فإن المناخ السائد بين من كانوا سيعدون محافظين من أتباع بوركه والمتسمون بخلفية يهودية معلنة ومعروفة، كان من الصعب الصفح عنها في برلين جمهورية فايمار. لم يكن ليف محافظا فقط، فقد كان ملكيا أيضا كما أعلن ذلك بوضوح في مقال له بمجلة «الأدب العالمي» عام ١٩٣١. تساءل في ذلك المقال: «إذن لماذا بقيت حتى اليوم ملكيا على الرغم من أني عشت في جمهورية لسنين، ولماذا تزداد ميولي الملكية يوما بعد آخر؟» (كان عنوان المقال «موجز معاصر» كما لو كان يؤكد بشكل ما أن وجهات نظره ممثلة للعصر). كانت إجابته على التساؤل بسيطة بل تبدو معقولة: «العالم الحالي المعاصر يواجه خطرين كبيرين: البلشفية والقومية اللتين تجتاحان كل الدول، ولا أعرف إلا وسيلة واحدة لدرء تلك المخاطر وتحاشيها: أي الملكية». وأضاف لذلك، أنها يجب أن تكون «ملكية حقيقية فعلية مطلقة، لا ملكية دستورية محدودة بالقومية من نوع ملكية فيلهلم».

النقطة الأخيرة من الممكن أن تكون من مبادئ موللر الخالصة، الذي اعتقد أن أحد المفاهيم التي يمكن أن يردها الشرق للغرب مفهوم الحكم الفردي المطلق، البسيط، النقي، المضحي بذاته.

قادت سياسات ليف الانتقائية إلى دخوله في جماعات أشد غرابة على هوامش مجتمع جمهورية فايمار الألمانية. مثل ذلك الحزب الذي كان يسمى «الحزب الملكي الاجتماعي» - والذي كان يمضي ضد روح العصر ويخوض أنواعا مختلفة من الصراعات: كان ذلك الحزب مواليا للسامية ويطالب بعودة القيصر وينادي أيضا بتكوين نوع من «دولة العمال». كانت الفكرة العمل على إعادة القيصر بدعم من الطبقة العاملة (البروليتاريا)، وسوف ينهي هذا الحل مهزلة الصراع بين المتطرفين من اليسار واليمين ويشير بإصبع الاتهام للديمقراطية البرلمانية التي جلبت لألمانيا. هاجم الملكيون الاشتراكيون كل ما كان يمثله الحزب النازي، ولم يجدوا أي حلفاء لهم في أي مكان آخر، لذلك كان محكوما عليهم بالفشل من البداية. ولم يعنهم حتى أن قادتهم كانوا خليطا غامضا من الليبراليين ولكنهم أيضا خليط من النبلاء المفلسين مع «بروليتاريين مبدعين».

التحاق ليف بمثل تلك الجماعات وعمله معهم يثير شيئا من الارتباك عن ذلك العصر. كان كثير من الناس في عقد العشرينيات ينظرون لماضي النظم الملكية ولا يستطيعون سبر غور أو إدراك أن كل تلك النظم قد انقضت وذهبت دون رجعة. لم يكن ذلك تاريخا عتيقا أو قديما - بل كانت الحياة هكذا وكما كانت عليه من قديم الأزل وعبر التاريخ كله، العودة إلى شارلمان، وصلاح الدين، أو الملك داوود، ثم صعودا في التاريخ ومع الزمن حتى عام واحد مضى، أو العام الذي سبقه. كان ذلك هو العالم الذي حمله ليف على كتفيه.

وقد حل محل ذلك العالم - ماذا؟ شياطين ومهاويس من كل الجوانب، وتعطش للدماء، منطلقين كليا من أي قيود أو تقاليد ورثوها عن الآباء والأجداد عن السياسة والمجتمع والتهذيب واللياقة والأخلاق. كل الجماعات التي حاول ليف الانضمام إليها في تلك الأعوام كانت تشترك جميعا في فكرة عامة واحدة وهي أن السبيل الوحيد لتجنب البلشفية أو الفاشية ينحصر في إحياء النظم الملكية بدعم «شعبي» مهما كان اسم أو تعريف ذلك النظام. كان تخيل ذلك النوع من سياسات «الوادي السعيد» التي . مجرد ضرب من الخيال في تحقيق شيء منقول عن رواية روبن هود أو روايات الملك آرثر: أي خلق عالم تستقيم وتنصلح أحواله بإعادة وضع ملك «صالح» على العرش، وشعبه راض عنه كما في العصور الخوالي. غير أن حالة ليف العقلية والفكرية كانت تحتوي على شيء وجانب مشترك أيضا مع مذهب التحررية الحديثة وتشككها في السلطة المركزية (ومع تحقيق مزيد من العدالة). وكما علق على ذلك: «كلما قلت محاولات السلطة لجعلي سعيدا، كلما شعرت أني أفضل حالا».

كان تنامي اهتمامه بالملكية يعكس ازدياد شعبية الملكية بين أبناء المهاجرين واللاجئين في عقدي العشرينيات والثلاثينيات. في زمن ثورة فبراير في عام ١٩١٧، كان كثير من النبلاء يتوقون لإعادة ابتداع أنفسهم كديمقراطيين، يؤيدون أليكسندر كيرينسكي أكثر من تأييدهم لولي العهد لفوف، ويؤمنون بنوع من الحكومة المتجمهرة (من الجمهورية) لروسيا. ولكن بعد كارثة أكتوبر واستيلاء البلاشفة على السلطة، وما تلى ذلك من رعب وويلات من حكم البلاشفة، أصبح اللاجئون من كل الشرائح الاجتماعية يحنون ويتلهفون على نظام قيصري من جديد. ومن الصعب حتى تفتيش السطح الظاهر للجموع

المنتمية لأحزاب هامشية التي تكونت بين اللاجئين والفارين الروس لمحاولة التعامل مع «الأوضاع الجديدة».

ومع تجاهله لكل تقلبات واضطرامات كل من الجماعات المعادية للشيوعية من التطرف الليبرالي إلى التطرف الرجعي، انضم ليف لفترة لواحدة من أكثر الجماعات السياسية المثيرة للخروج من مرحلة اللاجئين، وهي حركة «الشباب الروس» كانت جمعية مهاجرين ولاجئين تدار من باريس تحت زعامة أليكسندر كاظم - بيك شديد الجاذبية والتأثير، وهي الحركة التي طرحت برنامجا يشتمل على تحقيق مصالحة بين البلشفية والقيصرية، وكان متحالفا مع الأوراسيين (الأوربيون الآسيويون)، الذين كانوا يتعللون بأنهم هم وحدهم من يفهمون القوانين الفريدة لطبيعة الأصول الحقيقية والأصلية الروسية التاريخية - وهو التراث المغولي. رفض الأوراسيون التمييز على أساس يميني ويساري كمفاهيم أوربية لا يمكن أن تنطبق على روسيا وأن يروا المادية في جميع أشكالها - سواء رأسمالية أو ماركسية - ويرون ذلك على أنه تدخل غربي. وهكذا، فإن انتصار الشيوعية في روسيا لم يكن انتصار «البلشفية الآسيوية»- كما رآها مهاجرو بلطيق روسيا الموالون للنازية - ولكنها كانت في الحقيقة المرحلة النهائية من «أربنة» (نسبة لأوروبا) روسيا. في كتاب صدر عام ١٩٢٨ باسم «حزب جديد في روسيا» كتبه ب. ماليفسكي ماليفيتش وهو الكتاب الأول والوحيد عن الأوراسية مكتوب بالإنجليزية، يشير إلى أن الحكم المغولي هو الذي أدى بروسيا إلى الاتصال بالشرق وأن الإسلام «علّمنا فن الحكومة، ومن فن الحكومة خلقت أمة من كثير من الولايات والإمارات المحلية التي كانت ضئيلة وضعيفة ومتفرقة؛ علمنا التسامح وتقدير واحترام الحضارات والمذاهب والمعتقدات

الأخرى». كل الجاذبية والميل لتلك الحركة تركز على شباب المهاجرين واللاجئين الروس، الذين أحسوا بأنهم تحرروا من وهم سياسات آبائهم التي كانت تنظر للماضي على الدوام.

غير أنه لم يكن كل شباب المثقفين من المتحولين والمرتدين. كان فلاديمير نابوكوف الإبن يكتب بانتظام في صحيفة «الزمان» الباريسية - وكان يكتب باسم مستعار هو سيرين - وتبنى رؤية أن الأوراسية ليست إلا نسخة القرن العشرين من السلافية، ولكن بشكل معكوس. فلطالما أرادت السلافية العرقية فصل روسيا عن أوروبا، أصبح الأوراسيون وأتباعهم الآن يريدون تحقيق الهدف ذاته، ولكن بالانشقاق والانفصال عن جذورهم التتارية أو المنغولية. وتلاشت الأوراسية واضمحلت بالفعل في عقد الثلاثينيات، ولم تترك خلفها إلا خيطا مثيرا من الدراسات والبيانات، ولكن ظلت وجهة النظر تلك ذات تأثير عاطفي على شباب المهاجرين، كما كان لها نفس الأثر على ليف.

عمود آخر من الأعمدة التي قامت عليها حركة شباب المهاجرين واللاجئين الروس أثبت هو الآخر ديمومته وطول أمده. فقد طالب الشباب الروس بـ«إنسان جديد مخلوق من مكننة الحياة... رجل بشكل وطراز جديد ووعي جديد... إنسان رومانسي جديد. رجل جديد يكون الحد الأقصى من كل شيء». أطلق قائدهم أليكسندر كاظم - بيك على نفسه اسم جلافا، وهي كلمة تعني «القائد»، وبحلول نهاية عقد الثلاثينيات سينظم شباب اللاجئين الروس مسيرات في كل من باريس وبراغ، حيث كانوا يرتدون زيا موحدا من قمصان الخاكي الأزرق ويستمعون وهم مأخوذون ومفتونون لخطابات جلافا التي كانت تستمر لثلاث ساعات، ويقاطعون الخطاب في مواضع منه مادين أذرعهم للأمام وهم يهتفون بحماس «جلافا! جلافا!». كان كاظم -

بيك يميل على الدوام إلى ترديد أن الليبرالية تمثل «زحار تشريعي» أو دوسنتاريا تشريعية التي لا تفضي إلا إلى إضعاف البدن السياسي وتتركه مفتوحا للمتطرفين: الديمقراطية الدستورية قادت أنصار اليسار في روسيا، وهي تقوم بالفعل ذاته مع أنصار اليمين في ألمانيا. أراد كاظم - بيك أن يوجد موقف وسطي متطرف جديد، يصالح ويوفق فيما يبدو بين أعداء وخصوم لا سبيل للتوفيق بينهم: كان يخطط لإعادة وريث آل رومانوف الدوق الأعظم سيريل لعرش روسيا، مع الاحتفاظ بالعديد من المؤسسات السوفياتية الشيوعية. وألقى الدوق سيريل بكل دعمه خلف الشباب الروس لفترة طويلة، لذلك كان هناك خلال عقد الثلاثينيات تلك المشاهد الغريبة للمطالب الرئيسي بعرش روسيا والمطالب بنظام ملكي مطلق في روسيا - ذلك الرجل الذي مول هتلر في أعوام صعوده المبكرة - يدعم أفكار العودة لنظام قيصري معتدل خير يحفظ كامل حقوق الفلاحين مع ترك أغلب الأجهزة والمؤسسات السوفياتية الجماعية الاشتراكية على حالها واستمرارها في العمل. وبالطبع، كان من السهل تصنيف وإطلاق وتصدير مثل تلك الأفكار المزخرفة من منتجعات مدن مثل كان وبياريتز.

تلقى ليف في عام ١٩٢٩ قلادة من الدوق الأعظم سيريل - وكان ذلك من المهام التي تشغل المطالب بالعرش، توزيع القلادات والميداليات توددا وكسبا للقلوب - وسوف يعتز ليف بتلك القلادة ويظل يأتي على ذكرها حتى يوم مماته بكل اعتزاز وفخر. أصبحت تلك القلادة من مقتضيات لباسه اليومي في مقاهي فيينا والتي كان يثبتها بكل فخر على لباسه القوقازي. بالنسبة لليف، كان العاهل الملكي «لا ينتمي لطبقة فهو منزه عن كل الطبقات، وهو على وجه التقريب على قمة الهرم البشري والاجتماعي ويتجاوزهم سموا»، غير

أنه لم يتفق مع الأفكار الفاشية التي كان يؤمن بها تنظيم شباب الروس. لم يكن معجبا ولا مهتما بـ«جلافا»، ولا بالفوهرر، ولا بالقيادات السياسية، مفسرا ذلك بأن «الديكتاتورية تظهر كل عيوب ونقائص الملكية وليس بها في ذات الوقت أية ميزة من مميزات الملكية».

لم يكن ليف في أي وقت من الشباب الروس، على الرغم من حضوره اجتماعاتهم. المشكلة الكبرى التي كانت لديه مع جماعة الشباب كانت ببساطة تتعلق بالجانب المتعلق بكلمة «شباب». كان لديه بعض الأصدقاء الكبار الذين لديهم وعي وحذر الأطفال من أطفال آخرين. وبالفعل، كان مقاله الذي يمتدح فيه القيصرية المطلقة يبدأ بحديث قصير حول «لماذا أحب كبار السن، وأمقت الشباب»؛ فالكبار «أهدأ، وأمهر، وأكثر تواضعا عن الشباب»، وحين يدير الشباب ظهورهم للكبار، كما يفعلون عادة بكل يقين، فإنهم بكل يقين أيضا «يسقطون في حمأة البربرية». غير أن الهوة التي فصلت ليف عن جماعة الشباب الروس كانت تدور حول توجهات كاظم - بيك وابتداعاته السياسية - فكرة أن البلشفية تحتوي على بعض الجوانب الإيجابية (المحدودة) وأن ستالين قد يكون لديه بعض الجوانب الإيجابية أيضا. كانت محاولات إيجاد أي شيء جيد في روسيا السوفياتية أكبر من قدرة ليف على احتمالها.

كانت الرغبة في إيجاد وسائل للتقارب مع الشيوعية - ومع الستالينية على وجه التحديد - تقابل باستهجان من اليمين الألماني في ذلك الوقت. ومن فترة طويلة قبل تحالف هتلر - ستالين الذي سيحدد مصير بولندا ويترتب عليه بداية الحرب العالمية الثانية، كان زواج

المنفعة بين النازية والشيوعية قد حدد مصير ألمانيا. كان التحالف غير المقدس بين أقصى اليسار وأقصى اليمين قد بدأ قبل ذلك بكثير، حتى مع تأسيس الحزب النازي وجناحه القومي البلشفي، وكان واحدا من أكثر الملامح إرباكا وتشويشا قرب نهاية عصر جمهورية فايمار الألمانية. ملامح كان ليف ودوائر أصدقائه يراقبونها وهي تتضخم وتنمو من حولهم في جوانب كثيرة. ويتذكر أليكس بريلو كيف كان ذلك التحالف مربكا، وكتب عن أحد المثقفين من أصدقائه: «مع كل ذكائه، لم يتمكن من الرؤية بوضوح من خلال ذلك الخداع واعتمد على الشيوعية لمقاومة هتلر، وبالقوة لو تطلب الأمر. ولم يلق تحديدي له أن الشيوعيين يقومون بشكل فعلي بدعم هتلر ليصل إلى السلطة أي تصديق منه كما لم يكن لذلك أي صدى عنده؛ ظل مؤمنا أن الشيوعيين كانوا يغرون النازيين ويدفعون بهم إلى السلطة حتى يمكنهم القضاء عليهم بعد ذلك هم وكل خصوم الشيوعية بضربة واحدة».

ومع انحدار وتدهور كباريهات برلين السياسية، لم يعد موجودا من أشكال النقد السياسي الفني المسرحي في الثلاثينيات إلا الاستعراضات الفنية السياسية الشيوعية التحريضية والتي كانت منتشرة في كل مكان. انتشرت وشاعت فرق مسرحية ساخرة مثل فرقة «العربدة الحمراء» (Red Revel Revue)، وفرقة «الصواريخ الحمراء» (Red Rockets)، وفرقة «مكبرات الصوت الحمراء» (Red Megaphone) وقدمت برامج رقص بارعة كجانب من الحملات الدعائية للشيوعية. في عام ١٩٢٨ على سبيل المثال، قدمت فرقة بنات لوكارنو- وهي فرقة بنات شيوعيات يقدمن العرض بأقل قدر من الملابس ويشير اسم فرقتهن إلى اتفاقية سلام عصبة الأمم التي عقدت

في عام ١٩٢٥ في مدينة لوكارنو، والتي اعتبرت معادية للاتحاد السوفياتي - وكن يرقصن على موسيقى أغاني سياسية مثل «ارفعوا ايديكم عن الصين»، ويرقصن على إيقاع شعارات مرفوعة من راقصين ذكور في خلفية المسرح يرتدون ملابس تدل على أنهم جنرالات امبرياليين ورؤساء وزارات.

كانت هناك رقصات أخرى أقل طرافة، فعلى سبيل المثال، قدمت رقصة تمثيلية عن ضرب الشرطة، وشخصيات حكومية ليبرالية، وشخصيات نازية بالمطرقة والمنجل (الشعار السوفياتي الشيوعي). وفي نوفمبر ١٩٣٠ قدمت فرقة المشاعل الحمراء عرضا يحدد فيه المشاهدون كيفية معاقبة من يمثلون دور البرجوازية الرأسمالية على المسرح - رجل شرطة، ورجل أعمال، ورجل دين، وقاض، وسياسي اشتراكي ديمقراطي - وكانت العقوبات تنفذ بحماس على المسرح. حضر صحافي عرض فرقة الرواد الحمر الراقص في مارس ١٩٣١، ونشر ما سجله عن وصفه للعرض: «يهاجم الرواد الحمر رجال الشرطة المسلحين، ويوسعونهم ضربا ويلقون بهم أرضا، ويضربونهم بالأقدام وهم يضحكون ساخرين فيما يقوم المشاهدون بالتصفيق الحار بحماس شديد». لم تكن تلك الهجمات موجهة بصفة أساسية للنازي بل للمؤسسات البرجوازية الديمقراطية). ومن السخرية، أن كل تسجيلات تلك الدعاية الشيوعية الفنية لم تبق إلا لأنها كانت تمثل أدلة اتهام لدى أجهزة الشرطة ونتيجة أعمال الرقابة في أواخر عقد العشرينيات).

غير أن الحزب الشيوعي الألماني، الذي كان يقدم تلك العروض، استمر في تقديم رؤيته بأن «معركة عار مخزية حدثت ووقعت بين النازية والاشتراكيين الديمقراطيين» في حين كانا في واقع

الأمر حزباً واحداً - معبراً عن البرجوازية الرأسمالية. لو كان هناك عيب أو نقيصة لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي، فهو أنه كان بالفعل أكثر مراوغة وخداعا، وكان الشيوعيون يسخرون منه ويصفون أعضاءه بـ«الاشتراكيين الفاشيين». فعلى أقل تقدير كان النازيون يظهرون نواياهم. بعض أعمال الدعاية الفنية الشيوعية صورت بالفعل أن هتلر يسمح بدخول رأسماليين يهود إلى دائرته اللصيقة به، ثم تصوره وهو يلوم قوات العاصفة الموالية له لمحاولتهم إقصاء أولئك الرأسماليين اليهود وهو يقول لهم معنفا: «يا الله، ليس عليكم أن تنفذوا حرفيا ما تسمعونه مني!».

لم يكن الشيوعيون وحدهم هم من يكتبون عن النازية خلال الأعوام الأخيرة من جمهورية فايمار الألمانية. كثيرون غيرهم تناولوا النازية كموضوع فكاهي يبعث على السخرية. كان هتلر، بصفته نمساوي الأصل، لا يجرؤ على الاقتراب من الرايشتاغ (البرلمان الألماني)؛ كان من النادر أن تطأ قدمه المبنى حتى وصوله إلى قمة السلطة عام ١٩٣٣ (ثم أحترق المبنى في شهر مارس). أغلب الصحافة الأمريكية نبذت هتلر وتجاهلته كعازف جاز تافه. كانوا يرونه: «مسيح العبثية اللامعقولة وسخافة الأفكار»؛ أو «راسبوتين آخر ألماني»؛ أو «نبي مجنون». كانت الصحافة الأمريكية تتهمه بأنه خليط من البلشفية والملكية معا، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن أياً منهما. قليلون من اهتموا بقراءة كتابه «كفاحي» أو من ظنوا أنه يمتلك قدرات كقدرات موسوليني. واحد من القليلين الذين اعتقدوا أن لديه قدرات كان على وجه التحديد يدعى جورج سيلفستر فيريك، وهو من كبار كتاب الأعمدة في الصحافة الأمريكية وأجرى مقابلة مع هتلر عام ١٩٢٣، قبل أي مراسل صحفي آخر في العالم على وجه التقريب

وعرض بعد المقابلة عرضا للنازية الوليدة ببصيرة نفاذة وفريدة وكأنه يعلم الغيب. ونقل فيريك عن هتلر قوله: «سأنزع الاشتراكية عن الاشتراكيين»؛ وتجادل فيريك مع من سيصبح «الفوهرر» في مستقبل ألمانيا السياسي حول إنجازات اليهود وما قدموه للثقافة الألمانية (كان فيريك يدافع عن الإنجازات اليهودية)، ولاحظ الشدة والحدة التي رفض بها هتلر أن تلتقط له صور لتنشر مرافقة للحوار، وبقي يخمن إن كان دافع ذلك الرفض هو الحذر أو بسبب معتقد خرافي أم أنه حتى جانب من «استراتيجية تبقي شكله معروفا فقط لأصدقائه، حتى يمكنه التحرك في أوقات الأزمات والخطر بحرية دون أن يتعرف عليه أحد».
لم يكن هتلر مهتما بالجمهور الأميركي حتى أن فيريك لم يتمكن من نشر المقابلة في مجلة قومية أو صحيفة، على الرغم من أن كل مقابلاته التي أجراها مع زعماء عالم أصبحوا منسيين الآن كانت توزع على مدى واسع النطاق لوكالات الأخبار في ذلك الوقت. وشمل تقرير مقابلته لهتلر: «لو عاش هذا الرجل، هتلر، فسوف يصنع بكل يقين تاريخا، تاريخ أفضل أو أسوأ».

كثير من الناس وافق دورثي طومسون، التي توجهت إلى برلين عام ١٩٣٢ لحساب مجلة كوزموبوليان - في ذلك الوقت الذي كانت تنشر فيه لإرنست هيمنغواي وسنكلير لويس الذي كان زوجا لدورثي طومسون، كان لها مقابلة خاصة مع هتلر، أعدها سلفا إرنست «بوتسي» هانفشتنغل، خريج جامعة هارفارد وسكرتير هتلر للإعلام.
استنتاجات طومسون بعد المقابلة - التي كانت على عكس استنتاجات فيريك، نشرت في مجلة يقرأها ما يزيد على مليون قارئ - وأساءت بشدة الحكم على هتلر، قالت: «وحين خطوت أخيرا إلى قاعة استقبال أدولف هتلر في فندق كيسرهوف وجدت أنه رجل غير

منطقي، فصيح وذرب اللسان ولكنه مراوغ ويلتف حول الأمور، غير متوازن، غير واثق. هو نموذج بدائي لرجل أقل من عادي. . .، كنت مقتنعة أنني سألتقي بالديكتاتور القادم لألمانيا. وفي أقل من خمسين ثانية من لقائي معه، أصبحت متأكدة أنه لن يكون كذلك».

كانت النازية حركة شبابية، وبحلول منتصف عقد العشرينيات، لم يكن أولئك الشباب يقرأون كتبا مثل «الجبل السحري» ولا «برلين أليكسندر بلاتس» التي ترافقت مع فترة جمهورية فايمار الألمانية. فقد كانوا يقرأون كتبا حققت أفضل المبيعات مثل كتب هانز غريم المغرق في العنصرية، ومنها «شعب بلا فضاء»، الذي يحتوي على الأسانيد التي دفعت النازي لاحتلال بولندا وكان أحد كتب هتلر المفضلة. وأصبح كتاب «شعب بلا فضاء» من مناهج المقررات الدراسية في المدارس العليا في برلين من عام ١٩٢٧ وما تلاه من أعوام قبل أن تتحول ألمانيا إلى النازية. كانت الاشتراكية القومية قد انتصرت في المدارس قبل أن تحرز انتصارها الأكبر عبر صناديق الاقتراع: وفي الحقيقة، ربما لم تكن الهيمنة السياسية لتحدث أبدا لو لم يكن قد سمح للنازية أولا أن تكتسب كل أولئك الأنصار والمعجبين في المدارس العليا والجامعات. كان كثير من الطلاب قد أصبحوا شيوعيون في البداية، غير أنه كما كان غوبلز يميل إلى القول على الدوام، لم يكن الإثنان متباعدين في الحقيقة كما يبدو في ظاهر الأمر، لذلك كان يقول بثقة: «إعطني شاباً ألمانياً شيوعياً وسوف أريك فيه نازي المستقبل»، وكان ذلك قوله الأثير. في برلين، بدأ الطلاب اليهود والمغلمون اليهود يعاملون بخشونة، وبدأوا يتجرعون مناهج مفروضة عن «العلوم العرقية» والمورثات الجينية.

بدأ النازيون يحققون نجاحات انتخابية في الرايشتاغ في

الانتخابات التي أجريت في سبتمبر عام ١٩٣٠. ورأت الحكمة التقليدية أن ذلك النجاح تحقق كرد فعل للكساد الاقتصادي العالمي. غير أن النتائج المدمرة للكساد العالمي لم تضرب ألمانيا فعليا إلا بعد انتخابات سبتمبر. وينحي بعض الباحثين الديموغرافيين بكثير من اللوم على إدراج طلاب المدارس العليا في التصويت في عام ١٩٢٩، وكان نوع الدراسة يؤهلهم أن يكونوا نازيين حتى قبل أن يروا القمصان السوداء أو البنية الخاصة بالحركة النازية، بل وحتى قبل حضورهم لأية تنافسات انتخابية سياسية.

وكان بيتر فيريك الابن، من أوائل من اقترحوا «نظرية الطلاب الخطيرة»، وهو ابن جورج سيلفستر فيريك. ذهبت لمقابلته في ساوث هادلي، بولاية ماساتشوستس في بيته الفيكتوري المتسع الأرجاء والمكتظ بأرفف كتب عن ألمانيا، والسياسات النازية، والشعر، والمنزل يشرف من ربوة على جبل جامعة هوليوك والحقول المحيطة بها.

شرح لي فيريك نظريته وهي أن «ذلك الجيل من الشباب صغير السن والذي تعلم على أيدي معلمي مدارس نازيين قد صوتوا في الانتخابات لهتلر». شرح لي بصوت بروفيسور كهل متقاعد في السابعة والثمانين من العمر (وكان الرجل الوحيد الذي فاز بجائزة بوليتزر مرتين، مرة عن الشعر ومرة عن التاريخ): «كل ذلك مسجل في كتابي: «ما وراء السياسات» (ميتابوليتيكس): من الرومانسية حتى هتلر». كان قد نشر ذلك الكتاب في عام ١٩٤١، وأحدث ضجة كبيرة وردود فعل قوية بعد نشره. قال: «لم يكن أحد يتحدث عن فاغنر وهتلر في ذلك الوقت، ليس هنا بالطبع. كانت كل الأحاديث عن موضة الماركسية التي كانت محور أحاديث ذلك الوقت - كان هتلر

ممثلا للقوى البنائية الاقتصادية الكامنة وكل ذلك الهراء. كانت هناك بالطبع قوى اقتصادية تعمل بالفعل، ولكن لا يمكن تفسير الاشتراكية القومية الألمانية عن طريقها. لم تحدث التحولات بقوى السوق. أصبح ذلك الآن مفهوما، ولم يعد أحد يشير إلى كتابي، ولكن حين نشرته أول مرة، تعرض لكثير من النقد والانتقاد».

وبالفعل كانت أغلب الانتقادات تدور حول من هو الكاتب بيتر فيريك هذا، أكثر من انتقاد ما كتبه بذلك الكتاب. كان ابن جورج سيلفستر فيريك، والذي كان متوقعا له في ذلك الوقت أن يكون الصوت الرئيس المؤثر باسم النازية الألمانية في الولايات المتحدة. جئت ألتقي بفيريك بخصوص أبيه، لأن ج. س. - أو سليفستر كما يناديه الجميع - كان صديقا حميما لليف. كان أول ما خطر بذهني في هذا الأمر هو ذكر اسم فيريك الأب في نعي لأسعد بيك نشر على عشرين صفحة في جريدة فاشستية إيطالية، وظهر ذلك النعي في جريدة «الشرق الحديث» في عام ١٩٤٢. ثم لجأت بعد ذلك إلى محلات بيع الكتب القديمة واشتريت نسخا من كتب فيريك الأب التي أصبحت منسية. اكتشفت أنه كان ذات يوم من أهم كتاب القصائد الغنائية المحبوبين في أميركا، وصديقاً روحياً لكل من أوسكار وايلد والقيصر فيلهلم الثاني (إرجع إلى قصيدته التي كتبها عام ١٩١٥ بعنوان «غرام في زبلن»)، كما كان واحداً من رواد الكتاب الأميركيين الذين كتبوا عن الثقافة اليهودية، وكتب روايات حققت أفضل المبيعات مثل «أول ألفي عام من عمري: قصة حياة اليهودي التائه» (وكتبه بالمشاركة مع صديقه اليهودي وشريكه بول إيلدردج). غير أنه كان متعصبا لألمانيا وحب ألمانيا. مع صعود هتلر، لم يتمكن فيريك من مقاومة سحر النازية وجاذبيتها، حتى أن كل أصدقائه اليهود بمن فيهم إيلدردج

أدانوه جميعا. كان فيريك يحظى بدعم من الليبراليين الدوليين ومنهم جورج برنارد شو، كما وجد له حلفاء أقوياء في الكونجرس الأميركي حتى عام ١٩٤٢، حين اتهم بأنه عميل للنازية، وأدين، ونقل إلى السجن. ويبدو أنه كان قد التقى بليف في واحدة من رحلاته العديدة إلى برلين.

في آخر كتاب فيريك الذي كتبه عام ١٩٣٧، «محاكمة القيصر»، رأيت اعترافا بالفضل يقول فيه: «الشكر لأسعد بيك».

قال لي بيتر فيريك بصوت منتعش وبلكنة جميلة ترجع لبدايات القرن العشرين لم تعد موجودة وهي خليط من لهجة بروكلين وجامعة هارفارد: «بكل تأكيد عرف أبي أسعد بيك، وكان معجبا به ككاتب. أنا أعرف أنهما كانا صديقين حميمين، ولكن ربما لن تحصل على الكثير مني عن ذلك الأمر»، ثم قال فيريك وكأنه يطلعني على سر: «أنت تعرف أنني لم أكن على وفاق مع أبي حول ذلك الأمر. لم أكن ألتقي به في ذلك الوقت إلا للضرورة».

اتصل بي فيريك بعد فترة قصيرة من اتصالي الأول به ووشى صوته بحماس متقد، قال: «أعرف أن هذا يبدو غريبا، ولكن الذاكرة تلعب حيلا غريبة معي وأنا في هذه السن. الآن فقط تذكرت أني قرأت لأسعد بيك قبل حتى أن يذكر أبي اسمه أمامي. أليس هو من كتب كتاب اسمه «أسرار القوقاز»؟ حسن، كان ذلك الكتاب من أوائل الكتب التي كتبت عنها عرضا. كتبت عرضا لذلك الكتاب لصحيفة في مدرسة هوراسمان في عام ١٩٣١ - أعجبني ذلك الكتاب على ما أتذكر»، سادت برهة من الصمت، ثم أردف بصوت أجش: «هذا كل ما أستطيع تذكره اليوم». قمت ببعض البحث في عروض ونقد بيتر

فيريك للكتب، واكتشفت أنها لم تكن بالقليلة. فمقاله الذي كتبه عام ١٩٨٥ عن إيزرا باوند في باب عروض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز ربما يعد من أفضل المقالات التي نشرتها الصحيفة في تاريخها. كان المقال عن فاشستية باوند وكيف أثرت على شعره، وهو جانب يجعل من بيتر فيريك، ابن اكبر شاعر غنائي أمريكي يدعو للنازية - الفرويدية، أفضل من يستطيع أن يحكم على إزرا باوند في هذا الاتجاه.

بدت نظرات فيريك في برودة الزجاج حين التقيت به وقال لي إن زيارتي له تجعله لا يشعر بالارتياح لأن ذلك يجعله يعود بذاكرته لأحداث عن حياته أثناء الحرب العالمية الثانية حين كان يتمركز مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركي (O.S.S.)[١] في إيطاليا وكان عليه أن يذهب لأداء مهمة بسيطة غريبة وهي نقل رسائل بين الفيلسوف جورج سانتايانا والناقد الفني برنارد بيرينسون. لم يكن من الواضح إن كان قد أحب بيرينسون أكثر أم سانتيانا أو لماذا فكر في الأصل في عقد مقارنة بينهما. قال: «كان أبي معجبا على الدوام بأسعد بيك، قال لي إنه من أفضل الكتاب الذين عرفهم»، سكت برهة وأردف: «أنت شاب صغير السن، تموج بقوة الشباب والحيوية والطاقة، تواجه عجوزا متعبا ومنهكا، الأسد الذي أصبح بالكاد يقف بصعوبة على ساقيه وتخلعت أنيابه كما تعرف، ويدور في ذهنك تساؤل، حسن، أتخيل أنك تفكر فيما كنت أفكر فيه حين ذهبت لمقابلة بيرينسون».

---

(١) مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركي (O.S.S.) أنشئ أثناء الحرب العالمية الثانية كإدارة للمخابرات العسكرية، وتولى أيضا شؤون الدعاية، والتخريب خلف خطوط العدو، والتخطيط لما بعد الحرب. تطور بعد الحرب ليصبح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (المترجم).

واستمر متذكرا ملاحظة معادية للسامية كان سانتايانا قد قالها له عن بيرينسون من خمسين عاما مضت.

كان بيتر فيريك قد قضى عمره معاديا لمعاداة السامية لأن والده كان قد أدخل ذلك المفهوم لبيتهم. كان والده قد عاد بالفعل من السجن للبيت بعد الحرب، وأحضره بيتر ليعيش معه. قال: «لم نتصالح تماما. كانت أمي قد هجرته أثناء فضيحة محاكمته، وكان شقيقي قد قتل وهو يحارب النازية في آنزيو. أصبح والدي وحيدا تماما، كان الجميع قد كرهوه بعد إدانته، لذلك شعرت بالأسف والحزن على حاله الذي أصبح عليه. قال لي ذات مرة إنني كنت محقا في كل شيء. ولكنني لا أظن أبدا أنه توافق مع وضعه الأخير - ولا أظن أنه ندم أبدا على كونه نازيا. كان يشير إلى ذلك في الحديث باسم «حماقتي». أنت لا تشير للنازية كـ«حماقة»، لن تفعل إن كنت تتفهم النازية، أعتقد أن أبي لم يتفهمها أبدا بالفعل. غير أنه لم يكن أبدا معاديا للسامية، بالطبع كان له كثير من الأصدقاء اليهود، حقا - أينشتاين، وفرويد، حسن. . ، وأسعد بيك بالطبع».

بعد بضعة أسابيع من ذهابي لمقابلة فيريك لأول مرة، اتصل بي هاتفيا ليخبرني أنه قد تذكر شيئا آخر. ففي آخر عقد الخمسينيات، كان صديقا لبروفيسير روسي أبيض يعمل ناقدا أدبيا اسمه ديمتري فون مورنشيلد - وهو في الحقيقة من منطقة البلطيق. كان لهذا الفون مورنشيلد زوجة فائقة الجمال تدعى إيريكا؛ كانت زوجته الثالثة على ما يتذكر فيريك. كان يتوجه أحيانا لتناول العشاء على مائدة آل مورنشيلد، وكانت إيريكا تتحدث أحيانا عن زوجها الأول.

قال فيريك: «تذكرت ذلك بعد أن زرتني أول مرة، هذا ما كنت أعنيه بكوني أسداً مسناً ضعيفاً - أترى! أنا فعلا مثير للشفقة إذ نسيت

أكثر الأشياء وضوحا. كان الزوج الأول للسيدة إيريكا أسعد بيك! كانت تبدو فخورة بذلك وهي تحكي عنه - كانت تشير إليه على الدوام باسم الأمير العربي، وتقول إنه كان لديه خريم وأشياء من هذا القبيل - كانت من ذلك النوع من النساء الذي يفر هاربا وتتباهى بإخبار الناس أن زوجها كان لديه حريم. على أي حال هذا ما أتذكره عنها. أعتقد أنها كانت تكتب الشعر أيضا. كانت زوجة أسعد بيك؛ أليست الذاكرة لعنة؟»

في خريف عام ١٩٣١، حين كان ليف في السادسة والعشرين من عمره، أتت فتاة نحيلة وجذابة قصيرة الشعر للعمل كمتطوعة في مجلة «عالم الأدب». أطلق عليها ليف في مذكراته اسم «مونيكا براند»، وسجل عنها في البداية أنها ذات عيون «داكنة متبسمة» ولها يدان جميلتان مع أظافر قذرة بشكل لافت للنظر. كانت سكرتيرة ماهرة، غير أنه كان هناك أيضا جوانب أخرى تتعلق بها جعلت اهتمام ليف يتركز عليها[1].

كانت لها طريقة مغوية ومغرية بارتداء الملابس الذكورية. غير أنها كانت ترتدي في أغلب الأيام تنورات ضيقة محبوكة على جسدها مع

---

(١) تحتوي اللغة الألمانية على كلمات أقل من الإنجليزية، وكلمة براند كلمة موحية بمعاني عديدة: فهي تعني «نار» و «احتراق»، ولكنها أيضا ذات مضامين أخرى قوية، كما في «الجحيم»؛ ويمكن لها أن تعني عفن أو تغير اللون الذي يصيب طعام وفي اللغة العلمية الألمانية تعني براند تآكل الأنسجة الحية وتلفها والتي تحدث نتيجة لمرض أو بتأثير مواد طبيعية أو كيميائية على الأنسجة الحية. ومن الصعب أن تكون مصادفة أن يقرر ليف أن يسمي زوجته الشابة باسم براند في مذكراته في وقت كان يموت فيه من تلف أنسجة مؤلم بسبب قصور في إمداد الدم للجزء التالف في قدمه والآلام المصاحبة والتي وصفها بالجحيم الذي كان يحرقه وهو حي.

جاكت صغير أسباني الطراز وقبعات صغيرة مائلة على الرأس. وجد ليف أنه من الصعب تجاهل وجودها البدني. كانت تجلس أمامه تكتب على الطابعة ما يمليه عليها وتلعق طوابع البريد بلسانها بطريقة فاتنة. «كان جسدها نحيلا وكانت ساقاها تتقاطعان تحت الطاولة، ساقان مستقيمتان ومستديرتان بجوارب حريرية شفافة». قالت ان اسمها إيريكا لوفندال وأنها شاعرة. كان أبوها من أثرياء رجال الصناعة، كان مليونيرا، مما كان يفسر مجيئها يوميا إلى العمل في سيارة يقودها سائق بزي السائقين.

كانت تختلف عن الفتيات التي تعرف ليف عليهن في مقاهي برلين. كن جذابات، غير أنه يبدو أنهن كن مهتمات بشكل رئيس بقضاء وقت ممتع فقط. وكتب عن ذلك: «بالكاد كنت أميز الوجوه عن بعضها. تسبح الوجوه أمامي معا وتتحول إلى وجه نمطي واحد دقيق ومبتسم بسعادة بعيون رمادية حالمة».

كتب عن الفتيات اللاتي كان يصحبهن لمشاهدة الأفلام السينمائية وإلى المقاهي والمشارب. ويبدو أنه تفاعل معهن بذات الرفض الذي سيطر عليه في تجربته الجنسية الأولى - مما يدل على أن الأشياء التي حدثت في الجزيرة الشمالية الخضراء مع فتيات مبنى سكن الطالبات قد تطورت إلى ماهو أكثر من تبادل القبل. «شعرت أني ملوث ومبصوق علي ولكني بشكل ما في ذات الوقت أشعر بسعادة وتحرر. كنت أهرع للبيت، وأظل أغتسل لساعات». والبنات اللاتي كن يدعونه لبيوتهن بعد منتصف الليل أصبحن مثالا إضافيا على الهوة ما بين الشرق والغرب. «إذن هذا هو الحب الذي يؤثر في حياة الأوربيين بتلك القوة». كتب ما سبق بسخرية - أو بتعجب واندهاش - من موقف ليلة واحدة.

يبدو أن المشاهد والمواقف التي تسبب بها ليف مع البنات رماديات العيون - في البدايات التي حرص فيها على حماية وصون عذريته - بدت، سخيفة جدا حين يفكر المرء في شخصيته العامة ك «رجل من الشرق»، تلتقط صوره الفوتوغرافية وهو بالزي القوقازي والسيف، وعمامة على رأسه وخنجر مستقيم على خاصرته. الخجل والحرج والارتباك - عجز جنسي؟ - ما كان يشعر به كان يتناقض مع الصورة الذهنية الغربية عن فحولة الشيوخ، رمز الفحولة الجنسية في ذلك العصر، رمز الفحولة العملية الحقة. كانت تلك الصورة الذهنية قد تكونت منذ أن كتبت الروائية «إديت م. هولز» رواية بعنوان «الشيخ» تحولت إلى فيلم سينمائي عام ١٩٢١ ومثل الدور رودلف فالنتينو، وقدم الفيلم صورة لرجل شرقي داكن البشرة يكتسح سيدة أوربية بيضاء جنسيا على جواده قبل عقود من إلغاء الجنس في الأفلام. أما في أميركا فقد كانت كلمة «شيخ» تكتسب معنى آخر في معجم ويبستر في عقد العشرينيات: وهو «رجل مغو ومغر» والذي بدا مستغربا بجوار تعريفات تقليدية أخرى مثل «مسؤول رسمي إسلامي»، أو «رب عائلة عربية، في قرية أو قبيلة». كانت الكلمة توحي بصف طويل من الواقيات الذكرية.

غير أن مساعدته الجديدة كانت بسيقان ملتفة مستديرة وعيون سوداء ومتنائية، أقرب كثيرا للبنات اللاتي تركهن خلفه في الوطن المشرقي. كانت جادة، وكانت قد تلقت أيضا مثل ليف تعليما انتقائيا غريبا. هجرت المدرسة في الرابعة عشرة من عمرها كما أخبرته فيما بعد، وأكملت تعليمها في البيت على أيدي معلمين في تخصصات مختلفة، فنالت قدرا قليلا من التعليم من كل مجال - وكان ذلك التعليم باقتراح من أبيها. كانت أكثر ملائمة لأن تكون ابنة مدللة

لبارون نفط في أذربيجان. ولكن ما الذي كانت تفعله في مجلة «الأدب العالمي» ولعق طوابع البريد للصقها على المراسلات؟

كانت هناك لاكتساب خبرات كما قالت إيريكا. ودت من صميم قلبها أن تلتقي بكاتب. كانت تؤمن أنها سوف تكون زوجة ملائمة لكاتب. واكتشف ليف فيما بعد أنها خططت بإصرار للزواج من كاتب منذ أن كانت في الثالثة عشرة من عمرها.

ثم راحا بعد ذلك يخرجان معا، وسرعان ما أصبحت تغادر مقر المجلة بصحبته وتترك السيارة بقائدها الذي كان يقوم بتوصيلها وإعادتها.

في كل دفتر من الدفاتر الستة التي بقيت وتمثل مذكرات فراش الموت لليف، كان هناك عنوان بكلمات مخدوشة بخطه المنمنم الذي لا تخطئه العين «الرجل الذي لم يفهم شيئا عن الحب». وعلى الرغم من المدى المتسع من طفولته في باكو حتى اللحظات الحالية، ومن الظروف والأحوال العجيبة التي وصل فيها إلى إيطاليا عام ١٩٤٢، فإن الخط الرئيس من الحكي يدور حول قصة حبه لإيريكا. هذا الحب سيدفع به إلى الجنون، حرفيا (على الرغم من بقائه لفترة قصيرة في منتجع صحي)، ولم يؤد ذلك الحب إلى تحسن الموقف لأي منهما.

وبشكل ما على الرغم من ذلك تمكنت إيريكا من دفع ليف للتخلص من بعض تردده. فكتاباته عن التدليل والغزل والمداعبات الجنسية المحملة بشحنات جنسية غير موجودة في أي من أعماله إلا في تلك الدفاتر. في تلك المذكرات، يتقمص شخصية البروفيسير الجاد المتعجرف، المنبهر بالفتاة ذات الشعر الداكن، وبالغ كثيرا في انهياره الصحي (مع أنه كان في السادسة والعشرين في ذلك الوقت)، ورغم ذلك كان يصور حالته والدوار الذي يجعله بلا حيلة الذي يشعر به قبل

أي انجذاب جنسي. كان مثل كائن ضعيف محاصر من كائن مفترس أشد منه بأسا، واستسلم ليف. كتب في مذكراته «ضحكت الآن ورأيت أسنانها، حتى أسنانها بدت لطيفة وهينة وتدعوني إليها، كما لو كانت تقول؛ هلم إلي، سأعضك وأفترسك وأمزقك إربا بأسناني».

في بيته في فازاننشتراسه، حيث أصبح في ذلك الوقت هو وأبوه يعيشان معا في شقة مريحة، بسيطة مستأجرة من الباطن، كان له بذلك المسكن غرفة مكتب وبها أريكة واسعة مريحة، كتب عنها «حين كنت أشعر بالإجهاد من الجلوس والكتابة، كنت أستلقي على تلك الأريكة وأقرأ في المعاجم، والقواعد اللغوية، والمجلات المدرسية». وحين عاد للبيت ذات مرة، استلقى ليف على الأريكة وأخبر أباه عن تلك المتطوعة للعمل في المجلة الأدبية، وكيف توافقا معا على أن تقوم بكتابة مقالاته على الطابعة ومعاونته في أعماله، قال «ستأتي يوميا لتكتب ما أمليه عليها»، قال: «نظر أبي إلي، ثم نظر إلى الأريكة، ثم هز رأسه في تؤدة قائلا بكل خبرة العمر: حسن، الأريكة واسعة بما يكفي لشخصين. ولكن انتبه، المرأة الجيدة أكبر كنز ثمين للرجل، أما المرأة السيئة فهي جحيم الرجل».

وتبين أن أباه كان محقا على طول المدى.

وعلى الرغم من أن ليف كان يحب بعد ذلك أن يذكر أنه قد تزوج من أمريكية بروتستانتية، كانت إيريكا في الحقيقة من عائلة يهودية، وكانت قد ولدت في مدينة لايبزج عام ١٩١١. كان أبوها فالتر لوفندال بائع أحذية بالجملة وبنى امبراطورية بيع أحذية في برلين كوكيل لأحذية شركة «باتا» العملاقة التشيكية الشهيرة وأصبح صاحب عمل يحقق ملايين الدولارات معتمدا على مهاراته الشخصية التسويقية العالية واستراتيجياته المبتكرة في خطط البيع: كان «دادائياً» لوفندال

كما اعتاد الجميع أن ينادوه، يعكف على حملات إعلانية لتسويق أحذية باتا في جميع أنحاء ألمانيا، وخصلات قليلة من شعره الأبيض تتطاير حول صلعة تحتل أغلب رأسه، وكان يبدو في صور الإعلانات تعلو وجهه ابتسامة سعادة كبيرة مثل أب الكريسماس. وأصبح رمزاً للحذاء الشعبي في برلين جمهورية فايمار. وبحلول أواخر عقد العشرينيات، كان دادي لوفندال يقوم برحلات للعمل والمتعة بالولايات المتحدة. وتظهر صور تلك الحقبة ملك الأحذية البرليني مرتحلا في أنحاء ولاية نيو مكسيكو وهو يقود سيارة فورد طراز تي وعلى رأسه قبعة هائلة الحجم تتسع لتسعة غالونات، وإلى جواره زوجته مرتدية أحدث صيحات الملابس الغالية.

انتقل دادي بأسرته لى برلين عام ١٩١٢، وتلقت إيريكا تعليما ممتازا، بفضل المعلمين الذين كان أبوها يجلبهم لتعليمها في البيت، ولكنها كانت تشعر بالضجر والملل. ثم اكتشفت عالم الأدب. أو بالأحرى، رجال الأدب. قبل أن تأتي إيريكا للعمل كمتطوعة في مجلة عالم الأدب، حاولت العمل كسكرتيرة شخصية للكاتب شتيفان لورانت، وكان مؤلفا شهيرا في برلين، وبعد أن تبينت أن ما كانت تبغيه لن يتحقق، صنعت علاقة جيدة مع بيتر فلام، وهو كاتب شهير آخر. كانت إيريكا مولعة ومغرمة بالمؤلفين، وكانت تعشق الأشهر منهم أكثر من غيره. وكونها وقعت على كاتب في مجلة «عالم الأدب» والمحتمل أنه صاحب الإسم الأكثر شهرة - فقد كان اسم برتولد بريشت أقل جاذبية وأصعب منالا - والذي يشبه ويماثل رودلف فالينتينو، لم يكن كل ذلك مصادفة بأي حال. كانت إيريكا مسحورة بالجو الغامض الذي يحيط بليف. (كما ستشكو فيما بعد لصحف التابلويد الشعبية أثناء القيام بإجراءات طلاقهما من أنه «قال لي إنه

ينحدر من أسرة أمراء عرب. وعرفت بعد الزواج... أنه لم يكن إلا ليو نوسيمباوم الشخص العادي جدا [هكذا]»).

كتب ليف في تلك الأعوام اللاحقة «ما الذي عرفته عن تأثير إسمي؟ ما الذي عرفته عن الشهوة الغريبة للشهرة التي تجملها كثير من النساء على أنها حب؟.. لقد أحبت وجهي، لأن هذا الوجه كان يصور وينشر كثيرا في وسائل الإعلام».

ليو نوسيمباوم وإيريكا لوفندال - أسعد بيك وإيريكا رينون (كما ستسمي «الشاعرة» نفسها بعد ذلك، احتفاء بسلسلة الجبال الإيطالية حيث وقعت هناك في غرام كاتب آخر، والذي سرعان ما ستهجر ليف من أجله) - تزوجا في ٧ مارس عام ١٩٣٢. في ذلك الوقت، أصبحت إيريكا ليو أسعد بيك نوسيمباوم، وكان ذلك يجعلها من الشخصيات المعروفة في برلين ١٩٣٢. انتقل المتزوجان حديثا إلى شقة جديدة تابعة لجمعية إسكان غير ربحية في «مستعمرة الفنانين» عاونه صديقه فيرنر شندل في الحصول عليها. كانت المرة الأولى التي يسكن فيها ليف في شقة مريحة غير مستأجرة من الباطن أو إسكان المتقاعدين. واشتهر ذلك المجمع السكني باسم «المجمع الأحمر» (أي الشيوعي) لأنه بني برعاية الاتحاد العمالي ولا علاقة له بالأحزاب السياسية الاشتراكية، وكان ذلك من المفارقات الطريفة نظرا لمعاداة ليف للحمر ورأسمالية عائلة إيريكا، حاول دادي أن يدس أنفه في شئونهما وعرض عليهما أن يعينهما على عيش حياة مترفة، غير أنها كانت تشعر بسعادة فريدة غامرة في أن تعيش في ذلك المجمع السكني الذي يضم المبدعين من الكتاب والفنانين، فقد كانت تسكن في عمارة يشاركها فيها لفيف من الفنانين والكتاب اليساريين. أما ليف فقد كانت معه عروسه. وهكذا، بدلا من أن يعيش على ثروة

حماه حديث الثراء، أصر ليف على أن يعيش معهم أبيه حديث الفقر. استقرا معا ومعهم ابراهام نوسيمباوم في خلفية المشهد، يراقب بهدوء كل تلك الورطة العبثية.

دادي لوفندال، الذي أسبغ عليه أصدقاؤه أيضا لقب «القنصل» لأنه يشغل منصبا دبلوماسيا شرفيا من الحكومة التشيكية بسبب مبيعاته من منتجاتهم، لم يكن يثق بأسعد بيك ذاك. كرجل ثري، كان من الطبيعي أن يتشكك في نوايا أي امرئ غير ثري يسعى للحصول على أموالهم من خلال ابنته. وكان من الصعب أن يبدد ذلك الزي الغريب الذي يرتديه ذلك الكاتب وعاداته الغريبة التحفظات والشكوك، ولا أيضا سمعته العامة كرجل تحيط به الشائعات وتحوم من حوله الشبهات. الجانب الأخير لم يكن بالضرورة ما كان يضايق القنصل، الذي كان كرجل أعمال يعرف قيمة وأهمية الشهرة. راقته بالطبع فكرة زواج ابنته من رجل شهير ومعروف. غير أنه لم يكن يثق بهذا الشخص بالذات. وقام باستئجار رجل تحريات خاصة ليراقب زوج ابنته ويعرف حركاته وسكناته.

لم يحب ليف أيضا أنسباءه الجدد بذات القدر الذي كانوا عليه منه، وكتب عن نسيبه بازدراء قائلا: «القنصل العام ليس لديه سوى ثلاثة أمور يدور حولها حديثه - الأحذية، والمال والمتعة».

> إضافة إلى ذلك، لديه ولع شديد لإنفاق المال بقدر ما يملك من طاقة على الإنفاق بشتى وسائل التباهي والتفاخر. زوجته هي الأخرى ليس لديها سوى ثلاثة مواضيع للحديث - الأحذية، والمال، والملابس. إلى جانب هذا، لديها أيضا ولع في ادخار كل ما تستطيع ادخاره من مال، بكل أشكال التباهي والاختيال أيضا. وعلى الرغم من ذلك التناقض، يبدو الزوجان في غاية

السعادة معا . . . لديهما إبن في الثانية عشرة من عمره، ولكن
حتى ذلك الغلام لا يتحدث إلا عن المال والمتعة. ومن الواضح
أن الموضوع الثالث في أحاديث ذلك الغلام سوف يتوصل إليه
بعد أعوام لاحقة بعد سن البلوغ.

لاحظ ليف أن زوجته المفعمة بالنشاط والحيوية والمرح كانت تركن إلى الصمت في وجود أبيها، واستنتج ليف أن «تلك كانت وسيلتها حين تكون منحرفة المزاج» ووجد أن ابنة دادي كانت تنال كثيرا من نظرات الاهتمام من ذلك الجبل الأصلع المرح على الدوام.

حين كان نوسيمباوم - أسعد بيك مستقرا في حياته المنزلية في برلين، حل أهم عام في تاريخ اقتراعات الجمهورية الألمانية. كانت هناك أربعة اقتراعات في ألمانيا عام ١٩٣٢ - جولتان انتخابيتان لمنصب رئيس الجمهورية وجولتان لانتخاب أعضاء الرايشتاغ، الأول حل موعده في نهاية شهر أبريل - وكلها كانت حرجة وخطيرة. كان المارشال هندنبورغ، ذو الوجه المتجهم «بطل الحرب» البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاما (مما كان يستدعي من ذاكرة بهتت شيئا ما الثنائية الديكتاتورية التي كونها مع لوديندورف التي أدت بجيش ألمانيا إلى كارثة الهزيمة عام ١٩١٨)، قد ظل رئيسا لألمانيا بدءا من عام ١٩٢٥ . كانت فترة الرئاسة محددة بسبعة أعوام، وكانت فترة رئاسة هندنبورغ ستنتهي في ذلك العام، إلا إذا أعيد انتخابه مرة أخرى. كان بالطبع قد قرر أن يخوض الانتخابات ليفوز بفترة رئاسية جديدة، غير أن الأقوال تناثرت بأن مقتحما نمساويا - مجرد عريف سابق بالجيش - يستعد لاستهداف وظيفة الفيلد مارشال كرئيس للدولة.

هذا المجند السابق بالجيش، هذا الأجنبي النمساوي الذي تهرب من أداء الخدمة العسكرية في موطنه الأصلي، كان على رأس أكبر

الأحزاب السياسية الممثلة في الرايشتاغ. حتى شهر واحد سابق فقط، لم يكن للنمساوي حق في الترشح للبرلمان، فما بالك بالترشح لمنصب الرئاسة. في ٢٦ شهر فبراير من عام ١٩٣٢، كان الرجل الذي سيصبح خلال عام واحد الحاكم المطلق لألمانيا قد تمكن بطريقة التفافية من الحصول على وظيفة صغيرة بالخدمة المدنية في إقليم برونسويك الألماني. كان المخطط الأصلي أن يعمل هتلر بروفيسرا معاونا في مجال الفنون والآداب في الإدارة التعليمية لمقاطعة برونسويك، غير أن النازيين رأوا أن ذلك قد يبدد احتفاظهم بصورة الفوهر غامضة في أذهان الجماهير ولن يكون من الملائم أن تصيح الجماهير «هايل هير بروفيسور» (يحيا السيد البروفيسور) وعلى أي حال أصبح من حق العريف النمساوي بعد حصوله على وظيفة رسمية ألمانية خوض سباق الرئاسة الألمانية. وكان لهندنبورغ، أو على وجه التحديد الفريق الذي يخطط لهندنبورغ - فقد كان هناك على الدوام من يفكرون ويخططون لهندنبورغ - خططهم أيضا.

قيل إن هذا الهتلر قد حكم ألمانيا بصوته وقدرته على الخطابة، فقد كان له تأثير فاتن وساحر على الجماهير التي تستمع إليه وتدرب كثيرا على الخطابة الحماسية كما يتدرب مغني التينور في الأوبرا الإيطالية. وقرر هندنبورغ، أو بالأحرى مستشاره بروننغ حرمان هذا الصوت المغوي والمحرض من استعمال الإذاعة. كان المنطق الذي ادعته الحكومة بسيطا: كان هتلر ينافس مرشحي الحكومة القائمة للفوز بالرئاسة - أي هندنبورغ ومستشاره. والعمل المعارض للحكومة القائمة يعتبر معارضة للدولة. وكانت موجات الإذاعة ملكا للدولة.

وهكذا، منع هتلر من استعمال الإذاعة. وعلى الرغم من أنه بالعودة إلى البدايات سنجد أن كل إجراء تم اتخاذه ضد هتلر كانت له

مشروعيته التي يستند إليها، إلا أنه كان في وقته يظهر المدى الذي تحولت إليه مهزلة الديمقراطية الألمانية.

وقرر سكرتير إعلام هتلر وحاشيته القيام بأكبر وأسرع جولة سياسية في التاريخ، مستخدمين القطارات، والطائرات، والسيارات لنقل الفوهرر في جميع أرجاء ألمانيا حتى يصل صوته لأكبر عدد ممكن من جماهير ألمانيا كما لو كان بإمكانه استعمال الإذاعة. كانت وسائل الانتقال الأولية طائرة لوفتهانزا بثلاث محركات طراز دي ٢٠٠١ وثلاث سيارات مرسيدس سوداء. على الأرض، كانت سيارات المرسيدس تتسابق في التجول في ربوع ألمانيا، وهتلر في سيارة المقدمة، مكشوفة السقف، وخوذة جلدية على رأسه لتحافظ على شعره الناعم في مكانه وتحفظه من التطاير مع الهواء. في مدينة نورمبيرغ، ألقيت قنبلة من سطح مبنى على الموكب - ولسوء الحظ أصابت سيارة أخرى - وفي هامبورغ كان على سيارات الموكب أن تفر من حشد تظاهري كبير من الشيوعيين الناقمين والغاضبين على النازية. كانت سيارة المرسيدس الثانية مليئة بالأتباع الحمقى من قوات حماية الحزب الذين ترجلوا من السيارة وهجموا على المتظاهرين الشيوعيين بالهراوات. كان هتلر ينتعش وتزداد حيويته في ساعات الأزمات الحادة ومع سرعة التجول في كل أنحاء ألمانيا. كان يعتبرها حربا سياسية خاطفة.

غير أن الإثارة الحقيقة كانت في الجو، حين كان على المرشح النازي أن يهبط بالطائرة في المدن الألمانية بطائرته اللوفتهانزا البراقة. كانت الصحف الألمانية المتعاطفة مع الحملة قد أطلقت على تنقلات الطائرة من مدينة لأخرى «رحلات الحرية»، وتجاوبوا بقوة مع الأسطورة المتنامية بأن هتلر هو "منقذ ومخلص ألمانيا - وأنه الملاك

المعوض الهابط من السماء، على كل أجزاء الوطن الأم. لاحقا، تم استعادة واجترار كل تلك الرحلات لعمل فيلم، من دون السياسات الانتخابية على يد ليني ريفنشتال في فيلم «انتصار الإرادة». المحرر الأجنبي الوحيد الذي رافق الحاشية في الجولة كان انجليزيا يدعى سوفتن جيلمر (والذي سوف يقود لاحقا «المعارضة السوداء» أثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه كان يعتبر في ذلك الوقت متعاطفا معتدلا مع هتلر)، وحين كان يتذكر تلك الجولة السياسية النازية البرية التي حدثت عام ١٩٣٢ كان يطلق عليها اسم «سيرك هتلر الطائر». كان وجود مراسل أجنبي مع الحاشية من تخطيط رئيس علاقات الصحافة الأجنبية، بوتسي هانفشتنغل. (عدا المجموعة المركزية المكونة من هانفشتنغل، وغوبلز ومعه هتلر بالطبع، كان سيفتون «توم» ديلمر هو المسافر المستديم في ذلك السيرك الطائر. كان الباقون من الحراس ومن قوات صاعقة الحزب). كان بوتسي قد تمكن من إقناع هتلر أن ينفذ طريقة روزفلت في الحرص على وجود واحد من أفراد الصحافة الأجنبية في معيته أثناء حملته الانتخابية كوسيلة يبدو بها منفتحا وحداثيا.

كان بوتسي هوالوحيد المتخرج من جامعة هارفارد من بين أعضاء الحركة النازية. كما لعب دور الشخصية الهزلية المضحكة من بين أفراد النواة المحورية للنازية - لعب بوتسي دور «سام» مع هتلر، مسليا إياه ومرفها عنه في نهاية كل يوم بالعزف على البيانو. كان صاحب دور فعال في تجميل وجه النازية وجعلها «ذات وجه مقبول للمجتمع المتحضر»، كانت الطبقة العليا تمثل المصدر الفعال في تمويل الحزب وأسسها لوكسميث وقادها العريف السابق بالجيش. استخدم هتلر طبيعة شخصية هانفستنجل اللطيف والدمث وأصله الطيب في خلق عديد من

الصلات بالشخصيات الثرية الألمانية والأمريكية. وبينما زود ألمان البلطيق هتلر بمفاتيح التواصل مع الأرستقراطية الروسية، كان بوتسي هو من زوده بمفاتيح التواصل مع العائلات العتيدة والعريقة في أميركا وبريطانيا وألمانيا، كانت أمه من عائلة عريقة في نيوانغلاند (اثنان من أجداده من جنرالات الحرب الأهلية الأمريكية؛ وكان واحد منهما ألمانيا هاجر لأميركا في ١٨٤٨ كما كان من حملة نعش ابراهام لنكولن في جنازة دفنه). كان اسمه الكامل إرنست سدفكفيك هانفستنجل. أما اسم بوتسي الذي اشتهر به ويعني «نافورة صغيرة» في اللهجة البافارية الألمانية فقد أطلقته عليه مربيته وهو طفل بسبب كثرة تبوله. كان أبوه واحدا من أكبر الرجال البارزين في ميونيخ في أواخر القرن التاسع عشر، وكان له زوارا من مشاهير العالم مثل مارك توين، وريتشارد شتراوس وفريتجوف نانسن، مكتشف القطب الشمالي الشهير ومخترع وثيقة جواز السفر، كانوا يأتون إلى فيلتهم الفاخرة. فكيف بكل المقاييس لسليل تلك العائلة من أصحاب الأحذية البيضاء أن يتورط مع حفنة من أدنى السياسيين من أبناء الطبقات الدنيا المعادين للسامية؟

في عام ١٩٠٨ شارك بوتسي في عرض ارتداء ملابس شرقية في نادي هاستي بودنج بجامعة هارفارد. في هذا العرض المسمى مصير الفقير، كان أبناء هارفارد من الأنجلوساكسون البيض يرتدون أزياء بطريقة من اثنتين، بعضهم يرتدي زي فتيات شرقيات وبعض آخر يرتدي أزياء مسلمين وهنود فقراء. واختار العملاق إرنست سدفكفيك هانفستنجل أن يرتدي زي فتاة ألمانية تدعى غريتشن شبوتفايفر. كان معه بالفريق شاب يدعى فارين روبنز. وذهب كل من بوتسي وفارين في طريقه الخاص بعد التخرج من جامعة هارفارد، عاد بوتسي إلى بافاريا بألمانيا حيث التحق بخدمة حرس الفرسان البافاري الملكي،

والتحق فارين روبنز بوزارة الخارجية الأمريكية. وفي عام ١٩٢٢، حين كان روبنز يعمل ككبير موظفي السفارة الأمريكية في برلين، أتصل برفيقه القديم الذي تسمى باسم الفتاة «غريتشن» في حفل البودنج القديم.

قال فارين إن كل الهذيان الثوري في بافاريا يخضع لمراقبة واهتمام السفارة الأمريكية، لذلك كانوا يبعثون بملحق عسكري صغير يدعى الكابتن ترومان - سميث ليتابع الأحداث. وطلب فارين من الصديق القديم «غريتشن» الاهتمام به وتقديمه إلى بعض الأصدقاء في ميونيخ؟ سجل بوتسي في مذكراته التي حملت اسم: «شاهد لم يستمع إليه»: «تبين لي أنه ضابط صغير ممتع جدا في حوالي الثلاثين من عمره، خريج جامعة يال، ولكن على الرغم من ذلك كنت ودودا معه»، كما تذكر وجبة الغداء المصيرية التي كان يتناولها ذات يوم مع خريج يال في آخر أيام مهمته في بافاريا. كان ذلك الملحق الأميركي يجري لقاءات وحوارات في ميونيخ مع الصالح والطالح ومع كل من يلتقي به أو يسمع عنه، ولكنه قال لبوتسي على ذلك الغداء:

«التقيت بأغرب شخصية لافتة للانتباه هذا الصباح»

سألته: «أحقا؟ ما اسم ذلك الشخص؟»

قال: «أدولف هتلر».

قلت له: «لابد أنك أخطأت بالإسم، أتقصد هيلبرت، ذلك القومي الألماني؟».

أجاب بتأكيد: «كلا، كلا... هتلر... لقد أعطوني بطاقة حضور للصحافة لاجتماع يعقدونه هذا المساء، ولن يكون بإمكاني الذهاب. هل بإمكانك أن تلقي نظرة على ذلك الاجتماع نيابة عني ثم تبلغني بانطباعك عنه؟».

أخذ بوتسي بطاقة الدعوة وذهب للاستماع لخطاب هتلر في «كندلكيلر» في تلك الليلة. وهو يتذكر أن هتلر تحدث حديثا مطولا عن كمال أتاتورك في تركيا في تلك الليلة وعلى مثال موسوليني في إيطاليا. ووصف بوتسي الخطاب لصديقه خريج يال كما وعده، ومن بعدها انضم بنفسه للحركة النازية.

وبصفته قائداً مبدعاً سابقاً لفريق تشجيع فريق هارفارد لكرة القدم الأمريكية، قام بوتسي بالدور ذاته بين فريق هتلر. ومن بين إنجازاته الإبداعية الخلاقة للحركة النازية من بداياتها تحويله لنشيد فريق هارفارد لكرة القدم - «كافح هارفارد، كافح، كافح، كافح» - بنفس النغمة الحماسية إلى «يحيا النصر، يحيا النصر، يحيا النصر» يهتف بها جماعيا الحضور في بدايات الاجتماعات النازية. وطبقا لمذكرات بوتسي، كان هو وهتلر معا في بيت المصور الفوتوغرافي شبه الرسمي للحزب النازي هاينريش هوفمان، في ميونيخ في ذلك الوقت:

> بدأت أعزف بعض المارشات الموسيقية الحماسية الخاصة بكرة القدم الأمريكية التي تعلمتها أثناء وجودي بجامعة هارفارد. شرحت لهتلر كل مهام قائد فريق التشجيع والمسيرات التشجيعية، والمسيرات المضادة وكيفية إشعال الحماس الجنوني للمشجعين. حكيت له عن آلاف المشجعين الذين كنا ندفعهم للهتاف في هدير موحد «هارفارد، هارفارد، هارفارد، راه، راه، راه» وبتأثير منوم لهذا النوع من الهتاف. عزفت له بعض مارشات جون فيليب ساوسا[1] ثم عزفت له مقطوعتي الخاصة التي وضعتها [وهي من

---

(١) جون فيليب ساوسا (١٨٥٤-١٩٣٢): مؤلف موسيقي أميركي عاش في نهايات العصر الرومانسي وألف مقطوعات موسيقية عسكرية ووطنية أمريكية حماسية (المترجم).

إنجاز بوتسي وأهداها لفريق تشجيع هارفارد وأصبحت من ذخائر فريق التشجيع] ليعرف هتلر أهمية تبني الحزب لموسيقى حماسية ألمانية، وصبغها بالصبغة الحماسية المميزة لفرق الموسيقى النحاسية الأمريكية. ودفع ذلك هتلر للهتاف بحماس وهو يقول: «هذا هو المطلوب فعلا يا هانفشتنغل، هذا فعلا هو ما نحتاجه في هذه اللحظة، أنت رائع حقا»، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا مثل عصا الطبلة. بعد ذلك دفع فرقة موسيقى قوات العاصفة المنتمية للحزب للقيام بتأليف الموسيقى الحماسية. بل إنني قمت بنفسي بوضع اثنتي عشرة معزوفة على مدى أعوام، ومنها تلك التي عزفتها فرق القمصان البنية النازية وهم يقومون بمسيرات استعراضية في براندنبورغ تور في اليوم الذي وصل فيه هتلر لقمة السلطة. تحولت راه، راه، راه إلى «سيغ هايل، سيغ هايل، سيغ هايل» (أي يحيا النصر)، ولكن هذا مصدرها وأعتقد أن عليَّ أن أتلقى وأقبل نصيبي من اللوم.

كان هانفشتنجل واحداً من كثير من النازيين المبكرين الذين كانوا مرشحين للاغتيال من قبل الدائرة المحيطة بهتلر في الثلاثينيات، وفر من الاغتيال وهرب إلى سويسرا. ثم منها إلى لندن وواشنطن حيث ذهب بالفعل للعمل في مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركي (OSS) - ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن أثبت أنه ليس مثليا جنسيا بمقاومته لمحاولات جيرالد هاكستون صديق الكاتب سومرست موم للتقرب منه، والذي كان من الواضح أنه مرسل من قبل جهاز التحريات الفيدرالية الأميركي لمعرفة إن كان من الممكن إغواء بوتسي. وحين أجري لقاء معه في عقد السبعينيات، كان بوتسي قد طرح في الأسواق كل المقطوعات الموسيقية التي كان هتلر يستمتع بسماعها وهو يعزفها له على البيانو - والتي تراوحت من موسيقى

تحميس فرق جامعة هارفارد حتى افتتاحيات فاغنر - وراح يشتكي من أن إدارة الرئيس روزفلت قد رفضت العمل بنصيحته عند غزوهم لإيطاليا عام ١٩٤٣.

حين لم تسفر إنتخابات شهري أبريل ومايو عام ١٩٣٢ عن نتائج حاسمة، لجأ النازيون لتكرار حيلة حملة موكب السيارات المرسيدس ورحلات الحرية الطائرة. انتقل هتلر مرة أخرى لرحلات السيرك الطائر من جديد في سماوات ألمانيا، واجتذب مزيدا من الجماهير والأصوات الانتخابية. كان هندنبورغ قد فاز في الاقتراع بفارق ضئيل، ولكنه أجبر على التراجع بسبب موجات الرحلات المكوكية الجوية في ذلك الربيع والتي أفادت هتلر إلى أبعد مدى وصعدت بنجمه السياسي.

شهد ذلك الصيف معارك يومية بالأسلحة النارية بين النازيين والشيوعيين في شوارع برلين. واعتقد كريستوفر إشروود الذي كان يعيش في برلين في ذلك الوقت أن هناك شيئا تمثيليا زائفا أو طقسيا فيما يختص بقتال الشوارع ذاك، كما لو كان الحزبان يستهدفان فقط الدعاية لا القتال الفعلي - فكما يتذكر إشروود كانت الاشتباكات تدوم لخمس عشرة ثانية فقط لتنتهي فجأة ويختفي الجميع كأن شيئا لم يكن. لم يكن هناك أدنى شك أن كلا الجانبين، أقصى اليسار وأقصى اليمين، قد أصبحا يتشاركان الاهتمام بتعكير صفو الأمن وهدم النظام العام وبث الفزع في نفوس الجميع لإبعادهم عن تأييد الأحزاب الكبرى التي كانت قائمة.

في خضم «صيف الكراهية» ذاك، وفي ٣١ يوليو ١٩٣٢، برهنت الجولة الثانية من الانتخابات الوطنية أن استراتيجيات العنف التي

تبنتها الأحزاب المتطرفة قد أتت أكلها: فقد فاز النازيون والشيوعيون على حساب الأحزاب المعتدلة. وأصبح الحزب النازي في ذلك الوقت أكبر حزب حاصل على مقاعد في الرايشتاغ.

وفي مقهى الميغالومانيا لم تكن هناك كلمات تكفي للتعبير عن القرف، على الرغم من أن أحدا لم يعتقد أن العريف النمساوي أو البافاري لديه الفرصة في الحلول محل الفيلد مارشال القوي كقائد للجمهورية، ناهيك عن إنهائه للجمهورية ذاتها وتحوله لنمط ديكتاتورية موسوليني كما هدد بذلك حين رفض هندنبورغ أن يكلفه بتشكيل حكومة في شهر أغسطس عام ١٩٣٢. كان غيورغ غروتس أحد القلائل الذين تركوا ألمانيا في ذلك الوقت، وهو الفنان الساخر الذي اشتهر بتقليد الرأسماليين الألمان الذين كان يطلق عليهم ناشئة الأس إس الجنكرز (نسبة للرأسمالية الألمانية كرمز للسلطة الخفية)، واستقر في نيويورك وبقي بها عشرين عاما. (وقال بعد ذلك إن هاجس وقوع كارثة قومية جاءه في كابوس ضمّ يهودياً ليبرالياً تائهاً، وبحاراً نرويجياً، وحمولة من سمك فاسد). وعلى الرغم من ضربها ضربا متوحشا على أيدي قوات العاصفة النازية، فازت المعتدة بذاتها «اليهودية التائهة» إيلزه لاسكر بجائزة كلايست الأدبية في ذلك العام، وكانت تعد أعلى تشريف أدبي ألماني.

كان ليف يستمتع هو الآخر بشهرته، على الرغم من الموقف السياسي، إضافة إلى إريكا، عروسه الجديدة التي عشقها. كانت أعماله التي كتبها: «أسرار القوقاز الإثني عشر»، و«قصة حياة النبي محمد»، و«الشرطة السرية الروسية: مؤامرة على العالم»، بالإضافة إلى عدد آخر من الأعمال الأصغر، تحقق نجاحا باهرا. كان ليف قد انتهى من كتابة مخطوطة «روسيا على مفترق الطرق»، وقصة حياة لينين

الجديدة. وكان ليف وإيريكا يعددان بفخر سبعة عشر ترجمة بلغات مختلفة لأعماله التي نشرها.

في ٦ نوفمبر ١٩٣٢، احتفلت عصبة مقهى ميغالومانيا بأفضل أخبار سمعوها عن الانتخابات طوال ذلك العام، على الرغم من أن تلك الأخبار لم تكن تحقق سببا حقيقيا للابتهاج. فعلى المستوى الوطني، فقد النازيون بعض قواعدهم، فقد فقد هتلر تحالفه مع حزب الرأسمالي الصناعي الوطني هوغنبرغ (ومن ثم حرم النازيين من دعم وسائل الإعلام التي يمتلكها الحزب). ولكن النازيين كسبوا فعلا التصويت في برلين، كما كسب الشيوعيون الأصوات خصما من الديمقراطيين الاشتراكيين، ولأول مرة يصبحون الأغلبية المعبرة عن اليسار في العاصمة الألمانية. أكثر من ٧٠٪ بالمائة من سكان برلين صوتوا لحزب من الأحزاب المتطرفة.

وفي برلين وحتى مع تلاشي التظاهر بالقتال بين النازيين والشيوعيين. كان الوقت قد حان لإطلاق رصاصة الرحمة على قلب البرجوازية - أي على الديمقراطية الألمانية. حين قام عمال النقل في برلين بالإضراب في أواخر نوفمبر، في حادث بدا غريبا جدا في فهم وسبر أغواره وأبعاده، حتى لو كان يمكن تفهمه منطقيا، قام جوزيف غوبلز وفالتر أونبريشت (الرئيس الشيوعي المستقبلي لألمانيا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية) بالتظاهر معا ضد بلدية الحكومة البرجوازية؛ وقف الشيوعيون والنازيون متشابكي الأيدي، أحدهما يهتف «جبهة شيوعية حمراء»، والآخر يهتف «هايل هتلر». حين كانت إيريكا وليف يقطعان شوارع برلين في سيارتهما الأمريكية الضخمة - والتي أصبحت الآن عنوانا سياسيا يتوافق مع أسمائهما اليهودية ومع

مظهرهما - رأوا صفوفا من إعلانات المساكن الخالية الرخيصة الإيجار مصفوفة على جوانب الطرق بالتبادل مع رايات عليها الصليب النازي المعقوف ورايات حمراء عليها المطرقة والمنجل الشيوعية.

كان الكابوس القديم الذي يعاني منه ليف قد عاد مرة أخرى أشد وطأة - الثورة - ويهاجم من كل الجوانب. ولم يكن هناك ملك خيرا من الذين يحلم بهم في المدى المنظور.

وبتظاهر الشيوعيين والنازيين في مسيرات يومية في شوارع برلين ضد نظام الجمهورية، ازداد قلق الجنرال فون شلايشر المسؤول عن الوحدة «السياسية» بالجيش الألماني. أدرك أن تلك الحشود من المتطرفين كانت لا تعني إلا أن ستالين أو هتلر سيصل لقمة السلطة في أقرب فرصة، حيث كانت تشير كل المعطيات إلى قرب استحواذ الأخير على السلطة. كان هذا اللاعب ذو المنصب الرفيع الخفي عن الأنظار، البروسي الرشيق أصلع الرأس قد قال بصوته المخنث الأرستقراطي الطابع لصديق له في وقت مبكر من ذلك العام: «إما أن أقطع خصيتي هتلر أو يقطع هو خصيتي»، وأصبح الآن يتشكى فجأة من أن خصيتيه قد أصبحتا على المحك.

في ليلة الكريسماس من عام ١٩٣٢، قام شلايشر بتوجيه خطاب إذاعي للأمة الألمانية قدم فيه خططه الشخصية إزاء التحالف الوطني الاشتراكي لكل الألمانيين. والمظنون أن ليف قد استمع لذلك الخطاب مشدوها كآخرين كثيرين غيره. كانت الجمهورية تلفظ آخر أنفاسها، متحولة لنظام آخر لم تتضح ملامحه بعد. هل سيحكم الجيش؟ من خلال المذياع، أعلن فون شلايشر بصوت بروسي أجش حاد عالي النبرة - صوت لا يمت بصلة لصوت ولغة هتلر الجذابة - خططه لتأميم الصناعة الألمانية، وإضافة تأمينات جديدة للعمال،

وخلق وظائف لآلاف العمال العاطلين على مساحة ٧٥٠٠٠٠ فدان في «شرق ألمانيا غير المكتظ بالسكان».

وهكذا وقعت الواقعة. كان توجه إعادة التوطين في شرق ألمانيا هو ما قصف عمر حكومة شلايشر. وسرعان ما سيدخل النازي لاحقا بخطط لإعادة توطين عشرات الملايين «في الشرق» ولن يتمكن أحد من التفوه بكلمة اعتراض أو حتى برفع عينيه. ولكنهم سيعيدون إسكان الشعب على أراض أجنبية. تحدث خطاب فون شلايشر في عشية كريسماس ذلك العام عن أراض ألمانية: السهول البروسية، أرض جنكر.

واستنكرت الرابطة الزراعية، وهي تنظيم يضم المزارعين الجنكريين من كبار ملاك الأراضي الزراعية ذلك المخطط «الزراعي البلشفي». ولم تعد أي وعود أو انحيازات سابقة بذلتها الحكومة تهم بأي حال. كانت الأحداث تتحرك بسرعة، وعلى العكس من أحداث موسكو في عام ١٩١٧، كانت أحداث برلين نظيفة بلا دماء قبل أي شيء آخر.

كتب إشروود: «قبض البرد القارس المميت على المدينة بقسوة وحولها إلى مدينة صامتة، مثل صمت منتصف النهار في يوم قائظ في منتصف الصيف. بالخارج، وفي الليل، فيما يلي آخر مبانٍ جديدة تم تشييدها من الشقق الخرسانية، حيث تنتهي الشوارع عند حدائق عامة مجمدة من الصقيع، تقع السهول البروسية. يمكنك أن تشعر بها وهي تحيط بك، الليلة، تزحف على المدينة، مثل أرض يباب بلا نهاية في محيط بلا مأوى». قباطنة ذلك المحيط همسوا في أذن هندنبورغ أن الجنرال فون شلايشر ليس إلا بلشفيا منحطا وعميلا لموسكو، وأنه يعد للقيام بانقلاب من داخل ألمانيا وأنه سوف يتم الدفع بهتلر

للتصدي للانقلاب. وأنه لابد من عقد اتفاق مع هتلر على وجه السرعة قبل أن يقتحم الروس ألمانيا من بوابة برندنبيرج.

في ٣١ من ديسمبر عام ١٩٣٢، أرسلت السهول البروسية رياحها الباردة العاوية تجتاح وتكنس الشوارع البرلينية خارج مقهى ميغالومانيا ودار نشر أولشتاين، وهما المكانان اللذان يكونان عالم ليف في برلين - المكانان اللذان سيختفيان من الوجود في عشية رأس السنة التالية. وأخيرا ستنتهي الثورة في ألمانيا، كما انتهت من قبل في روسيا - من ١٩٠٥ إلى ١٩١٧ في روسيا، ومن ١٩١٩ إلى ١٩٣٢ في ألمانيا: في كل حالة من الحالتين كانت الثورة تستغرق حوالي اثني عشر عاما لتصل إلى نهايتها - ومن بعدها تتمكن حكومة الثورة أخيرا من الهيمنة على السلطة. ومع بداية يناير ١٩٣٣، كانت دوامات من الاتفاقيات الجديدة تعقد على عجل والتي سرعان ما يظهر أنها لم تكن تعني شيئا، وسرعان ما سيكتشف شيوعيو ألمانيا أن الحزب النازي لم يكن في حقيقة الأمر «مماثلا» للديمقراطيين الاشتراكيين الذين أزيحوا من الطريق.

باقي الأحداث هي الأحداث التي كانت الأكثر شهرة في أوروبا التي سجلت قبل ذلك. انتهت جمهورية فايمار الألمانية في خضم مسيرات احتفالية وألعاب نارية. وبقي على حاله وجه الفيلد مارشال المطبوع على طوابع البريد، وعدا ذلك الثابت الوحيد، تغير كل شيء آخر عداه في ألمانيا.

في أواخر نوفمبر من عام ١٩٣٢ غادر ليف برلين في جولة أدبية بادئا بتركيا ثم تشيكوسلوفاكيا. في اسطنبول تحدث في ركن الثقافة النمساوية، ونشرت الصحافة التركية أخبار الحدث في عبارات مرحبة ومشيدة، مؤكدة على الإلمام الجيد للكتاب الألمان وعلى رأسهم ليف باللغة التركية. بعدها توجه إلى براغ، حيث ألقى محاضرة في نادي

أورانيا عن «روح روسيا المعاصرة» باللغة الألمانية. وعرف من الإعلان الذي نشر عن المحاضرة في صحيفة «دويتشه تسايتونغ بوهيميا» أن ليف قد فقد حقيبتين وحافظة أوراق سرقا من منظم الزيارة في فيينا وأن «الوثائق ومخطوطات المحاضرة» كانت في حافظة الأوراق.

ومن المحتمل أن ليف قد عاد إلى فيينا للبحث عن مفقوداته. وعلى كل الأحوال، ألقى المحاضرة ذاتها في الاتحاد الثقافي النمساوي في فيينا بعد ذلك بفترة وجيزة. ثم مع تحول الأحداث على نحو مذهل ومدهش في ألمانيا في شهر ديسمبر ١٩٣٢، «قرر ببساطة البقاء في فيينا» كما سجل ذلك موظف حانق من اللجان العامة لسلامة الجمهور على حافة ملف مراقبة ليف. غادرت إيريكا وأبواها وأخوها أيضا ألمانيا في بداية عام ١٩٣٣. وارتحل ليف مستعملا جواز سفر عصبة الأمم للاجئين؛ وكان أصهاره ما زالوا يستعملون وثائقهم الألمانية. ورفضت السلطات النمساوية منح أبراهام نوسيمباوم تأشيرة دخول للنمسا وأصبح مجبرا على البقاء في برلين. حاول الانضمام لابنه وأصهاره في فيينا عن طريق براغ بعد ذلك بعام. أما أليس شولته، مربية ليف الألمانية التي كانت تتولاه في طفولته وصباه في باكو، فقد ظهرت أيضا في بدايات عام ١٩٣٤؛ وتبين أنها كانت في برلين منذ عام ١٩٢٢، على الرغم من أنه من غير الواضح إن كانت قد عاشت مرة أخرى مع عائلة نوسيمباوم أم لا. وعلى أي حال، حين كانوا مجبرين على الرحيل، رحلت هي أيضا.

كتب جوزيف روث في ربيع ١٩٣٣ مقالا بعنوان «الإيمان بالعقل» قال فيه «بل إن هناك فرصة أن فاندال الرايش الثالث (نسبة لقبائل الفاندال التاريخية) سوف يحاولون استغلال الكتاب الآريين من

المشاهير مثل توماس مان وغيرهارت هاوبتمان (وكانا مضطهدين) لمرحلة ما، لخداع البشر ودفعهم للاعتقاد بأن الاشتراكية الوطنية لديها بعض الاحترام للروح الإنسانية». وأكمل:

> غير أننا نحن الكتاب من أصل يهودي بمأمن والحمد لله من أي إغراء أو إغواء لتبني وجهة نظر البرابرة أو الانضمام تحت لوائهم تحت أي ظرف... حتى لو كان بين صفوفنا خائن، يريد بدافع من طموح شخصي، أو من حماقة وعماء، التوصل إلى سلام مخزٍ مع مدمري أوروبا - ولن يتمكن من فعل ذلك. هذا الدم «الآسيوي» و«الشرقي» الذي يدمغنا به القابضون على السلطة في الرايش الألماني لن يسمحوا لنا بكل يقين أن نهجر صفوف النبل في الجيش الأوربي.

ويبدو أن الأمور بدت بتلك البساطة لليف نوسيمباوم في ربيع عام ١٩٣٣ - فقد كان تصنيفه المحدد كـ «شرقي» قد حماه من التعاون مع البرابرة النازيين الجدد في برلين. غير أن الأمور لم تكن أبدا تسير ببساطة ولا يسر مع ليف.

مع كل الفرح والإثارة والانفعال والهياج بالرايش الجديد، كان لا يزال أمام الناس وقت يتذكرون فيه الأحقاد والضغائن القديمة. فالضابط كورت تسيمكه في وزارة الخارجية الألمانية الذي أجرى تحقيقا أوليا مع ليف بسبب الشكاوي التي قدمت ضده من الجماعات المعادية للسامية والجمعيات الإسلامية، الألمانية، ومن ضباط بالجيش الألماني وقت مذابح الأرمن، لم يكن قد نسي أسعد بيك ذاك. كان قد فتح ملفا أوليا خاصا بليف حين وصلت الشكاوى إلى وزارة الخارجية، وظل يتابع تلك الشخصية المثيرة لشكوكه وريبه على مدى الأعوام الثلاثة السابقة، على أساس من المصلحة العامة فقط.

والآن بعد أن أصبحت تلك الحكومة التي تهتم باليهود السريين المتخفين خلف أسماء غير حقيقية على قمة السلطة، أخذ تسيمكه القضية إلى وزارة دكتور غوبلز الجديدة للدعاية النازية وترجاهم في الوزارة أن يفعلوا شيئا لوقف، «الإنتاج الفكري المخادع لهذا اليهودي المتاجر بالكتابة». كان يضايقه على وجه الخصوص أن يرى كتب ليو نوسيمباوم مصفوفة ضمن قوائم الكتب التي تنصح وزارة دعاية الرايش الثالث بقراءتها بصفتها من «الكتب الممتازة المفيدة للعقول الألمانية».

وردت وزارة غوبلز ببرود بخطاب يدعم كتابات أسعد بيك، خاصة كتبه الأخيرة، التي تعري وتفضح شرور الإمبراطورية الشيوعية. لم يكن هناك أي دليل يثبت أن أسعد بيك يهودي، لذلك ليس هناك سبب لاضطهاد الكاتب. وعلى كل الأحوال، كان من «المشكوك فيه» أن الكاتب ينتمي بأي وجه «للجنس اليهودي».

وجنّ تسيمكه من الغضب والغيظ. كان بإمكان أي أحد أن يطلع على معجم «معاداة السامية» في أي مكتبة عامة، وهو نوع من المعاجم الموسوعية ينشر كل عام في ألمانيا والنمسا من عقد ثمانينيات القرن التاسع عشر ويسجل كل فرد يهودي في كل مناحي الحياة المختلفة والمحتملة، من الزراعة إلى صناعة السينما، مع قسم خاص مكرس للنفوذ اليهودي في كل قطاع من قطاعات الاقتصاد، ومقسم لمناطق جغرافية ومستوى الدخل للفرد. وفي طبعة ١٩٣١ لـ«سيجيللا فيري» (السجل الأخضر) لفيليب ستافرز سيمي كيرشنر، الطبعة الثانية، المجلد الرابع، صفحة ٩٥٨، على سبيل المثال، وسوف يجدون أسعد بيك مدوناً كـ«نوسنباوم (نوسيمباوم، ناوسيمباوم) - مزيف قصص».

غير أنه من الواضح أن وزارة الدعاية الجديدة للحزب النازي لم ترجع لمعجم معاداة السامية في حالة ليف. وسرعان ما كان أسعد بيك يتلقى بطاقة عضويته الجديدة لاتحاد الرايش للكتاب الألمان والغرفة الأدبية الألمانية، والتي أصبحت ضرورية لنشر الكتب أو المقالات في الرايش الثالث. وسوف يستغرق الأمر عامين آخرين قبل أن تستوعب البيروقراطية النازية حقيقة أصله اليهودي.

القسم الثالث



برلين، ١٩٣٣

الفصل الثالث عشر

شظف العيش حتى بوتقة الانصهار

أسعد بيك كاره للثورات. كانت كل ثورة سياسية بعد أخرى سابقة لها تتركه إنسانا بلا وطن، وطريدا وفارا من كل أرض قرر أن يجعل منها موطنا. الناجي من الإرهاب البلشفي الروسي، يكره البلاشفة لأنهم شيعوا آبار نفط أبيه واستولوا على بيت عائلته في باكو وجعلوا منه مقرا لقيادة ستالين. ثم ضحية للإرهاب الألماني، وكره النازي لأنهم خربوا وحطموا دار النشر التي كانت تنشر كتبه في برلين و - مضيفين ملحا على الجرح - أحرقوا كتبه التي كتبها عن روسيا دون حتى أن يدركوا أنه كان يكتب ضد البلشفية لا ضدهم.

غير أن محمد أسعد بيك، وبغرابة شديدة، كان يزدهر وينتعش تحت وطأة الاضطهاد.

هكذا كانت اللمحة الشخصية التي وردت في مقدمة التحقيق الصحافي عن ليف في صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون يوم الأحد الموافق ١٦ ديسمبر عام ١٩٣٤. على صدر الصفحة استقرت صورة فوتوغرافية كبيرة لليف، يرتدي زي أبناء جبال القوقاز.

كان أكثر امتلاء في تلك الصورة عن صوره التي التقطت له في

برلين، كما لو كانت حياته المترفة بعد الزواج مع عائلة لوفندال قد وصلت به لذروة سعادته. كان المراسل الصحافي الذي أجرى معه الحوار مندهشا من الشكل الذي بدا عليه «الشرقي» أسعد بيك، على الرغم من عدم قدرته على تبين من أي مكان في ذلك الشرق الشاسع أتى ليف. وكتب مراسل التريبيون «هناك شيء ما يبدو صينيا في الطريقة التي يجعل بها وجهه العريض خاليا من التعبير وهو يضيق حدقتي عينيه البنيتين بطريقة لا تظهر إلا ظلالا سوداء حول عينيه»، ولكنه في موضع آخر من التحقيق كان على يقين أن وجه ليف «الممتلئ الشاحب كان يحدق لقرون من فوق جبال بلاد فارس». كان ليف يضع على رأسه قلنسوة صوفية فارسية في صورة من صور التحقيق الصحافي تظهر طوله الفارع، وتحت الصورة تعليق مكتوب:

«أسعد بيك - يكره المشاكل، ولكنه مستعد لكل الاحتمالات».

وهكذا كان ليف في ذلك الوقت مثل جيمي كاغني[1] الشرق. من الواضح أنه كان حريصا على أن يظهر لمحاوره صورة كاملة تتسم بالمرح الصاخب والاستعراضي «لرجل من الشرق» رسمها المحرر من لقاءات عديدة استمرت على مدى العام ونصف العام على وجه التقريب. ذكر المحرر أنه زار أسرة أسعد أول مرة في فيينا في ربيع عام ١٩٣٣، حيث كانوا يعيشون في «قصر من الرخام الأبيض» ذكرته واجهة القصر «بكعكة الأعراس المبالغ في تزيينها» فيما كان داخل القصر يشبه «قصور القرون الوسطى بطوابقها غير المتساوية، بسلالم تلتقي وتنفصل، وممرات سرية وغرف خفية. وحين تتجول في أنحائه،

---

(١) جيمس فرانسس كاغني الابن (١٨٩٩- ١٩٨٦): ممثل وراقص سينما ومسرح أميركي شهير (المترجم).

تفاجأ بأبواب تفتح من الحوائط ويظهر منها خدم على حين غرة من أماكن لا تتوقع أبدا أن بها أبواب خفية ليقودوك صعودا وهبوطا في آبار سلالم مظلمة تفضي إلى أجنحة غير متوقعة، من الواضح أن لصوص القوقاز كانوا ليحبون ذلك المكان».

واستمر التحقيق يصور صورة مثيرة تبهر الأنفاس وهو يقص مغامرات ليف، ومجموعة جوازات سفره العديدة، والمرات العديدة التي كان يهرب فيها من الشرطة في بلاد مختلفة، والمرات التي كان فيها يضل طريقه في السهوب - ومن الواضح أن أكثر تلك المعلومات استقاها المحرر من المؤلف في سياق جلسات تناولوا فيها خليطاً من المشروبات وكثيراً من القهوة. كتب المحرر: «حين يتخلى عن سمة الأحلام البوذية التي تقول عنها زوجته إنها ليست إلا خمولا، يبلل شفتيه بلسانه، ويرجع بمقعده للخلف ويبدأ في سرد قصة، مظهرا نفسه كسليل حقيقي لعرق شهرزاد، وهو ما تطلق عليه زوجته خمولا»، وكانت ملاحظة زوجته وتعليقها من أول علامات وجود توتر خفي في العلاقة الزوجية - تعليق بسيط، لا يمكن التيقن منه، ولكنه كان في الحقيقة أول نفثات بركان غير مستقر سينفجر فيما بعد.

صور المحرر ليف في صورة مسلم غير ملتزم «لا يحمل معه سجادة صلاة؛ ولا يعرف حتى اتجاه مكة حين يصلي. . . . يأكل الخنزير ويحتسي النبيذ؛ ولكنه حين كان يعقد قرانه في برلين رفض التنكر لمعتقده الديني»، وكانت النتيجة أن عاقد القران الألماني الذي كان يقوم بتزويجهما قال لإيريكا:

«من واجبي أن أحذرك من أن ذلك الرجل قد يرجع إلى البلاد المحمدية في أي وقت ويتزوج هناك بأخريات غيرك»

وردت إيريكا: «لقد سبق له التفاخر بذلك، ولكني أقبل المجازفة».

غير أن محرر التريبيون رسم صورة لزواج سعيد مستقر، وطمأن قراء الصحيفة في تحقيقه الصحافي أن «أسعد بيك من أكثر من يلتزمون بالزواج من واحدة فقط خارج نطاق دولة تركيا كمال باشا أتاتورك الجديدة. وهو سعيد مثل أي رجل غربي بطول امرأته الفارع وأناقتها، ورشاقتها». وبالفعل كانت إريكا حريصة على الظهور وإقحام نفسها في التحقيق في أكثر من موضع، وبطريقة غير مباشرة تفاخرت وتباهت برشاقتها ونحافتها في مضمار «القلق والاهتمام» إن كان زوجها الشرقي لن يكون مخذولا إن لم يحصل على نساء شرقيات ممتلئات الأجسام.

في ربيع عام ١٩٣٣، قام ليف وإيريكا بجولة في مدينة راباللو بإيطاليا، حيث قام بقراءة في محاضرة على جمهور مستمعين ضمت شتيفان تسفايغ، وكما تبين بعد ذلك، كانت تضم أيضا صديقته فيما بعد بيما أندريا. بعد ذلك بأعوام، كتبت بيما أنها تتذكر تلك المشاعر القوية التي كانت بادية عليهما - واستخدمت في ذلك كلمة ألمانية خاصة يمكن ترجمتها حرفيا بمعنى «توحد ممتلئ بالنعمة والكياسة».

لاحظ محرر مقال التريبيون بحماس ووصف كيف أنه خلال آخر عامين ومن المفترض أنهما عاما ١٩٣٣ و ١٩٣٤ كرر ليف وإيريكا شهر العسل في إيطاليا، وسويسرا، وأسبانيا، والنمسا ونيويورك. وعلق قائلا: «شهر عسل دائم يرى، ليف أن الكاتب يجب أن يحظي بشهر عسل دائم».

غادر أسعد بيك أسبانيا وعاد إلى فيينا. وفي فيينا شاركا زوجين أميركيين في بيت واحد، هما بنكز وجاي دراتلر. أي صباح في شقتهم كان يعد صباحا أفضل من رحلة لحديقة الحيوانات، لم يكن أي منهم يرتدي ملابسه قبل الانتهاء من أعمال البيت

الروتينية. تقوم إيريكا بالطباعة على الطابعة، وأسعد يملي عليها. وبينكس يرسم وجاي تعيد كتابة رواية لها. كان هو وأسعد يحفزان بعضهما، وكل منهما يتفاخر بما أنجزه من وقت الإفطار.

كان حضور إيريكا مهما جدا وضروريا لليف حتى وهو يتمشى وحين يعمل. بمجرد أن تكون قريبة منه، يعمل بهمة وحماس، حتى لو كانت تتحدث إلى نصف دستة من الضيوف في الغرفة نفسها.

أسقط محرر التريبيون ما كان مهما بالنسبة لي من أخبار في نهاية مقاله: أسعد بيك الآن وهو في مقتبل ثلاثينيات عمره يخطط للاستقرار في حياة منتظمة ورتيبة في الكتابة وفي التقدم بطلب للحصول على الجنسية الأمريكية. سيقوم بكسب عيشه من قلب بوتقة منصهرة، فقد كان عتيقا بقدر آسيا في تحيزاته لشرقيته. كان صوته الحاد وحاجباه الأسودان المعبران يتقلصان إلى جبين معقود كالفراء، صاح فيَّ ذات مرة: «أنا محمدي، وموال للنظام الملكي وشرقي».

هل كان ليف يخطط حقا لأن يكون مواطنا أمريكيا؟ في الحقيقة لم يكن ذلك الافتراض متلائما مع ما أعرفه عنه، على الرغم من أنه كانت هناك بعض الأسباب أدت بالمحرر عام ١٩٣٤ للاعتقاد بأنه يفكر في ذلك.

في بدايات شهر أكتوبر عام ١٩٣٣، كان ليف وإيريكا، ودادي لوفندال، وزوجته، وفالتر شقيق إيريكا، وكان في الثالثة عشرة من عمره في ذلك الوقت، على متن الباخرة «فواكانيا» في طريقهم إلى مدينة نيويورك. كان دادي قد ارتحل كثيرا إلى الولايات المتحدة في أواخر عقد العشرينيات، وصحبته ابنته إيريكا وابنه فالتر أيضا مع

مربيتهما، في عام ١٩٢٩، وكان آخر ربيع ذهبي قبل الانهيار. ولكن رحلة عام ١٩٣٣ كانت رحلة ليف الأولى للولايات المتحدة.

في الصندوق الذي عثر عليه حفيد بيما أندرسون في فيللا العائلة القديمة في راباللو، وجد بذلك الصندوق بين مئات الرسائل مخطوطات بخط ليف الدقيق، كانت توجد أيضا نسخة من قائمة طعام الغداء التي قدمت على متن السفينة وكتب عليها أنها «على شرف السيد محمد أسعد بيك» وإيريكا وأبويها وعليها تاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٣٣. ومع قائمة الطعام كانت هناك صورة فوتوغرافية رائعة تظهر كثيرا من الضيوف وهم يرتدون «أزياء شرقية» - نمساويون، وألمان، ومجريون، وإيطاليون، على متن السفينة بالعمائم والطرابيش وسيوف مقلدة للرجال، والحجاب للنساء، وبين المستشرقين الأوربيين وقف ليف، يبدو خجولا شيئا ما، برباط عنق أبيض وبدلة مزيلة. وفي خلفية الصورة، ثبت علمان أميريكيان بعرض الحائط بطريقة ملفتة للنظر، كإطار للحشد المتواجد بالصورة.

كان يتحتم على كل الوافدين بالسفن للولايات المتحدة من غير مواطنيها في تلك الأعوام أن يملأوا بطاقات خاصة، وكانت تخزن نسخة من تلك البطاقات في مكتبة صغيرة مضاءة بالفلوروسنت في أدنى حي مانهاتن تسمى مكتب إدارة السجلات والأرشيف القومي. كان بتلك الإدارة واحد من أغرب نظم الأرشفة والتصنيف التي صادفتها في حياتي حيث يوجد بها دليل حاسوب غامض بدءا من عقد السبعينيات يرشد الباحث إلى أماكن غير محددة في صناديق مرقمة تضم مصغرات لبطاقات مدون عليها كميات هائلة من الأدلة المكتوبة بخط اليد من عقد الخمسينيات. كانت إدارة الهجرة قد توقفت عن تسجيل الغرباء بتلك الطريقة من بداية الخمسينيات، لذلك كانت الأدلة

اليدوية المدونة بتلك الطريقة تنتهي عند الخمسينيات. وكان ذلك يعني أنه مازالت هناك أدلة تضم بطاقات كل الأجانب وكل من دخل منهم الولايات المتحدة عبر ميناء نيويورك قبل عقد الخمسينيات.

وبذلك يضم المكتب أعدادا مذهلة من البطاقات، ونظام الحاسوب (والذي ذكرني بحاسوب آخر مثله رأيته ذات مرة في ألمانيا الشرقية) لا يحدد أي شيء أكثر من تحديده لصندوق يضم تآلفات من مجموعات محددة من الحروف. كنت محظوظا لأن الأسماء التي كنت أبحث عنها لم تكن من الأسماء الشائعة، وحتى أدركت أنه مهما كان النظام المتبع في البطاقات المصغرة فإنها ليست مرتبة بنظام أبجدي، لذلك كان عليَّ أن أفحص كل بطاقات الصندوق من أجل العثور على بطاقة لوفندال. وبمجرد أن عثرت على بطاقة الدليل المصغرة المطلوبة، وجدته يفصح عن اسم وسلسلة من الأرقام؛ وحولتني الأرقام إلى مكتب معين حيث تتواجد به لفافات من الأفلام المصغرة التي تضم صورا لكل قوائم من قدموا بالسفن إلى الولايات المتحدة عبر ثغر نيويورك. ولا يدهشنا أن أغلب الناس الآخرين في ذلك الأرشيف يبدو أنهم متقاعدون كما بدوت الوحيد في القاعة الذي لا يقوم ببحث عن أنساب وقرابات أجداده[1].

---

(١) ورغم ذلك، لم يكن ذلك صحيحا على إطلاقه. فلم أتمكن من مقاومة فضولي في إيجاد وتتبع كل ما ورد في بيان السفينة التي وصلت عليها أمي إلى الولايات المتحدة، وكانت قادمة بمفردها بصفتها من أيتام الحرب في عام ١٩٤٧. غلبني الفضول لمتابعة عمود للتوصل إلى «أقرب قريب أو صديق في البلاد حين يأتي أجنبي إليها» ووجدت أن الاسم المكتوب هو «الحبر كابيل»، وأظهر بعض البحث أنه ربما كان الحبر صموئيل رينيه كابيل، الذي كان يشغل منصب «مدير الشئون الدينية» في معسكرات الاعتقال في عهد حكومة فيشي الفرنسية. واستخرجت نسخة من القائمة =

كانت الفائدة الخفية في أن كل تلك المعلومات غير مصنفة بالحاسوب هو أنها ترغم المرء على قراءة كل جوانب وتفاصيل الوثائق الأصلية. ببساطة لا يمكنك الوصول لمعلومات عن مسافر معين في قائمة سفينة معينة على سبيل المثال دون أن تتصفح كل صفحة من أدلة الأسماء، والتعليقات، والملاحظات الإدارية. كنت مهتما بقراءة التعليمات الخاصة بضباط السفن عن كيفية ملأ العمود رقم ١٠ المهم جدا، «العرق أو الشعب المنتمي إليه»، وهو العمود المحصور بين العمود رقم ٩، «الجنسية (الدولة) الخاضع لها»، والعمود رقم١١، «مكان الميلاد». كان قانون الهجرة لعام ١٩٢٤ (والذي مرر جزئيا من الكونجرس عام ١٩٢١) يتضمن نظاما صارما عن «الأصول الوطنية والعرقية» يطبق لأول مرة في الولايات المتحدة - وهو نظام يتضمن الحصص النسبية وصمّم لتفضيل شعوب «الشمال» والشعوب المنحدرة من أصول أنجلوساكسونية، والحد من كل الأعراق الداكنة البشرة، سواء كانوا سلافيين، أو من أبناء حوض البحر المتوسط، أو أفريقيين أو آسيويين. وصدر القانون كأحد تبعات الخوف من الثورة وخوفا من «الذوبان العرقي»، وعاكسا في باكورة عقد العشرينيات استجابة فريدة للتشدد. كل شعب مشكوك فيه - من اليونان حتى الصين - لم يكن يسمح لهم بالدخول، كما كان القانون موجهاً على وجه التخصيص لإبعاد أبناء شرق أوروبا وجنوب إيطاليا.

غير أن ذلك القانون أضر مجموعة معينة ضررا بليغا أكثر من

= وأهديتها لأمي، ولكن فيما كان كثيرون من أبناء الجيل الأول من الأميريكيين يسعد بالحصول على نسخة من بيانات أسماء ركاب السفينة التي قدموا على متنها للولايات المتحدة، كان من الواضح أن أمي لم يسعدها تذكر تفاصيل تلك الرحلة.

غيرها: فقد تم تمرير القانون بالكاد في وقت أغلقت فيه فتحة الهروب والفرار في وجه يهود أوروبا في وقت صعود نجم النازية وزحفها لحيازة السلطة. واستمر العمل بذلك القانون خلال الفترة التي كان دخول الولايات المتحدة يشكل فارقا واضحا بين الحياة والموت لليهود (على الرغم من أن ذلك القانون ظل ساريا حتى عام ١٩٦٥، إلا أنه خفف كثيرا على يد ترومان بعد الحرب العالمية الثانية). وعلى مشارف بدايات القرن العشرين، كانت المذابح في روسيا قد أودت بحياة بضعة آلاف من اليهود، غير أن بضعة ملايين من اليهود هاجروا إلى الولايات المتحدة نتيجة لتلك المذابح قبل صدور قانون الحد من هجرة الشرقيين. أما في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، فقد انقلب الموقف كليا، وقتل ملايين من يهود أوروبا، بينما سمح لآلاف محدودة بالهجرة للولايات المتحدة.

ولذلك، كان لدي شغف خاص لفحص الأعمدة رقم ١٠ في بطاقات البيانات القديمة. لقد كانت أعمدة موت. لو سجل امرئ إجابة خاطئة في العامود رقم ١٠، لم يكن يسمح له بدخول الولايات المتحدة. كنت أتساءل على الدوام كيف كانت تعمل آليات ذلك القانون في عام ١٩٢٤. كانت توجهاته عرقية وعنصرية، بالنسبة لليهود - بالإضافة إلى بعض الأقليات الأخرى - كانوا يعتبرون من الجانبين، المتآكلين عرقيا والثوار سياسيا. غير أن توجهات القانون حجبت ذلك المقصد بالتعبير عنه عنصريا بمصطلحات وشروط وطنية، مثل أنصبة الهجرة من الدول والعقائد الدينية المختلفة. لم يكن القانون يمنع صراحة اليهود وذوي البشرة الداكنة، بل كان يفضل ويعطي الأولية للجماعات التي شكّلت السكان «الأصليين» للولايات المتحدة - الإنجليز، والأسكتلانديون، والهولنديون، والإيرلنديون، والألمان -

بالإضافة إلى أولئك الذين يرشحهم علماء تحسين النسل قبل أن يدعي الكونجرس أنهم «أرقى» وقابلين للتمثيل. كانت التعليمات على بيانات الركاب صريحة جدا وتبدو وكأنها موجهة لضباط السفن الذين قد لا يكونون متطرفين عرقيا في وجهات نظرهم وتوجهاتهم. التعليمات الموضوعة وجهت للتفريق بين الإيطاليين الجنوبيين والإيطاليين الشماليين، على سبيل المثال، مع دليل وإرشادات عامة تحذر ضباط السفن غير المدركين بشكل كاف للسلامة الصحية العرقية:

> يجب تحديد «العرق أو الشعب» الذي ينتمي إليه الأجنبي واللغات التي يتحدثها. الانتماء الأصلي بالدم سيكون أساس التصنيف، اللغة الأم سوف تستخدم فقط للمساعدة في تقرير وتحديد الأصل والسلالة.

تحت تلك التعليمات كانت توجد قائمة معاونة تضم سبع وأربعين «عرقا وشعبا»، من البوهيمي والدالماتي حتى السوري والولزي، ومحصور بين اليونانيين والهيرزجوفينيين كلمة ترمز لكل القرارات العرقية السياسية في ذلك العصر: «عبراني» (ولا عجب في أن هتلر وجه كتاب قانون العرق النورمبيرجي لدراسة قوانين الأجناس المحلية في الولايات المتحدة).

كان على ضباط السفن أن يصبحوا أكثر «حساسية عرقية» بمرور الوقت، لأن على قائمة السفينة التي وجدتها من عقد العشرينيات والتي تضم عائلة لوفندال، وجدت أنهم مصنفين ك «ألمان» في كل من العامودين ٩ «الجنسية» و ١٠ «العرق أو الشعب». في عام ١٩٣٣ كانت كل المجموعة بمن فيها «أسعد بيث نوسيمباوم» و «إيريكا نوسيمباوم أسعد بيك»، مدونين في العامود رقم ١٠ ك «عبرانيين يهود».

وتحت العامود رقم ٢٤، هناك سؤال إن كان الغرض الحصول على إقامة دائمة، أجاب كل المسافرين بنعم. لم يكن أبدا لدى لوفندال أي شك في أنه يقوم بتلك الرحلة كرحلة نهائية وأخيرة للولايات المتحدة. لقد كان في غاية الحكمة في تقييمه للموقف في أوروبا، ولم يكن لديه ثقة في استقرار أوروبا غير النازية - هذا عدا أنه أحب الولايات المتحدة، بلاد الرأسمالية. ولم يكن يجلب للولايات المتحدة عائلة فقيرة من اللاجئين. وتحت العامود رم ٢٣ «إن كان قد جاء للالتحاق بقريب أو صديق؛ أذكر الاسم والعنوان كاملا». وتظهر البطاقة أن كل جماعة أسعد بيك - نوسيمباوم- لوفندال قد نزلوا بفندق «والدورف استوريا، ببارك أفينيو، مانهاتن».

بعد بضعة أسابيع، اشترى دادي شقة فسيحة في أدنى الشارع الخامس، وانتقلوا إليها وعاشوا فيها حياة مترفة. وبالبحث في سجل المراسلات لدى ناشر ليف الإيطالي في فلورنسا، عثرت على رسائل عليها عنوان الشارع الخامس كما لو كان عنوان ليف.

وفي رسالة منه إلى بيما، وصف ليف الحياة المغرقة في الترف التي يعيشها في كنف أنسبائه في بيت من ثلاثة طوابق وكيف يشعره ذلك بتعاسة واحتقار لذاته:

> كنت فاحش الثراء، أمتلك ٥٠,٠٠٠ دولار كما أكسب ألف دولار كل شهر [ورغم ذلك] شعرت كما يشعر الزائر العابر، مع أني في شقتي. في السابعة مساء يأتي خادم أسود مرتديا زي الخدم مع كل ما يترتب على ذلك من اكتشاف أني دعوت اثني عشر فردا على العشاء... بالكاد لا أعرف عنهم شيئا أكثر من أسمائهم. ثم تحولت إلى حالة من الفقر الشديد. كل واحد اعتقد ذلك بشدة،

حتى «إيريكا» لدرجة أني اعتقدت ذلك أنا أيضا، ولو جرؤت على نسيان فقري الشديد، كانت إيريكا تذكرني بذلك على الفور، وبالشرف الذي حزته بزوجي منها. ولكن في حقيقة الأمر كنت أنا من يدفع ثمن الطعام والولائم، والحفلات وكل النفقات.

تشابك الجو والمناخ العام وأثر على رواية لم ينهها ليف ووجدتها بين أوراق بيما، وأحداثها تدور في مانهاتن بين سكانها الأثرياء، والتي يبدو أن ليف يبدأ أحداثها من عام ١٩٤٠. الرواية تبدأ على لسان راو هو زوج سيدة يشعر أنه يزداد تهميشا من قبل زوجته الوارثة لثروة طائلة؛ والزوج «من براري آسيا» يسمى الأمير علي الشيدس، وهو من جورجيا، نشأ من عائلة أصيلة وكان له وظيفة مرموقة بالجيش ولكنه لم يرث ١٠٠ مليون دولار مثلما ورثت امرأته المدللة. من الرواية، ومن مذكرات فراش الموت، ومن مكاتبات بيما، كانت الحياة الاجتماعية المترفة وتكبر امرأته المتزايد والمتعلقة بصيحات الملابس الحديثة الباهظة، - كانت - كلها كافية لتدفع بقاص الرواية إلى معاقرة المشروبات الكحولية. وكما يخبر ليف بيما: «كنت سكيرا على مدى عامين. تجاوزت كل الحدود في شرب الخمور، حتى بالمقاييس الأمريكية».

من الواضح في كل كتاباته أن ليف لم يحب على وجه التخصيص الولايات المتحدة وأحس أنه غريب وليس في المكان الملائم، وفي بلاد مسحورة ثقافتها وشعبها بالمال. كان ناشروه الأميركيون يعاملونه معاملة طيبة، كما لقى ذات المعاملة الطيبة من الصحافة، غير أن دوائر الندوات والمحاضرات لم تكن تستهويه «فالجانب السيء في الأمر يحدث دائما بعد انتهاء المحاضرة؛ وهم يسمونها حفل استقبال. . . و. . . أحاصر بكم من غباء البشر ينهال علي».

ولكن ليف أحب أحد الجوانب في أميركا: وعلى وجه التحديد قاعات السينما الهائلة الاتساع والمكيفة وأدب وتهذيب وكياسة المسؤلين والموظفين الحكوميين، قال مرة لمحدثه في مقابلة صحافية: «مسؤلوكم مهذبون وكيسون كفتيات مندوبات المبيعات الأوربيات، وهم يسلكون ويتصرفون مثل الواقعين تحت تأثير تحذيري: إن لم تكونوا مهذبين فإن العملاء سوف يتركونكم ويتجهون لمنافسيكم!».

كان متوافقا مع مانهاتن عقد الثلاثينيات - «البنايات الهائلة السامقة» من ناطحات سحاب الجادة الخامسة الجديدة، والتي «تفرض ارتفاعاتها الفريدة السامقة بحياة خاصة بها... يقطنها كل يوم ٥٠,٠٠٠ إنسان، ويزورها يوميا ٢٠٠,٠٠٠ إنسان. ما الذي يمكن لعمدة أي مدينة أوربية أن يفعله حيال تلك الأعداد إن كان يزور مدينته يوميا ربع مليون نسمه على وجه التقريب؟ لابد أن يفقده ذلك رشده». في وصفه، تبدو مدينة نيويورك كمدينة فريتز لانغ العالمية، مكاناً وحيداً سامقاً في السماء منحوتاً من «الغرانيت الأميركي البديع».

من على السطح الظاهري، كانت العلاقة المتبادلة بينه وبين إيريكا تبدو للعيان وكأنها «حياة اجتماعية براقة»، ولكنها من الباطن حولت حياة ليف إلى تعاسة وبؤس كاملين. كانت النغمة السائدة نشاطاً اجتماعياً محموماً للزوجة تقوم به دون أي مراعاة لآراء زوجها، وأصبح عرضة لارتكاب أخطاء مثل ارتداء حذاء غير ملائم لمناسبة ما ولا يتوافق مع البدلة التي يرتديها. «ذات مرة ارتديت حذاء بدلة الغذاء مع بدلة السهرة. يا الله، على الاهتياج والغضب الذي أظهره حماي».

في نيويورك كما في فيينا، بدا أن ليف وإيريكا يعيشان مع أبويها،

ومع شقيقها الأصغر فالتر. واكتشفت في سياق البحث أن فالتر مازال يعيش في مانهاتن، في أقصى الحي الشرقي، وهكذا توجهت لزيارته لأسأله عن زوج شقيقته السابق.

قادني فالتر لوفندال الذي أصبح الآن في الثمانينيات من عمره إلى غرفة استقبال بيته، كانت على الجدران صور فوتوغرافية لمغنيي الأوبرا. وأعتقد أنه كان من بينها صورة فوتوغرافية له مع بافاروتي. فسر الأمر لي بأن زوجته كانت من عشاق الأوبرا وزرعت فيه أيضا حب الأوبرا رغم أنه كان يكره الأوبرا قبل اقترانه بها. لم أتمكن من تفحص محتويات الغرفة بدقة فقد استحوذ فالتر على كل انتباهي - لا بسبب الحوار فقط، بل لأنه كان قد دخل لتوه في حالة من هبوط سكر الدم وكنت أخشى أن يفقد وعيه خلال زيارتي. ولكنه أصر على إتمام المقابلة رغم ذلك، واستعاد حيويته بمجرد أن بدأ يتذكر الأحداث من سبعين عام مضت، مرتحلا جيئة وذهابا بين فيينا ونيويورك، برفقة شقيقته وزوجها الجديد غريب الشأن.

تذكر فالتر الابن تلك الفترة قائلا وهو يضحك: «أسعد بيك كان خصمي وموضع انتقامي، حولت حياته إلى بؤس مقيم. كنت سيئا».

قال فالتر إنه وليف - الذي عرفه فقط باسم أسعد بيك - تصادما من البداية ولم يكونا على وفاق أبدا. «حين كنت يافعا، أوه، كرهته من كل قلبي، أخذت مخطوطاته وأغلقت على نفسي غرفة الاستحمام - كان ذلك في فيينا، حين كنا نقيم بفيينا. وجن جنونه - مفهوم، الآن أنا أتفهم ما الذي كان يعنيه ذلك لأي كاتب».

قال فالتر إنه تظاهر وهو في الحمام أنه يمزق أوراق ليف. «وكان مشهداً لا ينسى... كانوا يحاولون تحطيم الباب، وهو يصرخ ويصيح».

يبدو أن فالتر لم يفكر في خصمه القديم على مدى الخمسين عاما السابقة. كان قد أصبح من صانعي الأفلام التسجيلية كما كان له وظيفة متعلقة بالإعلانات التلفزيونية. شرح لي أن أبويه كليهما كانا يعارضان ذلك الزواج. حكى لي عن عائلته حين كانت في ألمانيا وقال إن جدته كانت من آل روتشيلد، وأن فرعا آخر من العائلة ينحدر من «عائلة ملوك الدنمارك، فردريك الأول، والثاني، والثالث، أو ما يماثل ذلك. كان لملك الدنمارك ابنا غير شرعي كان اسمه لوفندال - والذي أصبح بعد ذلك واحدا من أبرع العقليات العسكرية وحارب في كل المعارك ضد نابليون. كان يترأس جيشا من المرتزقة الدنماركيين».

لم يتبين فالتر أبدا إن كان ليف مسلما أو يهوديا أو على أي دين آخر من الأديان، «الأمر كله كان يبعث على التشوش. . . حسن، لقد كان يضع على رأسه طربوشا، لذلك يفترض أنه كان مسلما».

سألته إن كان ليف قد تمكن من إذابة الجليد بينه وبين عائلته الثرية العريقة لأن أباه كان مليونيراً نفطياً من باكو، سألني بدوره محتدا رافعا حاجبه: «مليونير؟ هل هذا حقيقي، كنت أعتقد على الدوام أن أباه رجل عجوز من فقراء اليهود».

وعدا عيشه حياة مترفة وتعاملاته مع أنسبائه من أهل زوجه، قضى ليف وقته في نيويورك ممارسا هواياته الأثيرة - أي بين الكتابة والشؤون السياسية. وفي المجال الأخير، كان يلتقي كثيرا بجورج سيلفستر فيريك، الذي كان يسكن في أقصى الجانب الغربي والذي سرعان ما سيعتبره أفضل صديق أميركي.

كان فيريك معجبا هو الآخر بأعمال ليف المعادية للشيوعية،

وسوف يتعاونان لاحقا في إخراج كتاب معا. ولكن في الوقت ذاته، تبنى فيريك بحماس أغرب شيء كتبه ليف في حياته - وهو مقال لصحيفته *German Outlook*، بعنوان «الخطر الشيوعي في الولايات المتحدة». ودافع المقال عن النازية وحذر من الاندفاع والتعجل في الحكم عليها. وقدم أسعد بيك في ذلك المقال بصفته تلك «الشخصية الروسية العامة الذي لفتت كتبه أنظار العالم المتحضر. ومثل كثيرون غيره من أبناء روسيا، يرى أسعد بيك أن البلشفية عدو للبشرية ويبهجه حقيقة أن الاشتراكية القومية الألمانية قد هيمنت وحجمت من التهديد الشيوعي الأحمر في ألمانيا».

لو لم يكن ليف مبتهجا حقا بالاشتراكية القومية الألمانية، فإنه قدمها على ضوء مغاير لما يتوقعه الآخرون. وكتب أنه «على مدى أربعة عشر عاما، ظلت ألمانيا على حافة السقوط في هوة ثورة شيوعية حمراء»، وواصل قائلا: «وبالأخذ في الاعتبار التكوينات السياسية والاقتصادية القائمة، فإن الثورة الشيوعية إن نجحت في ألمانيا سوف تؤدي حتما إلى نشر البلشفية في جميع أنحاء أوروبا وسوف يتمخض عنها تدمير الثقافة الأوربية التقليدية ثم امتداد الموجة الشيوعية إلى الولايات المتحدة الأمريكية» وهكذا اكتسبت حكومة هتلر «أهمية تاريخية... فقد كانت ألمانيا بمفردها قادرة على إقامة سور غير قابل للاختراق من القومية الحديثة أوقفت امتداد المؤامرة المدبرة لجميع أنحاء العالم من قبل حكام روسيا السوفياتية، حيث فقد أكثر من عشرة ملايين فرد حياتهم خلال خمسة عشر عاما فقط في أحداث الثورة الشيوعية والحرب الأهلية والإرهاب الذي رافقهما».

أدان ليف الجرائم البلشفية ولم يشر حتى إلى هتلر، مصرا على أنه «من المستحيل التوصل إلى حكم نهائي على ألمانيا دون أن يستقر في

وجداننا أن الثورة القومية الاشتراكية الألمانية قد أنقذت أوروبا من كارثة محققة».

ويبدو مستحيلا شرح آراء ليف إلا على أنها ازدواجية تفكير أو ضرب من الجنون - غير أنها كانت تصب بالأكثر في سياق التيار العام أكثر مما قد يعتقد المرء. فكما حدث بالنسبة لموسوليني وستالين، كان المراقبون في ذلك الوقت يرون في الأغلب ما يودون رؤيته. كتب ليف مقاله ذاك في نهاية عام ١٩٣٣، في العام الأول من هيمنة هتلر على قمة السلطة في ألمانيا. وبعد ذلك بعام، فازت جريدة نيويورك تايمز بجائزة بوليتزر عن مقالات فريدريك ت. بيرتشال، الذي أدت (تقاريره غير المنحازة عن ألمانيا) إلى اكتسابه تقديرا واحتراما عاما. كان بيرتشال مديرا لمكتب لصحيفة نيويورك تايمز في برلين وغطى أحداث كل الثورة النازية للصحيفة. في ربيع عام ١٩٣٣، وصف لقراء الصحيفة «الخدعة الصبيانية» في رفع راية الصليب المعقوف على كنيس يهودي وسلط الضوء على أعمال حرق الكتب المقدسة في أنحاء ألمانيا. ولاحقا، في عام ١٩٣٦، كشف بيرتشال عن عدم ظهور «أوهى الأدلة على وجود تحيز ديني أو سياسي أو عرقي» حين كان يغطي أحداث دورة برلين الأوليمبية، وكتب أن نتيجة مشاهدة الاستعراض الأوليمبي النازي «سوف يكون بكل يقين لصالح عودة الأجانب الممثلين في الدورة إلى بلادهم بانطباعات ممتازة عن نتائج الدكتاتورية وبتمني أن تظهر الديمقراطية نفسها أحيانا بمثل ذلك العرض المبهر»[١]

---

(١) وحتى نكون عادلين فيما يختص ببيرتشال، فقد أعلم قراءه أن النازية قد بذلت مجهودا خاصا لإزالة كل اللافتات المعادية للسامية من الشوارع وكبحت جماح النقد اللاذع الذي كانت توجهه الصحف الألمانية المعادية =

والحقيقة الفعلية هي أن صحفاً كثيرة في أنحاء الولايات المتحدة أتخذت من موقف ليف في ١٩٣٤ - واقعا افتراضيا حتى تاريخ دخول الولايات المتحدة الحرب في عام ١٩٤١، أي بعد فترة طويلة من معرفة النازية معرفة أفضل. الصحف الانعزالية مثل «شيكاغو تريبيون» أيدت وساندت هتلر حتى بداية الحرب العالمية الثانية بصفته خط الدفاع الأوربي الوحيد ضد «التهديد الشيوعي». وربما كان الأغرب من بين كل ذلك، أن مجلة «كريستيان ساينس مونيتور» نشرت كثيرا من المقالات الموالية والمؤيدة للنازية خلال عقد الثلاثينيات. فقد نشرت في عام ١٩٣٣ مقالة من حلقتين تحت عنوان «زيارة رحالة لبرلين» وصفت المقالة ألمانيا بالأمة الراضية حيث «المرور فيها منظم بطريقة جيدة... وجدت فيها الهدوء والاستقرار والنظام والتحضر والتمدن... وليس ثمة أوهى دليل على وجود أي شيء غير طبيعي». قارن كاتب «المونيتور» القمصان البنية ونسبها إلى «أعضاء في بعض التنظيمات الطلابية»، وكتب أن «القصص المؤلمة» التي تروج عن معاناة اليهود «وعن فصلهم من وظائفهم... حدثت فعلا مع نسبة قليلة لأعضاء ذلك المجتمع اليهودي الألماني». وأكدت المجلة أنه تحت حكم النازي، فإن اليهود بوجه عام «لا يضيق عليهم أحد». حتى فالتر ليبمان، ويحتمل أنه كان من أكثر الكتاب اليهود شهرة ونفوذا في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، حذر القراء من بني جنسيته من الأميركيين في عاموده الذي تنشره كثير من الصحف من أن الحكم على النازية الألمانية على ضوء معسكرات الاعتقال يماثل من

= للسامية لليهود حين كانت فعاليات الدورة الأوليمبية تقام ببرلين. غير أن بيرتشال لم ينتقد تلك الازدواجية: فقد حيا النازية لعملها على «إبعاد السياسة التي لا مكان لها في عالم الرياضة».

يحكم على «البروتستانتية من خلال جماعة كو كلوكس كلان العنصرية أو كمن يحكم على الديانة اليهودية من خلال محدثي النعمة اليهود».

ربما كان جورج سيلفستر فيريك، والذي كان من المفترض أنه من شجع ليف على كتابة مقاله المؤيد والموال للنازية، من أكثر الشخصيات العامة التي دار اللغط حولها بسبب أصله العرقي وجنسيته، وهويته، ومعتقده الأيديولوجي في الولايات المتحدة. غير أن النظرة الأعمق النافذة إلى ما خلف تهوره، وتجريباته، وعادته في دفع كل الأمور إلى حافة الهاوية وأقصى درجات التطرف في الرأي، تظهر أن جورج سيلفستر فيريك يمثل في حالاته القصوى، مجمل علاقة أميركا المضطربة والمشوشة، بالفاشية الأوربية في كل عقد الثلاثينيات. وسرعان ما سيدفع بوجهات نظره إلى أقصى مداها؛ أو إلى أبعد مما يمكن لأصدقائه من أمثال سيغموند فرويد وألبرت آينشتاين، أو حتى أسرته هو شخصيا أن يوافقونه عليها.

في ١٥ يونيو ١٩٤٠، بدأت قصة «حديث المدينة» في نيويورك:

> جورج سيلفستر فيريك نصير مخلص لألمانيا في هذه الحرب كما كان في سابقتها، غير أنه ليس عميلا معتمدا رسميا لألمانيا. ونحن ندرك ذلك لأن محرر العامود الخامس ذهب إليه في مكتبه - شقته في ريفر سايد درايف وسأله عن ذلك، فأجابه «أنا شاعر، وصحافي، وأتدخل في الأمور السياسية بشكل محدود، غير أني لست مندوب دعاية لأحد».

وصف محرر النيويوركر فيريك بأنه نحيف، أشقر، ويبدو أصغر سنا بنحو عشرة أعوام عن عمره الحقيقي، الذي كان ستة وخمسين عاما في ذلك الوقت؛ كان على وجه التقريب «مهووسا بأناقة ملبسه؛ ببدلة كاملة، وقميص، ورباط عنق، وحذاء لامع، ومنديل جيب في

أعلى صدر البدلة وجميعها منسجمة معا بدرجاتها المختلفة من اللون البني ».

ما لفت أنظار المحرر بالفعل كان مجموعة من الصور معلقة على حائط غرفة المكتب. كان ذلك في صيف عام ١٩٤٠ - أي بعد الغزو النازي لفرنسا! - وشكلت رواية المحرر عن تلك الزيارة مزيجا فريدا ضم عناصر كثيرة: «القيصر فيلهلم (حين كان امبراطورا)، أعضاء آخرين من عائلة هوهنزوليرن، هتلر (في الأيام التي كان يرتدي فيها القميص البني)، دكتور غوبلز. . . سيغموند فرويد، وألبرت آينشتاين». قال فيريك لمحرر النيويوركر دون أن يرمش له جفن: «كل أولئك الناس عرفتهم شخصيا وأعجبت بهم جميعا».

> «كتبت عن بعض منهم. المحلل النفسي، والعالم، وفوق كل ذلك تلك القوة الديناميكية» وأشار بيده نحو صورة أدولف هتلر - «كلهم كانوا من أصدقائي. بالطبع لم تظل صداقتي على نفس المستوى مع بعض منهم».

كان لويس، والد جورج سيلفستر فيريك، مشهوراً بأنه ابن غير شرعي لجلالة الإمبراطور فيلهلم الأول، جد الامبراطور فيلهلم الثاني -القيصر - مما يجعل من فيلهلم وفيريك الصغير أبناء عمومة. وتمرد لويس فيريك ضد دمائه الملكية المزعومة بأن تحول إلى اعتناق الاشتراكية وراسل ماركس وإنجلز، وهي علاقات أرغمته على الفرار من برلين إلى ميونيخ. وهناك، وفي عام ١٨٨١، تزوج من ابنة عمه الأمريكية، لورا فيريك (وكان إنجلز من شهود عقد الزواج)، وفي ٣١ ديسمبر من ذلك العام، أنجبت لورا سليفستر فيريك. في عقد الثمانينيات ذاك من القرن التاسع عشر، كان لويس عضوا في البرلمان الألماني، ولكنه قضى أيضا بعض الوقت في السجن بسبب «جرائم»

سياسية، وفي عقد التسعينيات، أقنعته لورا بالانتقال إلى الولايات المتحدة. وهكذا نشأ سيلفستر كأميركي من طفولته المبكرة، ولكنه لم يفقد أبدا حنينه لتلك الأعوام الستة المبكرة من حياته التي قضاها في ألمانيا.

بدأ سيلفستر فيريك بكتابة الشعر حين كان في الحادية عشرة من عمره، وأحب شخصيات المسيح، ونابليون، وأوسكار وايلد، وكانت يضع ياقات من القطيفة على ستراته المسائية، وكتب: «اقترنت على الدوام بكل الأشياء المرضية والشريرة. وأعشق عظمة التعفن والتحلل والأفول والاضمحلال والخراب، والجمال العفن للفساد»، ومثل تلك السطور قد تكون قد كتبت من قبل صبي يافع، غير أن سيلفستر لم يكن أي صبي يافع - ففي الوقت الذي أنهى فيه دراسته بمدرسة سيتي كوليج العليا بنيويورك، كان قد نشر ديواني شعر ومجموعة من المسرحيات القصيرة، وأطلقت عليه صحيفة ساترداي إيفيننج بوست «أكثر الأدباء الشبان إثارة للجدل في الولايات المتحدة حاليا... ويتهم بإجماع الآراء بأنه عبقري».

وفي أغسطس ١٩١٤ - من بين كل الشهور وكل الأعوام - أصدر الشاب الحائر الذي أطلقت عليه مجلة «أتلانتك الشهرية» لقب «أوسكار وايلد أميركا» صحيفة أسماها «الوطن الأم»، وهي «تكريس أسبوعي لعرض الوجه الحقيقي لألمانيا والنمسا - المجر». وإلى جوار الصحيفة، أسس فيريك مؤسسة الوطن الأم والتي أنشأها بغرض «جعل الأميركيين من أصل ألماني فخورين بتواصلهم مع وطنهم الأم». وبدأت الإشاعات تتطاير من حول فيريك بأنه يتلقى زيارات في مكتبه من عملاء ألمان، خاصة من ألماني تحوطه الشبهات عرف باسم دكتور ألبرت. وقد وأدت تلك الشائعة في يوليو ١٩١٥، فبعد انتهاء

أحد العروض الفنية. حين نسي دكتور ألبيرت حافظة أوراقه في الجادة السادسة، وكان بصحبة فيريك ويركب معه سيارته، وانتزع حافظة الأوراق أحد العملاء السريين كان مكلف من قبل أحد مكاتب الخدمات السرية بتعقبهما، وتحتوي على أوراق توثق «عديدا من المخططات الوحشية» مما دفع الصحف في أنحاء أميركا للصراخ الهستيري: الهون (إشارة لألمانيا) دفعوا ٢٠٠,٠٠٠ دولار لفيريك... ليقوم بالدعاية لألمانيا، وفجأة! لم يعد من طليعة الشعراء المفضلين لدى أي أحد. فصلته رابطة الكتاب من عضويتها، وتم شطب قصائده من المختارات الشعرية، كما تم إسقاط إسمه من دليل الشخصيات المعروفة. ولكن في عام ١٩٢٣، نشر فيريك كتابا علميا شعبيا، بإشارات جنسية عميقة تحت اسم: «تجديد العمر: كيف يجعل الشتايناخ الناس شبابا »- عن طبيب فيناوي يستخدم الهرمونات ليبطئ معدل التقدم في العمر - وبطريقة ما وصل الكتاب إلى سيغموند فرويد، فكتب إلى فيريك يسأله إن كان يود أن يكتب كتابا مماثلا ولكن عن التحليل النفسي.

قال فرويد لفيريك: «كنت أقارن بكولمبس، وداروين، وكبلر، ولكنهم ينكرونني كمشلول»، والتقط فيريك الشعار، مشيدا ببطله الجديد «كولومبس اللاوعي» و«المكتشف النمساوي العظيم للعالم الخفي للروح». وسرعان ما أصبح فيريك واحداً من رواد (في أوقات كان يشاع عنه أنه مضلل ومخادع) نشر الفرويدية في الولايات المتحدة. وساعد فرويد على إطلاق فيريك في مهنة الصحافة بصفته محرر المقابلات رقم واحد. أما الأكثر تأثيرا على سياق حياته، فقد تمثل في تقديم فرويد له لليهود.

وبعد فترة قصيرة من عقده لحوار صحافي مع فرويد في فيينا، طار

فيريك لميونيخ، وأصبح أول صحافي أميركي يقوم بحوار صحافي مع هتلر. وحين وصف هتلر اليهود بأن لهم «نفوذاً مقلقاً» وأنهم «أغراب يعيشون بيننا»، رد عليه فيريك بأن ألمانيا تدين بالكثير لليهود. ورد هتلر قائلا إن اليهود مذنبون ومدانون فقط بجعلهم «الضعف فضيلة»، مما جعل فيريك يدرك على الفور محاولة هتلر تهذيب النازية. وأصر فيريك على أن ألمانيا تضم كثيرا من اليهود المنتجين المهذبين، مما دفع بهتلر للإجابة مباشرة قائلا: «إن حقيقة أن رجلا ما مهذباً لا يعد سببا كافيا يمنعنا من إزاحته أو القضاء عليه». وبينما أضاعت كل المقابلات والحوارات الصحافية التي كانت تجرى الوقت حول معاهدة فيرساي أو الموقف من النمسا، قفز فيريك إلى جوهر فكر هتلر - الذي ظهر واضحا من قوله «إن حقيقة أن رجلا ما مهذباً لا يعدُّ سببا كافيا يمنعنا من إزاحته أو القضاء عليه»، ولم يتمكن فيريك من تسويق مقابلته لهتلر وحواره معه، فقد كان مجهولا في أميركا، ولم يكن أمامه من وسيلة لترويجه إلا بنشره عن طريق وكالات أنباء ضعيفة.

في منتصف عقد العشرينيات، انهمك فيريك في دوامة من الانتقالات في أنحاء أوروبا عاقدا لقاءات ومجريا حوارات مع كل شخصية عامة يمكن تخيلها: مع مارشال فوش وكليمنصو... جورج برنارد شو وأوزفالد سبنغلر... موسوليني والملكة إليزابيث ملكة بلجيكا (قال عنها إنها «ملكة حداثية... لا ترضى بمجرد وضع التاج على رأسها، وهي بطلة في مسابقة الصحة العامة»)... هنري فورد (الذي أخبر فيريك أن هناك «عقلا جبارا» أو «عقل الأرض الواعي» يبث موجات الأفكار للناس)، والبروفيسير ألبيرت مول («شارلوك هولمز أرض الأشباح») الذي كرس نفسه لاكتشاف ظواهر ما وراء

الطبيعة بعلوم أشعة إكس الجديدة)، ودكتور ماغنوس هيرشفيلد («آينشتاين علوم العلاقات الجنسية. . . دكتور هيرشفيلد، مدير معهد العلاقات الجنسية في برلين، متبني نظرية النسبية الجنسية. وهو ليس أول من اورد بوضوح تلك المعتقدات، غير أنه انتقل بها إلى نتائجها المنطقية»).

ربما كانت أهم المقابلات الصحافية التي أجراها فيريك تلك التي أجراها مع آينشتاين، وكما فعل مع فرويد، سرعان ما تحول الحوار باتجاه اليهود والمسألة اليهودية. تحدثا عن النسبية، والصهيونية، والدين، والوطنية:

> قال آينشتاين: «نحن اليهود كنا على الدوام قابلين للتكيف، كنا على الدوام شغوفين بالتضحية بخصوصياتنا في سبيل التكيف مع المجتمعات التي نعيش فيها. . .
>
> مناخ طفولتنا حدد سلفا خصوصياتنا وميولنا. حين التقيت بك، أدركت أن بإمكاني أن أتحدث إليك بحرية دون أي قيود أو كوابح، تلك القيود والكوابح التي تجعل من تواصلي مع الآخرين في غاية الصعوبة. أنا أنظر إليك لا كألماني ولا كأميركي، بل كيهودي».

واعترض فيريك محتجا بأنه ليس يهوديا. قال: «أبواي وأسلافي من النورديكيين من شمال أوروبا من بروتستانت ألمانيا».

> وقال البروفيسير آينشتاين: «مستحيل، مستحيل على أي امرئ أن يتتبع أصل كل نقطة دم في عروقه. لقد تناسل الأسلاف وتكاثروا مثل بذرة ذرة على رقعة شطرنج، مما ضايق السلطان. . .».
>
> أجبته: «على قدر ما أعرف نحن شماليون، وهاجرت عائلة فيريك من سكندنافيا في شمال أوروبا إلى ألمانيا. . .».

أجاب آينشتاين: «ومع ذلك لديك قابلية التكيف النفسية التي لدى اليهود. هناك شيء في تركيبك النفسي تجعل من الممكن بالنسبة لي أن أتحدث إليك دون أي موانع أو عوائق».

في أواخر عقد العشرينيات، شرع فيريك في الركون إلى مهنة رابعة أو ربما خامسة مع رواية فكرية واسعة المدى، والتي قال عنها إنها أول رواية تطبق نظريات فرويد على التاريخ البشري، ابتداءا من بابل القديمة. رواية: «أول ألفي عام لي: سيرة اليهودي التائه» كما يحكيها اليهودي التائه الأبدي، الذي، يستعيد فيما هو تحت التنويم في جلسات التحليل النفسي، ماضي ألفي عام من المتاعب والشتات. وعلى الفور حقق الكتاب أفضل المبيعات وتربع على قمة أكثر الكتب مبيعا (طبع منه ٥٠٠,٠٠٠ نسخة بغلاف سميك)، وطبعت منه اثنتي عشرة طبعة في أميركا وحدها مع طبعات أخرى بلغات مختلفة على مدى زمني قصير. وتلى ذلك نجاح كبير. فقد رأى توماس مان أن تلك السيرة «جريئة ورائعة». كما أعلنت صحيفة «الجمهورية الجديدة» أن «أول ألفي عام لي» مشبعة بروح المعاصرة، بينما قالت صحيفة شيكاغو تريبيون أنها «تقترب من جماليات الإغريق». وحين منعت الرقابة تداول الكتاب في إيرلندا، طار الشاعر الإيرلندي إلى أميركا ليساند نظيره الشاعر فيريك. فجأة، بعثت سمعة فيريك من جديد بعد اضمحلال. وظهر مقال في صحيفة «العالم» في ١٣ أبريل عام ١٩٣٠ تحت عنوان «عودة جورج س. فيريك» محتفيا بانقشاع السحابة عن سمعة ذلك الشاعر العظيم، وأعلن أنه بسبب «آمال أميركا المعقودة على قيمة الحرية، فإن الشعر الأميركي لديه جورج سيلفستر فيريك ليشكره أكثر من أي شخص آخر، مع احتمال استثناء إزرا باوند من ذلك».

كانت المقارنة ضربا من التخمين، فعلى الرغم من أنهما لم يكونا يعرفان بعضهما، وسوف تتقاطع مسارات فيريك وباوند فيما بعد ذلك في سياقات حياتهما في أكثر من مناسبة: فكلاهما سيؤيد بعد ذلك دول المحور - ومما يبعث على السخرية على الرغم من ذلك أن تأييد إزرا باوند لموسوليني سوف يترافق مع معاداة شرسة للسامية لدى باوند، بينما اتسم تأييد فيريك لهتلر بشكل معاكس «بميول يهودية»؛ وكلاهما سوف يستنكر موقفه ويوصم ويتهم بالخيانة ويسجن من قبل الحكومة الأمريكية لتعاطفهما مع الفاشية، وكلاهما سيحاول أن يعاون أسعد بيك على الصمود والبقاء في أوروبا في مواجهة الفاشية الأوربية في أيام يأسه الأخيرة. ولكن على عكس باوند، الذي كان لديه ميل وطني متأصل في معاداته للسامية. كان فيريك يفتخر بأن كثيرين كانوا يصنفونه بالخطأ على أنه يهودي. وكتب فيريك في عام ١٩٣١: «سرعة اليهودي، وفكره الذي لا يهدأ ولا يركن أبدا إلى الدعة، واستجابته الفورية للمحفزات العصبية والعقلية، تحت نقاب من الخمول والكسل الشرقي، يثيرني. لتلك الأسباب أصبحت مؤرخه وناقل أخباره».

ولكن بعد فترة قصيرة من قضائه وقتا مع صديقه أسعد بيك في نيويورك في عام ١٩٣٣، قام فيريك بزيارة الرجل الذي كان يطلق عليه «الدينامو البشري»، أدولف هتلر الذي كان قد أصبح على قمة السلطة في برلين. وبحلول ربيع عام ١٩٣٤، حين قام فيريك بإلقاء خطاب في ماديسون سكوير جاردن أمام ما يزيد على عشرين ألفاً من «أصدقاء ومؤيدي ألمانيا الجديدة» كانت القاعة تغص بالأعلام الأمريكية، ورايات الصليب المعقوف النازية، وصور فوتوغرافية لجورج واشنطن وهتلر.

وقف فيريك أمام عشرات الآلاف من الأميركيين المتعاطفين مع النازية الألمانية وقال بتعاطف وحماس في مكبرات الصوت: «لست معاديا للسامية ولن أكون أبدا. أنا من المعجبين والمؤيدين لفرانكلين د. روزفلت». واستمر في خطابه عاقدا مقارنة بين هتلر وروزفلت، قائلا إن كليهما كان «يبذل أقصى جهوده لبناء عالم جديد من بين حطام عالم قديم»، واستنتج من ذلك مع اقتراح غريب أن على الحضور والمستمعين أن يضعوا في اعتبارهم إمكانية التعاطف «مع الاشتراكية القومية الألمانية دون الاضطرار لاعتناق معاداة السامية معها».

أصدقاء فيريك من اليهود - بمن فيهم وكيله الأدبي، إسحق غولدبرغ - نشروا سلسلة من الاستنكارات ضده في مختلف الصحف، مطلقين عليه اسم: «جورج الصليب المعقوف فيريك». في يونيو، التقى فيريك في فيلادلفيا ببوتسي هانفشتنغل، الذي كان في فترة انقطاع عن وظيفته كمسؤول للصحافة الأجنبية لهتلر في الرايش الثالث لحضور احتفال جمع الشمل الثالث عشر لدفعته من جامعة هارفارد. وكان كلاهما في حماية الشرطة من حشود اليهود الغاضبين المحتجين على النازية. ورغم ذلك كان فيريك يدعي أنه ليس نازيا. وتعلق بأمال أن «المستشار هتلر» سوف يدرك الحكمة من نظام موسوليني المؤيد لنظام ملكي فاشيستي وأن يعيد هتلر قيصر ألمانيا من منفاه في هولندا وأن يعمل تحت أمرته كوصي على العرش. دافع فيريك عن القيصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد أن أبعد جلالة الإمبراطور إلى منفاه في عام ١٩١٨ في هولندا، كان فيريك الصحافي الوحيد الذي سمح له القيصر بزيارته مرات عديدة في منفاه.

يتذكر بيتر فيريك تجواله وركضه في أنحاء القصر المترامي

الأطراف حين زاره بصحبة أبيه. قال: «كان المشهد نوعا من المشاهد المقرفة. خدم في كل مكان، ولكنك تشعر بجو من سيادة التشكك، كل فرد رسمي جدا في ملبسه وسلوكه، كما لو كان مازال في بلاط ملكي أو محكمة، ولكنه يشعر في الوقت ذاته أن كل ذلك مجرد ادعاء وتظاهر ونوع من التمثيل. أتذكر أن القيصر كان يخاطب أبي قائلا «يا ابن عمي»، ولكنك تعلم أن تلك الطريقة هي التي كان يتحدث بها الملكيون إلى أقارب العائلة المالكة الآخرين، لذلك أعتقد أن ذلك لم يكن سوى نوع من المجاملة لأبي، ربما كان ذلك يرفع قليلا من قدر أبي، ولكني لم أظن أنه كان يعني أن أبي ابن عمه فعلا».

وتقريبا في صيف ١٩٣٤، فتح فيريك لليف فكرة تعاونهما في كتابة سيرة غير تقليدية عن القيصر السابق. وفي رسالة من ليف إلى بيما في يونيو ١٩٤١، وكانت صديقة لفيريك أيضا، يتذكر ليف في تلك الرسالة كيف وضع تصورا للمشروع:

> لو نشر الكتاب باسمي فسوف يكون كتابا مثل غيره من الكتب، ولكن نشره باسم فيريك سوف يحدث ضجة، فلأسباب يتعذر شرحها، يعد فيريك في أميركا ابن عم غير شرعي للقيصر. وحيث إنني لست بأي قدر من أقارب القيصر.. نشر الكتاب باسم فيريك، وذلك أفضل كثيرا عما لو كان اسمي أضيف للتأليف. كلانا كان راضيا وهذا ما يمكن للمرء أن يسميه مشاريع العمل الأدبية، أو الوجه التجاري للأدب».

كتب ليف مسودة الكتاب الأولى أثناء رحلة بحرية. وكتب لبيما: «لم يكن من الصعب كتابة كتاب وأنا أسافر على متن مركب بحري، وحيث كان علينا قطع المحيط الأطلنطي في ٣٠ يوما، حملت مادة الكتاب في رأسي. كل يوم كنت أملي عشر صفحات على إيريكا.

وانتهيت من الكتاب في فينيسيا». وفي الحقيقة، اقتضى منه الانتهاء من الكتاب وقتا أطول من المعتاد - ستة أشهر من العمل المتواصل - بسبب كم المواد التي كان عليه قراءتها أولا. زار ليف أيضا القيصر مرة واحدة على الأقل في منفاه في هولندا («لم يعد صغير السن، غير أن كفاءته العقلية والذهنية كانت جيدة»)، ومن ذلك الوقت وصاعدا راح ليف يرسل للإمبراطور نسخا من كل كتاب جديد ينشر له.

جاء كتاب «محاكمة القيصر» كمزيج تاريخي غريب كتب على هيئة شهادات تقدم في قاعة محكمة. وهي في ظاهرها محاكمة للقيصر على جرائم حرب أمام منبر يضم شخصيات تاريخية، من الموتى والأحياء. ويعد الكتاب أيضا انعكاسا للأعوام الأولى من القرن العشرين والأحداث التي أدت إلى زوال الإمبراطوريات القديمة في مشاهد لا نهائية واسعة الانتشار من القتل الجماعي والدمار الهائل. وأشاد جورج برنارد شو بالكتاب «كوسيلة جديدة مؤثرة من كتابة التاريخ» وهو يقدم «منجما من المعلومات الثمينة.... الدرامية والعدلية القانونية». كما قدم شيئا ليس عدليا تماما - نوعاً من التصنيف القومي، غموضاً حبائلياً، يعيد تصوير وتخيل الانقسام القديم بين الشرق والغرب:

> بتمركزها في الشرق، تعد ألمانيا «وجه الشرق المستدير نحو الغرب». وهي في الوقت ذاته الموقع الأمامي للحضارة الغربية. إذ تنتمي انجلترا، وفرنسا ودول حوض البحر المتوسط إلى المجال الثقافي الأطلنطي؛ ذلك المجال، بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية، إما مجال «مؤنث» أو «مزدوج الجنس».

وبالطبع، لابد أن يكون لليهود وضع في تلك الأمور أو يتواجدون في مكان ما منها: «إنه دزرائيلي، لا أدولف هتلر ولا هنري فورد،

الذي تبنى في روايته المسماة «كوننجزبي» نظرية أن هناك مائتي عضو عالمي يكونون حلقة ضيقة مركزية تتحكم في مصائر البشر».

وخلال الأعوام الأخيرة من عقد الثلاثينيات، راحت عزلة فيريك تتزايد، ونتيجة لنبذه من الجميع، أصبح معتمدا أكثر وأكثر على حكومة النازي في عمله. ولقد تم سجنه بالفعل في شهر مارس عام ١٩٤٢ لعدم كشفه عن «جوانب محددة من عمله» كانت تمول من قبل وزارة الخارجية الألمانية؛ وأطلق سراحه بعد عام، ولكنه اعتقل من جديد بسبب اتهامات وجرائم أخرى مماثلة في مارس ١٩٤٣. أما ابنه الأكبر، جورج سيلفستر الإبن، ففقد لقي حتفه وهو يقاتل الألمان في يناير ١٩٤٤، كما هجرته زوجته على أثر فضيحة إدانته وسجنه، ومن الواضح أنها كانت قد تبرعت بكل أمواله لهيئات إغاثة يهودية لمساعدة اللاجئين اليهود وللجمعيات الخيرية الكاثوليكية. وكتب أبتون سنكلير لفيريك شخصيا ليقول له: «لو كان هناك بنيديكت أرنولد[١] لهذه الحرب، فأنت هو».

ربما كان ليف آخر أصدقاء فيريك من اليهود في العالم، وفي الحقيقة كان واحداً من آخر الأصدقاء الذين تبقوا لديه في تلك المرحلة من حياته، بعد أن توقف فرويد، وآينشتاين، وكل الآخرين - بما فيهم أسرته ذاتها - من التحدث إليه أو التعامل معه. وقبل فترة قصيرة من وفاته، كتب ليف إلى بيما ساخرا عما يحدث لفيريك: «هو

(١) بينيدكت أرنولد: كان جنرالا في حرب التحرر الأميركي ضد انجلترا وحارب في صفوف الجيش الأميركي ولكنه خطط للاستسلام للجيش البريطاني بعد أن فتح قنوات تواصل سرية بينه وبين البريطانيين بعد أن تعرض لتخطيه في الترقيات وتجاهل الجميع ضمه للكونجرس القاري. (المترجم).

جاسوس بالطبع للألمان، وقاتل وسفاك دماء، ورجل عصابات، وعدا كل هذا فأي صحافي ديمقراطي يعلم عن يقين أن فيريك هو من أغرق الباخرة لوزيتانيا[1] في الحرب العالمية الأولى. أما في الحقيقة، فهو رجل لطيف جدا وكان مبعث راحتي الوحيدة في أميركا».

---

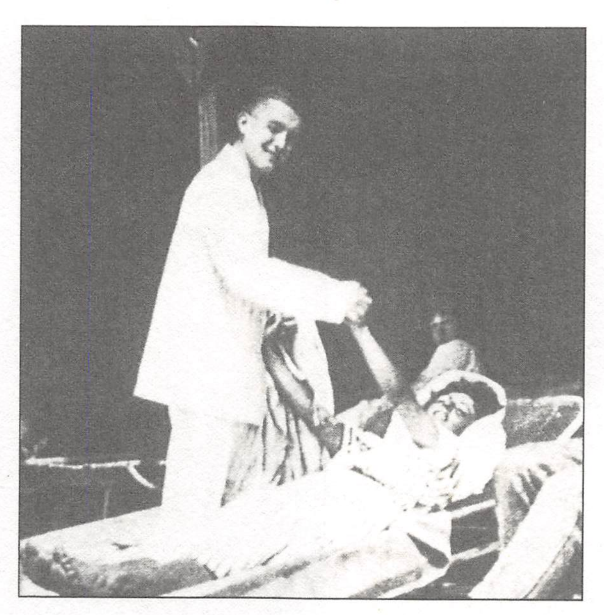
(١) بنت انجلترا السفينة لوزيتانيا كأكبر سفينة ركاب في العالم لتعمل ما بين ليفربول ونيويورك وقامت بأول رحلة لها من ليفربول إلى نيويورك في ١ سبتمبر ١٩٠٧، وفي الأول من مايو عام ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى قامت برحلة من نيويورك إلى ليفربول، وتسربت معلومات للمخابرات الألمانية أنها تحمل ذخيرة وأسلحة من أميركا لمساعدة بريطانيا في الحرب، وحين اقتربت من سواحل ايرلندا في ٧ مايو، ضربتها غواصة ألمانية بطوربيد وأغرقتها (المترجم).



ليف نوسيمباوم، في نحو السادسة من عمره، وهو بالزي القوقازي الجبلي الكامل: معطف أنيق أبيض وحزام يمتد من الكتف حتى الخاصرة المقابلة وقلنسوة كبيرة من الفرو.



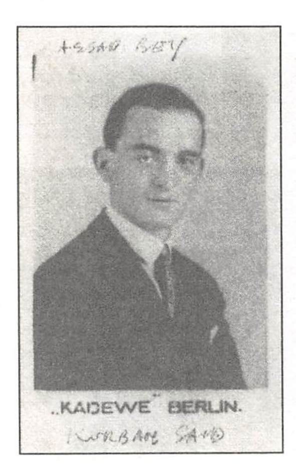
حفلة كريسماس في باكو عام ١٩١٣، وتضم مسلمين ويهوداً (ويظهر ليف في الصف الثالث، أقصى اليمين، بياقة قميص بيضاء وأذنين كبيرتين).



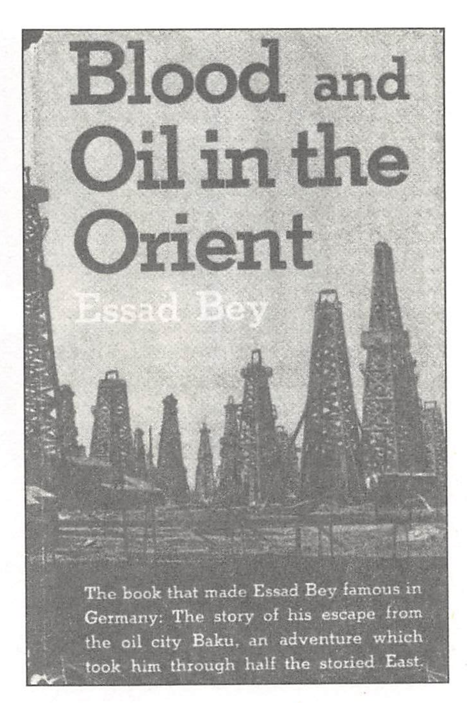
ليف في سن المراهقة بلباس البحر الأبيض
في أحد المنتجعات.



ليف مع الأختين فورونوف، وتوسيا بيسكوفسكي، وطفل أشقر
قد يكون أو لا يكون في المستقبل المخرج مايك نيكولس.



صورة ليف على جواز سفره عام ١٩٢٣ (دوَّن عليها زميله أليكسندر يريلوفكسي اسميه المستعارين: أسعد بيك وقربان سعيد).



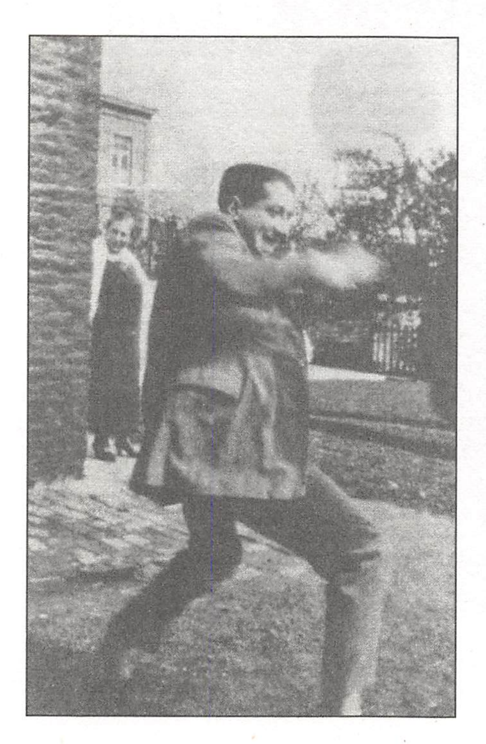
غلاف أول كتاب لليف في ترجمته الإنكليزية.



ليف محاطاً بزملائه المهاجرين، في المدرسة الروسية في برلين عام ١٩٢٢.



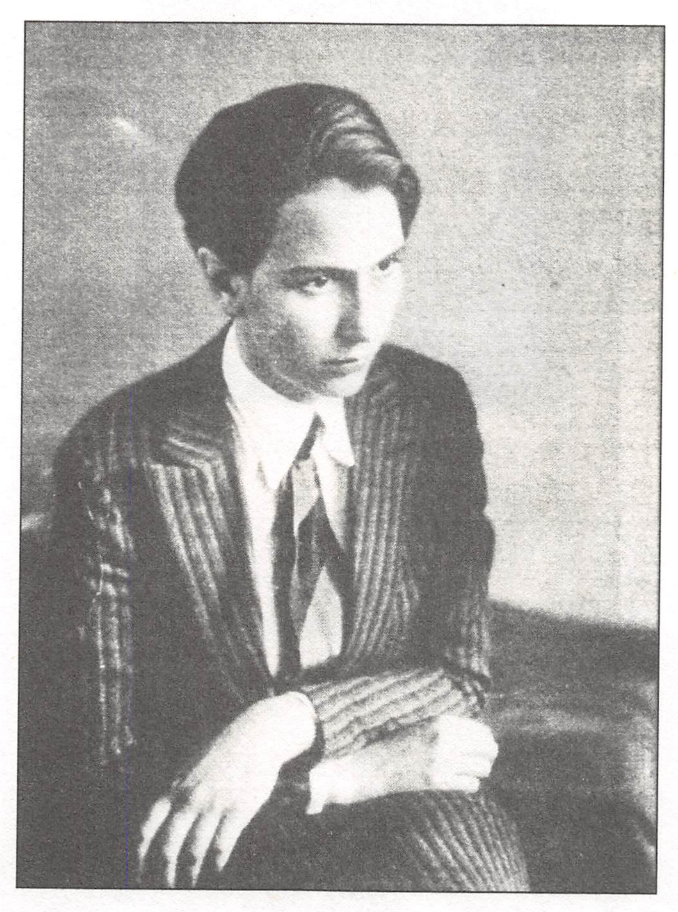
طلاب صف ليف في المدرسة الروسية في برلين عام ١٩٢٢.



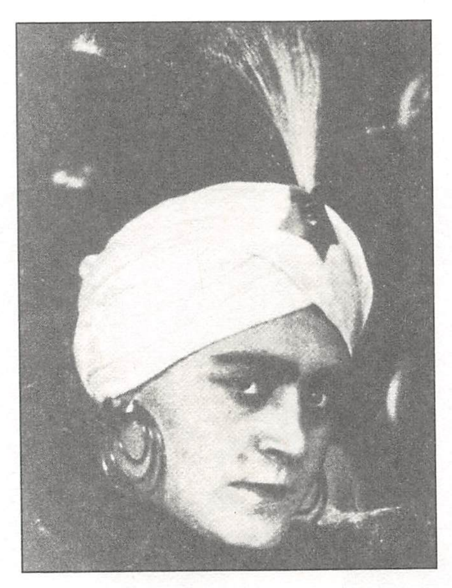
زميل ليف في المدرسة وخصمه اللدود، جورجي ليتايور.



ليف الشاب عندما أصبح كاتباً.



إيريكا لوفندال، ابنة المليونير وشاعرة عصر موسيقى الجاز.



ليف بالزي الشرقي الكامل.



عصابة فيينا: وتضم (من اليسار) جاي وبينكز دراتلر، وإيريكا، وفرانتسي، وشخصين غير معروفين.



ليف مثل جيمي كاغني الشرق، أو كما كتب مراسل «هيرالد تريبيون»: «أسعد بيك - يكره المشاكل، ولكنه مستعد لكل الاحتمالات».

تعليقات بعض الصحف حول قضية طلاق إيريكا وأسعد

APRES LA SCENE DE LA SEDUCTION, CELLE DE L'ENLÈVEMENT

Scandale mondain en Autriche

Toute la société viennoise se passionne pour un procès sensationnel dont un biographe de Mussolini tient la vedette

Qui a raison, de la femme ou du mari ?



Mme Erika Essad Bey (à droite) et son témoin principal, Franz Bassnteld

في الأعلى: صحيفة فرنسية تكتب: «بعد مشهد الإغواء جاء مشهد الانفصال». «فضيحة عالمية في النمسا». «من هو على صواب؟ الزوج أم الزوجة؟»



Mohammed Essad Bey and his wife Erika, dining in New York night club before the present unpleasantness.

في الأعلى: نيويورك ديلي نيوز

في الأسفل: صاندي ميرور مغازين

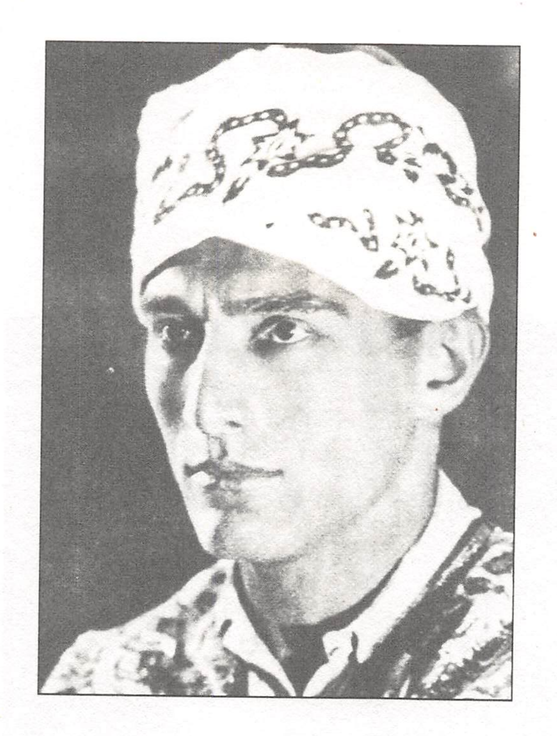


SUNDAY MIRROR MAGAZINE SECTION

Harem? Yes--But Scare 'Em? No!

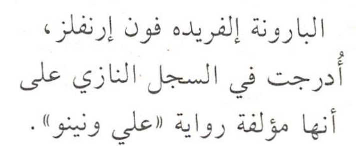
The Broad-Minded Poetess Didn't Object to Her Mohammedan Husband's Having Multiple Wives—But When He Insisted on Reading Her His Horror-Stories, She Fled to America—and a Divorce

ALONE—AND LIKES IT

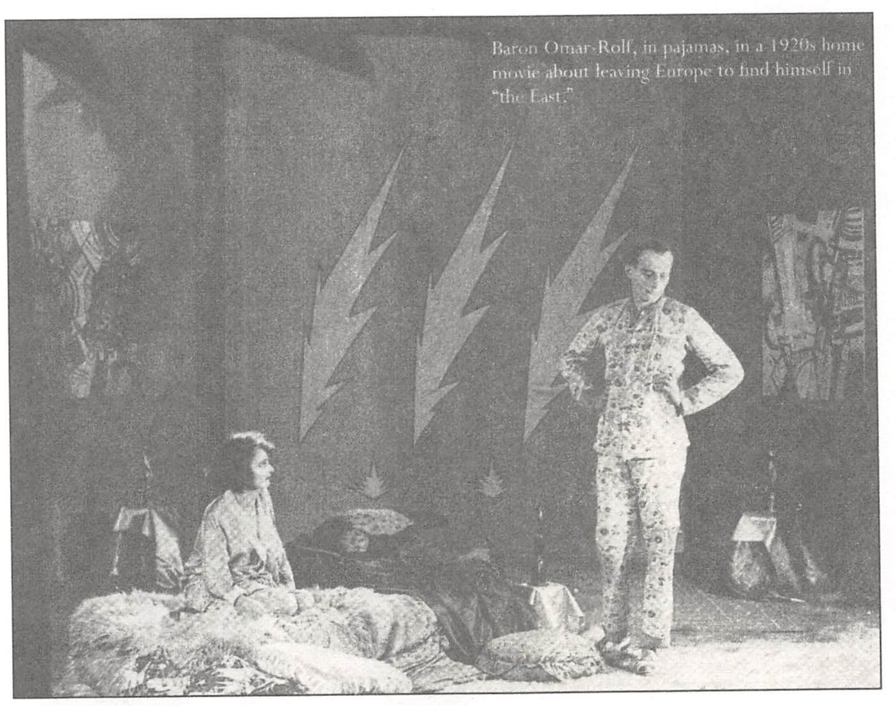


البارون «عمر»
رولف فون إرنفلز.





البارونة إلفريده فون إرنفلز،
أُدرجت في السجل النازي على
أنها مؤلفة رواية «علي ونينو».


Baron Omar-Rolf, in pajamas, in a 1920s home movie about leaving Europe to find himself in "the East."

البارون عمر رولف، مرتدياً البيجاما، في فيلم من عشرينيات القرن الماضي حول مغادرته أوروبا ليجد نفسه في الشرق.



ليف في آخر سنة من حياته مع جميل فاكا مازارا (المظلّي المسلم الغامض الذي كان في الواقع ضالعاً في تهريب المخدرات والأسلحة).

zu diesem Heft schildere. Aber es liegt im Wesen des Menschen dass er das Leben nie aus toten, vergilbten Büchern lernen kann. In seinem Blute, in seinen Adern muss der Mensch das [illegible] seines Lebens tragen und an seinem Schicksal muss er es erfassen und gestalten. Es ist mir gelungen den Ozean zu durchschwimmen das die kleine Privatinsel vom mächtigen Kontinent trennt und erst dadurch haben vielleicht auch meine Erlebnisse einen Wert und eine Bedeutung. Ja — es gibt kein ~~Privatglück~~ Glück, das nur Privatglück wäre. Das Glück kann auch private Freuden erfahren, es ist aber nur dann lebendig, wenn es sich in rhythmischen Gleichklang mit dem Ganzen vollzieht, mit jenem Ganzen in das uns das Schicksal gestellt hat.

Dieses zu sagen hielt ich für meine Pflicht. Betrachten Sie, lieber Freund, daher dieses Heft als die Warnung eines Entgleisten, der den Frieden gefunden hat.

Ihr

Dr. X"

Ich glaube diesen Zeilen nichts hinzuzufügen

Kurban Said

الصفحة الأخيرة من مخطوطة كتبها ليف وهو على فراش الموت، وهي موقّعة باسم «قربان سعيد».



شاهد قبر ليف في مقبرة مدينة بوزيتانو الإيطالية، وهو منحوت من حجر رخامي أبيض تعلوه كتلة دائرية على شكل عمامة.

الفصل الرابع عشر

موسوليني والسيدة قربان سعيد

«حريم؟ نعم - ولكن تخويفهن؟ كلا». هذ ما نشرته مجلة «سنداي ميرور» في ٢ يناير عام ١٩٣٨ :

لم تعترض الشاعرة واسعة الأفق على اتخاذ زوجها المحمدي الملة زوجات عديدات - ولكن حينما أصر أن يقرأ عليها قصصه المرعبة، فرت إلى أميركا - وطلبت الطلاق.

إلى جوار صورة فوتوغرافية هائلة معبرة لوجه إيريكا (وإلى جوارها صورة أصغر كثيرا لليف، مكفهر الوجه)، استكملت رواية قصتها بابتهاج:

خذ واحداً من مرتدي الطرابيش المحمديين - ناجياً من مخاطر ثورات وثورات مضادة، ومؤيداً حميماً للقيصر المقتول نيكولاس، ومؤلف ومغامر له أفكار شديدة الأصالة عن المرأة والحب -

وخذ شاعرة تشيكية - سمراء، رشيقة وحبوبة، ولها رصيد من ستة داووين شعر وأب ثري غير محدود بأي حدود من كل الجوانب -

وخذ أيضا كاتباً فيناوياً رائعاً غامضاً إلى حد ما، كتب قصة

حياة راهب روسي شرير (راسبوتين) ورفعت عليه قضية من راهب آخر -

إخلط كل ما سبق جيدا ورجه رجا شديدا، ثم اترك الخليط نوهنة ليستقر، وقدم الناتج طازجا وساخنا - سوف تحصل على ثلاث طبقات عاطفية نهائية من التي تجعل من علاقات ذلك الإنسان العادي غثة وباهتة وعديمة الطعم فعلا.

استقرت إيريكا في «بيل إير بكاليفورنيا» كما ذكرت الصحف، وكانت تعيش مع محب ساحر مبهر - كاتب من فيينا يدعى رينيه فلوب - ميللر، كان قد باع لتوه مخطوطة فيلم لكلارك جيبل. وكانت قد «شرعت في بدء إجراءات الطلاق ضد زوجها الروسي المحمدي الديانة، أسعد بيك».

ووصفت صحيفة «نيويورك ديلي نيوز» انهيار «الغرام الذي قالت عنه السيدة أسعد بيك أنه سيحيا حتى لو قرر زوجها المسلم اقتناء حريم». ولكن، كما صور مقال لـ«صنداي ميرور»، وجدت إيريكا أن «المظاهر التي أبهرتها في جموحه وخروجه عن المألوف في صورته الأولية التي تكونت لديها عنه، كفت بعد الزواج أن يكون لها ذات السحر السابق حين أصبحا يعيشان معا على أرض الواقع الحقيقي». وراحت تضرب الأمثلة على ذلك: «كان يقفز إلى غرفة النوم وأنا عارية... ويغلق الباب علينا وهو يصرخ: لن أدعك تخرجين حية من هذه الغرفة!».

وتذمرت واشتكت قائلة: «أخبرني أنه من سلالة أمراء عرب. وتحققت بعد زواجنا في برلين في السابع من مارس ١٩٣٢ أنه لم يكن إلا ليو نوسيمباوم عادي من عامة الناس».

كل المقالات والأخبار التي نشرت في الصحف الأمريكية كانت

سلبية ولم تكن منصفة لليف، وربما كانت تلك الحملة الصحافية مخططة سلفا من قبل دادي لوفندال، الذي كان يحيا في ذلك الوقت في بيل إير بكاليفورنيا بالقرب من ابنته ويوجه مكاسبه التي ربحها من الأحذية نحو استثمارها في عالم السينما في هوليوود (أحد التلميحات لدوره كان عبارة عن صورة كبيرة لوجهه تنشرها الصحف الأمريكية بصفته «شخصية كبيرة سابقة في السلك الدبلوماسي التشيكوسلوفاكي وشريك شركة باتا العالمية، ملك صناعة الأحذية البوهيمي»)، وعلى عكس ذلك كانت سمعة زوج ابنته إيريكا «صاحب الطربوش» تمرغ في الأوحال، هو وكل أعماله التي كتبها - «الانفصال الكبير في فيينا بدأ سريعا بعد أن نشر أسعد بيك كتاب «الدم والنفط»، وهو عمل ادبي مريع».

عثرت على الوجه الآخر لقصتهما في صحف التابلويد (الصحافة الشعبية) الفرنسية والنمساوية: «أسعد بيك في فيينا حيث يتواصل يوميا مع الصحافة، موجها الاتهامات بأن رينيه فالوب- ميللر الشهير عالميا بكتابة قصص حياة الأعلام قد سرق منه زوجته». غير أن التقارير الصحافية الفيناوية كانت أكثر توازنا واعتدالا. في شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ نشرت صحيفة *Neus Wiener* رواية كل منهما عن ذلك الصراع الزوجي:

> السيدة إيريكا، التي تزيد من زخم إكمال مستندات ملف طلاقها في لوس انجلوس عن طريق المحامي الفيناوي دكتور إدوارد فيرشهاور، صرحت بأن من بين أشياء أخرى كثيرة عانت منها مع زوجها السابق، عانت أيضا من نوبات الأنفجارات العصبية التي تعتريه. وإن لم يكن ذلك سببا كافيا، فإن الكاتب، طبقا لتقارير زوجته كان لديه عادة أخرى غير طبيعية. فقد كان يعشق أن يروي

لها أشد القصص إفزاعا وأكثرها إثارة للرعب عن عمليات تعذيب. وكان يرغمها على الاستماع لتلك الأشياء المخيفة والتي كان يستمتع هو بحكايتها. ومؤخرا، كما تدعي إيريكا، أصبحت تعيش في خوف عميق على حياتها، حيث إنها تدّعي أن زوجها يتناول مسدسا ويلوح به في وجهها مهددا حين تنتابه واحدة من نوبات غضبه المحتدم التي تفقده صوابه، ويكون من الصعب نزع السلاح من يده وإبعاده عنه، وهي تلك اللحظات التي تكون فيها حياتها في خطر مؤكد كما تقول إيريكا.

أما ما يقوله أسعد بيك فهو كما يلي:

في رد فعل على التصريحات التي تدلي بها زوجته للصحافة، فإن الكاتب، الذي يمثله دكتور إرنست قنسطنطين فندر، يدعي أن الأمر برمته غير حقيقي ولا صحة لما تدعيه زوجته من مروره بنوبات غضب وهياج مجنون. كما أنه لا توجد تهديدات يمكن الرد عليها. أما فيما يختص بقصص الرعب، فإنه يدعي أن السيدة إيريكا كانت سكرتيرته لمدة عام قبل زواجهما وأنه في ذلك العام تحديدا كان يملي عليها تلك الدراسة الثقافية التاريخية من تأليفه والتي كانت تحت عنوان: «الشرطة السرية الروسية - تاريخ الرعب الأحمر». بل وأنه حتى بعد زواجهما استمرت إيريكا في العمل كسكرتيرة له كما ساهمت في مراجعة المخطوطة قبل نشرها. وقال إنه لم يقم سوى بإملائها ذلك الكتاب الذي يتحدث عن أعمال تعذيب.

ما الذي كان قد حدث لتلك المجموعة السعيدة التي كانت مكونة من إيريكا وأسد، وبينكز وجاي - مجموعة فيينا التي كانت سعيدة بعالمها المبهج، ذلك العالم الذي كانت فيه «إيريكا تكتب على الطابعة، وأسعد يملي عليها، وبنكز ترسم وجاي يعيد كتابة رواية»؟

خلال كل عام ١٩٣٤ وجزء من عام ١٩٣٥، كان ليف يحيا حياة رائعة في فيينا كما كان يطوف أنحاء أوروبا مع زوجته الجديدة ومحبوته إيريكا. وفي باكورة عام ١٩٣٥، أعلن باحترام وتقدير عن زيارتهما للولايات المتحدة في صحيفة نيويورك تايم التي ذكرت في أحد عناوينها: «كاتب قصة حياة القيصر هنا: أسعد بيك يعلن أن القائد لم يكن مفهوما» - وهو احتفاء لم يتكرر حدوثه بعد الأخبار الصارخة التي ذكرتها فيما بعد صحف التابلويد الشعبية. في تلك الأعوام كان الزوجان «أسعد» يوجهان أحاديث رائعة وساحرة لأبناء صفوة فيينا وطبقتها العليا في «الحي الأول» بالقرب من دار الأوبرا، وقصر القيصر، وكاتدرائية سانت شتيفان. (وعلى الرغم من أن ليف كان يحيا حياة مترفة، ود أن يوزع أمواله على أصدقائه المعوزين، وربما كان ذلك راجعا لميول اشتراكية ورثها عن أمه أو طباع الأمراء التي ورثها عن أبيه. كان يرسل أموالا على سبيل المثال لصديقه الكاتب المتعثر ماليا جو ليدرير في إيطاليا، ولمحرر كتبه ومقالاته السابق آرثر روزن الذي يعمل في مجلة الأدب العالمي).

ومع عودته من رحلته إلى أميركا في ربيع عام ١٩٣٥ - يحتمل أنه مع تأليهه ككاتب وكشخصية اجتماعية عالمية، مع تقدير واحترام لوضعه الاجتماعي، هذا إلى جانب مقال يشرح ميوله «المشرقية» تجاه المرأة، نشر في مجلة «فانيتي فير» - عانى ليف من صدمتين لم يشف من أثرهما أبدا. فقد تلقى رسالة من اتحاد الكتاب الألمان تذكر أنه طرد من الاتحاد وبالتالي لن يسمح له بالنشر من خلال الرايش الثالث في ألمانيا. لم تذكر الرسالة سببا محددا لشطب اسمه من اتحاد الكتاب، ولم يكن هناك حاجه لذكر سبب. كما أن إيريكا اختفت، وسرعان ما تلقى منها رسالة تطلب فيها الانفصال. كانت قد بدأت

علاقة غرامية جديدة مع الكاتب فلوب ميللر، صديق ليف ومنافسه، فقد كان أيضا يكتب كتبا عن الشرق (ارجع إلى راسبوتين: الشيطان المقدس ولينين وغاندي). وعلى الرغم من أن مظهر فلوب - ميللر كان أقرب للبلاهة ويفتقد مظهر وقوة شخصية ليف الشرقية حيث يبدو كشيخ من شيوخ الشرق، وفي الحقيقة كان ليف يبدو أكثر كثيرا من مجرد رجل نساء أو زير نساء. وجابت إيريكا أغلب أنحاء أوروبا ذلك الصيف برفقة رينيه، دافعة بليف إلى الإحساس بأنه زوج مغفل، فقد قضيا معا قبل ذلك وقتا طويلا كزوجين بصحبة رينيه وزوجته هيدي وكانت مغنية أوبرا، وبقى كل من هيدي وليف في فيينا يحترقان غيظا حيث ظهرا كديوثين تركهما زوجاهما ومضيا معا في رحلة شهر عسل غير مشروعة.

تعجبت كيف وصل ذلك المجري فلوب ميللر الداكن البشرة بعينيه نصف المغمضتين وجفنيه المنسدلين إلى ذلك العالم المشرق لبنكز وجاي وأسعد وإيريكا. الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه ملأ المسافات المنقطة بلا إجابة كان ناشر ليف النيويوركي، محرر مجلة زعيم الفايكنج بن هوبش. سافر هوبش كثيرا لأوروبا وكان في أغلب الأحوال يصطحب مؤلفه النجم أسعد بيك لتناول العشاء معا وهو في أوروبا. دفتر مواعيده موجود على ملف في مكتبة الكونغرس الأميركي يظهر أنه كان يلتقي بليف أكثر من أي كاتب آخر يتعامل معه، وعلى الرغم من أن دفتر المواعيد مسجل به: «تناول الشاي مع ربيكا ويست»، «تسفايغ على الغداء»، «وجوب إعادة الاتصال بإميل ياننغ، بخصوص فكرة فيلمه لجوزيف روث»، «فرفيل يصطحبني للعشاء. فرفيل يقرأ علينا من الدراما الجديدة المستوحاة من التوراة». ومن باب الفضول رغم ذلك، فإن مراسلات هوبش مع مئات المؤلفين

والكتاب موجودة كلها بالأرشيف، إلا أنه لا يوجد ملف لأسعد بيك. مع أنه توجد ملفات لأناس لم يكتبوا إلا رسالة استعلام واحدة لهوبش - اندهشت حين وجدت ملفا خاصا بجدي ألفريد، الذي تقدم باقتراح لهوبش عام ١٩٤٣ بوضع كتاب عن كيف يمكن بتحليل خطوط الكتابة اليدوية أن يدعم «الاختلافات الفردية» ومساعدة الأميركيين على مقاومة «النظم الشمولية»[١] غير أن الورقة الوحيدة التي وجدت عليها توقيعا لأسعد بيك كانت تلك التي وجدتها في كل أرشيف هوبش بعد أن فتشت في ثنايا عشرات الملفات، وكان التوقيع على بطاقة بريدية مرسلة من فيينا في عام ١٩٣٣. كانت بطاقة بريدية جماعية ممهورة بتوقيعات مجموعة من الكتاب ممتنين لناشرهم الأميركي المفضل وهي من أسعد بيك، وإيريكا أسعد بيك، ورينيه فلوب-ميللر.

سجلت أليس شولته الوصف التالي لتلك المرحلة الحزينة في مخطوطة ذكرياتها اللتي دونتها بخط يدها عن ليف:

> منتصف عقد الثلاثينيات: زوجة أسعد هجرته دون مبررات من أجل رجل أكبر منه سنا ومتزوج، على الرغم من أنها كانت مدللة من زوجها. ثلاث مرات ينقذ من قبل «أمه الحاضنة (مربيته)»

(١) ليتمكن جدي من دخول الولايات المتحدة كلاجئ، وكان رجلا جادا جدا ومتواضعاً جدا، بذل محاولات عديدة ليسوق لدرجة الدكتوراة التي نالها من هايدلبيرغ، والتي أضفت عليه بعض الغموض كخبير في مجالات علم النفس، وعلم الخطوط، وعلم الفراسة بدراسة شكل وحجم الدماغ، وكان قد قام بكتابة مقالات لمجلة «الاعترافات الحقيقية - (*True Confessions*) - وعلقت عليها المجلة قائلة: دع دكتور ريس يعاونك على اختيار رفيقتك أو رفيقك من خلال معرفة حجم الرأس»، مع صور ورسومات كثيرة لجماجم أزواج سعداء من قادة العالم ومن نجوم السينما.

[وهي أليس ذاتها] من الانتحار. أدخل من قبل إلى منتجع ومصحة نفسية بالقرب من برلين، وعاد لبيته بعد بضعة أشهر، دون أن يكون قد شفي شفاء تاما. كما خضع لجلسات تحليل نفسي؛ وكان العلاج غير شاف.

بذهاب إيريكا وعدم قدرته على النشر في ألمانيا بعد شطب عضويته من اتحاد الكتاب الألماني وتمدد هيمنة الرايش الثالث، داوم ليف بحسم على التواجد على طاولته المعتادة في مقهاه المعتاد بفيينا، مقهى هيرنهوف، والتي أصبحت قاعته المليئة بالدخان العاصمة غير الرسمية لأدب أوروبا المنفي. في منتصف الثلاثينيات، شارك أسعد بيك في ذلك المكان مع أناس عاديين مثل ماكس برود، وفرانتس فرفيل، وإيغون إيرفين كيش، وكلهم كانوا قد وصلوا مؤخرا من براج، وأيضا صديقه من برلين، فالتر ميرنغ. كان مقهى هيرنهوف الأكثر حيوية فيما أطلق عليه الكاتب شتيفان تسفايغ «النادي الديمقراطي» للمدينة.

ومحاولا نسيان مشاكله بطريقته القديمة من الانغماس في الإنتاج بغزارة، داوم ليف على الجلوس بالمقهى طول اليوم ليكتب بخطه الدقيق المنمق، مسجلا في الكتابة أربعة أضعاف عدد الكلمات التي تكتب بالصفحة، ومنهمكا في الوقت ذاته في كتابة قصة حياة القيصر نيكولاس الثاني آخر قياصرة روسيا باسمه هو، وكتاب آخر عن حياة قيصر ألمانيا السابق، لينشر تحت اسم صديقه فيريك. كما كتب مقالات طويلة لصحيفة المنفيين القوقاز التي تطبع في باريس، ومقالات قصيرة لوكالة «بولفار» الفيناوية، وعلى وجه التخصيص لصحيفة «نيو فينر»، وهو نوع من النميمة الثقافية الرفيعة التي تغطي تطورات «فضيحة» طلاقه من إيريكا. وبدأ أيضا في كتابة القصص القصيرة التي كانت للعجب تنشر فقط في بولندا - الحب والنفط -

وبدأ في صياغة العلاقات لما سيصبح أكبر مشروعين مصيريين في كتاباته، والتقى ليف بشندل، مدير أعماله القديم من أيام كتابه «النفط والدم» في براج لمناقشة تلك المشاريع الكتابية الجديدة، كما حافظ على صداقته بجاي وبينكز دراتلر؛ وعاونه جاي على نشر عمله في انجلترا.

في ذلك التوقيت على وجه التقريب، اتخذ ليف لنفسه وكيلا جديدا، وهي هيرتا باولي، وربما كان السبب في اختيارها أنهما اعتادا احتساء القهوة معا في مقهى هيرينهوف دون أن تكون هناك أسس مالية قوية. كان تقليد وجود وكيل أدبي في أوروبا - ولا يزال - غير متطور بالقدر الذي هو عليه في الولايات المتحدة. كان شندل محرر ليف الأدبي ثم أصبح مديرا لأعماله بحكم العادة حين أثار كتاب «الدم والنفط» ضجة كبيرة. كانت باولي كاتبة أيضا، وشابة جذابة نالت تدريبا في مقتبل حياتها لتصبح ممثلة. وكانت من فيينا - وفي الحقيقة من عائلة علمية، وحين عمدت لاستقصاء أصولها، وجدت أن أخاها، فولفغانغ باولي، فاز بجائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٤٥ - ولكنها انتقلت إلى برلين في عقد العشرينيات الذهبي بناء على دعوة من ماكس راينهارت وكان مديرا مسرحيا كبيرا. وتركت باولي برلين عام ١٩٣٣، حين كان الجميع يفعلون ذلك وعادت إلى فيينا. بعد ذلك بأعوام، وبعد أن أعيد طبع رواية «على ونينو» في السبعينيات، كانت أول من كتب لصحيفة النيويورك تايمز موضحة لحقيقة شخصية اسم المؤلف قربان سعيد. وتذكرت أول لقاء لها بليف قائلة - «بدا بشكل ما شبيها بالملك حسين دون شارب» - وكانت مسحورة بمظهره الفريد. وتذكرت كيف انضم ليف إلى تعاونية للكتاب كانت هي قد نظمتها للمؤلفين الذين ألغى الرايش الثالث عضويتهم

باتحاد الكتاب الألمان. (ويمكن معرفة مدى تأثير ليف على باولي من كتابها الذي نشرته عام ١٩٤١ بعنوان: «ألفريد نوبل: ملك الديناميت، ومهندس السلام»، والذي ضم وصفا مطولا لمدينة باكو غير موجود في أي سير ذاتية أخرى للمخترع العظيم نوبل). «سرعان ما كان أسعد بيك ينجز كثيرا من المقالات عن تاريخ وعادات موطنه في أصقاع القوقاز». وفيما كانت تصف مواقفها البطولية المعادية للنازية، ضمت تعاونية الكتاب كل أنواع الأعمال الكتابية. فالبنسبة لتوماس مان، قامت باولي بوضع بعض أعماله السياسية؛ وبالنسبة لليف اقتصر عملها على السعي لترويج قصص مغامراته التي خاضها، إضافة إلى تفاوضها على الأقل بشأن أحد عقود قربان سعيد لروايته الثانية التي تحمل اسم «فتاة من القرن الذهبي».

كتبت باولي أن أسعد بيك «لم يجعل من أي شأن يخص أجداده وأسلافه سرا خاصا»، وأن ذلك كان أحد أسباب سحر شخصيته: «كان يتحدث عن تلك الأمور بصراحة مطلقة وهو يرتدي زيه الغريب الساحر. وربما يفسر ذلك لماذا لم يكن يهاجم علنا خلال تلك الأعوام التي كانت تتصاعد فيها الدعوات المعادية للسامية في فيينا». وتتذكر كيف كان الجميع يستمعون بشغف إلى حكايات ليف عن ستالين كقاطع طريق ورجل عصابات مجرم في حلقاتهم وهم جلوس على مقهى هيرينهوف. وحين قرأت «علي ونينو» بعد كل تلك الأعوام في ترجمتها الإنجليزية بنيويورك، أحسست فجأة كأني أستمع لـ«أسعد يتحدث من جديد بأسلوبه البارع المميز».

بنهاية عام المشاكل، سيبدأ ليف بالتعاون مع فيريك في كتاب ينافس كتبه في شفافية الخصوصية، ويكشف عن جانب آخر لنظرته

المتطورة والمتغيرة لذاته. كان الكتاب عن العودة السياسية الحديثة للعالم الإسلامي وبعنوان «الله أكبر: انحدار وصعود العالم الإسلامي». ما كان غريبا لم يكن موضوع الكتاب بقدر ما كان في اختيار ليف للمؤلف المشارك معه: فقد كان سيتشارك ماليا مع دكتور فولفغانغ فون فايزل، الذي كان يرتبط بشدة بفلاديمير جابوتنسكي، زعيم الجناح اليميني المتشدد في الحركة الصهيونية.

وحين اقتفيت أثر حفيدة فون فايزل في أورشليم، أخبرتني أن عائلتها تؤمن أن فون فايزل - «وكان يعد المقابل اليهودي للورانس العرب» - قام بكتابة الجزء المتعلق بالعرب من الكتاب فيما قام ليف بكتابة الجانب المتعلق بألمانيا وتركيا. وعلى الرغم من أنه من غير الواضح بالضبط كيف قاما بتقسيم العمل، إلا أنه من الواضح بيقين أن ليف كان المؤلف الرئيس للكتاب. وتدور أفكار الكتاب حول دور مستشرق يهودي في نهايات عقد الثلاثينيات في الشرق الأوسط. التقط ليف وفون فايزل واختارا ما يودانه من الإسلام وقاما بتحميلها بأفكار رومانتيكية إلى أبعد مدى، فيما ظلا في نطاق «الواقعية» السياسية. بالنسبة لهما، فإن الإسلام ظل قوة حيوية مؤثرة بقدر ما بقي متمسكا في الوقت ذاته «بصدق منطقه» و«سيادته الصحراوية». آمنا أيضا أن القادة الحقيقيين للإسلام لم يكونوا أبدا من الدبلوماسيين أو من القادة الفكريين ولكنهم كانوا من البدو البدائيين ومن مقاتلي القبائل. كان الإسلام قادرا على قهر وغزو البلاد المسيحية في القرن السابع الميلادي بسبب شبابه وحيويته، وكان ينجح لأنه بدائي وهمجي بالمقارنة بـ«العالم المسيحي المترف». وعلى وجه التحديد فإن هذا السبب بالنسبة للفريق الصهيوني - الإسلامي الذي وضع الكتاب، فإن انتصارات محمد لم تكن وليدة الحماس الديني وحده، فقد كان كثير

من جنوده من غير المؤمنين (وأشارا إلى أن جيوش المسلمين كانت تضم في الغالب مرتزقة من بين أبناء القبائل)

وباع كتاب «الله أكبر» بالرغم من العنوان كثيرا من النسخ في السوق اليهودي للكتب أكثر مما بيع به من كتب ليف الأخرى، مما يمكن إرجاعه إلى كل من ثنائية تأليفه بالمشاركة مع صهيوني كبير وأيضا بسبب اليهود المتحدثين بالألمانية، اليائسين من الفرار من أوروبا النازية، الذين كانوا يتطلعون إلى معرفة وتعلم كل ما يمكنهم معرفته وتعلمه عن الشرق الأوسط.

وبالفعل، تمت قراءة كتاب «الله أكبر» على نطاق واسع وباهتمام كبير من الصحافة الصهيونية، كما ظهر ذلك من وضع إيوغين هوفليش وهو الاسم المستعار لموشى ياكوف بن غابرييل في الدورية اليهودية «دير مورغن» عام ١٩٣٧، مع تعليق يقول إن الدورية «توصي اليهود بقراءة الكتاب، على الرغم من حقيقة أن بضعة سطور فقط موجودة بالكتاب تتعلق بفلسطين»، بسبب نظرته الواسعة والشاملة لعودة العالم الإسلامي. هوفليش، الذي كان يشعر ببعض المرارة بعد عشرين عاما من محاولاته دون جدوى تأسيس «اتحاد صهيوني آسيوي» وحلولا «سامية عامة» في الشرق الأوسط، مستخدما الكتاب كفرصة لانتقاد عجز زملائه الصهاينة في مواجهة الإسلام العسكري. وأمل أن يعلم كتاب «الله أكبر» اليهود في الأرض المقدسة عن التنين الكبير النائم الذي يقيمون فوق ظهره. رأت دورية «الجولة اليهودية» أيضا أن الكتاب أثار موضوعا كان يعد مشكلة كبيرة مختمرة انشغل عنها الغرب كثيرا بصراع القوى الدولية، متجاهلا مخاطرها التي قد تنجم عن تناميها. على وجه التقريب في كل مكان بحث فيه المؤلفان: تركيا، إيران، أفغانستان، المغرب، تونس، الجزائر، سوريا، العراق،

مصر، والجزيرة العربية ذاتها - كان النفوذ الأوروبي «يتقلص أو يتم التخلص منه كليا». وكما لاحظت تلك الدورية، فإن ليف وفون فايزل استنتجا أن الأمم الشرقية «سوف تظهر مفاجآت مدهشة في الأعوام التالية. وتنبأ بخسارة المستعمرات الامبراطورية الأوربية في آسيا والخوف المرافق لذلك الفقد من تحالف الإسلام مع العرق الأسيوي الأصفر والبني».

اشتمل كتاب «الله أكبر» على النصيحة والتحذير معا: فحيث تنكص أوروبا بوضوح عن تأمين سيطرتها من خلال قوة واضحة بلا تمويه، فلا بديل إلا تكوين «منظومة تبادل مصالح واهتمامات مع العالم الإسلامي، حيث توظف الطاقة الزائدة وتوجهات الشباب في اتجاهات فعالة بمساعدة من أوروبا».

كانت هناك كثير من القواسم المشتركة بين ليف وفون فايزل، فكلاهما كان يستمتع بارتداء الأزياء العربية أو التركية (وكلاهما زعم أنه قد اعتقل بالخطأ نتيجة للخلط بينه وبين العقيد لورانس «سيئ السمعة»).[1] ومع تفاؤل فون فايزل بمستقبل العلاقات الإسلامية -

---

(١) في أكتوبر عام ١٩٣٠ نقلت خدمات الاتصالات عن مكتب صحيفة «فوسيتشن تساتونغ» في طهران خبرا يقول إن مراسل الصحيفة في الشرق الأدنى قد اعتقل من قبل السلطات الفارسية وظل رهن الاعتقال لعشرة أيام لأن السلطات الفارسية «اعتقدت بالخطأ أن السيد فون فايزل هو العقيد لورانس». واردف النبأ المرسل أن فون فايزل «قد اقتفى على مدى أعوام ذات المسارات التي سلكها العقيد لورانس. بثيابه العربية، ومسلحا بسيفه القصير، قام بزيارة ابن سعود، والملك فيصل، وكل قادة العرب.... ولسوء الحظ، كان حرس الحدود الفارسية قد تلقى أوامر بالتدقيق والتشديد في البحث عن العقيد لورانس إن وصل للحدود الفارسية... وتطابقت المواصفات المذكورة في أمر الاعتقال على السيد فون فايزل فتم اعتقاله على أنه العقيد لورانس».

اليهودية، كان يتحدث العربية بطلاقة وعلى دراية كبيرة وواسعة بالدول الإسلامية. حين وصل لأول مرة للشرق الأوسط، كانت أحلامه تدور حول إقناعه للعرب بالإيمان بالصهيونية، وفي باكورة عقد العشرينيات، أصدر صحيفة في القاهرة مطبوع نصفها بالألمانية، ونصفها بالعربية، أطلق عليها اسم «جريدة النيل وفلسطين» (النيل وفلسطين جازيت). وأقنع أعضاء الرابطة الألمانية في مصر بتمويل المشروع، والذي انتهى بعد صدور أعداد قليلة لانعدام الاهتمام بها من قبل القراء.

ومثل هوفليش، كان فون فايزل قد خدم في القوات الإمبراطورية النمساوية في الحرب العالمية الأولى. غير أن فون فايزل كان أكثر تصلبا وأقل أحلاما، كان ضابط مدفعية تم تدريبه في آخر أيام الحرب كطبيب. (بعد عام ١٩٤٨ سوف يخدم كقائد لقوات المدفعية الإسرائيلية في صحراء النقب). بعض أفضل صوره موجودة في الجزء الأول من مذكرات أرثر كوستلر الشهيرة «سهم في اللون الأزرق». قدم كوستلر الذي انخرط بعمق في الحركة الصهيونية صورة كثيبة وباردة للحركة الصهيونية المبكرة، وقدم صورة شبه تعبدية لـ«لورانس اليهودية». ألتقى كوستلر بفون فايزل عام ١٩٢٤، حين كان ضابط المدفعية السابق يعمل كمراسل الشرق الأوسط لوكالة الأنباء الفيناوية «نيو فري برس» (وكالة الأنباء الحرة الجديدة)، وكان من خريجي نفس مدرسة يونيتاس اليهودية للمبارزة، ومن ثم فقد تم اختيار كل منهما للتصدي لمعاداة السامية بإثبات وإظهار شجاعتهما القتالية - وكان ذلك بشكل ما الإعداد الأمثل للصهيونية الإيجابية.

حياة فون فايزل المبكرة في الصحافة مليئة بالملاحظات الغيبية عن قوة كفاح الشرق الأوسط. كان مقاله بعنوان «الثائرين على الرموز الدينية على عتبات مكة» ونشر في خريف عام ١٩٢٤، وحذر فيه من

تنامي قوة الوهابيين في الجزيرة العربية، وقرر أنه «سيكون لدى الشريف حسين سببا للندم برفضه التوقيع على معاهدة الأنجلو - حجاز، والاعتراف بالحقوق اليهودية في فلسطين. رأى أن اليهود في أرض إسرائيل - ستكون إسرائيل عدوا أقل خطرا بكثير عن الوهابيين على أبواب مكة». وهو يعطي أيضا صورة جيدة عن الفوضى الشديدة التي انفلتت من عقالها في الدول الإسلامية في عام ١٩٢٤ بسبب إعلان أتاتورك المفاجئ إلغاء الخلافة الإسلامية، وهي مؤسسة لم ينظروا إليها إلا نظرة سطحية مع أنها كانت محورية ومركزية لشخصية المسلم الكلية.

لو بحثت اليوم عن اسم «فون فايزل» في «معجم الأدب النمساوي في المنفى»، سوف تكتشف خطأ فادحا، خاصة مع اعتبار أن ذلك المعجم يعد عمليا شكلا فنيا رفيعا في الدول المتحدثة بالألمانية. المقدمة تدمج أسعد بيك فولفغانغ فون فايزل في شخصية واحدة. والمعجم يشرح أن «فولفغانغ (فون) فايزل» استعمل أيضا اسما مستعارا هو ليو نوسيمباوم، وأسعد بيك، وقربان سعيد - ومن ثم الصحافي النمساوي، الذي له فقط كتاب رحلات وكتاب عن المدفعية النمساوية، وفجأة أصبح مؤلفا لعشرين كتابا على وجه التقريب من الروايات والنشر. بل والأكثر من ذلك، أن ليف نوسيمباوم صاحب الاسم المستعار أسعد بيك/قربان سعيد، أصبح فجأة واحدا من القادة المؤسسين للحركة الصهيونية، ثم ضابطا إسرائيليا في صحراء النقب.

في موقع المكتبة النمساوية الوطنية لعام ١٩٣٥ بالطبعة الفرنسية لسيرة ليف عن القيصر نيقولا الثاني، تصادف أن تكون على النسخة

المخطوطة للكتاب، على صدر الغلاف الأمامي - بالألمانية والعبرية - الملاحظة التالية بخط ليف لشخصية غير معلومة تربطه بها بعض الأحداث الحزينة: «إلى رفيقي الذي يعاني/ من أسعد بيك/ المنفي/ الذي تعرض للخيانة/ الذي ذهب عقله؟ أ. ب.».

لقد كان ذلك في خلال تلك الفترة التي يحاول فيها التخلص من يأسه حين واتته فكرة تحوله إلى تقمص شخصية «قربان سعيد» - «المضحي المرح». هذا الإسم الأدبي المنتحل سوف يتيح لأسعد بيك، الذي تم حجبه ومنعه من قبل الرايش الثالث أن يستمر في الكتابة والنشر هناك. ولكن ذلك سوف يصبح أيضا تحررا من شخصية ليف بصفته كاتب غير روائي. في عام ١٩٣٦ بدأ يعمل بمعدل يتراوح من عشر ساعات لاثنتي عشرة ساعة كل يوم في رواية تدور أحداثها في أصقاع وبراري القوقاز. وسوف يتذكر لاحقا ويحكي لبيما أنه لم يحدث إلا مرتين «ألا أفكر في دار النشر، ولا في حقوق الملكية الفكرية، بل مجرد الكتابة بسعادة ومتعة، وكان ذلك في كتابين هما: ستالين، ورواية «علي ونينو».

لو كان قد عاش، ربما كان «قربان سعيد» قد أنتج كثيرا من الروايات الرائعة، فقد كان ليف يشعر بسعادة ومتعة غامرة في دوره الجديد الذي تقمصه كروائي: «أبطال الرواية كانوا يأتون إليَّ ببساطة ويطالبون: «أعطنا شكلا وهيئة، - نحن نملك مواصفات معينة تناسيتها وأهملتها ونريد أن نرتحل، عدا أشياء أخرى كثيرة»».

ولكن كان هناك ذلك الشأن المتعلق بالبارونة إلفريده - أو البارونة قربان سعيد كما يمكن لنا أن نسميها. أو بطريقة أبسط، السيدة قربان سعيد. عرفت بها أول مرة حين قابلت الناشر بيتر ماير الذي كان يحاول نشر طبعة جديدة من «علي ونينو»، من دار أوفرلوك - وانتهت

باصطحابه إلى فيينا لحضور مقابلته بدكتور هاينتس بارازون/ محامي ورثة البارونة إلفريده. جلسنا في شقة المحامي التي تحيط بحوائطها جميعا رفوف مليئة بالكتب وفحصنا معا العقود النازية، محاولين إعادة اقتحام عالم فيينا في عام ١٩٣٨ من خلال مفتاح عجيب، من خلال قصة حب بين عرقين مختلفين ومؤلفها الوهمي المراوغ. كانت الجميلة النحيلة ليلا فون إرنفلز مستلقية على الأريكة، كشخصية منتزعة من عالم بروست، تجمل وتدعم كلام المحامي بصوت خافت يتلاشى بسرعة مع غبار هواء الغرفة. (كلما فكرت في ليلا، أتذكر ذلك الجهاز الضئيل الذي وصفته لي لاحقا والذي تستخدمه ليحول ماء صنبورها في البيت إلى «دوامات» - وهي ترى أنه ضروري لأننا جميعا نضعف من شرب الماء وهو ليس في حالته الدوامية الطبيعية).

ومع عميلته المتطلعة إليه، راح دكتور بارازون ينزل ملفات ثقيلة مليئة بالمستندات التي تدعم موقف موكلته: مستندات قانونية، وأسماء كتب في قوائم نشر من أواخر عقد الثلاثينيات مطبوع على كل منها النسر النازي والصليب المعقوف. وربما كانت العلاقات العائلية شديدة التعقيد والتركيب، غير أن القصة التي تروى باسم المستندات والوثائق الموجودة في أضابير المحامي كانت بسيطة. ففي صفحة ١٥٥٦ من الكتالوج الألماني الموحد عن الأعوام من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٩، ظهر بها المدخلان التاليان:

إرنفلز ف. بودمرزهوف، إلفريده، بارونة - علي ونينو، رواية لقربان سعيد [أي البارونة إلفريده إرنفلز ف. بودمرزهوف]. - فيينا، لايبزغ: دار تال للنشر ١٩٣٧.

إرنفلز ف. بودمرزهوف، إلفريده، بارونة - قربان سعيد [أي البارونة إلفريده إرنفلز ف. بودمرزهوف]. فتاة من القرن الذهبي، رواية - فيينا، لايبزغ، دار نشر زينين ١٩٣٨.

المدخل الثاني كان يشير إلى رواية قربان سعيد الثانية «فتاة من القرن الذهبي»، والتي قال عنها دكتور بارازون إنه ظن أن إلفريده كانت لها يد أعلى في الكتابة أكثر من علي ونينو. وهو يؤمن أنه بينما كان قربان سعيد مدون في القوائم باسم إلفريده كإسم شهرة كتابي، إلا أن الاسم كان يمثل بعض من التناغم بين البارونة وصديقها وضيفها أسعد بيك.

كان يوجد أيضا عقد اتفاق، مؤرخ بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٣٧، بين الشركة الناشرة إ.ب. تال وشركاه، فيينا، والبارونة إلفريده إرنفلز فون بودمرزهوف، قلعة ليشتيناو، لكتاب اسمه «الشرق الميت». وشرح دكتور بارازون أن ذلك كان عنوان العمل الأدبي المعروف بـ «علي ونينو». وثيقة أخرى كانت تفيد ببيع الحقوق التشيكية للرواية التي يشار إليها الآن باسم علي ونينو في ٧ يونيو ١٩٣٨. وفيما كان العقد الأول موقعا من قبل صاحب شركة النشر بخط يد منحنٍ ومتعرج - دار «تال» - تحت تحية تقليدية «مع عميق الاحترام»، كان العقد الثاني موقعا من قبل شخص آخر، شخص يدعى ألفريد إيباتش، تحت تحية عصر النازي المعروفة «مع التحية»، وهي طريقة عسكرية بديلة لـ«يعيش هتلر». وفسر دكتور بارازون أن ألفريد إيباش ذاك هو الاسم الآري لشركة تال (كما قامت السيدة تيريزه موغله بأرينة - أي تحويل الأسماء للغة الآرية - أسماء ناشري ليف الآخرين في فيينا، شركة باسر للنشر).

تساءلت متعجبا بصوت مسموع إن كان اسم إلفريده أيضا يمكن أن يكون بالقياس الإسم الآري لقربان سعيد، عند اتخاذه الإسم الأدبي المنتحل من اسم أسعد بيك لأن الأخير كان فعلا هو ليف نوسيمباوم، اليهودي. ربما كانت تفعل ذلك كمعروف تسديه لصديق، كما قام البعض من غير الكتاب «بالتكاتف» من أجل كتاب لهم ماضٍ

شيوعي في المرحلة المكارثية في الولايات المتحدة. بدا أن ليلا قد أصابها القلق من هذا الاقتراح ومال الدكتور بارازون لإيضاح أن العقود قد وقعت أول مرة في ربيع عام ١٩٣٧، أي قبل عام تقريبا من دخول النازي إلى النمسا، أي أنه لم يكن يوجد سبب لـ«أرينة» اسم قربان سعيد. حاولت طرح افتراضات وتخمينات جديدة حول التعاون بين إلفريده وأسعد بيك، ولكن لما بدت ليلا على حافة الإغماء تغاضيت عن طرحها.

سألت ليلا عن أبيها - في منتصف العشرينيات، وكما شرح دكتور بارازون، غير البارون رولف اسمه إلى عمر وتحول إلى الإسلام - وعن صداقته بأسعد بيك. قالت ليلا: «أظن أن عليك التحدث إلى أمي؛ فهي تعرف أكثر مني عن أسعد بيك وعن أبي وعن عمتي إلفريده أكثر كثيرا مما أعرفه عنهم، ولكن لابد لي أن أحذرك، فهي سيدة غير طبيعية إلى حد ما».

كانت أم ليلا الزوجة الثالثة للبارون، تعيش في فالدفيرتل، «منطقة غابات» النمسا - وهي منطقة نائية من البلاد بالقرب من الحدود التشيكية. قالت ليلا ذلك لأن أمها كانت تميل للانعزال والوحدة وحافظت على نظام حياة غريب درجت عليه، وكان عليَّ أن أقضي ليلة بقلعتها، قلعة ليشتيناو، لو كان علي بالفعل أن أجري معها مقابلة. إضافة لذلك، كان يوجد بالقلعة كثير من الوثائق التي قد تكون مهمة لي. غادرت فيينا في وقت متأخر، وكانت القلعة مضاءة بنور القمر المبكر في السماء حين وصلت إليها، مما جعل الأسوار الصخرية العالية تبدو وكأنها تنتمي لعالم سحري على خلفية من شفق سماء بلون الجليد الأزرق. فتحت البوابة وسرت إلى الداخل. رفعت

صوتي في الظلام قائلا بضع مرات متتالية: «نعمتم مساء»، ولما لم أجد ردا، خرجت عائدا للقرية القريبة باحثا عن هاتف. نظر الناس المتجمعون في النزل لاحتساء البيرة إلي كما ينظر سكان منطقة نائية لغريب، ولكن أحدهم قام بالاتصال بالرقم المطلوب، وبعد بضع رنات، رد صوت بلكنة فرنسية: «ولكن أين أنت؟ لقد انتظرتك لساعااااات!».

بعد ذلك بخمس عشرة دقيقة، كانت البارونة تبدو قوية البنية وحيوية بعينين بنيتين ومساحات من الشعر الأبيض، وكانت تقودني عبر دهاليز صخرية مظلمة في قلعة ليشتيناو. وعبر باب خشبي ثقيل، دخلنا غرفة قدرت أنها أقدم بثلاثة قرون على الأقل في سياق نمو القلعة وتطورها. كانت بالغرفة بسط شرقية، وبيانو، ومدفأة من السيراميك بعلو السقف، هذا عدا جهاز فاكس. عرضت علي البارونة قطعة من الجبن، مع كثير من الاعتذارات بأن السيدة التي تقوم بطهي الطعام لها لم تظهر من بضعة أيام، ثم رافقتني إلى مجموعة متتالية من غرف بدت كغرف سجن في رواق رائع يرجع لعصر النهضة. سألتني إن كان بإمكاني البقاء هنا واستأذنتني في اضطراب. لقد كانت الساعة ٧ مساءا كما قالت وكانت قد تجاوزت ميعاد نومها بوقت طويل.

بعد ذلك بخمس ساعات، بالكاد بعد منتصف الليل، استيقظت على صوت موسيقى روك أوبرالية يتردد صداها في أرجاء القلعة. كان الصوت يأتي من الجانب الآخر لقاعة الاستقبال الكبرى. سمعت سبابا خافتا ودمدمة بصوت حاد بالفرنسية يأتي من خلف باب، مصحوبا بأصوات تبدو كنسخة وسط أوربا لـ «مس سايجون»، ثم «آها؟ آه - ها! آههههاااااا!».

دققت الباب.

توقفت الموسيقى فجأة، وصاح بي الصوت الفرنسي: «أدخل».
كانت البارونة جالسة في فراشها بين أكوام من التسجيلات الموسيقية. على خوان منحوت من خشب البلوط بجوار الفراش صندوق جهاز فضي لتشغيل تسجيلات الموسيقي. نظرت إلي وقالت: «هل تعرف شيئا عن الحفلات الغنائية؟»، سألتها عما تعنيه تحديدا، قالت: «هل حضرت أي منها؟»، قلت: «بالطبع، حضرت واحدة منها، ولكن من زمن طويل مضى»، قالت بأسى: «لم أشهد أي حفل غنائي، ولكني مسحورة بها! مسحورة كليا». قالت إنها كانت تكتب النص الفرنسي لحفل روك موسيقي غنائي يتم وضعه وتلحينه من قبل فريق إسرائيلي - ألماني من مدينة فرانكفورت، وهم بعض ممن التقت بهم أثناء رحلتها بصحبة ابنها لبيع بسط من الفن البربري؛ وأغرمت بأعمالهم وأصرت على المشاركة في إنتاج تلك الأعمال الموسيقية الغنائية. المشكلة كما قالت في أنها لم تشهد حفلاً غنائياً في حياتها. قالت: «كيف كان يمكن لي حضور حفلات غنائية؟ لم يكن لدي أبدا متسع من الوقت - كنت إما بالهند أو أقوم بعمل إصلاحات هنا بالقلعة». (كانت البارونة قد تلقت تعليمها بمعهد روبر الفرنسي في باريس كما كانت تتقن لغة المالايالام السائدة بجنوب الهند).

وبناء على طلبها، رحت أغني لها مقاطعا من أغاني «في المدينة» و«الغناء تحت المطر» و«كاميلوت» لأعطي لها فكرة عما هي عليه الحفلات الغنائية.

قالت البارونة إنها تستيقظ دائما وتبدأ يومها وعملها اليومي من منتصف الليل، وأنها تحرص على ألا يزعجها أي شيء عن أعمالها اليومية المعتادة قبل السادسة صباحا، ولكن حيث إنني قطعت كل تلك المسافة لأعرف أشياء عن زوجها وعن إلفريده وأسعد بيك، فإنها

ستتحدث إلي عن ذلك في الرابعة صباحا. وحتى ذلك الوقت، عليها أن تركز. وعلى ذلك تركتها مع موسيقاها وعدت إلى زنزانة غرفتي.

وجاءت البارونة إلى غرفتي قبل وقت قليل من الفجر، كانت النافذة التي بقمة الغرفة الزنزانة فوق المكتب ما تزال مظلمة باستثناء رقائق الجليد المتراكمة على زجاجها. تناولنا الشاي والجبن كإفطار على أريكة بقاعة الاستقبال الكبرى، وبدأت تقص علي أشياء عن زوجها وكيف أنه هو وزوجته السابقة إلفريده، قد امتصهما الشرق واستحوذ عليهما.

بدأت بالإشارة إلى زوجها السابق، البارون عمر - رولف؛ وشقيقته إيما؛ وزوجته الثانية إلفريده (المعروفة أيضا باسم السيدة قربان سعيد)؛ وشقيق إلفريده، فيلي، قالت إنه «كان يطلق عليهم اسم فرقة الأربعة». كان من الصعب تحديد أنواع العلاقات السائدة بينهم، ولكن بصفة أساسية، كانا أخاً وأختاً من عائلة إرنفلز (هما رولف وإيما) قد تزوجا من أخ وأخته من عائلة فون بودمرزهوف (فيلي وإلفريده) وبالتالي تبادل الشقيقان إيما وإلفريده الأسماء العائلية طبقا لنظام التسمية الغربي. كانوا جميعا يعيشون في قلعتين متجاورتين ورثوهما عن الأسلاف في منطقة فالدفيرتل وفي براغ، حينما كانت ما تزال مدينة تحت حكم عائلة هابزبورغ. وخلال الحرب العالمية الأولى نما لدى رولف الشاب حب عميق تجاه كل ما هو تركي وكان مبتهجا لأنَّ الأتراك في صفهم. في الوقت ذاته كان فيلي كبيرا بما يكفي ليحكم على الأشياء بنفسه وقد أرسل إلى الجبهة الشرقية وأصيب إصابة بالغة، مما كان أحد الأسباب التي دفعته للتعلق بمرشد روحي ألماني يدعى بو - ين - را، والذي بدا وكأنه معبر بين هيرمان هيسه وجيم جونز، ثم تلا ذلك، حين عاد من جبهة القتال بأن أقنع الآخرين لأن يصبحوا

مساعدين أيضا للمرشد الروحي. وقام رولف وأم إيما بكتابة رسالة مفتوحة لهيرمان هيسه في صحيفة «براغه تاغبلات»، يسألونه النصيحة عما يجب عمله. كتبت في الرسالة: «وددت أن أكتب إليك سيدي العزيز ليس فقط بسبب ما أواجهه في كتابك - كما اعتدنا أن نشير إليه في هذا العالم الذي تسوده لغة الإشارة - كثير منها أيها الصديق العتيد العزيز، غير أننا كلانا واجهنا معضلة أخرى أيضا. حين أكون في عمق وحدتي في الغابة، مع الفيلسوف شريك الحياة، الذي اضطربت انفعالاته ونفسيته بسبب الحرب، كنت أقرأ. . . . ألم يكن أنت الذي مررت ووهبت كلينا مصافحة سريعة دافئة باليد؟».

كان الفيلسوف شريك الحياة المعني - والد رولف وإيما فون إرنفلز، كريستيان فون إرنفلز -، في الأيام السعيدة قبل عام ١٩١٤، مكتشف نظرية الغشتالت في علم النفس، والمتراسل الدائم مع فرويد، والفيلسوف البارز «المشهور بأعماله في مجال الأبحاث العرقية - البيولوجية». كما وصفته صحيفة براغه تاغبلات في عام ١٩١١ حين نشرت محاضرته التي بعنوان «مشكلة العرق والمسألة اليهودية»). كان الجد إرنفلز منفردا دائما، منزعجاً دوما ويرى أن أعظم الرجال في أي عرق هم الجنود، وبالتالي فإن حملة أفضل الجينات يفقدون في المعارك. وكان الحل الذي ارتآه: أن الجنود الشجعان الناجين العائدين من جبهات القتال لابد أن يتاح لهم معاشرة أكبر قدر ممكن من النساء. وربما بسبب مثل تلك الأفكار، لم يصبح كريستيان فون إرنفلز أبدا إسما لامعا كما كان ينبغي له أن يكون، ولكنه كان بروفيسورا محبوبا في جامعة براغ. وتتذكر البارونة قائلة: «كتب كافكا في إحدى يومياته أنه كان يشعر بمتعة كبيرة عند حضوره محاضرات إرنفلز، وقال كافكا إنها مثيرة جدا لأن في ذلك

الصباح، قال إرنفلز إن من الأفضل الأشياء التي يمكن أن تمتلكها في دمك هو بضع قطرات من دماء يهودية». وقد كان في ذلك دعما رائعا لسمعة العائلة، كما فسرت البارونة، حين وجدوا في يوميات الكاتب الشهير كافكا: النظريات العرقية للعجوز كريستيان فون إرنفلز قد تكون «ضربا من الجنون، جنوناً مطلقاً»، ولكنه لم يكن على الأقل معاديا للسامية.

تزوجت إلفريده برولف كما تظن البارونة للمحافظة على فرقة الأربعة معا، وفي أواخر عقد الثلاثينيات، انفصمت عرى ذلك الزواج. أثناء الحرب، ذهب عمر - رولف إلى الهند، فيما ذهبت إلفريده إلى اليونان، حيث كانت تحقق مدخولا من قراءة الأبراج والطالع؛ وراحت تدرس التاريخ الإغريقي القديم والرياضيات واستحوذت عليها أفكار إفلاطون وشخصيته. بعد انتهاء الحرب، وفيما كان البارون عمر في الهند مع زوجته الجديدة (البارونة الحالية مؤلفة موسيقى الروك الأوبرالية)، عاشت إلفريده في قلعة ليشتيناو بمفردها، تقرأ طوال النهار أعمال أفلاطون. وفي عقد السبعينيات عاد البارون عمر - رولف والبارونة زوجته من الشرق، وجدا القلعة خرابا: كانت المؤلفة المزعومة لرواية «علي ونينو» قد حولت الجانب الذي تعيش به من القلعة إلى مكب نفايات من أكوام من أوراق المعادلات الرياضية، وأوراق قراءة الطالع، وملاحظات عن إفلاطون ونفايات منزلية كثيرة. وراحت البارونة تتذكر محاولاتها تنظيف الجزء الموجود خلف الأريكة التي كنا نجلس عليها، ولكن حين حاولت إزالة تلك الأكوام، تضايقت إلفريده بشدة. «قالت إن تلك الأشياء في موضعها ذاك من خمسة وثلاثين عاما، ويجب أن تبقى في مكانها. ورغم ذلك نقلناها، ووجدنا بينها ونحن ننقلها ثلاثين أو أربعين فأرا.

كانت أشياءها مليئة بالفئران». كانت إلفريده قد اقتطعت جانبا من قاعة الجلوس الكبرى وأحالته إلى مطبخ، حيث وضعت موقدا صغيرا كما استخدمت موسوعة قديمة كلوحة تقطيع للطعام. «في النهاية لم تكن تهتم بأي شيء عدا معشوقها أفلاطون». قالت البارونة عن السيدة التي ظلت تعتقد أنها مؤلفة رواية «علي ونينو»: «أي شيء آخر في الحياة لم يكن يعني لها شيئا».

في وقت ما من بدايات عقد السبعينيات تذكرت البارونة أنه قد بدأت تراودها أول تلميحات بأن إلفريده كانت ذات يوم السيدة قربان سعيد. ذات يوم كانت إيما شقيقة البارون عمر - رولف، والتي كانت مشهورة في ذلك الوقت بأنها شاعرة هايكو في النمسا، وقالت للبارونة إنها «تلقت رسالة عجيبة، من دكتور ما.. يريد أن يعرف إن كنت قد ألفت كتابا اسمه علي ونينو». لم تكن تعلم أي شيء عن هذا الأمر، ولكن في مناسبة أخرى، سألت البارونة إلفريده عن ذلك الموضوع، فقامت إلفريده برفع رأسها عن كتاب كانت تقرأه عن أفلاطون للحظة، وقالت «من الطبيعي أن إيمي ليست بحاجة لأن تعرف كل شيء. بلى، أنا أنتجته».

قالت البارونة: «ثم اتصل شخص ما بإلفريده طالبا موافقتها على طبعه».

سألتها: «يطلب موافقتها على ماذا؟ على قراءة الكتاب؟»

قالت: «موافقتها على طاااااا - بااااااعات».

سألتها: «على نشره؟».

قالت: «كلا، على إعاااااادات تحريييير».

سألت مجددا: «طلبوا إعادة تحريره ونشره!»

قالت البارونة وهي تبتسم: «بالضبط». ولكنها تذكرت أيضا أن

إلفريده لم تملك أن تفعل شيئا إزاء ذلك الأمر، لأنها كانت خائفة بشدة من أن حصولها على أي أموال من هذا الأمر قد يعرض معاشها التقاعدي الذي تتقاضاه من الدولة للتوقف.

كان الوقت قد أصبح في الصباح المتأخر وهو الوقت الذي تنال فيه البارونة غفوة، قالت إنها ستتيح لي شيئا يشغل وقتي في الوقت الذي تنال فيه قسطا من النوم، قادتني عبر سلسلة من الممرات الصخرية التي يفضي كل منها إلى آخر وتزداد تداعيا وبرودة كلما هبطنا لأسفل، حتى وصلنا إلى باب خشبي بالٍ دفعته بكتفها. بدا داخل الغرفة من أول لمحة مثل قاعة تخزين في محطة قطارات قديمة - صناديق من حائط حتى الحائط المقابل، حقائب سفر، حوافظ أوراق، وأجولة، بعض الأكوام كانت تصل حتى السقف، فيما ترك ممران للسير بين تلك الأكوام.

قالت وهي تنظر ببعض الأسى إلى أكوام حاويات الأوراق: «كل شيء هنا، كل ما يتعلق بعائلة إرنفلز، ولكن يمكنك أن تبحث هنا حتى مغيب الشمس فقط، فلا توجد إضاءة هنا»، ثم تركتني لأتجول بين الأكوام ومضت. تجولت متفحصا تلك الأكوام لمدة ساعة تقريبا وأيقنت أن كل الصناديق والحقائب لا تحتوي إلا على أنواع وصنوف مختلفة من الأوراق. ذلك الحصن الذي يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى والذي قاوم حصار السويديين وما زال يحتوي على فتحات في جدرانه الخارجية لسكب الزيت المغلي على المحاصرين له، وظل مسكونا على الأقل على مدى القرنين الأخيرين من قبل عائلة من المثقفين والمفكرين، والشعراء، ومدمني قراءة الكتب.

كنت أسعى للعثور على أي شيء يختص بـ«قربان سعيد»، وأملت أن تتحقق معي فرضية نيتشه - أي أن الكتب التي أبحث عنها تقفز من

بين أكوام وتلال الأوراق إلى حضني. كنت حيثما نظرت، لا أجد إلا أكواما من الوثائق والأوراق الخاصة بـ«عمر - رولف»، بعد تحوله إلى الإسلام - ورحلته الغريبة التي دامت لأربعين عاما بين ربوع العالم الإسلامي، بدءا من الصور الفوتوغرافية التي التقطت له وهو في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره وهو يضع على رأسه عمامة في ضعف حجم رأسه الصغير.

كانت بطاقة دخولي لذلك العالم وأول ما صادفني برقية يرجع تاريخها إلى ٢١ ديسمبر عام ١٩٣٢، كان نصها: بارون عمر إرنفلز. تاج محل. فندق بومباي = ثمانون مليون أخ هندي مسلم يرحبون بسيادتكم = رابطة مسلمي سيسي سوجودين. بنجاب. ووصف مقال نشر في صحيفة «إيسترن تايم» في لاهور بعد بضعة أيام ما كان استقبالا غير عادي:

> وصل البارون عمر رولف إرنفلز، النمساوي الذي اعتنق الاسلام هذا الصباح بالقطار.... محطة القطار امتلأت عن آخرها ويقدر أن ما لا يقل عن خمسة آلاف مسلم كانوا داخل وخارج المحطة ليرحبوا بأخيهم في الإسلام... وقد اصطحبوه إلى خارج المحطة في خضم هتاف عال يصم الآذان يقول: الله أكبر.

كانت توجد أعداد لا تحصى من المجلات مثل «مجلة المسلم» و«الضوء»، والتي كان البارون عمر يكتب فيها مقالات بانتظام عن آفاق الصحوة الإسلامية العالمية، وعن حالة المرأة المسلمة، وعن رأب الصدع بين المسلمين واليهود. وفيما كنت أتصفح بعضها، أكتشفت عالم كامل من المستشرقين والمتحولين للإسلام مثل لورد هيدلي الفاروق، والميجور عبد الله باترسبي، وسمو السيدة دايانج مودا أوف ساروواك «ابنة سير والتر بالمر أوف ريدنج». كان هناك أيضا

محمد جونار إريكسون من السويد، وعمر ميتا من اليابان، وإسماعيل فيتسلاف يازيرسكي من بولندا.

كانت هناك كثير من المواد المثيرة المدونة عن البارون عمر تغريني بقراءتها قبل فترة قصيرة من بزوغ فكرة راودتني أن القلعة لا تفصح عن شيء على الإطلاق عن قربان سعيد، أو ليف، أو إلفريده، أو نوع من الارتباط بينهما. وطبقا لما قالته البارونة، كانت السيدة أسعد بيك وزوجها قد تراسلا كثيرا، كما فعل أسعد وإلفريده. ولكن حين سألت عن المكان الذي توجد به تلك المراسلات، أشارت إلى جدران القلعة في حلقة دائرية من يدها وقالت: «من يعرف؟ ربما كانت هنا في مكان ما، عليك بالبحث عنها».

الرابط الوحيد الصلب بين عائلة فون إرنفلز وأسعد بيك الذي توصلت إليه كان ذلك الذي جلبته أنا معي: وهو طبعة سويسرية للرواية الثانية لقربان سعيد «فتاة من القرن الذهبي» والتي احتوت على مقدمة مختصرة كتبها البارون عمر إرنفلز، يقول فيها: «بصفتي شاب أنشأت رابطة الشرق للطلاب الأفرو - آسيويين في فيينا ومن خلالها أصبحت صديقا للأذربيجاني النابه قربان سعيد... وقادني طريقي بعدها للهند، حيث عدت منها إلى أوروبا لأول مرة عام ١٩٥٤ وعلى الفور توجهت لزيارة مقابر المسلمين لزيارة قبر صديقي الذي أصبح منسيا والذي كان قبره يقع خارج أسوار المدافن في بوزيتانو في إيطاليا».

سألت البارونة لماذا كان يشير عمر في ذلك التاريخ المتأخر لقربان سعيد كرجل أذربيجاني مات في إيطاليا بدلا من الإشارة إليه بصفته زوج زوجته إلفريده السابق. وأكدت لي البارونة بأن زوجها الأخير لم يناقش الأمر أبدا مع إلفريده وبالتالي لم يكن يعرف بذلك

الارتباط. وأعادت علي نظرية دكتور بارازون بأنه من المحتمل أنه كانت توجد علاقة جنسية بين إلفريده وليف، ولكنها قالت «هذه نظريته هو، ولا نعرف شيئا على وجه اليقين».

التفسير المحتمل عن الارتباط بين إلفريده وقربان سعيد ظهر لي بعد بضعة أسابيع من زيارتي للقلعة. فقد تلقيت مغلفا من دكتور بارازون يضم نسخا من أربعة رسائل قال عنها إن البارونة أعطته تعليمات بأن يبعث بها إلي. كانت كلها رسائل مرسلة لعمر وموقعة بالخط الدقيق على هيئة حلقات: «أسد». وعليها عنوان المرسل: «كازا باتيسون، بوزيتانو» - وهو عنوان البيت الذي مات فيه أسعد بيك عام ١٩٤٢. كانت الرسالة الأولى مؤرخة بتاريخ ٢١ يوليو ١٩٣٨، وفيها يحاول ليف إقناع البارون عمر - رولف أن يأتي لزيارته، معربا عن وحدته وإحساسه بعدم التوائم في ذلك المكان. ثم كتب «وصلني عن طريق بريد الأميركان أكسبريس من أثينا ٢٠٠ دولار من يوغوسلافيا باسم السيدة قربان سعيد».

وبالطبع فإن السيدة قربان سعيد من المفترض أنها إلفريده.

وفي رسالة أخرى مؤرخة بتاريخ ٨ سبتمبر، يشير ليف مرة أخرى لقربان سعيد بضمير غائب ويبدو بقوة في السياق أنه اسم للتغطية لتحويل مبالغ مالية عبر الحدود الدولية: «من الناشر جيسا كون ببلغراد... ١٥٠ دولاراً إضافية موجودة لديهم لقربان سعيد. هل يمكن لقربان سعيد أن يحصل على تلك الأموال عن طريقكم؟ وكيف للمرء أن يتصل بها؟... أكتب لي عن ذلك بأسرع ما يمكنك وأجعل قربان سعيد يتواصل مع الناشر». ويبدو الأمر وكأنها ستذهب للناشر لتحصل منه على المبلغ الذي لا تعلم عنه أي شيء.

وبحلول ٢١ سبتمبر ١٩٤٠، سوف يكتب ليف إلى بيما يوصيها بشراء نسخة من رواية «على ونينو» بنفسها مدعيا أنها الرواية الأثيرة لديه من بين كل كتبه مفسرا لها أنه يمكن نشرها في كل مكان، حيث إنه «طبقا لقانون الكتابة بأسماء مستعارة، فإن قربان سعيد يمكن اعتباره اسم امرأة! بارونة فيناوية شابة، وهي حتى عضو في اتحاد الكتاب الألمان» الذي شطب اسم ليف من عضويته.

وتفصح مراسلات ليف إلى بيما علاقة ليف بـ «السيدة قربان سعيد» في كثير من التفاصيل غير المباشرة - ومبكرا في مايو ١٩٤٠ كتب ليف عن إلفريده أنها «المسكينة قارئة طالع ولكن يبدو أنها جنت وفقدت صوابها» - غير أنه رغم ذلك اعتمد عليها في معيشته. وقبل وقت طويل من اكتشافي لمراسلات أسعد - بيما، فإن الرسائل القليلة التي كتبها ليف لإلفريده جعلت الأمر يبدو مؤكدا أن اسم قربان سعيد لم يكن إلا غطاء له حتى يتمكن من الاستمرار في تلقي حقوق النشر عن عمله. أصر دكتور بارازون على أن إلفريده لم تكن بحاجة إلى حمل اسم آري كغطاء على المؤلف الحقيقي لـ «علي ونينو»، لأن عقد الكتاب تم توقيعه في أبريل ١٩٣٧، أي قبل نحو عام كامل من ضم النازي للنمسا. ولكن المؤلفين اليهود في حقيقة الأمر كان لديهم من قبل ذلك التاريخ كثير من الأسباب تدفعهم لإخفاء هويتهم والتستر خلف أسماء مستعارة.

دكتور موراي هال، وهو خبير بأحوال النشر في الحقبة النازية، ألتقى بي لتناول القهوة في فندق كونيغ فون أونغارن، بالكاد على مشارف ستيفانسبلاتز، حيث كانت تحدث أكبر التظاهرات في تاريخ النمسا - للاحتفاء بضم النمسا لألمانيا وجولة هتلر المفاجئة في مدينة فيينا - في ربيع عام ١٩٣٨. كان دكتور هال كنديا ويتميز بتناوله

الهادئ في الكشف عن دقائق أكثر أوقات عدم الاستقرار في تاريخ النمسا. كان قد تمرس في نوع فرعي من التخصص بدراسة المفكرين الذين تعرضوا للاضطهاد قبل دخول النازية للنمسا، وتناقشنا حول دراسته المدهشة والمثيرة عن اغتيال هوغو بيتاور، الكاتب والمحرر، الذي ظلت روايته المخيفة «المدينة بلا يهود» واحدة من أكثر النبوءات المهمة عن الكارثة التاريخية التي دونت قبل وقوع الكارثة. كانت المقدمة تركز على أن معادي السامية النمساويون اتحدوا معا في كتلة تصويتية واحدة، وفازوا وهيمنوا على قمة السلطة، وأبعدوا اليهود عن فيينا. ما تصوره الرواية يعد بالأساس ما أصبحت عليه فيينا الآن: واحدة من أكبر المدن العالمية محرومة من دماء الحياة التي تسري في أوصالها، واختزلت إلى خليط يكون عاصمة إقليمية مليئة بالمباني الجميلة القديمة بلا روح. في نهاية الرواية، كان معادو السامية قد أصبحوا في قمة الملل والضجر بالعاصمة التي خلقوها بعد أن أبعدوا منها اليهود - وخلوّ المدينة من الثقافة وأي ترفيه محترم وراقي، فلم يعد بها إلا كثير منَ الناس الذين لا يفعلون شيئا سوى الرقص وارتداء سراويل جلدية قصيرة بالحمالات، مع افتقاد وجود من يمكن توجيه اللوم له على ما يعانونه من مشاكل - حتى أنهم دعوا كل اليهود الذين أخرجوهم للعودة. ذلك الواقع سوف يتحول بشكل مغاير في الرواية فقد ألقى مصير بيتاور بظلاله على المشهد بعد نشر الكتاب. ففي عام ١٩٢٥، قتل على أيدي المتعصبين النازيين الذين كرهوا دعوات تحرير المرأة والتحرر الجنسي التي تدعو إليها المجلة التي كان يحررها بيتاور في ذلك الوقت.

شرح لي دكتور هال الأسس التي كان يسير بموجبها النشر في أوروبا النازية. كان أغلبية الناشرين في النمسا من اليهود، وجدوا

أنفسهم في مأزق منذ وصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣. كانت هناك ثلاثة أسواق كبرى للكتب المنشورة باللغة الألمانية - وهي النمسا وألمانيا وسويسرا - وتعد ألمانيا السوق الأكبر من مجموع السوقين الآخرين معا (وما زالت حتى الآن). لم يكن مربحا نشر كتاب إن لم يكن من الممكن بيعه في ألمانيا، لذلك كان الناشرون النمساويون بحاجة إلى تمرير كتبهم بعيدا عن الرقابة النازية لكي تصل لغالبية قراء الألمانية. ولتشتيت وخداع الرقابة النازية، تم تأسيس دور نشر وهمية غير حقيقية في دول ثالثة مثل هولندا والسويد، فكانت الكتب تطبع في دولة، وتمر عبر حدود دولة ثانية، ثم تنتقل عبر كثير من حدود دول أخرى قبل دخولها إلى منطقة نفوذ الرايش. (تال، دار نشر رواية علي ونينو، انخرطت هي أيضا في تلك الحيل المخادعة). والحل الآخر كان يتمثل في أن يتخذ الكتاب الممنوعون لأنفسهم أسماء أخرى مستعارة.

في كتاب «المكتبة المفقودة»، كتب فالتر ميرنغ صديق ليف: «ظل التهديد بانهيار جليدي ماثلا فوق هامة فيينا وباقي أنحاء النمسا». في الرواية، يتخيل مكتبة مجازية، وأن أبيه، حارس كل الثقافة التي دمرها النازيون وثورتهم الشمولية:

> في مواجهة كاتدرائية سان شتيفان حيث تقرع الأجراس الجنائزية وتعزف مقطوعات باخ الممزوجة بموسيقى جنائزية تسمي «فيينا تموت» حتى آخر صلوات منتصف الليل، أرتفعت بالهتاف أصوات بعض الشباب الأشرار المعادين للرأسمالية، المعادين للإكليروس، والمعادين للسامية ببذاءات - منتقاة من أسوأ الكتب والمنشورات، التي كنت تغلق عليها في «خوان السموم الفكرية» كعجائب ثقافية، والتي كنت أقرأها سرا.

سمعت شاب صغير يقول: «غدا، سنقوم بشنقهم جميعا: السود والحمر واليهود؛ وسوف نهتم أولا بمن يصدرون وينشرون كثيرا من الكتب»

ولم أتمكن من التنفس بسهولة حتى أغلقت الباب خلفي، ورأيت مكتبة أبي أمامي من جديد.»

تذكرت هيرتا باولي وكيلة ليف الجديدة ضم النمسا للرايش من خلال عدسة مهنية تجارية - فالأسبوع الذي وصل فيه هتلر للنمسا كان هو ذات الأسبوع الذي جاءت فيه بلانش نوبف للبحث عن كتاب ومؤلفين جدد وعن كتب جديدة. وكانت قد عرضت على السيدة نوبف نسخة من رواية قربان سعيد الجديدة، «علي ونينو»، ولكن ربما بسبب تشتيت مفاجئ، لم تشتر الرواية. وفي يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٩٣٨، أي في اليوم السابق لإعلان الفوهرر ضم النمسا رسميا للرايش، تذكرت باولي أنه «من فندق بريستول أون ذا رنج، في جادة جراند بفيينا، كان يمكنك أن تصل لمقهى هيرنهوف في عشر دقائق. ولم يخطر بذهن أي أحد في الحادي عشر من مارس ذاك أنه إن أغلق ذا رنج فثمة ثورة، وهو ما دأب النمساويون على قوله من عام ١٩٣٨. في تلك المرة تمت إزالة متاريس الشرطة لأن شباب [النازي] كانوا يسيرون في مظاهرة حاشدة حول دار أوبرا الدولة، يصيحون، هايل هتلر، . . . وعمدت إلى الاختفاء في منزل، ووجدت به مخرجا خلفيا، وخرجت من الطريق الآتي من اتجاه مقهى هيرنهوف». وسوف يلتقي ميرنغ بباولي في باريس، حيث بقيا بها إلى أن حوصرا من جديد بعد غزو النازية لفرنسا عام ١٩٤٠. ثم فرا لجنوب فرنسا، وسوف تقوم باولي بتقديم ميرنغ، الذي كان قد أصبح عشيقها في ذلك الوقت، إلى من كان يعد الأمل الوحيد الباقي لمفكري أوروبا وفنانيها

المنفيين والهاربين من النازية، الشاب الذي هجر في مرحلة من طفولته المدرسة الإعدادية، فاريان فراي. كان فراي قد وصل إلى مارسيليا في صيف عام ١٩٤٠ في مهمة فردية شجاعة لبث روح الأمل لدى منفيي مفكري أوروبا وفنانيها الهاربين من النازية لكي يتماسكوا ويستردوا شجاعتهم بكل الوسائل المتاحة، ثم يعمل على تهريبهم إلى خارج فرنسا. لم يكن له سلطة رسمية، لم يكن معه سوى ٣٠٠٠ دولار، وقائمة طويلة تضم أسماء مائتين من كبار مفكري أوروبا وفنانيها معلقين في رقبته لإخراجهم سرا وخفية من فرنسا. وكانت تلك الأموال والقائمة قد سلمت إليه من مجموعة من المواطنين الأميركيين في نيو جيرسي المهمومين بأمر المفكرين والكتاب والفنانين الأوربيين الهاربين من النازية، تضامنت تلك المجموعة معا بعد سقوط فرنسا، وسموا جمعيتهم «جمعية الإنقاذ الطارئ»[١]

---

(١) بعد أن تخرج من جامعة هارفارد في بدايات عقد الثلاثينيات، وقع فراي اتفاقا يعمل بمقتضاه صحافيا حرا، ودفعه الاتفاق للانتقال إلى برلين، حيث شهد بنفسه أعمال اضطهاد اليهود وكان له حديث حاد مع مواطنه القرمزي اللون إرنست هانفشتنغل - المتواجد في كل أحداث النازي والشهير ببوتسي - والذي راح يلقي عليه محاضرة عن الإشاعات المغرضة التي تروج ضد النازية عن الإبادة الجماعية لليهود. وسعى فراي لتحويل الإبادة إلى قضية رأي عام، ولكنه كان يلقى معوقات وصعابا في كل خطوة يخطوها من قبل حكومة الولايات المتحدة. ورافق فراي بنفسه فرانتس فيرفل، وألما مهلر وهاينريش مان في رحلة هروب خطيرة عبر جبال البرانس، مخاطرا بحياته في كل مرحلة. ساعد فراي ألفي منفي وفار على وجه التقريب ومنهم حنا آرنت ومارك شاغال وهما يدينان بحياتهما له. وأقام فراي علاقة تنسيق وارتباط بالمقاومة السرية الفرنسية والجماعات الكورسيكية، واستأجر مزوري وثائق، ودفع رشى كبيرة لحراس الحدود. وساعد صديق عمي لوليك القديم، كاريل، الذي فر من النازي بركوب دراجة من باريس المحتلة فر بها إلى مارسيليا، - وساعد - فراي على تهريب الفارين عبر =

وسوف تتذكر باولي لاحقا أول مرة تزور فيها فندق «سبلندد» لمقابلة الرجل الذي كان يطلق عليه كل الناس في مارسيليا ببساطة اسم «الأميركي». قال لها فراي: «حسنا آنسة باولي، لدي اسمك بالقائمة... احضري ميرنغ معك غدا. إلى اللقاء».

وحين كان ميرنغ يسأل كيف تمكن من الفرار من النازي، كان يقول: «سرت إلى اليسار حين كان الآخرون يسيرون باتجاه اليمين وداومت على السير». وفي الحقيقة، كان قد تسبب في وقوع أكبر المشاكل والعقبات لـ«فراي» العنيد والدؤوب: فقد تمكن الأميركي من عمل مستندات هوية مزيفة لميرنغ، غير أن صديق ليف القديم تم اعتقاله وهو ينتقل إلى قطار آخر بالقرب من الحدود الفرنسية الأسبانية؛ وبذل فراي أقصى الجهد لإخراج ممثل الكباريه السياسي من معسكر الاعتقال واستخلاصه من أيدي سلطات حكومة فيشي الفرنسية الموالية للنازية بادعاء أن إليانور روزفلت زوجة الرئيس الأميركي مهتمة شخصيا بسلامة ميرنغ. وبالفعل، شق ميرنغ طريقه إلى هوليوود، حيث سيلتقي بشريكي ليف وإيريكا في سكن فيينا، جاي وبينكز، الذين كانا يعملان في هوليوود، كان جاي يستفيد من علاقاته التي كونها ليف في فيينا ليحقق نجاحا في مهنته في هوليوود، وكان سعيدا بإسداء معروف لأعضاء عصابة فيينا القديمة.

وفي أواخر ذلك الشهر، سوف يكتب ليف للبارون عمر، وكان البارون قد وصل إلى اليونان. كتب إليه: «ميمي بيكارسكي في لندن،

= أنفاق سكك حديدية تحت الأرض. وبعد أن كبرت، كنت ألعب الداما في مقر جمعية الإنقاذ الطارئ، التي خلفت مؤسسة فراي، حيث استمر كاريل في معاونة المنفيين والهاربين من أنحاء العالم على مدى خمسة عقود بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ومن العجيب أن لا أحد يعرف كيف تكسب عيشها هناك»، كان يعمد إلى المزاح، ثم أخبر عمر عن برنامج أخبرته عنه سيدة حيث توجد «نوع من الهيئة أو اللجنة... تقوم بتدبير [تأشيرات دخول إنجليزية] وإقامة لمدة عام في قلعة بريطانية للنمساويين. ولسوء الحظ لم يكن بقدرة السيدة أن تساعدني نهائيا، حيث إنني لست نمساويا». ولكنه طلب من البارون عمر أن يبحث له ذلك الأمر. وتمثل لليف في ذهنه ببؤس مصير أصدقائه - عالم وكلاء المؤلفين، والمحررين، والكتاب الذين كان يمتعهم في مقهى هيرنهوف بحكاياته وقصص مغامراته - الذين أصبحوا الآن «مبعثرين في جميع أنحاء العالم... لا أعرف متى وكيف يمكنني أن أراهم من جديد». ناشروه الفيناويون رحلوا أيضا واختفوا. لوسي تال فرت بعد يوم من إعلان ضم النمسا، خدعت عملاء الغيستابو واستقلت قطار الغرب (تاركة دار النشر في رعاية إيباتش). رولف باسر، الذي كان قد نشر له كتاب «الله أكبر»، وقصة حياة شاه إيران، فر عن طريق براغ إلى لندن، تاركا دار نشره في رعاية السيدة موغله). وكتب ليف لعمر «تسفايغ وفيرفل في لندن، ميرنغ، وباولي، وباسر... في باريس»، وسأل إن كان عمر قد سمع «أي شيء عن رجل يدعى أليكس ساشير - مازوش» - ابن الرجل الذي صيغت «المازوشية» من اسمه - «وزوجته؟ وما يمكن أن يكون قد حدث له؟».

في كل يوم كان يهود يقفزون من نوافذ البنايات العالية في فيينا مثل تلك البناية التي كان يقطن بها ليف وإيريكا. وفيما يتجاوز أكثر تخيلاته تطرفا، تبين له أن رواية بيتاور الساخرة كانت صادقة، ولكن بقسوة ووحشية، كانت فيينا تتحول لتصبح «مدينة بلا يهود».

أحد قدماء اليهود بقي هناك: أبراهام نوسيمباوم، فقد كان غير قادر على الفرار، كانت إلفريده قد وعدت بالذهاب إليه والبقاء معه في

شقته حين بلغتهم أنباء بأن الغيستابو يقومون بعمليات تفتيش وبحث، لتقدم له ما يمكنها من حماية مستغلة عرقها الآري وما يمكن أن تقدمه كحائزة لجائزة نوبل. بدا أن ليف ذاته قد غادر فيينا في تلك المرحلة، على الرغم من أنه من غير المعروف لماذا ترك أباه، وانتقل إلى إيطاليا، في ظروف أشد غرابة من الأحداث، في وقت ما من ربيع عام ١٩٣٨.

في حي بائس من لوس أنجلوس، خلف منزل مليء بالقطط الضالة والحيات والأفاعي واليرابيع وكل الكائنات الحية التي يمكن أن تحيا في الخرائب، وصلت لمقابلة سيدة مسنة تدعى فرانتسي باومفيلد، والتي كانت ذات يوم نجمة أفلام سينمائية في أواخر عقد الثلاثينيات («غريتا غاربو - غاربو!»، صاحت بلهجة برلينية. تلك القحبة سرقت مني رجلا عظيما - كان عاشقا عظيما، تفهم قصدي، وجعلته يغرق في غرامها! وفقد كل اهتمام بي على الفور!). كانت فرانتسي من أفضل صديقات إيريكا، والشاهدة الرئيسة ضد أسعد عند محاكمته. طرت إلى لوس أنجيلوس لمقابلتها في ربيع عام ٢٠٠١، ولكن كان الأوان قد فات. كانت فرانتسي هناك، كما لم تكن هناك أيضا. «أسعد بيك! تريد أن تعرف عن ذاك النذل لن أتحدث عن ذاك التافه حتى لو كان آخر رجل على ظهر هذا الكوكب! ما الذي يريد أن يكتبه شاب ظريف مثلك عن النذل مثله. لقد أثبتنا التهمة عليه، فعلنا ذلك، نلنا منه، ذلك النذل كان يحب موسوليني، أتعرف ذلك». صاحت في والنهار يكاد ينتهي ويحيل مطبخها الذي كنا نجلس فيه إلى شبه ظلام، حيث كانت تجلس على كرسي مرتفع بلا ظهر تحيط بها قططها.

«ما الذي يمكن أن تتحدث به إلى التافه الذي يحب موسوليني؟

هيا، انتبه، هل خرجت السلحفاة إلى الخارج، لن أعيدها أبدا، هل أمسكت بها؟»

كانت أفكار فرانتسي غير مترابطة، ولكن كان لها رأي وموقف متشدد من موسوليني.

وفي الحقيقة، كان المقال الذي نبهني إلى دورها في نزاع وصراع أسعد وإيريكا قد نشر في صحيفة «لو جورنال دى باريس» الفرنسية في ٣ نوفمبر عام ١٩٣٧، وكان بعنوان «فضيحة في النمسا: كل المجتمع الفيناوي يتعاطف مع عملية حساسة ومثيرة عن الرجل الذي كتب قصة حياة موسوليني»، وطرح المقال السؤال المعتاد - «من المتسبب، الزوجة أم الزوج؟» - غير أن الشخصية التي كانت بعنوان الصحيفة هي التي جذبت اهتمامي: «قصة حياة موسوليني».

في عام ١٩٣٧، بعد أن انتهى من كتابة كتبه مع فيريك وفون فايزل، ورواية «علي ونينو»، كما كان قد انتهى أيضا من كتابة كتابين «للأصدقاء»، سعى ليف أن ينال دعوة من موسوليني بصفته كاتب قصة حياة موسوليني. كان مهووسا بهذه المهمة وكان لذلك الهوس آثاره على نواحٍ عديدة، كما لم ينته نهاية سعيدة. عشرات الرسائل في سجلات محفوظات فلورنسا وروما تعبر وتحكي القصة الكاملة لحملته تلك.

في البدايات المبكرة لعام ١٩٣٦ ومن قاعدته البوهيمية في فيينا بدأ ليف في القيام برحلات إلى إيطاليا الفاشستية، حيث كون دائرة علاقات مع من يمكن أن نطلق عليهم الفاشيين «الليبراليين» الذين كانوا يعتنقون فكرا متسلطا ومهيمنا من الدائرة المباشرة حول موسوليني[1]. وعلى

---

(١) خلال تلك الفترة سافر ليف أيضا إلى المستعمرة الإيطالية في ليبيا، حيث كان يوجد صديق محبب له هو إيتالو بالبو، مؤسس القفز بالمظلات في =

الرغم من أن ليف كان ينبذ ويكره في وقت ما الديكتاتورية بصفتها تمثل «كل عيوب الملكية ولا تنطوي على أي ميزة من مميزاتها». وعند منتصف الثلاثينيات كان ليف يتحول إلى معجب يتنامى إعجابه بالفاشية. وظلت خبراته المبكرة في روما، وهو يشاهد مسيرات الشباب الفاشيين لا تفارق ذهنه كبرهان على أن حركة موسوليني الفاشيستية يمكن لها أن تحجم من أفاق ستالين وتقلص من توسعه. أما في ذلك الوقت في أواخر عقد الثلاثينيات فقد كان موسوليني والفاشيون الإيطاليون ينحون نحو اتخاذ ذلك الدور الغريب المناهض لهتلر والمعادي للنازية أيضا - لم يكن فقط غريبا بالنسبة لليف ولكن بالنسبة لكثير من اليهود. بكل يقين سمع شيئا عن هذا الموقف من صديقه فون فايزل، الذي كان يمتدح الوجود الفاشستي الإيطالي في الشرق الأوسط من عقد العشرينيات. ففي العشرينيات والثلاثينيات، في الأعوام السابقة على التحالف الخطير من عقد تحالف الصلب بين موسوليني وهتلر، وعد الديكتاتور الإيطالي الكأس المسيحي المقدس بسلوك «طريق ثالث» بين كوابيس النازية والشيوعية من جانب، والضعف البادي من الديمقراطيات الغربية من جانب آخر. وآمن كثيرون بأن موسوليني يمكن له أن يعدل ويلطف من النازية وأن يستغل التحالف بين الفاشيين ليقود ويوجه النازية بعيدا عن السياسات العرقية.

= سلاح الجو الإيطالي، وكان منشغلا بخلق تجربة مستقبلية في الصحراء حيث تتسابق سيارات سباق مع فرق خيالة في مسار واحد، وتم دعم التعاون بين اليهود والمسلمين تحت اسم الأخوة الفاشستية. وراح بالبو، الخصم الذكي لموسوليني يزداد بغضا من السلطة في أواخر الثلاثينيات، خاصة بعد أن عارض بشدة تحالف الزعيم مع هتلر ورفض تطبيق القوانين المعادية لليهود في ليبيا. ولقي بالبو مصرعه في حادث تحطم طائرة غامض في عام ١٩٤٠، ويعتقد كثيرون أنه كان اغتيالا لا حادثا.

كان جيوفاني جنتل أهم حليف لدى ليف في الحصول على موافقة على مشروعه لكتابة قصة حياة موسوليني، وكان جنتل رئيس دار سانيسوني الإيطالية للنشر وعضو المجلس الفاشيست الأعلى. كان جنتل أهم عضو من مفكري إيطاليا ينضم لموسوليني واحد من أقرب مستشاري موسوليني كما كان مهندس بعض أهم القوانين الفاشستية. في يونيو ١٩٣٧، كتب جنتل طالبا ترتيب مقابلة شخصية لأسعد بالزعيم وعرض أن يضمنه هو شخصيا؛ ويحتمل أن ليف قام بزيارة مكتب موسوليني، لأن في ملفات وزارة الثقافة الجماهيرية في روما وجدت بطاقة ملاحظات صغيرة مؤرخة بتاريخ ٣ يوليو ١٩٣٧، مكتوبة بخط ليف المميز المشابه لخط تلاميذ المدارس مدون بها:

سعادة

بنيتو موسوليني

رئيس الحكومة الإيطالية

مع أعمق الاحترام

أسعد بيك

ولكن قبل يوم واحد فقط من ذلك التاريخ، في ٢ يوليو، تلقى سكرتير موسوليني رسالة مطولة من رجل يدعي أنه سمع عن المشروع المقترح «من صديق» تم تقديمه وتعريفه مؤخرا بأسعد بيك في دار تريفز للنشر، وكتب «من المهم أن يعرف الزعيم أن هذا المحترم الذي يجعل الناس يعتقدون أنه من أصل أذربيجاني وابن رجل مسلم، ومعاد للشيوعية، ليس إلا ليو نوسيمباوم، ابن أبراهام». وفي ملفات الشرطة السياسية الفاشستية في روما، وجدت رسائل مماثلة من مبلغ وواش في فيينا، وتحتوي الرسائل على آخر ما أعلنه الغيستابو الألماني عن ذلك الرجل الذي «يتخفى تحت اسم أسعد بيك».

كانت تلك التهم القديمة، ولكن في ١٩٣٧ كان لها وقع وتأثير أشد أكثر بكثير من أثرها في عام ١٩٢٩. وذهبت الرسالة إلى ما هو أعمق وأبعد من تلك الاتهامات مدعية أن كل تخفي ليف على الهيئة المشرقية ليس إلا جانبا من مؤامرة يهودية للترويج لـ«شكل مهدد للعالم الإسلامي، سوف يشكل خطرا على الحضارة الغربية، وعلى كل التقدم وعلى كل أوروبا، لهدف معين، أخفي بمهارة، ليعاون إخوانه اليهود بفلسطين». صحب كاتب الرسالة استنتاجه باعتذار رقيق بسبب نقله لأخبار سيئة ولكنه قام بالإبلاغ لأنه «أمر يتعلق بالزعيم، الذي تعد شخصيته شخصية مقدسة لكل إيطالي، آمل أن تسامحني».

خلال أغلب وقت وجوده في الحكم، لم يكن نظام موسوليني معاديا للسامية، ومن وقت مبكر في نظامه الفاشيستي، كان الزعيم يهاجم وينتقد عنصرية هتلر بضراوة - ربما من جانب بسبب أن النازية لم تضم الإيطاليين المعاصرين لمجمع العرق الآري الأعلى. وفي الحقيقة، كان النظام بشكل ملحوظ معاديا لمعاداة السامية. كان موسوليني يطلق على العنصرية العلمية وعلى معاداة السامية «المرض الألماني»، وهو صدى ذميم للمصطلح الدولي «العلم البروسي» المستخدم في ذلك الوقت لوصف علم تحسين العرق، أي دراسات الانتقاء العرقي. (ورد هتلر على موسوليني بأن أطلق على حركة موسوليني «فاشية الكوشير اليهودية»). في ١٩٢٠، وبينما كان هتلر يضع ويعد الخطط لإبطال وإلغاء المواطنة لليهود الألمان وإبعادهم عن كل مسالك ودروب الحياة، كتب موسوليني مقالا لصحيفته الفاشستية «الشعب الإيطالي» يعلن فيه «في إيطاليا، لا نقيم فرقا على الإطلاق بين اليهود وغير اليهود، في كل مجال، في الدين، في السياسة، في الجيش، في الاقتصاد. . . اليهود الإيطاليون لديهم جبل صهيون جديد

هنا، في بلادنا الجميلة، التي دافع عنها كثير منهم ببطولة وبدمائهم».
وانضم مئات من اليهود للحزب الفاشيستي الوليد، وخلال العقد الأول للفاشية في إيطاليا، كان يوجد بالجيش جنرالات من اليهود، وأساتذة بالجامعات من اليهود، وأعضاء من اليهود بالمجلس الفاشيستي الأعلى. حتى عشيقة موسوليني، وهي مفكرة فاشستية كبيرة ومنظرة للحركة الفاشية، كانت يهودية بشكل معلن ومعروف. وربما ما لم يكن معروفا ولا مشهورا أن البحرية الإسرائيلية قد ولدت من برنامج تدريبات البحرية الفاشيستية الإيطالية في عقد الثلاثينيات، بل إن الزعيم وهب وخصص كرسيا للفاشستية في الجامعة العبرية بأورشليم.

كل هذا سيتلاشى وينسى كليا مع تحالف موسوليني السريع والكارثي مع هتلر. في سبتمبر عام ١٩٣٧، ذهب موسوليني في زيارة لألمانيا، حيث شاهد صناعات الحديد والصلب الهائلة في شركة كروب بمدينة أسن وصناعة الأسلحة والذخائر، كما شهد قصفاً تدريبياً من القوات الجوية بغارات على نموذج لقرية بولندية وقوات النازي تشارك في مناورات تدريبية بكامل معداتها وتجهيزاتها في تجارب على الحروب الخاطفة. وتملقه الفوهرر مطلقا عليه الأب الروحي للفاشستية الدولية، كما احتشد في برلين ما يربو على ٢٥٠,٠٠٠ ألماني لتحيته. وفي العام التالي، أدخل موسوليني السير العسكري بخطوة الأوزة على الجيش الإيطالي وأصر على أن يبدأ الإيطاليون في الهتاف له «يحيا الزعيم» على غرار التحية الألمانية «هايل هتلر». وبدأت معاداة السامية تصبح عقيدة جديدة على إيطاليا، على الرغم من أنها كانت تتناقض وتتعارض على وجه التقريب مع كل ما كان موجودا قبلها.

بحلول صيف عام ١٩٣٨ ، فتح الإيطاليون من ميلانو حتى نابولي صحفهم الصباحية ليكتشفوا أنهم أصبحوا جميعا «من العرق الآري الشمالي النقي»، وأن زملاءهم اليهود ليسوا إلا غرباء يشكلون خطرا عليهم، بما فيهم المناضلون الفاشيستيون، وقد صرفوا جميعا من الجيش، والجامعات، وكل الوظائف الحكومية. وبحلول خريف ذلك العام، لم يكن يسمح لليهود بأن يحصلوا على أرقام هواتف مدرجة بدليل الهاتف، بافتراض أن أسماءهم تلوث نقاء البحر العرقي الصافي للأسماء الشمالية في دليل الهاتف الإيطالي. كما وضعت قائمة بالكتاب والمؤلفين، ومنهم اسم أسعد بيك بالطبع، ووزعت نسخ من القائمة على مكتبات بيع الكتب، وعلى المدارس، وعلى دوائر أقسام الشرطة.

وبالنسبة لكاتب اسمه الحقيقي نوسيمباوم ويظل في سعيه الدؤوب لأن يصبح كاتب سيرة وقصة حياة موسوليني الرسمي في ربيع وخريف عام ١٩٣٨ ، فإن هذا كان يعد نوعا من التجرؤ الوقح. بالطبع لم يكن ليف يعرف أن وزارة الثقافة الجماهيرية كانت بالفعل قد أبلغت موسوليني بأن «كل الدعم الذي كان سيقدم لأسعد بيك قد تم إلغاؤه وسحبه من وزارتنا».

وفي مارس ١٩٣٨ - شهر ضم النمسا للرايش الألماني - كتب ليف لجنتل يرجوه أن يعاونه في الحصول على تأشيرة دخول لإيطاليا حتى يتمكن من عمل الأبحاث اللازمة وإعداد مواد كتابة قصة حياة موسوليني، على الرغم من أنه كان قد أصبح واضحا من شهور سابقة أن ذلك المشروع لن يتم. كتب ليف لجنتل: «من السخف ألا أتمكن من دخول دولة نشر لي فيها ٢٠ كتابا»، وربما كان ذلك يعكس يأسه من الفرار من فيينا.

في رسالة موجودة في أضابير الشرطة السرية الإيطالية مؤرخة بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٣٨، تذكر «ليو نوسيمباوم [هكذا]» وصل بالفعل إلى روما وأن السلطات الإيطالية كانت تراقبه وتعمل على تحديد أصوله العرقية. غير أن الإيطاليين كانوا حديثي عهد بعمليات تحديد الأصول العرقية، ولم يكن الإسم وحده دليلا كافيا. وفي خطوة تالية كان الغيستابو الألماني سينظر إليها بازدراء، فقدت الشرطة الإيطالية التي تراقبه أثره في روما، قبل أن تلتقط طرف خيط غامض يذكر أنه قد شوهد في قرية بوزيتانو الساحلية، بالقرب من ساليرنو، على ساحل أمالفي. وفي المراسلات المتبادلة بين وزارة الداخلية الإيطالية ومدير شرطة ساليرنو، اكتشفت أن ليف كانت له هوية أخرى أخرجها بسهولة من تحت كم قميصه كما يخرج الحواة أوراق اللعب من أكمامهم: لقد كان يتجول في أنحاء إيطاليا مدعيا أنه أمريكي.

استعان ليف ببطاقة ركوب سفن وموافقة دخوله السابقة للولايات المتحدة المنتهية الصلاحية لإقناع السلطات الإيطالية بأنه مواطن أميركي. كان الأثر المؤكد للقوانين العرقية الإيطالية رغم عدم التيقن بيهوديته، أن تعاقدات النشر التي معه كانت قد أصبحت ملغاة. لم يكن أي من ناشري ليف الإيطاليين يرغب بالمخاطرة بالنشر له دون موافقة من وزارة الثقافة الجماهيرية، والتي لم يكن بمقدورها في ذلك المناخ الجديد، أن تقدم على أي خطوة دون موافقة نظيرتها النازية في فيينا وبرلين. (كان ذلك حين كتب رسالة إلى البارون عمر رولف، طالبا في تلك الرسالة أن تقوم «السيدة قربان سعيد» بجمع شيكات حقوق النشر من مختلف العواصم الأوربية). كتب ليف أيضا رسائل أخرى تشي بالاهتياج والتوتر لناشريه الإيطاليين. في سبتمبر عام ١٩٣٨، وهو يكاد يتضور جوعا لعدم وجود أية أموال معه في

بوزيتانو، قام بتوجيه تضرع يائس وغريب لراعيه والمحسن إليه المقيم في فلورنسا في ذلك الوقت، جيوفاني جنتل:

الوثيقة الثبوتية التي تثبت أصولي الآرية من ثلاثة أجيال سابقة في عائلتي من الصعب جدا أن أتحصل عليها الآن، فكل الوثائق الثبوتية التي تخص عائلتي وقعت في أيدي البلاشفة.[ورغم ذلك]. . . . . فإن الأصول الآرية لا يتوجب أن تثبت فقط من خلال مستندات ورقية، ولكن أيضا من خلال فحص علمي خالص. هل يمكنك لو تفضلت أن تزكي لي في روما أو فلورنسا عالم أنثروبولوجي كفء، يمكنه بعد إجراء فحص مدقق لي أن يصدر شهادة بأصلي العرقي الحقيقي. لابد أن يتم ذلك بالطبع عن طريق باحث يحوز ثقة السلطات الرسمية وشهادته معتمدة لديها. أظن أنه بهذه الوسيلة يمكن أن تحل المشكلة ببساطة وننعم أخيرا بسلام وطمأنينة. . . بمجرد أن أحصل على مال منك، سأتوجه إلى فلورنسا وآمل عند حلول ذلك الوقت أن تكون قد قد توصلت لعالم أنثروبولوجي يكون جاهزا لإثبات إلى أي عرق أنتمي بوسيلة علمية لا تقبل التشكيك.

ولا يوجد ما يفيد بوجود رد على تلك الرسالة ولا على اقتراح ليف. الرسالة التالية في سجل محفوظات وزارة الداخلية الإيطالية في روما من جراح يدعى دكتور فيتو فيورينتينو، يقرر فيها جنتل جيوفاني أن «أسعد بيك في شدة المرض وأنه يعاني من أعراض مرض رينود، والذي لم يعرف الطب علاجا له بعد». ومرض رينود مرض نادر جدا بالدم ينجم عنه أعراض جذام متسارعة وغرغرينا. في بدايات عام ١٩٣٩ نقل ليف إلى مشفى في نابولي، حيث بدأ الأطباء علاجه ببتر بضعة أصابع من قدمه اليسرى - ومن الواضح أن ذلك كان مصدر ما أشيع من أنه طعن قدمه بنفسه. الشرطة الإيطالية التي لم تكن قد

اعتقلته بعد، فعلت كل ما يمكنها لجمع نقود للإنفاق على حالته الطبية. وحين أصبحت مدينة بوزيتانو تعاني من ضائقة مالية عامة، تم إرسال طلب لمدينة سالرينو، ومنها إلى وزارة الداخلية الإيطالية، والتي حولته بدورها لوزارة الخارجية الإيطالية، والتي قامت بدورها بتوجيه الطلب للسفارة الأمريكية بالنيابة عن ليف الذي كان يدعي أنه أميركي. وردت السفارة الأمريكية على السلطات الإيطالية قائلة إنه ليس مواطنا أمريكيا ولم يكن أبدا مواطنا أمريكيا.

الفصل الخامس عشر

بوزيتانو

اكتشفت أن بوزيتانو مدينة استجمام ايطالية اشتهرت بتردد الشخصيات الشهيرة بصناعة السينما الإيطالية عليها مثل فيتوريو دي سيكا في الخمسينيات، وأصبحت حاليا منطقة استجمام للشخصيات الثرية الأقل شهرة من بين نجوم الموضة والسينما. حين وعدني كونت محلي عميق الصوت بإخباري بمعلومات «قد تكون حيوية ومهمة» عن أسعد بيك - أو «المسلم»، كما كان مايزال معروفا في المدينة الصغيرة - تحول اجتماعنا إلى جلسة تناول مشروبات مع ممثل غامض الشهرة، تعرفت في نهاية الأمر على أنه نجم فيلم «الشرطي روبو»، وتذكرت بصعوبة فيلما طريفا عن أميرة روسية بيضاء في حفلة شاطئية في عقد الستينيات. ولكن كما هو الحال دائما مع مثل تلك المدن الصغيرة، كانت في السابق مدينة مغايرة تماما اختفت تحت القشرة الظاهرية الحالية، مدينة عانت ظروفا أشق وأصعب مختفية في أعماق ذكريات كبار السن الذين يسكنون على أسطح فنادق الأربعة نجوم، في المنطقة التي تشبه قرص العسل في تشابكها وتراصها المكون من بيوت ملونة تنتصب على حافة الجرف الساحلي.

معماريا، تركت الحرب تلك المدينة سليمة دون أن تطالها.
وحين تقارن الصور الفوتوغرافية لخط أمالفي الساحلي في صيف ١٩٤٢ بصور الساحل الحالية، يصعب جدا أن تلاحظ أي فروق. ليس هناك سوى فارق واحد يمكن ملاحظته: فمنذ أن ولدت المدينة من عصور قديمة، كانت توجد مقابلها بالبحر صخرتان هائلتان - وأطلق عليهما السكان المحليون إسمي ماما و فيجليو - وكانتا تبزغان عاليا فوق سطح الماء فيما يلي برج ساحلي يرجع للقرون الوسطى، وكانتا تصنعان عائقا طبيعيا يحمي ساحل المدينة من البحر المفتوح. ونسفت صخرة ماما كليا بطوربيدات بريطانية كانت مصوبة على سفن شحن في فبراير ١٩٤٣، ولم يصمد إلا جزء صغير من صخرة فيجليو، وأتاح ذلك الحادث للسكان المحليين فرصة نسج قصة خيالية تتضمن أن «ماما ضحت بحياتها من أجل ابنها فيجليو». عدا تلك الحادثة في الحرب العالمية الثانية، خرجت المدينة سالمة من أهوال الحرب.

وبالفعل، قام نبلاء نابولي بإرسال أطفالهم إلى بوزيتانو أثناء الحرب فقد كانت تعتبر أأمن مكان غير معرض لغارات الحلفاء الجوية، فقد كانت على منحدر تل يجعل منها هدفا صعب المنال للغارات الجوية. ولكن بالنسبة لمجتمع الفارين في بوزيتانو، كان اللاجئون أقل يقينا فيما يختص بسلامتهم. في تلك الأيام، قبل حلول الأميركيين ونجوم السينما وأصحاب الثروات على المدينة، كان كل الأغراب من المفلسين وجاءوا هاربين من الاضطهاد من الشمال الأشد فاشية والكابوس النازي الكامن خلفه. كانت لديهم أسباب كثيرة مختلفة لأخذ أجازة مستديمة في قرية صيد إيطالية صغيرة: كانوا من كتاب أجنحة اليسار السياسي، والشعراء المسالمين، وفناني

الحداثة - فنانوا الباوهاوس[1]، والرسامون المنخرطون في مدارس التجريب اللوني المتطرف، ومؤلفو الموسيقى، وراقصين وراقصات - ويهود.

ورغم ذلك، كانت التجربة بالنسبة لليهود وغير اليهود مختلفة كليا. فبالنسبة للمنشقين فكريا، سرعان ما اكتشفوا أن ساحل أمالفي في إيطاليا الفاشية هو ذاته ساحل أمالفي دون أي تأثر. كانوا يقضون أوقاتهم في الكتابة، أو تعلم اللغة الإيطالية، أو التخييم في جبل بورتوزو القريب، والتمتع بنزهات على الأقدام في الأيام المشمسة فوق صخور الجبل، وفي المساء يلتقون في «بوكا دي باكو» - أو كهف باخوس، وهو قبو نبيذ تم تحويله إلى مشرب حيث أصبح فيه الألمان والروس يتحدثون لغة البحر المتوسط المشتركة - ويعكفون على معاقرة الشراب حتى يركلهم أصحاب المشرب إلى خارجه. وساد جو من الاسترخاء، على الأقل جزئيا، لأن الفارين الثقافيين لم يكونوا تحت وطأة خطر أو تهديد معين. وبالمقارنة بالنظم الفاشية الأخرى، لم تكن الفاشية الإيطالية جادة بأي قدر في القضاء على الموروث الثقافي، أو على الأقل تلك الثقافة التي لا تشكل تهديدا على الدولة والنظام. وبتسامح إيطالي تقليدي جدا، أشاحت الرقابة بوجهها بعيدا عن أشياء كانت كفيلة باعتقال من يقومون بمثلها في ألمانيا والزج بهم في معسكرات الاعتقال الجماعي.

أما بالنسبة لليهود، فقد كان الأمر مختلفا كليا. فقد لجأوا إلى بوزيتانو تحدوهم ذات الآمال مثل باقي اللاجئين والفارين - وبالفعل،

---

(١) مدرسة من مدارس الفن في ألمانيا تمزج بين الصناعات اليدوية والرسم، ظلت نشطة من ١٩١٩ حتى ١٩٣٣، والاسم الألماني يعني المدرسة التركيبية في الفن أو مدرسة البناء، أنشأها فالتر غروبيوس في عهد جمهورية فايمار الألمانية (المترجم).

كان كثير منهم قد فر من أوروبا النازية لأسباب فنية وسياسية - ولكن بدءا من عام ١٩٣٨ وما تلاه، حين تم تمرير القوانين العرقية الإيطالية، أصبح وضعهم مختلفا جذريا. فبالنسبة لهم، أصبح وجودهم البرئ في مجال المضمار التسامحي السائد في ساحل أمالفي يمكن له أن ينتهي في أي لحظة.

ذهبت لمقابلة سيدة رقيقة حزينة النظرات تدعى نيكوليتا رسبولي، والتي كانت أمها دروثيا فلاتو، الشهيرة باسم دوجو، يهودية تمتلك نزلاً كان يتردد عليه كثير من اليهود الفارين في عقد الثلاثينيات وبدايات عقد الأربعينيات. قيل لي إن دوجو كانت تقطع المدينة سيرا على الأقدام حتى الشقة التي يقيم بها ليف حاملة له أطباقا من المكرونة والفطائر، وأن كرمها في بعض تلك الأوقات هو الذي حفظ عليه حياته ووقاه من التضور والموت جوعا. كانت عائلتها قد وفدت من ألمانيا إلى بوزيتانو في منتصف الثلاثينيات واشترت ذلك النزل؛ كانت العائلة تملك في برلين مصحة نقاهة، واكتشفوا أن المهارات المطلوبة لإدارة فندق صغير هي ذات المهارات التي كانوا يديرون بها المصحة. وأصبح نزل سان ماتيو أكثر الفنادق الصغيرة شهرة لدى الفنانين والكتاب والمفكرين الألمان الفارين إلى بوزيتانو. وتوقف الفندق عن العمل من بضعة أعوام سابقة، غير أن نيكوليتا كانت ما تزال تحتفظ بسجل ضيوف الفندق، وخليط من رسوم الكولاج، وصور فوتوغرافية، وقصص مصورة من النزلاء الراضين عن الفندق. وجدنا سطرين في قصيدة عن كيف أن «المسلم» كان يدين بالمال لكثيرين، ولا شيء عنه غير ذلك.

لدى سكان بوزيتانو كثير من الذكريات المرحة عن فترة الحرب: واحد من الرجال المحترمين، الذي كان قد بعث به إلى بوزيتانو وهو

طفل أثناء قصف الحلفاء لمدينة نابولي، يتذكر بسعادة وهو يركب عربة خشبية في طرقات منحدرة باتجاه شاطئ البحر، كان يتحدث إلي بألمانية مختلطة بالإيطالية، وبإيطالية مختلطة بالألمانية. قالت نيكوليتا إنها تريدني أن أعرف أن ذكريات أهل المدينة التي نجت من الحرب تخفي في ثناياها ماض آخر. «وهي ليست في العادة الطريقة التي يحبون بها استعادة تلك الذكريات».

أرتني نيكوليتا قصاصات من ورق الصحف احتفظت بها على مدى ستين عاما، ومنها نص رسالة إلى الصحيفة المحلية من «مواطن محترم» يطلب فيها أن يعرف متى سيتم تنظيف فندق أبوي نيكوليتا من «قذارات اليهود المتجمعين به من كل أنحاء أوروبا». بالطبع، كان ذلك يشملها أيضا هي وأمها، لذلك ما تزال تشعر بالصدمة التي اعترتها حين قرأت نص الرسالة لأول مرة. هذا فضلا عن رد المحرر الذي قال إن السلطات واعية بهذا الأمر، وسوف تقوم بكل ما يلزم قريبا جدا. وبالفعل تم إغلاق فندقهم، غير أن نيكوليتا وأمها نجتا من الترحيل القسري لأن أمها كانت في ذلك الوقت متزوجة بإيطالي من المدينة؛ وسمح لهما بالبقاء في نابولي باقي أعوام الحرب.

كان ليف تحت اسم أسعد بيك قد وصل إلى بوزيتانو في شهر أبريل أو مايو من عام ١٩٣٨. كان ضم هتلر للنمسا قد أبقى على حالة من التدفق المستمر للفارين منها على فنادق بوزيتانو في ذلك الربيع، لذلك تزايدت بها أعداد اليهود وأعداد المتحدثين بالألمانية. كان لليف صلات عديدة بالفارين والمنفيين، ولكنه ظل متنائيا عنهم لأبعد حد. وسوف تصادر السلطات طابعته ومذياعه، وظن بعض الناس أنه جاسوس - ولكن لمن؟

وتذكر هاربة ألمانية تدعى إليزابيث كاستونير في مذكراتها عن ليف: «كان رجلاً محاطاً بالغموض والأسرار». كانت قد مرت ببوزيتانو عام ١٩٣٩. وتذكر أيضا على سبيل الاستغراب: «كان ما بحوزته كمستندات تعريف شخصية بطاقة ركوب سفينة من شركة لويد بشمال ألمانيا، والتي اعتبر الدرك بغرابة شديدة أنها جواز سفر دبلوماسي»، وتذكر بتعجب شديد أن «المسلم» كان يحتفظ معه بالبدلة «الفراك»، ورباط عنق أسود، والسترة المذيلة، وحرص على أن تشحن له خصيصا من فيينا.

ومن الثابت أن ليف اعتبر مدينته الشاطئية الجديدة بـ«الوجوه الهيستيرية للسباحين» ليست سوى سجن. في العامين الأولين، تلقى زيارات من صديقه الأميركي صاحب منظومة العلاقات الواسعة جورج سيلفيستر فيريك، والذي سوف يسجن بعدها في أميركا بتهمة أنه عميل للنازية، والشاعر غيرهارت هاوبتمان، الذي لفت أنظار (السيدة) بيما أندريا في راباللو للمأزق الذي يعاني منه ليف. ولكن باستثناء أليس شولته «الروسية الشعثاء» التي وصلت من جديد لترعاه، كانت اتصالات ليف الرئيسة بالعالم الخارجي مقصورة على التراسل البريدي.

في عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ كتب عشرات الرسائل، في البداية للبارون عمر في الهند؛ وإلى (السيدة) سعيد، البارونة إلفريده، التي كانت باليونان؛ وبداية من عام ١٩٣٩، بدأ يكتب إلى بيما في راباللو. بدأت صداقة ليف ببيما حين قدمت نفسها له عبر البريد وأرسلت له بعض النقود، واستمرت المراسلات - مع كثير من التدخلات المرعبة من الرقابة ومن أحداث الحرب - حتى موته. كانت من بين نقاط مضيئة قليلة جدا في أعوامه الأخيرة. كانت تربط

بيما بكثير من الكتاب علاقة صداقة حميمة - ومنهم إزرا باوند، وييتس، وغيرهارت هاوبتمان - ولكن كان من الواضح أن أياً منهم لم يكن أقرب إليها من مشاعر التراسل التي ربطتها بشاب يبلغ من العمر نصف عمرها تقريبا، والذي لن تلتقي به أبدا، ويصارع الموت في بوزيتانو. وسوف تكون بيما آخر شخص يعرف ليف نوسيمباوم، على الرغم أنه من المحتمل أن الأصوب القول إنها أول شخص الذي يعرف من هو قربان سعيد.

كان هناك موضوعات معينة ظلت كما هي في كل رسائل ليف، فعلى الدوام كان يكتب أنه في مسيس الحاجة لنقود يعتاش منها وحاول وسعى وجرب مخططاً بعد آخر إما أن يتكسب بعض النقود أو أن يحصل على بعض حقوق نشره أو بعض من أرصدته البنكية خارج إيطاليا. واستحوذ عليه التفكير بإيريكا[1]. وفي ١٩٤٠ بدأ في كتابة تلك الدفاتر التي كتب عنوانا لها: «الرجل الذي لم يعرف شيئا عن الحب» - مذكرات - على هيئة رواية - ورواية - على هيئة مذكرات،

---

(١) قبل موته مباشرة، سوف يوصي ليف بأن الطبعة الأخيرة من روايته «علي ونينو»، والتي نشرت بعد موته بشهور قليلة، بأن يحل اسم إيريكا محل اسم نينو في كل موضع يذكر فيه اسم نينو في نص الرواية. لذلك لو حصلت على نسخة من طبعة إيطاليا الفاشية ذات الغلاف الورقي لأشهر أعماله - والذي ليس بحوزة سوى قليل من الناس لأنها كانت طبعة محدودة جدا، على الرغم من أن بعض نسخ تلك الطبعة ما تزال تظهر من حين لآخر في أماكن بيع الكتب المستعملة - وسوف تكتشف أن قصة الحب الساحرة التي نسجت عشية اندلاع الثورة الروسية في مدينة باكو تعد بالفعل قصة علي وإيريكا. وهي أيضا ليست لقربان سعيد كمؤلف مثل باقي الطبعات، ولكن باسم أسعد بيك، وهو أول استرداد بعد وفاته لاسم مؤلف الرواية الحقيقي.

سوف تأخذها ناشرته السابقة، «السيدة موغله» معها وتخفيها عندها على مدى ستين عاما تالية.

على مدى عامين ظل ليف يكتب في تلك الدفاتر بقلق وتوجس، كتابة عميقة متلاحقة في عجل؛ حتى أن خادما كان يخدم في البيت الذي يعيش فيه يتذكر ليف وهو يكتب «أحيانا في الليل، - كنت أغادر وأعود في الصباح وأجده جالسا في اليوم التالي ورأسه مائلة بذات الوضع الذي تركته عليه وهو مستمر بالكتابة». بخط يد دقيق مجهري أزرق حكى قصة حياته، تقطعها مشاهد من آلامه الحالية. في مشاهد سريعة التعاقب يلتقي بمظليين عرب، ورسل ملوك، فتيات شقراوات، ومليونيرات ببدلات التوكسيدو، ومعلمو طرق روحية رثوا الثياب، حتى يصبح وحيدا وعاريا في غرفة فندق، يغسل الصحراء من آثار جسده، ويلاحظ بقعة سوداء تنمو في قدمه. تعاطى المورفين وهو يكتب بعض الفصول، ودخن الحشيش لتخفيف آلامه بينما كان يكتب فصولا آخرى، غير أن أكثر النثر سريالية كان يظهر حين كان يعاني من الألم، وهو يحاول الالتزام بالواقع الصارم الذي لا يمكن التوسل فيه بلغة أو ثقافة معينة أو تعليم أو موقف.

ظهر مرضه فجأة في عام ١٩٣٩ - بادئا من قدمه اليسرى، ثم امتد إلى رجليه الاثنتين. ونقل إلى المشفى في نابولي في ذلك العام لمدة أربعة أو خمسة أشهر (طبقا لملفات مراقبة الشرطة)، غير أنه لم يكن هناك علاج طبي معروف لمرضه، ولذلك تم إرجاعه إلى غرفته في بوزيتانو، حيث كان عليه أن يشتري أو يتسول المورفين من الصيدلية المحلية.

«في المجمل فإن المستقبل بيد الله، غير أنه يمكن للمرء أن يشعر بتلك اليد بوضوح أكثر». وكتب للبارونة إلفريده في شهر سبتمبر عام

١٩٣٩ قائلا: «تبدو الحياة أحيانا غريبة بالنسبة لي. لقد انتهيت من كتابي ولم يعد لدي في الحقيقة ما أعمله». كان كل هذا، بقدر ما كان في حاجة لطعام ونقود ودواء طبي، أمور لا يمكن احتمالها. لذلك بدأ في كتابة «الرجل الذي لم يعرف شيئا عن الحب».

قال لي جيناريو باسيروتي، الذي كان في يوم ما بمثابة رئيس مدينة بوزيتانو «كان المسلم رجلا محترما لا يخرج من البيت أبدا دون أن يتأنق في ملبسه وبيده عصاة سيره»، أضاف أنه «كان محترماً جدا، كان القس دون سيرفيجليو سينك من أفضل أصدقائه، واعتاد أن يقضي بصحبته ساعات طويلة يتمشيان ويتحدثان». وفي الحقيقة، فإن باسيروتي - الشهير عالميا باسم «باسيروتي العجوز» - لم يذكر لي الكثير بنفسه، حيث كان يمضي في رفقة أربعة أجيال من النساء، من حفيدته حتى أمه، يصاحبونه في كل كلمة تخرج من فاه. حين أحاول سؤاله «هل ناقشت قبل ذلك...؟» فيستجيب على الفور: «أوه، بالطبع، كنت أحيانا أتناقش معه...» قبل أن تقوم السيدات بقرصه أو شده من حمالات سرواله ويقاطعونه قائلين: «ما يقصده جدي هو...»، وهو ما يدفع باسيروتي العجوز إلى التراجع عما كان ينوي قوله قائلا: «نعم، هكذا بالضبط، هكذا تماما».

صحبتني الكونتيسة ريموندا جيتاني- باتيسون، التي تعمل بتصميم أزياء الأفلام السينمائية والأوبرالية في مقابلة. وهي تسكن حاليا في البيت الذي مات فيه ليف، وكانت شغوفة بمساعدتي على حل لغز أكثر ضيف ملغز حل ببيتهم العائلي. في طريق صعودنا على دستة من درجات سلم صخري على الجرف تفصل بين الطوابق المختلفة للبيت - كانت ترافقنا ابنة الرجل العجوز وكانت تلف رأسها بوشاح قرمزي

فاقع اللون. أخذتنا إلى غرفة صغيرة مظلمة على سطح المبنى، حيث جرت المقابلة تحت مراقبة تتزايد إيلاما ووجعا. ولكن ازداد الوضوح أثناء المقابلة كيف ازدادت شهرة دون سيرفيجليو سنك مع «المسلم» الذي كان يقطن في بيته: فقد كان كلاهما مثقفاً ويتحدثان بلغات عديدة وملمين بكثير مما يحدث في العالم. كلاهما أيضا قضى بعض الوقت في أميركا، لذلك كانا قادرين على التواصل بالإيطالية والإنجليزية أيضا.

هل كان القس فعلا فاشستيا مخلصا للفاشية؟ سألته عن ذلك، كما سألته أيضا إن كانت الميول السياسية المشتركة سببا في علاقتهما الوثيقة؟

رد العجوز باسيروتي: «بالتأكيد، كان دون سيرفيجليو فاشستيا كبيرا، وهو...». قاطعته ابنته، زعيمة البيت وهي تحكم وضع الوشاح على رأسها: «لا يعرف باسيروتي العجوز شيئا عن سياسات دون سيرفيجليو - فقد كان رجل تصميم ملابس فقط».

شرحت لها أنني لم أكن أعني أي شيء من ذلك. من المفترض أن كثيراً من الناس كانوا فاشيين اسميا في تلك الأيام، خاصة بين رجال الإدارة المدنية.

بدأ الرجل العجوز بالرد: «حسن، بالطبع، في تلك الأيام...».

قاطعته من جديد ابنته الموشحة وعيناها مسلطتان علي: «لم يكن له أي شأن بالسياسة، لا يتذكر أي أحد له علاقة بالسياسة».

قال باسيروتي العجوز: «نعم، بالضبط هكذا، لا دون سيرفيجليو ولا أنا كنا على علاقة بالأمور السياسية».

حين غادرت الكونتيسة وأنا برفقتها وعدنا إلى قصرها، قالت:

«ألم يكونوا رائعين! مضت ستون عاما وما يزالون يحجمون عن ذكر الفاشيستية. كما لو كانوا يعتقدون بشكل ما أن وضعهم قد يتعرض للتهديد والمخاطرة لأن أحداً ما قد يكتشف أنه كانت هنا فاشيستية في عام ١٩٤٢ - في قلب إيطاليا الفاشيستية - يالصدمتي». نعم، ربما لم تكن كل العائلة من الاشتراكيين الديمقراطيين. «ولكن أن يظنوا أن هناك من يهتم الآن، خاصة أن تلك الأمور لم تكن سرية، كل واحد هنا من كبار السن يعرف أن القس كان فاشيستيا كبيرا، وقد مات من ثلاثين عاما! وماذا عن مسلمنا - هل كان فاشيستيا أيضا؟ إسلامي؟ نازي؟ لماذا أتى في حقيقة الأمر إلى بوزيتانو، هل يمكنك أن تكتشف السبب؟ الناس هنا لا يعرفون شيئا، حتى من كانوا يعرفونه وهو يعيش هنا، مثل العجوز باسيروتي. لا أظن أنه قد أظهر لأي منهم ما يدور بخلده ولم يكشف لهم عن مكنون نفسه حين كان هنا في بوزيتانو، كان فقط يقضى الوقت في حالة انتظار. لا أعتقد أبدا أنه قد كشف عما يدور بذهنه للناس الذين عاصروه هنا».

كان ليف يقيم في شقة صغيرة ملاصقة لبيت عائلة الكونتيسة، وهو قصر صغير يرجع للقرن السابع عشر بواجهة مبهجة صفراء ومجموعة من الشرفات بأعمدة عاجية اللون تطل جميعها على البحر. كان أبوها ألفريد باتيسون - جيوفاني ألفريدو باتيسون - قد اشترى القصر حوالي عام ١٩٠٨. كابتن باتيسون، الذي بنى حوض بناء السفن الذي يمتلكه في نابولي، بنى كثيراً من سفن الأسطول البحري الحربي الإيطالي، كان واحدا من عديد من رجال المشروعات الإنجليز الذين انتقلوا إلى نابولي في القرن التاسع عشر ليكونوا ثرواتهم. كانت حركة نقل المعرفة والخبرة البريطانية والتصنيع البحري قد بدأت بعد انتهاء الحروب النابوليونية، وخلفت وراءها ثقافة محدودة مختلطة تظهر من

خلال الأسماء المختلطة مثل جيتاني - ياتيسون، وجيوفاني سميث، وكارلو نايت. واستمر «الإنجليزي النبوليتاني» في الازدهار والنجاح في العقد الأول من ظهور الفكر الفاشي، في تلك الأعوام التي كانت فيها سكوتلانديارد ما تزال تساعد وتدعم موسوليني في محاصرة المعادين للفاشية وحين كانت زوجات وزراء بريطانيا يثبتون شارات النازية على صدر فساتين السهرة.

تزوج الكابتن ألفريدو باتيسون من امرأة ألمانية تدعى لويزه شتراوب، وكانت الكونتيسة تعتقد أن جدتها شتراوب، مثقفة العائلة وصاحبة الصالون الفكري، هي التي دعت المسلم ليعيش عندهم. لم تكن جدتها مثل جدها متصلبة العنق ولم يكن زوجها ليجلب للبيت رجلاً فاراً تحوطه الشبهات، بغض النظر عن عظمته ككاتب. وأنجب بَنَّاء السفن البريطاني من زوجته الألمانية طفلة هي نورا باتيسون، وكانت فتاة مسترجلة أفسدها التدليل وقضت عقد الثلاثينيات بأجمعه في علاقة غرامية بصياد إيطالي وسيم وفي قيادة سيارات السباق فوق التلال حتى نابولي. ودعمت الفتاة الإنجليزية الألمانية النابوليتانية المستهترة وضع عائلتها بالزواج من الكونت جيتانو، وهو رجل بوجه متجهم الملامح ومن عائلة من أقدم عائلات إيطاليا وأحد الأعضاء المبكرين في الحزب الفاشيستي. (وجدت بطاقة عضويته بالحزب المؤرخة بعام ١٩٢٥ بين كومة من صور الرحلات بالقصر). ونتج عن ذلك الزواج إنجاب الكونتيسة الحالية جيتاني باتيسون.

تركت لي الكونتيسة حرية البقاء في بيتها وأبلغتني أن بإمكاني البقاء قدر ما أشاء. وكنت أود أن أنام في الشقة الصغيرة التي أقام بها ليف، غير أن رجلا يرتدي ربطات عنق حريرية يعمل ببناء اليخوت من جنوب أفريقيا كان يستأجر الشقة في ذلك الوقت. وبدلا من ذلك كنت

أقيم في ظهر القصر الرئيس، أسفل ممر كهفي يحفه خزانات قديمة وغرف بشرفات.

كانت مهمة لا تقاوم رغم مشقتها. كان لكل غرفة نافذة تفتح على شرفة تطل على البحر، وتغمرها أشعة شمس البحر المتوسط، غير أن الأشياء المثيرة للاهتمام كانت تقبع كلها في الظلام. لابد أنني قضيت وقتا أطول فيما يشبه ظلام الكهف أكثر من أي زائر آخر لبوزيتانو منذ زمن المسلم ذاته - نادرا ما كنت أخرج للشرفات خشية أن يفوتني صندوق آخر، أو رف أوراق آخر، أو حزمة رسائل أخرى. كانت توجد خزانة تكاد تتفسخ من كثرة المكاتبات الغرامية الموجودة بها بالألمانية، والإنجليزية، والإيطالية، وبطاقات بريدية تسجل عطلات تم قضاؤها في رحاب الرايش الثالث، ومراسلات مع أصدقاء أميركيين بعد إعلان أميركا الحرب. لم يكن لأي منها أية علاقة بليف.

ومع تصفح السجل الضخم لنزلاء القصر بغلافه الجلدي، لاحظت أن أسماء النزلاء تحكي تاريخ تلك المرحلة بطريقة غير مباشرة: فمن العشرينيات حتى آخر الثلاثينيات، كان النزلاء من جميع أنحاء أوروبا، وكانت الأكثرية من أرستقراط الإنجليز، وبلوتوقراط[1] الأميركيين، تصاحب أسماءهم أوصاف بالإيطالية لا تقيم وزنا لثرواتهم في حين تظهر الافتتان بالميراث الكلاسيكي للساحل الإيطالي وتاريخه؛ من ١٩٣٨، وهو العام الذي فرض فيه موسوليني القوانين العرقية، أصبحت الأسماء في سجل النزلاء إيطالية فقط؛ ومن عام ١٩٤٤ وما يليه، ظهر وصول الحلفاء في شكل تيار لا ينتهي من أسماء الضباط الأميركيين والجنود البريطانيين من جميع الرتب

---

(١) البلوتوقراط هم أبناء الطبقات الثرية الأمريكية ذات النفوذ. (المترجم)

العسكرية والأصول المتباينة. لابد أن كازا باتيسون كان يبدو مثل جزء من انجلترا بالنسبة لأولئك الغزاة البعيدين عن أوطانهم.

ولكن حتى في الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٢، في الوقت الذي كان فيه سجل الزوار يخلو من أسماء الأجانب، أن يؤجر مسكن لأجنبي باتصالات سياسية يحوطها الغموض والشبهات ولا يملك مالا والذي كان متابعا ومطاردا من قبل الشرطة السرية الإيطالية؟ كان ذلك من غرابته يصل إلى حد الإلغاز.

قالت الكونتيسة وهي تشير إلى بعض الصور الفوتوغرافية لأمها نصف الإنجليزية وهي ترتدي ملابس رياضية، وكانت تضع على كتفيها وشاحا طويلا أبيض: «كانت أمي في سن المراهقة في ذلك الوقت ولكنها كانت جامحة وغير مهذبة وصفيقة، كانت ماما تتسلل من باب جانبي حين جاء دكتور فيورينتينو لعلاج ضيف جدتي أسعد بيك، ومعالجة غرغرينا في رجله - بعض الناس قالوا إنه أصيب بطلق ناري لم يعالج في حينه؛ فيما قال آخرون إنه طعن قدمه أثناء محاولة انتحار سابقة أقدم عليها وهو في سويسرا».

كانت الغرغرينا من أعراض مرض رينود الذي أصيب به، حيث تموت أنسجة الأطراف التي تعاني من نقص حاد في أكسجين الدم بسبب تقلص الأوعية الدموية للأطراف. ودون عقاقير وعلاج مناسب، يمكن للحالة أن تتفاقم وتتدهور إلى ما هو أسوأ كثيرا، تماثل بعض أنواع التعذيب البشع التي كانت تحدث في القرون الوسطى. بالقرب من نهاية عمر ليف، كانت قدمه قد أصبحت سوداء جدا، كما لو كان أحدهم قد وضعها في النار أو أحرقها بشعلة.

قالت الكونتيسة وكأنما تشعر ببعض الذنب: «كانت أمي وأصدقاؤها يرونه وهو يصرخ من شدة الألم، ثم راحت تركض هابطة

الطريق المنحدر وهي تصرخ، لقد قطعوا جزءا من جسد المسلم! قطعوا جزءا من جسم المسلم».

قال فيورافانتي ريسيبولي: «كان يعوي كحيوان حين تبدأ موجة الألم، وفي أوقات أخرى كان يبدو هادئا جدا وفي حالة من التأمل العميق. لا يمكن لك أبدا أن تنسى عينيه، عينين واسعتين سوداوتين، عيون شرقية كما تعرف، تتألق في توهج حتى مع تحلل بدنه». قال ذلك الرجل المرح النحيل ابن الستة وثمانين عاما وهو يضبط خلف رأسه قلنسوته اليانكية النيويوركية، ثم يرتشف رشفة من مشروب الكوكا الذي كان أمامه، وهو يميل بمقعده للخلف إلى حد مفزع.

كنا بمقهى تتراص طاولاته في مسافة بين الطريق وحافة جرف يبلغ ارتفاعه ستمائة متر، والندل يتفادون السيارات المارة بالطريق فيما كان فيورافانتي ريسبولي يتذكر كيف عمل ذات يوم كخادم للمسلم. كان يعمل في القصر الكبير، يخدم جد الكونتيسة، (كابيتانو باتيسون - الذين كان يريد على الدوام أن يكون كل شيء «بريسيسو (على أكمل وجه)! بريسيسو!، لو تأخر موعد الغداء دقيقة أو تقدم عن موعده، يصرخ بصوت كالرعد ويجعلك تشعر بأن كارثة كبرى قد وقعت» - ويأمر بإحالة العاملين للتحقيق. وحين سألته إن كان قد قدم للمسلم غداءه في أي مرة في القصر الكبير، مع الكابتن والعائلة، ضحك.

قال: «لم يكن الرجل من نوعهم! كان من أصول ملتبسة عليهم ومشكوك فيها! وكان فقيرا! ولم يكن بمقدوره أن يدفع لي شيئا، كان يعاملني على الدوام بتهذيب شديد وأدب جم، كان يقول لي: «جيوفاني، هلا ذهبت من فضلك للصيدلية وتحاول أن تحصل لي على بعض المورفين؟»، حتى في تلك الحال وهو يعاني بوضوح من آلام

مبرحة، كان يستجمع قواه ليقول: «هلا تفضلت؟» وهل تعلم ما كان يقوله الصيدلي الخسيس؟ ما زلت أتذكر ذلك بعد ستين عاما لأن رده كان شديد البرودة، كان باردا كالجليد، كان يقول: «من الأفضل لذلك الرجل أن يركل الدلو - لقد سئمت من إعطائه عقاقيرا لا يستطيع أداء ثمنها. من الأفضل لذلك الرجل أن يموت»». كان ليف قد وصل إلى بوزيتانو وهو شاب وسيم حسن المظهر في بدايات الثلاثينيات من عمره. بعد ذلك بأربعة أعوام، كان يبدو في ضعف ذلك العمر وتحول لمدمن للمواد الأفيونية المخدرة للتغلب على الألم.

سألت ريسبولي إن كان يعلم أن ذلك المسلم كان رجلا شهيرا، كان كاتبا. قال إنه لم يكن يعلم ولكن ذلك لا يدهشه أيضا. فحين لم يكن في نوبات من الألم، كان الرجل إما جالسا يتطلع إلى البحر أو كان يكتب. قال: «كان يكتب لعشر ساعات وأحيانا لخمس عشرة ساعة في بعض الأيام». وفي الوقت الذي جاء فيه مراقب المدينة لمصادرة طابعته - كانت السلطات في روما قد أرسلت تعليمات بأنه غير مسموح للمسلم لا بآلة طابعة ولا مذياع، لأنه قد يستخدمهما في التجسس - واستمر بعدها في الكتابة بخط يده، وحين كان ينفذ الورق ولا يمتلك ثمن شراء ورق آخر ولا دفاتر للكتابة، كان يكتب على هوامش الكتب القديمة وعلى قطع من أوراق علب السجائر الفارغة. أحد النزلاء الألمان سجل في مذكراته بعد أن رأى ليف في صيف عام ١٩٤١ أنه على الرغم من أن دخول شقته كان «مثل دخول محششة فارسية لتعاطي الحشيش والأفيون.... إلا أن حواسه السياسية كانت بذات الحدة التي كانت لديه على الدوام».

وعلى الرغم من أن الخادم العجوز تذكر كثيرا من النزلاء

الأجانب الذين كانوا يزورون المسلم، إلا أن الزائر الذي حفر في ذهنه وترك أثرا لا يمحى كان شاب شرق أوسطي عملاق يرتدي زي الضباط العسكريين. لم يتمكن ريسبولي من تذكر اسمه، وظل متذكرا الرجل بسبب زيه العسكري ولأنها كانت أيضا المرة الأولى والوحيدة التي سمع فيها المسلم يتحدث العربية، لا بالإيطالية ولا بالألمانية.

قال الخادم وهو يميل للأمام ويعدل وضع قلنسوته كرجل واش في الخامسة والثمانين من العمر: «كانوا جميعا يطلقون عليه اسم المسلم، أما أنا فأعتقد أنه كان يهوديا».

ترى لماذا اعتقد أن المسلم كان يهوديا؟

«لا أعرف، كان يحتفظ بالقرآن إلى جوار فراشه، وكان الجميع يطلقون عليه اسم المسلم. بدا على صديقه أنه مسلم فاشيستي. ولكني أحسست أنه أقرب لأن يكون يهوديا».

تجشأ الخادم السابق وطلب كوباً آخر من الكوكا: «ولكني كنت سأواصل خدمة المسلم لو لم يمت، رغم أنه لم يكن ثريا، فقد كان يبدو على الدوام كرجل راق ومحترم».

أشار رومولو إركولينو ابن رجل الرقابة إلى ما خلف البيوت التي على الجرف نحو بقعة على الحافة العليا للمدينة. نظرت إلى ما يشير إليه فلم أر إلا بقعة خضراء داكنة وما يبدو ككنيسة صغيرة معلقة، كما لو كانت طائرة في منتصف السماء، وسط خلفية من سماء زرقاء داكنة.

«كان أبي يعرف أن هناك من سيأتي في وقت ما للسؤال عن المسلم. كان هناك معسكر للشرطة العسكرية السرية لا يبعد كثيرا عن ساليرنو، أو ما يشبه الشرطة العسكرية السرية، نسختنا الإيطالية منها. وكان ذلك في نهاية شهر أغسطس من عام ١٩٤٢، توقفت سيارتان

سوداوان أمام البيت، من ذلك النوع الطويل الذي لا تستعمله إلا الشرطة السرية، ونزل منها رجال بقبعات - وهم دائما يرتدون قبعات كبيرة، من نوع الفيدورا الذي يخفي الجانب العلوي من الوجه - دخلوا البيت وسألوا أبي: «أين هو؟ أين المسلم؟»

قال أبي: «لقد جئتم متأخرين كثيرا، لقد رحل، وأشار أبي وهو يقول ذلك إلى المقابر»».

كان رومولو إركولينو (ويعرف أيضا باسم رومولوس هرقل) يرتدي سترة داكنة ورباط عنق، حتى تحت الشمس المحرقة. كان أبوه لويجي، الذي كان يشغل منصبا موازيا لمنصب عمدة المدينة، وكان أبوه آخر من رأى ليف حيا.

عند قمة المدينة، والتي يمكن الوصول إليها عبر سلم صخري شبه عمودي منحوت في صخور الجبل، قادني رومولو إلى المقابر، عبر مدافن متراصة واحدة فوق الأخرى على المنحدر مثل مدينة مصغرة للموتى. من ذلك الموضع يمكن للمرء أن يرى كل الساحل المطل على البحر التيراني. على قطعة بارزة من الأرض انتصب برج من العصور الوسطى، شيد لمراقبة البحر ورصد مراكب المسلمين الحربية في القرون الوسطى والتحذير عند رؤيتها.

«إيكولا»، قالها هرقل في صوت غنائي لطيف. كنا قد أصبحنا في مواجهة شاهد مقبرة صغير أبيض وعلى قمته كتلة مستديرة كرمز للعمامة، قال: «هذا نمط تركي من شواهد القبور، جاء رجل بعد انتهاء الحرب، دكتور جميل مازارا، جزائري، ووضع تخطيطا للمقبرة وتبرع بثمن شاهد القبر». كان الإسم المدون على شاهد المقبرة يقرأ: محمد أسعد بيك.

كان مازارا هو الرجل الذي زاره بالزي العسكري الذي ذكره لي

ريسبولي، والذي تحدث إليه ليف باللغة العربية. قرأت رسائل من الجزائري في ملف ليف الموجود لدى الشرطة. كان اسمه الكامل دكتور أحمد جميل فاكا مازارا، وكانت وظيفته المطبوعة أعلى أوراق مراسلاته هي: «صحافي». وجدت مشقة شديدة في تتبع ذلك الرجل من خلال الصحف القديمة، ولكن ما تمكنت من تكوينه عن شخصيته من مختلف المصادر - وهي مستندات خاصة بالأمم المتحدة من أواخر عقد الأربعينيات، ومراسلات عثرت عليها في قلعة إرنفلز من عقد السبعينيات، وزوجة سابقة غاضبة تعيش في روما وهي ابنة سيناتور من كبار الفاشيستيين السابقين - التي كشفت أن «الجزائري» كان من أغرب الشخصيات: كان مسلماً فاشيستياً وضابط مظلات وصحافياً وله صلة بالسيارات النفيسة الغالية والفيللات الفخمة، وسلاسل من المهام التي يحوطها الغموض كانت تدفعه للتنقل كثيرا ما بين ليبيا تحت الهيمنة الإيطالية، والجزائر الفرنسية، ومن الواضح أنه كان ينقل معلومات ويهرب أشياء أخرى. كانت الرسائل مكتوبة بخط يد منمق، وكانت الرسائل الوحيدة المكتوبة بخط اليد في ملف مليء بمذكرات مكتوبة بالطابعة، وتقارير مراقبة، وبرقيات رسمية. كانت كلها مختومة بتاريخ العام التاسع عشر والعام العشرين من العهد الفاشيستي (على نمط التاريخ اليعقوبي، كان موسوليني قد أصدر تقويما إيطاليا جديدا يبدأ من تاريخ مسيرته الفاشيستية الكبرى في روما عام ١٩٢٢).

هل التقى إركولينو بالجزائري في أي وقت؟

قال: «لم يعد دكتور جميل أبدا إلى بوزيتانو في حياة أبي. ولكني كنت محظوظا إذ التقيت به مرة أخرى ذات يوم، في السبعينيات، حين جاء ليلقي نظرة على مدفن ليف. كان سعيدا جدا بالمقبرة».

هل عرف أي شيء عنه؟

قال: «كان رجل شديد الثراء والنفوذ، وله كثير من الأملاك في الجزائر وتركيا. قال لي إن الرجل المدفون هنا من أعظم الرجال الذين عرفهم في حياته. قلت له إننا كنا نشعر بذلك، وأنه كان كفرد من العائلة بالنسبة لنا. وأظن أن ذلك كان في عام ١٩٧٥. قال دكتور جميل إنه سيأتي مرة أخرى، إلا أنه لم يأت بعد ذلك أبدا».

وجاء البارون عمر إلى بوزيتانو وهو عائد من الهند عام ١٩٥٤ ولاحظ وهو غير سعيد أن قبر أسعد بيك كان خارج أرض المدافن، ويفترض أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن كاثوليكيا. سألت حارس المدافن عن ذلك الأمر، فقال إنه يعتقد أن الأرض المقدسة تمتد حتى حافة الجرف. ولسوء الحظ كان شابا صغيرا، وكان أبوه الذي كان يحرس المقابر من قبله وقت دفن ليف قد مات من زمن طويل، فلم أستخلص منه أية معلومات. ولكن، هل عرفت أن المسلم قد أخرجت جثته وأعيد دفنها من جديد؟ سألته إن كان أبوه قد قال له شيئا عن ذلك. وحين قال لي إنه سمع بذلك من الروائي العظيم جون شتاينبك، هبط قلبي في صدري، غير أنني رحت أستمع إليه وهو يحكي تلك الحكاية.

عاجلا أم آجلا، كان كل واحد في بوزيتانو يريد أن يحكي لي حكاية استخراج جثة المسلم وإعادة دفنه. في عام ١٩٥٣، كان جون شتاينبك قد نشر مقالاً من أدب الرحلات عن مدينة بوزيتانو في مجلة «هاربرت بازار»، وما يزال المكتب السياحي يعيد طباعة ذلك المقال في طبعات خاصة ملونة بديعة صغيرة الحجم على ورق بعلامات مائية كريمية اللون، ومتوفرة بست لغات. كثير من أهل بوزيتانو عرفوا عن ذلك الأمر وأن نسخة شتاينبك قد أصبحت أساساً ومصدراً لا يمكن إغفاله عما «يتذكره» أغلبهم عن أسعد بيك.

من عشرة أعوام مضت، جاء مسلم إلى بوزيتانو، وأحبها واستقر بها. ولمدة من الزمن كان ينفق على نفسه، ولكن بمرور الوقت كان قد أنفق كل ما يملك ورغم ذلك بقي فيها. قامت المدينة بدعمه واعتنت به. وكما كان العمدة الشيوعي الوحيد بالمدينة، كان هذا الرجل أيضا مسلمها الوحيد. أحس أهل القرية أنه واحد منهم. ثم مات أخيرا، وكان طلبه الوحيد قبل موته أن يدفن إن مات وقدماه باتجاه مكة. وهكذا، نفذت وصيته بقدر اجتهاد أهل بوزيتانو في معرفة اتجاه مكة. بعد ذلك بأربعة أعوام اكتشف بعض المتطفلين الفضوليين، أن المسلم قد دفن دون معرفة صحيحة باتجاه مكة لأن البوصلة كانت معطلة أو أن الخريطة التي التي استخدموها لم تكن صحيحة. وأنه دفن باتجاه يبلغ معدل الخطأ فيه ٢٨ درجة بعيدا عن الاتجاه الصحيح. وأثار ذلك غضب مدينة ساحلية تعتمد على الملاحة البحرية ومعرفة الاتجاهات. وتجمع كل السكان، وحفروا وأخرجوا جثة المسلم، وأعادوا دفنه في الاتجاه الصحيح لمكة، وغطوا مقبرته من جديد.

ولا يوجد أي دليل على أن ذلك قد حدث بالفعل، ولكن على أي حال، ربما كان أكثر جانب متنافر ومتناقض في تلك الفقرة أنه من الواضح أن شتاينبك لم يكن لديه أية معرفة أن الرجل الذي تتحدث عن نادرته وحكايته كان كاتبا مشهورا من عقد سابق فقط. كانا كاتبين ناجحين متعاصرين في عقد الثلاثينيات، غير أن شتاينبك بقي حيا ليداوم على كتابة كتبه الرائعة ومقالات من ذلك النوع، بينما ليف/أسعد سقط من حافة الهاوية. بالنسبة لكل الناس، باستثناء قلة من الأتباع المخلصين - وقوات الشرطة السرية في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشيستية - في العام الأخير من عمره، أصبح ببساطة «مسلم» بوزيتانو.

حين أخبرت رومولو إركولينو عما قاله ريسبولي، عن أن المسلم كان في الحقيقة يهوديا، اعترض بشدة. كان هناك شاهد القبر المنتهي في أعلاه بكتلة على شكل العمامة والكتابة العربية التي على الشاهد. كل واحد من أهل المدينة الصغيرة كان يسميه «المسلم». كان يقرأ القرآن وأوصى بأن يدفن وقدماه باتجاه مكة. قال أخيرا، «من هنا»، وهو يشير إلى فقرة في الوثيقة التي أريته إياها. كانت حاشية في ختام نعي طويل نشره دكتور جميل عن أسعد بيك في صحيفة فاشيستية تدعى «أورينتو موديرنو (الشرق الحديث)» من عام ١٩٤٢:

> كون أسعد بيك ليس يهوديا يمكن استنتاجه من حقيقة أن في القوقاز قبل سيادة البلشفية كان محرما على اليهود تحريما دينيا باتا أن يكون لديهم ممتلكات في قطاع وأعمال النفط، سواء على مستوى الأفراد أو الشركات اليهودية، ففي القوقاز مثلما في روسيا البيضاء، لم توجد نبالة يهودية أبدا، وحتى الاستاد الرياضي في باكو كان بداهة محرما على أطفال اليهود، كما كان محرما عليهم العيش في المدينة. وسجل معهد الأنثروبولوجيا في نيويورك عنه: «ليو محمد أسعد بيك، ابن إبراهيم أرسلان أوجلو، ولد في باكو في العشرين من أكتوبر عام ١٩٠٥، الديانة: محمدي». وتذكر الملاحظات التالية عن أصوله العرقية ما يلي: «٥٠٪ روسي، ٢٤٪ تركمان، ٢٤٪ إيراني».

كان المقال أثريا في طباعته كنوع من المجاملة للأثر الرخامي الذي صنعه جميل في المدفن، جانب تأبيني، وجانب تقديري، وجانب اعتذار عرقي. في عام ١٩٤١ حينما كان ليف مازال حيا، كانت المقالات النقدية الإيطالية لكتبه التي أعيدت طباعتها عن «قصة حياة ستالين» وعن «الشرطة السرية الروسية» قد بدأت تشير إليه على

أنه «كاتب يهودي»، وهو تحول في المصير كان يمكن أن يكون مميتا لولا أن ليف كان بالفعل في قبضة الموت لأسباب أخرى. بعد عام ١٩٤٢، حين أخذ جميل على عاتقه تنفيذ وصية بعد الموت لليف بترجمة روايات قربان سعيد ومحاولته تأسيس مؤسسة باسم أسعد بيك «لأطفال اللاجئين»، كان من الضروري استعادة بطله لحالة آرية عرقية نقية. (بل انه ابتدع قصة بديعة حيث إن واحدة من شقيقات سلوتزكي وصفها جميل بأنها أميرة روسية بيضاء ثرية - قد تزوجت من «السيد نسيم- بوم [إسرائيلي]، وهكذا أصبح العم نسيم»).

أصبحت شغوفا إلى حد ما باقتفاء أثر ذلك الجزائري متعدد المواهب، وبحثت بلا طائل في وثائق كل الوزارات الإيطالية التي يحتمل أن أجد بها معلومات عنه. وحين كنت أرجع خائبا بعد كل محاولة، كنت أتساءل إن كان يمكن أن تكون ملفاته قد سرقت عمدا من قبل شخص ما، أو تم التخلص منها وتطهير الوزارات من أي أثر لها. على الرغم من أني وجدت رسائل منه إلى ليف في ملفات الحكومات الإيطالية، لم يكن من المفهوم كيف لا يوجد وثائق متابعة خاصة به في زمن الدولة الفاشيستية، ملف متابعة من المفترض أن يكون كبيرا جدا بالنسبة للإيطاليين حتى يضيعوه. ولكن أخيرا، اتضح لي لماذا كان دكتور جميل فاكا- مازارا صعباً جدا في رصده في السجلات البيروقراطية الإيطالية: فقد كان هو ذاته يعاني من أزمة هوية.

قال مستشرق مرح في معهد في روما يدعى بروفيسير كاسترو إنه يتذكر أنه سمع إشاعات عن دكتور جميل - وعلى وجه التخصيص أنه لا يمكن الوثوق به ولا يؤتمن على مواد ثمينة - حين تولى كاسترو وظيفته في بدايات عقد الخمسينيات. كان دكتور جميل معروفا بسوء

السمعة كما يتذكر كاسترو، غير أن الناس الذين يعرفون سبب تلك السمعة كانوا قد ماتوا جميعا. وأحالني كاسترو إلى بروفيسورة أخرى، في مدينة بيزا، تدعى آنا بالدينيتي، وكانت خبيرة عالمية في السجلات الاستعمارية الإيطالية في ليبيا وكانت تذهب كثيرا لتفحص سجلات لشمال أفريقيا، وربما يكون لديها القدرة على ترشيد بحثي الدؤوب عن أية معلومات عنه. وبعد ما بدا لي وكأنه سعي آخر بلا طائل، تذكرت البروفيسورة بالينيتي شيئا ما - تذكرت بالكاد شريحة ورق بين آلاف أخرى من مثيلاتها كانت قد تصفحتها في سجلات وزارة الخارجية الإيطالية، ولكن لأن تلك الورقة كانت تتعلق بثورة الطلاب في شمال أفريقيا خلال الحقبة الفاشيستية الإيطالية، ولأن تلك الأحداث كانت من جوانب تخصصها، فقد نسخت تلك الورقة. تذكرت بشيء من الغموض أن تلك الورقة تضمنت اسم جميل مازارا. ووعدتني بالبحث عن تلك الورقة، ثم بعد بضعة أيام وجدت ورقة تأتيني عبر جهاز الفاكس الخاص بي وكانت عبارة عن مذكرة من المدير العام للشؤون السياسية من قسم الإسكان لأفريقيا الإيطالية، مؤرخة بتاريخ مارس ١٩٣٨، وهي تسجل أن «(صاحب الاسم المستعار) جميل بن يوسف مازارا، مواطن إيطالي»، هو في الحقيقة من أبناء مدينة طرابلس يدعى بيللو فاكا. وهو «ضابط احتياط سابق في الجيش الإيطالي»، وتحول من عهد قريب إلى الإسلام، وأنه:

> قد عاش في القاهرة من النصف الثاني للعام السابق (١٩٣٧) حتى شهر فبراير من هذا العام [في ذلك الوقت] أعلنت الحكومة المصرية أنه شخص غير مرغوب به على ضوء ضلوعه في نقل المخدرات وبسبب العثور بحوزته على متفجرات ووثائق دعائية، وبناء عليه تم طرده من مصر.

وخلص التقرير إلى أن «بيللو فاكا يظهر كمدافع عن حقوق المسلمين الليبيين» ولكنه في الحقيقة متورط في مختلف المؤامرات والمخططات التي تحقق أغراضه وأهدافه الشخصية.

كل ذلك يميل إلى تفسير لماذا لم يكن جميل التابع المخلص كما كنت أتوقع أن أجده في دفاتر ليف الأخيرة. وبدلا من ذلك، كان شخصية متسللة بحيث كان ظهوره في النص، وربما لم يكن ذلك مصادفة، يتبعه في الغالب ما يشبه سحب من المخدرات النصية من النثر الغريب الغامض:

> بقي جميل معي. وهبني ابتسامة مشبعة. مددت يدي إليه. «حشيش، . . . جميل أعطاني حشيش». . . تنهد وأعطاني اللفافة. . .
>
> استلقيت متمددا في الظل في الشرفة. راح ألم قدمي يقل ويتلاشى. حملقت بتبلد نحو الفضاء ورأيت الألم ينزل على السلم. كان الألم يرتدي معطفا من القطيفة الحمراء ويحمل بيده سيفا مستقيما. كان قصير القامة ويضع على رأسه قبعة مريشة ذات حافة عريضة. كنت أنا من يراه وأنا من يحسه. حبوب الحشيش الصغيرة كانت قوية. أزاحت بعيدا القزم ذا المعطف الأحمر. كانت الشرفة خاوية. في مكان ما خلفي كنت أسمع جميل وهو يهمس، لم أعد أفهم ما يقول. كنت أرى السماء وسطح الماء الساكن الأملس. ببطء، في غاية البطء، راح الماء يرتفع من سطح البحر. غطى السماء - الشرفة، والبحر، والسماء، حتى أنا غطاني الماء. لا يوجد شيء في العالم إلا هذا اللون - لا صحاري، لا جامعات، لا كتب، لا ألم، لا ملوك. اللون الأزرق الرمادي يتحرك، كما لو كان يتحرك بيد خفية لا أراها. سرعان ما سيأتي، عاجلا جدا. أنا هادئ كليا، لم تفشل أبدا تلك الحبيبات الصغيرة.

وظهر في الأفق أمل أخير، في ربيع عام ١٩٤٢. كانت بيما قد كتبت إلى الزعيم، وبدأ المال يتدفق على ليف، كما بدأ العزل والحصار المحيط به يقل. استعاد ليف مذياعه، كما تمكن من بيع بعض المقالات لصالح الفكر الفاشيستي. وأرست بيما خيطاً من العلاقات بين ليف وصديقها «السيد إزرا» - إزرا باوند - الذي كان له صلات عديدة بالإذاعة الإيطالية. وفي رسالة منه إلى بيما في ديسمبر عام ١٩٤١، عن جهود باوند لإيجاد فرص عمل له بالإذاعة الإيطالية، بدا ليف مشوشا للغاية: «بالله عليك، من هو السيد إزرا[؟]. . . أتطلع بشغف عميق للعمل، ولكن إزرا نبي من أنبياء التوراة. فهناك «سفر عزرا»، أنا أحفظ التوراة بلغات ثلاث». كان ليف يعي أن لديه كثيراً من المشاكل في جعل الأمور تمضي في وضوح، وأبلغ بيما مازحا: «لا تكوني خائفة - ولكني أعتذر لأن أخبرك بكل الأشكال الرسمية أني قد فقدت رشدي».

كان خريف وشتاء عام ١٩٤١ على وجه التخصيص من أصعب الأوقات العصيبة. مستشرق زميل، لاجئ ألماني يعيش في بوزيتانو يدعى أرمين فيغنر، وهو عمليا يعد منافسا لليف وليس صديقا أصيلا، وصف ليف في مذكراته عن فترة صباه قائلا: «ذلك الشبح النحيل. . .[الذي] يدور وهو يعرج في أنحاء غرفته»؛ وأضاف: «مربية» ليف «لها وجه يشبه الوجوه الكاريكاتورية التي يرسمها دوميه، وجه غبي، وشرير، وجه قروي خبيث، تبدو عليه آيات الطمع، على الدوام تبدو وكأنها تحشر وتخفي أشياء في ملابسها». ذلك التقييم القاسي من فيغنر لليف في يومياته في سبتمبر ١٩٤٢ بعد موته قال فيه - «نموذج نمطي للكاتب المخادع»، «صحافي فيناوي يهودي» يفصح ويكشف أن المستشرق الألماني كان يعرف سره طول حياته. كان هناك حقدا خفيا

يبدو من تدويناته (كانت كتب ليف تباع أكثر من كتب فيغنر)، ولكنه يبدو أيضا كاختراق وتحليل مرتجل لحياة زملائه: «القصة الخرافية المرعبة لشاب يهودي مارق تعيس» - «رجل [يسعى] لأن يصنع من حياته قصة خرافية للهروب والفرار من واقعه المحزن». ولما عرف أن جميل قد صنع شاهد قبر جميل «للمسلم»، علق فيغنر بمرارة قائلا إن ليف: «استمر في ملهاته المضحكة حتى اللحظة الأخيرة من حياته».

لو كان إزرا باوند قد علم شيئا عن تلك «الملهاة» - أي أن المسلم كان في حقيقة الأمر يهوديا - كان بالتأكيد سيحجم عن مد يد المساعدة، ولكنه لم يعرف، ولكنه حاول، ونجحت محاولته. في يونيو ١٩٤٢ ، كان أسعد بيك مدعوا لتسجيل أحاديث دعائية بالفارسية لصالح إذاعة إدارة الخدمة الفاشيستية الاستعمارية. كانوا سيأتون لاصطحابه من بوزيتانو لروما في الأول من سبتمبر. كانت تلك هي السيارة الطويلة السوداء التي وصلت لبوزيتانو بعد أسبوع من موته، ليصطحبه أولئك الرجال ذوي القبعات عريضة الحافة. لم يأتوا لاصطحابه لمعسكر اعتقال كما اعتقد كثير من الناس. جاؤا ليصحبوه إلى ستوديو التسجيل بروما.

«بالتطلع للخلف الآن، أجد أن ما يهم هو التيقن من أن المصير والقدر كانا رحيمين بي. مد القدر يده مرتين لينقذني، وفي المرتين أدفع أنا بيد القدر بعيدا - فقد كان قدري مونيكا». في تدويناته الغريبة دائرية الحروف والخط، يسمي ليف زوجته «مونيكا» ويسمي نفسه «علي»، وكلما أعدت قراءة النص أسير التوجسات، كلما بدا معقولا في نظري أنه لم يتمكن من التخلص من ارتباطه بها. لم يكن ذلك يرجع إلى غيرة - لقد كان الارتباط قد مضى إلى ما هو أبعد من الغيرة. في أحد استطراداته المريرة في القص، خلق ليف فكرة أن

إيريكا هي التي رفضت الانتقال إلى الولايات المتحدة حين كانت الفرصة ما تزال سانحة لهما للخروج من أوروبا. وفي الحقيقة، كان ليف هو المتشكك في جدوى الانتقال وأدى ذلك إلى التعجيل بانفصالهما. كان الرجل الذي تركت إيريكا ليف من أجله، رينيه فولوب - ميللر، قد كتب كتابا عن هوليوود وكان يتحرق شوقا للانتقال إلى الولايات المتحدة. وفي رسائله إلى بيما، كانت توجد إشارات تفصح عما كان يحدث بالفعل.

كان ليف قد كتب إليها عن مغامراته في أرجاء آسيا وعن جمهورية فايمار، وعن شيكاغو وكالكوتا، وعن إيريكا وأتاتورك - عن الحب والسياسة والحرب وعن النشر والأفلام والمال. كان يمتعها بالسرد كما لو كانت شهرزاد، كما لو كانت حياته تعتمد على السرد، وقد كانت كذلك بالفعل. لم يجرؤ على كشف الحقيقة كلها عن نفسه لبيما، لأنه حتى لو تفهمت تلك الصديقة المنتمية لكبار الفاشيستيين، فإن الرقابة لن تتفهم ذلك؛ وبسبب الرقابة، كانا كأنهما يتراسلان بشيفرة مرحة.

الموضوع المحوري في تلك المراسلات كان يدور حول مصير المراسل، إن كان سيعيش ليكمل ويستمر في المراسلة، غير أن ذلك الموضوع أيضا تناولاه بالشيفرة. كان مهموما حول مصير «صديقنا المشترك قربان سعيد». كتب ليف في رسالة بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤٠:

> وعلى ذلك كتبت لصديقه الآخر... كتابة وبالبرق وبكل أنواع الاتصال (لامرئ مسموح له بإرسال برقيات) والتي قد تكلف مالا كثيرا، ولكن يمكنني الآن أن أحيطك بمعلومات أكثر تحديدا عن سعيد... هذا ما حدث: فصديقنا أنكرته زوجته! نعم، مثل تلك الأشياء تحدث. الإنكار لم يتضمن أي شيء لا يعرفه المسؤولون

الرسميون - أي أن سعيد، مع أفضل نواياه ومقاصده، غير قادر على استخراج شهادة مولد جديه لثبت أصله. لأن جديه ولدا من ٨٠ إلى ١٠٠ عام سابقة، وقدمت شهادات مولدهما في بلده البدائي البعيد والنائي من خمسين عاما مضت. من الواضح أنه ليس بإمكانه امتلاك أوراق لم توجد أصلا. ويعلم المسؤولون ذلك وبالتالي دعي الأمر يمر دون ضغط. الآن يوجد إنكار من زوجته، موقَّعاً ومتضمنا التاريخ والمكان.

التشكك في أن إيريكا قد أنكرته كيهودي كان صادقا فيزيقيا أكثر منه حرفيا. في رسائله، يحكي ليف قصة السيد بيرسي، وهو محام محقق شديد المراس يعمل لصالح زوجته السابقة، ويعتقد ليف أنه يسافر إلى جميع أنحاء أوروبا الفاشيستية ليكشف حقيقة ليف للسلطات ويعرض حياته للخطر. وكلما أصابت ليف مسحة من يأس، يستحضر سيرة مطارده الدؤوب بيرسي. «بيرسي؟ نعم، أنا أنساه أغلب الوقت»، كتب ذلك في منتصف حديث حماسي كئيب، في ١٥ يناير ١٩٤٢. «يمكنه بالطبع أن يؤذني، هذا سبب وجوده هناك! ولكن يهودي - هذا غير منطقي وغير معقول!! يمكنني إثبات عكس ذلك بكل سهولة». ومن غير المفهوم على وجه التقريب لماذا سيطرت عليه فكرة أن إيريكا ترسل بشخص ما إلى أوروبا ليتهم ليف بأنه يهودي - وعلى أي حال، بحلول عام ١٩٤٢ لم تكن هناك حاجه لرجل مباحث أميركي أن يقترف ذلك. يظهر الاتهام على وجه التقريب في كل تواصل عنه من النازي الألماني إلى موسوليني إيطاليا من عام ١٩٣٩ وما يليه، ويبدو أن ليف فهم ذلك. مدركا أنه أضاع آخر فرصة له للنجاة والفرار، وأن عليه أن يحيا في أوروبا الفاشيستية بمساعدة من الفاشيستيين، أضاف ذلك هموما تضاف إلى همومه المرتبطة بإلقاء اللوم في كل ما يحدث له على زوجته السابقة وعلى الأميركي.

هناك أيضا أسباب نفسية في ربط ليف الذهني بين كارثتي زواجه ومشكلة أصله العرقي، ففي ربيع عام ١٩٣٥ تلقى خلال شهر خبرين دمرا حياته: اتحاد الكتاب الألماني ألغى عضويته ومنع من الكتابة في ألمانيا، وإيريكا تبادر بهجره وتعاشر رجلا آخر. كانت تصريحات إيريكا العلنية التي قالت فيها: («عرفت أنه لم يكن سوى ليو نوسيمباوم عادي») كان لها صدى النكته في الصحافة الأمريكية، وحفنة السطور الحقيقية كانت عن «جانبه الإسلامي» المفترض: عن كيف هددها بأن يكون له حريم، وروايته لحكايات مرعبة ومفزعة تثير خوفها ورعبها، ومحاولته خنقها ثم انهياره على الأرض. ولكن من الصعب ألا تكون إيريكا مدركة أنه بالنسبة لليف، الذي يعيش في قلب أوروبا الفاشيستية، فإن مثل تلك التصريحات يتردد صداها عبر البحار بآثار مغايرة ومختلفة كليا. لقد وصلت تلك التصريحات إلى الملفات، وتقارير وملفات الشرطة، وسجلت لدى الناشرين. لم يعد بالطبع أي من تلك التصريحات سرا - وفي هذا الشأن، كيف يمكن لإيريكا أن تدعي أنها لم يكن لديها فكرة عن أصول ليف في الوقت الذي تزوجا فيه في عام ١٩٣٢؟ لقد كانت سكرتيرته رغم ذلك، خلال وقت كانت فيه فضيحة هويته اليهودية ما زالت مثارة.

لكن ليف كان ينتعش ويزدهر في اختبائه في سهل مكشوف للأبصار. كل جوهر ومكنون سره أنه لم يكن هناك في حقيقة الأمر أية أسرار. كانت شائعة من الشائعات، جزءاً من جوهره الخفي، ودعمه أصدقاؤه وزملاؤه في توجهاته الساخرة. كان الأمر يتعلق بتمرسه على الخشونة، وابتسامته الغامضة الملغزة في مواجهة الإهانات. كان نوعاً من التحدي والمواجهة يحمل شيئا من الجنون، غير أن الجرأة التي لديه هي التي أعانته على الاستمرار. في هذا الصدد، كان فيغنر صائبا

- فقد كان ليف يسعى إلى تحويل «الواقع المحزن» إلى حكايات خيالية - ربما كانت هويته الإسلامية مجرد شكل من أشكال استيعاب وامتصاص الواقع. أو ربما كانت شيئا أكثر عمقا. كانت طريقة ليف في إبلاغ العالم - وذاته أيضا - أنه لا يمكن سجنه في قفص المعاصرة البربري. لا يستطيع العالم سجنه طالما ظل بخياله أن العالم لا يستطيع ذلك.

كانت قوة اتهامات إيريكا في الصحافة تكمن في أن الصحافة أزالت كل الأقنعة في التو: فلم يكن ليف غير مسلم فقط بل وليس أميراً (على الرغم من أنه لم يقل أبدا إنه كان أميراً، أما كلمة «التأمير» فلابد أنها كانت مزحة)، ولم يكن من كبار الشيوخ العرب أصحاب الغراميات ولم يلبس الزي الخاص به ليبدو كذلك، كما لم يعد حبيبها ولا عشيقها على الإطلاق. لم يكن هناك لغز ولا سر قد ترك لزوجها حين تزوجا. في أميركا، تحولت قصص أسعد بيك الساحرة والسحرية، والتي كانت قد كتبت ونشرت على صفحات الصحف المحترمة ذات السمعة الجيدة، قد أصبحت الآن قصصاً تشوه سمعته في صحف التابلويد الشعبية، وبعد أن كرر المراسلون الصحافيون الأخبار المثيرة، أصبحوا بعدها يضيفون كما فعلت مجلة «صنداي ميرور» في يناير ١٩٣٨: «إيريكا تصرح بنسخة معدلة قليلا عن بدايات أسد، قائلة إنه ولد كليو نوسيمباوم عادي؛ وأن أمه انتحرت أثناء الثورة الحمراء، وأنه فر مع نوسيمباوم الأب إلى تركيا، حيث اعتنقا سويا الديانة المحمدية. وقالت باحتقار إن لقب بيك كان لقبا وراثيا ليس بإمكان أسعد أن يدعيه». ولد لبو نوسيمباوم رجلا عاديا. والصحافة أصبحت تعرف سر أمه أيضا، السيدة التي لا يجرؤ أحد في عائلته على مجرد ذكر اسمها وأنه حكى لزوجته عن ذلك فقط وهو في

حال من الثقة العميقة بها. لذلك لم يكن غريبا أنه أثار حيرة مضطهديه بسبب زوجته السابقة، ففي عمق اختلافهما وانفصالهما، كانت قد كشفت عنه كل شيء كما لم يفعل أي عمل للغيستابو من قبل.

كانت أليس قد رعته وأعادته إلى حالة صحية مقبولة بعد الفترة التي قضاها في المصحة، وكان قد كتب كتابه المشترك مع فون فايزل ثم روايات موقعة باسم قربان سعيد كنوع من العلاج النفسي. واستقر مجددا على مقهاه الجديد وثقافة القلعة، متنقلا ما بين شلوس إرنفلز ومقهى هيرنهوف، وبدأت مشاعره في التحسن تجاه الحياة. ولكنه الآن يواجه المرض والفقر والقوانين العرقية العنصرية في إيطاليا ومطاردات بيرسي محامي زوجته وأخبار أبيه التي لم تكن جيدة.

«لا تخافي - ولكني آسف لأن أخبرك بكل شكل رسمي أنني قد فقدت رشدي».

في نهاية المطاف، كان كل من ليف وأبيه قد أصبحا محاصرين. دفاتره الأخيرة تسجل جزئيا محاولته لفهم كيف حدث كل ذلك، كيف ساقه قدره لهذا المكان. فكر في الأحداث السابقة مرات بعد مرات وعن «الفرصة» التي كانت في متناوله في البقاء بأميركا - والمحاولات المضنية التي بذلها نسيبه المليونير لإقناعه بالبقاء في أميركا، وجهود صديقه فيريك الأميركي، وعرض معهد الاستشراق في الولايات المتحدة:

فكرة واحدة ظلت تقض مضجعي وتضايقني: لماذا بحق الله لم أقبل ذلك العرض؟... لم أجد إجابة؛ فقط لم أتمكن من فهم ذلك الأمر. كان الأمر كما لو كانت هناك قوة خفية قد أخضعتني لسحرها. لم تكن الظروف الأحسن ولا العمل الأفضل. ولكن رغم كل شيء كان هناك خوف لا يمكن فهمه يزحف على كل

فكري عند التفكير بأني سأبقى في أميركا للأبد. لا يوجد تفسير عقلي لما حدث، كان شعور غير منطقي دفع بي لحافة الهاوية، واحدة من تلك اللحظات التي يقوم فيها المرء بنفسه باتخاذ قرار يغير كل مسار حياته. إنه القدر.

كل شيء كان ممكنا بالنسبة لليف في عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥. كان كاتبا عالميا شهيرا وله أصدقاء في مراكز عليا. كان كل شيء ممكنا، حتى الاستسلام بالذهاب لأميركا كان في متناوله، «أن يستقر في حياة من الدعة والخمول والرسائل والتقدم بطلب للحصول على الجنسية الأمريكية» كما قال صحافي الهيرالد تريبيون. ولكنه لم يكن أي كاتب يهودي لاجئ. كان أسعد بيك. (يكره المشاكل، ولكنه مستعد لكل الاحتمالات). في نهاية المطاف لم يلق ليف باللوم على زوجته السابقة، بقدر ما لم يتمكن من التوقف عن التفكير بها على الدوام. كان يعرف أن مصدر مشاكله يمتد إلى أعمق من ذلك كثيرا.

في فقرة فرعية قرب نهاية النص الذي كتبه بيده، كتب: «مؤلف هذا النص ميت. مات ضحية حادث طائرة وقع حين حاول أن يعبر الحاجز الواطئ الذى يفصل أوروبا الجنوبية عن آسيا». ثم خرج بالنص بعيدا عن ذلك السياق.

حين التقيت بها في فيينا، كانت السيدة موغله قد أخبرتني أن بعد مغادرة ليف للنمسا التقت بأبراهام نوسيمباوم عدة مرات وحاولت مساعدته.

«نوسيمباوم الكبير، نعم، أبو أسعد؛ حين رآني، قال إنني نازية، وكما ترى لي مثل ذلك الشعر الفضي الأشقر، الأشقر البلاتيني، تعلم ذلك، غير أن كاميللا، التي كانت سكرتيرتي، قالت له «أنها هنا لتساعدك» ولكن نوسيمباوم الكبير ظل يخشاني».

قالت إن أبراهام كان قد تحدث إليها عن تمويله لستالين في بداية نشاطه السياسي عن طريق رشوته كما حدثها عن الملايين التي يملكها في باكو، ووصفت لي كيف ظل محافظا على ارتداء الملابس الأنيقة والبدلات الغالية وكيف كان يستأجر خادما ليلمع حذائه حتى النهاية، حتى أفلس تماما ولم يعد يملك شيئا، وأخيرا جاءوا لاعتقاله. «ذهبت كاميلا للاطمئنان عليه - وكنت أنتظر أسفل المبنى في سيارة - ثم عادت وأخبرتني أن نوسيمباوم قد تم ترحيله إلى مودليبورجيتسه، ولكن أين توجد؟ كيف لي أن أعرف أين توجد مودليبورجيتسه؟». (وطبقا لسجلات المجتمع اليهودي في فيينا، تم نقل أبراهام وأبعد إلى بولندا في ٥ مارس ١٩٤١ والأقرب للاحتمال أنه قتل بعد ذلك بفترة قصيرة في تريبلينكا). «لم تصلنا منه أي رسائل. ولا أي شيء».

قالت إنه قبل اختفاء أبراهام، ظل يرجوها أن تذهب إلى بوزيتانو لرؤية ليف. وأرتني أربعة جوازات سفر مستقلة عن بعضها - كلها تبدو قانونية وكلها تحمل شهادة تثبت أنها آرية العرق - كانت تحتاجها للتجول في أوروبا في تلك الأيام، وقالت: «كان من الصعب جدا الوصول من فيينا إلى بوزيتانو في ذلك الوقت، بسبب الحرب المشتعلة في كل أنحاء أوروبا، ولكن حين أبذل وعدا، فعلي أن أفي، ولذلك ذهبت». قضت أسبوعين مع ليف. قالت السيدة موغله: «لم يكن يصرخ من الألم، بل كان يعوي كحيوان جريح - يعوي، وهو عويل لا يمكن لك أن تتخيله».

بعد أن أعطتني دفاتر فراش الموت لأقرأها، قضيت أسابيع لأفض مغاليق سطورها الدقيقة التي تموج بالألم. ومع تقدمي في النص، كانت كتابته المنمنمة المتداخلة على شكل دوائر وقصصه قد تكثفا معا والتحما؛ وجدت نفسي أنزلق إلى دور الناقد البليد لكتاب «الأسرار

الاثني عشر للقوقاز»، من زمن طويل مضى، محاولا العثور على موقع «خيفسوريا» على الخريطة. كان انهيار المؤلف ودماره مثيرا بقدر ما كان صعوده ونجاحه، وأدركت ما كان عليه ذلك النحو من الإجبار بالنسبة لليف: لقد آمن أنه قادر على شق طريقه للدخول والخروج من أي شيء - حتى وهو يأوي إلى غرفة صغيرة يراقب جسده وهو يتحلل، ظل يقاوم وهو يحاول إدماج شخص إضافي آخر داخل غيره، مثل الصناديق الصينية الحية. في الدفتر الأخير من دفاتر الموت، وضع مقدمة للعمل، وفيها ركب إطارا تخيليا للموضوع - عن باحث غامض لم يود الإفصاح عن اسمه. وهو يصف اللقاء وما ترتب عليه من صداقة مع هذا العالمي الذي أشار إليه باسم دكتور «إكس»، والذي اختفى كل أثر قد يقود إليه بعد بضعة أعوام، تلاشى فجأة.

«توقفت بطاقاته البريدية عن الورود، ولم يعد ينشر له شيء في الصحف البحثية المتخصصة. بدا وكأنه قد فقد وضاع؛ بالفعل اختفى... كيف يمكن تخيل مدى دهشتي الشديدة حين تلقيت بالبريد من عدة أشهر دفترا سميكا يحتوى على موضوع كما يلي هنا». ولكنه يضيف، مشيرا إلى القصة الحزينة لدكتور «إكس»، «تولد لدي انطباع فوري أن السبب الحقيقي لكل تلك الحوادث غير المتوقعة وكل سوء الحظ ظل لغزا ليس لي فقط، ولكن للمؤلف ذاته أيضا، وأن ذلك السبب لابد من البحث عنه في مكان ما خارج الأحداث التي تقع هنا».

وبالفعل، بالنسبة لليف، كان السبب يكمن خارج أحداث الحكاية. في لحظات في تلك الدفاتر، يصبح مجنونا لأن رسائل والده توقفت عن الورود، ولكنه يمتنع دائما عن مواجهة السبب في حدوث ذلك. النص يختتم برسالة نهائية من دكتور «إكس»، وعلى

المغلف عنوان المرسل: «مكة»، وفيه يصف حياته الجديدة في مملكة عربية تقبله كإنسان حقيقي، كمستشرق شرقي، وأسسوا له قصرا فكريا محاطاً بالتوافق والتاغم والحب الأخوي الخالص. غير أنه في آخر جملة في الدفاتر، يرجع ليف نوسيمباوم إلى أعمق تنكراته في عالم تركه دون مستمعين ولا حضور في أكثر قصصه إزعاجا وكدرا وتشوشا، فكتب:

أشعر أنه ليس لدي ما أضيفه لتلك السطور.

قربان سعيد

المحتويات

القسم الثالث